لجنة الدراسات الأدبية

الروائع من الأدب العربي

الجزء الخامس

(القرن الرابع الهجرى)

إشراف الدكتور :

الطاهر أحمد مكى

المجلس الأعلى للثقافة
١٩٩٧م

المجلس الأعلى للثقافة
لجنة الدراسات الأدبية

الروائع من الأدب العربي

الجزء الخامس
(القرن الرابع الهجرى)

إشراف الدكتور : **الطاهر أحمد مكي**



الإشراف الفنى والغلاف : **محمود القاضى**

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء الخامس من مجموعة « الروائع من الأدب العربى » التى تقدمها لجنة الدراسات الأدبية واللغـوية بالمجلس الأعلى للثقـافة ، إلى المجتـمع العربى على امتـداده ، وتعدد أقطاره ؛ إسهامـاً منها فى الربط بين أبنائه ، أيان كانوا ، عن طريق الثقافـة والذوق والوجدان، حتى تجىء حركـتهم فى الحـياة مـتقاربة ، وردود أفـعالهم إزاء الأحـداث متشـابهة ، ويصـبح الإلف بينهم ميسوراً، فليس كـالأدب ، شعراً ونثراً ، إذا أحسن اختيـاره ، وحسنت قراءته ، فى توثيق عرى الألفة والمودة بين أبناء الوطن الواحد .

يضم هذا المجلد نماذج من نتـاج العصر الذى بلغت فـيه الحضـارة الإسلاميـة ذروتها ، فى الأدب والعلوم والفنون ، فيه بدأ النثر يـرق ، ومال الشعراء إلى أن يبعثوا فى النفوس مـا يرفعها إلى آفاق الحياة السـامية والقوية ، وأخذ الأدب يكشف ما يحيـط بالإنسان فى حاضره ، ويلذ له تأمل ما حوله من حيـاة متشعبة ، فـانتبهوا إلى أخلاق العامة ، ووصـفـوا حيـاة المدن ، ومالـوا إلى ماهو غير مألوف من المعانى ، ويمكن القول إن الشعر قام مقام الفن التصويرى ؛ فالشـاعـر ، أو الناثر ، يصور ويرسم ما تجيش به نفسه ، ويبرزه فى صور من الألفاظ .

وفى هذه الفتـرة اتصل العرب بشعـوب أخرى ، ذات حضارات سـابقة عريقـة ، وتختلف عنهم اختلافاً بينا ، وكـان لهذه الشعوب فنون غير الفنون التى تتخـذ الكلمة وسيلة ، فلمّا غلب عليهم العـرب علّموهم الكلام لا التصوير ووضـعوا فى أيديهم القلم بدل ريشة الرسـام المصور، ولما تمكنت هذه الشعوب من العربية ، واصبحت هذه أداتها فى التعبير ، نطق الشعر التصويرى ، وتنوعت أغراضه ، وبلغ القمة سموا فى صعوده ، وسخفا فى انحطاطه .

النصوص التى يضمها هذا المجلد من اختيار اللجنة التى سبقت ، واقتصر دور اللجنة الحالية على المراجعة ، وكلتا اللجنتين ، الحالية والتى سبقت ، يحكمهما الهدف العام الذى قصد إليه المشروع من سلسلة « الروائع » ، وهو أن تكون المختارات ، شعراً أو نثراً ، معبرة عن أفضل ما أنتجه أصحابها من جهة ، وعن العصر الذى أفرزها من جانب آخر .

كان وراء اختيار النصوص قواعد عامة راعتها اللجنة ، واتخذتها أساسا لعملها ، انتقاء ومراجعة ، وهى :

● ألاّ تقحم اللجنة ذوقها العصرى الخاص فى اختيار ما أوردت من نصوص ، وإنما راعت أن تكون هذه النصوص ممثلة لذوق عصرها .

● أنها تورد النص المختار كاملاً ، كما ورد فى المصادر الموثقة ، لا تحذف منه ، ولا تجتزئ ، وقد يكون فى أجزاء منه ما لا يرقى إلى مستوى الاختيار ، أو ما لاترتضيه أذواقنا الشخصية أو المعاصرة ؛ لأنها رأت أن نشر النصوص كاملة أهدى إلى قيمتها الفنية ؛ إيمانا منها بوحدة العمل الفنى وتكامله .

● أنها لاتفرض فهمها أو تفسيرها على المتلقى ، وتركت له النص يقرؤه ويتفاعل معه ، ومن ثم فهى لاتقدم للنصوص شروحا إضافية ، ولا تثقلها بتعليقات مطولة ، ولاتحصر حركة القارئ بتقييم فنى محدد ، وإنما اقتصرت على تعريف موجز بصاحب النص ، وشرح ما هو ضرورى من غريب المفردات ؛ تيسيرا للقراءة فحسب .

وتود اللجنة أن تذكر أن سلسلة « الروائع » لا تستهدف تقديم سلسلة فى تاريخ الأدب العربى ، وإن كانت النصوص المختارة تمثل هذا التاريخ فى خطوطه العامة ، وتكشف عن اتجاهاته الأساسية ، وتعكس اهتمامات المبدع والمتلقى فى هذا العصر ، ولهذا راعت أن يجىء ترتيب النصوص زمنيا ، مما يشى على نحو ، أو بآخر ، بحركة تطور الأدب فى تلك الفترة، ما بين ٣٢٥ هـ - ٤٢٥ هـ ، مهما بدا ذلك من خلال النصوص هادئاً ، أو غير منظور .

قلت : إن اللجنة السابقة تفضلت بالاختيار ، وتولت اللجنة الجديدة المراجعة ، فى ضوء القواعد المقررة ، التى ارتضتها لجان المجلس فى الأجزاء السابقة ، فالعمل مشترك بينهم، وجهدهم مقدر ، والشكر واجب لهم جميعاً ، وتأمل اللجنة أن يحقق هذا العمل الهدف المرجو منه ، وتنتهز الفرصة لتشكر كل من أعانها على إنجازه ، وأسهم فى إخراجه ، إعداداً وطباعة من العاملين فى المجلس الأعلى للثقافة ، وتخص بالشكر السيدة عائشة عبد الرحمن، أمينة لجنة الدراسات الأدبية واللغوية على الجهد الذى بذلته فى التنسيق والمتابعة .

د. الطاهر أحمد مكى

مقرر لجنة الدراسات الأدبية واللغوية

القسم الأول

الشعر

مهلهل بن يموت

(ت ٣٣٢ هـ)

هو مهلهل بن يَمُوت بن الـمُزَرَّع بن يموت أبو نضلة العبدى ووالده يموت ابن أخت أبي عثمان الجاحظ توفي بعد ٣٣٢ هـ ، وكان مهلهل وأبوه وجده رواة للشعر أخباريين . وقد اهتمت كتب الأدب والسير بيموت أكثر من اهتمامها بولده مهلهل حتى إننا لا نجد عنه إلا اليسير . وفي تاريخ بغداد خبر عن مهلهل حدث سنة ست وعشرين وثلاثمائة في مجلس أبي بكر الصولي ، وواضح أنه كان في ذلك الوقت شاعرا معروفا وراوية مشهورا . وكتب المسعودى في « مروج الذهب » يقول عن مهلهل : (هو من شعراء هذا الزمان وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة) ، وذكر النويرى أن مهلهل بن يموت رثى الإخشيد عند وفاته ومدح ابنه أونوجور فإذا كان الإخشيد قد توفي سنة ٣٣٤ هـ ، فيمكن القول بأن مهلهل بن يموت توفي حوالى منتصف القرن الرابع . وواضح أنه قدم مصر ولعله استوطنها أو ربما كان يفد إليها فحسب مثل أبيه . وتكاد تجمع المصادر على أنه كان شاعرا مجيدا ويقول الشابشتي عنه في الديارات : (من المطبوعين في الشعر والمنهمكين في الخلاعة واللعب والتطرح في مواطن اللهو والطرب . ملازما للحانات والديارات) ويذكر الخطيب البغدادى أن إبراهيم بن محمد المعروف بتوزون كتب عنه شعره أو بعضه، ويبدو أن هذه المجموعة قد ضاعت فيما ضاع من تراثنا العربي ، ولم يبق من شعر مهلهل إلا ما أثبتته بعض المصادر مثل الديارات ومسالك الأبصار ومعجم البلدان .

خمر وندمان (١)

نَهَضْتُ إلى الطُّورِ (٢) فى فتْيَةٍ سِراعِ النُّهوضِ إلى ما أُحِبْ
كَهَمِّكَ من فِتْيَةٍ أنْفَقُوا تِلادَهُم فى سَبِيلِ الطَّرَبْ
كِرامِ الجُدودِ، حِسانِ الوُجوهِ كُهولِ العُقولِ شَبابِ اللَّعِبْ
فأَىُّ زَمانٍ بِهِمْ لم يَسُرَّ وأىُّ مكانٍ بِهِمْ لَمْ يَطِبْ
أَنَخْتُ الرِّكابَ على دَيْرِهِ وقَضَّيْتُ من حَقِّهِ ما يَجِبْ
وأَنْزَلْتُهم وَسْطَ أعْنابِهِ أُسَقِّيهِمُ مِنْ عَصِيرِ العِنَبْ
وأَحْضَرْتُهُمْ قَمَراً مُشْرِقاً تَمِيلُ الغُصونُ بِهِ فى الكُثُبْ
نَحُثُّ الكُئُوسَ بِأَهْزاجِهِ ومَزْمُومِ (٣) أَرْمالِهِ بالعَجَبْ
وما بَيْنَ ذلكَ حَدِيثٌ يَرُوقُ وخَوْضٌ لَهُمْ فى فُنونِ الأَدَبْ
فما شِئْتَ مِنْ مَثَلٍ سائرٍ ومِنْ خَبَرٍ نادِرٍ مُنْتَخَبْ
فَيا طِيبَ ذا العَيْشِ لَوْلَمْ يَزَلْ ويا حُسْنَ ذا السَّعْدِ لَوْلَمْ يَغِبْ

خمر وزهر (٤)

لِجُنونِ الهَوى وهَبْتُ جَنانِي فَدَعانِي يا أَيُّها العاذِلانِ
طَرَبِي زائِدٌ فَفِي حَرَجٍ مَنْ لامَنِي فِي خَلاعَةٍ أو نَهانِي
قَدْ أَبانَتْ لِيَ الرِّياضُ مِنَ الزَّهْرِ غَرِيبَ الصُّنوفِ والأَلْوانِ

---

(١) الديارات : ١٣٢ ، المسالك : ٣٣٧ ، ٣٣٨ معجم البلدان : ٢ : ٦٧٥ .
(٢) دير فيما بين طبرية واللجون .
(٣) فى المسالك : ومرسوم .
(٤) المسالك : ٣٣٨ (ماعدا بعض الأبيات) ، الديارات : ١٣٣ .

وَبَدَا النَّرْجس المُفَتَّحُ يَرْنُو مِنْ جُفون الكَافُورِ بالزَّعْفَرانِ
كَعُيونٍ قَدْ حَدَّقَتْ باهتات ناظراتٍ إلى وجُوهِ حِسَانِ
يَتَثَنّى زَبَرْجَدٌ والقُضْبُ منْهُ طَرِبًا للُّجَيْنِ والعِقْيَانِ
وَقَفَ الطَلُّ فى المَحاجِر منْها ثمَّ مَاسَت فانهلَّ مِثْلَ الجُمانِ
ياغُلامُ اسْقِنِي فَقَدْ ضَحِكَ الوقتُ وَقَدْ تمَّ طِيبُ هذا الزمانِ
أَدْنِ منِّى الدِّنانَ ، صُفَّ الأباريقَ ، اسْتَحِثَّ الكُئوسَ ، صُفَّ القنانى
بَادِرِ الوَقْتَ واغْتَنِم فُرَصَ العَيْشِ ، ولاتَكْذِبَنْ فالعُمْرُ فانى

زمان الرياض[1]

زَمَانُ الرِّياضِ زمانٌ أَنِيقْ وعَيْشُ الْخَلاعَةِ عيشٌ رَقيقْ
وقد جَمَعَ الوَقْتُ حَالَيْهما فَمَن ذا يُفيق ومَنْ يَستَفيقْ
أيا مَنْ هو السُّؤْلُ لى والمُنى وَمنْ هُوَ بالحبِّ منّى حَقيقْ
أَدِرْ لَحْظَ عَيْنِكَ أُمْرِحهُ فى مُروجِ الرِّياضِ فَكُلٌّ يَرُوقْ
فَقَاعٌ نَثِيرٌ ومَاءٌ نَميرٌ وروضٌ نضيرٌ وزهْرٌ أَنيقْ
له نُسَخٌ حُرِّرَتْ فاسْتَنَارَتْ فَخَطٌّ جَليلٌ ومَعنًى دَقيقْ
يُضاحِكُ وجهَكَ وجْهُ عَشيقٍ ويَلْقَى مَشَمُّكَ مسكَ فَتيقْ
إذا ضَاحَكَ الزَّهْرَ زَهْرُ الرِّياضِ فكَيفَ الخَلاصُ وأَيْنَ الطَّريقْ

(١) الديارات : ١٣٤ ، المسالك : ٣٣٨ (ماعدا أكثر أبيات) .

بهارٌ بَهَرْتَ(١) به غَيرَهُ على نَرْجسٍ وشَقيقٍ شَفيقْ
فَذَا عَاشقٌ وَجِلٌ خائفٌ وذا خَجِلٌ وكَذاكَ العَشيقْ
تَروقُكَ منهُ عُيونٌ تَروقُ بألحاظِها وخدودٌ تَشُوقْ
مَداهِنُ يَحْمِلنَ طَلَّ النَّدى فَهاتيكَ تِبرٌ وهذى عَقيقْ
تَضَمَّنُ أوراقُها دُرَّهُ ويَنثُرُ منه الَّذى لا يُطيقْ
يَميلُ النَّسيمُ بأغْصانِها فَبَعْضٌ نَشَاوَى وبعضٌ مُفيقْ
فَبادِرْ بنا حادثاتِ الزَّمانِ فَوَجْهُ الحوادثِ وَجهٌ صَفيقْ

---

(١) فى المسالك : بهير.

الصنوبرى (ت ٣٣٤ هـ)

هو أحمد بن محمد بن الحسنى بن مرّار الضبى (أبو بكر) ويعرف بالصنوبرى . ولد بأنطاكية سنة ٢٧٥ هـ ، وتنقل بين حلب ودمشق ، وكان من معدودى الشعراء فى بلاط سيف الدولة ، وفى الوافى بالوفيات أن جده الحسن « كان صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون فتكلم بين يديه فأعجبه شكله ومزاحه فقال : إنك لصنوبرى الشّكل ، فلزمه هذا اللقب » . وكانت وفاته سنة ٣٣٤ .

ويضيف الصفدى أيضا أن الصنوبرى « له ديوان مشهور ، وفيه مراثٍ جيدة فى الحسين رضى الله عنه » إلا أن غالبية شعره فى وصف الرياض والأزهار ، وهذا الديوان كان الصولى جمعه فى نحو مائتى ورقة ، ولإحسان عباس تحقيق لشعر الصنوبرى (بيروت ١٩٧٠) وهناك مستدرك عنه – من صنعة لطفى الصقال ودرية الخطيب – يحمل عنوان « تتمة ديوان الصنوبرى » (حلب ، ١٩٧١) .

وانظر عنه :

فوات الوفيات جـ ١ ص ١٢٢ ، وياقوت : معجم الأدباء ١٦٦/٤ ، والزركلى فى « الأعلام » الخ ، وجمع راغب الطباخ بعض شعره فى مجموع سماه « الروضيات » .

قال في الزهد :

أَستغفرُ اللهَ كم ذا الجهلُ والسَّرَفُ ... أَستغفرُ اللهَ كم ذا الخُرْقُ والعُنُفُ

يدعو إلى الجهل داعينا فنتبعُهُ ... يمضي على الجهل ماضينا ولا يَقِفُ

كيف امترائى أخلافَ السرور وقد ... رأيتَ رُسْلَ المنايا كيف تختلف(١)

في كُلّ يومٍ لها جيشٌ يُروِّعُنا ... بشنِّ غارته فينا وينصرف

عندي مواعظُ لو أنّي اتَّعظتُ بها ... مضى وأسلَفَنيها إذ مضى السَّلَف

لأدعونَّ بوالهفي ويا أسفي ... إن كان يُجدي على اللهفِ والأسف

هي القلوبُ قد اسودّت وحقَّ لها ... من الذنوب التي اسودَّت لها الصحف

متى النزوعُ فحسبي ما جَنيتُ وما ... قد اقترفتُ فكم أجني وأقترف

يا ويحَ نفسي أَغَرَّتْها سلامَتُها ... إن السلامةَ مقرونٌ بها التلف

بئس الثراءُ ثراءً خَلْفَهُ عَدَمٌ ... بئس الشبابُ شباباً خَلْفَهُ خَرَفُ

يا خائفاً ليس تثنيه مخافته ... وعارفاً وهو في ذا ليس يَعْتَرِف

لا سيرَ إلا بزادٍ يُسْتَعانُ به ... فاستأنفِ الزادَ إن الزّادَ مُؤتَنَف

وقال في الغزل :

أبدى الغواني الصدَّ والإعراضا ... لمّا رأيْنَ بعارضَيكَ بياضا

وَغَضَضنَ عنك جُفُونهنّ وربّما ... قلّبن أحداقاً إليك مِراضا

هجم المشيبُ فما له من رجعةٍ ... فأتى على ماء الشباب فغاضا

وانقاد طوعاً للنُّهى ولربّما ... أعيتْ غوايةُ جَهله الرُّوَّاضا

ورمَتْهُ عن قوس الخطوب حوادثٌ ... تركتْ صِعابَ مطيّه أَنقاضا(٢)

نَقَضَ المشيبُ قوى الشباب ولم يزل ... شَيْبُ الفتى لشبابه نَقّاضا(٣)

---

(١) امترى : حلب ؛ أخلاف : ضروع .

(٢) الأنقاض : جمع نقض ، وهو البعير الذى أهزله السفر .

(٣) نقض : هدم وأفسد .

لا بأسَ أن نشـرَ المشـيبُ قناعَـه	إنَّ الجـواهرَ تَقْـبلُ الأعـراضـا
أتعَبتَ فكركَ فيـه لـمَّا أتْعَبتْ	كـفَّـاكَ في جنبَـاته المقـراضـا
يا صاحِ ما في الشيبِ من عهد الصِّبا	عـوَضٌ لهُ أُضـحي به مـعتـاضـا
قمْ فاغتنمْ شَرْخَ الشباب وعاطني	بكراً ترى لشـعـاعـهـا إيماضـا
تركَ المزاجُ على تورُّدِ خَـدِّها	من مستديراتِ الحباب عراضا(١)
ولهـا دبيبٌ ما جرى في مفصلٍ	إلا شَفَى الأسقامَ والأمراضـا
في روضةٍ كَستَ السماءُ ربوعَها	حُللاً من النبتِ البهيِّ عـراضـا
ألفَتْ مآلفـهـا فأحدَق حولها	ورَقُ الربيعِ حـدائقـاً ورياضـا
وَسَرَتْ سواري المُزْنِ في جَنَباتها	فَسَقَتْ بقـاعاً حولها وَغياضـا
مـا للبخـيلة لا تجـودُ لعـاشقٍ	قـد أوردَتْه من الحمـامِ حـيـاضـا
وَقَدَتْ عليه بأسْهُمٍ منْ طَرفها	جـعلَتْ مقـاتلَه لهـا أغـراضـا
خُضْ في بحـارِ الحبِّ إنَّ أخا الهوى	مَنْ في بحارِ الحبِّ - وَيْحَكَ - خاضا
كم رُضْتُ قلبي في الهوى فوجَدتُه	في كلِّ حـالاتِ الهـوى مُرْتَاضـا
ما إن دعا الشوقُ الجفونَ إلى البكا	إلاَّ تحـدَّر مـاؤها بل فـاضـا

وقال في الأدب:

أإنْ عـزمَ الخليطُ على وداعِ	دعـاك إلى مهمِّ الشـوقِ داعي
أعاذلتي أطَلْتِ اللومَ جهلاً	ومـا ذو الجهل فينا بالمطاعِ
أراهمْ أزمعـوا بيناً ومَن ذا	يُـطيقُ تجلُّداً عند الوداعِ
سلي ما يستطاع ولا تجنِّي	إذا ما شئتِ يوماً أن تطاعي

---

(١) العراض: الوسم في صورة خط .

أَبى لى نقضَ ذاكَ العـــهـــد أنى ... إذا مـــا شـــئت يومـــاً أن تطاعى
تـنـازعنى الـسُّلُوّ وكــيـف يَسْلو ... لعـــهـــد الخلِّ إن لم يرعَ راعى
وهل عَـجبٌ تَقَطُّعُ قلبِ صَبٍّ ... رَمَـــتْـــهُ يـدُ الليــالى بانقطاع
أضـاعَ الحــزمَ مَن أمـسى مطيـعـاً ... طوالَ الدهر ذا حــزمٍ مــضـــاع
رأيـتُ الدهرَ يهـــدُّ مــــا بناه ... له الآباءُ من شَـــرفِ المســـاعى
وذاك لأن سُمَّ الجــهــد أمــضى ... شـبـاً فى الجسم من سُمِّ الأفـاعى
فـأكـثـرْ مـا استطعتَ الحلمَ ، إنى ... رأيتُ الحلمَ من كَــرمِ الطِّبــاع
ولا تعـــجلْ إذا حـــاولتَ أمـــراً ... تنلْ مـــا رُمْتَ من غـيـــرِ امْـتناع
ومـــا لم تَسْـتَطِعْـهُ فَـعَـدَّ عنـه ... وأوْضعْ فى ســبـــيلِ المســتطاع
فـرزقُكَ سـوف تُدْرِكُـهُ جـمـيـعـاً ... ولو أَضْـــحَى(٢) بأفـــواه السِّبـــاع
لســانُكَ فليكنْ فى الحقِّ أمْـضَى ... من الصِّمـصـام فِى كفِّ الشُّجـاع
وَحِــفْظُ اللَّـفظِ للإنســانِ زينٌ ... إذا مـــا زانه حُـسْنُ اســتـمـــاع
فكم من ســـامعٍ علمـــاً يَعـيــه ... ومن مُـصْغٍ إليـــه غـيـــر واعى
مُصَاحَبَـةُ السَّفـيـه الحرَّ غَبْنٌ ... ولـو كـــال اللجينَ له بصـــاع
فـلا تتـبعْ أخـا سَـفَـهٍ وَدَعْـهُ ... وكنْ للحـــرِّ دَهْرَكَ ذا اتبـــاع
رأيتُ العُـرْفَ شـيـئـاً كـانَ حـيًّـا ... فـأصـبح قـد نعـاهُ اليـومَ ناعى

وقال يرثى ابنته:

لقـد غـمـز الدهرُ العَسُوفُ بصَرْفـه ... قناتي وَصَــرْفُ الدهر أَعْنَفُ غـامـزِ
رمـانى بسـهـمِ الثُّكْلِ رَمْىَ مـعـاندٍ ... فلم أَحـتـجـزْ لَمَّـا رمـانيِ بحـاجـز
إذا الدهرُ للآمـال أَبرزَ كَـيْـدَهُ ... فــقل لبنى الآمــالِ هل من مـبــارز

(٢) فى الأصل : ولو أضحت .

على باب قنسرين قبرُ عزيزةٍ / على أبويها من أعزِّ العزائز
على مفرقِ الطُرقِ الثلاثةِ قَبْرُهَا / لدى النّشزِ من تلك الإكامِ النّواشز
بمركزِ أجداثٍ كأنّ شخوصَها / شخوصُ خيامٍ دانياتِ المراكز
سلامٌ على قبرٍ حواكِ فقد حوى / عزائزَ ما زالت نجومَ العزائز
ولا جازَهُ صَوْبُ الحيا أو تُجيزُهُ / أكفُّ الحيا منها بأسنى الجوائز
أُلامُ على أن تُنْجِزَ العين وَعْدَها / وما عُذْرُ عينٍ وَعْدُها غيرُ ناجز
ويأمرني بالصبر أهْلي وكلُّهم / عليكِ أخو قلبٍ عن الصبرِ عاجز
كأنَّ على أكبادِهِمْ وقلوبهم / شفارَ القواري أو أشافي الخوارز(١)
فنينا من الأحزانِ إلا نَحائزاً / وليس بمأمونٍ فناءُ النحائز(٢)
وأصبحَ مذ أصبحتِ ليلى جنازةً / أبوكِ مُراقَ الدمعِ إثْرَ الجنائز
يرى الأُنْسَ إلاّ بالمقابرِ وحشةً / ويعتدُّ أن الفوزَ سُكْنَى المفاوزِ
مضيتِ بأثوابِ الصِّبا وتركتِني / تُهَزْهِزني للشّيبِ أيدي الهزاهز(٣)
وكان سروري أن أكونَ مقدَّماً / وتبقَيْ إلى أن تُحْسَبي في العجائز
كذا كان قِدْحي فائزاً حين كنتِ لي / فأصبح قدحي خائباً غيرَ فائز(٤)

---

(١) في الأصل : شفارى الفوارى ؛ والقوارى : جمع قارية وهو حد الرمح والسيف ؛ والأشافى : جمع إشفا وهو المخرز .
(٢) النحيزة : الطبيعة ؛ والنحيزة : قطعة مستدقة ، يريد : فنى إلا بقية قليلة .
(٣) الهزاهز : البلايا والفتن .
(٤) القدح : السهم من سهام الميسر .

وقال يرثى ابنته أيضا :

يا فراشًا من المَدَرْ ووسادًا من الحَجَرْ
جَوفَ بيتٍ كَتَولَج الظَّبي في الضيقِ والقِصَر (١)
مظلم اللونِ لا ترى فيه شمسٌ ولا قمر
ليس يدرى المقيم فيه بريحٍ ولا مَطَر
يا بنى الموتِ إن للحىِّ في الموتِ مُعْتَبَر
فكأني بكمْ وقد بِعتُمُ الدور بالحُفَر
وابنتا وا أعزَّ مَنْ ساءَ دهرى به وسَر
ما أراد القضاءُ من شؤمِ جدّى أو القدر
كيف لم ينفع التوقِّى ولم ينفع الحذر
يا ابنتى أين غبت عن رمضانٍ وقد حضر
فلقد كنتِ أنسنا في عشاياه والبكر
ولقد كنتِ بعتِ نَوْمَ لياليه بالسَّهر
واعتكافٍ على الدعاء أو الدرسِ للسُّوَرْ
يا أبيِ ليس عند من مات علمٌ ولا خبر (٢)
لا هلالُ الصيامِ يرعى ولا الفطر ينتظر
لا فطورٌ ولا سحورٌ لنا إنْ دنا السَّحَر
لا ولا أهْبَةٌ لعيدٍ حلا العيد أو أمَرّ
دَرَسَتْ يا أبى المحاسنُ وانمحَتْ الصور
نحن في عالمٍ طوى صرفُهُ البَدوَ والحَضَر
في ثرًى لا يُحَسُّ فيه بمن زارَ أو هَجَر

(١) التولج : كناس الظبى ، والدولج لغة فيه .
(٢) كذا توجه الخطاب فى هذا البيت حتى آخر القصيدة .

وقال يرثى الحُجَّاج الذين قُتلوا فى الطواف بمكة يومَ القرمطى[(١)] :

بنفسى نفوسٌ بين زمزمَ والحجْرِ تولَّتْ فوافاها الرَّدى وهىَ لاتدرى
نفوسٌ مَضَتْ أوْحَى مضىٍّ وغادرتْ نفوسَ بنى الدنيا سُكارى بلا سُكْرْ
عجبتُ لقلبٍ ما تصَدَّع حَسْرَةً ولو كانَ صخراً أو أشدَّ من الصخر
سلامٌ على إخوانِ برٍّ مذ انقضت أُخوَّتهم قُلْنَا : سلامٌ على البِرِّ
أتَوْا يقطعونَ البدوَ والحضْرَ رغبةً إلى خيرِ بيتٍ حلَّ فى البدو والحَضَرْ
سَرَوْا وَسَرَتْ أيدى المنايا إليهمُ ففازوا لَدُنْ فازوا بأجرٍ على أجر
رأوا حجَّهُمْ حجًّا وغزواً فلم تَطِبْ نفوسهُمُ عن كَسْبِ ذُخْرَيْنِ فى ذُخْرِ
بلى وقفوا للضَّربِ والطَّعْنِ موقفاً كأنهُمُ فيه وقوفٌ على الجمر
دموعهمُ تجرى خشوعاً وخشية وأرواحهمْ تجرى على البيضِ والسمر
فكائنْ ترى من سابحٍ فى دمائه دماءٍ غدا من هوْلها البرُّ كالبحر
فأكْرِمْ بهمْ والموتُ فوقَ رؤوسهمْ يلوذونَ خَوْفَ الموتِ بالباب والسِّتر
أبى لهمُ إحرامهمْ لبسَ جُنَّةٍ فلم يلبَسوا شيئاً سوى جُنَّة الصَّبرِ
وأَعْجِبْ بهمْ إذ يُنحرونَ كأنَّهمْ هديُهمُ أيام تُهْدى إلى النَّحر
رفاقٌ أقاموا لا تُشَدُّ لغيرهمْ رحالٌ ووفدٌ لا يؤوب إلى الحشر

(١) تعرَّض القرامطة للحُجاج غير مرة ، فقد أوقعوا بهم عام ٣١١ ، ولكن يبدو أن هذه القصيدة تشير إلى ما فعلوه عام ٣١٧ ؛ إذ دخل أبو طاهر القرمطى مكة يوم التروية فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه ، وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر(ابن الأثير ٨ : ٢٠٧ ط ، بيروت) .

غَدَتْ أُزُرُ الإحْرام بيضاً إليهمُ ... فراحوا الى الأجداثِ فى أُزُرٍ حُمْر
وما غُسِلوا بالماءِ بل بدمائهمْ ... وما حُنِّطوا إلا منَ التُّرْبِ لا العطر
فأَعْظِمْ به رزءاً ولو كانَ عُشْرَ ما ... رُزِئْناه منهم من فَراشٍ ومن ذَرّ
حوى جُلَّهُمْ قبرٌ من الأرض واحدٌ ... فيا خيرَ محبُوبِينَ فى خيرِ ما قبر
ألوفٌ من الشبَّانِ والشيب ضمَّهُمْ ... قليبٌ قريبُ الجانبين من القَعْر
فلم أَرَ مَقْبُورِينَ أكثرَ منهم ... وليس لهمْ قبرٌ يُعَدُّ سوى قَبْر
وما إن هَوَوْا فى هُوَّةٍ بل تسابقوا ... إلى ربْوَةٍ خضراءَ بين ربىً خُضْر
الى جَنَّةٍ زهراءَ تزدادُ زهرةً ... بما واجهتْ منهمْ من الأوْجُهِ الزُّهْر
أحُجَّاجنَا ما لى أرى السَّفْرَ آيباً ... ولست أراكم آيبينَ معَ السفر
أجاورتمُ البيتَ العتيقَ فحبَّذا ... جواركمُ الباقى إلى آخرِ الدهر
جوارُ حجيجٍ لا طوافَ عليهمُ ... ولاسَعْىَ فى ميقاتِ ليلٍ ولا فجر
وقالوا الأُسى مما يُسلِّيك عنهمُ ... وأين الأُسى حتى تُسَلِّىَ أو تُغْرى
لقد ذُعِروا فى حيثُ للطيرِ مأمنٌ ... وفى حيثُ لا تَخْشَى الوحوشُ من الذُّعْر
فيا لبنَى الإسلامِ كم من سعادةٍ ... حَوَوْها بأيدى الأشقياءِ بنى الكُفر
بأيدى ذوى غَدْرٍ وغىٍّ كأننى ... بأرواحهمْ فى قبضةِ الغىِّ والغدر
بهائمُ لم تألفْ سجوداً جباهُهُمْ ... ولا ألفوا بَسْطَ الأكفِّ إلى الطُّهر

ولامرَّ ذكرُ الصَّومِ بين بيوتِهِمْ ... ولا خاضَ في سمعٍ ولا جالَ في صَدْرِ
ولا كان حجُّ البيتِ مما تسربلوا ... إليه أهاويلَ المهامهِ والقفر
بلى إن حججناه غَزَوْهُ فويلهم ... لقد حمَّلوا وزراً ثقيلاً من الوزر
رأوا ما رأوا من نهبه مغنماً لهم ... وما هو الا مَغْرَمٌ ليس بالنزر
وظنُّوا الذى فازوا به أنَّهُ الغنى ... وواللهِ ما فازوا بشيءٍ سوى الفقر
فيا ربِّ لا تُمْهِلْ عدوَّك وارْمِهِ ... بقاصمةِ الأعناقِ قاصمةِ الظَّهر
ويا ربِّ خُذْ منهمْ لدينك ثأرَهُ ... فقد وَتَرُوهُ مستهينين بالوتر
إلهى أعِدْ أيامَ عادٍ عليهمُ ... ويوماً كيومَيْ أهلِ مدينَ والحِجْر
وأيِّد أميرَ المؤمنينَ وسيفَهُ ... بنصرٍ كما عوَّدتَ يا خالقَ النصر

وقال ايضاً:

أتَصْبِرُ عنّي ولا أصْبِرُ ... وتهجرُني حينَ لا أهْجُرُ
وتضمرُ لى فى الهوى جَفْوَةً ... وأنت عليمٌ بما أُضْمِرُ
لئن كنتَ بالصدِّ مستهتَراً ... فإنِّيَ بالوصلِ مُسْتَهْتَرُ
إذا الليل أسبلَ سترَ الظلامِ ... باحتْ دموعى بما أسْتُرُ
فكم لىَ من زفرةٍ فى الفؤاد ... تُطْوَى ومن عَبْرَةٍ تُنْشَرُ
ولم تجرِ من مقلتى أدْمُعٌ ... عليك ولكنْ جَرَتْ أبْحُرُ
ترى لوعةً تقتضى لوعةً ... وليلاً يطولُ ولا يَقْصُرُ
وما لى إذا لَعِبَ الشوقُ بى ... سوى أنْ أُناديك يا جعفر

وأشعر بالشوق حتى يزيدَ فيغمى عليَّ ولا أشعر
فأشكو من الشوق ما قد علمتَ وما لست تعلمه أكثر
أرى خنصرى هجرت خاتمي فما تصل الخاتمَ الخنصر
على أنَّ سقمى له موردٌ ولكنه ما له مصدَر
ومما شجانيَ كلُّ الشجى حذارك غيرَ الذى تحذر
فإن كنت غِرّاً بأمر الهوى فهذا لمثلك لا ينكر
فيا شادنًا أحور المقلتين بل دونه الشادنُ الأحور
هنيئًا النومُ يا سيدى فما من ينام كمن يسهر

وقال ايضاً:

لم أنسه ودموعه تتحدَّر حذر العتاب ولونه يتغيَّر
زيد احمرار الخد شدَّة حمرة فغدا الموّرد منه وهو معصفر
وكأنَّ فيض الدمع في وجناته درٌّ على جنبات وردٍ ينثر
يبكى وفى عينى بكاء ظاهر فإذا يروم كلامه يتغيَّر
طوراً يبادر بالجواب مسارعاً نحوى وطوراً عن جوابى يحصر
ويظلُّ أحياناً يغضُّ جفونه خجلاً وأحياناً يعود فينظر
مستكثراً عتبى عليه وقد يرى أنَّ الذى بى من هواه أكثر
فضممته عمداً إليَّ كأنه غصنٌ على أعلاه بدر يزهر
وجعلت من وجد أكفكف عبرةً تجرى وفى قلبى لظًى يتسعَّر
مازلت أرشف ريقه وكأنه من طيبه قد ديف فيه عنبر(١)
حتى تراضينا وحقٌّ له الرضا في خفية ، ورقيبنا لا يشعر

(١) ديف : مزج وخلط .

وقال يفتخر :

ها قد دَنَتْ عساكرُ الأمطارِ
وأُطْلِقَ القَطْرُ من الإِسار
وأشرفَ الحَرُّ على البوار
وَقَربتْ هزيمةُ الغُبار
فالآن تأتى دولةُ القطارِ[1]
ويُصْلِحُ الشتاءُ للأبصار
ما أفسدَ القيظُ من الأنوارِ[2]
من اصفرارٍ ومن احمرار
يُرْضِعُهُ من لبنِ العشارِ[3]
ماءً إذا جرى جرى من نار
تحتَ شعارِ الأرضِ والدّثارِ
كما يُكَنُّ الدُّر فى البحار
ثم إذا آل إلى الإظهار
أهداهُ كانونُ إلى آذار
مزنَّراً وغيرَ ذى زنّار

(١) القطار : المطر .
(٢) ما : مفعول به للفعل « ويصلح » فى الشطر السابق .
(٣) العشار : النوق التى نتجت حديثًا ، يكنى بها هنا عن السحب .

مخمَّراً وغير ذى خِمار
كالدرهم المقرونِ بالدينار
يَفْتَح دُرْجَ العطْرِ بالأسحار
من الخُزامى ومِنَ العَرار
يا حبَّذا ذلكَ من عَطَّار
حتَى إذا حنَّتْ إلى المزار
سحابةٌ مسحوبةُ الأزرار[1]
تمرحُ فى عنانها الخَوّار[2]
كأنما تلقى على الأقطار
أجنحةَ الأجادل الضَّوارى[3]
حلَّتْ عقودَ دَمْعها المِدْرار
على الشقيقِ وعلى البهار
ونشرتْ ذوائبَ الأشجار
وافترَّ منها الماءُ عن آثار
فى صيغَةِ الخلخالِ والسوار
وَحَبَبٍ كهيئةِ النثّار[4]

(١) مسحوبة الأزرار : لعلّ الصواب « مسحوبة الإزار » يريد أنها متثاقلة في مشيتها لامتلائها بالماء . أما الأزرار فيناسبها قوله « محلولة الأزرار » يعنى قد انفكت عراها ، فماؤها يسيل غزيراً .

(٢) الخوّار : الضعيف ، يريد أن عنانها غير مشدود فهى مسترسلة ، يقال فرس خوار .
العنان : يعني سهل المعطف كثير الجرى .

(٣) الأجادل : جمع أجدل ، وهو الصقر .

(٤) النثار : الدراهم المنثورة .

وَصَخَبٍ كَصَخَبِ الأوتار
فلا تنى عرائس العُقَار
تُزَفُّ بين العودِ والمزمار
فى حُلَلِ اللجينِ والنُّضار
إلى شموسِ المجد والأقمار
وأُسد هذا الحىِّ من نزار
رَهْطِ الرسولِ المصطفى المختار
أُولى الكتابِ وأُولى الأخبار
إن لم تَلُكْ شكيمةَ الإقرار
باه عليّاً ذا العلى وبارى
وهاتِ سيفاً مثلَ ذى الفَقار
وسامِ سِبْطَىْ أحمدٍ وجار
واعمدْ إلى الكواكب الدرارى
حمزةَ والعباسِ والطيّار
حَوَتْ قريشٌ عمّةَ الفخار
ونحن حيثُ ملْتَقَى الإزار
وإنما القسىُّ بالأوتار
والمشرفىُّ العضبُ بالغرار
قد انتعلنا قُلَلَ الأخطار
والرأسُ تحتَ أخمصِ اليسار
هاشِمُنا سنَّ قِرى الزوّار
حتى قَرَى الوحوشَ فى القفار

وعافياتِ الطَّير في الأوكار
وهو أبو الأئمة الأبرار
حِصْنُ الحجى ومَعْقِلُ الوقار
وقد قَضَتْ كِنانةٌ أوطاري
بابنِ مكدومٍ فتى الغوار(١)
ذي الجَدَث المخضَّبِ الأحجار
لا تُعْقَرُ المطيُّ في السَّفار
إلا على تُرابِه المَوَّار
ألم يكنْ في أسدٍ للساري
قيافةٌ تجلو عمى الممارى
وزَجْرُ ما طار من الأطيار(٢)
حتى علمنا موقعَ الأقدار
وَضَبَّتي فجمرةُ الجمار(٣)
عشيرتي الحامونَ عن تعشاري
ساوَوْا سليمانَ على المضمار
وعَنَفُوا بالملِكِ الجبَّار
وباشروا الحديدَ بالأبشار

(١) لعله يريد « بابن مكدم » فاضطر فجعله « بابن مكدوم » ، وهو ربيعة بن مكدوم من كنانة ، وأخبار شجاعته وسخائه مضرب المثال ، وكتب في الأصل بالراء.
(٢) كان بنو أسد بن خزيمة من أعيف العرب أي : أعرفهم بالزجر (جمهرة ابن حزم : ٣٧٦) .
(٣) ضبتي : أي قومي بنو ضبة ، والصنوبري ضبيّ .

منهم ضرارٌ وأبو ضرار[١]
الآخذون الخَرْجَ بالصَّغَارِ
حطُّوا بصفينَ من الأوزار
ما حَمَلوا فى الجملِ المُثَار[٢]
تميمُنا كالفَلَكِ الدَّوار
وَقَيْسُنَا سادُوا ذوى الأوبار
عنه وعن أحيحة[٣] افترارى
وغالبٌ أطفأ نارَ العار
إذ يبدأ الكبارُ للصِّغار
وقيسُ عيلانَ شَفَتْ أُوارى
بِهَرِمٍ معاند الإقتار
وما عدا ربيعةَ اختيارى
بل بكليبٍ أكثرُ افتخارى
قُبَّتُنَا مَحْمِيَّةُ الذِّمار
تُعَدُّ للإيرادِ والإصدار
مُغَارَةً كالمسد المُغَار[٤]

---

(١) هو ضرار بن عمرو بن مالك وكان سيد بنى ضبة ، شهد يوم القرنتين ، وكان معه ثمانية عشر ذكراً من ولده (جمهرة ابن حزم : ٢٠٣) .

(٢) كان بنو ضبة مع عائشة يوم الجمل وقد قتل من فرسانهم خلق كثير ، والشاعر – لتشيعه – يقول : إن بنى ضبة حطُّوا عنهم ما حملوه من أوزار حين حاربوا إلى جانب علىٍّ فى صفين .

(٣) فى الأصل : احجه (دون إعجام) ولعلّ الصواب « حنظلة » وهو والد غالب بن حنظلة من تميم .

(٤) المسد المغار : الحبل الشديد الفتل ؛ وفى الأصل : كالأسد .

أعوجَ والوجيهَ والدّيناري[١]
نحن من الصريح لا السَّمّار[٢]
ونحنُ أهل البيت ذى الأستار
واللغةِ الكريمة النّجار
ما نرعوى عن بُرْمَةٍ أعشار[٣]
نكفأها فى جَفْنَةٍ أكسار[٤]
أنعامُنا قليلةُ الأعمار
ونارُنا مَخْلوعةُ العِذَار
ما الكلبُ مُذْ كان لنا بجار
ولا يمرُّ فى فناءِ الدار
بذكْرِنا أُذِّن فى المنار
وعُلّيَتْ منابرُ الأمصار
عدُوّنا مُقَلَّمُ الأظفار
يُوشِكُ أن يَفْنَى من الحذار
إذا خَطَرْنَا بالقَنا الخطّار
تحت رِواقِ الجحفلِ الجرّار
لأخْذِ ثارٍ ولمنعِ ثار

(١) أعوج والوجيه والديناري : أسماء فحول خيل مشهورة .
(٢) السمار : المشوب المخلوط .
(٣) قدح أعشار وبرمة أعشار : مكسرة على عشر قطع ، وقيل انها العظيمة التى لا يحملها إلا عشر أو عشرة .
(٤) جفنة أكسار : عظيمة موصلة لكبرها أو قدمها .

لنا خَـــزَازى ولنـا ذو قـــار
من بعـدِ أيامٍ لنا كـبـار
صيغَتْ لنـا أُكلَّةُ الاشعار
ونُظمَتْ قــلائدُ الأســمـار
مـا أبْيَنَ الليل من النهـار
مَـنْ سـابقَ الجـوادَ بالحـمار
جَنَتْ يـداهُ ثَمَـرَ الغُـبـار

وقـــال:

إذا عُـــزِينَا إلى الصنوبرِ لم ... نُعْـــزَ إلى خـــاملٍ من الخَـــشبِ
لا بل إلى باسقِ الفـروعِ عــلا ... مناســبـــاً فى أرومـــةِ الحـــسب
مـثل خيـامِ الحـريرِ تحملهـا ... أعـــمـــدةٌ تحـتـهـا منَ الذهب
كـــأنَّ مـــا فى ذراه من ثمـــرٍ ... طيـــرٌ وقـــوعٌ على ذُرَى القُـــضُبِ
باقٍ على الصـيفِ والشـتــاءِ إذا ... شـــابتْ رؤوسُ النبـــاتِ لم يشب
مُـحَـصَّنُ الحَبِّ فى جـواشنَ قـد ... أَمِنَ فى لُـبْـســهـــا من الحـــرب
حَبٌّ حكى الحب صِينَ فى قُـرُبِ الـ ... أصـــدافِ حـــتى بدا من القـــرب
ذو بَنَّةٍ مـــا ينالُ من عنبٍ ... مـــا نيلَ من طيـبــهـــا ولا رطب[1]
يا شـجـراً حُـبُّـهُ حـدانىَ أن ... أفـــدى بأمى مـــحــبـــةً وأبى
فـــالحـــمـــدُ لله أنَّ ذا لـــقـــبٌ ... يزيدُ فى حُـسْنِه على النَّسَب

(١) البنَّةُ: الرائحة الطيبة .

الحاتمى (محمد بن الحسن ت ٣٨٨ هـ)

هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى وكنيته أبو على عاش فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى جمع بين البلاغة فى النثر ، والبراعة فى النظم ، وعمل كاتبا لبعض وزراء الدولة البويهية ، ومكنته موهبته الأدبية والنقدية الفذة ، ومحفوظه الشعرى الواسع ، من مواجهة شاعر العربية الأكبر : المتنبى فى مناظرات مشهودة عندما وفد إلى بغداد بعد خروجه من مصر ، وكانت الخصومة التقليدية بين البويهيين فى بغداد ، والحمدانيين فى حلب ، وراء هذه المواجهة وكان اهتمام الحاتمى بالأدب شاملا ومتنوعا ؛ له تصانيف كثيرة منها : حلية المحاضرة فى صناعة الشعر والرسالة الموضحة والرسالة الحاتمية ، توفى ٣٨٨ هـ .

قال يمدح الخليفة القادر بالله :

منازلهم لاشافهتكِ النوازلُ وأطلالهم حَيَّاكِ طلٌّ ووابلُ
كأن الربى لم تلبس الأرض حالياً ولا أُحْمِلَتْ بالنور تلك الخمائل
تعرَّفتُها واستنكر الطرف أنها كما استنكرت سقم المحب العواذل
وكم قطع ليل بعد ليل قطعته وسرح الكرى عن جفن عينى هامل
وقد مالت الجوزاء حتى كأنما بها راقص من سورة الكأس مائل
وخلت الثريا كف عذراء طفلة مختَّمة بالدر منها الأنامل
تَخَيَّلْتُها فى الأفق طرة جعبة ملوكية لم تعتلقها حمائل
كأن نبالا ستة من لآلئ يوافى بها فى قبة الأفق نائل
وعين كَنوَّار الرياض استرقته خلاسا وأحداث الليالى غوافل
لماما وأغصان الشبيبة رطبة وماء الصبا فى ورد خدى جائل

ويوم كـحلى الغـانيـات سلبـتـه حلى الربا حـتى انثنى وهو عـاطل
سبـقت إليـه الصبح والشـمس غـضـة وصبغ الدجى عن مفـرق الفجر ناصل
ونشـوان من خـمـر الدلال سقـيـتـه شـمـولا فنمّت عن هواه الشـمـائل
شكـا ظمـأ منه الموشح وارتوت بماء الصـبـا أردافـه والخـلاخل
إذ العـيش مـخـضـر الأصـائل ناعم وإذ زبرج الدنيـا خليل مـواصل
وليل مـوشى بالنجـوم صـدعـتُـه بأبيض وَشّى صـفـحـتيـه الصيـاقِلُ
إليـك أمـيـر المؤمنين ارتمـت بنا بنات الفـلا وَالمقـربات الصـواهل
إلى من له فى جـبهـة الدهر ميـسم ومن سيـفـه فى مـفـرق الدهر سـائل
نشِيم الحـيـا من كـفـه وهى لجـة تشق جـيـوب القطر فـيـهـا الأنامل
ومن عـوّدته المكرمـات شـمـائلا فليس لـه عنهـا ولو شـاء ناقل
وإن راسل الأعـداء فـالجـرد رسله إليـهم وأطراف العـوالى الرسـائل
بيـوم عـقـيم يلقح البـيض بأسـه ولـود المنـايا وهـو أشـمط ثـاكـل
إذا مـا أسـر النقع أنوار شـمـسـه أذاعت بأسـرار الحـمـام المناصل
فـيـا بدر لا تغـرب ويا بحـر لا تفض ويا نوء لاتخلف حـيـا منك هاطل
عظمت فـهـذا الدهر دونك همـة وُجْـدت فـهـذا القَطْر عندك باخل

المتنبى

(٣٠٣ - ٣٥٤ هـ)

ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى بالكوفة فى محلّة يقال لها كندة . وكان شاعراً مفلقاً شديد العارضة راجح العقل عظيم الذكاء ، قدم الشام فى صباه واشتغل فى فنون الأدب ، ولقى فى رحلته كثيراً من أئمة العلم ؛ فتخرج عليهم وأخذ عنهم . وكان من المطلعين على أوابد اللغة وشواردها حتى إنّه لم يسأل عن شىء إلاّ استشهد له بكلام العرب من النظم والنثر .

وقد سُمّى بالمتنبى لأنه ادّعى النبوة فى بادية السماوة من أعمال الكوفة . فلمّا ذاع أمره وفشا سرّه خرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيد فأسره ولم يحلّ عقاله حتى استتابه .

ولم يمض ردح من الزمن على تخلية سبيله حتى لحق بالأمير سيف الدولة بن حمدان ، وكان ذلك سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة ٩٤٨م فمدحه فأحبه وقربه وأجازه الجوائز السنية ، وأجرى عليه كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار خلا ما كان يهبه من الإقطاعات والخلع والهدايا المتفرقه.

وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء كلّ ليلة فيتكلّمون بحضرته فوقع بين المتنبى وابن خالويه كلام فوثب ابن خالويه على المتنبى وضرب وجهه بمفتاح كان بيده فشجه . وكان سيف الدولة حاضراً فلم يدافع عن أبى الطيب ؛ فخرج مغضباً ودمه يسيل وكان ذلك سبباً لمغادرته حلب سنة ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م ، فسار إلى دمشق وألقى فيها عصاه ولم ينظم هناك قصيدة إلاّ عرض بها بمدح سيف الدولة ، لكثرة محبّته له . ثمّ ذهب إلى مصر ومدح كافوراً الإخشيدى وفى نفسه مطامع ، ولمّا لم يُنِلْه كافور رغائبه غادر مصر وهجاه بعدة قصائد مشهورة .

وبعد أن غادر مصر ذهب إلى بغداد فبلاد فارس ثمّ مرّ بأرجان فشيراز ومدح عضد الدولة بن بويه فأجزل عطيّته . ثمّ انصرف من عنده راجعاً إلى بغداد فالكوفة وذلك فى أوائل شعبان سنة ٣٥٤ هـ – شباط ٩٦٥ م فعرض له فاتك بن أبى جهل الأسدى فى الطريق فاقتتلوا حتى قُتل المتنبى مع ولده مُحَمَّد وغلامه مفلح على مقربة من دير العاقول فى الجانب الغربى من سواد بغداد . وكان مقتله فى ٢٨ رمضان سنة ٣٥٤ هـ – ٢٧ أيلول سنة ٩٦٥ م .

أمّا سبب قتله فقيل هو تلك القصيدة التى هجا بها ضبة بن يزيد العينى وكانت والدة ضبة شقيقة فاتك المذكور . فلمّا بلغته القصيدة أخذ الغضب منه كلّ مأخذ وأضمر السوء لأبى الطيب . ولما بلغه مغادرة المتنبى لبلاد فارس وعلم اجتيازه بجبل دير العاقول تتبع أثره . وكان أبو الطّيب قد مرّ بأبى نصر محمد الحلبى ، فأطلعه على حقيقة الأمر وما ينويه فاتك من الشرّ له ، ونصحه بأن يصحب معه من يستأنس به فى الطريق . فلم يزدد إلاّ أنفة وعناداً وأبَى أن يصحب معه أحداً قائلاً : أنا والجراز فى عنقى ، فما بى حاجة إلى مؤنس . ثمّ قال : والله لا أرضى أن يتحدّث الناس بأنّنى سرت فى خفارة غير سيفى . فحذّره أبو النصر كثيراً فما كان منه إلاّ أن أجاب : أبنجو الطير تخوفنى ومن عبيد العصا تخاف علىّ ؟ والله لو أن مخصرتى هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون لخمس ، وقد نظروا الماء كبطون الحيات ، ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده ، معاذ الله أن أشغل فكرى بهم لحظة عين ! فقال له أبو النصر : قل : إن شاء الله فقال : هى كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجلب آتياً .

ثمّ ركب وسار فلقيه فاتك فى الطريق فقتله .

كل عزيز للأمير ذليل

لَيَالِىَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ ... طِوالٌ وَلَيْلُ العاشقينَ طَوِيلُ(١)
يُبِنَّ لِىَ البَدْرَ الذى لا أُرِيدُهُ ... ويُخْفِينَ بَدْراً مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ(٢)
وَمَا عِشْتُ مِنْ بَعدِ الأَحِبَّةِ سَلوَةً ... وَلَكِنَّنِى للنَّائبَاتِ حَمُولُ
وَإِنَّ رَحِيلاً وَاحِداً حَالَ بيْنَنَا ... وَفى المَوْتِ مِنْ بَعدِ الرَّحِيلِ رَحِيلُ
إذا كانَ شَمُّ الرَّوحِ أَدْنَى إِلَيْكُمُ ... فَلا بَرِحَتْنِى رَوْضَةٌ وَقَبُولُ(٣)
وَمَا شَرَقِى بالمَاءِ إِلاَّ تَذَكُّراً ... لِمَاءٍ بِهِ أَهْلُ الحَبِيبِ نُزُولُ(٤)
يُحَرِّمُهُ لَمْعُ الأَسِنَّةِ فَوْقَهُ ... فَلَيْسَ لِظَمْآنٍ إِلَيْهِ وُصُولُ
أَمَا فى النُّجومِ السَّائراتِ وغَيرِهَا ... لِعَيْنِى عَلَى ضَوْءِ الصَّبَاحِ دَلِيلُ(٥)
أَلَمْ يَرَ هذا اللَّيْلُ عَيْنَيْكِ رُؤْيَتِى ... فَتَظْهَرَ فِيهِ رِقَّةٌ وَنُحُولُ
لَقِيتُ بِدَرْبِ القُلَّةِ الفَجْرَ لَقْيَةً ... شَفَتْ كَبِدى وَاللَّيْلُ فِيهِ قَتِيلُ(٦)

(١) شكول جمع شكل : شبيه . يقول : إن لياليه متشاكلة بالطول ؛ لأنه يحييها دائماً بالسهر كما هو شأن العاشقين .
(٢) أراد بالبدر الأول : القمر ، وبالثانى : الحبيب .
(٣) الروح : نسيم الريح . أدنى : أكثر إدناء أى تقرباً . برحتنى : فارقتنى . القبول : ريح الصبا.
(٤) الشرق : الغصص .
(٥) يقول : أليس فى هذه النجوم وغيرها ما يدلنى على الصباح ؛ فأهتدى إليه وأتخلص من هذا الليل الطويل .
(٦) درب القلة : موضوع وراء الفرات .

وَيَوْماً كَأَنَّ الحُسْنَ فِيهِ عَلامَةٌ   بَعَثْتِ بِهَا والشَّمسُ منكِ رَسُولُ
وَما قَبلَ سَيفِ الدَّوْلةِ أثّارَ عاشقٌ   ولا طُلِبَتْ عندَ الظّلامِ ذُحُولُ(١)
وَلَكِنّهُ يَأتي بكُلّ غَريبَةٍ   تَرُوقُ عَلى استغْرابِها وَتَهُولُ(٢)
رَمَى الدَّرْبَ بالجُرْدِ الجيادِ إلى العدى   وَما عَلِمُوا أنّ السِّهامَ خُيُولُ
شَوائِلَ تَشْوالَ العَقَارِبِ بالقَنَا   لهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلُ(٣)
وَما هيَ إلاّ خَطْرَةٌ عَرَضَتْ لَهُ   بحَرّانَ لَبّتْهَا قَناً وَنُصُولُ(٤)
هُمَامٌ إذا ما هَمّ أمضَى هُمُومَهُ   بأرْعَنَ وَطْءُ المَوْتِ فيه ثَقيلُ(٥)
وَخَيْلٍ بَرَاهَا الرّكضُ في كلّ بلدةٍ   إذا عَرّسَتْ فيهَا فَلَيسَ تَقِيلُ(٦)
فَلَمّا تَجَلّى مِنْ دَلُوكٍ وَصَنْجَةٍ   عَلَتْ كلَّ طَوْدٍ رَايَةٌ وَرَعِيلُ(٧)
على طُرُقٍ فيهَا على الطُّرْقِ رِفْعَةٌ   وَفي ذِكرِها عِندَ الأنيسِ خُمُولُ(٨)
فَمَا شَعَرُوا حَتّى رَأوْهَا مُغِيرَةً   قِبَاحاً وأمّا خَلْقُهَا فَجَميلُ(٩)

---

(١) أثار : أدرك ثاره . الذحول جمع ذحل : الثأر .
(٢) الغريبة : الأمر الغريب . تروق : تعجب . تهول : تخيف .
(٣) شوائل : رافعة أذنابها كالعقارب .
(٤) حران اسم موضع .
(٥) الأرعن : الجيش المضطرب لكثرته .
(٦) خيل معطوف على أرعن . براها : هزلها . عرّست : نزلت ليلا . تقيل : تنزل نهاراً .
(٧) دلوك : موضع وراء الفرات . صنجة : نهر . الرعيل : القطعة من الخيل .
(٨) على طرق : من صلة علت في البيت السابق . الخمول : خفاء الذكر أي طرق خاملة الذكر عند الناس لأنها لم تسلك من قبل .
(٩) قباحاً : أي بالنسبة لفعلها بهم .

سَحَائِبُ يَمْطُرْنَ الحَدِيدَ عَلَيْهِمُ ... فكُلّ مَكانٍ بالسّيوفِ غَسيلُ(١)
وأمْسَى السّبَايَا يَنْتَحِبنَ بعِرْقَةٍ ... كأنّ جُيُوبَ الثّاكِلاتِ ذُيُولُ(٢)
وَعادَتْ فَظَنّوهَا بمَوْزَارَ قُفّلاً ... وَلَيسَ لهَا إلاّ الدّخولَ قُفُولُ(٣)
فَخاضَتْ نَجيعَ القَوْمِ خَوْضاً كأنّهُ ... بكُلّ نَجيعٍ لمْ تَخُضْهُ كَفيلُ
تُسايِرُها النّيرانُ في كلّ مَنزِلٍ ... به القَوْمُ صَرْعَى والدّيارُ طُلُولُ
وَكَرّتْ فمَرّتْ في دِماءِ مَلَطْيَةٍ ... مَلَطْيَةُ أُمٌّ للبَنينَ ثَكُولُ(٤)
وأضْعَفْنَ ما كُلّفْنَهُ مِنْ قُباقِبٍ ... فأضْحَى كأنّ الماءَ فيه عَليلُ(٥)
وَرُعْنَ بنَا قَلْبَ الفُراتِ كأنّمَا ... تَخِرُّ عَلَيْهِ بالرّجالِ سُيُولُ
يُطارِدُ فيهِ مَوْجَهُ كُلُّ سابحٍ ... سَواءٌ عَلَيْهِ غَمْرَةٌ وَمَسيلُ(٦)
تَراهُ كأنّ الماءَ مَرّ بجِسْمِهِ ... وأقْبَلَ رَأسٌ وَحْدَهُ وَتَليلُ(٧)
وَفي بَطْنِ هِنْرِيطٍ وَسِمْنِينَ للظُّبَى ... وَصُمِّ القَنَا مِمّنْ أبَدْنَ بَديلُ(٨)

---

(١) سحائب : خبر عن ضمير الخيل . الحديد : يراد به السيوف . أى أن السيوف كانت تغسل الأرض من العدو كما يغسل المطر الغبار ونحوه .

(٢) عرقة : بلد بالشام . الجيب : ما انفتح من القميص على النحر . أى كن يشققن جيوبهن فتتدلى إلى الأرض حتى تصير كالذيول .

(٣) ضمير عادت للخيل . موزار : حصن ببلاد الروم . قفل : راجعات . أى أن رجوعها الذى ظنوه رجوعاً كان دخولا عليهم .

(٤) ملطية : بلد بالروم .

(٥) قباقب : نهر .

(٦) السابح : الفرس . الغمرة : معظم الماء . المسيل : مجرى النهر .

(٧) التليل : العنق . أى إذا سبح لم يظهر لك منه إلا رأسه وعنقه .

(٨) هنريط وسمنين : موضعان .

طَلَعْنَ عَلَيْهِمْ طَلْعَةً يَعْرِفُونَهَا لهَا غُرَرٌ مَا تَنْقَضِي وَحُجُولُ(١)
تَمَلُّ الحُصُونُ الشُّمُّ طُولَ نِزالِنَا فَتُلْقِى إِلَيْنَا أَهْلَهَا وتَزُولُ(٢)
وبِتْنَ بحصْنِ الرَّانِ رَزْحَى منَ الوَجى وَكُلُّ عَزيزٍ للأمِيرِ ذَليلُ
وَفى كُلِّ نَفْسٍ ما خَلاهُ مَلالَةٌ وَفى كُلِّ سَيفٍ ما خَلاهُ فُلُولُ
وَدُونَ سُمَيْساطَ المَطامِيرُ وَالمَلا وَأَوْدِيَةٌ مَجْهُولَةٌ وَهُجُولُ(٣)
لَبِسْنَ الدُّجَى فيها إلى أَرْض مَرْعَشٍ وَلِلرُّومِ خَطْبٌ فى البِلادِ جَليلُ(٤)
فَلَمَّا رأَوْهُ وَحْدَهُ قَبْلَ جَيْشِهِ دروْا أنَّ كلَّ العالمينَ فُضُولُ
وأَنَّ رِمَاحَ الخَطِّ عَنْهُ قَصِيرَةٌ وأنَّ حَديدَ الهِنْدِ عَنهُ كَليلُ
فأَوْرَدَهُمْ صَدْرَ الحِصانِ وَسَيْفَهُ فَتًى بأسُهُ مِثْلُ العَطاءِ جَزيلُ
جَوَادٌ عَلَى العِلاّتِ بالمالِ كُلِّه وَلَكِنَّهُ بالدّارِعِينَ بَخِيلُ(٦)
فَوَدَّعَ قَتْلاهُمْ وَشَيَّعَ فَلَّهُمْ بِضَرْبٍ حُزُونُ البَيْضِ فيهِ سُهُولُ(٧)

---

(١) الغرر جمع غرة : بياض فى وجه الفرس . الحجل : بياض فى قوائمه .

(٢) الران : موضع . رزحى : ساقطة من شدة التعب . الوجى : الحفا .

(٣) سميساط : بلد . المطامير : حفر تحت الأرض . الملا جميع ملاة : فلاة ذات حر وسراب . الهجول : الأراضى المطمئنة .

(٤) مرعش : بلد قرب أنطاكية . الخطب : الأمر العظيم .

(٥) أوردهم : أى جعل صدر حصانه وسيفه مورداً لهم كناية عن استقباله إياهم .

(٦) على العلات : على كل حال . الدّارعين : الذين عليهم الدروع والمراد رجاله .

(٧) الفل : المنهزمون . أى أنه تبع المنهزمين بضرب يقطع الخوذ على رؤوسهم فيصبح مكانها مستوياً بعد أن كانت ناتئة فوقه .

على قَلْبِ قُسْطَنْطينَ منْهُ تَعَجُّبٌ وَإِنْ كانَ في ساقَيْهِ منهُ كُبُولُ(١)
لَعَلَّكَ يَوْماً يا دُمُسْتُقُ عائِدٌ فَكَمْ هارِبٍ مِمّا إِلَيْهِ يؤُولُ(٢)
نَجَوْتَ بإِحْدَى مُهْجَتَيْكَ جريحةً وَخلَّفتَ إحدى مُهجَتَيْكَ تَسيلُ(٣)
أَتُسْلِمُ للخَطِّيَّةِ ابْنَكَ هارِباً ويَسْكُنَ في الدُّنْيا إليكَ خَليلُ
بوَجْهِكَ ما أَنْساكَهُ مِنْ مُرِشَّةٍ نَصيرُكَ منها رَنَّةٌ وَعَويلُ(٤)
أَغَرَّكُمُ طُولُ الجُيوشِ وَعَرْضُها عَلِيٌّ شَرُوبٌ للجُيُوشِ أَكُولُ
إذا لَمْ تَكُنْ لِلَّيْثِ إلاّ فَريسَةً غَذاهُ وَلَم يَنْفَعْكَ أَنَّكَ فيلُ(٥)
إذا الطَّعْنُ لم تُدْخِلْكَ فيهِ شَجاعَةٌ هُوَ الطَّعنُ لم يُدخِلكَ فيهِ عَذولُ(٦)
وَإِنْ تَكُنِ الأَيّامُ أَبْصَرْنَ صَوْلَهُ فَقَدْ عَلَّمَ الأَيّامَ كَيفَ تَصُولُ
فَدَتْكَ مُلُوكٌ لم تُسَمَّ مَواضِياً فَإِنَّكَ ماضِي الشَّفْرَتَينِ صَقيلُ(٧)
إذا كانَ بَعضُ النَّاسِ سَيفاً لِدَوْلَةٍ فَفي النَّاسِ بُوقاتٌ لَها وطُبُولُ(٨)

---

(١) الكبول : القيود الضخمة .

(٢) يؤول : يعود . يقول : لعلك تعود إلينا بعدما هربت منا ، يتهدده .

(٣) المهجة : الروح ، أراد بالأولى نفسه وبالثانية ابنه لأن الولد بمنزلة الروح لأن سيف الدولة كان أسر ابنه وهو فر هارباً .

(٤) المرشة : الجراحة ترش الدم . الرنة : الصياح . العويل : رفع الصوت بالبكاء .

(٥) المعنى أن كبر جثتك لا يفيدك شيئاً .

(٦) يقول : إن الطعن لا يباشر إلا بالشجاعة ، فإذا لم توجد الشجاعة فيه كان التحريض عليه والعذل على تركه كالعدم .

(٧) يقول : فدتك الملوك التى لم تسم سيوفاً لأنها لا تستحق هذه التسمية بخلافك فإنك كذا .

(٨) البوقات : جمع بوق . أى أن غيرك من الملوك للدولة بمنزلة الأبواق والطبول لأنهم لا ينفعون إلا بجمع الجيوش .

أَنَا السَّابِقُ الهادى إلى ما أَقُولُهُ وإذ القولُ قَبْلَ القائلين مَقُولُ[1]
وَما لِكَلامِ النّاسِ فيما يُرِيبُنى أُصُولٌ ولا لِقائليه أُصُولُ[2]
أُعَادَى على ما يُوجِبُ الحُبَّ للفتى وأَهْدأُ وَالأفكارُ فىَّ تَجُولُ[3]
سِوَى وَجَعِ الحُسّادِ داوِ فإنّهُ إذا حَلَّ فى قلْبٍ فَلَيسَ يحُولُ[4]
وَلا تَطْمَعَنْ مِن حَاسِدٍ فى مَوَدّةٍ وَإنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وتُنِيلُ
وَإنّا لَنَلْقَى الحادثات بأنْفُسٍ كَثيرُ الرّزايا عندَهنّ قَليلُ
يَهُونُ عَلَيْنَا أن تُصابَ جُسُومُنَا وَتَسْلَمَ أعْراضٌ لَنَا وَعُقُولُ
فَتيهاً وَفَخْراً تَغْلِبَ ابنَةَ وائلٍ فَأنْتِ لخَيرِ الفاخرِينَ قَبيلُ
يَغُمُّ عَلِيّاً أنْ يَمُوتَ عَدُوُّهُ إذا لم تَغُلْهُ بالأسِنّةِ غُولُ[5]
شَرِيكُ المَنَايَا وَالنُّفُوسُ غَنيمَةٌ فَكُلُّ مَمَاتٍ لم يُمِتْهُ غُلُولُ[6]
فإنْ تكُنِ الدّوْلاتُ قِسْماً فإنّهَا لِمَنْ وَرَدَ المَوْتَ الزّؤامَ تَدُولُ
لِمَنْ هَوّنَ الدّنْيا على النّفسِ ساعَةً وَلِلبِيضِ فى هامِ الكُماةِ صَليلُ

(١) الهادى : بمعنى المهتدى أى أنا أهتدى إلى ما أقول بنفسى وغيرى يقول ما سبق إليه .
(٢) الريبة : الشك والتهمة ، وأرابه أوقعه فيها .
(٣) يقول : يعادوننى على فضلى وأنا لا أتعرض لهم وأفكارهم تبحث فى أمرى لكى تجد لى هفوة يرموننى بها .
(٤) سوى : مفعول داو مقدم . يقول : إن داء الحسد لا دواء له فإذا حل فى قلب فلا مطمع فى نواله .
(٥) غاله : أهلكه . الغول : التهلكة .
(٦) الغلول : الخيانة فى الغنيمة .

كفى بك داءً

فـارق أبـو الطيـب سيف الدولة ورحل إلى دمشق وكاتبه الأستاذ كافور بالمسير إليـه ، فلمـا ورد مصـر أخـلى لـه كـافـور داراً وخلـع عليـه وحـمل إليـه آلافـاً من الدراهم فقـال يمدحه وأنشده إياها فى جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاث مئة (٩٥٧م) :

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شَافِيَا ... وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنَّ أمانيَا(١)
تَمَنّيْتَهَا لَمَّا تَمَنّيْتَ أنْ تَرَى ... صَديقاً فأعْيَا أوْ عَدُوّاً مُداجيَا(٢)
إذا كنتَ تَرْضَى أنْ تَعيشَ بذِلّةٍ ... فَلا تَسْتَعِدّنّ الحُسامَ اليَمَانيَا(٣)
وَلا تَستَطيلَنّ الرّماحَ لِغَارَةٍ ... وَلا تَستَجيدَنّ العِتاقَ المَذاكيَا(٤)
فمـا ينفَعُ الأُسْدَ الحَيـاءُ من الطَّوَى ... وَلا تُتّقَى حتى تكونَ ضَوَارِيَا(٥)
حَبَبْتُكَ قَلْبى قَبلَ حُبّكَ من نأى ... وَقد كانَ غَدّاراً فكُنْ أنتَ وَافِيَا(٦)

---

(١) كفى بك : كفاك والباء زائدة وداء تمييز ، وأن ترى فاعل كفى . الأمانى جمع أمنية : ما يتمناه الإنسان ، وأن يكن خبر عن حسب ، والخطاب لنفسه .

(٢) الضمير من تمنيتها المنايا . أعياه الأمر : أعجزه . المداجى : المدارى والمساتر للعداوة .

(٣) استعده : اتخذه عدة له .

(٤) الاستطالة والاستجادة : اختيار الطويل والجيد . المذاكى : التي تمت أسنانها .

(٥) الطوى : الجوع ، والجار متعلق ينفع .

(٦) يقـول لقلبـه : إنى قد أحببتك قبل أن تحب سيف الدولة وهو قد غدر بى فلا تغدر أنت . أى لا تقم على حبه ، وإلا فلست بواف لى .

وَأَعْلَمُ أَنَّ البَينَ يُشكيكَ بَعْدَهُ فَلَسْتَ فُؤادى إنْ رَأَيْتُكَ شَاكِيَا(١)
فإنَّ دُمُوعَ العينِ غُدْرٌ بِرَبِّهَا إذا كُنَّ إِثْرَ الغَادِرِينَ جَوَارِيَا(٢)
إذا الجُودُ لم يُرزَقْ خَلاصاً من الأذَى فَلا الحَمدُ مكسوباً وَلا المَالُ باقيا(٣)
وَللنَفْسِ أخْلاقٌ تَدُلُّ على الفَتى أكَانَ سَخاءً ما أَتى أمْ تَسَاخَيَا(٤)
أقِلَّ اشتياقاً أيُّهَا القَلْبُ رُبَّمَا رَأَيْتُكَ تُصْفِى الوُد من ليسَ صافيا (٥)
خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رَجَعتُ إلى الصِّبَى لَفَارَقْتُ شَيبى مُوجَعَ القلبِ باكيا(٦)
وَلَكِنَّ بالفُسْطاطِ بَحْراً أَزَرْتُهُ حَيَاتى وَنُصْحى وَالهَوَى وَالقَوَافيا(٧)
وَجُرْداً مَدَدْنَا بَينَ آذانِهَا القَنَا فَبِتْنَ خِفَافاً يَتَّبِعْنَ العَوَالِيَا
تَمَاشَى بأيْدٍ كُلَّمَا وَافَتِ الصَّفَا نَقَشْنَ بِهِ صَدرَ البُزَاةِ حَوَافِيَا(٨)
وَتَنظُرُ من سُودٍ صَوَادِقَ فى الدجى يَرَينَ بَعيداتِ الشُّخُوص كما هِيَا

---

(١) يشكيك : يحملك على الشكوى .

(٢) غدر : جمع غدور . ربها : صاحبها . أى إذا جرب الدموع على فراق الغادر كانت غادرة بصاحبها .

(٣) يعني إذا كدر الجود بالمن بطل الحمد عليه ولم يبق المال فيفقدان كلاهما .

(٤) أتى : فعل . التساخى : تكلف السخاء .

(٥) تصفى : تخلص .

(٦) الألوف : الكثير الألفة . يقول : خلقت شديد الألفة فلو فارقت شيبى ورجعت إلى الصبى لبكيت عليه أى على الشيب لإلفى إياه .

(٧) الفسطاط : اسم مدينة مصر ، وأراد بالبحر كافوراً الممدوح .

(٨) تماشى : أى تتماشى . الصفا : الصخر . يقول : هذه الخيل كلما وطئت صخراً نقشت حوافرها فيه أثراً مثل صدور البزاة ، وجعلها حوافى مبالغة فى وصف حوافرها بالصلابة حتى تؤثر بالصخر وهى بدون نعال .

وَنُصْب للجَرَسْ الخَفِيِّ سوامعاً يَخَلْنَ مُنَاجَاةَ الضَّمير تناديا(١)
تُجاذِبُ فُرْسَانَ الصَّبَاح أعنّةً كأنَّ على الأعناق منْهَا أفاعيَا(٢)
بعزم يَسيرُ الجِسْمُ فى السرْحِ راكباً به وَيَسيرُ القَلْبُ فى الجِسْمِ ماشيَا(٣)
قَواصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيره وَمَنْ قَصَدَ البَحرَ استَقَلَّ السّوَاقيا(٤)
فجاءت بنا إنسانَ عينِ زَمانه وَخلّتْ بَيَاضاً خَلْفَهَا وَمَآقيا(٥)
نَجوزُ عَلَيها المُحْسنينَ إلى الّذى نَرَى عندَهُمْ إحسانَهُ وَالأياديَا(٦)
فتى ما سَرَيْنَا فى ظُهُورِ جدُودنَا إلى عَصْرِه إلاَّ نُرَجِّى التّلاقيَا
ترَفَّعَ عَنْ عُونِ المَكَارِمِ قَدْرُهُ فَمَا يَفعَلُ الفعْلاتِ إلاَّ عَذاريَا(٧)
يُبِيدُ عَدَاوَاتِ البُغَاةِ بلُطْفِه فإنْ لم تَبِدْ منهُمْ أبَادَ الأعَاديَا(٨)
أبا المسكِ ذَا الوَجْهُ الذى كنتُ تائقاً إلَيْه وَذا اليَوْمُ الذى كنتُ رَاجيَا(٩)

(١) الجرس : الصوت . السوامع : الآذان . يخلن : يحسبن . المناجاة . الحديث الخفى . التنادى : أى ينادى بعض القوم بعضاً .
(٢) الأعنة . سيور اللجم . يصف هذه الخيل بالقوة وأنها تجاذب فرسانها أعنتها .
(٣) بعزم : متعلق بمحذوف أى سرنا بعزم ، وضمير به للعزم .
(٤) قواصد : حال من الخيل والمراد أربابها .
(٥) إنسان العين : المثال الذى يرى فى سوادها أراد به السواد نفسه ، المآقى : جمع مأق : طرف العين عند ملتقى الجفنين ، شبهه بإنسان العين ، وشبه غيره من الملوك بما وراء ذلك من البياض والمآقى .
(٦) ضمير عليها للخيل . يقول : تتخطى عليها الذين أنعموا علينا إلى الذين ينعم عليهم .
(٧) العون جمع عوان . التى كان لها زوج . أى أن مكارمه مبتكرة لا يفعل منها شيئاً سبق إليه .
(٨) البغاة : المعتدون .
(٩) أبو المسك : كنية كافور لسواده .

لَقيتُ المَرَوْرَى وَالشَّنَاخيبَ دُونَهُ وَجُبْتُ هَجيراً يَترُكُ المَاءَ صَادِيَا(١)

أَبَا كُلِّ طيبٍ لا أبَا المسْكِ وَحدَهُ وَكلَّ سَحابٍ لا أُخصّ الغَوَادِيَا(٢)

يُدلّ بمَعنًى وَاحِدٍ كُلُّ فَاخِرٍ وَقد جَمَعَ الرّحْمنُ فيكَ المَعَانِيَا(٣)

إذا كَسَبَ النّاسُ المَعَالىَ بالنّدَى فإنّكَ تُعطى فى نَداكَ المَعَالِيَا

وَغيرُ كَثيرٍ أنْ يَزُورَكَ رَاجلٌ فَيَرْجعَ مَلْكاً للعِرَاقَينِ وَالِيَا(٤)

فَقَدْ تَهَبُ الجَيشَ الذى جاءَ غَازِياً لِسائلكَ الفَرْدِ الذى جاءَ عَافِيَا(٥)

وَتَحْتَقِرُ الدّنْيَا احتقارَ مُجَرِّبٍ يَرَى كلَّ ما فيهَا وَحاشاكَ فَانِيَا

وَمَا كُنتَ مِمّن أدركَ المُلْكَ بالمُنى وَلَكِن بأيّامٍ أشَبْنَ النّوَاصِيَا(٦)

عِداكَ تَرَاهَا فى البلادِ مَسَاعِياً وَأنْتَ تَرَاهَا فى السّمَاءِ مَرَاقِيَا(٧)

لَبِسْتَ لهَا كُدْرَ العَجاجِ كأنّمَا تَرَى غيرَ صافٍ أن ترَى الجوّ صَافِيَا(٨)

وَقُدتَ إلَيها كلَّ أجرَدَ سَابِحٍ يؤدّيكَ غَضْبَاناً وَيَثْنِيكَ رَاضِيَا

وَمُخْتَرَطٍ مَاضٍ يُطيعُكَ آمِراً وَيَعصى إذا استثنَيتَ أوْ صِرْتَ نَاهِيَا(٩)

---

(١) المرورى : الفلوات الخالية . الشناخيب : رؤوس الجبال . جبت : قطعت . الهجير : حر نصف النهار . الصادى : العطشان .

(٢) كل سحاب : عطف على أبا كل أى : ويا كل سحاب .

(٣) يدل من الإدلال : الجرأة على المخاطب ثقة بمحبته إياه .

(٤) العراقان : البصرة والكوفة .

(٥) العافى : القاصد المعروف . وصفه بهذا البيت بالشجاعة والجود .

(٦) المراد بالأيام : الوقائع .

(٧) الهاء من تراها للأيام . المراقى جمع مرقاة : الدرجة .

(٨) قوله : غير صاف مفعول ثان لترى والأول محذوف أى ترى الجو غير صاف إلخ .

(٩) ومخترط : أى سيف مسلول وهو معطوف على أجرد . آمراً : حال من ضمير المخاطب أى إذا أمرته بالقطع أطاعك وإذا نهيته عن قتل الأعداء عصاك .

وأَسْمَرَ ذى عِشرينَ تَرْضَاه وَارِداً ... ويَرْضَاكَ فى إيراده الخيلَ ساقيَا(١)
كَتائبَ ما انفكّتْ تجوسُ عَمائراً ... من الأرضِ قد جاسَتْ إليها فيافيَا(٢)
غَزَوْتَ بها دُورَ المُلُوكِ فباشَرَتْ ... سَنَابِكُها هَامَاتِهِمْ وَالمَغانيَا
وأَنْتَ الذى تَغْشَى الأسنّةَ أوّلاَ ... وتَأْنَفُ أَنْ تَغْشَى الأسنّةَ ثَانيَا
إذا الهِنْدُ سَوّتْ بينَ سَيفَىْ كَرِيهَةٍ ... فسَيفُكَ فى كَفٍّ تُزيلُ التّساوِيَا(٣)
وَمِنْ قَولِ سَامٍ لَوْ رآكَ لِنَسْلِه ... فدَى ابنِ أخى نَسلى ونَفسى وَمالِيَا(٤)
مَدًى بَلّغَ الأستاذَ أقصَاهُ رَبُّهُ ... ونَفْسٌ لَهُ لم تَرْضَ إلاّ التّنَاهِيَا(٥)
دَعَتْهُ فَلَبّاهَا إلى المَجْدِ وَالعُلَى ... وَقد خالَفَ النّاسُ النّفوسَ الدّوَاعيَا(٦)
فأصْبَحَ فَوْقَ العالَمِينَ يَرَوْنَهُ ... وَإنْ كانَ يُدْنِيهِ التّكَرُّمُ نائِيَا

---

(١) أراد بالأسمر : الرمح . وذى عشرين أى ذى عشرين كعباً .
(٢) تجوس : تتردد وتتخلل الدور ونحوها . العمائر جمع عمارة : القبيلة ونحوها .
(٣) الكريهة : الشدة في الحرب . أى إذا سوت الهند سيفين متساويين فى المضاء فكفك تزيل هذا التساوى لأنها تجعل الذى تحمله أمضى لقوتها فى الضرب .
(٤) من قول سام : خبر مقدم ، وفدى ابن أخى إلى آخر الشطر مبتدأ مؤخر وهو حكاية القول ، ولنسله متعلق بقول .
(٥) أراد بالأستاذ : كافوراً .
(٦) فاعل دعته ضمير النفس .

خير جليس كتاب

وقال يمدح كافورا وأنشده إياها فى شوال سنة تسع وأربعين وثلاث مئة (٩٦٠ م) وهى آخر ما أنشده ولم يلقه بعدها :

مُـنًى كُنَّ لى أنَّ البَياضَ خِضابُ ... فيَخفى بتَبييضِ القُرونِ شَبابُ (١)
لَيالىَ عندَ البِيضِ فَوْداىَ فِتْنةٌ ... وفَخرٌ وذاكَ الفَخْرُ عندىَ عابُ (٢)
فكيْفَ أذُمُّ اليومَ ما كنتُ أشتَهى ... وأدْعو بمَا أشْكُوهُ حينَ أُجابُ (٣)
جلا اللَّوْنُ عن لوْنٍ هدى كلَّ مسلكٍ ... كمَا انجابَ عن ضَوْءِ النَّهارِ ضَبابُ (٤)
وفى الجسْمِ نَفسٌ لا تَشيبُ بشَيْبِه ... ولَوْ أنَّ مَا فى الوَجْهِ منهُ حِرَابُ (٥)
لهَا ظُفُرٌ إنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ ... ونَابٌ إذا لم يَبْقَ فى الفَمِ نَابُ (٦)
يُغَيِّرُ منى الدّهرُ ما شَاءَ غَيرَهَا ... وأَبْلُغُ أقصى العُمرِ وَهىَ كَعابُ (٧)

---

(١) مُنًى : خبر مقدم عن المصدر المتأول من أن وخبرها . القرون : ضفائر الشعر . يقول : إنه كان يتمنى قديماً أن يكون البياض خضاباً يستر به سواد الشعر كما يستر بياضه بالسواد .

(٢) ليالى : صلة كن وأراد ليالى فوداى ففصل بالظرف . الفودان : جانبا الرأس . العاب : العيب .
يقول : إنه كان يتمنى المشيب فى الليالى التى كان رأسه فيها فتنة عند النساء لحسن شعره وسواده وكن يفتخرن بوصله ولكن ذلك الفخر عيب عنده .

(٣) أى كيف أذم اليوم المشيب الذى كنت أشتهيه .

(٤) جلا : ذهب وزال . انجاب : انكشف . أراد باللون الأول السواد وبالثانى البياض .

(٥) ضمير منه للجسم . كنى بشيب النفس عن الضعف .

(٦) يقول : إن كل ظفرى وذهبت أنيابى من الكبر فهمتى لا تكل .

(٧) يقول : إن نفسه شابة دائما لا يغيرها الدهر وإن تغير جسمه .

وإنّي لنجمٌ تهتدي صُحْبتي به إذا حالَ منْ دونِ النّجومِ سحابُ
غنيٌّ عنِ الأوْطانِ لا يستخِفّني إلى بلَدٍ سافرْتُ عنه إيابُ
وعنْ ذمَلانِ العيسِ إنْ سامحتْ به وإلا ففي أكْوارِهنّ عُقابُ(١)
وأصْدَى فلا أُبْدى إلى الماءِ حاجةً وللشّمسِ فوْقَ اليَعملاتِ لُعابُ(٢)
وللسرّ منى موْضعٌ لا ينالُه نديمٌ ولا يُفْضِى إليْهِ شرابُ(٣)
وللخَوْدِ منى ساعةٌ ثمّ بيْننا فَلاةٌ إلى غيرِ اللّقاءِ تُجابُ(٤)
وما العشْقُ إلاَّ غِرّةٌ وطَماعةٌ يُعرِّضُ قلْبٌ نفْسَهُ فيُصابُ
وغيرُ فُؤادى للغَواني رَميّةٌ وغيرُ بنَانى للزّجاجِ ركابُ(٥)
تركْنا لأطْرافِ القَنا كلَّ شهْوةٍ فليْسَ لنَا إلاَّ بهِنّ لعابُ
نُصرِّفُهُ للطّعْنِ فوْقَ حَوادِرٍ قد انقصَفتْ فيهِنّ منهُ كِعابُ(٦)
أعزُّ مكانٍ في الدُّنى سرْجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزّمانِ كِتابُ(٧)
وبحْرُ أبي المسْكِ الخِضَمُّ الذي لهُ على كلِّ بحْرٍ زخْرةٌ وعُبابُ(٨)

(١) عن ذملان : معطوف على «عن الأوطان» . الذملان : السير السريع . الأكوار جمع كور : الرحل . العقاب : الطائر المعروف كنى به عن نفسه .
(٢) أصدى : أعطش . اليعملات : النياق النجيبة . لعاب الشمس : ما يراه المسافر من أشعة الظهيرة كأنه خيوط تتدلى فوق رأسه .
(٣) النديم : الجليس على الشراب . يفضى : ينتهى . يعنى أنه كتوم للسر إلى الغاية .
(٤) الخود : المرأة الناعمة . تجاب : تقطع . يعنى أنه يصاحب المرأة برهة وجيزة ثم يقاطعها إلى الأبد .
(٥) أراد بالزجاج كؤوس الخمر . الرمية : الهدف .
(٦) الضمير من نصرفه للقنا . الحوادر : الغلاظ السمان .
(٧) الدنى : جمع دنيا . السابح: الفرس السريع الجرى .
(٨) الخضم : الكثير الماء وهو خبر عن بحر . العباب : كثرة الموج وارتفاعه .

تَجَاوَزَ قَدْرَ المَدْحِ حتى كأنَّهُ بأحْسَنِ مَا يُثْنى عَلَيْهِ يُعَابُ
وَغالَبَهُ الأعْداءُ ثُمّ عَنَوْا لَهُ كمَا غالَبَتْ بِيضَ السّيوفِ رِقابُ
وأكْثَرُ مَا تَلْقَى أبَا المِسْكِ بِذْلَةً إذا لم تَصُنْ إلّا الحَديدَ ثِيَابُ(١)
وَأوْسَعُ مَا تَلقاهُ صَدراً وَخَلْفَهُ رِمَاءٌ وَطَعْنٌ وَالأمَامَ ضِرَابُ(٢)
وَأنْفَذُ مَا تَلْقَاهُ حُكْماً إذا قَضَى قَضَاءً مُلُوكُ الأرْضِ منه غِضَابُ(٣)
يَقُودُ إلَيْهِ طاعَةَ النّاسِ فَضْلُهُ وَلَوْ لم يَقُدْهَا نَائِلٌ وَعِقَابُ
أيَا أسَدًا فى جِسْمِهِ رُوحُ ضَيغَمٍ وَكَمْ أُسُدٍ أرْوَاحُهنّ كِلابُ
وَيَا آخذاً من دَهْرِهِ حَقَّ نَفْسِه وَمِثْلُكَ يُعْطَى حَقَّهُ وَيُهَابُ
لَنَا عِنْدَ هذا الدّهْرِ حَقٌّ يَلُطّهُ وَقَدْ قَلّ إعْتابٌ وَطَالَ عِتَابُ(٤)
وَقَد تُحدِثُ الأيّامُ عِندَكَ شِيمَةً وَتَنْعَمِرُ الأوْقاتُ وَهيَ يَبَابُ(٥)
وَلا مُلْكَ إلّا أنتَ وَالمُلْكُ فَضْلَةٌ كأنّكَ سَيفٌ فيهِ وَهْوَ قِرَابُ
أرَى لى بقُرْبى منكَ عَيْناً قَريرَةً وَإنْ كانَ قُرْبًا بالبِعَادِ يُشَابُ(٦)
وَهَل نَافِعِى أنْ تُرْفَعَ الحُجْبُ بَيْنَنا وَدونَ الذى أمّلْتُ مِنْكَ حِجابُ

---

(١) بذلة : تمييز وهى اسم من الابتذال أى ترك الصيانة ، أى أنه لا يحصن نفسه بالدروع وقت الحرب لعدم مبالاته بها .

(٢) قوله : وخلفه رماء : حال سدت مسد خبر أوسع .

(٣) يعنى أن أحكامه تنفذ ولو أغضبت الملوك بعدم موافقتها لهم .

(٤) يلطه : يجحده . الإعتاب : الإرضاء .

(٥) الشيمة : الخلق . تنعمر : تؤهل . اليباب : الخالى .

(٦) يشاب : يمزج .

أُقِلُّ سَلامى حُبَّ ما خَفَّ عَنكُمُ وأسكُتُ كَيمَا لا يَكونَ جَوَابُ(١)
وَفى النَّفسِ حاجاتٌ وَفيكَ فطَانَةٌ سُكُوتى بَيَانٌ عِنْدَها وَخطابُ
وَمَا أنَا بالباغى على الحُبِّ رِشْوَةً ضَعِيفُ هوًى يُبْغَى عَلَيْه ثَوَابُ(٢)
وَمَا شِئْتُ إلاّ أن أُدلَّ عَوَاذلى عَلى أنَّ رأيى فى هَوَاكَ صَوَابُ
وأُعْلِمَ قَوْمًا خَالَفُونى فشَرَّقُوا وَغَرَّبْتُ أنّى قَدْ ظَفِرْتُ وَخَابُوا
جَرَى الخُلْفُ إلاّ فيكَ أنّكَ وَاحدٌ وأنكَ لَيْثٌ وَالْمُلُوكُ ذِئَابُ
وَأنّكَ إنْ قُويِسْتَ صَحّفَ قارئٌ ذئَابًا ولَم يُخطئْ فَقَالَ ذُبَابُ(٣)
وَإنّ مَديحَ النّاسِ حَقٌّ وَبَاطلٌ وَمَدْحُكَ حَقٌّ لَيسَ فيه كِذابُ
إذا نِلْتُ منكَ الوُدّ فالمَالُ هَيّنٌ وَكُلُّ الذى فَوْقَ التّرَابِ تُرَابُ
وَمَا كُنْتُ لَوْلا أنتَ إلاّ مُهاجِرًا لَهُ كُلَّ يَوْمٍ بَلْدَةٌ وَصِحَابُ(٤)
وَلَكنّكَ الدُّنْيَا إلَيّ حَبيبَةً فَمَا عَنْكَ لى إلاّ إلَيْكَ ذَهَابُ

---

(١) حب : مفعول لأجله . يقول : أقلل التسليم عليكم حباً بالتخفيف عنكم وأسكت عن الكلام لكى لا أحوجكم إلى الجواب .

(٢) الباغى : الطالب . يقول : لست أطلب هذه الحاجات نظير رشوة لى عن الحب فإن الحب الضعيف يطلب عليه الثواب .

(٣) أى وإن صحف القارىء عند هذه المقايسة لفظ ذئاب فى البيت السابق وقال ذباب لم يخطىء .

(٤) يقول : لولا وجودك بمصر لم أقم بها بل كنت أتنقل من بلد إلى بلد .

وإذا لم يكن من الموت بد

ومما قـال بمصر ولم ينشدها الأسود ولم يذكره فيها :

صَحِبَ النَّاسُ قبلَنا ذا الزَّمَانَا وَعَنَاهُمْ من شـأنه مَـا عنَـانَا
وَتولَّوْا بغُـصَّـةٍ كُلُّهُـمْ منـ ـهُ وإنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أحْيَـانَا
رُبَّمَا تُحسِنُ الصَّنيعَ لَيَاليـ ـهِ وَلَكِنْ تُكدِّرُ الإحْـسَانَا
وَكَأنَّنا لم يَرْضَ فينَا بريْبِ الـ ـدَّهْرِ حتى أعَانَـهُ مَنْ أعَانَا[1]
كُلَّمَـا أنْبَتَ الزَّمَـانُ قَنَاةً رَكَّبَ المَـرْءُ فى القَنَاةِ سِنَانَا
وَمُرَادُ النُّفُوسِ أصْغَـرُ من أنْ تَتَعَادَى فيه وَأنْ تَتَفَانَى[2]
غَـيـرَ أنّ الفَـتى يُلاقى المَنَايَا كـالحَـاتٍ وَلا يُلاقى الهَـوَانَا[3]
وَلَوَ انّ الحَـيَاةَ تَبْقى لِحَيٍّ لَعَـدَدْنَا أضَلَّنَا الشّـجْعَانَا[4]
وَإذا لـم يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُـدٌّ فَمِنَ العَجْزِ أن تكُونَ جَبَانَا
كلّ ما لم يَكُنْ من الصَّعبِ فى الأنـ ـفُسِ سَهْلٌ فيها إذَا هوَ كانَا

(١) ريب الدهر : حوادثه . يقول : كأن الناس لم يقنعوا بحوادث الدهر فزادوا عليها الشر والعداوة .

(٢) أى أن الذى تريده النفوس من جاه الدنيا وحطامها أحقر من أن يعادى بعضها بعضاً من أجله وتتفانى بسببه .

(٣) كالحات : عابسات . يعنى أن الكريم يقدم على الموت ولا يحتمل الذل .

(٤) أى لو كانت الحياة باقية لكان الشجاع الذى يعرض نفسه للقتل أضل الناس .

ليس إلاّك يا على

أنفذ إليه سيف الدولة ابنه من حلب إلى الكوفة ومعه هدية وكان ذلك بعد خروجه من مصر ومفارقته لكافور ، فقال يمدحه وكتب بها إليه من الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة (٩٦٣ م) :

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوٍ يا رَسُولُ   أنَا أهْوَى وَقَلْبُكَ المَتْبُولُ(١)
كُلّما عادَ مَن بَعَثْتُ إلَيْهَا   غَارَ منّى وَخَانَ فيمَا يَقُولُ
أفْسَدَتْ بيْنَنَا الأمَانَاتِ عَيْنَا   هَا وَخَانَتْ قُلُوبَهُنّ العُقُولُ(٢)
تَشتَكى ما اشتكَيتُ مِن ألَمِ الشّوْ   قِ إلَيها وَالشّوْقُ حَيثُ النُّحولُ(٣)
وَإذا خامَرَ الهَوَى قَلبَ صَبٍّ   فَعَلَيْهِ لِكُلّ عَينٍ دَلِيلُ
زَوّدِينَا من حُسنِ وَجهِكِ ما دا   مَ فَحُسنُ الوُجوهِ حَالٌ تحُولُ
وَصِلِينَا نَصِلْكِ في هَذِهِ الدّنْـ   ـيَا فإنّ المُقَامَ فيها قَليلُ
مَنْ رَآهَا بعَيْنِها شَاقَهُ القُطّـ   ـانُ فيهَا كمَا تَشوقُ الحُمُولُ(٤)

---

(١) الجوَى : المحروق القلب من حزن أو عشق . المتبول : الذى أسقمه الحب وأفسده . يتهم رسوله إلى المحبوبة بأنه قد شاركه فى حبها .

(٢) ضمير قلوبهن للعقول أى خانت العقول قلوبهن .

(٣) أى : أنها تكذب فى شكواها ؛ لأن النحول عنده دونها .

(٤) القطان : السكان . الحمول : الإبل عليها الهوادج .

إنْ تَرَيْنِى أدمتُ بعدَ بياضٍ فحميدٌ من القناة الذُّبولُ(١)
صَحِبَتْنِى على الفلاة فتاةٌ عادةُ اللونِ عندها التبديلُ(٢)
سَتَرَتْكِ الحِجالُ عنها ولكنْ بكِ منها من اللَّمَى تقبيلُ(٣)
مثلُها أنتِ لَوَّحَتْنِى وأسْقَمْـ ـتِ وزادتْ أبهاكُما العُطبولُ(٤)
نحنُ أدرى وقد سألنا بنجدٍ أقصيرٌ طريقُنا أم يطولُ
وكثيرٌ من السؤالِ اشتياقٌ وكثيرٌ من رَدِّه تعليلُ(٥)
لا أقَمْنا على مكانٍ وإنْ طا بَ ولا يُمكنُ المكانَ الرحيلُ
كلَّما رحَّبَتْ بنا الرَّوضُ قُلْنا حَلَبٌ قصدُنا وأنتِ السبيلُ
فيكِ مَرْعَى جيادِنا والمطايا وإليها وجيفُنا والذَّميلُ(٦)
والمُسَمَّوْنَ بالأميرِ كثيرٌ والأميرُ الذى بها المأمولُ
الذى زُلْتُ عنه شرقاً وغرباً ونداهُ مقابِلى ما يزولُ(٧)

---

(١) أدمت : من الأدمة وهى السمرة . الذبول : الدقة ولصوق القشر .

(٢) يريد بالفتاة : الشمس .

(٣) الحجال جمع حجلة : الستر . اللمى سمرة فى الشفة . يقول : حجبتك الستور عن الشمس حتى لا يصيبك شعاعها ولكن فى شفتيك سواد من مثل السواد الذى تؤثره فكأنها قبلت فاك فأثرت موضع التقبيل .

(٤) لوحتنى : غيرت لونى . أسقمت : أى وأسقمتنى فحذف الضمير . العطبول : الطويلة القد التامة من النساء . يقول : إن الشمس غيرت لونى وأنت أسقمتنى ولكن زادت فى هذا التغيير أحسنكما أى أنت .

(٥) أى كثير من السؤال يكون سببه الاشتياق لا الجهل بالمسؤول عنه وكثير من الجواب يكون تطييباً للسائل .

(٦) الوجيف : العدو أى عدو الخيل . الذميل : ضرب من سير الإبل .

(٧) زلت عنه : فارقته .

وَمعى أينمَا سلكتُ كأنّى ... كُلُّ وَجْهٍ لَهُ بوَجْهى كفيلُ(١)
وإذا العَذْلُ فى النّدَى زارَ سَمْعاً ... فَفداهُ العَذُولُ وَالمَعْذُولُ
وَموَالٍ تُحْيِيهمِ من يَدَيْه ... نِعَمٌ غَيْرُهُمْ بهَا مَقْتُولُ(٢)
فَرَسٌ سابحٌ ورمحٌ طَوِيلٌ ... وَدِلاصٌ زُغْفٌ وَسَيفٌ صَقيلُ(٣)
كُلَّمَا صَبّحتْ ديارَ عَدُوٍّ ... قالَ تلكَ الغيوثُ هذى السُّيولُ
دَهمَتْهُ تُطايرُ الزَّرَدَ المُحْـ ... ـكَمَ عَنهُ كمَا يَطيرُ النَّسيلُ(٤)
تَقنِصُ الخَيلَ خَيلُهُ قَنَصَ الوَحْـ ... ـشِ وَيَستأسرُ الخَميسَ الرَّعيلُ(٥)
وَإذا الحَرْبُ أعرَضَتْ زَعَمَ الهَوْ ... لُ لعَينَيْهِ أنهُ تَهْويلُ(٦)
وَإذا صَحَّ فَالزّمانُ صَحيحٌ ... وَإذا اعْتَلَّ فَالزّمانُ عَليلُ
وَإذا غابَ وَجْهُهُ عَنْ مكانٍ ... فَبِهِ مِنْ ثَنَاهُ وَجْهٌ جَميلُ
لَيسَ إلاّكَ يا عَلِيَّ هُمَامٌ ... سَيْفُهُ دونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ
كَيفَ لا تأمَنُ العِراقُ وَمِصْرٌ ... وَسَرَاياكَ دونَهَا وَالخُيُولُ

(١) الوجه : الجهة ، وضمير له للندى .

(٢) الموالى : العبيد والأصدقاء ، وهو عطف على العذول .

(٣) فرس : بدل تفصيل من نعم فى البيت السابق وما بعده عطف عليه . السابح : السريع العدو . الدلاص : الدرع البراقة . الزغف : اللينة المحكمة النسيج .

(٤) المحكم : الموثق الصنعة . النسيل : ما تساقط من ريش الطائر . أى : أنها تطاير زرد الدرع من قوة الضرب كما يطير الريش إذا سقط من الطير .

(٥) الرعيل : القطعة من الخيل بين العشرين والثلاثين .

(٦) أعرضت ظهرت وقامت . الهول : الفزع . التهويل : التفزيع . أى : أنه يستخف بالهول ويقدم عليه كأنه تهويل لا حقيقة له .

لَوْ تَحَرَّفْتَ عَن طَرِيقِ الأعـادى رَبَطَ السِّدْرُ خَيلَهُمْ وَالنَّخيلُ[١]
وَدَرَى مَنْ أعَـــزَّهُ الدَّفعُ عَنهُ فيهمَا أنَّهُ الحَقيرُ الذَّليلُ[٢]
أنتَ طُولَ الحَيَــاة للرّومِ غــازٍ فَمتَى الوَعْدُ أنْ يكونَ القُفولُ[٣]
وَسوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهرِكَ رُومٌ فَعلَى أىّ جَانبَيْكَ تَميلُ
قَعَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنْ مَساعيـ ـكَ وَقامتْ بها القَنَا وَالنُّصُولُ
مـا الذى عِنْدَهُ تُدارُ المَنَايَا كـالّذى عنده تُدارُ الشَّمُولُ
لَسْتُ أرضَى بأنْ تكُونَ جَـوَاداً وَزَمَــانى بأنْ أرَاكَ بَخيـلُ
نَغَّصَ البُعدُ عَنكَ قُرْبَ العَطايا مَرْتعى مُخصِبٌ وجسمى هَزيلُ[٤]
إنْ تَبَوّأتُ غَيرَ دُنيَایَ داراً وَأتَانى نَيْلٌ فَـأنْتَ المُنيلُ
من عَبيدى إنْ عِشتَ لى ألفُ كافو رٍ وَلى من نَداكَ رِيفٌ ونيلُ[٥]
مَا أُبَالى إذا اتّقَتْكَ اللّيَالى مَنْ دَهَتْهُ حُبُولُها وَالخُبُولُ[٦]

---

(١) تحرفت : انحرفت . السدر : شجر النبق . أى : ربطوا خيلهم بالسدر والنخيل دون أن يقف أحد فى طريقهم .

(٢) الضمير من فيهما للعراق ومصر .

(٣) يكون تامة ، والقفول الرجوع .

(٤) نغَّص: كدر .

(٥) أراد بكافور كافوراً الإخشيدى الذى سيأتى ذكره . الريف : أرض فيها زرع وخصب ومنها ريف مصر المشهور وهو المراد هنا ، وأراد بالنيل نيل مصر .

(٦) الحبول جمع حبل : وهو الداهية . الخبول جمع خبل : فساد الأعضاء والعقل .

الخيلُ والليل والبيداء تعرفنى

قال وقد جرى له خطاب مع قوم متشاعرين وظن الحيف عليه والتحامل :

واحَــر قَلْبــاهُ ممّنْ قَلْبُــهُ شَــبِمُ وَمَنْ جِسْمى وَحالى عِندَهُ سَقَمُ (١)
مالى أُكَتِّمُ حُبّاً قَدْ بَرى جَسَدى وَتَدعى حُبَّ سَيفِ الدَوْلَةِ الأُمَمُ (٢)
إنْ كَانَ يَجْمَعُنَا حُبٌّ لِغُرَّتِه فَلَيْتَ أنّا بِقَدْرِ الحُبِّ نَقْتَسِمُ (٣)
قَد زرته وسُيُوفُ الهِنْدِ مُغْمَدَةٌ وَقَد نَظَرتَ إلَيهِ وَالسُيُوفُ دَمُ
فكانَ أحْسَنَ خَلقِ اللهِ كُلِّهِمِ وَكَانَ أحسنَ ما فى الأحسَنِ الشِّيَمُ
فَوتُ العَدُوِّ الذى يَمَّمْتَهُ ظَفَرٌ فى طَيِّهِ أسَفٌ فى طَيِّهِ نِعَمُ (٤)
قد نابَ عنكَ شَديدُ الخوفِ وَاصْطنعتْ لَكَ المَهابَةُ ما لا تَصْنَعُ البُهَمُ (٥)
ألزَمْتَ نَفْسَكَ شَيْئاً لَيس يَلزَمُها أنْ لا يُوارِيَهُمْ أرْضٌ وَلا عَلَمُ
أكُلّمَا رُمْتَ جَيْشاً فانْثَنَى هَرَبًا تَصَرَّفَتْ بِكَ فى آثارِهِ الهِمَمُ
عَلَيْكَ هَزْمُهُمُ فى كلِّ مُعْتَرَكٍ وَمَا عَلَيْكَ بِهِمْ عَارٌ إذا انهَزَمُوا

(١) واحر قلباه : الألف للندبة ، والهاء للسكت . الشبم : البارد .
(٢) يقول : ما لى أخفى حبه الذى أنحل جسدى والناس يدعون حبه وهم على خلاف ما يظهرون .
(٣) غرته : طلعته ، وأن وصلتها سدت مسد معمولى ليت .
(٤) يعنى أن فرار العدو الذى قصدته يعد ظفرا لك وضمن هذا الظفر أسف لأنك لم تدركه وفى هذا الأسف نعم لرجالك لحقن دمائهم .
(٥) البهم جمع بهم : أراد بها هنا الجيش .
(٦) يقول : ألزمت نفسك أن تتبعهم أينما تواروا وهذا أمر لا يلزمك .

أَمَا تَرَى ظَفَراً حُلْواً سِوَى ظَفَرٍ تَصَافَحَتْ فِيهِ بِيضُ الهِنْدِ واللِّمَمِ
يا أعدلَ النَاس إلاّ في مُعامَلَتي فيكَ الخِصامُ وأنتَ الخَصْمُ والحَكَمُ
أُعيذُها نَظَراتٍ مِنْكَ صادِقَةً أن تحسَبَ الشَحمَ فيمن شحمُه وَرَمُ (١)
وَمَا انْتِفَاعُ أخي الدُّنْيَا بِنَاظِرِه إذا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأنْوارُ وَالظُّلَمُ
سَيَعْلَمُ الجَمعُ مِمّنْ ضَمّ مَجلِسُنا بأنّني خَيرُ مَنْ تَسْعَى بهِ قَدَمُ
أنَا الذي نَظَرَ الأعْمَى إلى أدَبي وَأسْمَعَتْ كَلِماتي مَنْ بهِ صَمَمُ
أنَامُ مِلْءَ جُفُوني عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرّاهَا وَيخْتَصِمُ (٢)
وَجاهِلٍ مَدّهُ في جَهْلِهِ ضَحِكي حَتّى أتَتْهُ يَدٌ فَرّاسَةٌ وَفَمُ
إذا رَأيْتَ نُيُوبَ اللّيْثِ بارِزَةً فَلا تَظُنّنّ أنّ اللّيْثَ يَبْتَسِمُ
وَمُهْجَةٍ مُهْجَتي من هَمّ صَاحِبها أدرَكْتُهَا بجَوَادٍ ظَهْرُه حَرَمُ (٣)
رِجلاهُ في الرّكضِ رِجلٌ وَاليدانِ يَدٌ وَفِعْلُهُ مَا تُريدُ الكَفُّ وَالقَدَمُ
وَمُرْهَفٍ سرْتُ بينَ الجَحْفَلَينِ بهِ حتى ضرَبْتُ وَمَوْجُ المَوْتِ يَلْتَطِمُ
الخَيْلُ وَاللّيْلُ وَالبَيْداءُ تَعرِفُني وَالسّيفُ وَالرّمحُ والقرْطاسُ وَالقَلَمُ
صَحِبْتُ في الفَلَواتِ الوَحشَ منفَرِداً حتى تَعَجّبَ مني القُورُ وَالأكَمُ (٤)

---

(١) نظرات : تمييز للضمير قبلها ، الشحم والورم : مثل لما يتشابه ظاهره وتختلف حقيقته .

(٢) يقول : أدرك شوارد الشعر بدون عناء وغيرى من الشعراء يسهرون لتحصيلها ويتنازعون على ما يظفرون به منها لندرة وجوده عندهم .

(٣) المهجة : الروح وهى مجرورة برب مقدرة ومهجتى مبتدأ ، ومن متعلقة بالخبر المحذوف ، والجملة نعت مهجة ، وأدركتها جواب رب ، وجملة ظهره حرم مبتدأ وخبر وهى نعت جواد .

(٤) القور جمع قارة : الأرض التى حجارتها سوداء .

يا مَنْ يَعِزّ علَيْنا أنْ نُفارِقَهُمْ | وجِدانُنا كُلَّ شيءٍ بَعدَكُمْ عَدَمُ
ما كانَ أخلَقَنا منكُمْ بتَكرِمَةٍ | لَوْ أنّ أمرَكُمُ من أمرِنَا أمَمُ (١)
إنْ كانَ سَرّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا | فَمَا لجُرْحٍ إذا أرْضاكُمُ ألَمُ
وبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذاكَ مَعرِفَةٌ | إنّ المَعارِفَ في أهْلِ النُّهَى ذِمَمُ
كم تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فيُعجِزُكمْ | ويَكْرَهُ الله ما تَأتُونَ وَالكَرَمُ (٢)
ما أبعدَ العَيبَ والنّقصانَ منْ شرَفي | أنَا الثّرَيّا وَذانِ الشّيبُ وَالهَرَمُ (٣)
لَيْتَ الغَمَامَ الذي عندي صَواعِقُهُ | يُزيلُهُنّ إلى مَنْ عِنْدَهُ الدِّيَمُ (٤)
أرَى النّوَى يَقتَضِيني كلَّ مَرْحَلَةٍ | لا تَسْتَقِلّ بها الوَخّادَةُ الرُّسُمُ (٥)
لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيراً عَنْ مَيامِنِنا | لَيَحْدُثَنّ لمَنْ وَدّعْتُهُمْ نَدَمُ (٦)
إذا تَرَحّلْتَ عن قَوْمٍ وَقَد قَدَروا | أنْ لا تُفارِقَهُمْ فالرّاحِلونَ هُمُ
شَرّ البِلادِ مَكانٌ لا صَديقَ بِهِ | وَشَرّ ما يَكسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ (٧)
وَشَرّ ما قَنّصَتْهُ راحَتي قَنَصٌ | شُهْبُ البُزاةِ سَواءٌ فيهِ والرَّخَمُ (٨)
بأيّ لَفْظٍ تَقُولُ الشّعْرَ زِعْنِفَةٌ | تَجُوزُ عِندَكَ لا عُرْبٌ وَلا عَجَمُ (٩)
هَذا عِتابُكَ إلاّ أنّهُ مِقَةٌ | قد ضُمّنَ الدُّرَّ إلاّ أنّهُ كَلِمُ (١٠)

---

(١) أمم : قريب ، أى لو كان أمركم قريبا من أمرنا .
(٢) أى وكرمكم يكره ذلك .
(٣) يقول : إن العيب والنقصان بعيدان عنى كبعد الشيب والهرم عن الثريا .
(٤) أراد بالغمام سيف الدولة وبالصواعق سخطه والأمطار برّه ، يقول : يا ليت الأذى الذى نالنى من سيف الدولة والبر الذى نال غيرى منه يتحولان من أحدنا إلى الآخر فينتصف الفريقان .
(٥) يقتضينى : يكلفنى ، الوخادة : الناقة السريعة السير ، الرسم جمع الرسوم : التى تؤثر فى الأرض بأخفافها .
(٦) ضمير : جبل عن يمين الراحل من الشام إلى مصر .
(٧) يصِمُ : يعيب .
(٨) الشُهب : جمع أشهب ، وهو ما فيه بياض يصدعه سواد ، الرخم : جمع رخمة ، طائر من الجوارح الكبيرة الجثة ، والوحشية الطباع .
(٩) الزعنفة : اللئام من الناس .
(١٠) المقة : المحبة .

أنت تخلق ما تأتي

قال وقد ظفر بسيف الدولة في هذه الغزوة :

غضيري بأكثر هذا الناس ينخدع ... إن قاتلوا جبنوا أو حدّثوا شجعوا
أهلُ الحفيظة إلّا أن تجرّبهم ... وفي التجارب بعد الغيّ ما يزع (١)
وما الحياة ونفسي بعدما علمت ... أنّ الحياة كما لا تشتهي طبع (٢)
ليس الجمال لوجه صحّ مارنه ، ... أنفُ العزيز بقطع العزّ يجتدع (٣)
أأطرح المجد عن كتفي وأطلبه ... وأترك الغيث في غمدي وأنتجع (٤)
والمشرفيّة لا زالت مشرّفة ... دواء كلّ كريم أو هي الوجع
وفارس الخيل من خفّت فوقّرها ... في الدّرب والدّم في أعطافه دفع (٥)
فأوحدته وما في قلبه قلق ... وأغضبته وما في لفظه قذع (٦)
بالجيش تمتنع السادات كلّهم ... والجيش بابن أبي الهيجاء يمتنع (٧)
قاد المقانب أقصى شربها نهل ... على الشكيم وأدني سيرها سرع (٨)

---

(١) الحفيظة : الحمية ، الغي : خلاف الرشد ، يزع : يكف ويردع ، يقول : إن هؤلاء الناس أهل حمية مالم تجربهم فإذا جربتهم لا تجدهم كذلك .
(٢) الطبع : الدنس والعيب .
(٣) المارن : الأنف ، اجتدع الأنف : قطعه ، يعني أن العزيز متى انقطع عنه ذل وصار كالمقطوع الأنف .
(٤) الانتجاع : طلب مواقع الغيث ، وكنى بالمجد والغيث عن السيف لأنهما يدركان به .
(٥) خفت : أسرعت في الهزيمة ، وقرها : ثبتها وسكنها ، الدرب : المضيق وكل مدخل إلى بلاد الروم ، أعطافه : جوانبه ، الدفع جمع دفعة : ما انصب من الشيء بمرة ، والمراد بفارس الخيل هنا سيف الدولة .
(٦) أوحدته : تركته وحيداً ، القذع : سوء القول والفحش ، ويعني أن خيله قد تركته وحيداً ولم يقلق ولا تكلم بسوء .
(٧) ابن أبي الهيجاء : سيف الدولة .
(٨) المقانب : جماعات الخيل ، النهل : الشرب أول مرة ، شكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس ، السرع : الإسراع .

لا يَعْتَقِى بَلَدٌ مَسْراهُ عَنْ بَلَدٍ كَالمَوْتِ لَيس لَهُ رِىٌّ وَلا شِبَعُ(١)
حتى أقامَ عَلى أرْباضِ خَرْشَنَةٍ تَشْقَى بِه الرّومُ والصُّلْبانُ والبِيَعُ(٢)
مُخْلىً لهُ المَرْجُ مَنْصُوباً بصارِخَةٍ لَهُ المَنابِرُ مَشْهوداً بِها الجُمَعُ(٣)
يُطَمِّعُ الطَّيرَ فيهِمْ طُولُ أكْلِهِم حتى تَكادَ على أحْيائِهِمْ تَقَعُ
وَلَوْ رآهُ حَوارِيُّوهُمُ لَبَنَوْا على مَحَبَّتِهِ الشَّرْعَ الذى شَرَعُوا
لامَ الدُّمُسْتُقُ عَيْنَيْهِ وَقَدْ طَلَعَتْ سُودُ الغَمامِ فَظَنُّوا أنَّها قَزَعُ(٤)
فيها الكُماةُ التى مَفْطُومُها رَجُلٌ على الجِيادِ التى حَوْلِيُّها جَذَعُ(٥)
يَذرى اللُّقانُ غُباراً فى مَناخِرِها وَفى حَناجِرِها مِن آلِسٍ جُرَعُ(٦)
كأنّها تَتَلَقّاهُمْ لِتَسْلُكَهُمْ فالطعن يفتح فى الأجواف ما تسعُ(٧)
تَهْدى نَواظِرَها وَالحَرْبُ مُظْلِمَةٌ مِنَ الأسِنَّةِ نارٌ وَالقَنا شَمَعُ
دونَ السِّهامِ وَدونَ القُرِّ طافِحَةٌ عَلى نُفُوسِهِمِ المُقْوَرَّةُ المُزُعُ(٨)
إذا دَعا العِلْجُ عِلْجاً حالَ بَيْنَهُما أظْمَى تُفارِقُ مِنهُ أُخْتَها الضِّلَعُ(٩)

(١) يعتقي : يعتاق وهو مطلوب عنه .
(٢) الأرباض : النواحى ، رشنة : بلد بالروم .
(٣) المرج : مكان ، صارخة : بلد ، المنابر مرفوع بمنصوبا ، مشهوداً : محضوراً بها يعود إلى صارخة .
(٤) القزع : القطع من السحاب ، يقول : إن الدمستق ظن أن عساكر سيف الدولة شراذم قليلة « لكن لما طلعت وجدها كالغمام الأسود لكثرتها فلام عينيه لأنهما رأتا غير الواقع » .
(٥) الحولي : الذى أتت عليه سنة ، والجذع : الذى أتت عليه سنتان ، أى أن الصغير فى جيشه كبير .
(٦) اللقان : اسم موضع ، آلس : نهر على مسافة منه يقول : إنه لسرعة جرى خيله تشرب وتستتم البلع فى اللقان .
(٧) يقول : إن الطعن يفتح جراحات واسعة فى أجواف الروم حتى تسع الفرس أن يدخل منها .
(٨) السهام : وهج الصيف ، القر : البرد ، طافحة : مرتفعة ، المقورة : الضامرة يعنى الخيل : المزع : المسرعة ، يقول : إن سيف الدولة يغزوهم مرتين فى السنة الواحدة قبل حر الصيف والثانية قبل برد الشتاء .
(٩) الأظمي : من صفات الرمح .

أجلٌ منْ الفُقّاسِ مُنكَتِفٌ إذْ فاتَهنَّ وأمضَى منه مُنصَرِعُ[١]
ومَا نَجْا مِنْ شِفارِ البِيضِ مُنفَلِتٌ نَجَا ومِنْهُنَّ فى أحْشَائه فَزَعُ[٢]
يباشِرُ الأمْنَ دهْراً وهْوَ مُختَبلٌ ويشرَبُ الخَمْرَ حَوْلا وهوَ ممتقعُ[٣]
كَمْ مِنْ حُشَاشَةِ بطْريقٍ تضَمَّنَها للباتراتِ أمينٌ مَا لَهُ ورَعُ[٤]
يقاتِلُ الخطْوَ عَنْهُ حينَ يطْلُبُهُ ويَطرُدُ النَّوْمَ عَنْهُ حينَ يَضْطَجِعُ[٥]
تغْدو المَنَايا فَلا تَنْفَكُّ وَاقِفَةً حتى يقولَ لهَا عُودى فَتنْدَفِعُ[٦]
قُلْ للدُّمُسْتُقِ إنَّ المُسْلمينَ لَكُم خانوا الأُمِيرَ فجازاهُمْ بما صَنَعُوا
وَجَدْتُمُوهُمْ نِيَاماً فى دِمائِكُمُ كأنَّ قَتْلاكُمُ إيّاهُمْ فَجَعُوا
ضَعْفَى تَعِفُّ الأيادى عَنْ مِثَالِهِمِ مِنَ الأعادى وَإنْ هَمُّوا بهم نزعوا[٧]
لا تحسَبوا مَن أسرْتم كانَ ذا رَمَقٍ فَلَيْسَ يأكُلُ إلاَّ المَيْتَةَ الضَبُعُ
هَلاَّ على عَقَبِ الوادى وقَدْ طَلَعَتْ أُسْدٌ تَمُرُّ فُرادَى لَيسَ تجتَمِعُ[٨]
تَشُقُّكُمْ بفَتَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ والضَّرْبُ يأخُذُ منكُم فوقَ ما يدَعُ
وَإنَّمَا عَرَّضَ اللّهُ الجنُودَ بكُمْ لكَيْ يَكونوا بلا فَسْلٍ إذا رَجَعُوا[٩]

(١) الفقاس : بلد الدمستق ، المنكتف : المشدود الكتاف .
(٢) نجا : نعت منفلت أى أن الذى نجا من شفار السيوف وبقى خائفا منها لم ينج من الموت ؛ لأن الخوف يقتله ولو بعد حين .
(٣) المختبل : الذى أصابه فساد فى عقله ، الممتقع : المتغير اللون .
(٤) الحشاشة : بقية الروح ، تضمنها : كلفها ، والمراد بالأمين القيد ، الورع : التقوى ، يريد أن القيد يضمن للسيوف أنه يسلمها الأسرى متى طلبت منه .
(٥) أى أن القيد يمنع الأسير من المشى ويطرد النوم عنه .
(٦) ضمير يقول لسيف الدولة .
(٧) نزعوا : مالوا وأعرضوا .
(٨) هلاَّ : حرف توبيخ ومتعلق على محذوف أى هلاَّ قاتلتم ونحوه .
(٩) الفسل : الرذل الذى لا مروءة له .

فكُلّ غـــزوٍ إليكُم بعـــدَ ذا فَلَهُ وَكُلُّ غــازٍ لسَــيْفِ الدّولة التَّــبَعُ
تَمْــشِي الكِرامُ على آثارِ غَـيـرِهِمِ وأنتَ تَخْلُقُ مــا تأتى وتبــتــدِع
وَهَلْ يَشِــينُكَ وقتٌ كنتَ فــارِسَــهُ وَكــانَ غيـرَكَ فيـه العـاجِزُ الضَّـرَعُ
مَن كانَ فوْقَ محَلّ الشَمسِ موْضِعُه فَلَيْس يرفَـــعُـــه شيءٌ ولا يَضَـعُ
لم يُسلمِ الكرُّ فى الأعقـاب مُهْجَتَهُ إنْ كانَ أسلَمَها الأصْحابُ وَالشّيَعُ[١]
لَيتَ الملُوكَ على الأقــدارِ مُــعْطِيَــةٌ فلَـمْ يكُنْ لِدَنىءِ عنـدَهَا طَمَـعُ[٢]
رَضِـيت منهُمْ بأنْ زُرْتَ الوَغى فــرأَوْا وأن قرَعتَ حَبيكَ البيض فاستَمعوا[٣]
لقــد أباحَكَ غِـشّـاً فى مُـعـامَلَةٍ مَن كنتَ منه بغَـيـرِ الصِّدق تنتـفع
الدهرُ مُـعـتَـذِرٌ والسّـيفُ منتَـظِرٌ وأرضُـهُمْ لَكَ مُـصْطافٌ ومُــرتَبع
ومــا الجِـبَـالُ لنَصْـرانٍ بحـامِـيَـةٍ ولَو تَنَصَّرَ فيـهـا الأعـصَمُ الصَّدَعُ[٤]
ومـــا حَـمِـــدْتُكَ فى هَوْلٍ ثَبَتَّ به حــتى بَلَوْتُكَ وَالأبْطالُ تَمـتَـصِعُ[٥]
فــقــد يُظَنُّ شُـجـاعًـا مَنْ به خَـرَقٌ وَقَــدْ يُظَنُّ جَـبَــانـاً مَنْ بِهِ زَمَعُ[٦]
إن السّـلاحَ جَـمـيعُ النّاسِ تحْـمله وَلَيسَ كُلّ ذوات المِخْلَبِ السَّـبُعُ

(١) يسلم : يخذل ، الكر : الرجوع إلى الحرب ، الأعقاب : الأواخر وأراد أواخر الخيل هنا ، الشيع : الأتباع .
(٢) أى ليت الملوك يعطون الشعراء على قدر فضلهم فى الشعر حتى لا يطمع بعطائهم الخسيس .
(٣) حبيك جمع حبيكة : البيضة من حديد تلبس على الرأس ، أى رضيت من الشعراء بالنظر إلى حربك فقط من غير أن يباشروها مثلى .
(٤) الأعصم : الوعل الذى فى إحدى يديه بياض ، الصدع : الفتى .
(٥) بلوتك : اختبرتك ، تمتصع : تذهب هاربة فى الأرض .
(٦) الخرق : الخفة والطيش ، الزمع : الارتعاد .

بدر وبحر

وقال يمدح سيف الدولة أبا الحسن علي بن عبد الله بن حمدان العدوى عند منصرفه من الظفر بحصن برزويه وعودته انطاكيه وقد جلس فى فازة[١] من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٧م) .

وَفاؤكُما كالرَّبعِ أشْجاهُ طَاسِمُهْ ... بأن تُسعدا والدَّمْعُ أشفاهُ ساجِمُهْ[٢]

وما أنا إلاَ عاشقٌ كلُّ عاشقٍ ... أعقُّ خَليليه الصفيين لائمه[٣]

وقَدْ يَتَزيّا بالهَوَى غَيرُأَهْلِهِ ... ويَسْتَصْحِبُ الإنسانُ مَن يُلائمه

بَليتُ بلى الأطَلالِ إنْ لم أقِفْ بها ... وُقوفَ شَحيح ضاعَ فى التُّرْبِ خاتمه

كئيبًا توَقّانى العَواذلُ فى الهَوَى ... كمَا يَتَوقَّى رَيِّضَ الخَيلِ حازِمُهْ[٤]

قفى تَغرمِ الأولى من اللحظ مهجتى ... بثانيةٍ والمتلف الشَّيءَ غارمه[٥]

---

(١) الفازة : مظلة بعمودين .

(٢) أشجاه تفضيل من شجاه الأمر إذا أحزنه . طاسمه : دراسه ، تسعدا : تساعدا ، أشفاه أي أكثر شفاء ، ساجمه : ساكبه ، وإعرابه : وفاؤكما مبتدأ خبره كالربع وجملة أشجاه طاسمه حال من الربع والباء متعلقة بوفاء ، والدمع مبتدأ أول وأشفاه ثان وساجمه خبر الثانى والجملة خبر الأول ، يقول لصاحبه : وفاؤكم بمساعدتى كهذا الربع فإنه كلما درس كان أدعى للحزن وكذلك كلما قلت مساعدته لى بالبكاء اشتد حزنى .

(٣) أعق : ضد أبر ، الصفى : الصادق الإخاء .

(٤) الريض من الخليل : الصعب الانقياد أول ما يراض ، حازمه : الذى يشد له الحزام .

(٥) يقول : قفى لأنظرك نظرة ثانية ترد مهجتى التى أتلفتها النظرة الأولى لأن الذى يتلف شيئا يتحمل غرامته .

سقاك وحيانا بك الله إنّما على العيس نَوْرٌ والخدورُ كمائمُه(١)

وما حاجةُ الأظعانِ حَوْلَكِ فى الدّجى إلى قمرٍ ما واجدٌ لكِ عادمه(٢)

إذا ظفرَتْ منك العيونُ بنَظرةٍ أثابَ بها مُعيى المَطىِّ ورازِمه(٣)

حبيبٌ كأنّ الحُسنَ كانَ يُحبّه فآثَرَهُ أوْ جارَ فى الحُسنِ قاسمه

تحولُ رِماحُ الخَطّ دونَ سِبائه وتُسبَى لَهُ مِنْ كلّ حَىٍّ كرائمُهْ(٤)

ويضحى غُبارُ الخَيلِ أدنَى سُتُوره وآخِرُها نَشْرُ الكِبَاء المُلازِمُه(٥)

وما اسْتَغْرَبَتْ عينى مزاقًا رأيْتُهُ ولاَ علّمَتْنى غَيرَ ما القلبُ عالِمُهْ

فلَا يتّهِمْنى الكاشِحونَ فإننى رَعيتُ الرّدى حتى حَلَتْ لى علاقِمُهْ(٦)

مُشِبٌّ الذى يَبكى الشبابَ مُشيبُه فكَيفَ تَوَقّيهِ وبانِيهَ هادِمُهْ(٧)

(١) النور : الزهر ، الكمائم جمع كمامة : غلاف الزهر ، الخدور جمع خدر : خشبات تنصب فوق قتب البعير مستورة بقوب .

(٢) قوله ما واجد لك عادمه : استئناف . يقول ما حاجة النساء المسافرات معك إلى القمر بالليل فإن من وجدك لم يعدم القمر لأنك مثله .

(٣) أثاب : رجع إليه وجسه بعد الهزال ، الرازم : الذى سقط من الإعياء ، يقول : إن رؤيتك تُحيى الناظرين حتى إن الإبل الرازحة إذا نظرت إليك عاد إليها نشاطها .

(٤) الخطِ : موضع باليمامة تقوم به الرماح .

(٥) النَّشر : الريح الطيبة ، الكباء : عود البخور ، يقول : إن أقرب ستوره من جهة الطالب غبار الخيل وآخرها ريح البخور .

(٦) الكاشح : الذى يضمر العداوة ، العلاقم جمع علقم : الحنظل .

(٧) مشب : مبتدأ ومشيبه خبر ، أى أن الذى أشاب الذى يبكى الشباب هو الذى أشبه فلا سبيل له إذن إلى توقى الشيب لأن أمره فى يد غيره .

وتَكْمِلَةُ العَيشِ الصِّبَى وعَقِيبُهُ ... وغائبُ لَوْنِ العارِضينِ وقادِمُهُ(١)
وما خَضَبَ النَّاسُ البَياضَ لأنه ... قَبيحٌ ولكنْ أحْسَنُ الشَّعرِ فاحِمُه
وأحسنُ مِنْ ماءِ الشَّبيبَةِ كُلِّه ... حَيَا بارقٍ فى فازَةٍ أنا شائِمُه(٢)
عَلَيها رِياضٌ لم تَحُكْها سَحابَةٌ ... وأغصانُ دَوحٍ لَمْ تَغَنَّ حمائمُه(٣)
وفَوقَ حَواشى كلِّ ثَوبٍ مُوجَّهٍ ... من الدُّرِّ سِمْطٌ لم يُثَقِّبْهُ ناظمُه(٤)
تَرَى حَيَوانَ البَرِّ مُصطَلِحًا به ... يُحارِبُ ضِدٌّ ضِدَّهُ ويسالمُه(٥)
إذا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ ماجَ كأنَّهُ ... تجولُ مذاكيه وتَدأى ضراغمُه(٦)
وفى صورةِ الرُّومىِّ ذى التَّاجِ ذِلَّةٌ ... لأبْلَجَ لا تيجانَ إلاَّ عمائمُه(٧)
تُقَبِّلُ أفْواهُ المُلُوكِ بِساطَهُ ... ويَكْبُرُ عَنها كُمُّهُ وبراجمُه(٨)
قِياماً لِمَنْ يشفى مِنَ الدَّاءِ كَيُّهُ ... ومَن بينَ أُذْنَىْ كلِّ قَرمٍ مواسمُه(٩)

---

(١) العارضان : جانبا الوجه ، عقيبه : تاليه ، والمراد بالغائب من لون العارضين سواد شعرهما أيام الشباب وبالقادم بياض المشيب .
(٢) ماء الشبيبة : نضارتها ورونقها ، الحيا : المطر ، الشائم إلى البرق يرجو المطر ، وعنى بالبارق الممدوح أى أن ما يرجوه من كرم الممدوح هو أحسن من ماء الشبيبة .
(٣) ضمير عليها للفازة ، الدوح : الشجر العظيم ، يريد بالرياض والشجر صورا منقوشة على الفازة .
(٤) الموجه : ذو الوجهين .
(٥) المراد بحيوان البرّ : صور حيوانات عليها .
(٦) المذاكى : الخيل المسنة . تدأى : تختل وتراوغ .
(٧) الأبلج : المشرق النقى ما بين الحاجبين والمراد به سيف الدولة ووصفه بأنه لا تاج له ، لأنه عربى وتيجان العرب عمائمها وكان سيف الدولة قد صور على الفازة أى الخيمة ملك الروم ساجدا له .
(٨) البراجم : مفاصل الأصابع .
(٩) قياما : حال من الملوك ، المواسم جمع ميسم : المكواة .

قَبائعُها تَحتَ المَرافقِ هَيْبَةً وأنْقَذُ مِمَا فى الجُفُونِ عَزائِمُهْ(١)
لَهُ عَسْكَرَا خَيْلٍ وطَيرٍ إذا رَمَى بِها عَسكراً لم يبقَ إلاّ جَماجِمُهْ
أجِلَّتُها مِنْ كلِّ طاغٍ ثِيابُهُ ومَوطِئُها مِن كلّ باغٍ مَلاغِمُهْ(٢)
فَقَدْ مَلَّ ضَوْءُ الصُّبْحِ مِمّا تُغيِّرُهُ ومَلَّ سَوادُ اللّيلِ مِمّا تُزاحِمُهْ
ومَلَّ القَنَا مِمّا تَدقُّ صُدورَهُ ومَلَّ حَديدُ الهِنْدِ مِمّا تُلاطِمُهْ
سَحابٌ مِنَ العِقبانِ يَزْحَفُ تَحتَها سحابٌ إذا استَسقتْ سقتها صَوارِمُهْ(٣)
سلَكتُ صُروفَ الدّهرِ حتى لقِيتُهُ على ظَهرِ عَزْمٍ مُؤْيَدَاتٍ قَوائِمُهْ(٤)
مَهالكَ لم تصْحَبْ بها الذئبَ نَفسُه ولا حَمَلَتْ فيها الغُرابَ قَوادِمُهْ(٥)
فأبصرت بدراً لا يرى البدرُ مِثْلَهُ وخاطَبْتُ بحْراً لا يرى العِبرَ عائِمُهْ
غَضِبتَ له لما رأيت صِفاته بلا واصِفٍ والشعر تهذى طَماطِمُهْ(٦)
وكنت إذا يمّمتُ أرضاً بعيدةً سرَيتُ فكنْتُ السرّ واللّيلُ كاتِمُهْ
لقد سلَّ سيفَ الدولةِ المجدُ مُعْلَماً فلا المَجدُ مخفيه ولا الضَّرْبُ ثالِمُهْ(٧)

---

(١) القبائع جمع قبيعة : ما على طرف مقبض السيف من فضة أو حديد ، والضمير للملوك ، المرافق : مواصل الأذرع في الأعضاء ، يعنى قاموا بين يديه متكئين على قبائع سيوفهم من هيبته وعزائمه أمضى من النصال التى فى أغماد السيوف .
(٢) الأجلة جمع جلال : ما يجعل على ظهر الدابة والضمير للخيل فى البيت السابق ، الملاغم : ما حول الفم
(٣) أنّث السحاب الأول على معنى الجمعية .
(٤) صروف الدهر : حدثانه ونوائبه ، المؤيد : القوى .
(٥) قوادم الغراب : صدور جناحيه ، أراد أن المسافات المهولة التى قطعها لو سلكها الذئب أو الغراب لهلكا .
(٦) تهذى : تتكلم بغير معقول ، الطماطم جمع طمطم : الذى فى لسانه عجمة .
(٧) المجد : فاعل سلّ . المعلم : الذى يميز نفسه بعلامة فى الحرب ، ثلم السيف : كسر حرفه .

عَلي عــاتِقِ المَلْكِ الأغَــرِّ نِجَــادُهُ ... وفى يَدِ جَبّـار السّمـاوات قـائمُـهُ[١]
تُحــارِبُهُ الأعــداءُ وهى عَــضِــيــدُهُ ... وتدّخــر الأمــوالَ وهْىَ غَنائمُـه
ويســتكبــرون الدّهرَ والدّهْرُ دونَهُ ... ويَستَعظمـونَ المَوتَ والمَوْتُ خـادمُهْ
وإنْ الذى سَــمّى عَليــّاً لُمنْصِفُ ... وإنْ الذى سمـاه سَيـفـاً لَظالمُـهْ
ومــا كلُّ سَـيفٍ يَقْطَعُ الهَـامَ حَـدُّهُ ... وتَقْطَعُ لَزْباتِ الزّمـانِ مَكَارِمُــه[٢]

(١) العالق:موضع نجاد السيف من الكتف ، الأغر : الشريف ، النجاد : حمالة السيف ، القائم : المقبض .
(٢) لزبات الزمان : شدائده ، أى أن هذا الممدوح أفضل من السيف ، لأنه يقطع رؤوس الأبطال بحد عزمه وشدائد الزمان بمكارمه فمن سماه بالسيف لم ينصفه .

ورد إذا ورد البحيرة شارباً

خرج بدر بن عمار إلى أسد فهرب الأسد منه ، وكان قد خرج قبله إلى أسد آخر فهاجه عن بقرة افترسها بعد أن شبع وثقل فوثب إلى كفل فرسه فأعجله عن استلال سيفه فضربه بالسوط ودار به الجيش ، فقال أبو الطيب :

فى الخَدِّ أنْ عَزَمَ الخَليطُ رَحيلا مَطَرٌ تَزيدُ به الخُدودُ مُحُولاً(١)
يا نَظْرَةً نَفَتِ الرُّقادَ وغادَرَتْ فى حَدِّ قَلبى ما حَيِيتُ فُلُولا(٢)
كَانَتْ مِنَ الكَحْلاءِ سُؤْلى إنّما أجَلى تَمَثَّلَ فى فُؤادى سُولا(٣)
أجِدُ الجَفَاءَ على سِواكِ مُرُوءَةً والصَّبرَ إلاّ فى نَواكِ جَميلا(٤)
وأرَى تَدَلُّلَكِ الكَثيرَ مُحَبَّباً وأرَى قَليلَ تَدَلُّلٍ مَمْلُولا
حَدَقُ الحِسانِ مِنَ الغَوانى هِجنَ لى يَوْمَ الفِراقِ صَبابَةً وغَليلا
حَدَقٌ يُذِمّ مِنَ القَواتِلِ غيرَها بَدْرُ بنُ عَمّارِ بنِ إسْماعيلا(٥)
ألفارِجُ الكُرَبَ العِظامَ بمِثْلِها والتّارِكُ المَلِكَ العَزيزَ ذَليلا(٦)

---

(١) الخد : خبر مقدم عن مطر . الخليط : العشيرة . المحول : الجدب ، والمراد بمحل الخدود ذهاب نضرتها من الحزن على فراق الأحبة .

(٢) الفلول : من فل السيف إذا كسر حرفه ، أى أن هذه النظرة للحبيبة تركت قلبه كالسيف المكسر لا يقوى على مقاومة النوائب .

(٣) الكحلاء : السوداء الجفون . السؤل : ما يتمناه الإنسان ويسأله . الأجل : منتهى الحياة .

(٤) الصبابة : رقة الشوق . الغليل : حرارة العطش يراد بها حرارة الوجد .

(٥) يذم : يجير أو ينقذ ، وغيرها منصوب على الاستثناء ، وبدر فاعل يذم أى أنه ينقذ من كل ما يقتل ما عدا أحداق الحسان .

(٦) الكرب جمع كربة : حزن يأخذ بالنفس .

مَـحِكٌ إذا مَطَلَ الغَـرِيمُ بدَيْنِه جَعَلَ الحُسامَ بمَا أرادَ كَفيلا(١)
نَطِقٌ إذا حَطَّ الكَلامُ لِثـامَـهُ أعْطَى بمَنْطقِه القُلُوبَ عُقُولا(٢)
أعْدَى الزّمانَ سَخاؤه فَسخا به ولَقَدْ يكونُ به الزّمانُ بَخيلا
وكأنَّ بَرْقاً فِى مُتُونِ غَمامَةٍ هِنْدِيُّه فى كَفِّه مَسْلُولا
ومَحَلُّ قائمه يَسيلُ مَواهِباً لَوْ كُنَّ سَيْلاً ما وَجَدْنَ مَسيلا(٣)
رَقَّتْ مَضارِبُهُ فَهُنَّ كأنّما يُبْدِينَ مِنْ عِشقِ الرِّقابِ نُحُولا(٤)
أمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الهِزَبْرِ بسَوْطِه لِمَنِ ادّخَرْتَ الصّارِمَ المَصْقُولا(٥)
وَقَعَتْ على الأُرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيّةٌ نُضِدَتْ بها هامُ الرِّفاقِ تُلُولا(٦)
وَرْدٌ إذا وَرَدَ البُحَيْرَةَ شارِباً وَرَدَ الفُراتَ زَئِيرُهُ والنِّيلا(٧)
مُتَخَضِّبٌ بدَمِ الفَوارِسِ لابِسٌ فى غِيلِه مِنْ لِبْدَتَيْه غِيلا(٨)

---

(١) المحك : اللجوج . المطل : التسويف بوعد الوفاء مرة بعد أخرى .

(٢) النطق : اللسن البليغ .

(٣) قائم السيف : مقبضه ، والمراد بمحله راحة الممدوح . والضمير فى كن يعود إلى المواهب .

(٤) المضارب جمع مضرب : حد السيف .

(٥) عفره : مرغه على التراب . الهزبر : الضخم الشديد . ادخرت : خبأت . يقول : إذا كنت تصرع الأسد بالسوط فلمن خبأت سيفك المصقول .

(٦) نضدت : جمعت فوق بعضها .

(٧) الورد : الذى يضرب لونه إلى الحمرة . البحيرة : بحيرة طبرية . الزئير : صوت الأسد .

(٨) الغيل : الغابة . اللبدة : الشعر المجتمع على كتف الأسد ، أى أن هذا الشعر كأنه غابة أخرى له .

مَا قُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظُنَّتَا تَحْتَ الدُّجَى نَارَ الفَرِيقِ حُلُولا(١)
فِي وَحْدَةِ الرُّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلا
يَطَأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقاً مِنْ تِيهِهِ فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَلِيلا(٢)
وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إِلَى يَأْفُوخِهِ حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيلا(٣)
وَتَظُنُّهُ مِمَّا يُزَمْجِرُ نَفْسُهُ عَنْهَا لِشِدَّةِ غَيْظِهِ مَشْغُولا
قَصُرَتْ مَخَافَتُهُ الخُطَى فَكَأَنَّمَا رَكِبَ الكَمِيُّ جَوَادَهُ مَشْكُولا(٤)
أَلْقَى فَرِيسَتَهُ وَبَرْبَرَ دُونَهَا وَقَرُبْتَ قُرْباً خَالَهُ تَطْفِيلا(٥)
فَتَشَابَهَ الخُلُقَانِ فِي إِقْدَامِهِ وَتَخَالَفَا فِي بَذْلِكَ المَأْكُولا(٦)
أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فِيكَ كِلَيْهِمَا مَتْناً أَزَلَّ وَسَاعِداً مَفْتُولا(٧)
فِي سَرْجِ ظَامِئَةِ الفُصُوصِ طِمِرَّةٍ يَأْبَى تَفَرُّدُهَا لَهَا التَّمْثِيلا(٨)
نَيَّالَةِ الطَّلِبَاتِ لَوْلَا أَنَّهَا تُعْطِي مَكَانَ لِجَامِهَا مَا نِيلا(٩)

---

(١) الفريق : الجماعة . حلولا جمع حال : وهو النازل بالمكان ونصبه على الحال من الفريق .
(٢) التيه : الكبرياء .
(٣) العفرة : شعر القفا . اليأفوخ : ملتقى عظم مقدم الرأس .
(٤) الكمى : لابس السلاح . المشكول : المقيد بالشكال . أى أن خوف هذا الأسد تمكن من القلوب حتى إن الخيل صارت تمشى كأنها مقيدة .
(٥) يريد بفريسته البقرة التى هاجه عنها . بربر : زمجر . التطفيل : الدخول على الآكلين من غير دعوة . أى أنه لما رآك مقبلا إليه ألقى فريسته وبربر لأنه ظنك تتطفل عليه .
(٦) يقول : تشابهتما فى الإقدام وتخالفتما فى البذل لأنه حريص وأنت كريم .
(٧) يريد بالعضوين ماذكره فيما بعد وهما المتن والساعد أى أنك تشبهه فيهما .
(٨) ظامئة الفصوص : دقيقة المفاصل . الطمرة : الوثابة ، يصف فرسه بذلك .
(٩) نيالة من النيل : إصابة المطلوب . وما نيل نفى جواب لولا ، أى أنها لو لم تحط رأسها اللجام لم ينله فارسها لارتفاعه .

تَنْدَى سَوالِفُها إذا استَحضَرْتَها ... ويُظَنُّ عَقْدُ عِنانِها مَحْلُولا(١)

ما زالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ في زَوْرِهِ ... حتى حَسِبْتَ العَرْضَ منه الطُّولا(٢)

ويدُقُّ بالصَّدْرِ الحِجارَ كأنَّه ... يبْغي إلى ما في الحَضِيضِ سَبِيلا(٣)

وكأنَّهُ غَرَّتْهُ عَيْنٌ فادَّنَى ... لا يُبْصِرُ الخَطْبَ الجَلِيلَ جَلِيلا(٤)

أَنفُ الكَرِيمِ مِنَ الدَّنِيئَةِ تارِكٌ ... في عَينِهِ العَدَدَ الكَثِيرَ قَلِيلا

والعارُ مَضّاضٌ ولَيسَ بخائفٍ ... مِنْ حَتْفِهِ مَنْ خافَ مِمَّا قِيلا(٥)

سَبَقَ التِقاءَكَهُ بوَثْبَةِ هاجِمٍ ... لَوْ لم تُصادِمْهُ لجازَكَ مِيلا(٦)

خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وقَدْ كافَحْتَهُ ... فاستَنْصَرَ التَّسْلِيمَ والتَّجْدِيلا(٧)

قَبَضَتْ مَنِيَّتُهُ يَدَيْهِ وعُنْقَهُ ... فَكَأَنَّما صادَفْتَهُ مَغْلُولا

سَمِعَ ابنُ عَمَّتِهِ بِهِ وبحالِهِ ... فَنَجا يُهَرْوِلُ أَمسِ منكَ مَهُولا(٨)

---

(١) استحضرتها : ركضتها . العنان : سير اللجام . أى أنها تنثنى سريعاً .
(٢) الزور : وسط الصدر حيث تلتقى العظام .
(٣) الحضيض : القرار فى الأرض عند أسفل الجبل .
(٤) ادنى : اقترب .
(٥) مضاض : مؤلم .
(٦) أى سبقك بالالتقاء ولو لم تصادمه لفاتك ميلا من شدة الوثبة .
(٧) استنصر : طلب النصرة . التجديل : الطرح على الأرض .
(٨) يهرول : يسرع فى مشيه . مهولا : مذعوراً .

وأَمَـرُّ مِـمّـا فَـرَّ مِنْهُ فِـرارُهُ ... وكَقَتْلِه أنْ لا يَمُوتَ قَتيلا[1]
تَلَفُ الذى اتَّخَذَ الجراءَةَ خُلّةً ... وعَظَ الذى اتّخَذَ الفِرارَ خَليلا[2]
لَوْ كانَ عِلْمُكَ بالإلَه مُقَسَّماً ... فى النّاسِ ما بَعَثَ الإلَهُ رَسُولا
لَوْ كـانَ لَفْظُكَ فـيـهِم مـا أنزَلَ الـ ... ـفُـرْقـانَ والتَّـوْراةَ والإنْجـيـلا
لَوْ كـانَ مـا تُعطيـهِمِ من قـبلِ أنْ ... تُعْطيـهِمِ لَمْ يَعـرِفُـوا التـأمـيـلا
فلَقَدْ عُرِفْتَ وما عُرِفتَ حَقيـقَـةً ... ولقد جُهِلْتَ وما جُهِلْتَ خُمُولا[3]
نَطَقَتْ بِسُؤْدُدِكَ الحَـمـامُ تَغَنّياً ... وبما تُجَشِّمُها الجِيادُ صَهيلا
ما كلُّ مَنْ طَلَبَ المَعالى نافِذاً ... فيـهـا ولا كُلُّ الرِّجـالِ فُحُـولا

---

(١) يقول : إن الناس عرفوك بما ظهر من كرمك ، ولكنهم لم يعرفوا حقيقة ما أنت عليه لقصورهم عن إدراك ذلك لا لكونك خامل الذكر .
(٢) وكقتله خبر مقدم عن المصدر المؤول بعده أى أن فراره من الهلاك أمرّ من الهلاك لما فيه من الذل ، وعدم موته قتيلا مثل قتله لأنه سلم من الهرب .
(٣) تلف : متبدأ خبره جملة وعظ . الخلة : الخليلة ، الصاحبة . أى أن هلاك هذا كان موعظة لذاك .

تحاسدت البلدان!

ورد كتاب من ابن رائق على بدر بإضافة الساحل إلى عمله ، فقال أبو الطيب :

تُهَنّا بصورٍ أمْ نُهَنّئُها بكَا ... وقَلّ الذى صُورٌ وأنْتَ لهُ لَكَا(١)
وما صغُرَ الأُرْدُنُّ والسّاحلُ الذى ... حُبيتَ به إلاّ إلي جَنبِ قَدْرِكَا
تَحَاسَدَتِ البُلْدانُ حتى لوَ انّها ... نُفوسٌ لَسَارَ الشّرْقُ والغربُ نحوكَا
وأصْبَحَ مِصْرٌ لا تكونُ أميرَهُ ... ولَوْ أنّهُ ذو مُقْلَةٍ وفَمٍ بكَى

أنت النهاية فى الكمال

نظر إلى جانبه ثياباً مطوية فسأل عنها فقيل هى خلع الولاية ، وكان أبو الطيب عند وصولها عليلا فقال :

أرَى حُلَلاً مُطَوّاةً حِسَاناً ... عَدانى أنْ أراكَ بها اعْتلالى(٢)
وهبك طويتها وخرجتَ عنها ... أتَطوى ما عَلَيكَ من الجَمالِ(٣)
لَقَدْ ظَلّتْ أواخِرُها الأعالى ... مَعَ الأولى بجسْمكَ فى قتالِ(٤)
تلاحظكَ العيون وأنتَ فيها ... كأنّ عليكَ أفْئِدَةَ الرِّجالِ(٥)
متى أحصَيْتُ فَضلَكَ في كَلامٍ ... فقدْ أحصَيتُ حَبّاتِ الرِّمالِ
وإنّ بها وإنّ بِهِ لَنَقْصاً ... وأنتَ لها النّهايَةُ فى الكَمالِ(٦)

---

(١) قوله تهنا : أتهنأ فحذف همزة الاستفهام وليّن الهمزة التى هى لام الفعل . وصور فى الشطر الثانى مبتدأ وأنت معطوف عليها وله متعلق بمحذوف هو الخبر ولك متعلق بقل .
(٢) عدانى : منعنى .
(٣) هبك أى احسب نفسك .
(٤) أى أن الثياب الظاهرة استمرت فى قتال مع التى تمس جسمه .
(٥) أنت فيها أى فى هذه الحلل .
(٦) الضمير فى بها للخلع وفى به للكلام .

لا يحمد السيفَ كلٌّ من حمله

وقال يمدح أبا العشائر :

لا تَحْسَبوا رَبعَكُمْ ولا طَلَلَهْ أوّلَ حَيٍّ فِراقُكُمْ قَتَلَهْ
قَد تلفتْ قَبْلَهُ النّفوسُ بكُمْ وأكثرَتْ في هَواكُمُ العَذَلَهْ[١]
خَلا وفيهِ أهْلٌ وأوْحَشَنا وفيهِ صِرمٌ مُرَوَّحٌ إبلَهْ[٢]
لوْ سارَ ذاكَ الحَبيبُ عن فَلَكٍ ما رضيَ الشّمسَ بُرْجُه بدَلَهْ[٣]
أُحبُّـــهُ والهَــوَى وأدْؤرَهُ وكُلُّ حُبٍّ صَبابَةٌ ووَلَهْ[٤]
يَنصُرُها الغَيثُ وهيَ ظامِئَةٌ إلى سِواهُ وسُحْبُها هَطِلَهْ[٥]
وا حَرَبَا منكِ يا جَدايَتَها مُقيمَةً ، فاعلَمي ، ومُرْتَحِلَهْ[٦]
لَوْ خُلِطَ المِسْكُ والعَبيرُ بهَا ولَستِ فيها لَخِلْتُها تَفِلَهْ[٧]
أنا ابنُ مَنْ بعضُهُ يَفُوقُ أبَا الـ ـباحِثِ والنَّجلُ بعضُ من نَجَلَهْ[٨]
وإنّما يَذْكُرُ الجُدودَ لَهُمْ مَنْ نَفَروهُ وأنْفَدوا حِيَلَهْ[٩]

---

(١) ضمير قبله للربع . العذلة جمع عاذل : اللائم .
(٢) الصرم : الجماعة من البيوت . ترويح الإبل : ردها إلى المراح وهو مأوى الإبل .
(٣) الضمير من برجه الحبيب .
(٤) الهوى : معطوف على الضمير المنصوب قبله . الأدؤر : جمع دار .
(٥) ضمير ينصرها للأدؤر.
(٦) واحربا : كلمة تستعمل فى مقام الحزن والتأسف . الجداية : الظبية الصغيرة .
(٧) ضمير بها للأدؤر . تفلة : منتنة الريح .
(٨) يقول : أنا ابن الذى ولده يفوق أبا الباحث عن نسبى .
(٩) نفروه أى غلبوه بالفخر . أنفدوا : أفرغوا . أي أنه يفخر بجدوده من لا فخر له بنفسه .

فَخراً لِغَضبٍ أروحُ مُشتَمِلَه ... وسَمْهَرِىٍّ أروحُ مُعتَقِلَه(١)
وليَفْخَرِ الفَخرُ إذْ غدوتُ به ... مُرتدياً خَيرَهُ ومُنتَعِلَه(٢)
أنا الذى بيّنَ الإلَهُ به الـ ... أقدارَ والمرءُ حيثُما جَعَلَه(٣)
جَوْهرةٌ تَفرحُ الشّرافُ بها ... وغُصّةٌ لا تُسيغُها السّفِلَه(٤)
إنّ الكذابَ الذى أُكَادُ به ... أهْوَنُ عِنْدى من الذى نَقَلَه
فلا مُبالٍ ولا مُداجٍ ولا ... وانٍ ولا عاجزٌ ولا تُكَلَه(٥)
ودارِعٍ سِفْتُهُ فخرَّ لَقىً ... فى المُلْتقَى والعَجاجِ والعَجَلَه(٦)
وسامِعٍ رُعْتُهُ بقافيَةٍ ... يَحارُ فيها المُنَقّحُ القُوَلَه(٧)
ورُبّما أُشْهِدُ الطّعامَ مَعى ... مَن لا يُساوى الخبزَ الذى أكَلَه
ويُظْهِرُ الجَهْلَ بى وأعرِفُهُ ... والدُّرُّ دُرٌّ برَغْمِ مَنْ جَهِلَه
مستحيياً من أبى العَشائرِ أنْ ... أسْحَبَ فى غَيرِ أرْضِهِ حُلَلَه
أسْحَبُها عِنْدَهُ لَدَى مَلِكٍ ... ثِيابُهُ مِنْ جَليسِهِ وَجِلَه

---

(١) فخراً : مفعول مطلق نائب عن عامله . مشتمله : جاعله تحت ثوبه . معتقله : واضعه بين ساقه وركابه .
(٢) أى ليست الفخر رداء على منكبى وتعلا تحت قدمى .
(٣) الأقدار جمع قدر : الشأن . يقول إن الله بين أقدار الناس بى لأننى أصف كل إنسان بما فيه .
(٤) جوهرة : خبر عن محذوف ضمير المتكلم . وساغ الشراب سهل دخوله فى الحلق . السفلة : الأدنياء .
(٥) مبال : خبر عن محذوف تقديره أنا . المداجى : المنافق والمساتر بالعداوة . الوانى : المقصر التكلة : الذى يتكل على غيره .
(٦) الدارع : ذو الدرع وهو مجرور برب مقدرة . سفته : ضربته بالسيف . لقى : مطروحاً . العجلة : الطين أو السرعة .
(٧) رعته : أعجبته أفزعته . القولة : اللسن الجيد القول .

وبيضُ غِلمانِه كَنائلِه أوّلُ مَحْمُولِ سَيْبِهِ الحَمَلَهْ(١)
ما لىَ لا أمْدَحُ الحُسَينَ ولا أبْذُلُ مِثْلَ الوُدِّ الذى بَذَلَهْ
أأخْفَتِ العَينُ عندَه أثَراً أمْ بَلَغَ الكَيْذُبانُ ما أمَلَهْ(٢)
أمْ لَيسَ ضَرّابَ كلِّ جُمجمةٍ مَنْخُوّةٍ ساعةَ الوَغَى زَعِلَهْ(٣)
وصاحِبَ الجُودِ ما يُفارِقُه لَوْ كانَ للجُودِ مَنْطِقٌ عَذَلَهْ
وراكِبِ الهَوْلِ لا يُفَتِّرُه لَوْ كانَ للهَوْلِ مَحْزِمٌ هَزَلَهْ
وفارِسَ الأحْمَرِ المُكَلِّلَ فى طَيِّءٍ المُشْرَعَ القَنَا قِبَلَه(٤)
لَمّا رأتْ وَجهَهُ خُيولُهُمُ أقْسَمَ باللهِ لا رأتْ كَفَلَهْ(٥)
فأكْبَرُوا فِعْلَهُ وأصْغَرَهُ ؛ أكْبَرُ مِنْ فِعْلِهِ الذى فَعَلَهْ
القاطِعُ الواصِلُ الكَميلُ فَلا بَعضُ جَميلٍ عن بعَضِه شَغَلَهْ
فَواهِبٌ والرِّماحُ تَشْجُرُهُ وطاعِنٌ والهِباتُ مُتَّصِلَهْ(٦)
وكُلّما أمِنَ البِلادَ سَرى وكلّما خِيفَ مَنْزِلٌ نَزَلَهْ(٧)
وكُلّما جاهَرَ العَدُوُّ ضُحىً أمكنَ حتى كأنّه خَتَلَهْ(٨)

(١) أى يهب غلمانه كما يهب أمواله فيكون الحامل للعطية أو العطايا .
(٢) الكيذبان : الكاذب .
(٣) المنخوة : ذات النخوة وهى العظمة والكبر . الزعلة : النشيطة .
(٤) المكلل : المجد الذى لا ينثنى . المشرع : المسدد الرمح إلى المطعون . قبله : نحوه
(٥) أكبروا : استكبروا . أصغره : استصغره هو . وأكبر مبتدأ والذى خبره والجمله مستأنفة .
(٦) تشجره : تطعنه . أى لاتمنعه الحرب عن الجود ولا الجود عن الحرب .
(٧) قوله سرى أى فى طلب الغزو .
(٨) ضمير أمكن للعدو أى أمكنه من نفسه . الختل : الخداع .

يَحْتَقِرُ البيضَ واللّدانَ إذا سَنّ عليه الدِّلاصَ أوْ نَثلَهْ(١)
قد هَذّبَتْ فَهْمُهُ الفقاهَةُ لي وهَذّبَتْ شعرىَ الفَصاحَةُ لَهْ(٢)
فصِرْتُ كالسّيفِ حامداً يَدَهُ لا يحمدُ السّيفُ كلُّ من حَمَلَهْ

للغمام طباع

كان أبو الطيب مع أبى العشائر ليلا على الشراب ، فلما أراد الانصراف من عنده قال له اجلس فجلس ، فأمر له بجارية ثم نهض فقال له اجلس فجلس فأمر له بمهر فقال له الخصى تمدح الليلة يا أبا الطيب فقال :

(١) اللدان : الرماح اللينة . الدلاص : الدرع اللينة الملساء . سن الدرع عليه : صبها . نثلها : ألقاها عنه ، وذكر الضمير على لغة من يذكر الدرع .

(٢) الفقاهة : العلم والفطنة ، أى أن فطنة الممدوح هذبت فهمه لمعنى شعرى ، وفصاحتى هذبت له شعرى فلم ير فيه ما يعاب .

كبرت حول ديارهم

وقال فى صباه يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد بن أوس بن معن بن الرضى الأزدى :

أَرَقٌ عَلى أَرَقٍ وَمِثْلي يَأْرَقُ ... وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ(١)
جُهْدُ الصَّبابَةِ أَنْ تَكونَ كَما أَرَى ... عَينٌ مُسَهَّدَةٌ وقَلْبٌ يَخْفِقُ(٢)
ما لاحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طائِرٌ ... إلاَّ انْثَنَيْتُ وَلِي فُؤادٌ شَيِّقُ
جَرَّبْتُ مِنْ نَارِ الهَوَى ما تَنطَفِي ... نَارُ الغَضَا وَتَكِلُّ عَمَّا يُحْرِقُ(٣)
وَعَذَلْتُ أَهْلَ العِشْقِ حتى ذُقْتُهُ ... فَعَجِبْتُ كَيفَ يَمُوتُ مَنْ لا يَعْشَقُ
وَعَذَرْتُهُمْ وعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّنِي ... عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ مِنهُمْ ما لَقُوا
أَبَنِي أَبِينَا نَحْنُ أَهْلُ مَنازِلٍ ... أَبَداً غُرابُ البَيْنِ فِيها يَنْعَقُ
نَبْكي على الدُّنْيا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ ... جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
أَيْنَ الأكاسِرَةُ الجَبابِرَةُ الأُلَى ... كَنَزُوا الكُنُوزَ فَما بَقِينَ وَلا بَقُوا
مِنْ كُلِّ مَنْ ضاقَ الفَضاءُ بِجَيْشِهِ ... حتى ثَوَى فَحَواهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
خُرْسٌ إذا نُودوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا ... أَنَّ الكَلامَ لَهُمْ حَلالٌ مُطلَقُ
فَالمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفائِسٌ ... وَالمُسْتَعِزُّ بِمَا لَدَيْهِ الأَحْمَقُ
وَالمَرْءُ يَأْمُلُ وَالحَيَاةُ شَهِيَّةٌ ... وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ وَالشَّبِيبَةُ أَنْزَقُ

(١) الأرق : السهر ، وهو مبتدأ محذوف الخبر أي لي . العبرة : الدمعة . تترقرق : تسيل .
(٢) الجهد : نهاية ما يصل إليه الاجتهاد . الصبابة : رقة الشوق .
(٣) الغضا : شجر حسن النار ويبقى جمره زماناً طويلا لا ينطفئ .

وَلَقَدْ بَكَيْتُ على الشَّبابِ وَلِمَّتي مُسْوَدَّةٌ ولِمَاءِ وَجْهِي رَوْنَقُ
حَذَرًا عَلَيْهِ قَبلَ يَوْمِ فِراقِهِ حتى لَكِدْتُ بماءِ جَفني أَشرَقُ(١)
أمّا بنو أَوْسِ بنِ مَعْنِ بنِ الرِّضَى فأَعَزُّ مَنْ تُحْدَى إليهِ الأَيْنُقُ(٢)
كَبَّرْتُ حَوْلَ دِيارِهِمْ لمّا بَدَتْ منها الشُّموسُ وَلَيسَ فيها المَشْرِقُ
وعَجِبتُ من أَرْضٍ سَحابُ أَكُفِّهِمْ من فَوْقِها وَصُخُورِها لا تُورِقُ
وتَفُوحُ من طِيبِ الثَّناءِ رَوائِحٌ لَهُمُ بكُلِّ مكانَةٍ تُسْتَنشَقُ
مِسْكِيَّةُ النَّفَحاتِ إلاّ أَنَّها وحْشِيَّةٌ بِسِواهُمُ لا تَعْبَقُ
أمُرِيدَ مِثْلِ مُحَمَّدٍ في عَصرِنا لا تَبْلُنَا بطِلابِ ما لا يُلْحَقُ(٣)
لم يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مثلَ مُحَمَّدٍ أَحَدًا وَظَنّي أَنَّهُ لا يَخْلُقُ
يا ذا الذي يَهَبُ الكَثيرَ وَعِندَهُ أَنّي عَلَيْهِ بأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ(٤)
أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحابَ جُودِكَ ثَرَّةً وَانظُرْ إليَّ بِرَحْمَةٍ لا أَغرَقُ(٥)
كَذَبَ ابنُ فاعِلَةٍ يَقُولُ بجَهْلِهِ ماتَ الكِرامُ وأَنْتَ حَيٌّ يُرْزَقُ

---

(١) حذرا مفعول له وعامله بكيت . أشرق : أغص .
(٢) تحدى : تساق . الأينق : النياق .
(٣) قوله : لا تبلنا إلى آخره ، أى لا تمتحنا بطلب ما لا يدرك .
(٤) قوله : وعنده أى في اعتقاده ، والظرف خبر مقدم ، وأنى مع خبرها مبتدأ مؤخر .
(٥) الثرة من السحاب : الغزيرة الماء .

كذب الدهر

أَرَانى وَقَوْمِى فَرَّقَتْنَا مَذَاهِبُ، وَإِنْ جَمَعَتْنَا فى الأُصُولِ المَنَاسِبُ
فَأَقْصَاهُمُ أَقْصَاهُمُ مِنْ مَسَاءَتى، وَأَقْرَبُهُمْ مِمَا كَرِهْتُ الأَقَارِبُ
غَرِيبٌ وَأَهْلِى حَيْثُ مَا كَانَ نَاظِرى، وَحِيدٌ وَحَوْلى مِن رِجَالى عَصَائِبُ
نَسِيبُكَ مَنْ نَاسَبْتَ بالوُدّ قَلْبَهُ وَجَارُكَ مَن صَافَيْتَهُ لا المُصَاقِبُ(١)
وأَعْظَمُ أَعْدَاءِ الرِّجَالِ ثِقَاتُهَا ، وأَهْوَنُ مَنْ عَادَيْتَهُ مَن تُحارِبُ
وَشَرُّ عَدُوَّيْكَ الّذى لا تُحَارِبُ ، وَخَيرُ خَلِيلَيْكَ الّذى لا تُنَاسِبُ
لَقَد زِدْتُ بالأَيَّامِ وَالنّاسِ خِبرَةً ، وَجَرَّبْتُ حَتى هَذَّبَتْنى التّجَارِبُ
وَمَا الذَّنْبُ إلاّ العَجزُ يَرْكَبُه الفَتى وَمَا ذَنبُهُ إنْ حَارَبَتْهُ المَطالبُ ؟
وَمَنَ كَانَ غَيرَ السّيفِ كَافِلُ رِزْقِه فَلِلذُّلِّ مِنْهُ لا مَحَالَةَ جَانِبُ
وَمَا أُنْسُ دارٍ لَيْسَ فِيهَا مُؤانِسٌ ، وَمَا قُرْبُ دارٍ لَيس فيها مُقارِبُ ! ؟

---

(١) المصاقب : المقارب ، المواجه .

أبو فراس

(٣٢٠ - ٣٥٧ هـ)

أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدوني ، يعود بعمومته إلى تغلب وبخؤولته إلى تميم ، كما يقول في شعره .

قيل إنه ولد في الموصل فسمّاه والده الحارث وكنّاه أبا فراس ، أى الأسد ، ولم يخيّب ظنّ والده فقد كان فارساً من الفرسان المعدودين .

ولم يبلغ الثالثة من عمره حتى قُتل والده ، قتله ابن أخيه حسن الملقّب ناصر الدولة وسبب ذلك أن ناصر الدولة كان على الموصل من قبل الراضى بالله الخليفة العبّاسى ، فطالبه الراضى بمال الضمان فماطل ، واشترط على الراضى أن يكتب له عهداً باثباته فى ولاية الموصل ، فراوغ الراضى واتّفق سراً وسعيداً والد أبى فراس على أن يولّيه ديار الموصل بشروط أفضل من التى كان ناصر الدولة متعهّداً بها ، وأمره أن يدخل الموصل ببعض غلمانه بحجة أنّه يبتغى مفاوضة ابن أخيه ناصر الدولة بشأن المال الذى عليه ، ولكن ناصر الدولة ارتاب بأمره على تكتّمه ، ولم يكد سعيد يذهب بغلمانه الخمسين ليدخل الموصل حتى تظاهر ناصر الدولة بأنّه خارج إلى لقائه ، ولكنه اتّخذ طريقاً غير الطريق التى كان سعيد قادماً فيها ، فدخل المدينة وسار إلى قصر ابن أخيه ، وهذا كل ما كان يرغب فيه ناصر الدولة ؛ لأن عمه أصبح فى حوزته فأرسل إليه بعض غلمانه فقتلوه ونكّلوا به .

هكذا ربى أبو فراس يتيماً تحتضنه أمّه ويعطف عليه ابن عمه سيف الدولة ، أخو ناصر الدولة .

ولما استوى سيف الدولة على سرير الملك فى حلب حمل معه أبا فراس فتخرّج هنالك فى العلم والأدب وتمرّس بالفروسية ، فخرج شاعراً فارساً ؛ وكان سيف الدولة يحبّه لشجاعته وكرم أخلاقه ، فقلّـده إمارة منبج ، وكان يصحبه فى غاراته ، فيسطو على القبائل التى كانت تثور بابن عمه .

وذات يوم بينما كان عائداً من الصيد فى نفر من أصحابه فاجأه كمين رومى كان قد نصبه تيودور على أبواب منبج ، ففرّ أصحابه وقاتل وحده ، فأصابه سهم فى فخده بقى فيها نصله ، فأخذ أسيراً وحمل أوّلاً إلى خرشنة ثم إلى القسطنطينية ، فبقى فى الأسر سبع سنوات إلى أن افتداه سيف الدولة . ولم يعد من الأسر حتى أقطعه سيف الدولة حمص بدلاً من منبج ، ومات سيف الدولة بعد عودة أبى فراس بسنة واحدة وتولى بعده ولده أبو المعالى ابن أخت أبى فراس وتسلم الحكم بالوصاية عليه غلامه التركى قرغويه فأبى أبو فراس أن يطيع هذا الغلام وطمع بالسيادة على سوريا وشجّعه على ذلك بعض غلمان سيف الدولة . فأوغر قرغويه صدر أبى المعالى على خاله فأرسله بجيش إلى محاربته فدارت عند صـدَدَ قرب حمص معركة غُلب فيها أبو فراس وجرح وهو عند جبل مدبّبة فسقط عن فرسه وقطع رأسه وحمل إلى أبى المعالى . وتركت جثته ملقاه فى الفلاة إلى أن مرّ بعض الأعراب بها فواروها فى التراب . فخسر الحمدانيون به رجلاً من ألمع رجالهم فى الفروسية والشعر .

وشِعْر أبى فراس وجدانى ينطق بشخصية صاحبه ، شخصية رجل أبىّ النفس ، فخور ، شجاع ، صادق المودّة ، محبّ لأمّه برّ بها محب لأولاده ووطنه ، مخلص لابن عمّه سيف الدولة . وكان يتشيّع لآل البيت وله فيهم ثلاث قصائد هى من أروع شعره ، يعرب فيها عن إخلاصه لهم وصدق تعلّقه بهم ، وتألمه لما نابهم من حيف وأذى .

وأبو فراس نفح الشعر العربى برومياته التى نظمها وهو أسير بلون عاطفى لم يعرف من ذى قبل ، يرشح بصدق الإحساس ، والتصوير الواقعى والشكوى والتألّم ؛ وهذا اللون هو الذى ضمن له الخلود الأدبى .

ياحسرة ما أكاد أحملها

بلغ أبا فراس أن أمه ذهبت من منبج إلى حلب تكلم سيف الدولة فى المفاداة فردها خائبة ، فبعث إليه يقول :

يَا حَسْرَةً مَا أكَادُ أحْمِلُهَا ، آخِرُهَا مُزعِجٌ ، وَأوّلُهَا !
عَلِيلَةٌ ، بِالشّآمِ مُفْرَدَةٌ ، بَاتَ ، بِأيْدي العِدى ، مُعَلِّلُهَا (١)
تُمْسِكُ أحْشَاءَهَا عَلى حُرَقٍ تُطْفِئُهَا ، وَالهُمُومُ تُشْعِلُهَا (٢)
إذا اطمَأنّتْ ، وَأينَ ؟ أوْ هَدَأتْ ، عَنّتْ لَهَا ذُكْرَةٌ تُقَلْقِلُهَا (٣)
تَسْألُ عَنا الرُّكْبَانَ ، جَاهِدَةً ، بِأدْمُعٍ مَا تَكَادُ تُمْهِلُهَا : (٤)
يا مَنْ رَأى لي ، بحِصْنِ خَرْشَنَةٍ ، أُسْدَ شَرًى ، في القُيُودِ أرْجُلُهَا
يا مَن رَأى لي الدّرُوبَ ، شَامِخَةً دُونَ لِقَاءِ الحَبِيبِ أطْوَلُهَا (٥)
يا مَنْ رَأى لي القُيُودَ ، مُوثَقَةً عَلى حَبِيبِ الفُؤادِ أثْقَلُهَا !

(١) أراد بالعليلة أمه . معللها : مسليها .
(٢) تطفئها : أى تحاول إطفاء حرقتها بالصبر .
(٣) قوله : وأين أى وأين اطمئنانها .
(٤) الركبان : المسافرون . جاهدة : ملحة بالسؤال .
(٥) الدروب : مداخل بلاد الروم من جبال طوروس .

يَـا أيُّهَا الرَّاكِبَان ، هَلْ لَكُمَا فى حَمِلٍ نجوَى يخفّ مَحمَلُهَا [١]
قُولا لهَا ، إنْ وَعَتْ مقَالكُمَا ، وَإنّ ذِكْرى لهَا لَيُذْهِلُهَا : [٢]
يَا أمّتَا ، هَذِهِ مَنَازِلُنَا نَتْرُكُهَا تَارَةً ، وَنَنزِلُهَا !
يَا أُمّتَا ، هَذِهِ مَوَارِدُنَا نُعَلُّهَا تَارَةً ، وَنُنْهَلُهَا ! [٣]
أسْلَمَنَا قَوْمُنَا إلى نُوَبٍ أيْسَرُهَا فى القُلُوب أقْتَلُهَا
وَاستَبدلوا ، بَعدنا ، رِجالَ وَغىً يَوَدّ أدْنَى عُلاىَ أمْثَلُهَا [٤]
لَيْسَتْ تَنالُ القُيُودُ من قَدَمى ، وَفى اتّبَاعِى رِضَاكَ ، أحمِلُهَا [٥]
يَا سَيّداً ، مَا تُعَدّ مَكْرُمَةٌ ، إلاّ وَفى رَاحَتَيْهِ أكْمَلُهَا
لا تَتَيَمّمْ ، وَالمَاءُ تَدْرِكُهُ ! غَيرُكَ يَرْضَى الصُّغرَى وَيَقْبَلُهَا [٦]
إنّ بَنى العَمّ لَسْتَ تَخْلُفُهُمْ ، إنْ عَادَتِ الأُسْدُ عَادَ أشْبُلُهَا [٧]
أنْتَ سَمَاءٌ ، وَنَحَنُ أنْجُمُهَا ، أنْتَ بِلادٌ ، وَنَحنُ أجْبُلُهَا !

---

(١) ينتقل هنا الشاعر من الكلام على لسان أمه إلى الكلام على لسانه ، وقوله : هل لكما أى هل لكما رغبة .

(٢) وعت : حفظت . يذهلها : ينسيها .

(٣) نعلها : نسقاها عللا أى مرة بعد مرة . ننهلها : نسقاها السقية الأولى .

(٤) أمثلها : أفضلها .

(٥) يلتفت إلى مخاطبة سيف الدولة .

(٦) التيمم ، عند المسلمين : هو مسح الوجه واليدين بالتراب قبل الصلاة ، هذا إذا لم يكن الماء فإن وجد الماء بطل التيمم .

(٧) تخلفهم : تبقى خلفاً لهم .

أنتَ سَحابٌ ، ونَحنُ وابلُهُ ، أنتَ يَمينٌ ، ونَحنُ أنمُلُها !
بأيِّ عُذرٍ ، رَدَدتَ والِهَةً ، عَلَيْكَ ، دُونَ الوَرَى ، مُعَوَّلُها (١)
جَناءتكَ ، تَمتاحُ رَدَّ واحِدِها ، يَنتَظِرُ النّاسُ كَيفَ تُقفِلُها (٢)
سَمَحتَ منّي بِمُهجَةٍ كَرُمَتْ ، أنتَ ، عَلى يأسِها ، مُؤمَّلُها
إنْ كُنتَ لَمْ تَبذُلِ الفِداءَ لَها ! فَلَمْ أزَلْ ، في رِضاكَ ، أبْذُلُها
تِلْكَ المَوَدّاتُ ، كَيفَ تُهمِلُها ؟ تِلْكَ المَواعيدُ ، كَيفَ تُغفِلُها ؟
تلكَ العُقُودُ ، التي عَقَدْتَ لَنا ، كَيفَ ، وَقد أُحكِمتْ ، تُحلِّلُها ؟
أرحامُنا منكَ ، لِمْ تُقطِّعُها ؟ ولَمْ تَزَلْ ، دائِباً ، تُوَصِّلُها !
أينَ المَعالي ، التي عُرِفتَ بِها ، تَقولُها ، دائِماً ، وَتَفعَلُها ؟
يَا وَاسِعَ الدّارِ ؛ كَيفَ تُوسِعُها ونَحنُ في صَخرَةٍ نُزَلزَلُها !
يَا ناعِمَ الثّوْبِ ! كَيفَ تُبدِلُهُ ؟ ثِيابُنَا الصّوفُ مَا نُبَدِّلُها !
يارَاكِبَ الخَيْلِ ! لَوْ بَصُرْتَ بِنا نَحمِلُ أقيادَنا ، وَنَنقُلُها !
رَأيْتَ ، في الضُّرّ ، أوْجُهاً كَرُمَتْ فارَقَ فيكَ الجَمالَ أجْمَلُها !
قَدْ أثّرَ الدّهرُ في مَحاسِنِها ، تَعرِفُها ، تارَةً ، وتَجهَلُها

---

(١) الوالهة : الحزينة .

(٢) تمتاح : تسأل . تقفلها : ترجعها .

فَلا تَكِلْنَا ، فِيهَا ، إلى أحَدٍ ، مُعِلُّهَا مُحْسِناً يُعَلِّلُهَا (١)
لا يَفْتَحُ النّاسُ بَابَ مَكْرُمَةٍ صَاحِبُهَا المُسْتَغَاثُ يُقْفِلُهَا
أيَنبَرِى ، دُونَكَ ، الكِرَامُ لهَا ، وأنتَ قَمْقَامُهَا ، وأحمَلُهَا ! (٢)
وأنتَ ، إنْ عَنّ حَادِثٌ جَلَلٌ ، قُلّبُهَا المُرْتَجَى ، وَحُوّلُهَا ! (٣)
مِنْكَ تَرَدّى بالفَضْلِ أفضَلُهَا ؛ مِنكَ أفَادَ النّوَالَ أنْوَلُهَا
فَإنْ سَألْنَا سِوَاكَ عَارِفَةً ، فَبَعْدَ قَطْعِ الرجَاءِ نَسْألُهَا (٤)
إذَا رَأيْنَا أوْلى الكِرَامِ بِهَا يُضِيعُهَا ، جَاهِداً ، وَيُهمِلُهَا
لَمْ يَبْقَ ، فى النّاسِ ، أُمّةٌ عُرِفتْ إلاّ وَفَضْلُ الأمِيرِ يَشْمَلُهَا
نَحْنُ أحَقُّ الوَرَى بِرَأفَتِهِ ، فَأينَ عنّا ؟ وأينَ مَعْدِلُهَا ؟ (٥)
يَا مُنفِقَ المَالِ ، لا يُرِيدُ بِهِ إلاّ المَعَالى التى يُؤثِّلُهَا (٦)
أصْبَحتَ تَشْرِى مَكارِماً فُضُلاً فِداؤنَا ، قَد عَلِمتَ ، أفضَلُهَا ! (٧)
لا يَقْبَلُ اللّهُ ، قَبلَ فَرْضِكَ ذا ، نَافِلَةً عِنْدَهُ تُنَفّلُهَا ! (٨)

---

(١) تكلنا : تسلمنا . معلها : ممرضها ، والمراد سيف الدولة . يعللها: أى يعللها بالنجاة يطمعها فيها .

(٢) ينبرى : يعترض . القمقام : السيد .

(٣) عنَّ : ظهر . قلبها وحولها : الضمير عائد للأنام . يقال رجل حول قلب أى عالم بتقليب الأمور حكيم فى تصريفها .

(٤) العارفة : المعروف .

(٥) أين عنا : أى أين ذهبت عنا . معدلها : مصرفها .

(٦) يؤثلها : يؤصلها ويعظمها .

(٧) فضلا : زيادة .

(٨) فرضك ذا : أراد به الفداء . جعله فرضاً على سيف الدولة . النافلة : ما زاد عن الفرض . تنفلها : تزيدها .

مصابى جليل

ثقلت على أبى فراس جراحه ، وهو أسير ، فأرسل هذه الأبيات إلى أمه يصبرها :

مُصَابى جَلِيلٌ ، وَالعَزَاءُ جَمِيلُ ، وَظنّي بِأنَّ اللّهَ سَوْفَ يُدِيلُ (١)
جِرَاحٌ ، تحَامَاها الأسَاةُ مَخوفَةٌ ؛ وَسُقمانِ : بَادٍ ، منهُما ، وَدَخيلُ (٢)
وَأسْرٌ أُقَاسِيهِ ، وَلَيْلٌ نُجُومُهُ ، أرَى كُلّ شيءٍ ، غَيرَهُنّ ، يزُولُ
تطُولُ بىَ السّاعاتُ ، وَهْىَ قَصِيرَةٌ ، وَفى كُلّ دَهْرٍ لا يَسُرّكَ طُولُ !
تَنَاسَانىَ الأصْحَابُ ، إلاّ عُصَيْبَةً سَتَلحَقُ بالأخرى ، غداً ، وَتَحولُ !
وَمَن ذا الذى يبقى على العهدِ ؟ إنّهمْ وَإنْ كَثُرَتْ دَعوَاهُمُ ، لَقَلِيلُ !
أُقَلّبُ طَرْفى لا أرى غَيرَ صَاحِبٍ ، يَمِيلُ مَعَ النَعْمَاءِ حَيثُ تَمِيلُ
وَصِرْنَا نَرَى أنْ المُتَارِكَ مُحسِنٌ وَأنّ صَدِيقاً لا يُضِرّ خَلِيلُ
أَكُلّ خَلِيلٍ ، هكَذا ، غَيْرُ مُنصِفٍ ، وَكُلِ زَمَانٍ بِالكِرَامِ بَخِيلُ !
نَعَمْ دَعَتِ الدّنيا إلى الغَدْرِ دَعوَةً أجَابَ إلَيْهَا عَالِمٌ ، وجَهُولُ

---

(١) يديل : أى يديل هذه الحال ، يغيرها .

(٢) الأساة ، الواحد آس : الطبيب .

وَفَارَقَ عَمْرُو بنُ الزّبَيرِ شَقِيقَه ، وَخلّى أميرَ المُؤمنين عَقيلُ ! [١]
فَيَا حَسْرتَا ، مَنْ لى بخلٍّ مُوافقٍ أقُولُ بشَجوى ، مرّة ، ويَقُولُ !
وإنّ ، وراءَ السّتْرِ ، أُمًّا بكَاؤهَا علَيّ ، وإنْ طالَ الزمَانُ ، طَويلُ !
فَيَا أمتَّا ، لا تَعدَمى الصبر ، إنّه إلى الخَيرِ وَالنُّجحِ القَريبِ رَسُولُ !
وَيَا أُمّتَا ، لا تُخْطِئى الأجْرَ ! إنّهُ على قَدْرِ الصّبْرِ الجَميلِ جَزيلُ ! [٢]
أمَا لَكِ فى ذاتِ النِّطاقَينِ أسْوَةٌ ، بمَكّةَ ، وَالحَربُ العَوَانُ تجُولُ [٣]
أرَادَ ابنُهَا أخْذَ الأمَانِ فَلَمْ نجبْ وَتَعْلَمُ ، عِلْماً ، أنّهُ لَقَتِيلُ !
تأسّيْ ! كَفَاكِ اللّهُ مَا تحْذَرِينَهُ ، فَقَدَ غَالَ هذا النّاسَ قبلكِ غُولُ !
وَكُونى كمَا كانَتْ بأُحْدٍ صَفيّةٌ ، وَلَمْ يُشْفَ منهَا بالبُكاءِ غَليلُ ! [٤]
وَلَوْ رَدّ يَوْماً ، حَمزَةَ الخيرِ حُزْنُها إذاً مَا عَلَتْهَا رَنّةٌ وَعَويلُ [٥]
لَقِيتُ نجُومَ الأفقِ وَهيَ صَوارِمٌ ؛ وَخُضْتُ سَوَادَ اللّيْلِ ، وَهْوَ خيولُ
وَلَمْ أرعَ للنّفْسِ الكَريمَةِ خِلّةً ، عَشِيّةَ لَمْ يَعْطِفْ عَلَيّ خَليلُ
وَلكِنْ لَقِيتُ المَوْتَ حتى تركْتُهَا وَفيهَا وَفي حَدّ الحُسَامِ فُلُولُ

(١) شقيقه : عبد الله بن الزبير . أمير المؤمنين : الإمام على . عقيل : هو أخو الإمام على .

(٢) لا تخطئى الأجر : أى لا تدعيه يفوتك .

(٣) ذات النطاقين : هي أسماء بنت أبي بكر الصديق أم عبد الله بن الزبير .

(٤) أحد : هو يوم أحد كان بين المسلمين والمشركين . صفية : هى عمة النبى محمد .

(٥) حمزة : عم النبي محمد ، أخو صفية .

وَمَنْ لمْ يُوَقِّ اللّهُ فهوَ مُمَزَّقٌ ! وَمَنْ لَمْ يُعِزِّ اللّهُ فَهوَ ذَليلُ !
ومَا لمْ يُرِدْهُ اللّهُ ، في الأمرِ كُلّهِ ، فَلَيْسَ لِمَخْلُوقٍ إلَيْهِ سَبيلُ

إذا لم يعنك الله

قال هذه الأبيات قبل موته بعد إخفاقه في محاولة التملك علي حمص :

إذَا لَمْ يُعِنْكَ اللهُ فِيمَا تَرُومُهُ ، فَلَيْسَ لِمَخْلُوقٍ إلَيْهِ سَبِيلُ
وَإنْ هُوَ لمْ يَنْصُرْكَ لمْ تَلْقَ ناصِراً وَإنْ عَزّ أنصَارٌ وَجَلّ قَبِيلُ
وَإنْ هُوَ لمْ يُرْشِدكَ في كلّ مَسلَكٍ ضَلَلْتَ ، وَلَوْ أنّ السِّمَاكَ دَلِيلُ !

المزح جلاء العقل

أُرَوِّحُ القَلْبَ بِبَعْضِ الهَزْلِ ، تَجَاهُلاً مِني ، بِغَيرِ جَهْلِ !
أمْزَحُ فِيهِ ، مَزْحَ أهلِ الفَضْلِ ، وَالمَزْحُ ، أحيَاناً ، جَلاءُ العَقْلِ

أبى الدمع إلا تسرعا

وقال يعاتب سيف الدولة لتأخره بافتدائه :

أبَى غَرْبُ هذا الدّمْعِ إلاّ تَسَرُّعَا وَمَكْنُونُ هذا الحُبّ إلاّ تَضَوُّعَا (١)
وكُنتُ أرَى أني مَعَ الحَزْمِ وَاحِدٌ ، إذا شئْتُ لي مَمضىً وَإن شئتُ مَرْجِعاَ
فَلَمّا استَمَرّ الحُبّ في غُلَوائِهِ ، رَعَيتُ مَعَ المِضْيَاعَةِ الحُبَّ ما رَعَى

(١) غرب الدمع : سيلانه .

فَحُزْنِىَ حُزْنُ الهَائمينَ مُبَرِّحاً ؛ وَسِرِّىَ سِرُّ العَاشقِينَ مُضَيَّعا
خَليلَىّ ، لِمْ لا تَبكِيانى صَبابَةً ، أأبدَلْتُما بالأجرَعِ الفَرْدِ أجرَعَا؟ [1]
عَلَىَّ ، لِمَنْ ضَنَّتْ عَلَىَّ جُفُونهُ ، غَوارِبُ دَمْعٍ يَشْمَلُ الحىَّ أجمَعَا
وَهَبْتُ شَبَابِى ، وَالشّبَابُ مَضِنةٌ ، لأَبْلَجَ مِنْ أَبْنَاءِ عَمّى ، أَرْوَعَا ! [2]
أبيتُ ، مُعَنَّى ، مِنْ مَخَافَةِ عَتْبِهِ ، وأُصْبِحُ مَحْزُوناً وأُمسِى مُروَّعَا !
فَلَمّا مَضَى عَصْرُ الشّبِيبةِ كُلُّهُ ، وَفَارَقَنى شَرْخُ الشّبَابِ ، مُودِّعَا
تَطَلَّبْتُ بَينَ الهَجرِ وَالعَتْبِ فُرْجَةً ، فَحَاوَلْتُ أمراً ، لا يُرَامُ ، مُمنَّعَا
وَصِرتُ إذَا مَا رُمْتُ فى الخَيرِ لَذّةً تَتَبّعْتُهَا بَينَ الهُمُومِ ، تَتَبُّعَا
وَهَا أنَا قَدْ حلّى الزّمَانُ مَفَارِقى ، وَتَوّجَنى بالشّيْبِ تَاجاً مُرَصَّعَا
فَلَوْ أنّنى مُكّنْتُ مِمّا أُرِيدُهُ مِنَ العَيْشِ يَوْماً لم يجدْ فىّ مَوضِعَا
أمَا لَيْلَةٌ تَمضِى وَلا بَعضُ لَيْلَةٍ ! أسُرُّ بهَا هَذا الفُؤادَ المُفَجَّعَا ؟
أمَا صَاحِبٌ فَرْدٌ يَدُومُ وَفَاؤهُ ! فيُصْفى لمن أصْفى وَيَرْعى لمن رَعَى ؟
أفى كُلّ دارٍ لى صَدِيقٌ أوَدُّهُ ، إذَا مَا تَفَرّقْنَا حَفِظْتُ وَضَيَّعَا ؟

---

(١) الأجرع : رملة مستوية لا تنبت شيئاً . يريد أتغيرتما عما كنتما عليه لى .

(٢) الأبلج : الطلق الوجه . الأروع : من يعجبك بحسنه أو شجاعته . وأراد سيف الدولة .

أقَــمْتُ بأرْضِ الرّومِ عَــامَينِ لا أرى مِـنَ النّاسِ مَـحْـزُوناً وَلا مُـتَـصَنِّعَـا
إذا خِــفتُ مِــنْ أخــوَالىَ الرّومِ خُطّةً تخَـوّفْتُ مِـنْ أعـمَـامىَ العُـرْبِ أربَعَـا
وَإنْ أوْجَـعَـتْنى مِـنْ أعـادِىَ شِيـمَـةٌ لَـقِـيتُ مِـنَ الأحـبَـابِ أدْهَـى وأوجـعَـا
وَلَوْ قَـدْ رَجَـوْتُ اللّهَ لا شَـىْءَ غَـيـرَهُ رَجَـعْتُ إلى أعْلى وَأمّـلْـتُ أوْسَـعَـا
لَـقَد قَنِعُوا بـعَدى من القَـطرِ بالنّدى، وَمَـن لمْ يجِـدْ إلاّ القُـنُـوعَ تَقَنّعَـا (١)
وَمَـا مَـرّ إنْسَـــانٌ فَــأخْلَفَ مِـثْلَهُ ، وَلَكِـنْ يُزَجّى النّاسُ أمـراً مُـوَقَّـعَـا (٢)
تَنَكّرَ سَـيْفُ الدّينِ لَمّـا عَـتَـبْـتُـهُ ، وَعَرّضَ بى ، تحتَ الكلامِ ، وَقَرّعَـا (١)
فَـقُـولا لَـهُ : مِـنْ أصْـدَقِ الوُدِ أنّنى جَعَلْتُكَ مِـمّـا رَابَنى ، الدّهـرَ ، مَفزَعا
وَلَـوْ أنّنى أكْنَنْتُـــهُ فى جَـوَانِحى لأوْرَقَ مَــا بَينَ الـضّـلُـوعِ وَفَــرّعَــا
فَـلا تَغْـتَـرِرْ بالنّاسِ إمّـا كُلّ من ترَى أخُوكَ إذا أوْضَعتَ فى الأمرِ أوْضَعَـا (٢)
وَلا تَتَـقَلّـدْ مَـا يَـرُوعُـكَ حَلْيُــهُ ؛ تَقَلّدْ ، إذا حارَبْتَ ، مَـا كَـانَ أقْطَعَـا
وَلا تَقْــبَلَنّ القَــوْلَ من كلّ قـائِـلٍ ! سأُرْضِيكَ مَرْأًى لستُ أُرْضِيكَ مسمعَـا

---

(١) تقنع : تكلف القناعة .

(٢) يزجى : يسوق .

فَلِلّهِ إحْسَانٌ إليّ وَنِعْمَةٌ ، وَلِلّهِ صُنْعٌ قَدْ كَفَانى التّصَنّعَا
أرَانى طَرِيقَ المَكْرُمَات ، كمَا رأى ، عَلَىّ وأسْمَانى على كُلّ مَنْ سعَى
فَإنْ يَكُ بُطْءٌ مَرّةً فَلَطَالَمَا تَعَجّلَ ، نْحوِى ، بالجَمِيلِ وأسْرَعَا
وَإنْ يَجْفُ فى بَعْضِ الأمُورِ فَإنّنى لأشْكُرُهُ النّعْمَى التى كانَ أوْدَعَا
وَإنْ يَستَجِدّ النّاسَ بَعدى فلا يزَلْ بذاكَ البَدِيل ، المُستَجَدّ ، مُمتَّعَا !

---

(١) سيف الدين : أراد به سيف الدولة . قرعه : أنبه تأنيباً شديداً .

(٢) أوضع : أسرع فى سيره .

لنا الصدر أو القبر

وقال الروم اعتداداً عليه إنه لم يؤسر أحد فبقى عليه ثيابه وفرسه وسلاحه غيره فقال :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمعِ شِيمَتُكَ الصَّبرُ ، أمَا للْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلا أمْرُ ؟
بَلَى ، أنَا مُشتَاقٌ ، وَعِندِيَ لَوْعَةٌ ، وَلَكِنَّ مِثْلي لا يُذَاعُ لَهُ سِرٌّ !
إذا الليلُ أضْوَانى بَسَطتُ يدَ الهَوَى وَأذْلَلْتُ دَمْعاً من خَلائقِهِ الكِبْرُ (١)
تَكَادُ تَضِيءُ النارُ بينَ جَوَانِحِي إذا هِيَ أذْكَتْهَا الصَّبَابَةُ وَالفِكْرُ (٢)
مُعَلِّلَتِي بالوَصْلِ ، وَالمَوْتُ دونَهُ ، إذا مِتّ ظَمْآناً فَلا نَزَلَ القَطْرُ! (٣)
حَفِظْتُ وَضَيَّعْتِ المَوَدَّةَ بيننَا وَأحسنَ، من بَعضِ الوَفاءِ لكِ، العُذْرُ
وَمَا هَذِهِ الأيّامُ إلاّ صَحَائِفٌ لأحرُفِها ، مِنْ كَفِّ كاتِبِها ، بَشْرُ (٤)
بنَفسي مِنَ الغَادِينَ في الحَيّ غَادَةً هَوَايَ لهَا ذَنْبٌ ، وَبَهْجَتُها عُذْرُ
تَرُوغُ إلى الوَاشِينَ فيّ ، وَإنّ لي لأذْناً بهَا ، عَنْ كُلّ وَاشِيَةٍ ، وَقرُ (٥)

---

(١) أضواني : أضعفني .

(٢) الجوانح : أوائل الضلوع تحت الترائب . أذكتها : أشعلتها . الصبابة : الشوق .

(٣) معللتي : مطمعتي .

(٤) أراد بالبشر المحو .

(٥) تروغ : تميل سراً .

بَـدَوْتُ ، وأهـْلى حـَاضِـرُونَ ، لأنّنى أرَى أنّ داراً ، لَستِ من أهلِـهـا ، قَفْرُ
وَحـَارَبْتُ قـَوْمى فى هـَوَاكِ ، وَإنّهـُمْ وَإيّاىَ ، لـَوْلا حُبّكِ ، المـَاءُ وَالخَمـرُ
فإنْ يـَكُ مـَا قـَالَ الوُشـَاةُ وَلمْ يـكُـنْ فَـقَـد يَهـدِمُ الإيمانُ مـَا شَيّـدَ الكُفـرُ
وَفَـيتُ ، وفى بَعضِ الوَفَـاءِ مـَذَلّـةٌ ، لإنسَـانَةٍ فى الحَـىّ شِيـمَتُـهـَا الغـَدْرُ
وَقُـورٌ ، وَرَيْعـَانُ الصِّبَـا يَسـتَـفـِزّهـَا ؛ فَتَأرَنُ ، أحْيَاناً ، كَمـَا أرِنَ المُهْرُ (١)
تُسَائِلُنى : مـَنْ أنتَ ؟ وَهىَ عَلِيـمَةٌ ، وَهـَلْ بِفتًى مِثْلى عَلَى حـَالِه نُـكرُ ؟
فَقُلتُ كـمـَا شاءتْ وَشَاءَ لهَا الهـَوَى : قَتيلُـكِ ! قالَتْ : أيّهُمْ ؟ فـهُمُ كُثرُ
فَـقُلت لهـَا : لَوْ شِئْت لَمْ تَتَـعَنّتى ، ولَمْ تَسـألى عَنى وَعِندَكِ بى خُبرُ ! (٢)
فَقالَتْ : لـَقَد أزْرَى بكَ الدّهرُ بـَعدنا ؛ فَـقُلتُ : مَعـاذ الله بَل أنتِ لا الدّهـرُ
وَمـَا كـانَ للأحزَانِ ، لـَوْلاكِ ، مَسلَـكٌ إلى القَلْبِ لكـِنّ الهـَوَى للبِلى جِسـرُ
وَتَهْلِـكُ بَينَ الهـَزْلِ وَالجِـدّ مُـهـجَـةٌ إذا مـَا عـَدَاهـَا البَينُ عَـذّبَها الهَجْرُ
فـأيقَنْتُ أنْ لا عِـزّ بَعـدى لعـاشِقٍ ؛ وَأنّ يَدى مِـمّـا عَلِقْتُ بِـهِ صِـفْـرُ
وَقَـلّبْـتُ أمْـرِى لا أرَى لـى رَاحَـةً ، إذا البَينُ أنْسَـانى ألَـحّ بىَ الهَـجْـرُ
فَـعُدْتُ إلى حكمِ الزّمـَانِ وَحكمِهـَا ، لهَـا الذّنْبُ لا تُجـزَى به وَلىَ العُـذْرُ

---

(١) وقور : أى هى وقور . ريعان الصبا : أوله . يستفزها : يستخفها . تأرن : تمرح ، يقال : مهر أرن أى مرح نشيط .

(٢) لم تتعنتى : أى تتعنتينى ، وتعنته : سأله عن شىء أراد به التلبيس عليه والمشقة .

كَأَني أنَادى دُونَ مَيْشَاءَ ظَبْيَةً على شَرَفٍ ظَمْيَاءَ جَلَّلَهَا الذُّعْرُ (١)
تَجَفَّلُ حِيناً ، ثُمّ تَرْنُو كَأَنَّهَا تُنادى طَلاً بالوَادِ أعجَزَهُ الحُضْرُ (٢)
فَلا تُنْكِرِينى ، يَابْنَةَ العمّ ، إنّهُ لِيَعرِفُ مَن أنكَرْتِهِ البَدْوُ وَالحَضْرُ
ولا تُنْكِرِينى و إنّنى غَيْرُ مُنْكَرٍ إذا زَلّتِ الأَقْدامُ ، واستُنزِلَ النّصرُ
وَإنى لجَرّارٌ لِكُلّ كَتِيبَةٍ مُعَوَّدَةٍ أنْ لا يُخِلّ بهَا النّصرُ (٣)
وَإنى لنَزّالٌ بِكُلّ مَخُوفَةٍ كَثِيرٌ إلى نُزّالِهَا النّظَرُ الشُّزْرُ (٤)
فَأَظْمَأُ حتى تَرْتَوِى البِيضُ وَالقَنَا وَأَسْغَبُ حتى يَشبَعَ الذّئبُ وَالنّسرُ (٥)
وَلا أُصْبِحُ الحَيَّ الخَلُوفَ بغَارَةٍ ، وَلا الجَيْشَ مَا لَمْ تأتِه قَبلىَ النُّذْرُ (٦)
وَيا رُبّ دَارٍ ، لَمْ تَخَفْنى ، مَنِيعَةٍ طَلَعتُ عَلَيْهَا بالرّدى ، أنَا وَالفَجرُ
وَحَيٍّ رَدَدْتُ الخَيلَ حتى مَلَكتُهُ هَزِيماً وَرَدّتنى البَرَاقِعُ وَالخُمْرُ (٧)

---

(١) الميثاء : التلعة ، أى ما اتسع من فوهة الوادى . الشرف : المكان العالى . ظمياء : رقيقة الجفون . جللها الذعر : أى شملها الخوف .

(٢) الطلا : ولد الظبية ساعة يولد . الحضر : الركض .

(٣) يخل بها : يتركها .

(٤) المخوفة : أى أرض يخاف فيها . الشزر : نظر فيه إعراض كنظر الغضبان المباغض . يريد أن هذه الأرض المخوفة كثيرة الأعداء .

(٥) أظمأ : أعطش . أسغب : أجوع .

(٦) الحي الخلوف : أى الغائبون رجاله يريد أنه لا يغزو حياً لا رجال فيه ولا جيشاً إلا بعد أن ينذره بزحفه عليه .

(٧) رددت الخيل : أى رددت فرسان الخيل . الخمر ، الواحد خمار : ما تستر به المرأة رأسها ، يريد أنه استولى علي الحي ولم يسب النساء .

وَسَاحِبَةِ الأذْيالِ نَحوِى ، لَقِيتُها ... فَلَمْ يَلْقَهَا جافِى اللّقَاءِ وَلا وَعْرُ (١)

وَهَبْتُ لها مَا حَازَهُ الجيشُ كُلَّهُ ... وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لأبْياتِها سِتْرُ

وَلا رَاحَ يُطغِينِي بأثْوَابِهِ الغِني ؛ ... وَلا بَاتَ يَثْنِينِى عَنِ الكَرَمِ الفَقْرُ

وَمَا حَاجَتِى بالمَالِ أبْغِى وُفُورَهُ ؛ ... إذا لَمْ أفِرْ عِرْضِى فَلا وَفَرَ الوَفْرُ (٢)

أُسِرْتُ وَمَا صَحبِى بِعُزْلٍ لدى الوَغى ، ... وَلا فَرَسِى مُهْرٌ ، وَلا رَبُّهُ غُمْرُ (٣)

وَلكِنْ إذا حُمَّ القَضَاءُ على امرِئٍ ، ... فَلَيسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ ، وَلا بَحْرُ (٤)

وَقالَ أُصَيْحابى : الفِرَارُ أوِ الرَّدَى ؟ ... فَقُلتُ : هُمَا أمرَانِ ؛ أحلاهُما مُرُّ

وَلكِنّنى أمْضِى لِمَا لا يَعِيبُنِى ، ... وَحَسبُكَ من أمرَينِ خَيرُهُما الأسْرُ

يَقُولونَ لى : بِعتَ السّلامَةَ بالرَّدى ؛ ... فَقُلْتُ : أمَا وَالله ، مَا نَالَنى خُسْرُ

وَهَلْ يَتَجافَى عَنّيَ المَوْتُ سَاعَةً ، ... إذَا مَا تَجافَى عَنّيَ الأسْرُ وَالضُّرُّ ؟

هُوَ المَوْتُ ؛ فاختَرْ ما عَلا لك ذِكرُه ، ... فلَمْ يَمُتِ الإنسانُ ما حَيِيَ الذكرُ

---

(١) ساحبة الأذيال : أى فتاة ساحبة الأذيال ، كناية عن تبخترها . جافى اللقاء ولا وعر : أراد أنه استقبلها استقبالا حسناً ولم يكن جافياً .

(٢) الوفر : المال .

(٣) العزل ، الواحد أعزل : من لاسلاح معه . لا فرسى مهر : أى فرسه مجرب . وأراد بربه غمر : أى أنه ليس حديث العهد بخوض المعارك .

(٤) حم القضاء : أى قضى .

وَلا خـيـرَ فى دَفْعِ الرّدَى بِمـذَلَّـةٍ كمـا رَدّهـا ، يَوْماً، بِسَوْءته عَـمْرُو [1]
يَمُنّونَ أنْ خـلّوا ثِيَـابى ؛ وَإنّمـا عـلَىَّ ثِيَـابٌ ، من دِمـائهِم ، حُـمْـرُ
وَقـائمُ سَيْفٍ فيِهِم انْدَقّ نَصلُـهُ ، وأعقـابُ رُمحٍ فيـهِم حُطِّمَ الصّـدرُ
سَيَذْكرنى قَوْمى إذا جـدّ جِـدّهـمْ ، وَفى اللّـيلَـةِ الظّـلمـاءِ يُفتَقَـدُ البَدْرُ
فإنْ عِشْتُ فَالطّعنُ الذى يَعرِفُونَه وَتلكَ القَـنا والبِيضُ وَالضُّمّرُ الشّقـرُ
وَإنْ مُتّ فَالإنْسَانُ لابُدّ مَـيّتٌ وَإنْ طَالَتِ الأيـّامُ ، وَانْفَسَحَ العمـرُ
وَلَوْ سَدّ غَيرى ما سددتُ اكتفَوْا به ، وَما كانَ يَغلو التّبرُ لَوْ نَفَقَ الصُّفْرُ
وَنَحنُ أُنَـاسٌ ، لا تَـوَسُّطَ عِنْدَنَـا ، لَنَا الصّدرُ دُونَ العالَمينَ أوِ القَبرُ
تَهُونُ عَلَيْنَـا فى المَعَـالى نُفُـوسنَـا ؛ وَمَنْ خَطَبَ الحَسناءَ لَمْ يُغلِها المَهرُ
أعَـزُّ بَنى الدّنْيَـا وَأعْـلى ذَوِى العـلا ، وَأكـرَمُ مَـن فَـوْقَ التـرَابِ وَلا فَخْـرُ

---

(١) هو عمرو بن العاص ، وقصته مع الإمام علىّ معروفة .

بنـى عمنــا !

قال ابن خالويه : قال أبو فراس رحمه الله : ما كل ماقلته في الطرف ارتضيته لأنني كنت عليلا والعليل عليل . وامتنع سيف الدولة من إخراج ملك الروم إلا بفداء عام فحملت إلى القسطنطينية وبلغتني بها بلاغة فكتبت في ذلك :

أمَـا لِـجَـمِـيلٍ عِنْدكُـنَّ ثَوَابُ ؛ ولا لِـمُـسيءٍ عِنْدكُـنَّ مَـتَـابُ ؟
لَقَـدْ ضَلَّ مَـن تَحوِى هواهُ خَـرِيدةٌ ، وَقَـد ذلّ مَـن تَقْضى عَـلَـيْهِ كَـعَابُ[1]
وَلَكِنَّنى ، وَالحَـمْـدُ للّهِ ، حـازِمٌ أعِـزّ إذَا ذَلّتْ لَـهُـنّ رِقَـابُ
وَلاتَمْلِكُ الحَـسْنَـاءُ قَـلْبىَ كُـلّـهُ ، وَإنْ شَـمِـلَـتْـهـا رِقّـةٌ وَشَـبـابُ
وأجرِى فلا أعطى الهوَى فضْلَ مقودَى، وأهْفُـو وَلا يَخْـفَى عَـلَىّ صَـوَابُ (٢)
إذا الخِـلّ لَـمْ يَهْـجُـرْكَ إلاّ مَـلالَـةً فَلَيْسَ لَـهُ إلا الفِـرَاقَ عِـتَـابُ
إذَا لَـمْ أجِـدْ مِـنْ خُـلّةٍ مـا أُرِيدُهُ ، فَـعِنْدى لأُخْـرَى عَـزْمَـةٌ وَرِكَـابُ
وَلَيسَ فِراقٌ مـا استَطَعتُ ، فـإن يكُـنْ فِـراقٌ عَـلَى حـالٍ ، فَلَيْس إيـابُ
صَـبُـورٌ ولَوْ لَـمْ تبقَ مِنّى بَقِـيّـةٌ ؛ قَـؤولٌ وَلَـوْ أنّ السّـيُـوفَ جَـوَابُ

(١) الكعاب : الناهدة الثديين .

(٢) أهفو ، مضارع هفا : طرب وطاش وخف .

وَقُــورٌ وأحــدَاثُ الزّمــانِ تَنُوشُنى ، وَلِـلْمَوْتِ حَوْلِى جَيئَةٌ وذهابُ (١)
وَأَلْـحَظُ أحـوَالَ الزّمَـانِ بِمـُقْلَـةٍ بهـا الصّـدقُ صـدقٌ وَالكذابُ كـذابُ
بِـمَـنْ يَثِقُ الإنسَـانُ فـيـمَـا يَنوبُـهُ ومِـنْ أينَ للحـرّ الكَريمِ صـحـابُ ؟
وَقَـدْ صَـارَ هـذَا النّاسُ إلاّ أقَلّهـمْ ذئاباً عـلى أجْـسَـادِهـنّ ثِيَـابُ
تَغَابَيتُ عَـنْ قَـوْمى فظَنّوا غَـبَـاوَتى بمَـفْـرِقِ أغْـبَـانَـا حَـصًى وتـرابُ
وَلَـوْ عَـرَفُـونى حَقّ مَعْـرِفَـتى بهِمْ ، إذاً عَلمُـوا أنى شـهـدْتُ وغَـابوا
وَمَـا كُـلُّ فَـعّـالٍ يُجـازَى بِفِـعْلِه ؛ وَلا كُـلُّ قَـوالٍ لـدَىّ يُجَـابُ
وَرُبّ كَـلامٍ مـر فـوْقَ مَسَـامِـعى كمـا طَـنّ فى لُوحِ الهَجِيرِ ذُبَابُ (٢)
إلـى اللّـه أشـكُـو أنّنـا بِمَنَـازِلٍ تَـحَكّـمُ فـى آسَـادِهِـن كِـلابُ
تَمُـرّ اللّيَـالى لَيْس للنّفْعِ مَـوْضِعٌ لَـدَيّ ، وَلا للمُـعْـتَـفينَ جَنَابُ (٣)
وَلا شُدّ لى سَرْجٌ عَلَى ظَهْـرِ سَابحٍ ؛ وَلا ضُـرِبَتْ لى بِـالعَـرَاءِ قِـبَـابُ
وَلا بـرَقَتْ لى فى اللقَـاءِ قَـوَاطِعٌ ؛ وَلا لَمـعَتْ لى فى الحُـرُوبِ حِـرَابُ
سَـتَـذكُـرُ أيّامى نُمَـيْـرٌ وَعَـامِـرٌ وَكَـعْـبٌ عـلى عِلاّتِـهـا وكِلابُ (٤)
أنـا الجـارُ لا زَادى بَـطِىءٌ عَـلَيْهِمُ ، وَلا دُونَ مَـالى لِلْحَـوَادِثِ بَـابُ

---

(١) تنوشني : تطلبنى .
(٢) اللوح : الهواء بين الأرض والسماء .
(٣) المعتفين : طالبى المعروف . جناب : ناحية .
(٤) نمير وعامر وكعب وكلاب : قبائل عربية .

وَلا أطْلُبُ العَوْرَاءَ مِنْهُمْ أُصِيبُهَا ، وَلا عَوْرَتى للطّالِبينَ تُصَابُ
وَأَسْطُو وَحُبّى ثَابِتٌ فى صُدورِهِمْ وَأحْلُمُ عَنْ جُهّالِهِمْ وَأُهَابُ
بَنى عَمِّنا ما يَصْنَعُ السّيفُ فى الوَغى إذا فُلّ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَذُبَابُ ؟ (١)
بَنى عَمِّنَا لا تُنْكِرُوا الحَقَّ إنّنَا شِدادٌ عَلى غَيْرِ الهَوَانِ صِلابُ
بَنى عَمِّنَا نَحْنُ السّوَاعِدُ وَالظُّبَى وَيُوشِكُ يَوْمـاً أنْ يَكُونَ ضِرَابُ
وَإنّ رِجالاً ما ابنكُمْ كابنِ أُختِهِمْ حَرِيّونَ أنْ يُقْضَى لَهُمْ وَيُهَابُوا
فَعَنْ أيّ عُذْرٍ إنْ دُعُوا وَدُعِيتُمُ أبَيْتُمْ ، بَنى أعمامِنا ، وَأجَابُوا ؟
وَمَا أدّعى ، مَا يَعْلَمُ اللهُ غَيْرَهُ ، رِحَابُ عَلِيٍّ لْعُفَاةِ رِحَابُ (٢)
وَأفْعَالُهُ للرّاغِبِينَ كَرِيمَةٌ ، وَأمْوَالُهُ للطّالِبِينَ نِهَابُ
وَلَكِنْ نَبَا مِنْهُ بكَفّيَ صَارِمٌ وَأظْلَمَ فى عَيْنَيّ مِنْهُ شِهَابُ
وَأبْطَأَ عَنّى ، وَالمَنَايَا سَرِيعَةٌ ، وَلِلْمَوْتِ ظُفْرٌ قَدْ أطَلّ وَنَابُ
فَإنْ لَمْ يَكُنْ وُدٌّ قَدِيمٌ نَعُدُّهُ وَلا نَسَبٌ بَينَ الرّجَالِ قُرَابُ
فَأحْوَطُ لِلإسْلامِ أنْ لا يُضِيعَنى وَلى عَنكَ فِيهِ حَوْطَةٌ وَمَنَابُ
وَلَكِنّنى رَاضٍ عَلى كُلّ حَالَةٍ لِيُعْلَمَ أيّ الحَالَتَينِ سَرَابُ
وَمَا زِلْتُ أرْضَى بِالقَلِيلِ مَحَبّةً لَدَيكَ ، وَما دُونَ الكَثِيرِ حِجَابُ

---

(١) ذباب السيف : حده .

(٢) على : اسم سيف الدولة .

وأَطْلُبُ إبْقَاءً عَلى الوُدِّ أرْضَهُ ، وَذِكْرِى مُنًى فى غَيرِهَا وَطِلابُ
كذاكَ الوِدادُ المَحضُ لا يُرْتَجَى لَهُ ثَوابٌ ، وَلَا يُخشَى عَلَيه عِقَابُ
وَقد كنتُ أخشَى الهجرَ وَالشملُ جامعٌ وَفى كُلِّ يَوْمٍ لَفْتَةٌ وَخِطَابُ
فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلكُ قَيصرٍ وَلِلبَحْرِ حَوْلِى زَخْرَةٌ وَعُبَابُ ؟
أمِنْ بَعد بَذلِ النّفسِ فيما تُرِيدُهُ ، أُثَابُ بِمُرِّ العَتْبِ حِينَ أُثَابُ ؟
فَلَيْتَكَ تَحلُو ، وَالحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الّذى بَيْنى وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنى وَبَيْنَ العَالَمِينَ خَرابُ

السـرى الرفـاء (ت ٣٦٢ هـ)

هو أبو الحسن السرى بن أحمد بن السرى الكندى الرفاء الموصلى ويعرف بالسرى الرفاء ولُقِّب بالرفاء لأنه كان يرفو الثياب ويطرزها . وهو عربى الأصل من قبيلة كندة. نشأ فى مدينة الموصل بالعراق فى أسرة فقيرة ، وحين ضاق بحياته فى سوق الرفائين امتهن صيد الأسماك حتّى ذاع شعره فاتصل بناصر الدولة وأولاده من أمراء بنى حمدان فحسده الخالديان وناصباه العداء فغادر الموصل إلى حلب قاصدا سيف الدولة فصار من شعرائه ، وتبعه الخالديان إلى بلاط سيف الدولة وجدا فى مناصبته العداء وإفساد ما بينه وبين الحمدانيين ، فغادر الشام إلى بغداد واتصل بأبى إسحق الصابى ، ولكن الخالديَيْن تعقباه وأفسدا حياته فى بغداد حتى توفى بها عام ٣٦٢ هـ على أرجح الأقوال .

وكان السرى فى مطلع شبابه ماجنا خليعا فأكثر من وصف الخمر والملذات الحسية وكان ضحل الثقافة فلم ينهل من روافدها الثرة فى عصره ، حتى قيل إنه لا يحسن من العلوم الأخرى غير الشعر . وكان يتشيع وله فى آل البيت قصائد كثيرة . وأكثر شعره فى الوصف والمديح والهجاء ، وقد أجاد فى الوصف وتفوق فيه . وتغلب على شعره الصنعة الفنية مع عذوبة اللفظ وصفائه والاهتمام بالإيقاع فى داخل الأبيات . وله إلى جانب ديوان شعره (كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب) الذى جمع فيه أجمل أشعار المحدثين فى الغزل والخمريات والزهريات .

وقال يمدَحُ الأميرَ سيْفَ الدَّولةِ [ويذكُرُ بعضَ غزَواته] (من الطويل) :

كَمَلْنَ فأَطْلَعْنَ البُدورَ كَوامِلا ... ومِلْنَ فأَبدَيْنَ الغُصُونَ مَوائلا
غَدَوْنَ لَنا بالوَصْلِ إنْساً نَواضِراً ... وكُنَّ منَ الهِجْرانِ وَحْشاً خَواذلا
يُحَرِّكْنَ أَعطافَ الغَليلِ صَبابَةً ... إذا حَرَّكَتْ أعطافُهنَّ الغَلائلا
نَوَيْنَ نوًى لمْ تَنْوِ نَقْضَ عُهودِنَا ... فَغادَرْنَ أنواءَ الدُّموعِ هَوامِلا
وَقَفْنا لِتَوديعِ الأَحِبَّةِ مَوقِفاً ... يَطُولُ علَيْنا أنْ نَرَى مِنْهُ طَائِلا
وَسَلَّتْ ظُبا أسيافِها مُقَلُ الظِّبا ... فَلَسْتَ تَرَى إلاَّ قَتيلاً وقَاتلا
وأغيدَ مُهْتَزُّ القَوامِ كأنَّما ... يَهُزُّ قَضيباً حينَ يَهتَزُّ مائلا
حَباني بِطَيْفٍ كانَ عارِفَةَ الهَوَى ... فَعرَّفني شُغْلاً عنِ النَّوْمِ شَاغِلا
فإنْ لا أَرِي الإِلْفَ الذى كانَ آلِفاً ... هَوايَ ولا الشَّمْلَ الذى كانَ شَامِلا
فَكَم لَيْلةٍ شَمَّرتُ لِلرّاحِ رائِحاً ... وَبتُّ لِغِزلانِ الصَّريمِ مُغَازِلا
وَحلَّيتُ كأسي والسَّماءَ بِحلْيِها ... فَما عَطِلَتْ حتَّى بَدَا الأُفْقُ عاطِلا
هِيَ البِيدُ عَاداتُ الرِّكابِ تَبيدُهَا ... إذا وَصَلَتْ فيها الضُّحَا والأَصائلا
إلى مَعْقلِ الجُودِ الذى جُعِلَتْ لَهُ ... صُدُورُ العَوالى والسُّيوفِ مَعَاقِلا
تَبَسَّمَ بَرْقُ الجَوِّ فاخْتَالَ لامِعاً ... وحَلَّ عُقُودَ الغَيْثِ فارفَضَّ هَاطِلا
فَقُلْتُ : عَلِيٌّ منْكَ أعلي صَنَائعاً ... إذا ما رَجَوْنَاه وأَرجَي مَخَايلا
رَبيعٌ تَولَّى عنْ دِيارِ رَبيعَةٍ ... وقَدْ أَلبَسَ النَّورَ الرُّبا والخَمائلا

فَـخَـيَّمَ فى أَوطانِ بَكْرِ بنِ وائلٍ يُقَـابِلُ بالنَّعْـمـاءِ بَكْراً ووائلا
وَطَافَتْ رِياضُ المَدْحِ حَـوْلَ قِـبابِه فَـعَمَّ رِياضَ المَدْحِ طَلّاً ووابِلا
شَمَـائِلُ لو أَنّى استَطَعْتُ لِفَضْلِها لَحمَّلْتُ شُكرِيها الصَّبا والشَّمائلا
وكَمْ مشْهَدٍ لَمَّا اغتَدَى فيه شاهداً تناوَلَ مَجْداً يُعجِزُ المتناوِلا
أَفاضَ بِهِ بَحْراً مِنَ الجَيْشِ طَامِياً إذا اعتَرَضَتْه العَيْنُ لمْ تَلْقَ سَاحِلا
بأُسْدٍ غَدَتْ بِيضُ الصَّوارِمِ فى الوغَى وسُمْرُ القَنا آجامَهَا والجَداوِلا
وخَافِقَةٍ فى الجوِّ إنْ ناجَتِ الصَّبا حَسبتَهُما فيه مُحِبّاً وعَاذِلا
إذا استَعْجَلَتْ فى نُطْقِها الرِّيحُ بَشَّرتْ عَلِيَّ بنَ عبدِ اللّهِ بالنَّصْرِ عاجِلا
فأوضَحَ نَهْجاً كانَ لولاهُ دارِساً وأطلَعَ سَعْداً كانَ لَوْلاهُ آفِلا
أرتْكَ مُلُوكُ الرومِ راياتِ مُلْكِهم فأَعْمَلْتَ فى الرُّومِ الظُّبا والعَوامِلا
وقُمتَ مَقَاماً يَتْرُكُ السَّيفَ صَاعِداً إذا ما التَقَى الصَّفانِ والرُّمْحَ نازِلا
تَرَى فَوقَهُ للطَّيرِ جَيْشاً مُسَالِماً إذا الجَيْشُ بالخَطِّيِّ كَرَّ مُقَاتِلا
بَذَلْتَ مَصُونَ النَّفسِ فيهِ ولمْ تَزَلْ لِنَفْسِكَ فى يَوْمِ الكَرِيهةِ بَاذِلا
وَسِرْتَ إليهِ تحْمِلُ البِيْضَ والقَنَا فَزفَّتْ إليكَ البِيْضُ بِيضاً عَقَائِلا
وكُنْتَ سِناناً حِينَ شَمَّرتَ ماضِياً وكَانَتْ عَدِىٌّ كُلُّها لكَ عامِلا
فأوحَشْتَ رَبْعاً مِنهُمُ كانَ آنِساً وأخْلَيْتَ فَجّاً مِنهُمُ كانَ آهِلا

وأجـريْتَ بالتَّلِ الدِّمـاءَ فلوْ جـرتْ ... به الخَيْلُ حَوْلاً ما أثرنَ القَسَاطِلا
لَقَـدْ أمِنَ الأيْامَ منْ كَـانَ خَـائِفـاً ... ونَالَ عُـرَي الآمـالِ مَنْ كَـانَ آمِـلا
بمُـشْـتَـملٍ بالعَـدْلِ سُلَّتْ سُيُـوفُـهُ ... عَلَى الدَّهْرِ حتَّى عادَ فى الحُكْمِ عادِلا
تَحَـرَّجَ أنْ يظْمَـا القَنَا فـأعَـادَهُ ... برغْمِ الأعـادى قَـانِىءَ اللَّونِ ناهِلا
إذا حـاوَلَ الأقـرانُ فى الرَّوْعِ خَـتْلَه ... أبرَّ عليـهِمْ مُـقْـدِمـاً لا مُـخَـاتِلا
فَلَوْ نَطَقَ الدَّهْرُ الَّذى لَيْسَ نَاطِقـاً ... تَنَصَّلَ إذْ هَزَّتْ يَدَاهُ المَنَاصِـلا
سَـأشكُرُ إنعَـامَ الأمـيـرِ وفَـضْلَهُ ... فـقَـدْ ألْبَـسَانى أنعُـمـاً وفَـضَائلا
غَـدَوْتُ وآمـالِى الظِّمـاءُ تقُـودُنى ... إلى جُـودِ كـفَّـيْـه فـعَـادَتْ نَواهِلا
وحَلَّيْتُ أبكَارَ القَـصَـائِدِ باسْـمِـهِ ... ولولاهُ أضْـحَتْ ثَيِّـبـاتٍ عَـواطِلا

وقـال يعـتَـذرُ إلى أبى إسْحقَ إبراهيمَ بنِ هلالٍ الصَّـابىِّ منْ قَرْصِـه إياهُ فى القَصيدة البائيَّة الّتى أوّلُها (تَحيَّةُ الغَيْث مُنهلاً سَحائبُهُ) وقد مَضَتْ فى مَوضعها. لأنه عَظُمَ عليه أمرُها واشتَدَّ . وقالَ : ليْسَ هذا عتابا ولكنَّه عَرْبَدةٌ [من الكامل] :

تأْبَى المَنَازِلُ أنْ تُجيبَ مُسَـائلا ... حَـالَتْ ولَسْتُ عَنِ الصَّبابَة حَـائلا
خَلَفَتْ مَدامِعُنا الحَيَا فى رَبْعِـها ... فَـتَنَاثَرتْ طَلاًّ عَلَيْـهِ ووَابِلا
أذكَـرتَنا زَمَنَ الشَّـبـابِ مُـدبَّجـاً ... والدَّهْرَ غِـراً والحَـبـيبَ مُـواصِـلا
أيَّامَ نجْـمَعُ لِلجَـمـالِ مَحَـافِـلاً ... مِلءَ العُـيُـونِ ولِلغَـرامِ مَحَـافِـلا

حَرَكاتُ أغصانٍ يُميِّلها الصَّبا هَيَفاً (١) فتَتْبَعُها القُلوبُ مَوائلا
وفَوارغُ الأحشاءِ منْ بَرْحِ الهَوى يُضْحي الفَراغُ بِهِنَّ شُغْلاً شاغِلا
رَدَّ الهَوى العُذْريُّ فيكِ رِداءَه وسُقيتِ أوبةَ مَنْ تَرَحَّلَ عاجِلا
قَصُرَتْ تَحِيَّاتُ الوداعِ فَلَمْ أنَلْ إلاَّ مُصافَحَةَ الكَواعِبِ نائلا
وَصْلٌ مِنَ الأطرافِ لَوْ وَصَلَتْ بِهِ عَرْفَ السَّوالفِ كانَ عُرْفاً كامِلا
وَهيَ الشُّموسُ فإنْ رأيْنَ طَوالِعاً يَضْحَكْنَ في الفَوْدَيْنِ عُدْنَ أوافِلا
ولَطالَما عَقَلَ الشَّبابُ شَوارداً مِنْهُنَّ لي في ظِلِّه وعَقائِلا
يَمْسَحْنَ جَعْدَ غَدائري وكأنَّما يَمْسَحْنَ بالمِسْكِ الذَّكيِّ سَلاسِلا
بَيْني وبَيْنَ الجاهِلَيْنِ ضَغائِنٌ خُزْرُ النَّواظِرِ يَقْتَضِيْنَ طَوائلا (٢)
فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأُسْدِيَنَّ عَوارِفاً ولَئِنْ سَطَوْتُ لأُهْدِيَنَّ زَلازِلا
ضَهَلا بِشِعْري مُقْرِفَيْنِ فَكَذَّبا إنَّ المَقارِفَ لا تَكُونُ صَواهِلا
وتَناهَبا مِنْهُ دُمًى حَلْيَتُها فَرَجَعْنَ دامِيَةَ النُّحُورِ عَواطِلا
في غارَةٍ لَمْ تَسْقِ ظَمآنَ الثَّرى عَلَقاً (٣) ولَمْ تُغْشِ السَّماءَ قَساطِلا
كانَتْ لأشْرافِ المُلُوكِ حَلائلاً فَغَدَتْ لأنْباطِ العِراقِ حَلائِلا

---

(١) الهيف : الضعف والنحالة .

(٢) الطوائل : الجرائر .

(٣) العلق : الدم الغليظ .

الدَّهْرُ يَعْلَمُ أَنَّنِي زَاحَمْتُهُ بِأَشَدَّ مِنْهُ فِي الشَّدَائِدِ كَاهِلا
وَهَزَزْتُ إِبْرَاهِيمَ فِيهِ وَإِنَّمَا أَعْمَلْتُ مِنْهُ مُهَنَّداً أَوْ عَامِلا
والسَّيْفُ لَيْسَ تَهُزُّهُ يَدُ فَارِسٍ إِلاَّ إِذَا كَانَ الحُسَامَ القَاصِلا (١)
رَدَّ السَّمَاحَ أَنِيقَةً أَيَّامُهُ حَتَّى اشْتَبَهْنَ أَوَاخِراً وَأَوَائِلا
وَأَحَلَّهُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ هِلالَهُ فَغَدَا وَرَاحَ بِهِ هِلالاً مَائِلا
بَحْرٌ لَقِيتُ نَوَالَهُ فَتَلاعَبَتْ بِي غَمْرَةٌ لَمْ أَلْقَ فِيهَا سَاحِلا
وَفَتًى إِذَا هَزَّ اليَرَاعَ حَسِبْتَهُ لِمَضَاءِ عَزْمَتِهِ يَهُزُّ مَنَاصِلا
مِنْ كُلِّ ضَافِي البُرْدِ يَنْطِقُ رَاكِباً بِلِسَانِ حَامِلِهِ وَيَصْمُتُ رَاجِلا
يَسْتَوْدِعُ القِرْطَاسَ زَهْراً نَابِهاً يَضْحَى لَهُ زَهْرُ الخَمَائِلِ خَامِلا
وَأَرَى الدُّرُوعَ مَعَاقِلاً فَإِذَا انْتَضَى آرَاءَهُ يَوْماً فَلَسْنَ مَعَاقِلا
يَرْمِي الخُطُوبَ بِصَائِبَاتِ عَزَائِمٍ أَضْحَتْ لَهَا جُنَنُ الخُطُوبِ مَقَاتِلا
وَلَكَمْ شُجَاعٍ فِي النَّوَائِبِ لَمْ يَكُنْ لِحَمَائِلِ السَّيْفِ المُهَنَّدِ حَامِلا
فَرَضَتْ عَلَيْهِ المَكْرُمَاتُ فَرَائِضاً لِلْمَجْدِ أَدَّاهَا وَزَادَ نَوَافِلا
لَوْلاهُ طَالَ عَلَى المَدَائِحِ أَنْ تَرَى طَوْلاً (٢) تَلُوذُ بِظِلِّهِ أَوْ طَائِلا
فَإِذَا لَقِيتَ أَخَا المَكَارِمِ قَائِلاً لَمْ تَلْقَ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ فَاعِلا
وَإِذَا السَّحَابُ رَأَتْ أَنَامِلَ كَفِّهِ تَنْهَلُّ وَدَّتْ أَنْ تَكُونَ أَنَامِلا
كَمْ رَوْضَةٍ لِلْمَجْدِ زَاهِرَةَ الرُّبَا ظَمِئَتْ إِلَيْكَ فَكُنْتَ غَيْثاً هَاطِلا
لَمَّا تَصَغَّرَ فِي فِنَائِكَ نَوْرُهَا أَجْرَيْتَ بِالمَعْرُوفِ فِيهِ جَدَاوِلا

---

(١) القاصل : القاطع الحاد .

(٢) طَوْلاً : منّاً . طال على المدائح : امتنّ عليها .

فَــاضَتْ عَلَيَّ سِــجَــالُ كَــفِّكَ بالنَّدى حتَّى ظَنَنْتكَ للغَمَامِ مُسَاجِلا
فَــرفَــعتُ نَفْــسى عنْ سِــواكَ ومَنطقى إنَّ المَطَالِبَ يَخْتَلفنَ مَنَازِلا
للهِ أنْتَ وإنْ بَرَقْتَ لآمِلٍ وسَقَيْتَ أخْلافَ (١) السَّحابَةِ آمِلا
أخلَفْتَ سَحْبَانَ الفَصَاحَةِ وَعْدَهُ وغَدَوْتَ تؤثِرُ بالعِنايَةِ باقِلا
حَلَّيْتَ بَعْضَ النَّاسِ مِنْ أَلفَاظِهِ حَلْياً يَروحُ به المُحلَّى عَاطِلا
وحَرمْتَهُ الرَّاحَ التى رَوَّقْتَهَا وسَقَيْتَهُ بالكُرْهِ سُمّاً قَاتِلا
والخَصْمُ يَعْجِزُ عنْ جِدَالِكَ هَيْبَةً حتَّى ينُوبَ الشِّعْرُ عنْهُ مُجَادِلا
فَيكُونُ طَوْراً فىَ مَديحكَ صَادِقاً ويَكُونُ طَوْراً فى عِتَابِكَ عَاذِلا
ومِنَ العَجَائِبِ أنْ تَرَاهُ هَواجِراً ولَقَدْ بَعَثْتَ به إليْكَ أصائِلا
لا تأنَفَنَّ مِنَ العِتَابِ وقَرْصِهِ فالمسْكُ يُسْحَقُ كَى يَزِيدَ فَضَائِلا
مَا حُرِقَ العُودُ الذى أشْبَهْتَهُ خَطَأً ولا غُمَّ البَنَفْسَجُ باطِلا
حَاشَاكَ أنْ تلقَى القَرِيضَ سَمَائِماً ونَدَاكَ يَلْقَاهُ صَبَاً وشَمَائِلا
[مَا كُنْتَ إلاَّ السَّمْهَرِيَّ هزَزْتَهُ فَوَجَدْتَهُ لدْنَ المَهَزَّةِ ذَابِلا]
[بِغَرائِبٍ مِثْلِ السُّيُوفِ إضَاءَةً وَجَدتْ مِنَ الفِكْرِ الدَّقاقِ صَيَاقِلا]
[فلَو استَعَارَ الشَّيبُ بَعْضَ جَمَالِهَا أضْحَى إلى البِيضِ الحِسَانِ وَسَائِلا]
[جَاءتْكَ بَيْنَ رَصِينَةٍ ورَقِيقَةٍ تُهْدى إليكَ مَطَارِفاً وغَلائِلا]

(١) الأخلاف : جمع خلف ، وهو ضرع الناقة .

وقال (يَمدَحُ الأميرَ سَيْفَ الدَّولةِ أبا الحَسَنِ على بنَ عبدِ اللَّهِ) (من الكامل) :

أمِـنَ المُدامَــــةِ تَنْثَني سُكْراً ... أمْ قـدْ سَقَتْكَ جُفُونُها خَمْـرا ؟
نَثَـرتْ فَـريدَ الدَّمْعِ حينَ رأتْ ... صَبّـاً يُقـادُ إلى الرَّدى قَسْـرا
إنَّ الوداعَ وإنْ سَـعِـدْتُ بـه ... لَيـزيدُ كَـامِنَ لَوْعَتي حَـرّا
لمّا رأتْ لِلْبَيْـنِ رائعَـةً ... تَطْوى الوِصالَ وتَنْشُرُ الهَجْـرا
ضَاقَتْ بأدْمُعِها الجُفُونُ كما ... ضَـاقَ المُودِّعُ بالهَوى صَـدْرا
أكْفُفْ يَدَيْكَ عَنِ اللّئامِ ولوْ ... أضْحَتْ يَداكَ مِنَ الغِنَى صِفْـرا
وإذا رأيْتَ نَوالَهُمْ ثَمَداً (١) ... فـالْحَظْ بعَيْنِ طِلابِكَ البَحْـرا
وإلى الأميـرِ سَرَيْتُ مُرتَدِيًا ... بعَـزيمةٍ تَدَعُ الدُّجَى فَجْـرا
وأغَـرَّ نَهْـدٍ (٢) لـوْ طَلَبْتُ بـه ... شَـأوَ الجَنائِبِ بَذَّها حُضْـرا
طِرْفٍ إذا مـا اخْتالَ خِلْتَ بـه ... صَلَفـاً مِنَ الإعْراضِ أوْ كِبْـرا
يُنْسيكَ صِبْغُ أديمِهِ الخَمْـرا ... وتُريكَ غُـرَّةُ وَجْهِـهِ البَـدْرا
لا يَسْتَقِـرُّ كَـأنَّ أرْبَعَـهُ ... فُرُشُ الثَّرى مِنْ تَحْتِها جَمْـرا
وكَـأنّه لـمّا اكْتَسَى عَـرَقـاً ... وَرَقُ الشَّقائِقِ يَحْمِلُ القَطْرا
يَجْـرِى ويَعْطِفُـه العِنانُ كَمـا ... عُطْفَ القَضيبُ وقدْ غَدا نَضْراً (٣)
حَمِدَ العُفاةُ وطَالَ حَمْدُهُمُ ... لِنَدَى الأميـرِ عَلِيٍّ الدَّهْرا (٤)
أدْنَى المَكارِمَ وهيَ نَازِحَـةٌ ... بِالجُـودِ مِنْه وشَرَّدَ العُسْـرا

---

(١) ثَمَداً : قليلاً .

(٢) نهد : مرتفع ضخم . حُضراً : عَدْواً . بَذّها : غلبها وسبقها .

(٣) نضراً : حسناً ورونقاً .

(٤) روي في : ص م ت د (فطال حمدهم بندي الأمير) .

نَشَرَتْ لهُ غُرُّ الصَّنائِعِ في شَرْقِ البِلادِ وَغَرْبِها ذِكْرا
والنُّورُ (١) إنْ جَادَ الغَمَامُ بِهِ حَمَلَتْ لَه رِيْحُ الصَّبا نَشْرا
يَلْقَاهُ راجِي الجُودِ مُبْتَسِماً سَهْلَ الخَلائِقِ لابِساً بِشْرا
عَزَمَاتُهُ في كُلِّ مُظْلِمَةٍ شُهُبٌ تُضِيءُ البَدْوَ والحَضْرا
يَقْظَانُ يَنْتَجِعُ الحُتُوفَ وَقَدْ جَعَلَ السَّبِيلَ إلى العُلاَ الصَّبْرا
في فِتْيَةٍ جَعَلُوا مَعَاقِلَهُمْ بِيضَ الصَّفَائِحِ والقَنَا السُّمْرا
يَرِدُ الرَّدَى وِرْدَ الظِّمَاءِ على نَهَلٍ يُبَرِّدُ مِنْهُمُ الحَرَّا
بِمُثَقَّفَاتٍ يَحْتَمِلْنَ وقَدْ حَمَلَتْ نُجُوماً (٢) في الوَغَى زُهْرا
وَصَوَارِمٍ خُضْرٍ مَضَارِبُها تَكْسُو الرِّجَالَ عَمَائِماً حُمْرا
فَكَأَنَّ أَطْرافَ القَنا حَدَقٌ تَرْنُو إلى مُهَجِ العِدَا شَزْرا (٣)
وَكَأَنَّ سَابِغَةَ الدُّرُوعِ ضُحاً غُدُرٌ تَمُرُّ بِها الصَّبا مَرَّا
قَوْمٌ إذا اسْوَدَّ الزَّمانُ غَدَتْ أَيْمَانُهم بِفَعَالِهِمْ غُرَّا
سَادُوا وَسَادَهُمُ أَبُو حَسَنٍ (٤) بِعُلاً تَزِينُ النَّظْمَ والنَّثْرا
مَلِكٌ إذا اسْتُلَّتْ صَوَارِمُهُ ذَهَبَتْ دِمَاءُ عُدَاتِه هَدْرا (٥)
ظَلَمَ العِدَا والمَالَ حِينَ سَطا بَأْساً وأَوسَعَ نَائِلاً غَمْرا
لا زَالَ يَظْلِمُ في سَطَاهُ وفي نَفَحَاتِه الأَعْدَاءَ والوَفْرا (٦)

---

(١) النَّوْر : الزهر الأبيض .
(٢) النجوم هنا : يقصد الأسنَّة .
(٣) شزراً : نظراً بمؤخّر العين .
(٤) أبو حسن : يقصد سيف الدولة .
(٥) الدم الهدر : الذي لم يؤخذ به .
(٦) نفحاته : يقصد أعطياته التي تشبه النفحات الطيبة . الوفر . المال الغزير الكثير .

وقَال أيضاً (فى الخَالديْين وغيرِهُما ممّنْ ادَّعَى شعْرَه) (من الطويل) :

أُسـلِّـمُ لـلأيَّـام أمْ لا أُسـلِّـمُ ؟ وأحْـمـلُ ظُلْمَ الدَّهْرِ أمْ أتَظَلَّمُ ؟
بَكيْتُ على شعْرٍ أُصيبَ كمـا بَكى على مَالكٍ لـمَّا أُصيبَ مُتَمِّمُ (١)
تعَـزَّيتُ عنْ نَيْلِ الثَّـراء بفَـضْله ومـا مُعْـدِمٌ أثرَى مِن الفَـضْلِ مُعْـدمُ
أجَـانبُ فـيـه لَذَّتي ومَكَاسبي وأهجُـرُ فـيـه النَّومَ والنَّاسُ نُوَّمُ
إذا مـا المَعَـانى أومَـضتْ لِى بروقُـهـا وسَـاعَـدَها وَشْىُ الكَلاَم المُنَمْنَمُ (٢)
رأيتُ التـهَـابَ الحلْى فى جيـد غَـادَة ترائبُـهـا منْ تَحْـتـه تتَـبـسَّمُ
نظَامٌ مِنَ السِّحْـرِ الحَـلالِ مُـخَـيِّلٌ لسـامـعـه أنَّ الكَواكبَ تَنْتَظِمُ
فَلمَّـا اغـتَـدَى كـالسَّيفِ أخلَصَ صَيْقلٌ ظُبَـاهُ وكـالرُّمْحِ انتَـحَـاهُ مُـقَـوِّمُ
وعَـاذَتْ بريَّاهُ النُّفُـوسُ كـأنَّهُ نَسِـيمٌ على أيدى الصَّبـا يتَنسَّمُ
تَحـلَّى بـه قَـومٌ سِـوايَ فَكَـذَّبوا وهلْ يَلدُ الشُّـهْبَ اللَّوائحَ أدْهَمُ ؟
وشَنَّتْ علَيْـه للمَـجـانينِ غَـارَةٌ فـأصبحَ نَهْـبـاً بينَهمْ يتَـقَـسَّمُ
هِىَ الغَـارةُ العُظْمى الَّتى بسُـيوفـهـا أُبيحَ حِـمـى الآداب وهوَ مُـحَـرَّمُ
أَرَى الجَـورَ قـدْ عَمَّ الأَنامَ بأسْرِهمْ فـلا عَـدْلَ إلاَّ للظُّبـا حينَ تَحْكُمُ
أيدْفَعُ عنْ حَلْى البَـلاغـة مُـعْـرِبٌ ويَرفُلُ فى وَشْيِ الفَـصَاحَـة أعجَمُ ؟
هوَ النَّقَـدُ (٣) المَسْلُوبُ مِنْ غَـارةِ الوَغَى ولَكنَّهُ فى غَـارَةِ الشِّـعـرِ ضَيْـغَمُ
يَفُـوتُ الحَـديدَ النَّابِ والظُّفْـرِ إنْ سَطَا فَـمَـا ضَـرَّهُ إنْ رَاحَ وهوَ مُـقَلَّمُ

---

(١) مالك ومتمم : هما مالك بن نويرة ومتمم أخوه .

(٢) المنمنم : المزركش .

(٣) والنَّقَد : بفتحتين نوع من صغار الغنم الرديئة القصيرة .

دَعُوا الأنجُمَ الزُّهرَ الّتى أعجَزتكُمُ لمُطلعِها ما دامَ للشِّعرِ أنجُمُ
ولا تحفظوا ربَّ الحفاظ لأنّه حلَتْ لكُمُ أخلاقُهُ وهو علقمُ
يَمُجُّ لكُمْ شَهْدَ الكَلامِ لِسانُه وما مجَّ (١) يوماً قبْلَه الشَّهدَ أرْقَمُ
رَدَدْتُ سِهامَ الذَّمِّ عنكُمْ تَذَمُّماً وبعضُ قوافي الشِّعرِ سَهْمٌ مُسَمَّمُ
رأيتُكُمُ موْتى فكَفْكَفْتُ غَربَها وهلْ تألَمُ الأمواتُ حِينَ تُكَلَّمُ (٢)
وإنْ تَسْلُبونى قَطْرةً منْ مَحاسِنى فحَوضى منْ مَاءِ المَحاسِنِ مُفْعَمُ

وقال يمدحُ (الأميرَ) أبا الهيْجاء حَرْبَ بنَ سعيد بنِ حَمْدانَ ويُعاتبُه علي جَفْوةٍ لَحِقَتْه منهُ (بعُقْبِ مُصيبةٍ أصابته) (من الخفيف) :

رَدَّ جَفني بسافحِ الدَّمْعِ يندَى حينَ حيَّيتُه فأحْسَنَ ردَّا
سَمَحتْ لي به السُّجوفُ فَما حا دَ عن العَينِ والرَّكائبُ تُحدى (٣)
قمرٌ كُلَّما مَنَحْنَاهُ لَحْظاً مَنَحَ اللَّحظَ جُلَّناراً (٤) ووردا
هو كالرِّئمِ ما تَلفَّتَ جِيداً وهْوَ كالغُصْنِ ما تأوَّدَ (٥) قدَّا
أنا إنْ راحَ أو غَدا لِفراقٍ في مَراحٍ (٦) إلى الحمَامِ ومَغْدَى
أيُّها البَرقُ إنْ حَدَوْتَ سَحاباً فاسْقِ نَجْداً به ومَنْ حلَّ نَجدا
وارْوِ منْهُ تلْكَ الخيامَ ففيها ظَبَياتٌ يفتِكْنَ بالصَّبِّ عَمْدا

---

(١) يَمُجُّ : يخرج من فمه .
(٢) تكلَّم : تجرح .
(٣) تحْدَى : تساق ويغنى لها .
(٤) الجلنار : فارسى معرب وهو ورد الرمان .
(٥) تأوَّد : تمايل وتعوج . قدا : قامة .
(٦) مراح : وقت الرواح مساء . مغدى : وقت الغدو صباحاً .

بجـديد الشُّـؤبوب (١) يُصـبِـحُ مِنْهُ   خَلَقُ الرَّوضِ نَاضـراً مُـسـتَـجِـدًا
ومُـربٌّ يُخـفِي صَنائِعَ بيـضَـاً   حينَ يبـدى لنا شَـمـائِل رُبْدا (٢)
وكـأنَّ الوَمِـيضَ يَنشـرُ نوراً   فى أعـاليـه أو يُفـوِّف بردا
عـادَ بحـرُ السُّـرورِ بالشَّيْبِ جَزراً   بَعْـدمـا كَـانَ بالشَّـبـيـبـة مَـدًّا
وأسـاءَ الزَّمـانُ فـيـه إلينا   حينَ أعْطَى القَليلَ منْه وأكْـدَى (٣)
كـانَ كـالبَـارقِ اسـتَتمَّ خُمُـوداً (٤)   قَـبْلَ أنْ يَسـتَـتمَّ للْعـيْن وقْـدَا
قـد غَنِينَا عنِ السَّـحـاب ولو كـا   نَ رَحِـيـقـاً (٥) منَ السُّـقـاة وشَـهـدَا
أصْـبـحَتْ رَاحـةُ الأمـيـرِ أبى   الهَـيْـجَـاء أحْلَى جَنًى وأعـذبَ وِرْدَا
سَـيِّـدٌ يَهْـدِمُ الثَّـراءَ ويبنى   سُـوددَاً فى حِـمَى النُّجـومِ ومَـجْـدَا
غَـمَـرتْنا له سِـجَـالُ عَطايا   كَـسِـجَالِ الغَـمَـامِ أسْـرفَ جِـدًّا
يَضْـعُفُ الشُّكْرُ عنْ مُكافَـاة (٦)   مـا نَوَّلَ منهـا ومـا أفـادَ وأسْـدَى
وإذا عُـدَّت المَنَاهِلُ كـانتْ   يَدُهُ مَنْهَـلاً منَ العُـرْف عِـدًّا (٧)
سَـدَّ منهُ وَجْـهَ الخُطُوبِ فـأضْـحى   دُونَ مـا يَتَّـقى منَ الدَّهرِ سَـدًّا
وكَـفَى الوَفْـدَ أنْ يَحُـثُّوا المَطَايا   بندَى يَغْـتَـدى إلى الوَفْـد وَفْـدَا
أنتَ سَعْـدُ العُـفَـاة يا ابنَ سَعِـيـد   وكَـفَـاهُمْ بأنْ تَرَاءَوْكَ (٨) سَعْـدَا
بَاتَ يُهـدِى إلىَّ شَـوقـاً إلى   بِشْرِك مُسْتَبْشِراً إلى الرَّوضِ يُهدَى

---

(١) الشؤبوب : دفعة المطر وقيل خيوطه .
(٢) أربد : الأغبر . المرب : السحاب الدائم .
(٣) أكدى : قل خيره .
(٤) الخمود : سكون النار .
(٥) الرحيق : صفوة الخمر .
(٦) مكافاة : كفاية .
(٧) العدُّ : الكثرة . .
(٨) تراءوك : رأوك . السعد : ضد النحس .

مُســتَهِلٌّ إذا تبسّم برقًا | بين أيدى الجنوب قهقه رعدا
وبطيءٌ فى السّير يسرع ومضًا | مثل ما تسرع الأنامل عدًّا(١)
فتذكّرت جِدَّ نعمال لمّا | مزح الغيث فى الرّياض وجدّا
أنا جلْد على الخطوب ولكن | لستُ فيها على جفائك جلْدا
أوسع الدّهر مذ تعتّبت ذمًّا | بعدما كنت أوسع الدّهر حمدا
وكأنّى أرى السّرور عدوًّا | أتاماه والمدامة ضدّا
فلو انّى ارتشفت ثغر حبيب | بلرد الظّلم لم أنل منه بردا
أجفاءً مرًّا ولم أجن ذنبًا | فأجازى به جفاءً وصدًّا ؟(٢)
واطّرحًا يبيت يخلق صبرًا | بين أحشاى أو يجدّد وجدا
حين جارت على أحداث دهر | ليس يسلكن بى إذا جرن قصدا
نوبٌ لو علت شماريخ رضوى | أوشكت أن تخرّ منهن هدّا
عرضتنى على الحسام فأضحى | كلُّ عضو منّى لحديه غمدا
وكست مفرقى عمامة ضرب | أرجوانيّة الذّوائب تندى(٣)
ورداءً من صنعة الرّيح فضفا | ضًا إذا ما ارتداه عار تردّى
وإذا قست هجرك المرّ بالدّهر | وما قد جناه كان أشدّا
أنا حرٌّ إذا انتسبت ولكن | جعلتنى تلك الصّنائع عبدا
لا أقول : الغمام مثل أيادي | ـك ولا السّيف مثل عزمك حدّا
أنت أمضى من الحسام وأحيا | من حيا المزن فى المحول وأندى

(١) الومض : اللمعان .

(٢) رضوى : اسم جبل بالمدينة .

(٢) الأرجوان : صبغ شديد الحمرة .

وقال يمدَحُ آلَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وَعَلَيْهِمْ وسَلَّمَ (من البسيط) (*) :

نَطْوى اللّيَالىَ عِلْمًا أَنْ سَتَطْوينا … فَشَعْشِعيها بماءِ المُزْنِ واسقينا(1)
وتَوِّجى بكُؤوسِ الرّاحِ أَيدينا … فإنّما خُلِقَتْ للرّاحِ أيدينا
قَامتْ تَهُزُّ قَوامًا ناعِمًا سَرَقَتْ … شَمائِلُ البَانِ منْ أعطافِه اللِّينا
تَحُثُّ حَمراءَ يَلقاها المزاجُ كَما … أَلْقَيْتَ فَوقَ جَنىِّ الوَرْدِ نَسْرينا
فَلَسْتُ أَدرى أَتَسقينا وقَدْ نَفَحَتْ … رَوائحَ المِسْكِ منْها أَمْ تُحَيِّينا ؟
قَدْ مَلَّكَتْنا زِمامَ العَيْشِ صَافِيَةٌ … لوْ فَاتَنَا المُلْكُ راحَتْ عَنْهُ تُسْلينا
ومُخْطَفِ القَدِّ يُرضينا ويُسخِطُنا … حُسْنًا ويَقْتُلُنا دَلاًّ ويُحيينا(2)
تَفَتَّحَتْ وردَتا خَدَّيه منْ خَجَلٍ … وزِيدَتا بعِذارَيْه تَزايينا
مَا زالَ يبْقُرُ أَحْشاءَ الدِّنانِ لنا … حتّى نَفاهُنَّ مَجْروحًا ومَطْعونا
لمّا رأيتُ عُيونَ الدّهرِ تَلحَظُنا … خَزْرًا تَيَقَّنْتُ أنَّ الدّهرَ يُردينا
نَمضى ونَترُكُ منْ أَلفاظِنا تُحَفًا … تُنْسى رَياحينُها الشَّرْبَ الرَّياحينا
ومَا نُبالى بذَمِّ الأَغْبياءِ إذا … كانَ اللَّبيبُ منَ الأَقْوامِ يُطْرينا
ورُبَّ غَرّاءَ لَمْ تُنْظَمْ قَلائِدُها … إلاّ ليُحْمَدَ فيها الفاطِميُّونا
الوارِثونَ كِتابَ اللهِ يَمنَحُهُم … إرْثَ النَّبىِّ على رَغْمِ المُعادينا

(*) أوردتها النسخ : ل ب ق ش ن ص م ت د . وروى منها فى ط (١٤) بيتاً فقط . وروى منها (٩) تسعة أبيات فى مرآة الزمان حوادث ٣٦٢ هـ لوحة ٢٧/ . وفى خزانة الأدب لابن حجة ص ١٢-١٣ (٧) أبيات وروى بيت واحد فى نسمة السحر ٣٢٢/١ .

– علق أحدهم (بين براعة هذا الاستهلال والتغزل وبين المديح النبوى مباينة التشبيه فيه بوصف القيان وذكر الخمر) .

(١) شعشعيها : امزجيها .

(٢) دلا : غنجا .

والسَّابِقُونَ إلى الخَيْرات يَنْجِدُهُمْ ... عِتْقُ النِّجارِ إذا كَلَّ المُجَارُونا
قَومٌ نُصلِّي عليهِمْ حِينَ نَذْكُرُهُمْ ... حُبًّا ونَلْعَنُ أقوامًا مَلاَعِينا
إذا عَدَدْنا قُرِيشًا فِي أَبَاطِحِهَا ... كَانُوا الذَّوائِبَ مِنْهَا والعَرانِينا(١)
أَغْنَتْهُمُ عن صِفَاتِ المادِحِينَ لَهُمْ ... مَدَائِحُ اللهِ في طه ويَاسِينا
فَلَسْتُ أَمْدَحُهُمْ إلاّ لأُرْغِمَ في ... مَدِيحِهِم أنفَ شَانِيِهِمْ وشَانِينا
أَقَامَ رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ على جَدَثٍ ... ثَوَى الحُسَيْنُ بِهِ ظَمْآنَ آمِينا(٢)
كأنَّ أَحْشَاءَنَا مِنْ ذِكْرِهِ أَبَدًا ... تُطْوَى على الجَمْرِ أوْ تُحْشَى السَّكاكِينا
مَهْلاً فَمَا نَقَضُوا أوْتارَ وَالِدِهِ ... وإنَّمَا نَقَضُوا في قَتْلِهِ الدِّينا
آلَ النَّبِيِّ وَجَدْنا حُبَّكُمْ سَبَبًا ... يَرْضَى الإلهُ بِهِ عَنَّا ويُرضِينا
فَمَا نُخَاطِبُكُمْ إلاّ بِسَادَتِنا ... ولا نُنَادِيكُمُ إلاَّ مَوَالِينا
فَكَمْ لَنَا مِنْ مُعَادٍ في مَوَدَّتِكُمْ ... يَزِيدُكُمْ في سَوَادِ القَلْبِ تَمْكِينا
ومِنْ عَدُوٍّ لَكُمْ مُخْفٍ عَدَاوَتَهُ ... واللهُ يُرْمِيهِ عَنَّا وهُوَ يَرْمِينَا
إنْ أَجْرِ في مَدْحِكُمْ جَرْيَ الجَوادِ فَقَدْ ... أَضْحَتْ رِحابُ مَسَاعِيكُمْ مَيَادِينا
وَكَيْفَ يَعْدُوكُمُ شِعْرِي وَذِكْرُكُمُ ... يَزِيدُ مُسْتَحْسَنَ الأشْعارِ تَحْسِينا

***

(١) العرانين : الأنوف .
(٢) روحٌ وريحان : رحمة ورزق .

وقال يذكُرُ قَوْمًا صُلِبوا في وَقْت شديد الحَرِّ فَلَّما ضُرِبَتْ أعناقُهُمْ جاءَ عليهِمْ فى ذلك الوَقْتِ المَطَرُ وكانَ أَحدَهُمْ فقالَ فيه وفيهِمْ (من الطويل) :

أَلاَ بِحَيٍّ مَفْقُودَ الشَّمائِل مائِلا ... غَدا هَاجِرَ الدُّنيا وإِنْ كانَ واصِلا
أَقَامَ وقَدْ جَدَّتْ بِهِ رِحْلَةُ النَّوى ... فأَضْحَي مُقيماً فى ذُرَا الجَوِّ راحِلا
أَبا الفَضْلِ غَالَتْكَ الخُطُوبُ ولَمْ يَكُنْ ... لِيعْدَمَ ذُو الإفضالِ منها الغَوائِلا
فأَصبَحْتَ مَسلُوبَ القَميصِ وطَالَمَا ... حَمَلْتَ على قُمْصِ الحَديدِ الحَمائِلا
وحَولَكَ منْ بَكْرِ بنِ وائِلٍ فِتْيَةٌ ... إِذا عُدَّ أَهلُ الفَضْلِ كانُوا الأَوائِلا
أَصابهم رَيْبُ الزَّمانِ وإنَّما ... أَصابَ مِنَ العَلْيا سَنَامًا وكَاهِلا
كأَنَّهُمْ فى اللَّيْلِ رَكْبٌ تَحَيَّروا ... فَجذُوا مِنَ السَّيْرِ الحَثِيثِ الحَبائِلا
تَلقَّاهُمُ حَرُّ الهَجِيرِ بِرأْفَةٍ ... تخَيَّلُ أَوقَاتَ الهَجِيرِ أَصائلا
وأَضْحَى الحَيَا فِى غَيْرِ حِينِ أَوانِه ... رَذَاذًا علَى تلْكَ الجُسُومِ ووَابِلا
كأَنَّ السَّماءَ استَعْبَرتْ لِمُصابِهِمْ ... فَما مَلَكَتْ فِيه الدُّمُوعَ الهَوامِلا

وقال يصفُ الموصلَ (من الوافر) :

مَنَازِلُنا التي لَبِستْ بلاها ... وحَالَتْ بَعْدَ نَضْرتِها حُلاهَا
خطَتْكِ ركابُنا لحُلُول خَطْبٍ ... أَناخَ عَلَي رِباكِ فما خَطاها
منحناها القلي كَرْهًا ولَوْلا ... صروفُ الدَّهْرِ لَمْ نَخْتَرْ قِلاها
يَميلُ بنا الهَوَي طَرَبًا إليها ... فَنَبكيها ونَسْعَدُ من بُكاها
تَلَقّاها الزَّمانُ بخَفْضِ عَيْشٍ ... وعَاوَدَها السُّرورُ كَمَا بَدَاها
نَقُولُ لها : سَقَاها الغَيْثُ رِيًّا ... وقُلْ لَها مَقَالتُنا سَقَاها
قُصُورٌ حَلَّقَتْ في الجَوِّ حتّي ... لقَصَّرت الكَواكبُ عن مَدَاها
مُشَرَّفَةٌ كأنَّ بَنَاتَ نَعْشٍ ... تُناجيها إذا خَفَقَتْ شَفَاها[(١)]
يَتُوجُها اصْفرارُ الشَّمْسِ تِبرًا ... فتُمْسي وهي مُذْهَبَةٌ ذُرَاها
وجَنَّاتٌ يُحَيّي الشَّرْبَ وهْنًا ... جَنى وَهَدَاتِها وجَنَى رُباها
مُصَنْدَلَةُ الثَّرى والرّيحُ تأْبي ... غَرائبَ حُسْنِها إلاّ اشْتِباها[(٢)]
إذا رَكَدَ الهَواءُ عَلَتْ نَسيمًا ... وإنْ فَقَدَ الغَمامُ طَفَتْ مِياها
تَفَرَّجَ وَشْيُها عنْ ماءِ وَرْدٍ ... يَفيضُ علي اللآلىءِ منْ حَصَاها[(٣)]
إذا صلَّتْ بها أوقاتَ فَرْضٍ ... جِباهُ الشَّرْبِ عَطَّرت الجِباها
وزائدةٍ دُمُوعَ العَيْنِ صَفْوًا ... إذا بَاتَتْ تَرَقْرَقُ في صَفَاها[(٤)]
تعانقُ ريحُها لَمَمَ الخُزامَي ... وأعناقَ القَرَنْفُلِ في سُراها
ويأْبَي زَهْوُها إلاّ هُجُوعًا ... ويأْبَي عَرْفُها إلاّ انتِباها
قَرَاها الدَّهْرُ بؤْسَي واقْشَعَرَّتْ ... مَغانيها الحِسانُ كَما قَراها

---

(١) مشرفة : عالية . بنت نعش : نجوم في السماء .

(٢) مصندلة : من الصندل وهو نوع من خشب الأشجار ، اشتباها : تشبها .

(٣) كذا في ديوان المعاني ١٧/٢ (اللآلىء) وورد في النسخ (على لألء) وفي ديوان المعاني (يفرج وشيه) . وتفرج : تفتح . تكشف .

(٤) كذا في : ص روى هذا البيت في طـ وفيه (وذائدة ... دموع المزن) وفي م ت د (وذائدة) ولعله تحريف .

ذَوَتْ أشـجَـارُها الغـيـدُ اللّواتى إذا عَـبثَ النَّسيمُ بِهـا ثنَاها
وَقَلَّ مـرَا الحَـمـامِ بهـا وكَـانَتْ عَلَي الأفْنان لا يَفْنَ مـراها[1]
كـأنْ لمْ تَغْنَ عَـرْصَتُهـا بخـضْرٍ يُقـيـّدُ لَحظَ مُـبْـصـرِها غنَاهَا
تَرَقْـرَقُ في نَواظرها دُمـوعٌ أحَبُّ إلي النَّواظرِ منْ كَـراهَا
وَسَـاقـيـةٍ كـأنَّ الرّيحَ سَاقَتْ إليـهَا الخَوْف فـارتَعَدَتْ حَشَـاهَا
إذا نَظَمَ الشَّـقَـائقُ جَـانبَيْـها أرتْكَ صَـفيـحَـةً دُميَتْ ظُبَـاها
عَـفـتْ منَّا السُّـويقَ فـالمُصَلّي فَـمُـفْـتَـرَقُ المياه .. فَـمُلْتَـقَـاها[2]
مَـلاعبُ لو جُلينَ غَـداةَ دَجْنٍ عَلَى النُّعْـمـان آثرَ مُـجْـتَـلاها
يُحلّلُ ريحَـهـا الرّيحـانُ حَـري مُـعَنْبَـرةَ الهُـبُـوب وهَتْ قُـواهَا
وتَقْـصـدُ أو تَجُـور بهـا سَـواقٍ كَـحَـيّـاتِ الرِّمـالِ عَـصَتْ رُقَـاها
وتَبْـتَـسمُ القِـبـابُ البيض منهـا على خَـضْـراءَ مُـخْـمَـرٌ جنَاهَا
عَلي جَـرعـاءَ مَـيْـشـاءَ النَّواحي يُقـيّـدُ نَقْع تُربتـهـا نَدَاها
تُسَـاقُ إلى أسـائلهـا النَّدامي فَـتُنْسـيـهمْ أصـائلُهـا ضُحَـاهَا
تَراءَتْ منْ كِـفـاحِ الدَّهْر غُـبْـراً كـأنَّ عَـجَاجَ حَـومَتـهـا عَـلاَهَا
فَـمـا لِنَعيـمـهـا انفَـصَـمَتْ عُراها ؟ ومـا لرياضـهـا انْبَـتَـرتْ كُسَـاها ؟
ومـا لرياحـهـا العَطِرات رَدَّتْ رِداءَ الحلْمِ وادَّرعَتْ سَـفَـاها ؟
أحينَ أظلّهـا سَلْمُ اللَّيـالي وقُلْنا قَـدْ تَجنَّبـهـا أذاها ؟
رَمَـاهـا بالَّتي عَظُمتْ ولكنْ أصَـابَ قُلُوبَنا لَمَّـا رَمَـاهَا

(١) أراد بالمرا : سجع الحمام .

(٢) السويقة والمصلي : اسمان من أسماء محلات مدينة الموصل حينئذ .

فَمالَ بِمَعْشَرٍ عُرُرٍ إليها ... ومَالَ بنا إلى أُخْرَى سِوَاها(١)
أراذلَ ليس تحمي الأُسْدُ غيلاً ... كما تَحْمي رَوائحُها حِمَاهَا
غُراةٍ في الجنائب لا تبالي ... أصدَّ العارُ عنها أمْ عَراهَا ؟
نَهَتْنا أنْ نلمَّ بساحَتَيْها ... رياحٌ إنْ سَطَتْ أردتْ سُطَاها
وأمواهٍ لو أن التُّربَ يَشْكو ... مُجاورةَ الأذَى يَوْماً شَكاها
فلَوْ غُسِلَتْ بماءِ المُزْنِ منْهُمْ ... وَماءِ البَحْرِ لم يَطْهُرْ ثَراها
يَحنُّ الطَّائرُ الموفي عَلَيْها ... وتَسْعف كُلُّ ماشيَةٍ خُطَاها
سَلامُ اللّه منكَ على رِبَاعٍ ... نأتْ أحبابُها وَدَنَتْ عِداها
وَطيِّبَةُ النَّسيم غَدَتْ عَلَيْنا ... جَنَائبُها وعَادَتْنَا صَبَاها
وكافُوريَّةُ البُنْيانِ تُثْني ... على مَنْ خَطَّها أو مَنْ بَنَاهَا
مُلَحَّقَةٌ يكلُّ الطَّرْفُ عَنها ... إذا ما الطَّرْفُ حَاوَلَ مُنْتَهاهَا
تُضيءُ إذا الدُّجَا اشتَمَلَتْ عَلَيها ... فَتَحْسَبُها مُوَلَّعَةً دُجَاهَا(٢)
بَعَثْتُ الطَّرْفَ مُشْتاقاً إليها ... فَكادَ يَرُدُّهُ عَنْها سَنَاها
وحُبَّبها إليَّ وإنْ تَولَّتْ ... مآربُ بَلَّغَتْ نَفْسي مُنَاها
لَقَدْ كانَتْ جَلاءَ العَيْنِ حُسْناً ... فَعَادَتْ وهْيَ مِنْ قُبْحٍ قَذَاها
عِقَابُ الدَّهْرِ بُقْيَاه عَلَيْها ... وعَفْوُ الدَّهْرِ عَنْها لو عَفَاهَا
فَيا نُوَبَ الخُطُوبِ إليكِ عَنْها ... كَفَاهَا ما أَلَمَّ بِها كَفَاها

* * *

(١) والعرر : الجرب القذرون .
(٢) مولّعة : فيه بلق وبياض .

وقَال يَتَشوَّقُ المَوْصِلَ ونَوَاحِيها وهو مُقِيمٌ بِحَلب (من الكامل) :

أَمَحلٌ صَبْوتنا دُعاءَ مَشُوق ... يَرْتاحُ منكَ إلَى الهَوَى المَوْمُوق
هلْ أَطْرُقنَ العُمرَ بينَ عِصَابَةٍ ... سَلَكُوا إلى اللَّذاتِ كُلَّ طَرِيقِ ؟(١)
أَمْ هلْ أرَي القَصْرَ المُنيفَ مُعَمَّمًا ... برداءِ غَيْمٍ كالرِّداءِ رَقِيقِ ؟(٢)
وقَلالِيَ الدَّيرِ التي لولا النَّوَى ... لَمْ أرْمِها بِقَلًى ولا بِعُقُوقِ
مُحمرَّةَ الجُدْرانِ يَنْفحُ طِيبُها ... فكأنها مَبنيَّةٌ بخَلُوقِ(٣)
ومَحلِّ خَاشِعَةِ القُلُوبِ تَفَرَّدوا ... بالذِّكْرِ بَيْنَ فَرُوقَةٍ وفَرُوقِ(٤)
أغْشاهُ بيْنَ مُنَافِقٍ مُتَجمِّلٍ ... ومُنَاضِلٍ عَنْ كُفْرِه زِنْدِيقِ(٥)
وأَغنَّ تَحْسَبُ جَيِّدَهُ إبريقَهُ ... ما قَامَ يَسْفَحُ عَبْرَةَ الإبريقِ(٦)
يَتَنازَعُونَ علي الرَّحِيقِ غَرائبًا ... يَحْسَبْنَ زاهِرَهُ كُؤُوسَ رَحِيقِ(٧)
صَدَرَتْ عَنِ الأَكْوارِ وهيَ كأنَّها ... رَقْرَاقُ صَادِرَةٍ عنِ الرَّاوُوقِ(٨)

(١) كذا في النسخ ما عدا ط فقد روى فيها (أطرقن الاغمر) . روى فى اليتيمة ١٦١/٢ من دون اختلاف . والعمر : اسم مكان فى الموصل وهو أحد نواحيها وربما كان فيه دير باسمه . وفى النسمة (أطرقن الغمر)
(٢) روى فى طـ (كالرداء صفيق) .
(٣) روى فى مسالك الأبصار (محمرة الحيطان) .
(٤) روى فى اليتمة ١٦١/٢ وفيه (بالذكر بين فروقه وفروقي)
فروقة وفروق : شديدا الفزع . وفى النسمة (القلوب تفرقوا) .
(٥) وفى النسمة (عن دينه زنديق) .
(٦) روى فى طـ (واغن يحسب ... ما قدم يسفح جيده الإبريق) وروى فى التميمة وفيه : (ما دام يسفح عبرة الابريق) وفى النسمة : (تحسب خده إبريقه ... مادام يسفح عبرة الإبريق) .
(٧) روى فى ص.ن.م.ت.د (زهرة) وصححت فى ت (تحسين) محرفاً .
وروى فى ط (يتنازعون إلى الرحيق) ووقع فيها (الحسين) محرفا ، وروى فى التميمة وفى التذكرة ٥/ لوحة ٢٩٧ وجه من دون اختلاف ، وروى فى عيون التواريخ وفيه (محسن زاهرة) محرفا ورقة (٣٨) وفى النسمة (يسحين زاهرة) .
(٨) روى فى اليتيمة وعيون التواريخ ورقة (٣٨) من دون اختلاف . وروى فى التذكرة ٥ لوحة ٣٩٧ وجه وفيه (وهي كأنها زفرات صادرة عن الراووق) ، وفى النسمة (صادرة عن الإبريق) .

دَهْرٌ تَرَفَّقَ بي فَواقًا صَرْفُه وَسَطا عليَّ فكانَ غَيْرَ رَفيقِ(١)
فَمَتى أَزُورُ قِبابَ مُشْرِفَةِ الذُّرا فأَرودُ بيْنَ النَّسْرِ والعَيُّوقِ(٢)
وأَرى الصَّوامِعَ في غَوارِبَ أَكْمِها مِثْلَ الهَوادِجِ في غَوارِبِ نُوقِ(٣)
حُمْرًا تلوحُ خِلالَها بِيضٌ كما فَصَّلْتَ بالكافورِ سِمْطَ عَقيقِ(٤)
كَلِفٌ تَذَكَّرَ قَبْلَ ناهِيَةِ النُّهى ظِلَّيْنِ ظِلٌّ هَوًى وظِلٌّ حَديقِ
فَتَفَرَّقَتْ عَبَراتُه في خَدِّه إِذْ لا مُجيرَ لَهُ مِنَ التَّفْريقِ

(١) سقط هذا البيت من : ط ووقع ف ق (دهر ترقرق) محرفا وروى فى النسمة (فواقا صرفه) من دون اختلاف . .
(٢) النسر والعيوق : نجمان ، مشرفة الذُّرا : عليه الذوائب .
(٣) روى هذا البيت فى اليتيمة ١٦١/٢ وفى مسالك الأبصار من دون اختلاف وفى شرح المقامات ٧٦/٢ (فأرى الصوامع) وفى عيون التواريخ ورقة (٣٨) وفى النسمة (فى غرائب أكمها) .
(٤) ورد فى ن ق (حمر يلوح) ولعله تحريف .
السمط : الخيط ما دام فيه الخرز .

وقَالَ يمدَحُ الأميرَ سيفَ الدَّولةَ أَبا الحَسَنِ عليَّ بنَ عبد اللَّه بنِ حَمْدَانَ . ويذكُرُ بعض غَزَواتِهِ إلي خَرْشَنَة . ويصفُ قَلْعَةً افتتحَها (من الوافر) :

وَقَـائعُ مِـثْلَ مـا بَدأَتْ تَعُـودُ ... وخَـيلٌ مـا تُحَطُّ لهـا لُبـودُ(١)

وَفـتـيـانٌ بقـيَّـتُـهم دروعٌ ... مُـضَـاعَـفَـةٌ وصَـبـرُهُمُ عَـتـيـدُ

وَشَـغْـرٌ بينَ أَشـفـارِ الأعـادي ... تَمـائمُـه إذا ارتاعَ الحـديدُ

وأيامٌ عـلى الإسـلامِ بيضٌ ... وهُنَّ على العِـدا حُـمْـرٌ وسُـودُ

تُفـتِّحُ زَهْرَةَ الآمـالِ فـيـهـا ... فُـتـوحٌ لا يغِبُّ لهـا بَريدُ

يُخـبِّـرُ عن طِرادٍ يتَّـقـيـه ... كَـرَي الأعـداء فـهُـوَ له طَريدُ

ومُـبـرِقَـةُ الحُـتـوفِ إذا أَسـالَتْ ... دمـاءَ الشَّـيْبِ شَـابَ لهـا الوليـدُ

يَبـيـتُ جِـلادُهَا شَـرْقـاً وغَـرْباً ... حَـديثـاً تقْـشَـعـرُّ له الجلُودُ

ولا إحـجـامَ إلاَّ أَنْ تَـكَـفـي ... عن البِـيضِ الجبـاهُ أو الخُـدودُ(٢)

خطَا الدَربَ الأصَمَّ إلى سَـمَنْدُو ... وقَـعْـقَـعَـتُهُ الحَديد لهـا حَـديدُ(٣)

أُيرهَبُ جَـانبُ الأعْـداء مَـيْـلاً ... وسَـيفُ الدَّولة الرُّكْنُ الشَّـديدُ ؟

وقـاد الخَـيْلَ قُـبَّـا يَقْـتَـضِـيـهـا ... ذَخـيـرةَ جَـهْـدِها أو يَسْـتَـزيدُ

فـأَرسَلَهـا علي الصَّـفْـصَافِ يُخـفي ... سَنَا أَوضـاحِـهـا عنه الكَديْدُ(٤)

وَزَادَتْ أَرْضَ خَـرْشَنَةٍ رِعـالاً ... فَكَادتْ أَرْضُ خَـرْشَنَةٍ تَمـيـدُ(٥)

---

(١) لبود : جمع لبد : ما يوضع فوق الدابة أو يشد .

(٢) تكفى : أصله تتكفأ أى : تميل .

(٣) سمندو : بلد في وسط بلاد الروم غزاه سيف الدولة سنة ٣٣٩ هـ .

(٤) الصفصاف : كورة من ثغور المصيصة غزاها سيف الدولة سنة ٣٣٩ هـ الكديد : الأرض الغليظة .

(٥) خرشنة : بلد قرب ملطية . الرعال : قطع من الخيل جمع والرعلة أيضا : النخلة الطويلة .

وجُزْنَ علي الصعيد مُبرقَعات ... بَراقعُهنَّ ما نَسجَ الصَّعيدُ
وَخَرَتْ فى قُرى جَيحانَ تَرْدى ... بجائحة عَلَيْها أوْ تَرُودُ(١)
وباتَتْ تُوقدُ النيرانَ فيها ... وَسيَّان الكَواكبُ والوقُودُ
وَسحَن بجانبى سَيْحان حتَّى ... رَجَعْن وفَجُّهُ المَعمُورُ بيدُ(٢)
فأَصبح وهْو وِردُ المَوْج مِمَّا ... يَفيضُ علَيه نَحْرٌ أوْ وريدُ
إذا خَرَّتْ عليه رأيتَ بَحْراً ... تَخرُّ عليه من بَحْرٍ مُدودُ
وأوردَها الخَليجَ وقدْ تساوتْ ... بجَمَّتها التَّهائمُ والنُّجودُ(٣)
وَفَوَّقَ للحصون سِهامَ نارٍ ... يُصابُ بلَفْحها الغَرَضُ البَعيدُ
إذا انتشرتْ على الجدرَان راقتْ ... كما رَاقتْ من العَصْب البُرودُ
إذا رَكَعَ القَنا الخَطيُّ صَلّوا ... صَلاةَ جَل واجبها السُّجودُ
[طَلَعْتَ على الدِّيار وهُمْ نَباتٌ ... وأغمدْتَ السُّيوف وهُمْ حَصيدُ]
فما أبقيتَ إلاَّ مُخطَفَاتٍ ... حَمى الإخْطافُ منها والنُّعودُ(٤)
تُساقُ إليه مَثْنى أوْ فُرادَى ... كَما يَهوي من السِّلْك الفَريدُ(٥)
وبيضُكَ يا ابنَ عبد الله تلْقى ... سَباياها الحِسانَ كَما تُريدُ
تَقُدُّ البيض فى الهَيْجاءِ قَدّاً ... وتَثْنيها السَّوالفُ والقُدودُ
[أفاءَتْ لاوناً فيما أفاءَتْ ... فَجُدْتَ بنفسه فيما تَجُودُ](٦)
أتاكَ وفى حَشاه رياحُ رَوْعٍ ... عَواصفُ ما لهبَّتها رُكُودُ(٧)
بوجْه غاضَ ماءُ الأمنِ عنه ... فَلَيْس بعائدٍ ما اخْضَرَّ عُودُ

(١) جيحان : اسم نهر فى آسيا الصغرى (تركيا) وسميت القرى باسمه .
(٢) سيحان : نهر وهى كورة من كور الموصل فى ذلك الوقت .
(٣) والخليج : لعلة يقصد خليج القسطنطينية .
(٤) الإخطاف : الضمور فى الخصر .
(٥) يهوى : يسقط .
(٦) لاون : هو لاون بن الاسطر أحد قواد الروم .
(٧) ركود : هدوء .

وربَّ مُمَنَّعٍ حاولْتَ منهم ... فلمْ يمنعْه مَعْقلُه المشيدُ
ومُشرفةٍ لقاصدها صَبوبٍ ... على قمم السَّحائب أو صعودُ(١)
تحف بها شواهق شامخات ... كما حَفَّتْ بسيِّدها الجنود
كأنَّ فوارع الشُّرفاتِ منها ... نساءٌ في ملاحفها قعودُ(٢)
أحطْتَ بها الأسنَّة لامعات ... فهنَّ على ترائبها عقود
فأولدْتَها فراعكَ وهي بكرٌ ... ولم يرَ قبلها بكرٌ ولود
رأتْ أمثالَ صورتها حديداً ... فكادتْ وهي راسيةٌ تميدُ(٣)
وما زالتْ جيادكَ طاويات ... تقاد إلى العدوِّ فتستقيدُ(٤)
ضربْتَ بها على الثَّغرين سدّاً ... يؤيِّد ركنه رأيٌ سديدُ(٥)
وأبْتَ بها وقد أحرزْتَ مجداً ... قناكَ عليه والبيضُ الشُّهود
طوالعٌ بين إيماضٍ وجرسٍ ... تمائمها البوارق والرُّعودُ(٦)
تلقَّيت الثَّرى صمّاً تساوي ... بهنَّ الرَّمْلُ والحجر الصَّلودُ(٧)
فطوراً بالأرند لها طراد ... وطوراً بالخليج لها ورودُ(٨)
ولمَّا قابلَتْ طرسوس غُرّاً ... محجَّلةً تقابلها السُّعودُ(٩)
كففْتَ شذاتها فارتدَّ بأس ... كدُفّاع الحريق وفاض جودُ(١٠)
لقد شرفَتْ بسؤددك القوافي ... وفاز بمجدك الحسب التَّليدُ
ففي يوم الحرب تطربك المذاكي ... ويوم السِّلم يطربك النَّشيدُ
تحاسدت الملوك فليس تخبو ... ضغائنها ولا تفنى الحقود
وأنت الدَّهر إنعاماً وبؤساً ... وما للدَّهرِ نعلمه حسود

(١) صوب : حدود وهو خلاف صعود .
(٢) فوارع : جمع فارعة : وهي العالية منها .
(٣) راسية : ثابتة .
(٤) فتستقيد : تقتل .
(٥) الثغران : يقصد الثغور الجزرية .
(٦) التمائم : جمع تميمة : التعويذة .
(٧) الصلود : الصلب .
(٨) الأرند : اسم لنهر في إنطاكية : الخليج : دون القسطنطينية .
(٩) طرسوس : من الثغور الجزرية .
(١٠) شذاتها : شرها وقوتها ، الدفاع : السيل العظيم .

تميم بن المعز
الأمير الشاعر (ت ٣٧٥)

ولد سنة ٣٣٧ بمدينة المهدية بتونس ، وهو الابن الأكبر لوالده المعز لدين اللّه الفاطمى الخليفة ، وكان ينتظر أن يتولى ولاية العهد إلاّ أن أباه نحاه عنها مرتين ، ليتولاها أخوه عبد اللّه ثم بعد موته تولاها أخوه نزار الذى تولى الخلافة الفاطمية بمصر ولقب بالعزيز باللّه .

وكان لتنحية تميم عن تولى الخلافة أثره البالغ فى نفسه ، ظهرت ردود فعله فى كثير مما كتب من شعره ، وكان يبدى من حين لآخر ضيقه وتذمره أنه لم ينل حظه ، وكانت أخبار هذا التذمر تصل إلى أبيه المعز ، وأخيه العزيز ، إلا أنهما صبرا عليه ، وعاملاه معاملة طيبة وأغدقا عليه الأموال لعله ينسى أمر الخلافة .

وعلى الرغم من أن الأمير تميم انغمس في اللهو والمتعة ، والتنعم بالثراء العريض الذى حصله ظل يحس بالمرارة فى أعماقه كلما خلا إلى نفسه حتى حدث بينه وبين أخيه ما أدّى إلى نفيه وخروجه من القاهرة إلى الرملة وظل كذلك حتى وافته منيته قبل وفاة العزيز أى سنة ٣٧٥ هـ ولم يبلغ الأربعين .

وديوان تميم صورة لحياته ، وأسرته ، فيها الحديث عن النفس ، والتلذذ بملاذ النساء والخمر ومفاتن الطبيعة ، ونعيم العيش ، وفيها المديح للأب والإخوة من تولى منهم العهد أو من ولى الخلافة ، ومنها الرثاء لمن مات ، وفيها الفخر ببيت الفاطميين ورثاء آل البيت ممن نكبوا على مدى التاريخ قبل عصر الشاعر .

وشعره قليل الاعتماد على محسنات البديع ، قريب إلى الطبع السهل غير المتكلف فيه صدق ، وترجمة عن أحاسيسه فى أوقات سعادته وشقائه .

- ١ -

وَلِي صاحب لا يُمْرِضُ العقلَ جهلُه ... ولا تتأذّى النفس منه ولا القلبُ
إذا قلتُ (لا) في قصّةٍ لم يقل (بَلَى) ... وإن قلتُ أصبو ، قال لابدّ أن أصبو
وإن قلت هاكَ الكأسَ قال مبادراً ... ألا هاتها طابَ التّنادُمُ والشُّرب
سريعٌ إذا لبىَّ صبورٌ إذا دَعا ... يَهون عليه في رضا خلّه الصَّعْب
غدوتُ به يوماً إلى بيت حانةٍ ... وللغَيْمِ دَمْعٌ ما يكُفّ له سكب
وقد نَفَحتْ ريحُ الصّبا بمنَافسٍ ... عَبيريّة الأنفاسِ طاب لها التُّرْب
فأفْضَى بنا الإدْلاجُ بعد تعسُّفٍ ... إلى زَوْلةٍ شمْطاءَ مَنزلهَا رحب
مُزنّوِةٍ أمّا أبوها فقيصرٌ ... وحَسْبُك مَلْك جَده قيصرٌ حَسْب
قُصيريّةٌ ديْريّةٌ هِرَقليةٌ ... تقاصَر منها الخطو واحدَوْدب الصُّلْب
وقالت لنا : أهلاً وسهلا ومرحباً ... وقَلّ لكم منّي البشاشة والرُّحْب
مَنَ أنْتُمُ ؟ فقلنا : عُصْبةٌ من بني الصّبا ... دعاهم إليك القَصْفُ والعَزْف واللّعْب
فقالت : على اسم اللّه حُطّوا رِحالَكم ... فعندى الفتاة الرّؤْدُ والأمْرَدُ الرّطْب
وراحٌ نفَى أقْذاءَها طولُ عمرها ... فجاءتْ كما يُدْرِى مَدامعَه الصّبُّ
أرَقٌّ إذا رقْرقتَها في زجاجة ... وألطفُ نَفْسٍ تداولهَا الحبّ
كأن سراجاً في تَرائب دنّها ... إذا أقبلتْ من ليلة الدَّنّ تَنصَبّ
فقلنا لها : هاتى بها وتَعجّلى ... ولا يكُ فيما قلتِ خُلْف ولا كَذْب
فجاءت تَجرُّ الزّقّ نحوى كأنه ... على الأرض زِنجىٌّ بلا هامة يحبو
فلمّا بينَ جناها بدا فوق رأسها ... حَبابٌ كما يَنسابُ من سِلْكه الحَبُّ

- ٢ -

وقال فى الغــزل :

وا بـأبـى الـظـبـىُ الـذى لـو بـدا ... للبــدرِ قــال البــدرُ واظُلْمَــتـاهْ
أثّرتْ بـالألحــاظ فـى خــــدّه ... فــانتــصــفت منّى له مُــقْلتـاه
ثــم رمَـى قـلــبى بـألحــاظِـــه ... وا بِأبى ألحــــاظُـــه من رُمــــاه
كم ســـفكت أجــفــانه من دمٍ ... نمّت عليـــــهنّ به وَجْنتــــاه
يا قـــومِ مــابالُ ظُــلامـــاتنــا ... فى الحُبّ لا ينظُر فـيــهـا القُـضَـاه
فــتَــمنَعَ المحــبــوبَ من زَهْوه ... وتُنْصِف العــاشقَ ممّن جَـفــــاه
لاَ تطلبــوا خَلْفًـا بقـتلى سـوى ... فــواتِر للّحظ وورْدِ الشّـــفــاه
لو قـيل لى مـا تَشْتـهى لم أقُـلْ ... شـيـئـاً سـوى قَلْع عـيـون الوُشـاه
يا من برانى حــبُّـــه وانتـــهى ... بى العَنا فى هجــره مُنتـــهـــاه
مَنَعْــتَنى الطيفَ بَمنْع الكرَى ... منى، فكـدّرتَ علىّ الحــيـــاه
واللّه لا أنسَى لهــا قــولَهـــا ... من خلْف سِجْف السِّتْر واضَيعتاه
مـتى استـوتْ فى الحبّ أقـدامنا ... حــتى أُواتيــــه وأبْغى رِضــــاه
ثم علَتـــهـا رِقــةٌ فــانثنتْ ... قـــائلةً يُجْـــزَى بمثلَى هـــواه
فـــوَجــهـتْ بالدرّ لى ثغـرَها ... وأرسلتْ لىَ وجــهَـــهــا فى المِرآه

- ٣ -

وقال يصف عودَ الغناء :

لقـــد نـطق العــودُ عن ســرّه ... فــغـــادر كلَّ صـحـيح كـئـيب
فـشـبّـهـتُ مَـيْـلَ مـعـاصِـيـرِه ... إذا مِلْن بعــد اســتـــواءٍ وطِيبْ

بوجه حبيبٍ بدا ضاحكًا فعنّ له لحظُ عين الرّقيب
فلما استوى نُطْقُ أوتاره حكى نقْرُها حسن لفظ الحبيب
تجسُّ الأناملُ دَسْتانه (١) كما جَس عِرقَ العليلِ الطبيب
فيسمِعنا حركاتِ السرور ويَكْشِف عنّا بنات الكروب (٢)

— ٤ —

وقال يصف فوّارة :

خليليّ قد ولّى الظلامُ وهَمْلَجا (٣) وقد كاد وجهُ الصُّبح أن يتبلّجا
فقوما إلى ساقيكما فاهتفا به ولا تَفْتحا باباً من الهمّ مُرْتَجا
ودونكماها قهوةً بابليّةً (٤) إذا ما فصيح عبّ فيها تلجلجا
على نرجس غضٍّ يُلاحظ سَوْسنًا وآسٍ ربيعيٍّ يُناجي بنَفْسَجا
وقاذفةٍ بالماءِ فى وَسْطِ بركةٍ قد التحفتْ وَحفًا (٥) من الشَّعْر سَجْسَجا
إذا قذَفت بالماء سلّته منْصُلاً (٦) وعاد عليها ذلك النَّصْل هَوْدَجا

(١) الدستان واحد الدساتين ، وهى الرباطات التى توضع الأصابع عليها . وانظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ١٢٧ طبع مصر .
(٢) كذا فى ب ، ف ، ل ، ك . وفى سائر النسخ : « عذاب الكروب » .
(٣) هملج : مشي مشية سهلة فى سرعة .
(٤) فى ب : « منقرية » . وهو محرف عن مقدية بالتحريك وهى ضرب من الشراب .
(٥) وحف الشعر : كثف واسودّ ، ويعنى به الماء المتدفق من البركة . والسجسج : الذى ليس فيه حر مؤذ ولاقرّ
وفى ل : « من الظل » فى مكان « من الشعر » .
(٦) المنصل : السيف .

كأنْ عيون العاشقين تُعيرُها من الدّمع سَجْلاً[1] صافيا لا مُضَرّجا
تخالُ بروزَ الماء من جَفْن عينها قضيبَ لُجَيْن سُلَّ منهُ[2] مُدمْلجا
تُحاول إدراكَ النّجوم بقَذْفه كأنّ لها قلباً على الأفق مُحْرَجا[3]
لدى روضةٍ جاد السَّحابُ ربوعَها وزَخْرفَها دون الرياض ودبَّجا
كأن غصون الأقحوان زُمُرُّدٌ تَعَمَّمَ بالكافور ثم تَتَوَّجا
ونُوَّار نَسْرينٍ كأنّ نسيمَه من المسك في أفق[4] السماء تأرّجا
فيا ساقِيَيَّ استعجلا لِي[5] وصَرّفا عُقَاراً كما إن شئتماه أو امْزُجا
ولا تَحْملا هَمَّ الزمان فإنّه إذا اشتد ضِيقُ الحادثات تَفرَّجا
دعاني ونَدْماني وكأسي ومِزهري[6] فحسبي بالمعشوق[7] رَبْعاً ومَنْهجا
كأن ثَراه[8] كلما صافَح النّدى وهزّ نسيمُ الرِّيح ألويةَ الدُّجى
بقايا الغَوالي[9] في نحور نواهِدٍ يُنازِلن باللُّحظ الكميَّ المدجَّجا[10]
سأطلب حقِّي إن قضى الله لي به وأفتح منه كلَّ ما كان مُرْتَجا
فلستُ وإن عاقرتُ كأسي بسالكٍ من الأمر فيها كلَّ ما كان أسْمَجا

---

(١) السجل : الدلو العظيمة مملوءة .
(٢) في ل : « منها » .
(٣) في ب : « مخرجا » .
(٤) في ب : « جو السماء » .
(٥) في ب : « استعجلاني » و « صرفا » أي لا تمزجا .
(٦) في ل : « منزهي » .
(٧) المعشوق : اسم بستان كان مطلا على النيل بالقرب من بركة الحبش في الجهة التي تعرف اليوم بساحل أثر النبي . وكان يعرف بجنان الأمير تميم ، ثم جدّده الأفضل ابن أمير الجيوش فصار يعرف به . انظر المقريزي في الكلام على البساتين .
(٨) كذا في ل . وفي غيره من الأصول : « تراها » .
(٩) الغوالي : جمع غالية وهي طيب معروف .
(١٠) كذا في ل ، هـ وفي سائر الأصول « المضرجا » .

– ٥ –

وقال يفتخر أيضا:

ليس من ساد عن وِراثة جَدّ ... وبحظٍّ من الحظوظ مُتاحِ
يستحق الثّنا ويستوجب الشُّكـ ... ـر ويَحْوى مدائحَ المُداحِ
إنما السيد المعلَّى المُفدَّى ... مَن علا للُعلاَ صدورَ الرِّماحِ
ورمى ليل كل خطب بهيم ... بذكاء أضْوَا من المصباح
واقتنى العزّ بالظُّبا والعوالى ... واشترى الحمدَ بالنَّدى والسَّماح
فكذا تُبْتَنى المكارمُ والمجـ ... ـدُ ويُسْتنعَد العدوُّ الملاحى
لا كمن قد جَرى بِرجلِ سِواه ... وسما طائراً بغير جناح
لا ألفْتُ العلا ولا أَلِفَتْنى ... إن توشحتُ دونها بوشاح
أو ترّفهت أو تشاَغلتُ عنها ... بأباطيلِ قَينةٍ أو بَراحِ
لا ولا ابيضَّ لى سَنَا المجد إن لم ... أَسْتَجِدْ غسلَه بنزفِ الجِراح
وألاقِ العُداة عنه بعزمٍ ... عَلوَىٍّ يَفُلّ حدّ الصِّفاحِ
وببطشٍ بَفْرى الجماجمَ والأعـ ... ـناق فَرْىَ المُدَى لحومَ الأضاحى
أنا فَرْد النُّهى وربّ المعالى ... وحُسام الكِفْاح يومَ الكِفاحِ
أنا مفتاح قُفل كلّ نَوالٍ ... يوم يغدو النَّدى بلا مفتاح
أنا كالجِدّ فى الأمور إذا ما ... كان غيرى فيهن مثل المُزاحِ
لاكَراضٍ من العلا بادّعاءٍ ... وبِعرضٍ مجرّح مُسْتباحِ
فسلِ المجد عن صباحى ولَيلى ... ومَقيلي وغُدْوتى ورَواحى

هل يَسُرّ العلا مقالي وفعلي ... وارتياحي لكسبها واقتراحي
هاكها كالصهيل في حلبة الفَخْـ ... ـر إذا كان غيرُها كالنُّباحِ

- ٦ -

وكتب إلى صديق متشوق :

شوقي إليك على التبا ... عد والتَّقارب زائدُ
وكذا المحبّ ودادُه ... في كلّ حال واحدُ
والحرّ من لا تنقُضُ الأ ... يام ما هو عاقِد
ماجفن شوقي مذ نأت ... تلك المعيشةُ هاجِد
جُمِعَتْ بها فيك المُنى ... لي واستُهِين الحاسد
فكأنني بك للورى ... طراً هناك مشاهد
داوَى انفرادي منك أُنْـ ... ـسٌ للكآبة طارد
وتذاكُرٌ وتفاوُضٌ ... وتخالُصٌ وفوائدُ
وخلائقٌ بِيضٌ على ... حُسْن الوفاء شواهد
وكذا الأديب إذا تأدّ ... ب للأديب مُعاضِد
ومُصاحبٌ ومُواصِلٌ ... ومؤالفٌ ومساعدُ
أأبا محمّدِ المحـ ... ـمّدَ والحجا لك حامد
إني فَقَدتك مثل ما ... فقد البنانَ الساعدُ
أو مثلَ ما فَقَد الكرى ... جَفْنُ الكئيب الساهدُ
فلقد يعود حرارةً ... فيه النعيم البارد

فـاسلَم سَلِمْتَ مـعـجَّـلا لـى مـنـك وصـل خـــالـد
فلقـــد أعـــارك ظَرْفَــه دون الأنـــام عُـــطَـــارِد
وســمـــا بك الأدبُ الطـريـ ـف المســتـفــاد التــالد
والمجــد لــيــس يـنــالــه إلاَّ الأديـب المــاجـــد
هـذا الزمـــان لِمـا يسـو ء وصـالنَـا مـتـعـاهـد
رأْىُ الـلـيـالى فـى تَـفَـ ـرُّقـنـا ضـعـيـف فـاسـد

- ٧ -

وقال أيضا: يصف طائر الحمام:

وأرَق العينَ بالحيّين مُـتَّـلهُ [(١)] يُقَطِّع الليلَ تغـريـدا وتعـديـدا
موفٍ على غُصْن بانٍ [(٢)] تستميل به نواسمُ الريح تصـويبـا وتصـعـيـدا
لانت خوافيه واخضلّت قَوادمُه فَـفُـتْنَ فى لينهنّ الخُـرَّد الغـيـدا
كـأنما حَسَد اليـاقوتُ مـقلتَـه فى حُسْن تصريحها فاحمرّ توريدا
مَتْنٌ كصبْغ الدجى نيطت حوالكه بفـضّـة صـاغ منهـا النحـرَ والجـيـدا
كـأنما خَضبت رجلاه من دمـه وقُلِّد السَّبجَ [(٣)] المختـارَ تقليـدا
تبكى حمـامتـه مـا تأتلي كَمـدا تُردِّد الصـوت بالتـغـريد ترديدا
لـولاه لـم ألق فـى آثـار دارِهـم لى مُسْـعـدا يؤنس الأطلال والبـيـدا
بكى فـأبكى جفـونى مِلْئـهنّ دمـا وجَـدّد النوح لى إذْ ناح تجـديـدا
إلفى وإلفك بانَا يا حَمـام فنحْ حتى ننوح ونستـبكى الجـلامـيـدا
ويلُ امّـه سـاق حـرٍّ [(٤)] زاد مُحْـزِنـه بَثًّـا على حُـزْن أيوبٍ وداودا

(١) المتله: الذي يتردد متحيرا، وهو من الوله ويريد حمامة ذكرا كما يدل عليه كلامه بعد.
(٢) فى هـ: «بدا».
(٣) السبج: الخرز الأسود. فارسي معرّب.
(٤) ساق حرّ: ذكر القماريّ، وهو ضرب من الحمام.

وقال أيضا فى الغزل :

دعـوته لوصـالي فـانثنى خـجـلا ... واعـتـل علة من لا يعـرف العللا
خاف الرقيب فقالت عينه « نعما » ... ثم التوي لفظه عن مقلتيه بـ « لا »
يا حبذا عينه بالوعد مسعفة ... وحبذا لفظه بالمنع مبتهلا
أشكو إليه فترثي لى لواحظه ... حتي بدا الدمع من عينيه منهملا
كذا القلوب إذا رقت فآيتها ... أن تضعف اللفظ أو أن تحدث الخجلا
فديت من لم يزل إن لاح شمس ضحى ... وصير الغصن قدًّا والنقا كفلا
رمى الرقيب بعينيه فأسكره ... عنا ولم تخش تنغيصا ولا وجلا

– ٨ –

وقال أيضا :

أيا دير مرحنا(١) سقتك رعود ... من الغيث تهمى(٢) مرة وتعود
فكم واصلتنا فى رباك أوانس ... يطفن علينا بالمدامة غيد
وكم ناب عن نور الضحى فيك مبسم ... ونابت عن الورد الجنى خدود
وماست على الكثبان قضبان فضة ... وأثقلنها من حملهن نهود
ليالى أغدو بين ثوبي صبابة ... ولهو وأيام الزمان هجود
وإذ لمتى لم يوقظ الشيب ليلها ... وإذ أثرى في الغانيات حميد

(١) ديرمريحنا : على شاطىء بركة الحبش إلي جانب البساتين التى أنشأ بعضها الأمير تميم وجعل به مجلسا على عمد ، وبالقرب من الديرعين ذهبت بها الرمال . انظر فى ابن فضل الله جـ ا ص ٣٦١ ، معجم البلدان جـ ٢ ص ٧٠١ ، الديارات للشابشتى ، وهو الآن يقع بين فم الخليج ومسجد زين العابدين قرب النيل . وكان من مواضع اللعب واللهو ، وفى اليتمية ٣٩١/١ : « دير يوحنا » .

(٢) فى ل : « عن الغيم يهمى مزنها ويجود » .

— ٩ —

وقال أيضاً :

رأيت على خدّها شامَةً كحلْكة ناظرها في السوادِ
فقلت لها لمْ عجمتِ[1] الشقيق وعارضْتِ حُمرتَهُ بالمدادِ
فقالت : حَمَيْتُ بها وَجْنتى من العين والنظرِ المستزادِ

— ١٠ —

وقال فى يوم الرحيل من عين شمس :

ولما أثاروا البُزْلَ وهْنا وأشأموا وحَثَّ بأقمارِ الهوادج حادى
وحال الأسَى دون البكا فدموعُنا من البين حَسْرَى والتأسف بادى
أَمَطْنَ دِمقسِيَّ المُلاَ[2] عن روادفٍ رِواءٍ ولكنَّ الخصور صوادى
فلم تعصِ سلطانَ المدامعِ مُقْلتى ولم يتحصَّن بالضلوع فؤادى
أجِدُّك لا أنفكُّ فى كلِّ ليلَةٍ أُرَاعُ ببينٍ أو أهيم بوادى
فليت زمانا بان بالحظِّ وانتحى على المال واسانى بأهل ودادى

وقال يرثى أخاه عبد الله[3] :

كلّ حيٍّ إلى الفَناء يصيرُ والليالى تَعِلَّةٌ وغُرورُ
وإلى اللّه يرجع المَلْكُ والمُلـ ـك ، ويقْضى الأميرُ والمأمور
وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فطويل الحياة نزٌّ حقيرُ

---

(١) وهو من قولهم : عجم الحرف إذا أزال إبهامه بنقط أو غيره يريد أن خدها كالشقيق ، والشامة أو الخال فيه وخز أسود كالنقط .

(٢) الملا ، أصله الملاء ، فقصر الممدود ، والملاء واحده الملاءة .

(٣) الأمير عبد الله ثانى أبناء المعز لدين الله الفاطمى . ويحدّثنا صاحب سيرة الأستاذ جوذر أن المعز لدين الله جعل ابنه عبد الله وليا للعهد قبل وفوده على مصر ، وأن الأستاذ جوذر سلم على عبد الله بالإمارة دون سائر إخوته ، فعلم الناس أن عبد الله هو صاحب الأمر بعد المعز ، ولكنه توفى سنة ٣٦٤ فجعل المعز ولاية العهد للعزيز (راجع ما ذكرناه فى المقدّمة) .

وقال يتغزل :

بذلّةِ اللّين من ألفاظِك الخفِره ... وما تعَقْرَب من أصداغك العَطِرَه
إلاّ رحمتِ قتيلا من هواك[1] ولم ... يبق التواصل فيما بيننا نكره
لاتخبرى كيف صبرى فى نواك فقد ... أمسيت بى وبه دون الورى خبره
حاشاكِ من هجر من أضحت محاجرُه ... مما يكفكف فيك الدمعَ منفطره
ولم يجِد ناصرا يقوى عليك به ... لمّا غَدَوْتِ بسحر الطرف منتصره
ياصُلْبة العينِ مثلى يستهان به ... ظلما ويُقتَل مهجورا بغيرِ تره[2]

- ١١ -

وقال يرثى أخاه عقيلا :

قسمة الموت قسمةٌ لا تجور ... كلُّ حيٌّ بكأسها مخمور
يستوي كل من تفاوت فيها ... لا أميرُ يبقى ولا مأمور
نحن فى غفلة وللموت فينا ... طالب مدرك مُجِدٌ قدير
نستطيب المنى وهن عواصٍ ... فنطيل الآمال وهى غرور
فِكره فى الحياة وهْى ضلال ... إن فى الموت يحسنُ التفكيرُ
ليس ينجو من الغرور سوى مَنْ ... قبرُه فى فؤاده محفور
كدَّر الموتُ صفوَ عيشى وهل فى الْـ ... أَرْضِ عيشٌ ما شابَهُ تكدير
وتذكرتُ بالمصائب قومى ... وجدودى ، إنى لقومى ذَكُور

---

(١) كذا فى ب . وفى سائر النسخ « هواك » .

(٢) الترة : الثأر .

أَيْنَ قَــومى الأُلَى الذين بهمْ كـــا ... ن يموت الخنا ويحـيـا الفـقـيـر(١)
لو حمى معشرا من القوم حامٍ ... لحـمتْ قـومىَ العُـلاَ والخـيـرُ
أين آبائىَ الذيـن تـفـانَوْا ... وبهمْ كـانت الليـالى تُنيـر
أين جدّى حسينُ بن علىّ ... أيـن زيدُ المفـجَّع المـوتـور(٢)
أين مـهـديُّنا المملِّكُ والقا ... ئمُ أين المعـز والمنصـور
أين تلك الحلوم والفـضل والألْـ ... ـبـاب بل أين ذلك التـدبيـر
أيـن ذاك السلطانُ والملكُ والمَنْـ ... ـعـة والبطش والعـلا والظهـور(٣)
أين تلك الجيـوشُ والعـزةُ القَـعْـ ... ـسـاءُ والجـمعُ والعـديدُ الكثـير
فـرّقـتـهـم يد المنون فـبـادُوا ... وحَـوتْهُمْ بعْـد القـصور القـبـور
سَلَفٌ صـالح وأمـلاكُ صِـدقٍ ... بهمُ تسـتـوى وتُلْوَى الأمـور
ثم عِـشنا ثلاثةً(٤) بفـم الحـا ... سد من عـيشنا الثَرَى والصخورُ
فعَمْرنا(٥) بـذاك مـدّةَ دهـرٍ ... كلنا ظاهرُ الرضـا مـسـرور
لم يعِش للمـعـزّ نَسْلٌ سِـوانا ... كلٌّ مـيْتٍ بنجله مـذكـور
فـأصـابت يدُ المنون عَـقِـيـلا ... وهو مـثلُ القـضـيب غَضٌّ نضِـيـر
حين هزَّ الشـبـابُ أعطافَـه الغـيـ ... ـدَ وحين اسـتـوى له التـعـمـيـر
لم يجـاوز حَـدَّ(٦) الثـلاثين إلا ... بليـالٍ ليـست لهـا تكثـيـر
أين تلك البشـاشـةُ الغضّـةُ الطلْـ ... ـقـةُ والمنظرُ البـهِىُّ المنيـر
أيـن ذاك الطبعُ السليمُ وذاك الـ ... ـخُلُقُ العـذْبُ والسَّنَا والنور

(١) الخنا . قبيح الكلام وفاحشه .
(٢) هو زيد بن على بن الحسين ، استشهد بالكوفة سنة١٢١ .
(٣) المنعة محركة : الحصانة والقوّة ، وقد سكنت لضرورة الشعر .
(٤) هم تميم وعقيل والعزيز نزار ، وكان لهم أخ هو عبد الله ، توفي فى حياة أبيهم ، والأمير تميم .
(٥) عمرنا : أقمنا .
(٦) فى ل : « عقد الثلاثين » .

أين ذاك البِشْرُ الذى كان يبدو (١) مِنْ سَناه للناظرين البشير
كان عفًّ الضمير عذبَ السجايا ليس فى سرّ أمره تعسير
صادقَ الودّ وارِى الزنْد (٢) لايعـ ـدُوهُ فى كلّ حالةٍ تطهير
صار من بعد ذلك الأنس وَحشا وهْوَ فى قعر حفرةٍ مهجور
آهِ من لوعة لها فى سواد الْـ ـعينِ دمعٌ وفى الفؤاد زفير

وقال يصف ساقية :

وساقيةٍ ترتمى بالحَباب وتبكى لحبّ أزاهيرها
جرى دمعها جرىَ دمع المحبّ وناحت بصوت نواعيرها
فأدمُعها مَزْج أقداحنا وريحاننا نَشْرُ كافورها
لدى روضة حَلْيُها نوْرَها حمتها عيونُ نواطيرها (٣)
إذا شاقنا رَقْم أعلامها سبتْنا عيونُ يعافيرها (٤)
تعيد أديمَ الضحى مُذْهبا إذا لاح فوق دنانيزها
وأحسنُ من عَبَرات للغيومِ إذا قذفت بقواريرها
وقوفُ الندى فوق محمرّها ونفخ الصَبَا فى مزاميزها
أطعنا الصبا فى مواخيرها ونلنا المنى فى مقاصيرها
وشاطِرةٍ (٥) الزىّ مخطوفةٍ إذا برزت فى زنانيرها
أدارت علينا كؤوس المدامِ وتأثيرُها فوق تأثيرها
كأن لُبَانة ألحاظها تحاول بسطَ معاذيرها

(١) كذا فى هـ . وباقى الأصول « بدا * منه يبدو » .
(٢) واري الزند : مثل يضرب في الكرم والنجدة والفلاح وسائر الخصال المحمودة .
(٣) النواطير ؛ جمع ناطور : وهو حارس الكرم .
(٤) اليعافير : جمع يعفور ، وهو الظبى بلون التراب . وفى هـ : « عصافيرها » .
(٥) الشطارة : كلمة قيل إنها مولدة ؛ وكانت تطلق على أهل البطالة والخارجين عن سلطة آبائهم فى الدولة العباسية . والشاطر : من أعيا أهله ومؤدبه خبثا ونكرا ، وهو مأخوذ من شطر عنهم إذا نزح عنهم وتركهم مراغما أو مخالفا .

وقال يتغزل :

ربَّ صفراء علّلتني بصفرا ... ء وجُنْح الظلام جَوْن الإزار (١)
بين ماءٍ وروضةٍ وكُرومٍ ... وقبابٍ منيفةٍ وصحارى (٢)
تتثنى بها الغصونُ علينا ... وتجيب القيانَ فيها القمارى
وكأن الدجى غدائر شَعْرٍ ... وكأن النجوم فيه مَدارِى (٣)
وانجلى الغيمُ عن هلالٍ تبدّى ... فى يد الأفق مثلَ نصف سِوارِ
فاسقيانى فإننى أطلب المجـ ... ـد بثارٍ والحادثات بثارِ
وندامى لو لم يكونوا من الإنـ ... ـس لما ناسبوا سوى الأقمار
بتُّ أسقيهم ويسقوننى الرا ... ح على طيب صحّة الأوتار
وبساطٍ من الحديث تبدى ... كنباتِ النسْرين بين البَهار
لم نزل نلثم الكؤوس إلى أن ... دُفِن الليل فى فؤاد النهار

وقال يصف بركة الحبش :

أُنظر إلى البركة الغنّاء مفعمَةً ... بالماء والشمسُ من حسنٍ تغامزُها
والريح تلعب فى أمواجها جَذَلا ... فما تسالمها إلا تبارزها
والنبت قد حفّها من كل ناحيةٍ ... بكل غصن أنيقٍ فهو حائزها
كأنها بُسُط بيض إذا برزت ... للعين مخضرة منها فراوزها (٤)

---

(١) فى م : « مرخى الإزار » . والجون : الأسود .
(٢) فى هـ م ، ل : « ورواب منيفة » .
(٣) المدارى : جمع مدراة وهى المشط .
(٤) فى الأصل (قراوز) وأراه محرفا عن (فراوز) بالفاء الموحدة . وهو جمع (فرواز) معرب (برواز) الفارسية وهو أيضا الإفريز : وهو طنف الحائط ، وقد جاء فى شعر أبى فراس الحمداني :
بسط من الديباج قد فرزت أطرافها بفراوز خضر .
وقيل إن (فرواز) فعلال من فرز الشيء إذا عزله ، فهو إذاً عربى ، وينظر تاج العروس ، وشفاء الغليل .

وقال في الرحيل عن عَين شمس : (١)

أىَّ قلبٍ كـوى الفـراقُ وهزّهْ ... أىَّ لبٍّ أطـاره واستـفـزّه
أىَّ دمع جـرى وقلب تلظّى ... وفـؤاد تداول البينُ وخـزه (٢)
كم شموسٍ بعين شمس أُذيلت ... لوداع رأى به الحلْمُ عَـجْـزه (٣)
موقف جار(٤) فيه حُكم التصابى ... وأصـاب الأسى العـزاءَ فـبـزه (٥)
لـو رآنى كـثـيِّرٌ فـيـه مـا شـكَّ ... بأنّى فـيـه كُـثـيِّـرُ عـزّهْ
مـا غـزتنى كـتـائب البث حتى ... جـعلوا مـوعـد التـلاقى بغـزّهْ (٦)
فُـرْقـة لا تزال فى العين دمـعـا ... عند ذكـرى لهـا وفى القلب حَزّه (٧)

وقال يصف ناعورة (ويفخر ببنى هاشم على بنى أمية) : (٨)

نـاعـورة أنّت أنينَ الـهـوى ... لـمّـا شـكـت حَـرْ وساويـسـهـا
أنـيـنـهـا صَـرَّة تـدويـرهـا ... ودمـعـهـا مـاء قـواديـسـهـا
كـأنمـا الكيـزان فى بئـرِهـا ... هـامُ مـلـوكٍ فى نـواويـسـهـا (٩)
تَقـذف بالماء إلى روضـة ... كـأنـهـا ريـش طـواويـسـهـا
كـأنمـا السَّـرو بهـا نسـوة ... قـامت إلى قـرع نواقـيـسـهـا
ويحسب الخَشخاش من حولها ... يـدا أشـارت بـدبـابـيـسـهـا
وانفـتح النرجس عـن أعْـيُنٍ ... مـصـفـرةٍ من الأحـداق مِنْ بؤسـهـا
وأقـحـوان كـثـغـور المَـهى ... مـفـتـرّةٍ من بعـد تعـبـيـسـهـا
وسَـوْسَن كـالقَـرص لـمّـا بدت ... آثاره فى لِـين ملمـوسـهـا

(١) سقطت من « ت » .
(٢) الوخز : الطعن بالرمح ونحوه .
(٣) أذله : أهانه . وفى المثل (أُخيل من مذالة) وهى الأمة لأنها تهان وهى تتبختر ، يضرب للتكبر وهو مهين .
(٤) فى ل : « جاز » .
(٥) بزه : غلبه وسلبه واستولى عليه بجفاء وشدّة .
(٦) البث : الحزن الشديد والغم الذى تفضى به إلى صاحبك .
(٧) الحز : القطع .
(٨) ما بين القوسين زيادة فى هـ .
(٩) كذا فى ت والناووس : القبر . وفى باقى الأصول : « نواميسها » و هذا البيت فى ل .

وقال يفتخر :

الشوقُ يَستسقي العيون الأدمعا والعَذْل يسقي القلب سُمًّا مُنقعا (١)
فاعرِفْن منْ لمتنَ في عَبَراته وارجعن عن غايات شوقي ظُلَّعا
أُمريدَ سمعي لومهُ منَع الهوى من كان مثلي مُدْنفا أن يسمعا (٢)
أأردتَ من قلقِ الحشَى أن يرعوى ومنَ المتيمَ قلبهُ أن يُقلعا (٣)
والله لا عصتِ الجوى أحشاؤه أبدا ولا أُضحي للومك طيِّعا
حتى تُفرِّج كربَ نفسٍ صبَّةٍ في صدره وتُريحَ قلبا موجعَا
وإذا فشا سقم المحبِّ ودمعه منعا منيع السرّ أن يتمنَّعا
للّه أى دمٍ أريق وموقفٍ للبين ضَمَّ مودِّعا ومودَّعا
وَقفا على جمرِ الأسى بِصفاته (٤) مُتَعانقَيْن كأنما خُلقا معا
خَرسا خلا دمعا يجول وأنفسا مقبوضة وتنفسا متقطِّعا
أَسْفَرْن عن مثلِ البدورِ طوالعا وضحكن عن مثل البوارقِ لمَّعا
وكشفن عن جَعْدٍ كأنَّ فروعه (٥) أمست مغيبا للدّجى أو مطلعا (٦)
وبَلَلْن كافورَ الخدود من البكا فَبَدا بياقوت الدموع مرصَّعا
بانوا فبان لِبَيْنِهِمْ طيبُ الكرى وتقطَّعوا فغدا الحشى متقطعا (٧)
أتبعتُهمْ من أدمعي ما لو غدا مَطَرا لروَّى عيَسهم والبلقعا
وتَنَفُّسًا لو لم أُبرِّدْ حَرَّه بمدامعي ودَمِي لقضّ (٨) الأضلُعا

---

(١) سم منقع : مربى ، من أنقع الدواء وغيره فى الماء إذا أقره فيه ليلا ليشرب نهارا ، أو بالعكس ونقع السم فى أنياب الحية : اجتمع ، وأنقعته الحية : جمعته . وسم ناقع ،أى بالغ قاتل ، من (نقعه) إذا قتله .

(٢) أدنفه الحب فهو مدنف : صيره ذا دنف أى مرض مخامر ملازم .

(٣) فى ت « يرجعا » .

(٤) كذا فى جميع الأصول ماعدا «ت» فإن روايتها « بصفاته » .

(٥) الفرع : الشعر التام الطويل .

(٦) فى ت «مترقعا» .

(٧) فى ل (والصب مكتفل بألايهجعا) .

(٨) قض الشيء : دقه وكسره .

أصبًا وقد ودّعتُ خُلانَ الصِّبا ونهيت قرح جوانحى أن يَنجعا
لأخالفنّ على الهوى من عَقّنِي وأذيقه ما قد أذاق وجزّعا
نحن الذين بهم تَسامَتْ هاشمٌ حتى حَوَتْ شَرف المعالي أجمَعا
رهط النّبيّ وآله وبنوه من دون البنين ونبْتُه مُترَعْرعا
والمُصطَفَيْنَ المرتضين من الورى والمفضلين بما حَوَوْه تَسَرُّعا (١)
والمطعمين إذا الرياح تناوحت شُعْثَ الأرامِلِ واليتامَى الجُوّعا (٢)

وقال يصف بستان قصره المعشوق :

يأيُّها المعشوقُ لافارقَتْ رُباك أنوارٌ وإشراقُ
فكلّ معشوقٍ له عاشقٌ والناس طراً لَكَ عُشّاقُ
كأنّما الحسنُ بلألائه علَى ثَرَى أرْضك مُهْراق (٣)
وكلّ عَينٍ بكَ مَفْتونةٌ وكُلّ قلب لك مُشْتاقُ
إذا رنا نرجسُك المشتهى بأعين فيهن إطراق
كأنّما فاجَأها كاشح بكل ما تكره سبّاق
فابيضّ منها لمفاجاته مَحاجرُ واصفر أحداق
وابتسم النّسرين من حولها فهو صقيل الثغر برّاق

---

(١) كذا فى ت . وفى باقى الأصول ورد هكذا :

والمصطفين من الورى والمفضلين بما حووه واقتنوه تسرعا .

(٢) تناوحت الرياح : تقابلت واشتدّ هبوبها . والرياح المتناوحة هى النكب ، وذلك أنها لا تهب من جهة واحدة بل تهب من جهات مختلفة ، وإنما يكون ذلك فى سنى الجدب والقحط وقلة الأندية ويبس الهواء وشدّة البرد (تاج العروس).

(٣) اللألاء : الإشراق والضياء واللمعان . ومهراق : مصبوب .

واسـتـيـأس الآسُ من المُلْتَـقى فَـهُـوَ من الرِعـدة خـفّـاق
مـختلف الأغـضـان في مَـيْسـه إذا انثنى سـاقٌ عـلا سـاق
يحـفّـه نَيْلَوُفَـرٌ في الماء لا يُرْديه إغـراق
كـأنما زُرّت على روسـه من دَخَن الكبـريت أطواق
تخـدمـه في السَّقْي ناعـورةٌ مَـرْهاء لا يَرْقـا لهـا مـاق
وناعم الخـضـرة قـد أُلْبِسَتْ منه حِـداق العينِ أوراق
كـأنما جَـمْـشـهُ عـاشق أو نـالـه للـدهـر إرهـاق
وأخْـجل الوردَ بكاءُ النَّدى فـاحـمرّ والحـمرةُ تُشْتـاق
كُلُّكَ يا مـعـشـوقُ مما غـدا إليـه كُلُّ اللحظ تَوّاقُ
كـأنما زَوّق مـا فـيك من بـائـع الأنـوار زَوّاق
سـاويت بين الزَّهْرِ في نبْـتـه كـأنما لحظك ورّاق

وقال يصف النيل :

يا حـبّـذا حُلْوانُ فـالنيلُ ربْعٌ بحُـسْن اللهـوِ مَـأْهولُ
رُحْتُ ومـركـوبي به أدهمٌ على جَناحِ الريح محـمـولُ

كــأنه فى الماءِ زنْجِـيّـةٌ ... لهـمـا من الموجِ أكـاليلُ
والنّيلُ فى رونَقِ شـمس الضـحـا ... سـيفٌ صَـقـيلُ المتنِ مسلولُ
حـتى إذا مـا دَرَجَتْـه (١) الصَّبـا ... ومـاجَ منه العَـرْضُ والطولُ
فـهـو لمن أبصـره جَـوْشنٌ (٢) ... على مِـهـادِ الأرضِ مسـدول
أو حُـبُكٌ تَرصيـعُـهـا جَـوْهَرٌ ... مُـبَدَّدٌ فـيـهنَّ مَـحْـول
نادمتُ فـيـه أحْـوَراً كَـشْـحُـه ... أهيفُ فـوق الردفِ مجـدول (٣)
أكـثـرُ مَـا يبـذُلُ مِن وصلِه ... لَثْمٌ على الكأسِ وتقـبـيل

وقال في الغزل :

إن كنتِ مُتْهمتي (٤) بغَدْرِكِ (٥) فاسألى ... عنّى ركُوبى فيكِ (٦) كُلَّ جليلِ
وفُـتـور أغـضـائى ونارَ تَنَفُّـسـى ... ودمـوعَ أجـفـانى وطولَ نُحـولى
وخُـفـوقَ قلبى عند ذكـرِكِ هَيْـبَـةً ... لكِ واطِّراحِى فـيـكِ كُلَّ عـذول
إنّنى ليـعـذُبُ لى إليك تذلُّلى ... حُـبـّاً ، ومـا أنا فى الورى بذليل
وأرى التَّـهـتُّك فى هواك صـبـابةً ... وأرى التَّجمُّل فـيك غَيْـرَ جـمـيل
سُـؤلُ البـريةِ أَن تفـوزَ بلحظة ... منّى ، ووجْـهك أنت وَحْـدكِ سـولى
ولوِ استطعتُ خَبَأْتُ شخصَكِ غَيْرَةً ... فى مـهـجـتى مَعَ زَفْـرتى وغليلى

(١) درجته : مرت به وجرت عليه .

(٢) الجوشن : الدرع .

(٣) الكشح : الخصر ، ومجدول : محكم حسن الخلق .

(٤) هو من قولهم أتهمه اهاما بإبدال الواو تاء أدخل عليه التهمة وأصل الفعل « وهم » .

(٥) في ت : « بغدر »

(٦) كذا فى ت . وفى باقى الأصول : « فوق » .

وقال يتغزل ويفتخر على بني العبّاس :

جُرحي بعينيك ليس يندمل ... وصبوتي فيك ليس تنفصلُ
فلا تخافي علَيَّ عاذلتي(١) ... شرُّ الهوى ما يُزيله العَذَلُ
لم أضْنَ إلا تَشبهها بضنًا ... يشكوه في جفنِ عينك الكَحَلُ
فلا تظنيّ ضناىَ مثلَ ضنىِ ... عينيك ذا صِحَّةٌ وذا علَلُ
أيُّ السَّقيمين مُوجَعٌ كَمِدٌ ... جِسْمي أم لحظُ عَينْيك الثَّملُ
أمَا وبيض الثُّغور لائحةً ... وما اجتنت من رُضابها القُبَلُ
لولا فُتورُ العيونِ ماقويَتْ ... ولا غَدَتْ دونَ لحظها الأسَل(٢)
والنُّجْلُ لو لم يكن بها نَجَلٌ(٣) ... ما تَمَّ في عاشقٍ لها عَمَلُ
ياسحرُ إنَّ الذينَ قد زعَموا ... أنَّ المسمَّى سوى اسمه جَهلوا
قالوا ولو عاينوكِ كاسمكِ ما ... أصبح في ذاك بينهمْ جَدَلُ
أهواكِ في القربِ والبعادِ معاً ... وخالصُ الحبِّ ليس ينتقل
إذا غَداَ الوصلُ للهَوَى ثمنًا ... طارَ بذيَّالك الهوَى المَلَلُ
يُعجبني البُخْلُ إن بَخِلتِ ولا ... يُعجبني الجودُ منكِ والنَّفَلُ

---

(١) كذا في ت . وفي باقي الأصول : « عاذلة » .

(٢) الأسل : يريد الرماح ، والأسل : نبات دقيق الغصن ، وهو يخرج قضبانا دقاقا ، وليس لها شعب ولاخشب وإنما سمي القنا أسلا تشبيها به في طوله واستوائه واعتداله ودقة أطرافه .

(٣) النجل : سعة العين مع حسن .

فَشَرُّ مَا فِى الرِّجَالِ بُخْلُهُمُ ... وَخَيرُ مَا فِى الكَوَاعِبِ الْبَخَلُ (١)
قَالَتْ وَقَدْ رَاعَهَا البُكَاءُ دَمًا ... مَابَالُه ؟ قُلْتُ : عَاشِقٌ خَبِلُ (٢)
قَالَتْ : وَمَنْ شَفَّهُ (٣) وَتَيَّمَهُ ؟ ... قُلْتُ : الَّتِى عَنْ غَرَامِهِ تَسَلُ
قَالَتْ : أَمِنْ نَظْرَةٍ يَكُونُ هَوًى ... هَذَا مُحِبٌّ هَوَاهُ مُرْتَجَلُ (٤)
فَقُلْتُ عَيْنَاكِ كَادَتَاهُ بِمَا ... تَعْجِزُ عَنْ بَعْضِ حَلِّهِ الحِيَلُ
مَايَفْعَلُ الضَّرْبُ بِالمَنَاصِلِ بِمَا ... تَفْعَلُهُ لِلواحِظ (٥) المُقَلُ
« وَمَالَهَا قُدْرَةٌ تَصُولُ بِهَا ... عَلَى الوَرَى غَيْرَ أَنَّهَا نُجُلُ
إِنَّ عُيُونَ المِلاحِ وَاصِلَةٌ ... قَاطِعَةٌ حَبْلَ كُلِّ مَنْ يَصِلُ (٦) »
لاتَجْحَدِ السَّفْكَ لِلدِّمَاءِ وَلا ... تُنْكِرْ مِنْ ذَاكَ مَا هِىَ الفَعَلُ
دَمُ المُحِبِّينَ فِى تَرَائِبِهَا ... وَفِى مَبَادِى خُدُودِهَا خَضِلُ (٧)

---

(١) يحمد البخل من المرأة كما يذم فى الرجل ، قال ابن نباته السعدى :

كسلي تزور مع الظلام لها ... طيف فأعدى طيفها الكسل
بخلت بما جاد الرقاد به ... ومن الغوانى يحسن البخل

(٢) خبله الحبّ ونحوه : ذهب بعقله .

(٣) شفه الحب : هزله وأنحل جسمه .

(٤) فى ت ، هـ : « مرتحل » . وفى ت تقديم وتأخير فى بعض هذه الأبيات .

(٥) كذا فى ت . وفى باقي الأصول : « بالمقاتل » .

(٦) هذان البيتان ساقطان من « ت » .

(٧) الترائب : قيل هى عظام الصدر ، أو ما ولى الترقوتين منه ، أو ما بين الثّديين والترقوتين . قال أبو عبيدة : الترقوتان العظمان المشرفان فى أعلي الصدر من رأسى المنكبين إلى طرف ثغرة النحر ، ورجحوا أن الترائب هى موضع القلادة من الصدر ، واحدة تريبة ، وهى أعلى صدر المرأة تحت الذقن . والخضل : الندىَ .

وكتب إلي الخليفة العزيز بالله :

أُظهر [١] أم أخفِي الذى بى من السّقْم وكم أدفع الأيّام بالصبر والحِلم
أعلّل [٢] نفسى بالأمانى تجلُّدا وأُوهِمُها أن النّزاهة فى العُدم
صبَرتُ على الأحداث حتى أذبْنَنى وحتى انتهت سكّينُهن إلى العظم
ولم يَلق مخلوقٌ من الدهر مِثل ما لقيتُ من الأرْزاء والجورِ فى الحكم
فما عنّفت غيرى الخطوب بجورها ولا ظلمت أحداثها أحدا ظلمى
أرُونى مريضَ القلب مثلىَ والمُنى عليلَ الغنى والحالِ والحظّ والجِسم
وما خذلتنى همّتى فألومها وماضاق بى مذ كنتُ فى مَحفِلٍ عِلمي
وأنَفذُ من رمح الشّجاع سياستى وأبصَرُ من عين البصير ضِيا فهمى
فلْمْ أختفِى تحت التراب مضيّعا وقد نوّهت [٣] فى الخافقين العُلا باسمى
ومالىَ أخطو فى الحضيض تخلفًا وقد عُقِدتْ كفّى على كاهِل النجم
أيا ابن معز الدين ، والفضلُ كلُّه إليك انتهى دون الأعاربِ والعُجْمِ
أناديك أم أشكو إليكِ ظُلاَمَتِى أم أشكوك أم أكنى عن الأمر أم أُسمِى
أتغدو ظُنونى فى معاليك وتصبِحُ آمالى مبدّدة النّظْم ؟
وأشرب – إذ أصبحتُ ضيفَك – من دمى وآكل – إذا أخلصت ودّك – من لحمى
وأبخس حظّا أنت كنت ابتدأتَه وأنت أحقّ الناس بالعدل فى القَسْم
إذا كنت أنت الحاكم المرتضَى به فما لك تغدو دون حُكمك لى خَصْمى

(١) فى ت : « أأنطق » .
(٢) فى ت : « أسّوف » ، وفى هـ : « أصبّر » .
(٣) نوّه به : رفعه وأذاعه وقوّاه وشهره وعرفه .

أجِزْني على مقدار ما أنا محسنٌ ولاتعطني ما ليس يبلغُه سَهْمي
فإني على إنكار مَجْدك أتقي وعنك إذا رامت عُلاك العدا أرمي
وما كان حقّي منك ذا غيرَ أنني رجوتُ وراءَ الحرب عاقبةَ السِّلْم
فكم من محب راحَ باللَّحظ قانعا إذا راح ممنوعا من الضَّمّ واللَّثْم
فإن كنتُ محبوبا فكن خيرَ واصل لحبلى فإنّى فيك مجتمع الهَمّ

وقال يصف الناعورة :

وناطقةٍ كلَّما حُرِّكتْ وليستْ بناطقةٍ في السكونِ
تئِنّ إذا دارَ دُولابُها فتُطرِبُ سامعَها بالأنينِ
وتبكي وليست بمحزونةٍ بكاءَ المحبِّ الكئيبِ الحزينِ
فتنطق بالصوتِ لا من فمٍ وتقذف بالدَّمْعِ لا من جفونِ
كأنّ لها ميِّتا في الثَّرى فأدمُعُها هُمَّعٌ كلَّ حينِ
إذا زَمَّرتْ أطربَتْ نفسَها فغنّت بمختلفات اللُّحونِ
غناءً يُرقِّص كيزانَها ويُظهِر فيهنّ وثبَ المُجونِ
فتَهوِي فَوارغَ في بئرِها وتصعدُ منها مِلاءَ العيونِ
كأنّ مدامِعَها فِضّةٌ مذوَّبةٌ لَوْنُها أَسْمَجُوني

وقال يذم الزمان :

أقول لسِربٍ من حَمامٍ عَرَضْن لي | يُغرِّدن فى أعلى الغصونِ ويَنْدُبنا
ويسكنَّ في خضراءَ ناعمةِ الرُّبا | أنيقةِ رَوْضِ النَّبْتِ آنسةِ المَغْنَى
بَوارِحَ لايخشَيْن بَيْناً ولانوًى | رَواتع لا يعَرفن همًّا ولاحُزنا
فقلتُ هنيئاً للحَمامِ أمانُه | وإن كانتِ الأيّام لم تُعْطِنى آمنا
أسِرْبَ الحَمامِ لو لقيتُنَّ بعضَ ما | أُلاقى لأصبحتُنَّ أوّلَ من يَضْنَى
ولو قد علمتُن الذى أنا عالمٌ | لما ناح منكمْ هاتفٌ ، لا ولا غَنَّى
ومَن جَرَّب الأيّامَ تجربتى لها | دَرَى أنّها ليست تدومُ على مَعنى
فحسْبكَ يادهرُ اصْطَلَيْت(١) بنارِ من | لو انّك سُمٌّ فى تَراقِيه(٢) ما أنّا
وأكثرُ ما أهجُوك يا زمنى به | من الفعلِ أنّى لم أُحسِّنْ بك الظَّنّا
ذمَمْناك ياصَرْفَ الحوادثِ فانتصرْ | وسُؤناك يا رَيبَ الزمانِ فخذ منّا
فإنّا أُناس لا نذِلّ لنَكْبةٍ | وأخلاقنا لا تعرِف الخوفَ والجُبْنَا

---

(١) اصطلى بالنار : احترق وقاسى حرّها .
(٢) التراقى : جمع ترقوة وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق ، وهما ترقوتان .

وقال يمدح الخليفة العزيز بالله :

أَسِرْبُ مَهًا عَنَّ أم سِرْبُ جِنَّهْ حَكَيْتُنهُنَّ ولَسْتُنَّ هُنَّهْ
أأنْتُنَّ أنجمُ ذا الجوِّ أمْ بُروجُ النجومِ جلابيبُكُنَّهْ
فضحتُنَّ بالكُحْلِ أُدْمَ الظِّباءْ وعِبْتُنَّهُنَّ بأَجْيادِكُنَّه (١)
ألستُنَّ كنتنَّ قلتُنَّ (٢) لي بألا تَحوَّلْنَ عن عَهدِكُنه
ولم أرَ غِيدًا سِواكُنَّ مِسْنَ فأشبهْنَ (٣) في لِينِهنَّ الأعِنَّه
غصون تقسَّمن شمسَ الضُّحا وكُثْبانَ خَبْتٍ (٤) وصَبْغَ الدُّجنَّه
حَملْنَ محاجِرَ عين المَهَا وأبدين ألحاظَ أطلائهِنَّه (٥)
فيا ما أُعَيْذبَ ألفاظَهنَّ ويا ما أَمْلَحَ ألحاظَهنَّهْ
إذا رُمْنَ ظُلْمًا فسلطانُهُنَّ علينا مَلاحَةُ أحداقِهِنَّهْ
بَرَزْنَ لنا عاطِراتِ الجُيوبْ بسَفْحِ الكَثيبِ بِوادي بُونَّهْ (٦)
فعطَّرْنَ مِن طِيبِهِنَّ (٧) النَّسيمْ وأبديْنَ مِن لَوْعتي المستكِنَّهْ

(١) كذا في ل ، والدمية . وفي باقي الأصول : وعبتن ألبانكنه .
(٢) الزيادة عن : « ت » .
(٣) كذا في دمية القصر للباخرزي . والذي في جميع الأصول : « من » .
(٤) الخبت : ما اتسع من الأرض واطمأن وفيه رمل .
(٥) عين : جمع أعين وعيناء ، وهو الذي عظم سواد عينه في سعة ، والعين : بقر الوحش ، وأطلاء ، جمع طلا : وهو ولد الظبي ساعة يولد ، فهو طلا ثم خشف .
(٦) في الدمية : « العرق ووادي » . ووِدى بونّه قد يكون هو المعروف بتلّ بونّي ، وهي قرية بالكوفة .
(٧) في الدمية « من ريحهن » .

ولمّا سَفَرْنَ صَبَغْنَ الضُّحا بماءِ الخدود وتَوْرِيدهنّه
فلِلّهِ هاتا غَداةَ انقضَتْ بطاعتنا وبعصْيانهِنّهْ
وَصَهْباءَ تَغْدو لِشُرابِها إذا ابْتَكروها مِن الَهمِّ فى جُنّهْ (١)
تَطُوف علينا بأقداحها حسانٌ حَكتهُن فى نَشْرهنّه (٢)
نَواعمُ لايستطِعن النُّهوضْ إذا قُمْنَ مِنْ ثقْل أرادفِهنّه
حَسُنٌ (٣) كحُسْنِ لَيالي العَزِيز وجِئن ببهجةِ أيّامِهنه
إمامٌ يَضِنّ على عِرْضِه ولا يَعْتريه على المالِ ضِنّه (٤)
فَسَلْ هل غَدَتْ قَطُّ أموالُه وأمْسَيْن من جُودِه مطمئنّهْ
وهل أبصَرتْ قَطُّ أرماحه - عُيونُ الورى - غيرَ حُمْر الأسِنّه
سحائبُ كفَّيْه منهلّةٌ علينا بمعروفها مُرجَحِنّه (٥)
معالي نزِرٍ عَلَوْنَ النُّجوم ونِلْنَ مِن المجْدِ ما لَم يَنَلْنَهْ

(١) جنة : وقاية وسترا .
(٢) النشر : طيب الرائحة وذكاؤها .
(٣) كذا فى ت وفي الأصول : « حسان » .
(٤) الضّنة والضنة : البخل الشديد .
(٥) أرجحنّ السحاب بعد تبسقه : أي ثقل بعد علوّه . يريد أن عطاياه ومنحه واسعة كثيرة ثقيلة .

وله في الغزل والعتاب :

قـد كنت أركـب فى هواك مـسـاءتى   فـعـل المحب الصب بالمحـبـوب
وأجـود بالنفس النفـيـسـة جـاهداً   لك فى الهـوى ويطيـب لى تعـذيبى
كـيـمـا أراك على الوفـاء وأجتنى   مـعـسـول وصلك وهو غـيـر مـشـوب
فـغـدرت غيـر مـغـادر وقطعت غـيـ   ـر مـقـاطع وأربت غـيـر مـريب
غـالطت عـقلى فى هواك وفطنتى   حـسن الوفـاء بصـحـة التـركـيب
فـالعـذر عـذرى إذ جـعلتك حـاكـمـًا   فـى الـقـلـب منـى والـذنـوب ذنـوبـى

وقال يتشوق إلى معاهده بالقاهرة ويذكر بعض متنزهاتها :

إذا حـان من شـمس النهـار غـروب   تذكـر مـشـتـاق وحن غـريب
ألا أبلغـا القـصـرين بالمقس أننى   إليـهن منذ فـارقـتـهن كـئـيب
إلى سـاحـتى دار القـصـير إلى الربا   فـمـصـرهمـا حـيث الحيـاة تطيب
منازل لم يلبس بهـا العيش شاحـبـا   ولـم تلف فـيـهن الخطوب تنوب
هى الـوطن النـائى الـذى لم تزل لـنا   نفـوس إليـه نزّعٌ وقلوب
وإنى لأهوى الريح من كـل مـا بدا   برياه من ريح الشـمـال هبـوب
ومـا بلد الإنسـان إلا الذى له   به سكن يشـتـاقـه وحـبـيب

قال يصف فوارة :

وقـــاذفـــة بالماء فى وسط بركـــة قد التحفت وحفا من الشعر سجسجا
إذا قــذفت بالماء سلتـه مـتـصـلا وعـاد عليـهـا ذلك النصل هودجـا
كـأن عـيـون العـاشـقين تعـيـرها من الدمع سجلا صـافيـا لامضـرجـا
تخـال بروز الماء من جــفن عـينهـا قـضـيب لجين سل منه مـدملجـا
تحـــاول إدراك النجـــوم بقـــذفـــه كـأن لهـا قلبـا على الأفق مـحـرجـا
لدى روضـة جـاد السحـاب ربوعـهـا وزخـــرفـــهـــا دون الرياض ودبجـــا
كـــأن غـــصـــون الأقـــحـــوان زمـرد تَعـــمَّمَ بالكافـــور ثم تتـــوجـــا
ونوار نســـرين كـــأن نســيـمـــه من المسك فى أفق السـمـاء تأرجـا

قال يرثى أهل البيت ويذكر مقتل الحسين فى كربلاء :

ثوت لى أســـلاف كـــرام بكربلا هم لثـــغـــور المسلمين ســـداد
أصـابتـهـم من عـبـد شـمس عـداوة وعـاجلهم بالناكـثين حـصـاد
فكيف يلذ العيش عـفـواً وقـد وسطا وجـــار عـلى آل النبى زياد
وقـتلهم بغـيـا عـبـيـد وكـادهم يزيد بأنواع الشـقـاء فـبـادوا
بثـــارات بدر طالبـــوهم ومكة وكـــادوهم والحق لـيس يكـاد
فـحكمت الأسـيـاف فـيـهم وسلطت عليـهم رمـاح للنفـاق حـداد
فكم كـربة في كـربلاء شـديدة دهاهم بهـا للناكـثين كـيـاد
ألم تعظمـوا ياقـوم رهط نبـيكم أمـا لكم يوم النشـور مـعـاد
تضـيـمـهم بالقـتل أمـة جـدهم سـفـاهاً وعن مـاء الفـرات تذاد
فـمـاتوا عطاشـا صـابرين على الوغى ولـم يجـبنوا بل جـالدوا فـأجـادوا

قال يتشوق معاهده بمصر:

سقى السفح من دير القصير إلى النهر إلى الجيزة الغراء فالشط فالجسر
من الغاديات الغر كل مخيم ضعيف الصبا عذب الحيل مسبل القطر
إذا جادها صوبًا أجاد رياضها وألبسها وشيًا من النور والزهر
فمن بسط مسكية ونمارق خلوقية حفت بأقبية خضر
كأن الندي فوق الشقائق جائلا دموع أريقت في الخدود على النحر
إذا الريح جالت بينهن تضوعت بريح فتيت المسك أو عنبر الشجر
خليليَّ لاعيش سوى اللهو والصبا ولا لهو إلا فى سماع وفى خمر
فحثا كئوس الراح صرفاً فإننى أرى الدهر صعباً لايدوم على أمر
إذا الدهر أعطاك القياد فلاتثق به فقصاراه التنقل للغدر
فأعط من العيش الشباب نصيبه ولا تنتظر كر البياض على الشعر

الخالديان

أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان نسبة إلى الخالدية من قرى الموصل ، وقيل نسبة إلى جد اسمه خالد وكان ما يجمعهما من أخوة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوة النسب ، فهما في الموافقة والمساعدة ، يحييان بروح واحدة ، ويشتركان في قرض الشعر وينفردان ، ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان . وأبو بكر أكبر الأخوين . وذكرت مصادر الأدب أن السرى الرفاء دس أحسن أشعارهما في شعر كشاجم ، وكان ذلك سببا في وقوع الخلاف بينه وبينهما ، كما أن شعراء عصرهما يتهمونهما بسرقة أشعارهم . كانا آية في الحفظ والبديهة ومن خواص سيف الدولة الحمداني وولاهما خزانة كتبه ، اشتركا في تصنيف كتب منها « الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين » المعروف بحماسة الخالديين . توفي سعيد عام ٣٧١ هـ ومحمد ٣٨٠ هـ .

قال أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي :

مَحاسِنُ الدَّيرِ تَسْبيحي ومِسْباحي ... وخمرهُ في الدجى صُبْحي ومِصباحي
أقمتُ فيه إلى أن صار هيكلُهُ ... بيتي ومفتاحه للحسن مفتاحي
مُنادِمًا في قلاليه رهابنةً ... راحت خلائقهمْ أصفى من الراح[1]
قد عَدَّلُوا ثِقْلَ أديانٍ ومعرفةٍ ... فيهم بخفَّةِ أبدان وأرواح
ووشَّحوا غُرَرَ الآداب فلسفةً ... وحكمة بعلوم ذات إيضاح
في طبِّ بُقراطَ لَحْنُ الموصليِّ وفي ... نَحْوِ المُبَرِّدِ أشعارُ الطرمّاح
ومنشدٍ حين يُبْديه المزاجُ لنا ... أَلَمْعُ بَرْقٍ سرى أم ضوء مصباح
وكم حَنَنْتُ إلى حاناته وغدا ... شوقي يُكاثِرُ أصواتا بأقداح

(١) القلالي : الصوامع ، والخلائق : الطبائع .

حتى تخمّر خمّارى بمعرفتى ... وصيّرتْ مُلَحى فى السكر ملاحى
ياديرِ مُرّاته لا نعدم ضُحًى ودُجًى ... سِجالَ غيثٍ مُلِثُّ الوَدْق سَحّاح(١)
إنْ تُغْنِ كأسك أكياسى فإن بها ... يَفُلُّ جَيْشَ همومى جَيْشَ أفراحى
وإن أُرقّم سوق أطرابى فلا عَجَبٌ ... هنا بِذاك إذا ما قام نوّاحى

قال أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدى :

نَيْلُ المطالب بالهندية البُتُرِ ... لا بالأمانى والتأميل للقَدر(٢)
فإن عفا طَلَلٌ أو باد ساكِنه ... فلا تَقِفْ فيه بين البَثّ والفكر
فى شَمِّك المسك شُغْلٌ عن مذاقته ... وفى سنا الشمس مايُغْنى عن القمر
لو لم أكن مُشْبِها للناس فى خُلُقى ... لقُلتُ إنىَ من جيل سوى البَشَر
أو لم يكن ماء علمى قاهرا فكَرى ... لأحرقتنىَ فى نيرانها فكرى
تزيدنى قسوة الأيام طيبَ ثناً ... كأننى المسْكُ بين الفِهْرِ والحجر(٣)
أَلِفْتُ من حادثات الدهر أكبرَها ... فما أُعَوِّجُ على أطفالها الأخر
لا شئ أعجب عندى فى تباينه ... إذا تأمَّلْته من هذه الصور
أرى ثيابا وفى أثنائها بَقَرٌ ... بلا قرونٍ وذا عَيْبٌ على البقر
قالت رَقَدْتَ فقلتُ الهمُّ أرقدنى ... والهمُّ يمنع أحيانا من السهر
كم قد وقعتُ وقوعَ الطير فى شَرَكٍ ... فضعضعت مُنَّتِي منه قُوَى المِرَر(٤)

(١) سجال : جمع سجل وهى الدلو العظيمة ويعنى الغيث الغزير ، والملث : الدائم والودق : المطر .
(٢) الهندية : السيوف والبتر : الحادة القاطعة .
(٣) الفهر : حجر يملأ الكف يدق به .
(٤) المُنّة : القوة والمرر : جمع مرة وهى القوة .

أصفو وأكدر أحيانا لِمُختَبِرى — وليس مُستَحسنًا صَفْو بلا كَدَر
إنى لأُسْتَرُ فى الآفاق من مَثَلٍ — فردٍ وأَمْلأُ للآفاق مِنْ قَمر
إذا تشكَّكْتَ فيما أنت مُبْصِرُه — فلا تَقُلْ إننى فى الناس ذو بَصر
وكيف يفرح إنسان بِمُقْلَتِه — إذا نضاها فلم تَصدُقْه فى النظرِ
قد فَرَحْتُ بما عاينتُ من عَدَمٍ — خَوْف القبيحيْن من كِبْرٍ ومن بَطر
وربما ابتهج الأعمى بحالته — لأنه قد نجا من طيرة العَور
ولستُ أبكي لِشَيْب قد مُنيت به — يبكى على الشْيب من يأسى على العمر
كُنْ من صديقك لا من غيره حَذِراً — إن كان يُنْجيكَ منه شدةُ الحذر
ما أطمئن إلى خلق فأخبره — الإ تكشَّف لى عن لؤم مختبر
وقد نظرت إلى الدنيا بُمقْلَتها — فاستَصْغَرَتْها جفونى غاية الصِّغَرِ
وما شكرتُ زمانى وهو يُصْعِدُنى — فكيف أشكرُهُ فى حال منحدر
لا عار يلحقنى إنى بلا نَشَبِ[1] — وأى عار على عين بلا حور
فَإِنْ بلغتُ الذى أهوى فعن قَدرٍ — وإنْ حُرِمْتُ الذى أهوى فعن عُذرِ

---

(١) النَّشَبُ : المال .

ابن الحجاج

٠٠٠ - ٣٩١ هـ

حسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد الحجاج شاعر كان يكتب للدولة البويهية . وولي حسبة بغداد مدة ثم عزل منها ويلقب بالنيلي نسبة إلى قرية النيل التي تقع على الفرات بين بغداد والكوفة . يضرب بشعره المثل في المداعبة والأحاجي والبعد عن الجد ، مع سهولة شعره وبديع صوره . وذكر الخطيب البغدادي أن الرضي جمع شعره في المديح والغزل وغيرهما من الأشعار البعيدة عن المجون . مدح الوزير المهلّبي وعضد الدولة بن بويه وابن العميد والصاحب بن عبّاد . وديوانه لا يزال مخطوطا لإغراق معظمه في المجون .

يقـول:

خَلِيلي قد اتَّسعتْ مِحْنَتي ... عليَّ وضاقتْ بها حِيلَتي
عَذَرْتَ عِذارِيَ في شَيْبِهِ ... ومالُمْتُ أن شمطتْ لِمَّتي
إلى كَمْ يُخاسِسنِي دائمًا ... زماني المُقَبَّحُ في عِشْرَتي
يُحَيِّنني ظالمًا غاشمًا ... وكدَّر بعد الصَّفا عِيشتي
وكنتُ تماسَكْتُ فيما مضى ... فقد خانني الدهرُ في مَسكتي
إلى منزلٍ لا يُوارِي إذا ... تَحَصَّلْتُ فيه سوى سوأتي
مقيمًا أروحُ إلى منزلٍ ... كقبري وما حضرتْ ميتتي
إذا ما ألمَّ صديقي به ... على رغبةٍ منه في زَوْرتي
فَرَشْتُ له فيه بسط الحديث ... من باب بيتي إلى صفَّتي
ومَعْدته في خلال الكلام ... تشكو خواها إلى مَعْدَتي

وقــدَ فَتَّ في عَــضُــدي مــا به ولكن عليـــه غَلَبتْ علتى
و أغـــدو غُـــدوًّا مليـــًّا بأن يزيدَ به اللهُ فى شــقــوتى
فــأيـــة دار يَمَّــمْــتُـبهــا تيَــمَّم بوابُهــا حــجــتى
وإن أنا زاحــمتُ حــتى أمــوت دَخلْتُ وقــد خَــرجتْ مُــهجَتى
فــيــرفــعنى الناسُ عند الوصــول إليــهم وقــد سقطت عِــمَّــتى
وإن نهــضــوا بَعْــدُ للانصــراف أســرعت فى إثرهم نهــضَــتى
وإن قــدَّمــوا خَــيلَهم للركــوب خــرجتُ فــقــدمتُ لى رُكْــبتَى
وفى جُــمَل الناس غلمــانُهم وليس مــواتىَ فى جُــملتى
ولا لى غـــلامٌ فـــأدعـــو به سـوى من أبوه أخــو عــمَّــتى
وكنتُ مليــحــا أرْمَــدَ العُــيون أبْــضًا فــقــد قــبــحتْ خلْقَــتى
يعــرق خــدى جــفــافُ الهُــزال وحــاف الشناج علىَ وجْنَتى
وقَـــوَّسنى الهمُّ حــتى انطويتُ فــصــرتُ كــأنى أبو جَــدَّتى
ويارُبَّ بيـــضـــاءَ رودَ الشـــبـــاب كـــانت تحنُّ إلى وَصْلَتى
فــصـــارت تصـــدُّ إذا أبصــرتْ مشيبى وتغضب من صلعتى

ابن وكيع التنيسى

أبو محمد الحسن بن على بن أحمد (ت ٣٩٣ هـ)

ولد بمدينة تنيس على بحيرة المنزلة قرب دمياط ، وإليها نسب وينتمى إلى أصل عربى من ضبة إحدى بطون تميم . ويبدو أن آباءه نزحوا إلى تنيس من الشرق، وربما من العراق أو فارس .

وكانت تنيس مدينة مشهورة من مدن مصر الزاخرة بأنواع الزروع والبساتين الزاهرة للكروم والفاكهة . وعرف أهلها ، وكان كثير منهم من النصارى ، بإجادة صنع الخمور ، كما اشتهروا بصناعة النسيج الفاخر الذى احتكرته دور الخلافة العباسية ، فلما تولى الفاطميون السلطة بمصر ألغوا هذا الاحتكار ، ونَمّوا صناعة النسيج بها وبمصر عامة .

وهكذا نشأ الشاعر فى هذه المدينة الخلابة ذات المناظر الطبيعية ووقع بصره على البساتين والحقول اليانعة ، وقلب نظره بين الزهور والمياه ، وشرب من خمورها ، فأكثر من ذكرها فى شعره ، وعرف لهذا بأنه شاعر الزهر والخمر ، وساعده على جودة الشعر بيئته التى نشأ فيها ، وإلمام والده بفنون اللغة والأدب .

ويقول عنه الثعالبى : « شاعر بارع ، وعالم جامع . قد برع فى إبانه على أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد فى أوانه ، وله كل بديعة تسحر الأوهام وتستعبد الأفهام . » وقال عنه ابن خلكان : « وله ديوان شعر جيد . وله كتابٌ بيَّن فيه سرقات أبى الطيب المتنبى سماه المنصف . »

ويدل شعره على أنه شاعر مطبوع خفيف الظل ، وأنه كان ميسور الحال يصف الخمر والزهر، ويتغزل فى السقاة ، ويستمتع بالحياة ولا يحرم نفسه من زينتها .

وهو شعر حضرى فى جملته ، سهلُ العبارة ، رشيق الألفاظ ، جميل الصور والأخيلة .

وكتابه المنصف يكشف عن معرفة بالشعر وأسراره ، كما يدلُّ على اطلاع واسع على أشعار من سبقوه من شعراء العربية فضلاً عن المعرفة بدقائق شعر المتنبى ، والإحاطة بديوانه .

وقد عاصر ابن وكيع أواخر الدولة الإخشيدية ، زمن كافور ، وعاش حتى زمن الدولة الفاطمية ومات فى عصر ثالث خلفائها الحاكم بأمر الله .

- ١ -

مُحْدَث نعمة (١) :

يا جـــامِــعًـــا زَهْـوَ الملـو ... كِ وَلُؤْمَ أخـــلاقِ التُّـــجَّـــارْ
ارْجِعْ إلـى الفَـــقْـــرِ الـقَـــديـ ... ـمِ فـقـد فَـسَدْتَ على اليَـسَـار(٢)
وخَـطَـرْتَ فـى سُـكْـرِ الـغِـنَـى ... وأمِنْتَ عـاقِـبَـةَ الخُـمـار(٣)
أبديتَ وجـهًــا لـلعُـفَــا ... ةِ مُـقَـنَّـعًـا بِـقِنـاعِ عـار(٤)
لـو أنّه لُـقِّـى الحِـجَـا ... رَ الصُّـمَّ أثَّرَ فـى الحِـجَـار(٥)
أو كـانَ تُرْسَ مُـحَـارِبٍ ... لارْتَـدّ عَنـهُ ذو الفَـقَـار(٦)

- ٢ -

السماء ليلا (٧) :

وَالْجَـــوُّ صــافٍ قــد حَـكَى ... بـأنْجُـمٍ فـيـه غُـرَرْ(٨)
جــامَ زجــاجٍ أزرقٍ ... قــد نُثِـرَتْ فـيـه دُرَرْ(٩)

- ٣ -

روض وخمر (١٠) :

أَسْـفَـرَ عن بَهْـجَـتِـهِ الدَّهـرُ الأغَـرّْ ... وَابْتَـسم الـروضُ لنا عن الـزَّهَرْ(١١)

---

(١) مصادرها : المنصف لابن وكيع ، الورقة ٢٣ . (٢) فى الأصل : الغريم . تحريف .

(٣) الخمار : ألم الخمر وصداعها وما خالط من سكرها. (٤) العفاة : الطالبو الفضل والمعروف ، جمع عاف .

(٥) الحجار : الأحجار ، جمع حجر .

(٦) ذو الفقار : سيف العاص بن منبه ، قتل يوم بدر كافرا ، فصار إلى النبى ﷺ ، ثم صار إلى علىّ .

(٧) مصادرها : نثار الأزهار فى الليل والنهار لابن منظور ١٤٠ .

(٨) حكى : شابه . والغرر : المضيئة ، جمع أغر . (٩) الجام : الكأس .

(١٠) مصادرها : يتيمة الدهر ١ : ٣٢٩ .ومنها أبيات فى نهاية الأرب ، وحلبة الكميت ، وحسن المحاضرة ، ومباهج الفكر .

(١١) أسفر : كشف . والأغر : الأبيض السعيد .

أَبْدَى لَنَا فَصلُ الربيعِ مَنْظَرًا بمثله تُفْتَن أَلْبَابُ الْبَشَرْ
وَشْيًا وَلَكِنْ حَاكَهُ صانِعُه[١] لا لابْتِذَالِ اللُّبْسِ لكِنْ لِلنَظَر
عَايَنَهُ طَرْفُ السَّمَاءِ فَانثَنَى عِشْقًا لهُ يَبْكِي بأَجفَانِ الْمَطَر[٢]
فَالأَرضُ فى زِيٍّ عَرُوسٍ فَوقَها من أدمُعِ القَطرِ نِثَارٌ من دُرَر[٣]
وَشْيٌ طَواهُ فى الثَّرَى صِوَانُه حَتَّى إذَا مَلَّ من الطَّيِّ نَشَر[٤]
أَمَا تَرَى الْوَرْدَ كَخَدَّيْ كَاعِبٍ راوَدَهَا - فامتنعتْ منه - ذَكَر[٥]
كأنَّما الخَمْرُ عَلَيْهِ نَفَضَتْ صِباغَها أو هِيَ منه تُعْتَصَر[٦]
أخْجَلَهُ النَّرجِسُ إذْ جَادَلَهُ فاحمرَّ من فَرْطِ حَيَاءٍ وَخَفَر
قَالَ له : العَيْنُ وَمَا الخَدُّ لَهَا مُوَازِنًا فى عُظْمِ قَدْرٍ وَخَطَر
ماذا الذى يُرْجَى لِخَدٍّ بَهِيجٍ مُسْتَحْسَنٍ ، صاحبُه أعمَى البَصَر ؟[٧]
فاحمرَّ من حُجَّتِه إذ ظهرتْ والحَقُّ لا يُدْفَع يوما إنْ ظَهَر
وانظرْ إلى النَّارَنْجِ فى بَهْجَتِه يَلُوحُ فى أفنانِ هاتيك الشَّجر[٨]
مثلَ دنانيرِ نُضَارٍ أحمرٍ أو كَعَقِيقٍ خُرِطتْ منه أُكَر[٩]

---

(١) الوشى : الثياب الموشاة بالألوان المختلفة ، شبه بها الرياض .

(٢) فى نهاية الأرب : فانثنت .. تبكى .

(٣) القطر : المطر . والنثار : ما ينثر ويفرق .

(٤) فى نهاية الأرب صيانة : فى موضع : صوانه .

(٥) الكاعب : الفتاة التى نهد ثديها . وراودها : خادعها وطلب منها المنكر .

(٦) صباغها : لونها .

(٧) بهيج : جميل .

(٨) هذا البيت والذى بعده فى نهاية الأرب ١١ : ١١٦ . وفيه : بهجاته . والأفنان : الغصون .

(٩) فى النهاية : مثل دبابيس . والنضار : الذهب . والأكر : الكرات .

وانظُرْ إلى المَنْثُورِ في مَيْدانِهِ يرنُو إلى النَّاظرِ من حيثُ نَظَرْ(١)
كجَوْهَرٍ مختلِفٍ ألوانُه أسلمه سِلْكُ نظامٍ فانْتَثَرْ(٢)
كأنَّ نَوْرَ الباقِلاَءِ إذْ بدا لناظِريه أعينٌ فيها حَوَرْ(٣)
كمثلِ ألْحاظِ اليَعافِيرِ إذا رَوَّعها من قانصٍ فَرْطُ الحذرْ(٤)
كأنّه مَداهنٌ من فضةٍ أوْساطُها بها من المِسْكِ أثر(٥)
كأنها سَوَالفٌ من خُرَّدٍ قد زيّنتْ بياضَها سُودُ الطُّرَر(٦)
وانظُرْ إلى الأطْيارِ في أرجائه إذا دَعَا الثَّاكلُ منها وصَفَر(٧)
كأنها تَصْفِرُ في رياضِها سِرْبُ قِيانٍ فوق بُسْطٍ مِنْ حِبَرْ(٨)
فانْهَضْ إلى اللّهوِ ولذّاتِ الصِّبَا لامَكَ مَنْ يَعْذِلُ فيها أو عَذَر

(١) هذا البيت والذى بعده موجودان فى نهاية الأرب ١١ : ٢٧١ ، وحسن المحاضرة ٢ : ٢٩٣ ومباهج الفكر ٤٣٥ وروته : انظر ، بدون واو . والمنثور : نبات جميل طيب الرائحة ، وساقه متينة تقرب من أن تكون خشبية مبيضة ، وتخرج منها جملة أغصان ، وأوراقه سهمية ، فيها بعض ضيق ، وله زهر مختلف ، بعضه أبيض وبعضه أصفر . ويرنو : يديم النظر والطرف ساكن ، وفى حسن المحاضرة : يدنو .

(٢) أسلمه : خذله ، يريد انقطع .

(٣) هذا البيت واثنان بعده فى نهاية الأرب ١١ : ٢٢ ، وكلها مع رابعها فى حسن المحاضرة ٢ : ٣٠٥ ومباهج الفكر ٢٩٣ والنَّوْر : الزهر الأبيض . وفى النهاية : ورد الباقلاء . والباقلاء : الفول ، ورواية البيت فى حسن المحاضرة :

ولاح نور الباقلاء ناضراً عن مقلة تفتح جفنا عن حور

ورواية مباهج الفكر مثل رواية حسن المحاضرة مع تغيير نور بورد . ونسب النويرى (١١ : ٢١٠) هذا البيت وحده إلى كشاجم .

(٤) اليعافير . الظباء التى لونها كلون التراب ، أو هى أولاد البقر الوحشى ، واحدها : يعفور . والقانص : الصائد . والبيت محرف فى حسن المحاضرة .

(٥) رواية البيت فى حسن المحاضرة :

كأنها مداهن من فضة مجلوة فيها من المسك أثر

وتتفق معها رواية مباهج الفكر ، مع تغيير «مجلوة» بكلمة «يجلوه» .

(٦) اتفقت الروايتان هنا على لفظ « كأنها » مما يرجحه فى البيت السابق ، ليتسق الكلام كله ، ويريد بها نور الباقلاء . والسوالف : جمع - سالفة وهى صفحة العنق عند معلق القرط . والخرد جمع خريدة وهى البكر لم تمس أو الخفرة الطويلة السكوت الخفيضة الصوت . والطرر : جمع طرة ، وهى ما تقطعه الجارية فى مقدم ناصيتها . والرواية فى حسن المحاضرة : زينت سوادها . تحريف .

(٧) الثاكل : من فقد ولداً أو عزيزاً عليه . وصفر : صوّت .

(٨) السرب : الجماعة .

فقلّما يُغنيك من يعذل فيـ ـما تشتهى حتى تواريكَ الحُفَر
فكيفَ هجرانُ اللذاذاتِ ولمْ يَبْدُ نهارُ الشَّيبِ فى ليلِ الشَّعَر ؟
والنُّسْكُ فى عَصْرِ الصِّبا كأنّه من قُبْحِهِ خَلْعُ عِذارٍ فى الكِبَر
يا لائمًا يَعْذِلُنى فى طَرَبِى حَسْبُك قد أكثَرْت من هذا الهَذَر(١)
أعرِفُ فضلَ العقلِ إلا أنّه لعَيْشٍ مَنْ آثَره عَيْنُ الكَدَر
الجَهلُ يَنْبوعُ مَسرَّاتِ الفَتَى والعَقلُ يَنبوعُ الهُمُومِ والفِكر
فاجْسُرْ عَلَى مَا تَشْتهى جَهالَةً مَا فازَ باللَّذَّاتِ إلاَّ مَن جَسَر(٢)
واشْرَبْ عُقَارًا لَوْ أصابَت حَجَراً لَطَارَ مِن خِفَّتِهِ ذَاكَ الحَجَر(٣)
عَدُوَّةَ الحُزْنِ الذى ما ظفرتْ قَطُّ به إلا أساءَتْ فى الظَّفَر
لو رامَ أنْ تُجِيرَهُ من كَيْدِهَا صَرفُ الزَّمانِ الحتمُ يومًا ما قَدَر(٤)
أرَقَّهَا الدهرُ إلَى أنْ شاكَلتْ من رِقَّةِ شِعْرَ جميلٍ وعُمَر(٥)

---

(١) الهذر : سقط الكلام ، أو الكلام الكثير فى خطأ .

(٢) أخذ قوله هذا من سلم الخاسر الذى قال :

من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللذة الجسور

وكان سلم قد أخذ من قول بشار بن برد :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

(٣) وهذا البيت أيضا ينظر فيه إلى قول أبى نواس :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها إن مسها حجر مسته سراء

(٤) صرف الزمان : حوادثه . وفى بعض نسخ اليتيمة لو رام أن يخفره .

(٥) يريد جميل بثينة وعمر بن أبى ربيعة شاعرى الغزل .

خَفِيَّةَ الْحِيلَةِ فِى جِسمِ الفتى ... تُحدِثُ فى الْجِسم دبيبًا وَخَدَرْ(١)
كأنَّما الأَوطَارُ فيها جُمِّعتْ ... فَلَيس فى العيشِ لجافيها وَطَر(٢)
لاسيّما من كَفّ ظَبْيٍ لم يُشَنْ ... بفَرْطِ طُولٍ لا ولا فَرْطِ قِصَر
له سهامٌ من لِحَاظٍ صُيَّبٍ ... يَرْمِينَ عن قوسِ الْقَدَر(٣)
مُزَنَّرٍ شككنى فى دينه ... حتى أحلْتُ الكُفْرَ فيمن قد كَفَر(٤)
لأنّه كالْحُورِ فى تصْويرِه ... وَالْحُورُ لا يُسْكِنُها اللَّهُ سَقَر(٥)
لو لم يكن زُنَّارُهُ فى وَسْطِه ... يُمْسِكُ ضَعْفَ الْخَصْرِ منه لانْبَتَر(٦)
وبان منه نِصفُه عن نصفِه ... لكنَّه جاءَ له على قَدَر(٧)
إن قلتُ : يَحكى قمرا عنَّفَنى ... عَقْلٌ له أعْدَمُه عند القَمَر(٨)
أنَّى يُوَازِيه وَهَذَا نَاطِقٌ ... وَذَاكَ إنْ خُوطِبَ لم يَنْطِقْ حَصَرْ؟!(٩)
يالَكَ منه مَنْظَرًا أشْهَى إلَى ... قلبَى من جَنَّةِ عَدْنٍ أو أسَرّ
ياطِيبَ ذِى الدُّنيَا لَنا مَنْزِلَةً ... لو لم نَكُنْ نُزْعَجُ منها بسَفَر

---

(١) الدبيب : الزحف . الخدر : الفتور .

(٢) الأوطار : الحاجات ، جمع وطر . وجافيها : المبتعد عنها .

(٣) الصيب : التى تصيب الهدف دائما ، جمع صائب .

(٤) المزنر : الذى يلبس الزنار ، وهو الحزام ، وأحلت : غيرت اعتقادى فى كفر الكفار .

(٥) الحور : النساء ذوات العيون الحوراء ، أى الشديدة البياض والسواد ، واشتهر إطلاقها على نساء الجنة .
وسقر : النار .

(٦) انبتر : انقطع .

(٧) جاء له على قدر : أى فى وقته المناسب .

(٨) يحكى : يشابه . وأعدمه : لا أجده .

(٩) يوازيه : يعادله . والحصر : العى وعدم القدرة على الكلام أو عدم الفصاحة .

- ٤ -

فحم مشتعل(١) :

فَــحْمٌ شَــبَّـــهُ الْـغُــلامُ وَأَدْلَى ... فى كَــوَانِينِه حَــيَــاةَ الـنُّفُــوس(٢)
كــانَ كــالآبنُوسِ غَــيْــرَ مُــحلًّى ... فَــغَــدَاَ وَهْو مُــذْهَــبُ الآبنُوس(٣)
لُقِّــىَ النَّــارَ فى ثِـيَـــابِ حِـــدَادِ ... فكَسَــتْـهُ مُـصَـبَّـغَــاتِ عَـرُوسِ(٤)

- ٥ -

الحماحم(٥) :

هَـذَا الْحَــمَـــاحِمُ زَهْـرٌ ... فـيــهِ حَـيَــاةُ النُفُــوسِ
كـأَنَّـه حين يَـبْــدُو ... بُــرَادَةُ الآبُـنُــوسِ

- ٦ -

تباشير الصباح(٦) :

غَــرَّدَ الـطَّيْــرُ فَنَبِّــهْ مَنْ نَـعَسْ ... وَأَدِرْ كـأْسَكَ ، فَــالْعَيْشُ خُلَسْ(٧)
سلَّ سَيفُ الفـجـرِ مِن غِـمْـدِ الدُّجَى ... وَتَعَـرَّى الصُّبحُ مِـن قُـمْصِ الْغَلَسْ(٨)
وَبَدَا فـى حُلَـلٍ فـضِّـيـةٍ ... نَالَـهـاَ من ظلـمـة الليـل دَنَسْ(٩)
فَــاسْـقِنِى من قَــهْـوَةٍ مِـسْكِيَّـةٍ ... فـى رِيَاضٍ عَـنْبَـرِيَّاتِ الـنَّفَـسْ

---

(١) مصادرها : يتيمة الدهر ١ : ٣٤٣ .
(٢) شَبَّ : أوقده . وأدلى : أنزل . والكوانين : جمع كانون ، وهو الموقد .
(٣) محلى : مزين .
(٤) المصبغات : الملابس ذات الألوان والأصباغ المختلفة .
(٥) مصادرها : حسن المحاضرة ٢ : ٢٩٢ . ومباهج الفكر ٤٣٢ .
والحماحم : الريحان النبطى ، وهو عريض الورق .
(٦) مصادرها : نثار الأزهار ٤٨ .والأبيات الثلاثة الأولى فى نهاية الأرب ١:١٤٤ وحلبة الكميت ، الورقة ١٩٩ .
(٧) فى الحلبة : غرد القمرى . والخلس : فرص تختلس ، جمع خلسة .
(٨) الدجى : الظلام . وقمص : جمع قميص . والغلس : ظلمة آخر الليل .
(٩) رواية البيت فى نهاية الأرب :

وانجلى فـى حلة فـضـيـة ... مـا بهـا من ظلـمـة الليـل دنس

- ٧ -

حبيب بخيل[1] :

قــد رَضِــينَا من الـغَـزالِ الْكحِـيلِ ... بغَــرُورِ الـعِــدَاتِ والتَّــعْلِـيل[2]
وَهجَــــرنَــا ســـواهُ وَهــو مُنِـيلٌ ... وَهَوِيـنَاهُ وَهْــوَ غَـــيْـــرُ مُنِيلِ[3]
فكَثــيـرُ البَـغِـيضِ غـيـر كَـثِـيرِ ... وَقَلِيلُ الْحَبِـــيبِ غَــيْـرُ قَلِـيلِ
ياعَـذُولـى زعـمتَ صَـبْـرِى صَـوَابًا ... وَطَرِيقَ الصَّواب غـيـرَ مُـخِـيلِ[4]
هلك الـعَـزْمُ بين شَـوقٍ صَـحِـيح ... أنَا فـيـــه وبَين صَـبْـــرٍ عَلِـيل
لا تعِبْ مَنْ هَوِيتُ بالْبُـــخْـلِ إنى ... لا أُحِبُّ الْحَبِـــيبَ غَـيْـرَ بَخِـيلِ
يَجْــمُلُ الْبُـخْلُ بالْـمِـلاَحِ وإن كـا ... ن بغَـيـرِ الْمِــلاَحِ غـيـرَ جـمـيل
كُلُّ مـن سَـرَّهُ حَــبِــيبٌ جَـوَادٌ ... فلْتَطِبْ نـفْـسُـه بقَـرْنٍ طَـويلِ

- ٨ -

اعظم أمانىّ الشاعر[5] :

أسْنَى الأمــانِـى كـلُّهــا ... وأَجَـلُّ مِنْهــا مــا يُنَـالْ
كــأسٌ وَمُــسْــمِــعَـــةٌ وإخْـ ... ـوَانٌ تُحَــادِثُـهمْ ومَـــالْ[6]

---

(١) مصادرها : يتيمة الدهر ١ : ٣٣٦ .

(٢) الكحل : الأسود منابت شعر الجفون ، كأنه يضع عليها الكحل . والغرور : الخادع . والعدات : الوعود . التعليل : التلهى وشغل النفس .

(٣) المنيل : المعطى .

(٤) المخيل : الذى ينتظر منه الخير .

(٥) مصادرها : يتيمة الدهر ١ : ٣٤٠ .

(٦) المسمعة : المغنية .

أبو الفرج الببغاء (ت ٣٩٨ هـ)

هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومى .

لقب بالببغاء للثغة في لسانه . وقد ولد فى نصيبين ، ولم يحدد الذين أرخوا لحياته عام ولادته وإن كان جامع شعره يرجح أنه عام ٣١٤ ، وقد اتصل فى مطلع شبابه بسيف الدولة الحمدانى وأصبح من شعرائه ، وصارت حلب مستقره الأساسى حتى توفى سيف الدولة عام ٣٥٦ فغادر أبو الفرج حلب ، وتنقل ما بين الموصل وبغداد ينادم بهما الملوك والرؤساء ، وكانت له فيهما مساجلات مع الشعراء والكتاب وخاصة أبو اسحاق الصابى ، وقد عمّر الببغاء طويلا وتوفى عام ٣٩٨ هـ .

وديوان الببغاء مفقود ولكن شعره جمع حديثا ونشر بعنوان شعر الببغاء كما أن للببغاء مجموعة من الرسائل والمساجلات النثرية المتناثرة فى كتب الأدب .

قال في أبي محمد جعفر بن محمد بن ورقاء :

جـاد رَبعًا حللتـه ياهُمـام ... من ندى كـفِّكَ العـزيز رِهام (١)
فـقـبيحٌ إن استـزدتُ له صَوْ ... بَ غـمـامٍ وأنت فـيـه غـمـامُ
مـا بأرضٍ لم تَبْدُ فـيـهـا صبـاحٌ ... مـا بدارٍ حللتَ فـيـهـا ظلامُ
وإذا مـا حللـت فى بلد فـهـ ... ـو جـمـيع الدنيـا وأنتـا الأنامُ
سـؤدد عنده التـفـاخـرُ ذلٌ ... وندًى عنده الكرامُ لئـامُ (٢)
وسـجـايا كـأنهـا الروض ، إلاّ ... أنهـا للعـدوِّ مـوتٌ زؤامُ (٣)
أنـتـمُ أنـفُسُ الـنـاس يـا بـنـى ور ... قـاءَ والناسَ كلهم أجـسـام
سَـخِط المالُ من أكُـفكُم مـا ... حَـمَـدتْهُ السيـوفُ والأقـلامُ (٤)

وقال يشكو ويفتخر :

صَـحْبتُ الدَّهْرَ في سَـهْلٍ وَحَـزْن ... وجـرَّبتُ الأمـورَ وجـرَّبَتْني (٥)
فلم أرَ مُـذْ عَـرفْتُ مـحَلَّ نفـسى ... بلوغَ غِنًى يسـاوى حـملَ مَنٍّ (٦)
ولـم تَتَـضَـمنَّ الدنيـا لحظِّى ... منالَ مَـسَـرَّةٍ إلا بحُـزْنِ (٧)

---

(١) الربع : الدار والمكان ، الرهام : جمع رهمة : المطر الخفيف الدائم .
(٢) الندى : الجود والخير .
(٣) الزؤام : السريع – الكريه .
(٤) سخط : أغضب .
(٥) السهل : الأرض المنبسطة ، والحزن : الأرض الغليظة الصعبة ، والمراد هنا اليسر والعسر .
(٦) المنّ : التذكير بالنعمة والفضل للتكدير .
(٧) منال : نيل .

حملتُ على السّوابقِ ثِقْلَ هَمّى ... وشاهدتُ العواقبَ صفْو ذهنى (١)
وشِمْتُ بوارق الآمالِ دهراً ... فَلَمْ أظْفَر على ظمأ بمُزْن (٢)
ولم أرَ كالجياد أصحَّ وُدّاً ... إذا عدلَ الوَدُودُ إلى التَّظَنِّى (٣)
نُكَلِّفُها عزائمنا فَتكْفى ... ونستدنى الْحُظُوظَ بها فتُدْنى (٤)
وَهَبْتُ لمثل قِطْعِ اللّيْلِ منها ... أغرَّ كمثل ضوءِ الصُّبح منّى (٥)
وكنتُ بحيث ظنٌّ من اعتزام ... وكان من المضاء بحيث ظَنِّى (٦)
وثالثُنا ابنُ جِدٍّ لايَرى أنْ ... يصاحبَ فى تصرُّفه ابنَ وهنِ (٧)
حَجبْتُ لجَفْنه الأبصارَ عنْه ... ومَن لى أن يكونَ الْجَفْنُ جَفْنى
سَقَيْتُ نداى ما أسنى محلّى ... وأرفَعَ همَّتى ، وأعزَّ رُكْنى (٨)
رَسا فى تُرْبة العلياءِ أصلى ... وأيْنعَ فى بُرُوجِ العزِّ غُصْنى
وليس علىَّ غيرُ الجدِّ فيما ... سعيتُ له لأسْتَغْنى وأغنى
فإن أُحْرم فلم أُحْرَمْ لعَجْزِ ... وإن أبلُغْ فَنَفْسى بلّغتنى

(١) السوابق : الخيل الأولى في السباق .
(٢) شام : نظر – والبوارق : جمع بارقة وهي فى الأصل السحابة ذات البرق .
(٣) التظنى : التفكير والتأمل وإعمال الظن .
(٤) استدنى الشيء : طلب دنوه واقترابه . أدناه : قرَّبه .
(٥) قطع الليل : الجزء من الليل . الأغر : السيد الشريف .
(٦) الاعتزام : العزيمة النافذة ، ومثلها المضاء .
(٧) ابن وهن : ابن ضعف .
(٨) ما أسنى محلى : ما أبهى نوره .

وقـــال :

ويومٍ كـــأن الدهرَ ســـامـــحنى به فـــصـــار اسـمـه مـــا بيننا هبـةَ الدهْر
جـرتْ فـيـه أفـراسُ الصِّبـا بارتيـاحنا إلى دْير مُـــرَّان المعظَّم والعُـــمْــر[١]
بحـيث هواء الغـُـوطتين مـعطِّر الـ نَســيـم بأنفــاسِ الرِّياحين والزّهْر [٢]
فـمن روضـةٍ بالحُـسْن تَرفـدُ روضـةً ومن نَهـرٍ بالفـيض يجرى الى نَهْـر[٣]
وفى الهـيكل المعْـمـور منه افـترعْتُـهـا وصـحْبى حَـلالاً بعد توفـيـة المهْـر[٤]
ونزَّهتُ عن غـيْــر الدنانيـرِ قـدْرَهـا فـمـا زلتُ منهـا أشربُ التِّبْـرَ بالتِّبر
وحلّ لنا مـا كـان منهـا مـحـرَّمـاً وهل يُحظرُ المحظورُ فى بلد الكُفْـر
فـــأَهْدَتْ لى والأيّامُ فـــيـــه مـــودّةً دعـتني فى سـتْرٍ فلبَّيْتُ فى سِـتْـرِ
أتى من شـريف الطَّبعِ أصـدق رغـبـة تخـاطبنى عن مـعْـدن النظْمِ والنثْـرِ
وكـــان جـــوابى طاعـــة لا مـــقـــالةً ومن ذا الذى لا يسـتـجيب إلى اليُـسْـر
فـلاقـيت ملء العـيْنِ نُبْـلاً وهمَّـةً مـحلّى السـجـايا بالطلاقـة والبـشْـر[٥]
وأحـشـمنى بالبـر حـتى ظننتـه يريدُ اختـداعى عن جنانى ولا أدرى[٦]
ونزَّهٍ عن غـيـر الصـفـاء اجـتـمـاعَنَا فكنت وإيّاه كـقـلبَـيْن فى صـدْرِ
وشـــاء الســـرورُ أن يلينا بثـــالث فـــلا طفنا بالبـــدْرِ أو بأخى البَـــدْرِ

---

(١) دير مُرّان : دير بالشام يشرف على رياض جميلة . والعُمْر : من معانيه المسجد والبيعة والكنيسة .
(٢) الغوطة : المكان الكثير الشجر والماء .
(٣) الفيض :الماء الكثير .
(٤) افترعها : أزال بكارتها ، ويقصد الخمر بمعنى أنه أراقها وسكبها فى الكؤوس .
(٥) السجايا : الطبائع والأخلاق .
(٦) اختداعى : خداعى .

بمعطى عيون ما اشتهت من جماله ومضنى قلوب بالتجنّب والهجر
جنينا جنيّ الورد في غير وقته وزَهَرَ الرُّبا من روض خدَّيه والثغر (١)
وقابلنا من شرابه بشمسين في جنحي دجى الليل والشَّعر
وغنّى فصار السمع كالطرف آخذاً بأوفر حظّ من محاسنه الزُّهرِ
وأمتعنا من وجنتيه بمثل ما تمزّج كفّاه من الماء والخمر
سرورٌ شكرنا منّة الصحو إذ دعا إليه ولم نشكر به منّة السُّكر (٢)
كأن الليالى نمن عنه فعندما تنبّهنّ نَكَّبْنَ الوفاء إلى الغدر (٣)
مضى وكأنى كنت فيه مهوّماً يحدّث عن طيف الخيال الذى يسرى (٤)
وهل يحصل الإنسان من كلّ ما به تسامحه الأيّام إلاّ على الذكر

وقال :

بالقفص للقصف منزل كَثَبُ ما للتصابى فى غيره أربُ (٥)
جادت به ديمة السرور وحلّ الـ لهو فيه وعرّس الطرب (٦)
دارت نجوم السرور في فلك منه له من فتوّني قطب (٧)
من كلّ جسم كأنّه عرض يكاد لُطْفاً باللحظ ينتهب (٨)
نور وإن لم يغب ووهم وإن صحّ وماء لو كان ينسكب
لا عيب فيه سوى إذاعته الـ ـسرّ الذى فى حشاه يحتجب
كأنما صاغه النفاق فما يخلص منه صدق ولا كذب
فهو إلى لون ما يجاوره على الطباع ينتسب

(١) جنيّ الورد : ما يجنى منه ويقطف .
(٢) المنّة : الفضل والمعروف .
(٣) نكّبن : تركن ومِلن .
(٤) هوّم : نام قليلا .
(٥) القفص : قرية كانت قريبة ببغداد ، وكانت تشتهر بمتنزهاتها وأماكن اللهو فيها . القصف : الإكثار من الشرب واللهو .
(٦) الديمة : المطر الذى يدور فى سكون . عرّس فى المكان : أقام فيه للاستراحة .
(٧) القطب : المحور الذى تدور حوله الأشياء .
(٨) العرَض : ما ليس بجسم .

إذا أدّعـــاه اللـجينُ أكْـــذَبَهُ بالراح في صبغ جـسمـه الذهبُ(١)
جلت عـــروس المدامِ حـــاليــة فـــيـــه علينا الأوتار والنخبُ(٢)
فـــالراح بدرٌ والجـــام هالتـــه والأفق كـــفي والأنجم الحـببُ(٣)
حـــال به الماءُ عن طبـيــعــتــه بالمزجِ حـــتى خلْنَاه يلتـــهِبُ
ونحن في مـــجلس تدير به إلى الـ خـــمـــرَ علينا الأقـــداحُ لا العُلَبُ
ينسـى بأوطانـه الحنـين إلى الـ أوطانِ من بالسـرور يغـتـرب
لولا حـفـاظي المشـهـور مـا أمنتُ من بعـد بغـداد سلوتي حلبُ(٤)

وقال ردا على أبي إسحاق الصابي في أرجوزة أرسلها إليه يصف فيها الببغاء :

مَنْ مُنْصـفي من مـحكم الكتـاب شـمسُ العلوم قَـمـرُ الآداب ؟
أضْـحَى لأوصـاف الكلام مُـحْـرزا وسَـــام أنْ يلْحَق لَمَّـــا برّزا (٥)
وهل يجـارى السـابق المقَـصـر ؟ أم هل يسـاوى المدرك المعـذّر ؟ (٦)
مـازال بي عن غَـرضٍ مُـعَـرِّضـاً ولي بما يصـدره مـسـتنهـضـا (٧)
فـتـارة يعـتـمـد الخطّافـا ببِـدَعٍ تسْـتَـغْـرقُ الأوصَـافـا (٨)
وتـارة يعنـى بنعـتَ القــبـج من منطقٍ لفـضـله مـحـتـج (٩)
يحـوم حـولَ غَـرضٍ مـعلوم ومـقـصـد في شعْـره مـفـهـوم
حـتى تجلّت رغـوة الصـريح وسلم التلويح للتـصـريح(١٠)
وصحّ أن البـبـغـاءَ مـقْـصـدةُ بكل مـا كـانَ قـديماً يورده
فلم يدع لقـائلٍ مـقَـالا فـيـهـا ولا لخـاطرٍ مـجـالا

(١) اللجين : الفضية .
(٢) جلت العروس : عرضتها على زوجها مزينّة . النخب : الشراب .
(٣) الجام : الكأس .
(٤) الحفاظ : الوفاء والرعاية .
(٥) سام : كلّف .
(٦) المعذّر : المقصر .
(٧) معرضا : ملمحاً دون تصريح .
(٨) الخطاف : طائر أسود طويل الجناحين قصير الرجلين . البِدَع : جمع بدعة الأمور المستحدثة الطريفة .
(٩) القبج : الحجل ، وهو طائر في حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين .
(١٠) رغوة اللبن : ما عليه من زبد .

أهدى لهـا من كلّ نعْت أحْسَنَه وصـاغَ من حلى المعـاني أزْيَنَه
أحـالَ بالريشِ الأشيبِ الأخضـر وباحمـرارِ طوقهـا والمنسـر(١)
على اختـلاط الروضِ بالشـقيقِ وأخضـرِ الميناء بالعـقيق(٢)
تزهى بدوّاجٍ مَن الزمـرد ومُقلة كسبجٍ في عَسْجَد(٣)
وحسنِ منقـارٍ أشم قـانيِ كـأنّنا صيغ من المُرْجَـانَ(٤)
صيّرها انفرادَها في الحبسِ بنطْقها من فصحاء الإنْس
نميّزت فى الطيـرِ بالبيـانَ عَن كلّ مخلوقٍ سوى الإنسانَ
تحكى الذى تسمعه بلا كذبَ من غير تغيير لجدٍّ أو لعبَ
غذاؤها أزكى طعـام رغدا لا تشرب الماءَ ولاَ تخشى الصدا(٥)
ذاتُ شغًى تحسبه ياقوتا لا ترتضي غيرَ الأرزّ قوتا (٦)
كأنما الحبةُ فى منقارها حَبابة تطفو على عقارِها(٧)
إقدامها ببأسها الشديد أسْكَنَها فى قفص الحديد
فهى كخود فى لباسٍ أخضر تأوى إلى خركاهة لم تستتر (٨)
ووصفها المعجز مالا يُدْرَك ومثله فى غيْرها لا يُملَك
لو لم تكنْ لى لقباً لم أخْتَصر لكنْ خشيتُ أن يقالَ مُنْتَصر
وإنما تنعت باستحقاق لوصفها حذق أبى إسحاق(٩)
شرفها وزادَ فى تشْريفها بحكم أبْدَعَ فى تَفْويفها(١٠)
فكيف أجزى بالثناء المُنتخبِ مِنْ صرفَ المدحَ إلى اسمى واللقب

(١) الأشيب : الملتف المتشابك . المنسر : هو الطير الجارح بمثابة المنقار لغير الجارح .
(٢) الشقيق : نوع من الزهور أحمر . العقيق : حجر كريم أحمر .
(٣) الدواج : المعطف الغليظ . الزمرد : حجر كريم أخضر اللون . السبج : خرز أسود . العسجد : الذهب .
(٤) أشم : ذو أنفة . قان : شديد الحمرة .
(٥) الصدى : العطش الشديد .
(٦) الشغى : اعوجاج منسر الطائر .
(٧) حبابة : فقاعة .
(٨) الخود : الشابة الناعمة .
(٩) يقصد أبا إسحاق الصابي .
(١٠) تفويف : توشية وتخطيط .

بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨ هـ)

أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى

ولد بهمذان حوالى عام ٣٥٨ ، وغادرها إلى جُرْجَانَ عام ٣٨٠ حيث أقام بها حوالى عامين ارتحل بعدهما إلى نيسابور ، حيث بدأ ذكره يشيع وخاصة بعد المساجلات والمناظرات التى دارت بينه وبين أبى بكر الخوارزمى .

وبعد ذلك تنقل بين بلاد خراسان وسجستان وغزنة ، واتصل بالملوك والوزراء والأمراء ، واستقر به المقام أخيرا فى هراة حيث تزوج بها وعاش فيها إلى أن مات عام ٣٩٨ وهو فى سن الأربعين .

كان الهمذانى من الكتاب والشعراء المجيدين ، وقد اشتهر بقوة البديهة وحدة الحافظة ، وتروى عنه غرائب فى هذا المجال حيث كان يسمع القصيدة التى يزيد عدد أبياتها على الخمسين مرة واحدة فيحفظها كلها ويؤديها لايخرم منها حرفا وينظر نظرة واحدة خفيفة فى الأربعة والخمسة من أوراق الكتاب لم يعرفه أو يره من قبل ثم يسردها عن ظهر قلب ، كما كانت له قدرة بارعة على ارتجال الشعر فى شتى المواقف .

له ديوان شعر وكتاب رسائل بالإضافة إلى مقاماته الشهيرة ، وقد طبع كل من هذه الكتب أكثر من طبعة .

قال فى الرئيس ابى جعفر الميكالى:

أذهبِ الكأسَ فعُرْفُ الفجر قد كاد يلوح[١]
وهو للنَّاسِ صباحٌ ولذى الرأى صَبُوحُ[٢]
والذى يمرح بى في حَلْبَةِ اللّهو جموحُ[٣]
اسقِنيها والأمانىّ لها عَرْف يفوحُ[٤]
إن فى الأيام أسراراً بها سوف تبوحُ
لايغرنَّك جسم صادق الحسن وروح
فاسقنيها مثلما يلفظه الديك الذّبيْحُ
هكذا الدنيا فسيحوا ووقعنا لاتصيحوا
إنما الدهر عدوّ ولمن أصغى نصيح
ولسان الدهر بالوعظ لواعيه فصيح
نستبيح الدهر والأيام منا تستبيح

---

(١) أذهبْ : أبعده وأزل . العرف : من معانية ما ارتفع من رمل ونحوه .
(٢) الصَّبوح : ما يشرب أو يؤكل صباحا .
(٣) الحلبة : مكان السباق ، والخيل التي تجتمع فيه للسباق .
(٤) العرف : الرائحة وخاصة الرائحة الطيبة . يفوح : ينتشر .

نحن لاهون وآجال المنى لاتستريحُ
ياغلامُ الكاسَ فاليأسُ من الناس مريحُ
أنا يادهر بأبنائك شِقٌّ وسطيحُ(٥)
وبأبكار القوافى لاعلى كُفْءٍ شحيحُ
يابنى ميكال والجودُ لعلاَّتى مُزيحُ(٦)
شرفاً إن مجال الفضلِ فيكم لفسيحُ
وعلى قدر سنا الممدوح يأتيك المديحُ
فهناك الشرف الأرفع والطَّرْف الطَّموحُ
والنَدىَ والخُلُقُ الطاهر والوجه الصَّبِيْحُ

٥) شق وسطيح : من كهان العرب فى الجاهلية ، وتروى حولهما أساطير كثيرة .
٦) العلاَّت : المعاذير ، والأحداث الصارفة .

عندما يجيء الشاب بليلاً !

حديقة الجو غُضّي هذه الحدقا ... يا ويح طرفك ما أغرى به الأرقا[١]
غوري لطيبة الأردان تمطلني ... مطل الغني حياء منك أو فَرقَا[٢]
يا قرة العين ما هذا الشماس فقد ... حسنت خلْقاً فهلاّ مثله خُلُقا[٣]
تَصرّمُ الليل إلا معتلي نفس ... هلا قضيناه تقبيلاً ومعتنقا[٤]
والليل منسدل الأعراف منتظم الأ ... طراف محتمل الأعطاف ما وسقا[٥]
بَحْر ولكنه طاف جواهره ... طام علينا ولكن نأمن الغرقا[٦]
كأنما البدر معشوق وقد نثرت ... يد الثريا عليه العين والورِقا[٧]
نفسي فداؤك من ليل على قمر ... على قضيب منثال حقف نقا[٨]
فرب آهة وجد لو لفحت بها ... إلى الحديد غداة البين لانفلقا
وزفرة يوم ساروا لو دلفت بها ... إلى المودّع قيد الرمح لاحترقا
أتبعتها زفرات بعد ما ظعنوا ... فهن يغمرن في أجفاني الطرقا
أللحبيبة أمشي وهي ظاعنة ... أم للشبيبة أَنْضو بُردها خلَقا[٩]

---

(١) الحدق : جمع حدقة ، وهي سواد العين .
(٢) الأردان : جمع ردن ، وهو الكمّ ، والفرق : الخوف.
(٣) الشماس : الإباء والنفور .
(٤) تصرم الليل : انقضى .
(٥) الأعراف : جمع عرف ، وأصله الشعر الثابت في رقبة الحصان ، والمراد هنا الأشعار ، والأعطاف : جمع عطف ، وهو الجانب . ووسق : جمع وحمل .
(٦) طام : ممتلىء .
(٧) العين : الذهب ، أو النقود الذهبية ، الورق : الفضة .
(٨) المنثال : المنهال المنصبُّ . الحقف : المحدودب . النقا : المحدودب من الرمل .
(٩) ظاعنة : راحلة . أنضوا : أخلع . البرد : الثوب المخطط . الخلق : البالي .

جـاء الشـبـاب بليل لم يكن ظلمـاً وأطلع الشيب صبحاً لم يكن فلقا[١]
هو الزمـــان أتى إلا على رمـــقى وقـد تطاول يبـغى ذلك الرمـقـا[٢]
وهمـة فى المعـالى قـد سبحت لهـا على المكاره من أذيالهـا سَـرقَـا[٣]
أمطت عنهـا لثـام الشك مـعـتـرفـاً ونطتـهـا بسـواد الليل منفلقـا[٤]
فلم أقل لهـمـوم النفس قـد كـذبت ولم أقل للسـان الفـجـر قـد صدقـا
ولم يُرعنى طْرف البـيـد مطّرفـاً ولا ثنانى طَرْفُ الليل منطبـقـا[٥]
ومـا شـربت بكاس العـز مـصطبـحـاً حتى تجشمت ورد الليل مغتبقا[٦]
ولم أبت بيـد الحسناء مـعـتـصـمـا حتى ظللت بعرف الليل مغتبقا[٧]
ولا أبيت الحشـايا مـا حـيـيت فـقـد هجعت فى صهوات الخيل مَرْتفقا[٨]
فليـهننى المجـد مـرفـوعـاً دعـائمـه فـقـد تصبب فـيـه سـالفى عـرقـا
ولتـهننى الحضـرة الشـمـاء أخدُمـهـا فـقـد سريت إليـهـا الوخـد والعنقا[٩]
ولتـهـن شـمـس المعـالى أنك ابنُ أب ورثتـه خَـرَزاتِ الملك والخـرقـا[١٠]
يا ملء عطف الليـالى أنت من ملِك وملء عين المعـالى منظراً أنقـا[١١]
صغ المجـرة طوقـاً والسـهـا شنفـاً لما ركضت فقد أعيا وقد سبقا[١٢]

(١) الفلق : الصبح ، والمراد هنا الصبح الحقيقى .
(٢) الرمق : بقية الحياة .
(٣) السَّرق : جمع سرَقة ، وهى الشقة من الحرير .
(٤) أماط : أزال . ناط : علّق .
(٥) الطّرْف : العين . مطّرفا : ناظرا : ثنانى : ردنى ومنعنى .
(٦) مصطبحاً : شاربا فى الصباح . تجشمت : تحملت . (٧) مغتبقا : شاربا فى المساء .
(٨) الحشايا : الفرش المحشوة هجع : نام . الصهوة : مقعد الفارس من الفرس مرتفقا : متكئا .
(٩) الحضرة الشماء : المكانة العالية . الوخد والعنق : نوعان من السير السريع .
(١٠) خرزات الملك : جواهر التاج .
(١١) أنقاً : حسنا معجبا .
(١٢) المجرة : مجموعة نجوم متقاربة . السها : كوكب يرى بصعوبة لبعده . الشنف : القرط ونحوه .

واجعل له فلك الجوزاء مرتبَطاً وأجره فوق قرن المشترى طلقا (١)
واحلل عن الملك شداً أنت عاقده على مطامح نفس تملأ الأفقا
بهمة تطأ الجوزاء مفتَرَعا وعزمة تسعَ الدَّهْناء مخترقا(٢)
ثم ابنِ فوق الطبقا الخضر من شرَفٍ يفرخ الدهر فى أظلالها طبقا
يا من روى لِىَ من أخباره سِيَراً وناط بالشمس من آثاره أفقا
لو أنها شجر لادّاركت زهراً واسّاقطت ثمراً واثّاقلت ورقا(٣)
فانهض إلى الملك طلاّباً إليه يداً واتلع إلى المجد طلاعاً له عنقا(٤)
يا عائف الوِرْد لم تعذب موارده فإن وردت فلا طرقاً ولا رنقا(٥)
وتارك الأمر غير الحلم رائده فإن تردْه فلا طيْشاً ولا نَزَقا
للّه أنت وأمر أنت بالغه وبالْحَرَى فى المنى باللّه أن تثقا
للّه مكنون سر أنت بالغه يوماً أغر يناجى صبحه فلقا
ليدنِىَ اللّه أمراً ظل مبتعداً ويفتح اللّه باباً بات منغلقا
كأننى بين أيام وقد كشفت غطاءه ولسان الدهر قد نطقا

---

(١) الجوزاء : برج فى السماء . المشترى : كوكب .
(٢) مفترعا : منطلقا ومبتدأ . الدهناء : الفلاة .
(٣) ادّاركت : تلاحقت .
(٤) اتلع : مدّ عنقه .
(٥) عاف : كره . الماء الطرق : الذى خوضت فيه الإبل حتى كدرته . الرنق : الكثير .

كَرْمٌ وخَمْرٌ

ومـضطغن على الألبـاب قـاس يرى ويقـول بالرأى القـديم(١)
يحدّث عن أب فأب مجوس إلى هابيل كـالليل البـهيم
أبوه أخـوه وهو أخـو بنيـه ولا السّـيْـرانِ قـدّاً من أديم(٢)
له فى النور والظلمـات عـقـد بطئ الحـل ممنوع الأديم(٣)
تخـيـر من أديم الحـزن أرضـاً عـذاة التـرب طيـبة الأروم(٤)
وعَـرَّش فـوقنا فـالطرف فيـها يسيـر على صـراط مسـتقيم(٥)
وحـصّنها بعيـدان طـوال وزينهـا بقـضـبـان الكروم
وحـاز لهـا من الأنهـار فحلاً فـأهداها إلى كـفـؤ كـريم
فـأولدها بنين ولم تخنه ورُبَّتَ لائم فـيـهـا مليم(٦)
وأقـبل ربهـا يسـعى إليـهـا ضحى فى سمت لقمان الحكيم(٧)
فـأبصـر غِلمـة كـالصـبح بيضـاً لهن وغِلمـة مثل الصريم(٨)

---

(١) مضطغن : حاقد
(٢) السيّران : الشريطان من الجلد . قُدًّا : قطعا . الأديم : الجلد المدبوغ .
(٣) الأديم : الضحي
(٤) الحزن : الأرض الخشنة الصعبة . عذاة : طيبة . الأروم : الأصل .
(٥) عرَّش : رفع الكروم على قضبان من الخشب .
(٦) مليم : ملوم .
(٧) السمت : الهيئة .
(٨) غلمة : صبية (جمع غلام) . الصريم : الليل ، أو القطعة منه .

فصعر خده غضباً عليها وزناها ببهتان عظيم[١]
وقال أغلمة سود وبيض لفحل واحد يا للزنيم[٢]
أجابته الكروم وقلن كلا ولكن صنع ذى العرش العظيم
قضى بسواد ذا وبياض هذا كما ولد الصبيح من الدميم
فقال جزى العواهر ما جزاها وسمن كل جانية ظلوم
ألم ترضين أن تزنين حتى تَماريتُن فى علم النجوم[٣]
وجرَّد مدية كالماء أبقت على أوداجها أثر الكلوم[٤]
فما أرعى على أم ثكول ولا أبقى على ولد يتيم[٥]
وجاء بهن أمثال السبايا على لونين من حبش وروم[٦]
فداس بطونهن بِرَكْل علج أشق كظل شيطان رجيم[٧]
فسالت بالدم الأنهار حتى تركن القاع أحمر كالأديم
ولما أن قضى الأوطار منها وميزت الدماء من اللحوم
أشار بحبسها لتزيد غماً على ما حُمِّلَتْه من الغموم

(١) صعّر خده : أمال كبرا . زنّاها : رماها بالزنا . البهتان : الكذب والافتراء .
(٢) الزنيم : اللئيم ، الدعيّ .
(٣) تماري : تجادل .
(٤) الأوداج : جمع وَدَج وهو عرق فى العنق يقطعه الذابح .
(٥) أرعى : أبقي . الثكول : التى فقدت ولدها .
(٦) الحبش والروم : مقصود بهم السود والبيض .
(٧) الركل : الضرب برجل واحدة . العلج : الحمار ، والضخم القويّ من كفار العجم .

فـأودعـهـا من المغـشى سَـمُـومـاً تطابق تحت أعـراق النجـوم[١]
فـوافـاها مـن النجـدين شيخ ترى مـا لاَ ترى عين النديم[٢]
فقص عليه قصة ما أجابت وقـال ولم تدعـهـا كـالهـشيم
حلفت لنشـربن دم الزوانى ولنتـصـرنّ للدين القـدِيم
وفض الختم عن صافى الْحُمَيَّا ورد الطين فى دانى النسيم[٣]
ولمـا ذاقـهـا والطعم مـر وقـوس الظهـر ظاهرة الوضـوم[٤]
أعـادت سنِه جَـذَعـاً وردت ضـراءة ذلك العظيم الرمـيم[٥]
وجـازته عن السوءَى بحـسنى فـيـا لله لطبـع الكـريم
وفـتـيـان كـمـجـتـمع الثـريا على طرف من العيش الرخيم[٦]
يساقيهم من الفتيان أحوى غضيـ ـض الطرف ذو كـشح هضـيم[٧]
تنـادوا للمـدام وعنفـونى وقـالوا هاك حظك مـن نعـيم
فـقلت أخـاف عـقـبـاها ولكـن أشـيـعكم إلى بـاب الجـحـيم[٨]

(١) المغشى : اسم مكان من غشى بمعنى أتى أوغطّى . السموم : الريح الحارة .
(٢) النجدين : مثنى نجد وهو الطريق المرتفع . النديم : المجالس على الشراب .
(٣) الحميًا : الخمر ، أو سورتها .
(٤) الوضوم : التجمع والتقارب .
(٥) الجذع : الصغير السن . الضراءة : الولع والتعود . الرميم : البالى .
(٦) الرخيم : اللين السهل .
(٧) الأحوى : الذى فى شفته حمرة تميل إلى السواد . الكشح : ما بين السرة ووسط الظهر . الهضيم : النحيل .
(٨) شيعه : أوصله .

ابن فرج الجيّانى
(توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى)

أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج الجيّانى أديب شاعر معدود فى العلماء ، ألف كتاب « الحدائق » الذى جمع فيه اختياراته من الشعر الأندلسى ، وعارض به كتاب « الزهرة » لأبى بكر محمد بن داود بن على الإصبهانى ، غير أن صاحب الزهرة جعل كتابه على مائة باب فى كل باب مائة بيت ، وابن فرج أورد مائتى باب ، فى كل باب مائتا بيت ليس منها باب تكرر اسمه لابن داود ، ولم يورد فيه شعراً لغير الأندلسيين ، فجملة ما فيه من شعر يبلغ أربعين ألف بيت ، وأثنى ابن حزم على الكتاب فقال : وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد فبلغ الغاية . ولابن فرج شعر كثير لم تبق منه إلا مقطوعات قليلة ، ولسنا نعرف الكثير عن حياته ، ولكن المؤكد أنه عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع ، وكان الحكم المستنصر (الذى ولى الخلافة بين سنتى ٣٠٠ ، ٣٦٦) قد سجنه لسبب غير معروف ، وله فى السجن أشعار كثيرة . ويقال إنه توفى فى سجنه قريباً من سنة ٤٠٠ هـ .

في الغزل :

وطائعة الوصال عففت عنها ... وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فباتت ... دياجي الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها ... إلى فتن القلوب لها دواعي
فملكت النهى جمحات شوقي ... لأجري في العفاف على طباعي
وبت بها مبيت الطفل يظما ... فيمنعه الفطام من الرضاع
كذاك الروض ما فيه لمثلي ... سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات ... فأتخذ الرياض من المراعي

الشـريف الطليـق

(٣٤٧ - ٤٤٠ هـ تقريبا)

أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله هو ابن حفيد الخليفة الأندلسى عبد الرحمن بن محمد الناصر ، ولهذا عرف بالشريف المروانى . أما لقب الطليق فسببه أنه سجن فبقى فى سجنه ستة عشر عاماً ثم أطلق فعاش بعد ذلك ستة عشر عاماً أخرى حتى وفاته قرب سنة ٤٠٠ هـ . وسبب سجنه فيما يذكر مترجموه هو أنه كان يحب جارية نشأت معه فى بيتهم وكان يظن أنها ستكون من نصيبه ولكن أباه استأثر بها دونه ، فداخلته غيرة شديدة فأقدم على قتل أبيه ، وأخذ بجريمته فسجن وقضى فى سجنه المدة التى ذكرناها . ويقال إنه ارتكب جريمته وعمره ستة عشر عاماً ، ولعل مترجمي سيرته ذكروا ذلك من باب الإطراف حتى تتوزع حياته على ثلاث مراحل كل مرحلة منها ست عشرة سنة . ويبدو أنه اجتمع فى سجن المطبق بقرطبة مع عدد من الأدباء كان يأخذ عنهم ويستمد منهم حتى برع في الأدب والشعر . ويصفه ابن حزم بأنه « من الشعراء المفلقين المحسنين » ويشبهه بابن المعتز فى بنى العباس « ملاحة شعر وحسن تشبيه » وكان كثير الشعر ، غير أنه لم يبق من شعره إلا مقطوعات قليلة ، ومنه قصيدة قافية طويلة احتفظت لنا المصادر منها ببقية صالحة ، نراه يعالج فيها موضوعات عديدة منها وصف الساقي ومجلس شراب وتصوير يوم عاصف ممطر أعقبه صحو أبرز جمال الأزهار ، وختم القصيدة بالفخر بنفسه وبقومه .

المصادر : نفح الطيب للمقرى ١٩٧/٣ ، ٣٨٨ - ٣٨٩ ، ٥٨٦ ، الحلة السيراء لابن الأبار ٢٢٠/١ - ٢٢٥ ، جذوة المقتبس للحميدى ص ٣٢٢ وتوجد كاملة في كتاب مع شعراء الأندلس والمتنبى ، لغرسية غومث ترجمة د . الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة .

في النسيب :

غصن يهتز في رعص نقا ... يجتني منه فؤادي حرقا
باسم عن عقد در خلته ... سلبته لثتاه العنقا
سال لام الصدغ في صفحته ... سيلان التبر وافى الورقا
فتناهى الحسن فيه إنما ... يحسن الغصن إذا ما أورقا
رق منه الخصر حتى خلته ... من نحول شفه قد عشقا
وكأن الردف قد تيمه ... فغدا فيه معنًّى قلقا
ناحلاً جاور منه ناعماً ... كحبيبي ظل لي معتنقا
عجباً إذ أشبهانا كيف لم ... يحدث هجراً ولم يفترقا

في وصف الخمر :

رب كأس قد كست جنح الدجى ... ثوب نور من سناها أشرقا
بت أسقيها رشاً في طرفه ... سنة تورث عيني أرقا
خفيت للعين حتى خلتها ... تتقي من لحظه ما يتقي
أشرقت في ناصع من كفه ... كشعاع الشمس لاقى الفلقا
وكأن الكأس في أنمله ... صفرة النرجس تعلو الورقا
أصبحت شمساً وفوه مغرباً ... ويد الساقي المحيي مشرقا
فإذا ما غربت في فمه ... تركت في الخد منه شفقا

في يوم ممطر اعقبه صحو وتفتح ازهار في روض انيق :

وغـــمـــام هطل شـــؤبوبه ... نادم الروض فـــغنى وســـقى
فكأن الروض منه مطبق ... وكـــأن النصب جـــانٍ أطبـــقا
خلع البـــرق على أرجـــائه ... ثوب وشى منه لما برقـــا
وكـــأن العـــارض الجـــون به ... أدهم خلى عليـــه بلقـــا
وكـــأن الريح إذ هبت له ... طيـــرت فى الجـــو منه عـقـعـقـا
فى ليـال ضل سارى نجمـهـا ... حـــائراً لايســتبين الطرقـــا
أوقد البرق لهـا مصبـاحـه ... فـانثنى وجـه دجـاها مشـرقـا
وشـدا الرعـد حنيناً فجـرت ... أكـــؤس المزن عليـــه غـــدقـــا
وغـدت تجذبه الشـمس وقـد ... ألحـــفـــتـــه من سناها نمرقـــا
فكأن الشـمس تحيى نفسه ... غـرة المعشـوق تحيى الشيـقـا
وكـــأن الورد يعلوه الندى ... وجنة المحـبـوب تندى عـرقـا
يتـفـتـقـا عن بهـار فـاقع ... خلة بالورد يطوى ومـــقـــا
كـالمحـبين الوصـولين غـدا ... خـجـلا هـذا وهـذا فـرقـا
ورنت منه إلى شمس الضحى ... حـدق للنور تصـبى الحـدقـا
وكـــأن القطر لما جـــادها ... صـار فى الأوراق منهـا زئبـقـا

وفي الفخر:

من فتى مثلي لبأس وندى ومقال وفعال وتقى
شرفي نفسي وحليي أدبي وحسامي مقولي عند اللقا
ولساني عند من يخبره أفعوان ليس تثنيه الرقى
ويميني يمن عاف معسر جمعت حمداً غدا مفترقا
جدي الناصر للدين الذي فرقت كفاه عنه الفرقا
أشرف الأشراف نفساً وأباً حين يعلوه وأعلى مرتقى
أنا فخر العبشميين وبي جد من فخرهم ما أخلقا
أنا أكسو ما عفا من مجدهم بحلي رونق شعري رونقا

يوسف بن هارون الرمادى

(ت ٤٠٣ هـ)

أبو عمر يوسف بن هارون الكندى الرمادى ، ولد على ما يظهر فى العقد الثانى من القرن الرابع ، ومدح فى صباه المبكر أبا على القالى عند قدومه إلى الأندلس فى سنة ٣٣٠ ، وقرأ عليه كتابه الأمالي والنوادر ، وارتفع شأنه أيام الحكم المستنصر ، وله قصة حب مع جارية تدعى خلوة أوردها ابن حزم فى طوق الحمامة ، وبسببها توجه إلى سرقسطة حيث مدح واليها عبد الرحمن بن محمد التجيبى . ولما أمر الحكم المستنصر بإراقة الخمر فى كل جهات الأندلس أبدى أسفه لذلك وتوجع لشاربيها فى قصيدة مشهورة . ويبدو أنه اتهم بالتآمر على السلطان فى أيام الحكم فسجن هو وعدد من الأدباء وفى السجن وجه قصائد عدة للحكم يستعطفه . كما ألف كتابا سماه « كتاب الطير » وصف فيه كل طائر معروف وذكر خواصه وذيل كل قطعة بشعر على لسان الطائر فى مدح ولى العهد هشام بن الحكم . فأطلق سراحه بعد مدة وتنقل فى بعض أنحاء الأندلس وامتد عمره حتى توفى فى أثناء الفتنة سنة ٤٠٣ هـ . وشعره كثير متعدد الفنون ويتميز بالغوص على المعانى الغريبة ؛ الأمر الذى جعل شعره يبدو غامضا أحيانا بحيث لايدرك مقصوده لأول وهلة . وشارك الرمادى فى صنع الموشحات التى ابتكرها الأندلسيون .

قال حينما أمر الحكم المستنصر بإراقة الخمر وإحراق الحانات وهم بقطع شجرة الكرم متوجعاً للشاربين وذاكراً قصة الإمام أبي حنيفة وجاره الذي كان يشرب ويتغني كل ليلة :

بخطب الشاربين يضيق صدرى وترمضنى بليتهم لعمرى
وهل هم غير عشاق أصيبوا بفقد حبائب ومنوا بهجر
أعشاق المدامة إن جزعتم لفرقتها فليس مكان صبر
سعى طلابكم حتى أريقت دماء فوق وجه الأرض تجرى
تضوع عرفها شرقا وغربا وطبق أفق قرطبة بعطر
فقل للمسفحين لها بسفح وما سكنته من ظرف بكسر
وللأبواب إطراقا إلى أن تركتم أهلها سكان قفر
تحريتم بذاك العدل فيها بزعمكم فإن يك عن تحرى
فإن أبا حنيفة وهو عدلَ وفرعن القضاء مسير شهر
فقيه لايدانيه فقيه إذا جاء القياس أتى بدر
وكان من الصلاة طويل ليل يقطعه بلا تغميض شفر
وكان له من الشراب جار يواصل مغربا فيها بفجر
وكان إذا انتشى غنى بصوت الـ ـمضاع بسجنه من آل عمرو :
« أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر »
فغيب صوت ذاك الجار سجن ولم يكن الفقيه بذاك يدرى
فقال وقد مضى ليل وثان ولم يسمعه غنى : ليت شعرى
أجارى المؤنسى ليلاً غناءً لخير قطع ذلك أم لشر ؟

فقالوا : إنه في سجن عيسى أتاه به المحارس وهو يسرى
فنادى بالطويلة وهى مما يكون برأسه لجليل أمر
ويمم جاره عيسى بن موسى فلاقاه بإكرام وبر
فقال : سجنت لى جاراً يسمَّى بعمرو . قال : يطلق كل عمرو
بسجنى حين وافق اسم جار الـ فقيه ولو سجنتهم بوتر
فأطلقهم له عيسى جميعا لجار لايبيت بغير سكر
فإن أحببت قل لجوار جار وإن أحببت قل لطلاب أجر
فإن أبا حنيفة لم يؤب من تطلبه تخلصه بوزر
نواقعها من أجل النهى سرا وكم نهى نواقعه بجهر

ابن نباتة السعدى (ت ٤٠٥ هـ)

أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نباتة ينتهى نسبه إلى تميم بن مر التميمى السعدى ، أحد الشعراء المجيدين في القرن الرابع الهجرى ولد سنة ٣٢٧ وتوفى ببغداد سنة ٤٠٥ هـ وشعره يجمع بين جودة المعنى وحسن النظم .كان شاعراً مداحا وله فى سيف الدولة الحمدانى روائع شعره . كما رحل إلى الرى ومدح ابن العميد وله ديوان شعر كبير .

طلابُ المعالى للمَنونِ صديقُ   وطول الأماني للنفوسِ عَشيقُ
تسربلْ ثيابَ الموت أو حُلَلَ الغنى   تعشْ ماجداً أو تعتلقْك عُلُوق
وما الفقْرُ إلا للمذلّة صاحبٌ   وما الناسُ إلا للغنىُّ صديق
وأصغرُ عيْبٍ فى زمانكَ أنّهُ   به العِلمُ جَهلُ ، والعفافُ فسوقُ
وكيف يُسرُّ الحرّ فيه بمطلب   وما فيه شيءٌ بالسُّرور حقيقُ
إذا لم تكن هذى الحياةُ عزيزةً   فماذا إلى طولِ الحياة تتُوق
ألا إن خَوْفَ الموت مرٌّ كطعمه   وخوفَ الفتى سيفٌ ليه ذَلوق [١]
وإنك لو تستشعر العَيْشَ فى الردى   تحلّيتَ طعم الموت حين تذُوق

(١) الذلوق : الحاد القاطع .

وقال يرثى ابن عمه أبا الحسن على بن محمد وقد قتله حمدان بن ناصر الدولة بالخابور :

مَضَى من كانَ يصدُقُ عنه ظَنّى ... إذا ما أَخْلَفَ الظنَّ الرجاءُ
بجانب ماكسين ودارتَيْها(١) ... فَتًى غبطت به الأرضَ السماءُ
ومنعىَّ شَفانى فيه شَكِّى ... وكان يقال إنَّ الشكَّ داء
تظاهَرت السُّيوفُ عليه بغْياً ... وحامتْ حوله الأَسَلُ(٢) الظماء
دعوتُكَ والجزيرةُ دون صَوْتى ... ولولا التُّرْبُ ما قصر الدُّعاء
وكنت أرى فِراقك نأْىَ شَهْرٍ ... فقد طال التنظُّر والثواء
إذا الخبرُ الجلىُّ شفى مَشُوقاً ... ولم يكُ عنك فى خبر جلاء
أقولُ عسى به شغل وإنى ... لأعلم أنه الداء العَياء
يَعِزُّ على الذوائبِ(٣) مِن تميم ... وعيشك أن يكون بك العزاء
سأدَّرِعُ الهمومَ عليكَ ثوْبا ... نهارى والمساء به سواء
شَرِهْتُ إلى البقاء وكان لُؤْما ... وهل لىَ بعد موتكمُ بقاء
لكلٍّ مِن إخاء أخيه حَظٌّ ... وحظى مِن تذكُّرك الشقاء
بأية عُدَّةٍ ألقى غليلى ... إذا لم يبْقَ للعينين ماء
لقد ضَيَّعتنا وغفلتَ عنا ... كما غفلت عن الشاء الرِّعاء
وقد كان الإباءُ يمدُّ باعى ... وينفعنى فقد ضرَّ الإباء
فإن تكنِ المنيةُ أدركَتْهُ ... فإنَّ الصُّبْحَ يُدركه المساء

(١) ماكسين بلد بالخابور على شاطئ الفرات . والدارة فى الأصل رمل مستدير فى وسطه فجوة .
(٢) الأسل : الرماح .
(٣) السادة الرؤساء .

تملُّ مــــآرب الأيام منا ... ونعشقها لقد عظم البلاء
تكرُّ على الذى تُعْطيه عفوا ... فلِمْ كان التبرُّعُ والعطاء
وما شُوورْتَ فى خَلْقى فَأَرْضَى ... بما يُقْضى علىَّ وما يشاء
ولو خيَّرْتَنى ما اخترتُ عيشا ... يكون له فَناءٌ وانقضاء
نُعَلِّلُ بالدواء إذا مَرِضْنا ... وهلَ يشْفي من الموت الدواء
ونختار الطبيبَ وهل طبيبٌ ... يُؤخِّرُ ما يقدِّمه القَضاء
وما أنفاسنا إلا حِسابٌ ... ولا حركاتنا إلا فناء

وقال يرثي كافي الكفاة أبا القاسم إسماعيل بن عباد:

يَسْعى الفتى للحياة مجتهداً ... وإنما سَعْيُه إلى عَطَبِه
كراكب الخِمس غَيرِ مُتَّئِد ... يقرب منه الورودُ فى قَربه[1]
من لم تؤدِّبْه نفسُه قَعَدَتْ ... همَّتُه بالكثير من أدبه
قد وعظ الدهرُ كلَّ ذى أدب ... يهرب من صدقه إلى كذبه
لو أن شيئاً من صَرفه عجب ... كان غرور الرجال من عجبه
مستيقظ لا يرى محارِبُه ... ونائم لا ينامُ عن طلبه

(١) الخِمس من أظماء الإبل وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع ، والقرب : سير الليل لورد الغد .

يلهو عن الشُّغْل بالفراغ ومن ... يسألُ حظ السعيد عن سببه
يتعب فيه بكل جارحة ... فنحن لا نستريحُ من تَعَبه
لهفِي على الفارس الذى كانت الأ ... قلامُ من سُمْره ومن قُضُبه[1]
عهدى به يأنس العُفاة به ... ويستعيذ الأعداء من رَهَبه
ما قُضُب الهِنْدِ فى نحورهمُ ... أمضى ببطن القرطاس من قَصَبه
من شَرَفِ النفس والفعال له ... نار زنادٍ تُغْنيه عن حَطَبه
لا يظهر البشر فى رِضاهُ ولا ... يُعْرَفُ وجهُ القطوب فى غضبه
ما لؤلؤ البحر فى مواهبه ... إلا كما يضمحلُّ من حَببه
إنَّ خراسانَ جاش مِرْجَلُهَا ... وعاد رِئبالها[2] إلى كَلَبه
وانتقض الملك بعد ماسكه ... أى رباط للعظم من عصَبه
لا يدفع الناس ماقضاه ومَن ... يدفع صَوْبَ السحاب عن صَبَبه
قالوا عليلٌ فقلت ليت بنا ... ذاك الذى يشتكيه من وصَبه
ما الزمان عدا عليه عدت ... عليه أمُّ الرُّبيقِ[3] من نُوَبه
يأخذ ساداتنا ويتركنا ... مستشفيا بالحِكاك من جرَبه
لا صَحِبَ العَيش بعده أحدٌ ... واستلبَ القطع كف مُستَلبه

---

(١) السُّمْر : الرماح والقُضُب : السيوف .
(٢) الرئبال : الأسد .
(٣) أم الرُّبَيْق: الداهية .

وقال يمدح سيف الدولة ويذكر الفداء بملطية في سنة ٣٥٥ هـ:

إذا اسْتَخْبَرتَ أو خَبَّرتَ فاقْصِدْ حُزُون[1] الصِّدْق واجتنب السُّهولا
وخَبِّر حَيَّنَا سَعدا بأنّا تركنا العَذْلَ يَزْدرِد العَذُولا
ومن هام الغرامُ بهِ فإنّا بحيث يُعلِّمُ الصَّبُّ الذهولا
بأرضِ الروم نعتنقُ المواضى ونمتهد المسوَّمة الفُحولا
وننشئ من دمائهمُ سَحاباً تُكَشِّفُ من قَساطلنا محولا[2]
نطيعُ الله في خَوْض المنايا وسيفَ الدولة الملك الجليلا
إذا طلبت ملوكُهم لدينا ذُحولَ الحرب زدناهم ذُحولا[3]
إذا ما أرسلوا جيشاً إلينا رددنا من دمائهمُ رسولا
يسيل إليهمُ فإذا أتاهم رأوْا فيه الجماجمَ والخَصيلا[4]
سَرَى بالخَيْلِ يمنعُها المخالى وتمنعه التمهل والنزولا[5]
نسينا النطق هيْبة شفرتيْه كما نسيت من الدأب الصهيلا
فطوَّف في بلاد الروم حتى توهَّمناه قد ضَلَّ السبيلا
وكيف يضلُّ في سُبُل المعالي فَتًى جعل الحسامَ له دليلا
كأن حصونهم نادت نَداهُ أو اختارت بساكنها بَديلا
فأعطتْه الذى تحوِى عطاءً جَزِيلا مثل ما يُعْطِى جزيلا

(١) الحزون : الأماكن المرتفعة .
(٢) القسطل : الغبار ، المحول : الجدب وانقطاع المطر .
(٣) الذحول : جمع ذحل وهو الثأر .
(٤) الخصيل : جمع خصيلة وهى كل عصبة فيها لحم غليظ .
(٥) التمهل : التأنى والتباطؤ .

كأن بلادهم ضمّت عليه جوانحَها مخافَة أن يزولا
تطيّبُ من روائحه المغاني وتروى من سحائبه الطلولا
كأن الخيل من مرحٍ ولهوٍ تنازِعُه إذا نزل الرحيلا
بدرب القُلَّتَينْ دنونْ حُوراً وأرسلها على هَنَزيطَ حُولا(١)
يخوِّضُها الفُرات فتًى يُلاقى بَوجْه الموتِ فى الغَمَرات سُولا
ولو أن الفُراتَ عصى عليه لردَّ السيلَ عنه أن يَسيلا
فما ضحكت بحصن الرانِ حتى بكت حلبٌ ورجَّعتِ العَويلا
فكرَّت نحو عَوْلتها رجوعا ككرات الليوث حمت شبولا
إلى بحرٍ بمرعش من حديد فأوردها شرائعه سيولا
فقالوا هاك قسطنطين خُذْهُ ونَهْنَهَ من أعنَّتها قليلا
وفى ظهر الأحيدب حَمَّلَتْهُمْ خفافُ سُيوفه عِبْئًا ثقيلا
تركتَ الثائرَ العجلانَ منهم وقد فَصَلَ الطليعة والرَّعيلا
يلاقى الرمح بين حشاهُ سَيْفًا تحدَّر من مفارقه عَجُولا(٢)
وقد جعلوا براكاءَ المنايا لأسْوقهم وأرْجلهم كُبولا(٣)
تخالهمُ وقد نزلوا قُعُوداً وتحسبهم وقد ركبوا نُزولا
فمضروبٌ يردُّ السَّيْفَ صَلْتًا على يأفوخ ضاربه جَهولاً
ومطعونٌ مشى فى الرمح يَسْعى لطاعنه فجدَّله قتيلاً
كأنهمُ وقد ثملوا ضِراباً تساقَوْا من سيوفهم شَمولا

---

(١) درب القُلَّتَينْ وهنزيط مواضع .

(٢) المفارق جمع مفرق (بفتح الراء وكسرها) وسط الرأس وهو الذي يفرق فيه الشعر .

(٣) البراكاء (بالفتح) من ابترك القوم فى الحرب : جثوا على الركب وهى الثبات فى الحرب .

فلمـا لم يدع رمـحـًا طويلاً ... يُقَصِّدُه ولا سيفـًا نَحيلا
ولا طرفـًا يقـحِّمُـه مَهولا ... ولا مُلْكاً يغـادره ذليلا
وملَّ الموت أنفس من يعـادى ... فجاء إليه منها مستقيلا
فـدًى من كان أسلمه سواه ... بما كان السِّنانُ له منيلا
ودون مَلَطْيَةَ الشم العوالى ... يبات الطرف يصحبها ذليلا
تكاد تميل من شوق إليـه ... فتمنعها المهابة أن تميلا
ولما حل كركر مستهلا ... يضيف إلى الفرات نَداه نيلا(١)
حشاه كل مركوب رَكوب ... تذرَّع هادياً فيـه ضَليلا(٢)
تقـول إذا رأيت السفن فيـه ... أظن الحيَّ قد رفع الحمولا
فسالمهم ولم يترك فتـاة ... وحاربهم ولم يترك حليلا
ومن أموالهم فك الأسارى ... وعن أزواجهم أعطى البعولا
يراه كل مأسور فيدعو ... ألا حسبى به وكفى وكيلا
فداؤك من فديت من البرايا ... وإن كانوا لأن تفدى قليلا
فأنت خلقتهمْ خَلْقاً جَديدا ... وصيَّرت السَّماحَ بهم كفيلا
ولم أر مثل هذا اليوم يومـًا ... يردّ فوارس الأيام مِيلا
تزيد بحسنه الدنيا ضياءً ... وأبصار الملوك به كُلولا
إذا ما جئت والأملاك طرا ... غدوت نباهةً وغدوْا خُمولا
أحقهمُ ببذل المال فينا ... فتًى يمسي لمُهْجَته بَذُولا
وأولاهم بأن يُسْمَى جَوادا ... فتًى يهبُ الرغائب والعقولا
رعى روضَ الأسنة مستميتا ... يظن حياته كَلاًّ وَبيلا(٣)

(١) كركر (بفتح فسكون ففتح) : حصن قرب ملطية وناحية من بغداد .
(٢) تذرع الشيء : قدره بالذراع وتذرعت الإبل الماء وردته فخاضته بأذرعها .
(٣) الكل : الثقل . والوبيل : الشديد .

وفضلا يستفيد الدهر منه ... كريم الطبع والخلق الجميلا
ترى النيل المحصل منه وعدا ... وتعجله العطايا أن يقولا
يُصيّر كل مِقدام جبانا ... ويجعلُ كل مِعطاء بخيلا
سألتُ الدهر عما قلتُ فيه ... فما قالت صروف الدهر لى لا

وقال :

أشتاقُ غُوطَة داريّا ويُعْجِبنى ... على افتقارى أن تغنى مغانيها(١)
لهفى على شَرْبَةٍ من ماء جُوسيةٍ ... ونظرةٍ يدرك الجولان رائيها(٢)
ونفحة من صبا لُبنان خالصة ... تميت غُلَّةَ نفس أو تداويها
يادهرُ لاغَفَلاتُ العَيْشِ عائدةٌ ... ولا الشبابُ الذى أبليته فيها
عسى السيوفُ تقاضى ما مطلت به ... فقد رضيتُ بما تَقْضِى قواضيها
إن كنت تمنع سُعدى من مطالبها ... فلست تمنع سُعدى من تمنيها
لله نغمةُ أوتار ومُسمعة ... باتت تدل على شوقي أغانيها
وقهوةٌ كشعاع الشمس طالعة ... أفنيتُ بالمَزْج فيها ريق ساقيها
لو كنتُ أخضع فى الدنيا لنائبة ... خضعت من هجرها أو من تجنّيها
تستعذب الدمعَ عينى فى محبتها ... كأن ما تمتريه العينُ من فيها

---

(١) داريا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة .
(٢) جوسية : قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق بين جبل لبنان وجبل سنير فيها عيون تسقي أكثر ضياعها سيحا . والجولان (بالفتح) قرية بالشأم وقيل جبل من نواحى دمشق ثم من عمل حوران قال ابن دريد : يقال للجبل حارث الجولان وقيل حارث قلة فيه .

الشريف الرضى

(٣٥٩ - ٤٠٦ هـ)

هو أبو الحسن محمّد بن أبى أحمد الحسين الطاهر الملقّب بذى المناقب ؛ يرتقى بنسبه إلى موسى الكاظم ، فإلى الحسين بن على ، ولهذا لقّب بالشريف الرضى الموسوى .

وُلد فى بغداد وتثقّف فيها . ويقول الثعالبى فى يتيمته : « إن الرضى ابتدأ بقول الشعر بعد أن جاوز عشر السنين بقليل » . وذكر الفتح بن جنّى : « أن الشريف الرضى أُحضر إلى السيرافى النحوى ، وهو طفل جداً لم يبلغ عمره عشر سنين ، فلقّنه النحو . وقعد معه يوماً فى حلقته فذاكره بشئ من الإعراب على عادة التعليم ، فقال له : إذا قلنا : رأيت عمرو فما علامة النصب فى عمرو ؟ فقال له الرضى : بُغضُ علىّ ! فعجب السيرافى والحاضرون من حدّة خاطره » .

كان الرضى متعمّقاً فى علوم القرآن ، متبحّراً فى علم الكلام واللغة والنحو ؛ وقد اتخذ له داراً سمّاها دار العلوم ، كان الطلبة يلازمونها ويعين لهم من ماله ما يحتاجون إليه .

وقد انتقلت إليه نقابة الأشراف من أبيه ، وأبوه حىّ ، وتولّى معها إمارة الحج والمظالم وهو أوّل طالبى جعل عليه السواد ، شعار العبّاسيين . كان ذا هيبة ، وجلالة ، وورع ، وعفّة ، ومراعاة للأهل والعشيرة ؛ رفيع المنزلة بشرف نسبه وعلو منصبه ، عزيز النفس أبيّها . وكان يرشح نفسه للخلافة ، فكان أبو إسحق الصابىء يطمعه فيها . ومن أدلّ شعره على عزة نفسه وعظمتها ، قوله يخاطب القادر بالله الخليفة العبّاسى فى قصيدة مدحه بها :

عَطفاً ! أميرَ المؤمنينَ ، فإنّنا في دوحة العلياء لا نتفرّقُ
ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ أبداً كلانا في المعالى معرّقُ
إلاّ الخلافة ميّزتك ، فإنّنى أنا عاطلٌ منها وأنتَ مُطوّقُ

فيقال : إن القادر ، عندما سمع ذلك منه ، قال له : « على رغم أنف الشريف » .

وعلى تبحّر الرضى في العلوم وما كان عليه من ثقافة مكينة ، لبث في شعره متمسكاً بطريقة الأقدمين ، يحافظ على أساليبهم ومعانيهم ، ذاك بأن أبناء الأسر العربيّة النبيلة كانوا يحافظون كلّ المحافظة على قديمهم ، يتمسكون به لأنّه تراث أجدادهم ، وسجل أمجادهم ، وديوان مفاخرهم .

على أن شعر الرضى ، وإن يكن قديم الأسلوب ، ظاهر البلاغة ، عالى النفَس مديده ، قوى النسج ، واضح التعابير ، فيه متانة وسهولة ورصانة تظهر فيه شخصيّة صاحبه ؛ شخصيّة نبيلة ، عزيزة النفس ، أبيّة ، طموح ؛ وقلّما قرأت له قصيدة ، في أى نوع من أنواع الشعر ، إلاّ أحسست فيها روح الفخر ، وشكوى الزمان ، والشيب .

وقد كان يُعدّ أشعر القرشيين . قال الثعالبى عنه في يتيمته : « يُعدّ اليوم أبدع أهل الزمان ، وأنجب سادة العراق ، يتحلّى ، مع محتده الشريف ، ومفخره المنيف ، بأدب ظاهر ، وفضل باهر ، وحظ من جميع المحاسن وافر ؛ وهو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعرائهم المفلقين كالحمّانى ، وابن طباطبا ، والناصر ، ولو قلت عنه : إنّه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق . » .

وقال الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد : « سمعت أبا عبد الله محمّد بن عبد الله الكاتب فى حضرة الحسين بن محفوظ ، وكان أحد الرؤساء ، يقول : سمعت جماعة من أهل العلم بالأدب يقولون : « إن الرضى أشعر قريش . فقال ابن محفوظ : هذا صحيح ، وقد كان فى قريش من يجيد القول إلاّ أن شعره قليل ، فأما مجيد ومكثر ، فليس إلاّ الشريف » وفى هذا القول كلّ الصواب ، فإن الشريف الرضى ، والحق يقال ، قد جمع بين الإكثار والإجادة .

وقد توفى هذا الشاعر الشريف فى بغداد يوم الأحد سادس محرّم ، وقيل صفر ، ودفن فى داره بخط مسجد الأنباريين بالكرخ ، ثمّ نقل رفاته إلى مشهد الحسين بكربلاء، فدفن عند أبيه ؛ وما لبثت داره أن خربت ودرس قبره .

قال ابن خلكان : « أخبرنى بعضهم أنّه رأى فى مجموع أن بعض الأدباء اجتاز بدار الشريف الرضى بسرّ من رأى (سامرّاء) ، وهو لا يعرفها ، وقد أخنى عليها الزمان وذهبت بهجتها وأخلقت ديباجتها ؛ وبقايا رسومها وطوارق الحدثان ، وتمثل بقول الشريف الرضى :

ولقد وقفت على ربوعهم   وطلولها بيد البلى نَهب
فبكيتُ حتّى ضجّ من لغب   نضوى ، ولجّ بعذلىَ الركب
وتلفّتت عينى ، فمذ خفيت   عنّى الديار تلفّت القلب

فمرّ به شخص ، وسمعه وهو ينشد الأبيات ، فقال له : هل تعرف لمن هذه الدار ؟ فقال : لا ! فقال : هى لصاحب هذه الأبيات الشريف الرضى فعجبا من حسن الاتفاق .

وقد رويت عنه أخبار كثيرة تدلّ كلّها على شرف محتده ، وعزّة نفسه ، وترفّعه ، وسموّ شاعريّته ، وتضلعه من علوم زمانه ؛ ومن أبلغ ما ترك من الآثار ، بلَه ديوانه الشعرى ، كتاب « نهج البلاغة » وهو أثر جليل جمَع فيه خطب الإمام علىّ بنَ أبى طالب وحِكمه ورسائله ، فكان كاسمه الذى أطلقه عليه .

العمر روحة راكب

قال يرثي والدته فاطمة بنت الناصر وتوفيت في ذى الحجة سنة ٣٨٥ :

أبكيكِ لَوْ نقعَ الغَليلَ بُكَائى ، وَأقُولُ لَوْ ذَهَبَ المَقالُ بِدائى[(١)]
وَأعُوذُ بالصّبْرِ الجَميلِ تَعَزّياً ، لَوْ كانَ بالصّبْرِ الجَميلِ عَزائى
طَوْراً تُكاثِرُنى الدّمُوعُ ، وَتارَةً آوِى إلى أُكْرُومَتى وَحَيَائى
كَمْ عَبْرَةٍ مَوّهْتُهَا بِأنامِلى ، وَسَتَرْتُهَا مُتَجَمّلاً بِرِدائى
أُبْدى التّجَلّدَ ، للعَدُوّ ، وَلَوْ دَرَى بتَمَلْمُلى لَقَدِ اشتَفَى أعْدائى
مَا كُنتُ أُذخَرُ فى فِداكِ رَغيبَةً ، لَوْ كانَ يَرْجِعُ مَيّتٌ بِفِداءِ
لَوْ كانَ يُدْفَعُ ذا الحِمَامُ بِقُوّةٍ لَتَكَدّسَتْ عُصَبٌ وَرَاءَ لِوَائى
بِمُدَرَّبِينَ عَلى القِرَاعِ تَفَيّأُوا ظِلَّ الرّمَاحِ لكُلّ يَوْمِ لِقَاءِ
قَوْمٌ إذا مَرِهُوا بأغبابِ السُّرَى ، كَحَلُوا العُيُونَ بإثمِدِ الظّلْماءِ[(٢)]
يَمْشُونَ فى حَلَقِ الدّرُوعِ كَأنّهُمْ صُمُّ الجَلامِدِ فى غَديرِ المَاءِ
بِبُرُوقِ أدرَاعٍ وَرَعْدِ صَوَارِمٍ ، وَغَمَامِ قَسطَلَةٍ وَوَبْلِ دِمَاءِ[(٣)]

---

(١) نقع الظمأ : أرواه . الغليل : حرارة الحزن .

(٢) مرهوا : ابيضت حماليق أعينهم . الأغباب : الغوامض من الأرض ، الواحد غبب . الإثمد : الكحل استعاره للظلام .

(٣) القسطلة : غبار الحرب . الوبل : المطر الغزير .

فَارَقْتُ فيكِ تَماسُكِى وتجمُّلى ، وَنَسِيتُ فيكِ تَعَزُّزى وإِبَائِى
وَصَنَعْتُ مَا ثَلَمَ الوَقَارَ صَنِيعُهُ مِمَّا عَرَانى مِنْ جوَى البُرَحَاءِ[1]
كَمْ زَفْرَةٍ ضَعُفَتْ فصَارَتْ أَنَّةً تَمَّمْتُهَا بتَنَفُّسِ الصُّعَدَاءِ
لَهفَانَ أَنْزو فى حَبَائِلِ كُرْبَةٍ ، مَلَكَتْ عَلَىَّ جَلادَتى وَغَنَائى
وَجَرَى الزَّمَانُ على عَوائِدِ كَيْدِهِ فى قَلْبِ آمَالِى ، وَعَكْسِ رَجَائِى
قَدْ كُنتُ آمُلُ أنْ أكُونَ لكِ الفِدا مِمَّا أَلَمَّ ، فكُنتِ أنْتِ فِدائى
وَتَفَرُّقُ البُعَداءِ بَعْدَ مَوَدَّةٍ صَعْبٌ ، فكَيْفَ تَفَرُّقُ القُرَباءِ
وَخَلائِقُ الدُّنْيَا خَلائِقُ مُومِسٍ لِلمَنْعِ آوِنَةً ، وَلِلإعْطَاءِ
طَوْراً تُبادِلُكَ الصَّفَاءَ ، وَتَارَةً تَلْقَاكَ تُنكِرُهَا مِنَ البَغْضَاءِ
وَتَدَاوُلُ الأيَّامِ يُبْلِينَا كَمَا يُبلِى الرِّشَاءَ تَطاوُحُ الأَرْجَاءِ[2]
وَكَأَنَّ طُولَ العُمْرِ روحَةُ رَاكِبٍ قَضَّى اللُّغُوبَ وَجَدَّ فى الإِسْرَاءِ
أَنْضَيتِ عَيشَكِ عِفَّةً وَزَهَادَةً ، وَطُرِحْتِ مُثْقَلَةً مِنَ الأَعْبَاءِ
بصِيَامِ يَوْمِ القَيظِ تَلْهَبُ شَمْسُهُ وَقِيَامِ طُولِ اللّيْلَةِ اللّيْلاءِ
مَا كَانَ يَوْماً بالغَبِينِ مَنِ اشْتَرَى رَغَدَ الجِنَانِ بعِيشَةٍ خَشْنَاءِ
لَوْ كَانَ مِثْلَكِ كُلُّ أُمٍّ بَرّةٍ غَنِىَ البُنُونَ بهَا عَنِ الآبَاءِ
كَيفَ السُّلُوّ ، وَكُلّ مَوْقِعِ لحظةٍ أثَرٌ لفَضْلِكِ خَالِدٌ بإزَائى
فَعَلاتُ مَعرُوفٍ تُقِرّ نَوَاظِرِى فَتَكُونُ أجْلَبَ جَالِبٍ لبُكَائى

(١) البرحاء : الشدة والأذى .

(٢) تطاوح : ترامى . الأرجاء ، الواحد رجا : حافة البئر ، والناحية .

مَا مَاتَ مَنْ نَزَعَ البَقَاءَ ، وَذِكْرُهُ بالصَّالحَاتِ يُعَدُّ فى الأَحْيَاء
فَـبِـأَىِّ كَـفٍّ أَسْتَـجِنُّ وأَتَّقى . صَرْفَ النَّوَائِبِ أَمْ بأَىِّ دُعَاء[1]
وَمَنِ المُمَوِّلُ لى ، إذا ضاقَتْ يَدى ، وَمَنِ المُعَلِّلُ لى مِنَ الأَدْوَاءِ
ومَنِ الذى إنْ سَاوَرَتْنى نَكْبَةٌ ، كَانَ المُوَقِّى لى مِنَ الأَسْوَاءِ
أَمْ مَنْ يَلِطُّ عَلَى سِتْرَ دُعَائه ، حَرَماً مِنَ البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ[2]
رُزْآنِ يَزْدادانِ طُولَ تَجَدُّدٍ أَبَدَ الزَّمَانِ : فَنَاؤُها وبَقَائى
شَهِدَ الخَلائِقُ أَنَّهَا لَنَجِيبَةٌ بدَليلِ مَنْ وَلَدَتْ مِنَ النُّجَبَاءِ
فى كُلِّ مُظْلِمِ أَزْمَةٍ أَوْ ضِيقَةٍ يَبْدُو لهَا أَثَرُ اليَدِ البَيْضَاءِ
ذَخَرَتْ لَنَا الذِّكْرَ الجَميلَ إذا انقضى مَا يَذْخَرُ الآبَاءُ لِلأَبْنَاءِ
قَدْ كُنْتُ آمُلُ أَنْ يَكُونَ أمامَها يَوْمى وَتُشفِقُ أَنْ تَكُونَ وَرَائى
كَمْ آمِرٍ لى بالتَّصَبُّرِ هَاجَ لى داءً ، وَقَدَّرَ أَنَّ ذاكَ دَوَائى
آوِى إلى بَرْدِ الظِّلالِ ، كَأَنَّنى لِتَحَرُّقى آوِى إلى الرَّمْضَاءِ
وَأَهُبُّ مِنْ طِيبِ المَنَامِ تَفَزُّعاً فَزَعَ اللَّدِيغِ نَبَا عنِ الإغْفَاءِ
آبَاؤُكِ الغُرُّ الَّذِينَ تَفَجَّرَتْ بِهِمِ يَنَابِيعٌ مِنَ النَّعْمَاءِ
مِنْ نَاصِرٍ للحَقِّ أَوْ داعٍ إلى سُبُلِ الهُدَى ، أَوْ كَاشِفِ الغَمَّاءِ
نَزَلُوا بعَرْعَرَةِ السَّنَامِ مِنَ العُلَى وَعَلَوْا عَلَى الأَثْبَاجِ وَالأَمْطَاءِ[3]

(١) استجن : استتر .

(٢) لط الستر : أرخاه .

(٣) عرعرة السنام : رأسه . الأثباج ، الواحد ثبج : ما بين الكاهل إلى الظهر . الأمطاء ، الواحد مطا : الظهر .

مِنْ كلِّ مُستَبِقِ اليَدَينِ إلى النّدى ... وَمُسَدَّدِ الأقْوالِ وَالآرَاءِ
يُرْجَى عَلى النّظَرِ الحَديدِ تَكَرّماً ، ... وَيُخَافُ في الإطْرَاقِ وَالإغْضَاءِ
دَرَجُوا عَلى أثَرِ القُرُونِ وَخَلّفُوا ... طُرُقاً مُعَبَّدَةً مِنَ العَلْيَاءِ
يا قَبْرُ ! أمْنَحُهُ الهَوَى وَأوَدّ لَوْ ... نَزَفَتْ عَلَيْهِ دُمُوعُ كُلِّ سَمَاءِ
لا زَالَ مُرْتَجِزُ الرّعُودِ مُجَلْجِلٌ ... هَزِجُ البَوَارِقِ مُجْلِبُ الضّوْضَاءِ
يَرْغُو رُغَاءَ العَوْدِ جَعجَعَةُ السُّرى ، ... وَيَنُوءُ نَوْءَ المُقْرِبِ العُشَرَاءِ[(١)]
يَقْتَادُ مُثْقَلَةَ الغَمَامِ ، كَأنّمَا ... يَنْهَضْنَ بالعَقَدَاتِ وَالأنْقَاءِ[(٢)]
يَهْفُو بهَا جنحَ الدّجَى ، وَيَسُوقُهَا ... سَوقَ البِطَاءِ بِعَاصِفٍ هَوْجَاءِ
يَرْمِيكَ بَارِقُهَا بِأفْلاذِ الحَيَا ، ... وَيَفُضّ فِيكَ لَطائمَ الأنْداءِ[(٣)]
مُتَحَلّياً ـ عَذْرَاءَ كُلُّ سَحَابَةٍ ... تَغْذُو الجَمِيمَ بِرَوْضَةٍ عَذْرَاءِ
لَلُؤمتُ إنْ لَمْ أسْقِها بمَدامعي ، ... وَوَكَلْتُ سُقْيَاهَا إلى الأنْوَاءِ
لهفي على القَوْمِ الأُولى غَادرْتُهمْ ، ... وَعَلَيْهِمُ طَبَقٌ مِنَ البَيْداءِ
مُتَوَسّدِينَ عَلَى الخُدُودِ كَأنّمَا ... كَرَعُوا عَلَى ظَمَاءٍ مِنَ الصّهبَاءِ
صُوَرٌ ضَنَنْتُ عَلَى العُيُونِ بِلَحْظِهَا ، ... أمْسَيْتُ أُوقِرُها مِنَ البَوْغَاءِ[(٤)]

(١) ينوء : يثقل . المقرب : التى قرب ولادها . العشراء : التى مضى لحملها عشرة أشهر .

(٢) العقدات ، الواحدة عقد : ما تعقد وتراكم من الرمل . الأنقاء ، الواحد نقا : القطعة من الرمل .

(٣) اللطائم ، الواحدة لطيمة : وعاء المسك . الأنداء ، الواحد ندى : مطر خفيف يسقط فى الليل ، وشئ كالبخور يتطيب به .

(٤) أوقرها : أحملها . البوغاء : التربة الرخوة .

وَنَوَاظِرٌ كَحَلَ التُّرَابُ جُفُونَهَا ، قَدْ كُنتُ أَحرُسُهَا مِنَ الأَقْذَاءِ
قَرُبَتْ ضَرَائِحُهُمْ عَلَى زُوَّارِهَا ، وَنَأَوْا عَنِ الطُّلَّابِ أَيَّ تَنَائِي
وَلَبِئْسَ مَا تَلْقَى بِعُقْرِ دِيَارِهِمْ أُذُنُ المُصِيخِ بِهَا وَعَينُ الرَّائِي
مَعْرُوفُكَ السَّامِي أَنِيسُكَ ، كُلَّمَا وَرَدَ الظَّلَامُ بِوَحْشَةِ الغَبْرَاءِ
وَضِيَاءُ مَا قَدَّمْتَهُ مِنْ صَالِحٍ لَكَ فِي الدُّجَى بَدَلٌ مِنَ الأَضْوَاءِ
إِنَّ الذِي أَرْضَاهُ فِعلُكَ لَا يَزَلْ تُرْضِيكَ رَحْمَتُهُ صَبَاحَ مَسَاءِ
صَلَّى عَلَيكَ ، وَمَا فَقَدْتَ صَلَاتَهُ قَبلَ الرَّدَى وَجَزَاكَ أَيَّ جَزَاءِ
لَوْ كَانَ يَبلُغُكَ الصَّفِيحُ رَسَائِلِي ، أَوْ كَانَ يُسْمِعُكَ التُّرَابُ نِدَائِي
لَسَمِعتَ طُولَ تَأَوُّهِي وَتَفَجُّعِي ، وَعَلِمتَ حُسْنَ رِعَايَتِي وَوَفَائِي
كَانَ ارْتِكَاضِي فِي حَشَاكِ مُسَبِّباً رَكْضَ الغَلِيلِ عَلَيكِ فِي أَحْشَائِي

أين من يجير على الدهر

قال يفتخر ويذم الزمان :

عِندَ قَلْبِي عَلَاقَةٌ مَا تَقَضَّى ، وَجَوًى كُلَّمَا ذَوَى عَادَ غَضَّا
وَبُكَاءٌ عَلَى المَنَازِلِ أَبْلَتْـ ـهُنَّ أَيدِي الأَيَّامِ بَسْطاً وَقَبضَا
وَالتِفَاتٌ إِلَى التَّصَابِي ، وَقَدْ أَسْـ ـرَعَ بِي جَامِحُ الثَّلَاثِينَ رَكْضَا
مَنْ مُعِيدٌ أَيَّامَ ذِي الأَثْلِ ، أَوْ مَا قَلَّ مِنهَا دَيْناً عَلَيَّ وَقَرْضَا
سَامِحاً بِالقَلِيلِ مِنْ عَهْدِ نَجْدٍ ، رُبَّمَا أَقْنَعَ القَلِيلُ وَأَرْضَى
إِنَّ عِيداً مِنَ الغَوَانِي ، إِذَا رُمْـ ـتَ التَّسَلِّي أَشْجَى لِقَلبِي وَأَنضَى (١)
وَإِذَا مَا عَزَمْتُ صَبراً أَرَتْنِي مُقَلاً تَفْسَخُ العَزَائِمَ مَرْضَى

(١) العيد : الموسم ، وما اعتادك من مرض أو حزن أو هم .

مُـحْـسِنَاتٌ إلى الغَـرِيمِ مطَالاً ... مَنَعَ الدَّلُّ دِينَهَـا أَنْ يُقَـضَى
وإذا مَـا أَمَـتْنَ بالبُـعْـد بَعْـضاً ... مِنْ فُـؤادى أحيَيْنَ بالقُـرْب بعـضـا
فَسَـقَى الرَّمْلَ مَنْزِلاً ومَـعَاناً ... هَزِجَاتٌ يَنبِضْنَ بالبَـرْقِ نَبـضَا
وَمَشَتْ فِـيـهِ بالنَّسِـيمِ عَلِيلاً ... قِطَعُ المُزْنِ فى الرِّياضِ المَرْضَى
مَـا لِذا الزَّوْرِ مَـا يَغِبُّ مِنَ الرَّمْـ ... ـلِ طُرُوقاً فى مَضْجَعٍ قَدْ أُقِضَّا
مُهْدِياً لى مِنْ طيبِ أَرْوَاحِ نَجدٍ ... مَا يُدَاوِى نُكسَ العليلِ المُنَضَّى[(١)]
لَمْ يَكُنْ غَيرَ خَطْرَةِ البَرْقِ مَا ... زَوَّدَ عينَ المَشُـوقِ إلاّ وَمْـضَـا
قَـادَهُ الغَـمضُ مِنْ زَرُودَ فَلَمَّـا ... زَارَ أنبَى عَنْ مُـقلَتَىَّ الغُـمْـضَـا[(٢)]
قـد لَبِستُ الخطوبَ سوداً وبِيضاً ، ... وقَطَعتُ الزَّمـانَ طُولاً وعَـرْضَـا
وَوَرَدْتُ الأُمُـورَ صَـفْـواً ورَنْقـاً ، ... وَرَعَيـتُ الآمـالَ رَطْباً وَحَمْـضَـا
وَتَلَقَّـعْتُ رَبْطَةً مِنْ بَيَـاضٍ ، ... أَنَا رَاضٍ مِنهـا بما لَيسَ يُرضَى
أُبرِمَتْ لى مِنْ صَنعَـةِ الدَّهرِ لا ... يُسرِعُ فيها إلاّ المَنَايَا نَقْضَا
مَـخْبـرٌ فَـاحِمٌ وَلَوْنٌ مُـضِىءٌ ؛ ... مَنْ رأى اليَوْمَ فَاحِماً مُبْيَضَّا
كَمْ مُـقَـامِى تُلْقِى عَلَىَّ اللَّيَـالى ... نُوَباً ، لا أُطِيقُ مِنْهُنَّ نَهْـضَـا
وَخُطُوباً ، إذا نَحَـتْنَ مِنَ العَظْـ ... ـمِ فَـلا بِدْعَ إنْ عَـرَقْنَ النَّحـضَـا
قَـاعِـداً مَطرَحَ السَّقَـاءِ انتَحَـتْهُ ... بِصُـرُوفِ الأقـدارِ جَرًّا وَمَخْضَـا

---

(١) المنضى : المهزول .
(٢) الغـمـض بالفتـح : المطمئن من الأرض . زرود : مـوضع فى بـلاد العرب . الغـمـض بالضـم : انطباق الجفن ، النوم .

رَكِبَتْني وَهْماً جُلالاً ، فَمازا ل جذابي حتّى رَمَى بي نقْضاً[١]
كُلَّ يومٍ على مَزَلَّة خَطْبٍ ، أتوقّى مرْمًى إلى الذّلّ دَحضاً[٢]
وَمُسَقًّى على القَذَى يَرِدُ الورْ دَ جُماماً فيَشرَبُ المَاء بَرْضاً[٣]
كُلَّما سارَ طالباً خَفضَ عيشٍ نالَ ذُلاًّ مِنَ الزّمانِ وَخَفْضاً
أينَ لا أينَ مَنْ يُجيرُ على الدّهْـ ـرِ ، إذا الدّهرُ هَرَّ يوماً وَعَضّا
قَدْ وَهبنا رَجاءَنا لِزَمانٍ لمْ يَدَعْنَا حَتّى وَهَبْنَا العِرْضا
وتركْنَا نَفْلَ الزّمانِ قُنُوعاً ، ثمّ زِدْنَا حَتّى تَركْنَا الفَرْضا
فَذَماماً على النّدَى أنْ يُرَجّى ، وَعِيابُ البَخيلِ مِنْ أنْ يُفَضّى[٤]
وَأَمَاناً مِنّي عليْه ، فَمَا أذْ عَرُ سِرْباً ، وَلا أُنازِلُ أرْضا
لا حَمَلْتُ الحُسَامَ إنْ لمْ أُحَمّلْـ ـهُ رُؤوسَ العِدى قِراعاً وَعَضّا
فِعْلُ مُسْتَثْقِلِ الحَيَاة يَعُدّ الـ ـذّلّ بَعثاً على المَنُونِ وَحَضّا
مُسْتَمِيتاً يَرَى التّحيّةَ بالضّيْـ ـمِ لِطَاماً ، وَالعَارَ جُرْحاً مُمِضّا
طارِحاً نَفْسَهُ عَلَى كُلّ هَوْلٍ ، قَد تَعامَى عَنْهُ الجَبانُ وأغضَى
حَيثُ يَلْقَى ضَرْبَ السّيوفِ أخادِيـ ـدَ تَمُجُّ الدّمَاءَ وَالطعنَ وَخضاً[٥]
وَفُتُورٍ مِثْلَ الأُسُودِ أعَدّوا لِقَنيصِ العَلْيَاءِ وَثْباً وَرَبْضَا

(١) الجلال : العظيم . الجذاب : المنازعة . النقض : البناء المنقوض ، المهدم .

(٢) الدحض : الزلق .

(٣) البرض : القليل .

(٤) يفضى : يفتقر .

(٥) الوخض : الطعن يخالط الجوف ولم ينفذ .

فَوْقَ أكْوارِ ضُمَّرٍ أقلقَ النِّسْـ ـعَ قَديمُ اضْطِمَارِهَا وَالغَرضَا
كُلَّمَـا اجلَوَّذَ الظَّلامُ استَلَذّوا لَعِبَ اللَّيْلِ بالطِّلاحِ الأَنْضَـا(١)
كُلُّ مُسْتَعْسِفِ اليَدَينِ بِقَوْسِ الـ ـمَجدِ يَرْمى عن المكارِمِ عرْضَا
حـامِلٍ بزَّهُ عَلى ربذِ التَقْـ ـريبِ إنْ أَسْخَطَ الصَّوامرَ أرْضَى(٢)
مُنقَعاً فى مَاءِ النَّجَابَةِ مَنْسُو باً لُبَابًا إلى المَنَاجيبِ مَحْضَا
سَوْطُه نسْعَةُ العِنانِ ، إذا حَـ ـرّكَ جَلَّى إلى المُرادِ وأَفْضَى
مِثْلُ بَازِ العَلْيَاءِ عَنَّ لَهُ الطَّعْـ ـمُ ، فَخَلَّى يَفَاعَهُ وَانْقَضَّا
فَلَعَلِّى أُلْقَى المُنَى أوْ خِلاجاً مِنْ حِمَامٍ قَضَى عَلَيَّ وَأَمضَى
رَاكِباً صَهْوَةَ الخِطَارِ عَقِيداً لِبَنَاتِ الفَلا ، يَجُبْنَ الأَرْضَا(٣)
كَايِناً للأُنُوفِ جَدْعاً وَرَغْمـاً ، وَلِهَامِ الأعداءِ وَقْماً وَغَضَّا(٤)
بَرْدُ عِزٍّ ، أوْ حَرُّ نَصْلٍ ، فإنِّى أجِدُ اليَوْمَ فى ضُلُوعى رَمْضَا

---

(١) اجلوذ : أسرع ومضى . الطلاح : الإبل المعيية . الأنضاء ، الواحد نضو : المهزول من الحيوان .

(٢) الربذ : السريع . التقريب : ضرب من المشى .

(٣) الخطار : المراهنة ، ولعله اسم فرس . العقيد : المعاهد . بنات الفلا : أراد بهن وحوش الفلا .

(٤) كايناً هكذا فى الأصل ولعلها محرفة عن كابتاً أى مذلا ، مخزيًا . الوقم : القهر .

ما أمرَّك وما أحلاك!

قال قدس الله سره فى المحرم سنة ٣٩٥ هـ وهى من لواحق الحجازيات أيضا:

يا ظَبيَةَ البَانِ تَرْعَى فى خمَائله ، لِيَهنَك اليَومَ أنَّ القَلبَ مَرعَاك
المَـاءُ عِنْدَكِ مَـبْذُولٌ لشَـاربه ، ولَيس يُرويكِ إلاَّ مَدمَعى البَـاكى
هَبَّتْ لَنَا مِنْ رِيَاحِ الغَـوْرِ رَائحَـةٌ بَعْـدَ الرُّقَـادِ عَـرفْنَاها بريَّاك
ثُمَّ انثنَينَا ، إذا مَـا هزّنَا طَرَبٌ عَلَى الرِّحَـالِ ، تَعَلّلْنَا بِذِكْـرَاك
سَهْمٌ أصَابَ ورَامِيه بِذِى سَلَمٍ مَن بالعِـرَاقِ ، لَقَد أبعَدْتِ مَرْمَاك
وَعْـدٌ لعَـينَيكِ عِندى مَاوفَيتِ به ، يا قُـرْبَ مَـا كَـذَبَتْ عَينىَّ عَـيناك
حكَتْ لِحَاظُكِ مـا فى الرِّيمِ من مُلَحٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ فكَانَ الفَضْلُ للحَاكى
كَـأنَّ طَرْفَكِ يَوْمَ الجِزْعِ يُخبِرُنا بمـا طَوَى عَنكِ من أسمَاءِ قَتلاكِ
أنتِ النَّعِـيمُ لقَلبى وَالعَـذابُ لَهُ ، فَـمَا أمَرَّكِ فى قَلْبى وَأحْلاكِ
عِندى رَسَـائلُ شَـوْقٍ لَستُ أذكُـرُها ، لَوْلا الرَّقِيبُ لَقَدْ بَلّغتُها فَـاكِ
سَقَى مِنًى وَلَيَالى الخَيفِ ما شَرِبتْ مِنَ الغَمَامِ وَحَيَّـاهَا وَحَيَّـاكِ
إذ يَلتَقى كُلُّ ذى دَينٍ وَمَاطِلُه مِنّا ، وَيَجتَمِعُ المَشْكُوُّ وَالشّاكى

لـمّـا غَدا السِّـرْبُ يَعطُو بينَ أرْحُلِنا ، مَا كانَ فيهِ غَرِيمُ القلبِ إلاّكِ
هامَتْ بكِ العَينُ لم تَتبَعْ سِوَاكِ هوًى ، مَنْ علّمَ البَيْنَ أنّ القلبَ يَهوَاكِ
حتّى دنَا السِّرْبُ ، ما أحيَيتِ من كمَدٍ قَـتلى هوَاكِ ، ولا فـادَيتِ أسـرَاكِ
ياحَبّـذا نَفحَةٌ مَرّتْ بفيكِ لَنَا ، ونُطفَةٌ غُـمِسَتْ فـيهـا ثَنَايَاكِ
وَحَبّـذا وَقفَـةٌ ، وَالرّكْبُ مُغتَفِلٌ على ثَرًى وَخَدَتْ فيهِ مَطَاياكِ
لوْ كانَتِ اللِّمّةُ السّوْداءُ من عُدَدي يَوْمَ الغَميمِ ، لَمَا أفلَتِّ أشرَاكي

أبو الحسن التهامى (ت سنة ٤١٦ هـ)

وهو أبو الحسن على بن محمد التهامى ، ونسبته إلى تهامة ، السهل الساحلى بين شاطئ البحر الأحمر ومرتفعات الحجاز ، وتطلق خاصة علي الجزء الجنوبى منه ، بين جده وحدود اليمن ويشمل مدينتى جيزان ونجران .

واختلفوا فى مولده ، بعض المؤرخين يجعل ولادته باليمن ، وبعضهم الآخر يجعله بمكة ، وعلى أية حال فهو تهامى سواء أكان مولده بسهل تهامة في شمال اليمن ، أم غربى مكة . ولا ننسى أن بعض المؤرخين ينسبون النبى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى تهامة ، فيقولون التهامى ، مع أنه ولد بمكة .

ومهما يكن الأمر ، فإن أبا الحسن كان يحن إلى الحجاز ومكة ، لأنه نشأ بها وتعلم، وتنقل بعد ذلك في بلاد العرب وبلاد المشرق ، جاب شرقى الجزيرة والعراق ، وفارس ، ثم عاد إلى بلاد الشام ، فأقام بها رَدْحًا من الزمان متنقلاً بين دمشق وطرابلس ، وصور ، والرملة .

واستقر به المقام زمناً بمدينة الرملة عند آل الجراح ، وخدم عاملها من قبل الفاطميين المفرج وابنه حسان ، ومدح المفرج وأبناءه ، والتقى هناك بالوزير المغربى بعد فراره إلى الرملة من بطش الحاكم بأمر الله ، ومقتل والد الوزير وعمه وأبناء عمه . واشترك فى المؤامرة التي حاكها آل المفرج لتولية شريف مكة خليفة يعارضون به خلافة الحاكم بمصر . إلاّ أن هذه المؤامرة أخفقت ، وخرج الوزير المغربى وبعده التهامى من الرملة هاربين ولاجئين إلى الموصل وديار بكر وميافارقين .

ويبدو أن التهامى عاد بعد اختفاء الحاكم سنة ٤١١ هـ إلى الرملة ، أو الشام ثم سافر متخفياً إلى مصر فى زورة خفية لم يعرف هدفها ، فقد اختلفت أقوال المؤرخين

فيها ، وقيل إنه جاء إلى مصر موفداً فى مهمة سرية من قبل حسان بن المفرج لتأليب بعض قبائل العرب على الخليفة الظاهر بن الحاكم بأمر الله ، وقيل إنه جاء طامحا فى أن يلى أمراً ، ودعا لنفسه ، ومهما يكن الأمر فإنه ألقى فى السجن زمنا يطول ويقصر وفق أقوال المؤرخين حتى لقى حتفه معذباً أو مسموماً سنة ٤١٦ هـ .

وشعره معظمه فى مديح رجالات عصره ممن اتصل بهم ، وكثير منهم من ولاة الفاطميين وقضاتهم بالشام ، كما أنه مدح آل المفرج ، وحظى حسان بمدائح جيدة كما مدح الوزير المغربى أبا القاسم وبعض آل المغربى ، ومدح صاحب الموصل قرواش العقيلى ، وصاحب ميافارقين .

وله شعر جيد فى رثاء ولده ، وفى السجن . وتبدو على شعره مسحة البداوة فى صوره وعبارته ، وأعجب بالمتنبى فاحتذاه ، ونسج على منهجه فى معانيه وألفاظه وأوزانه وقوافيه .

ياكوكباً ما كان أقصر عمره !

قال يرثى ابناً له صغيراً ، وهذه القصيدة من أشهر شعره (من الكامل) :

حكمُ المنيَّـــة فى البــريَّة جــارِ ... مـــا هذه الدنيـــا بدار قَـــرار (١)
بيْنا يُرى الإنســانُ فـيـهـا مـخـبـراً ... حـتى يُرى خـبـراً من الأخـبـار (٢)
طُبــعتْ على كَــدَرٍ وأنت تريدُها ... صَـفـواً من الأقـذاء والأكـدار (٣)
ومكلّف الأيّامِ ضـدَّ طبـاعــهـــا ... مــتطلّبٌ فى الماء جـذْوة نار (٤)
وإذا رجـوتَ المسـتـحـيل فـإنما ... تبني الرّجـاء على شَـفـيرٍ هار (٥)
فـــالعــيشُ نوم والمنيّـــةٌ يقْظة ... والمرءُ بينهـمـا خـيـالٌ سـار (٦)
والنفسُ إن رضــيتْ بذلك أو أبتْ ... مُنقـــادةٌ بأزمّـــة المقْـــدار (٧)
فــاقـضُـوا مــآربكم عـجــالاً إنما ... أعـمـاركم سفـرٌ من الأسـفـار (٨)

---

(١) البرية : الخلق . والقرار بالمكان : الإقامة فيه .

(٢) بينا : ظرف زمان بمعنى المفاجأة . وحتى : حرف ابتداء .

(٣) الأقذاء : جمع قذى ، وهو ما يقع فى العين ، أو مـا يكـدر المـاء من تبنة ونحوها ، وأراد به هنا : ضرر الدنيا.

(٤) مكلف : أى الذى يطلب من الدنيا ضد طبعها كالراحة والصفوة ، هو كمن يطلب جذوة نار من الماء ، وهذا مستحيل . الجذوة بتثليث الجيم : الجمرة أو القطعة من النار .

(٥) الشفير : حرف الشيء وجانبه ، هار : متهدم أو مشتق .

(٦) العيش : الحياة فى الدنيا . وقوله : نوم . أى : مثل نوم ، لأن الإنسان يغفل عن الطاعات فيها، وقوله : والمنية يقظة ، أى مثل يقظة ، أى فى أن الإنسان إذا مات تذكر ما فعله في الدنيا ، وقد قيل : الناس رقود ، فإذا ماتوا انتبهوا ، وقـوله : والمـرء بينهمـا : أى : إن المرء بين العيش والمنية مثل طيف مر فى المنام . أى : لا بقاء له .

(٧) يريد أن النفس منقادة بالأقدار الشبيهة بالأزمّة التى تقاد بها النوق ، رضيت بذلك أم أبت .

(٨) أى : إذا علمتم ما ذكرته من أحوال الدنيا فاقضوا حوائجـكم اللازمة للسفر إلى الآخرة مسرعين ، لأنكم مسافرون إليها . وفى هذا البيت إشارة إلى قـول الإمـام على : « الناس سفـر والدنيا دار ممر ، لا دار مقر » .

وتراكضوا خيل الشباب وبادروا أن تُستردَّ فإنهن عوار (١)

فالدّهر يخدعُ بالمنى ويغصّ إن هُنّا ويهدم ما بنى ببوارِ (٢)

ليس الزمانُ وإن حرصتَ مسالماً خُلُقُ الزمان عداوةُ الأحرارِ

إنى وترتُ بصارمٍ ذى رونْقٍ أعددتهُ لطلابة الأوتار (٣)

زرداً فأحكم كل موصل حلقة بحبابة فى موضع المسمار

فدحوا فويقَ الأرض أرضاً من دمٍ ثم انثنَوا فبنوا سماء غبار (٤)

قومٌ إذا لبسوا الدروع حسبتها سُحُباً مُزرَّرةً على أقمار

---

(١) الركض : ضرب الفارس الفرس برجليه فى جنبيه ليسرع فى المسير ، وبادروا ، أى أسرعوا ، وأن تسترد ، أى ، لئلا تؤخذ منكم لأنها عارية ، والعوارى لا بد من ردها .

(٢) المنى : جمع منية ، وهى ما يتمناه الرجل . يغص : يشرق . إن هنا أى : فى وقت الهنا ، كناية عن سرعة تنغيصه . ببوار : أى : مع بوار ، وهو الهلاك .

(٣) وترت : أى أصبت ، من قولهم : وتره . إذا قتل له قتيلاً ، وأخذ له مالاً . وقوله : بصارم أى : فى صارم . وكنى بالصارم عن ولده الفقيد . والرونق : ماء السيف وصفاؤه وحسنه ، وقوله الطلابة الأوتار : أى لرد جماعة طلابة للأوتار ، فترك تشديد اللام للضرورة . والأوتار : جمع وتر ، بالكسر ، وهو الجناية التى يجنيها الرجل على غيره .

(٤) دحوا : بسطوا وفرشوا ، فويق : تصغير فوق . من دم أى : من دم القتلى . أثنوا : انعطفوا .

وترى سـيـوف الدّارعين كـأنّهـا خُلُج تمدُّ بهـا أكفُّ بحـار
لو أشـرعـوا أيمانهم من طولها طعنوا بها عَوْضَ القنا الخطار (١)
شُوس إذا عدموا الوغى انتجعوا لها فى كلّ أوبٍ نُجعة الأمطار (٢)
جَنبوا الجياد الى المطيّ وراوَحوا بين السّروج هناك والأكوار (٣)
فكأنما ملؤوا عِياب دروعهم وغمودَ أنصلهم سراب قفار (٤)
وكأنّما صَنَعُ السّوابغِ عَزّه ماءُ الحديد فصاغَ ماءَ قرار (٥)
فتدرّعوا بمتون ماء جامد وتقنّعوا بحباب ماءٍ جار (٦)
أُسْد ولكن يؤثرون بزادهم والأُسْد ليس تدين بالإيثار
يتزين النادى بحُسْن وجوههم كتزيُّن الهالات بالأقمار (٧)
يتعطفونَ على المجاور فيهم بالمنفسات تعطّفَ الأظآر (٨)

(١) أشرعوا ، استقبلوا بها العدو . القنا : جمع قناة ، وهى الرمح . الخطار : ذو الاهتزاز .
(٢) شوس : جمع أشوس ، وهو الشديد الجرى إلى القتال ، الوغى : الحرب . وانتجعوا لها : طلبوها ، الأوب : الناحية . النجعة بضم النون : الارتحال من الأرض إذا أجدبت لطلب الكلأ ومساقط المطر .
(٣) جنبوا الجياد إلى المطى : أى ضموها إلى جنب المطى . راوحوا : أى : ركبوا فوق السروج مرة وفوق الأكوار أخرى . كنايه عن عدم توانيهم فيما يقصدونه ، وأصل المراوحة : من قولهم : راوح بين جنبيه : إذا نام علي جنب ثم تقلب على الآخر ، لاستدامة الراحة .
(٤) العياب : جمع عيبة ، بفتح العين . وهى ما يجعل فيه المتاع والثياب كالزنبيل . غمود أنصلهم : أى : بيوت سيوفهم ، وسراب القفار : هو الذى يظهر فى البيداء نهاراً كأنه بحر ماء .
(٥) رجل صنع اليد ، بفتح الصاد والنون : ماهر في عمل اليد ، وقوله : صنع السوابغ صانعها ، والحاذق فى صناعتها ، والسوابغ الدروع الطويلة . وقوله : عزه : أى : قهره وغلبه ، وذلك لكونه صلباً غير لين حتى تسهل صناعته . أو بمعنى : قل ، فلم يجد ماء الحديد . وما قرار : أى : سكون كناية عن الصلابة وعدم اللين .
(٦) تدرعوا : تغطوا . والمتون : جمع متن . وهو ما ظهر من كل شيء ، ومتن الماء : سطحه الظاهرى ، شبه به الدروع فى اللمعان . وقوله : تقنعوا : شبه الزرد ومساميره فى اللمعان وتموج اللون بماء جار طفا فوقه الحباب .
(٧) الهالات : جمع هالة ، وهى دارة القمر .
(٨) المنفسات : جمع منفس ، وهو النفيس من المال . الأظآر : جمع ظئر وهى العاطفة على غير ولدها .

من كل من جَعَل الظُّبى أنصاره وكرمن فاستغنى عن الأنصار (١)
والليثُ إن بارزتهُ لم يعتمد إلا على الأنياب والأظفار
وإذا هو اعتقل القناة حسبتها صِلا تأبطهُ هزبرٌ ضار (٢)
زرِدُ الدّلاصِ من الطعان برمحه مثلُ الأساور فى يد الإسوار (٣)
ويجرُّ حينَ يجرّ صعدة رمحه فى الجحفل المتضايق الجرار (٤)
ما بين ترب بالدماء ملبَّد ونَقَع بالطّراد مثار (٥)
والهونُ فى ظلّ الهوينى كامنٌ وجلالةُ الأخطار فى الإخطار (٦)
تندى أسرّةُ وجهه ويمينه فى حالة الإعسار والإيسار (٧)

---

(١) الظبى : جمع ظبة ، بظم الظاء وفتح الباء . وهى طرف السيف وحده .
(٢) اعتقل القناة : جعلها الراكب تحت فخذه وجر آخرها علي الأرض وراءه . الصِّل : بالكسر ، الحيَّة التي لا تنفع فيها الرقية . تأبطه : جعله تحت ابطه . الضاري : المتعود علي الصيد المولع به .
(٣) الدلاص : البراق اللين . الإسوار ، بكسر الهمزة : الفارس من فرسان الفرس . كانت عادة أشرافهم أن يلبسوا أساور من ذهب .
(٤) قوله : ويجر . هو من قولهم : أجره وأجره الرمح : إذا طعنه وترك الرمح فيه يجره . الصعدة بفتح الصاد ، وسكون العين : القناة تنبت مستوية فلا تحتاج إلى التثقيف والتسوية ، الجحفل : الجيش الكثير . والمتضايق : المزدحم . الجرار : الذى يسير زحفاً لكثرته .
(٥) الزلق : الأملس الذى لا تثبت عليه القدم . النقع : الغبار . الطراد : الحمل على الفرسان فى الحرب . المثار : المنتشر الساطع .
(٦) الهون : بضم الهاء ، نقيض العز . يقول : الذل فى أن يعمد الإنسان إلى الهين من الأمور ، الأخطار: جمع أخطر بفتحتين وهو القدر والمنزلة . والأخطار : الثانية ، بكسر الهمزة ، مصدر أخطر ، فهو مخطر اسم فاعل : إذا جعل نفسه خطراً ، أى كفواً لقرنه فيبارزه ويقاتله . يقول : جلالة المنازل والرتب فى ارتكاب الصعاب.
(٧) تندى : تسخى . الأسرة : خطوط فى جلد الجبهة والوجه والكف . وسخاء خطوط الوجه كناية عن انبساطها وذلك علامة الارتياح والبشاشة . وأما سخاء اليمين ، فهو كناية عن الجود . الإعسار : الفقر .

ويمدُّ نحـــو المكرمـــات أناملاً ... للرزق في أثنائهن مجار
يحوى المعالي غالباً أو خالباً ... أبداً يداني دونها ويداري (١)
قد لاح في ليل الشباب كواكب ... إن أُمهلت آلت إلى الأسفار
يا كوكباً ما كان أقصرَ عمرَه ... وكذا تكون كواكبُ الأسحار
أُثني عليه بأُثره ولو انَّهُ ... لم يغتبط أثنيتُ بالآثار (٢)
وهلالَ أيام مضى لم يستدرْ ... بَدراً ولم يُمْهلْ لوقت سرار (٣)
عجل الخسوفُ عليه قبل أوانه ... فمحاه قبل مَظِنَّة الإبدار (٤)
واستُلَّ من أترابه ولِداتِه ... كالمقْلة استُلَّتْ من الأشفار (٥)

---

(١) قوله : غالباً أو خالباً : هو من المثل : إذا لم تغلب فأخلب ، أى : إذا أعياك الأمر فاعلية مغالبة مخادعة ، يدانى : يقارب ويلاطف .

(٢) أثر السيف : فرنده ، أى : ماؤه ورونقه . الآثار : جمع أثر بضم الهمزة . الجرح . أمدحه ، أى : الصارم ، لما يحدثه فى الأعداء من الجروح .

(٣) السرار : آخر ليلة من الشهر يستسر فيها القمر ، أى : يختفى .

(٤) أى : قبل الوقت الذى يظن فيه أنه بدر .

(٥) الأتراب : جمع ترب ، وهو قرين الانسان فى السن . اللدات : جمع لدة وهو التِرْب . الأشفار جمع شفر : بضم الشين وفتحها ، وهو أصل منبت شعر الجفن .

فكأنَّ قلبىَ قبرُهُ وكأنَّهُ ... فى طيِّه سرٌّ من الأسرار
إن يُحتقر صِغَراً فرب مفخَّم ... يبدو ضئيلَ الشخص للنظار
إن الكواكبَ فى علوِّ محلِّها ... لتُرى صغاراً وهى غيرُ صغار
ولدُ المعزَّى بعضُهُ فإذا انقضى ... بعضُ الفتى فالكلُّ فى الآثار
أبكيه ثم أقول معتذراً له ... وُفِّقتَ حين تركتَ ألأم دار
جاورتُ أعدائى وجاورَ ربَّهُ ... شتَّان بين جوارِه وجوارى (١)
أشكو بُعادَكَ لى وأنت بموضعٍ ... لولا الرَّدى لسمعتَ فيه سرارى
والشرقُ نحو الغرب أقرب شُقَّة ... من بُعْدِ تلك الخمسةِ الأشبار (٢)
هيهاتَ قد علقتك أشراكُ الردى ... واعتاقَ عمركَ عائقُ الأعمار
ولقد جريتَ كما جريتُ لغايةٍ ... فبلغْتها وأبوك فى المضمار (٣)
فإذا نطقتُ فأنت أوّلُ منطقى ... وإذا سكتُّ فأنت فى إضمارى
أخفى من البُرَحاء ناراً مثل ما ... يخفى من النار الزنادُ الوارى (٤)

---

(١) قيل : إن أحد أصحابه رآه فى النوم بعد موته ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى ، فقال : بأى الأعمال ؟ فقال : بقولى فى مرثية ولد لى صغير ، وذكر هذا البيت .

(٢) الشقة . بالضم والفتح : الناحية يقصدها المسافر .

(٣) المضمار : موضع الجرى ، يريد أنه لم يتجاوز إلى هذه الغاية ، وهى الموت .

(٤) البرحاء : الشدة .

وأخفّضُ الزفراتِ وهى صواعد ... وأُكفكفُ العبراتِ وهى جوار
وشهاب زند الحزن إن طاوعته ... وارٍ وإن عاصيته متوار (١)
وأكفُّ نيران الأسى ولربّما ... غَلب التصبُّرُ فارتمت بشرار (٢)
ثوبُ الرياء يشفُّ عما تحته ... فإذا التحفت به فإنك عار (٣)
قَصُرَتْ جفونى أم تباعد بينها ... أم صُوِّرَتْ عينى بلا أشفار
جَفت الكرى حتى كأنَّ غرارها ... عند اغتماض العين حدُّ غرار (٤)
ولو استزارت رَقدة لرمى بها ... ما بين أجفانى إلى التيار (٥)
أُحيى ليالى التمّ وهى تميتنى ... ويميتهنّ تبلّجُ الأنوار (٦)
حتى رأيت الصبحَ يرفع كفَّه ... بالضوء رفرفَ خيمةٍ من قار (٧)
والصبح قد غمر النجوم كأنّهُ ... سيلٌ طغى فطما على النُّوار
لو كنت تُمنَعُ خاضَ دونك فتيةٌ ... منّا بحار عواملٍ وشفار (٨)
وتلهبُ الأحشاء شيَّبَ مفرقى ... هذا الضياء شواظُ تلك النار (٩)

---

(١) الشهاب : النار التى تخرج من الزند عند القدح . الوارى : المتقد المتلهب . والمتوارى : المستتر.

(٢) هذا البيت استدراك على البيت الذى قبله اذ ذكر هناك امكان اخفاء نار الحزن وهنا ذكر ازديادها بدون إرادته .

(٣) يشف يرى ما تحته . التحفت : تغطيت به كاللحاف . والمرائى لا يقوى على كتم أموره ، لظهورها رغماً عنه . كما أن الشاعر هنا لا يقوى على كتم نار الحزن .

(٤) الغرار ، بكسر الغين ، الأولى : النوم القليل . والثانية : تطلق على السهم والرمح والسيف .

(٥) قوله : لرمى بها . أى : بسببها ، والتيار : يريد به هنا الدمع .

(٦) ليالى التم : التمام ، بالكسر . وهى أطول ما يكون من ليالى الشتاء .

(٧) الرفرف : سقف الخيمة ، أو ما تدلى منها . والقار : الزفت . شبه الليل به فى السواد .

(٨) تمنع : أى من الموت ، والخطاب لولده وخاض : دخل دون مبالاة ، دونك : وراءك لإنقاذك . العوامل: الرماح . الشفار : السيوف كناية عن أنهم يفدونه بأنفسهم .

(٩) الشواظ : اللهب الذى لا دخان فيه .

شـابَ القـذالُ وكلُّ غـصن صـائرٌ فـينانهُ الأحـوى إلى الإزهار (١)
والشبـهُ منجـذبٌ فَلِمَ بيضُ الدُّمى عن بيضِ مَفْرقه ذواتُ نفـار ؟! (٢)
وتودّ لو جـعلت سـوادَ قلوبهـا وسـوادَ أعـينهـا خضـابَ عـذارى
لا تنفـر الظبـيـاتُ عنهُ فـقـد رأتْ كـيف اختـلافُ النبت فى الأطوار
شـيئـان ينقـشـعـان أول وهلةٍ شـرخُ الشـبـاب وخُلَّةُ الأشـرار
لا حـبـذا الشـيبُ الوفىُّ وحـبـذا ظلُّ الشـبـاب الخـائن الغـدار
وطرى من الدنيـا الشـبـاب وروقُـهُ فإذا انقضى فقد انقضت أوطارى (٣)
قـصـرتْ مـسـافـتـهُ ومـا حـسناته عندى ولا آلاؤه بقـصَـار
نزداد همًّـا كلمـا ازددنا غنًى والفـقـرُ كلُّ الفـقـر فى الإكـثـار
مـا زاد فـوقَ الزاد خلّف ضـائعـاً فى حـادثٍ أو وارثٍ أو عـار (٤)
إنى لأرحمُ حـاسـدىَّ لحـرِّ مـا ضـمتْ صـدورهُمُ من الأوغـار (٥)
نظروا صنيعَ اللّهِ بى فـعـيـونهم فـي جـنـةٍ وقـلـوبـهـم فـى نـار (٦)
لاذنبَ لى كم رمتُ كـتم فـضـائلى فكأنَّمـا برقـعـتُ وجـهَ نهـار

---

(١) القذال : جماع مؤخر الرأس . الأحوى : الأخضر الذى يميل إلى السواد من شدة خضرته . الإزهار : مصدر أزهر النبت : إذا ظهر زهره .

(٢) الدمى : جمع دمية ، وهى الصورة من العاج ونحوه يكنى بها عن المرأة .

(٣) الوطر : الحاجة . الروق : أول الشباب وأفضله .

(٤) عار : مأخوذ من قولهم . ما أدرى أى الجراد عاره ، أى : ما أدرى أى الناس أهلكه وأتلفه .

(٥) الأوغار : جمع وغر ، بفتح الواو وسكون الغين ، وهو الحقد والغيظ .

(٦) قوله فى جنة : وذلك لأنها متنعمة بالنظر فى هذا الصنيع .

وسترتها بتواضعي فتطلّعت أعناقها تعلو على الأستار
ومن الرجال معالمٌ ومجاهلٌ ومن النجوم غوامضٌ ودرارى (١)
والناس مشتبهون في إيرادهم وتباين الأقوام في الأصدار (٢)
عَمرى لقد أوطأتهم طرقَ العُلى فعموا ولم يقفوا على آثارى
لو أبصروا بقلوبهم لاستبصروا وعمى البصائر من عمى الأبصار
هلاّ سعوْا سَعْي الكرام فأدركوا أو سلّموا لمواقعِ الأقدار
ذهب التكرُّم والوفاء من الورى وتصرّما إلا من الأشعار (٣)
وفشت خيانات الثقات وغيرهم حتى اتهمنا ؟ رؤية الأبصار
ولربما اعتضدَ الحليمُ بجاهل لا خير في يُمنى بغير يسار

---

(١) المعالم : جمع معلم ، وهو الأثر يستدل به على الطريق . والمجاهل : جمع مجهل وهو الطريق الذى لا أعلام فيه . الغوامض : المظلمة . الدرارى : المضيئة .

(٢) قوله فى إيرادهم : أى مجيئهم من حيث إنهم مخلوقون من نطفة واحدة . قوله : ونفاضلهم فى الأصدار : أى فى الانصراف حيث منهم من يذهب إلى الجنة ، ومنهم من يذهب إلى النار ، ويحتمل أن الإيراد : الممات ، والأصدار : البعث .

(٣) قوله إلا من الأشعار : أى : لم يبق إلا لفظهما .

المعنى والمبنى:

يقول الشاعر: إن حكم القضاء والقدر واقع لا محالة على الإنسان ، لأن الدنيا التى نحن فيها ليست بدار إقامة ، بل دار فانية ، وبينما ترى الإنسان فيها مخبراً عن الماضين ، حتى يرى خبراً من الأخبار الماضية وصار له ذكر يتحدث به مثلهم أى : بينما يرى حياً ، يرى ميتاً . وهذه الدنيا طبعت على المصائب والويلات فكيف بك تريدها أن تكون صافية من تلك الأحداث .

ومن يطلب من الدنيا ضد طبعها كالراحة والصفوة هو كمن يطلب جذوة من النار من الماء وهذا مستحيل . وإذا أردت المستحيل ، فإنما تبنى رجاءك على حرف واد تهوى إليه ، فما العيش إلا نوم وما المنية إلا يقظة والمرء بينهما كالطيف الذى يمر فى المنام ، ولا بقاء له .

الرقيق القيروانى

إبراهيم بن القاسم (ت ٤١٧ هـ)

وعرف بلقب الرقيق ، وينسب إلى بلده القيروان . ترجم له ابن رشيق فى الأنموذج ، ونقل عنه ياقوت فى معجمه . وقد نشأ وتعلم فى بلده القيروان حتى بلغ درجة من العلم اعترف بها أهله ومعاصروه . واهتم من بين العلوم بالأدب والتاريخ والشعر . وتولى الكتابة لباديس بن زيرى الصنهاجي صاحب القيروان ، وظل على رأس ديوان الرسائل عشرين عاماً ونيفاً .

وأوفده باديس مع هدية إلى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى عام ٣٨٨ هـ وألقى بين يديه قصيدة يقول فيها :

إذا ما ابن شهرٍ قد لبسنا شبابه ... بدا آخرٌ من جانب الأفق يَطْلُعُ
إلى أن أقرَّت جيزة النيل أعيناً ... كما قرَّ عينًا ظاعنٌ حينَ يرجع

ويقول مشيراً إلى الهدية التى جاء بها :

هدية مأمون السَّريرةِ ناصح ... أمينٍ إذا خانَ الأمينُ المضَيَّعُ
ومامثلُ باديسٍ ظهيرَ خلافةٍ ... إذا اختير يومًا للظهيرة موضِعُ
نصيرٌ لها من دولةٍ فاطميةٍ ... إذا ناب خطبٌ أو تفاقم مطمعُ
حسام أمير المؤمنين وسهمه ... وسمٌ ذعافٌ فى أعاديه مُنقعُ

وظل بمصر زمناً التقى فيه بجماعة من أدبائها وشعرائها ، وشاركهم مجالسهم ، وملاهيهم وتردد معهم على منازه مصر ، ورياضها ، واستمتع بما استمتعوا به من قصف ، وشراب بدير القصير ، وبركة الحبش ، والنيل .

وعاد إلى القيروان إلاّ أن ذكرى إقامته بمصر ظلت تداعب خياله ، وتسكن وجدانه . وعرف الرقيق بمؤلفاته التاريخية التى أرخ فيها لشمال أفريقية ، وكتابه المعروف بتاريخ أفريقية والمغرب كان مرجعاً لكثير من المؤرخين الذين جاءوا بعده ، واعتمدوا عليه، كابن الأثير فى كتابه الكامل ، وابن فضل الله العمرى ، وابن خلدون .

ومن كتبه المشهورة «قطب السرور» وهو فى أخبار الشراب والخمور ، وأخبار الشعراء ، والخلفاء ، والمغنين . وهو مجموعة من الطرائف الأدبية ، والنصوص الشعرية، ومجالس الأنس واللهو فى بلاطات العباسيين ، وقصور الصفوة ويضم أخباراً عن أهل بلد القيروان ، وأفريقية ، وأحوال كبار رجالها ، وأدبائها وشعرائها . وهو شبيه بما صنعه أبو الفرج فى الأغانى .

وشعره كقول ابن رشيق سهل الكلام ، محكم ، لطيف الطبع ، قوى .

قال يتشوق إلى مصر :

هَلْ الريح إن سارتْ مشرَّقَةً تسرى تؤدى تحياتى إلى ساكنى مصر
فما خطرت إلاّ بكيتُ صَبَابةً وَحمَّلتُها ما ضاق عن حمله صدْرى
تَراني إذا هبَّتْ قَبولا بنشرهمْ شَمَمْتُ نسيم المسْكِ من ذلك النَشر
وما أنس من شيءٍ خلا العهد دُونَهُ فليس بخالٍ من ضميرى ومن فكرى
ليالٍ أنسْنَاهَا على غِرَّةِ الصِّبا فطابتْ لنا إذ وافقت غرَّةَ الدَّهر
لعمرى لئن كانت قصاراً أُعدُّها فَلسْتُ بمعتدٌ سواها من العُمْر
أخادِع دهْرى أن يعود بِفُرْصةٍ فينقذ رُوحَ الوصْل من راحة الهَجر
وترجعُ أيامٌ خَلتْ بمعاهِدٍ من اللهْوِ لا تنفكُّ مِنّى لى ذِكْرِ
فكم لى بالأهرام أو دير نهيةٍ مصائد غزلان المكابد والفقر
إلى الجيزة الدنياَ وما قد تضمَّنَتْ جزيرتُها ذاتُ المواخر والجِسْرِ
وبالمقْسِ والبستانِ للعين منظرٌ أنيقٌ إلى شَاطِىءِ الخليج ، إلى القَصْرِ
وفى سَردُوسَ مستَرادٌ ومَلْعَبٌ إلى دير مَرْحنّا إلى ساحِلِ البحرِ
وكم بين بستان الأمير وقصرِهِ إلى البركةِ الزُّهراء من زهرٍ نَضْرِ
تَراها كمرآةٍ بدتْ فى رَفارفٍ من السُّنْدسِ الموشّى يَنْشَرُ للتَّجْرِ
وكم بتُّ فى دير القُصير مُواصلاً نهارى بليلى ، لا أُفيقُ من السُّكْرِ
تُبادرنِى بالرَّاح بكْرٌ غريرة إذا هتف الناقوسُ فى غرةِ الفجر
مَسيحيةٌ خَوْطيّةٌ ، كلّما انثنتْ تشكّتْ أذى الزّنّارِ من دقَّة الخَصْرِ
وكم ليلةٍ لى بالقرافةِ خلْتُها لما نلْتُ من لذّاتها ليلَةَ القدْرِ
سقَى الله صَوْبَ القَطْرِ تلْكَ المعانى وإنْ غنيت بالنيل عن مُسْبَلِ القَطرِ

- ٢ -

وقال :

أظالمةَ العينين يخلطها سِحْرُ ... وإنَ ظَلَمَ الخدَّان ، واهتُضِمَ الخَصْرُ
أعوذُ بَبْردٍ من ثناياك قد ثَنَى ... إليكَ قُلوبًا حَشْوُ أثنائها جَمْرُ
لقد ضَمِنَتْ فى الحبِّ أَنْ ضمانتى ... ستبرى عظامى بالنحول ولا تُبْرى
وما أمٌّ ساجِى الطَّرف خفاقة الحشَا ... أطاعَ لها الحوْذانُ والسَّلمُ النَّضْرُ
إذا ما رعاها نصَّتُ الجيد نَحوَه ... أغنٌّ قَصيرُ الخطْو فى لحْظه فَتْرُ
بأمْلَحَ منها منظراً ومُقلَّدا ... ولكنْ عَدَانى عنْ تَقَنُّصِهَا الهَجْرُ

يقول فى مديحها :

تصباهُ أبكار العُلاَ ليس بينَها ... منعمةٌ هيفَاءُ أو غادةٌ بكْر
يُخَالُ بأنَّ العرض غيرُ مُوفَّرٍ ... عن الذَّمِّ إلاَّ أن يدالَ له الوفْر

ويصف بلاغة الممدوح :

يوشِّحُ دِيْباجَ البلاغة أحرفاً ... يكادُ يُرَى روضًا يوشِّحُهُ الزَّهْرُ
ويفصحِ لفظاً خطُّها من فصاحةٍ ... وليشرق من تحبير ألفاظها الحبْرُ
يصيبُ عيونَ المشكلاتِ بديهةً ... وتبدى له أعقاب ما غيبَ الفِكرُ

- ٣ -

وقال متغزلاً :

رِيمٌ إذا ما معاريضُ المنَى خطَرتْ ... أجُلهُ المتمنِّى عن أمانيه
يا إخوتى أَأَقاحٌ فى مُقَبَّلِه ... أم خمرُ دارين مع مِسك على فيه
أم حُسنُ ذاك التراخي من تكلُّمه ... أم حُسنُ ذاك التهادِي فى تثنّيه
أم سخطه ، أم رِضاه ، أم تجنبه ... أم عطفُه ، أم نواه ، أم تدانيه
نفسِي فداؤك ، مالى عنك مصطبرٌ ... ياقاتلى كلٌّ معنى من معانيه

- ٤ -

وقال :

إذا ارجحنَّتْ بما تحوى مآزرها ... وخفَّ من فوقها خَصْرٌ ومنتَطَقُ
ثنى العبير غُصَينًا غازلته حبًا ... على كثيبٍ به مِنْ ديمةٍ لثقُ
للشمس ما سترت عنا معاجرُها ... وللغزال احورار العين والعُنُقُ
مظلومةٌ أن يُقالَ البدرُ يُشْبِهُها ... والبدرُ يَكسفُ أحيانًا ويَنْمَحِقُ
يُجَلِّلُ المتْن وحفٌ من ذوائبها ... جبينها تحتَ داجي ليله فَلَقُ
كأنَّها روضةٌ زَهراءُ حَاليةٌ ... بنوْرِها ، ترتعِى فى حُسْنِها الحدَقُ

الوزير المغربى

أبو القاسم الحسين بن على (ت ٤١٨ هـ)

عرف فى التاريخ وكتب الأدب باسم الوزير المغربى ، ولد سنة ٣٧٠ هـ ، وينتمى إلى أسرة فارسية ، ولقب بالمغربى لا انتماءَ مكان – فقد كان مشرقيا – بل انتماء عمل أحد آبائه ، وكان ولى فى بغداد ديوان المغرب . قال عن نسبه : «وكان جدُّ أبى وهو أبو الحسن على بن محمد يخلف على ديوان المغرب فنسب به إلى المغربى» .

خدم أبوه على سيف الدولة الحمدانى بحلب وابنه سعد الدولة من بعده ، ثم انتقل إلى مصر بعد موت سيف الدولة وابنه ، وكان ذلك فى عصر العزيز بالله نزار سنة ٣٨١ هـ وصحبه ابنه أبو القاسم ، وفى مصر عملا فى ديوان الرسائل للعزيز ثم للحاكم حتى أوقع الحاكم بوالد أبى القاسم وعمه وأخيه ، واستطاع هو الهرب إلى الشام ، ولجأ إلى آل المفرج بالرملة ، وهناك حاك مؤامرة ضد الحاكم بالاشتراك مع حسان ، ونصبا شريف مكة خليفة لينتزعاها عن الحاكم إلا أن هذا التدبير أخفق ، واستطاع الحاكم أن يشترى حساناً بالمال ، وعاد الخليفة المزعوم إلى بلده ، وفرّ الوزير المغربى أبو القاسم مرة أخرى من بطش الحاكم إلى العراق ، فاتصل بقرواش العقيلى صاحب الموصل ، لكن قرواشاً أبعده بعد تهديد الخليفة العباسى ، وظل أبو القاسم يتجول فى العراق ، واستطاع أن يصل إلى بغداد وأن يلى هناك الوزارة إلا أنه لم يلبث

طويلا حتى خلع وتوجه إلى ميافارقين بديار بكر شمال العراق حيث تولى الوزارة لصاحبها وظل الوزير المغربى هناك حتى توفى سنة ٤١٨ هـ وقد أوصَى بأن يدفن بالكوفة .

ويُعدّ أبو القاسم من الرجال الدهاة ، المغامرين ، عرف بذكائه ، وسعة اطلاعه ، وقد تلقى على كثير من علماء عصره ، واتصل بأبى العلاء المعرى بالمعرة وتوثّقت الصلة بينهما . وكان تقدير أبى العلاء من الدوافع التى حملته على تأليف رسالة الغفران فى الرد على ابن القارح الذى اتهمه المعرى بالقدح فى الوزير المغربى . مع أنه كان من أصدقاء آل المغربى وصحبهم بمصر .

وللوزير أبى القاسم - فضلاً عن شعره - رسائل متنوعة ، ومؤلفات فى اللغة والأدب والتاريخ والأنساب ، أشهرها « أدب الخواص » ، و « الإيناس فى الأنساب » .

وجمع له إحسان عباس شعره ، وهو جيد ، أعجب به معاصروه ومن بعدهم وتناقلوه فى كتبهم .

قال فى الحاكم :

[أنت] أعطيتنى كتاباً إلى رضوا ... ن حتى أُجزتُ خيرَ الجزاءِ
وسقتنى يداك من عَلَلِ الكو ... ثرِ كأساً شَفَتْ غليلَ ظمائى
أتمنّى لو راسلَتْكَ الأعادى ... ببليغٍ يُوفى على البلغاء
لترى موقفى هناك ، وسهلُ ... دون شأوى وواصلُ بْنُ عطاءِ

وقال :

الليلُ ميدانُ الهوى ... والكأسُ مجموعُ الأرَبْ
يا ربَّ ليلٍ قد قَصَرْ ... نا طولَه فيما نُحِبْ
لمَّا هززناه تلا ... قى طرفاه بالطرب
يلعبُ فى الخسران والط ... ـاعة ساعات اللعب
تحكى ثريّاهُ لِمَنْ ... يرنو إليها من كَثَبْ
خريطةٌ من أبيض الد ... يباجِ ما فيها عذب
والدّبران خلْفَها ... كفتحٍ بركارٍ ذَهَبْ
وهقعةُ الجوِّ كفسـ ... ـطاط عمود منتصب
ومنكبٌ كوجه مبـ ... ـشورٍ للحظ المرتقب
وهَنْعَةٌ كأنّها ... قَوس لندّاف عَطَبْ(١)
ثم الذراعُ شمعةٌ ... تشعل رأساً وذنب
وزبرة كأنها ... رُخّانِ فى خَشْتٍ ذَرِبْ

---

(١) العطب : القطن .

ونثرةٌ كَوَسْطِ مقـ ـلاعٍ كبيرٍ منتخب
والطرفُ طَرْفُ أسدٍ في عينه كُحْلُ الغضب
وجبهةٌ باديةٌ كمنبرٍ لمختطب
وَصرفَةٌ تخالها في الجوِّ مسماراً ضُرب
وتحسبُ العوَّاءَ في آفاقها لاماً كُتب
ثم السماكُ مفرداً كَغُرَّةِ الطِّرف الأَقَبّ(١)
كأنه والغفرُ ميـ ـزان إمامٍ يَحْتَسِبْ
يدنو إليه عرشُه يريكَ تابوتاً نُصب
ثم الزُّبانَى عاشقا ن ذا إلى هذاك صَبّْ
تكالما من بُعُدٍ وحاذرا من مرتقب
ونظم الإكليل والقلـ ـب جوارٍ تقترب
كمشعلين رُفِعَا مختلفين في النصب
وشولةٌ تخبر عن قُرْبِ الصباحِ بالعجب
كجانب من عَقْدِ أُرْ جوحةِ حَبْلٍ مضطرب
وبعدها نعائمٌ مختلفاتٌ في الطلب
فهذه صادرةٌ وهذه تبغى القَرَب
كمضجعي غانيتـ ـين يلعبان في الترب
فغادرا من بَدَدِ الحَـ ـلْيِ كجمرٍ ملتهب
وبلدةٌ مثل شِنَا نٍ فارغٍ لما يجب

(١) الطرف : الفرس ؛ الأقب : الضامر .

كأنها صدرٌ سلا — من بعد ما كان أحب
وجاء سعدٌ ذابحٌ — وبُلَّعٌ على العَقِبْ
كأن ذا قوسٌ وذا — سهمٌ عن القوسِ ذهب
وذو السعودِ ثابتٌ — عن ذابحٍ إذا غرب
وبعد ذو أخبيةٍ — خُنْسٍ قصيراتِ الطنب
كجؤجؤ البطةِ مع — منقارِهَا إذا انتصب
وأسفَرَ الفرغان عن — أربعةٍ من الشهب
كأنها أركانُ قصـ — ـرٍ عِزُّهُنَّ قد خرب
والحوتُ يطفو فإذا — ما طفح الفجرُ رَسَبْ
والشَّرَطَان الصولجا — نُ عند لعَّابٍ دَرِبْ
ثم البُطَيْنُ بعده — مثلُ أثافيٍّ اللهب
كأنما الحادى له — فى صحة التقدير أب
تجزعها مَجَرَّةٌ — من قُطُبٍ إلى قُطُب
كأنها جسرٌ على — دجلةَ مبيَضُّ الخشب
أعطيتُ ريعانَ الصبا — من المجونِ ما أحب
ثم رجعتُ سائلاً — لذى المعالى والحجب
لمن يجيب من دَعَا — فضلاً ويعطى من طلب
إذا استنيل لم يَهَبْ — من الكثيرِ ما يهب
سألته مغفرةً — لما اجتنيتُ فى الحقب
وكنتُ جهدى شرَّ — عبدٍ فليكنْ لى خيرَ ربّ

وقال فى حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح :

أمّا وقد خيمتُ وَسْطَ الغابِ فليقْسُوَنَّ على الزمانِ عتابى
يترنَّم الفولاذُ دون مُخَيَّمى وتُزَعْزَعُ الخرصانُ دون قبابى
وإذا بنيتُ على الثنيَّةِ خيمةً شُدَّتْ إلى كِسَرِ القنا أطنابى
وتقوم دونى فتيةٌ من طيِّءٍ لم تلتبس أثوابُهُمْ بالعاب
يتناثرون على الصريخِ كأنهم يُدعَوْنَ نَحو غنائمٍ ونهاب
من كلِّ أهرتَ يرتمى حملاقُه بالجمر يومَ تسايُفٍ وضراب
يهديهم حسَّانُ يحملُ بزَّهُ جرداءُ تُعْلِيهِ جناحَ عقاب
يجرى الحياءُ على أسرَّةِ وجهه جَرْىَ الفرند بصارمٍ قَضَّاب
كَرَمٌ يشقُّ على التلادِ وعزمةٌ يغتالُ بادرَهَا الهِزبرَ الضابى
ولقد نظرتُ إليك يا ابنَ مفرِّجٍ فى منظرٍ ملءِ الزمانِ عجاب
والموتُ ملتفُّ الذوائبِ بالقنا والحربُ سافرةٌ بغيرِ نقاب
فرأيت وجهك مثل سيفك ضاحكاً والذعرُ يُلْبِسُ أوجهاً بتراب
ورأيت بيتَكَ للضيوفِ ممهَّداً فسحَ الظلالِ مرفَّعَ الأبوابِ
يا طيءَ الخيراتِ بين خلالكم أمنُ الشريد وهمَّةُ الطلاب
سُمكَتْ خيامُكم بأسنمةِ الربى مرفوعةً للطارق المنتاب
وتدلُّ ضيفَكم عليكم أنؤرٌ شُبَّتْ بأجذالٍ قُهِرْنَ صعاب
متبرجاتٌ باليَفَاعِ وبعضهم بالجزع يَكْفُرُ ضَوْءَهُ بحجاب
كلأتكمُ ممن يعادى هيبةٌ أغنتكمُ عن رِقْبَةٍ وجناب

فيسير جيشكمُ بغيرِ طليعةٍ ويبيتُ حيُّكمُ بغيرِ كلاب
تتهيبون وليس فيكم هائبٌ وتَوثُّبونَ على الردى الوثاب
ولكم إذا اختصم الوشيجُ لباقةٌ بالطعن فوق لباقة الكتاب
فالرمحُ ما لم ترسلوه أخطلٌ والسيفُ ما لم تُعْملوه ناب
يا معنُ قد أقررتمُ عينَ العلا بى مذ وصلتُ بحبلكم أسبابى
جاورتكم فملأتمُ عينى الكرى وجوانحى بغرائبِ الإطراب
من بعد ذعرٍ كان أحفزَ أضلعى حتى لضاقَ به علىَّ إهابى
ووجدتُ جار أبى النَّدى متحكماً حُكْمَ العزيزِ على الذليلِ الكابى
فليهنه مِنَنٌ على متنزِّه لسوى مواهبِ ذى المعارجِ آبى
قد كان من حُكْمِ الصنائعِ شامساً فاقتاده بصنيعةٍ من عاب
فلأنظمنَّ له عقودَ محامد تبقى جواهرها على الأحقاب
لا جاد غَيْركُمُ الربيعُ ولامَرَتْ غُزْرُ اللقاحِ لغيركم بحِلابِ
أنا ذاكرُ الرجلِ المندد ذكره كالطَّوْدِ حُلِّىَ جيده بشهاب
ولقد رجوتُ ولليالى دولة أنى أجازيكم بخيرِ ثواب

وقال (١) :

مرضٌ بقلبك لا يُعادُ وقتيل حبٍّ ما يقادُ
يا آخرَ العشّاقِ ما أبصرتَ أولها يقاد
يقضى المتيم منهم نحبا ولو ردُّوا لعادوا

(١) هى فى سبعة وثلاثين بيتاً ، ولكنى لم أستطع قراءة أبيات كثيرة منها .

ملكوا النفـوس فـهل لهـا … من بعـدها مـا يسـتـعـاد
مـا خلـت غـزلان اللـوى … كظبـاء مكة لا تصـاد
بالعـذل يوقـد لوعـتي … وبقـدحـه يورى الزناد
لـم يسـتطع إطفـاءها … دمع كـمـا انخـرق المزاد
لا أشكونْ جـرحي فللعـذ … ال ألـسـنـة حـداد
طـمِـعٌ وأنـت بـرامـة … في من تضـمنه النجـاد
والحيُّ قـد هبطت خـيـا … مـهم وقـعـقـعت العـمـاد
والـورد مـن زهـر الخـدو … د كـمـامـه الكِلَلُ الوراد
لـو يـسـمـعـون بوقـعـه … أتت المطايا والجـيـاد
ولأجلهـا غـبط الغـبـيـ … ـط حجـاب قلبي والسواد
تـعـفـو المنازل إن نأوا … عنهـا وتغـبـرُّ البـلاد

وقال (١) :

والحيّ أولى بالبلى شوقاً إذا بَلِيَ الجماد
أو ما رأت قلبى قريش وهو للجلّى عماد
وله المعانى [والمبانى] والكلام المستفاد
فكأنه قس وهاشم حول منطقه إياد
يا مصعباً جرّته فى أرسانها اللمم الجواد
ولمن رضاب النحل يشهد أن ريقته شهاد
قد كان قبلك فى سبيل الحب لى أبداً جهاد
حتى عفا ذاك الغرام وغاية النار الرماد
فإذا رأيت الكون فاعلم أن سيتبعه فساد
واعجب لقوم فى الزمان على السفاهة كيف سادوا
لا عندهم كلهم يعز ولا نضار يستفاد
استغفر الله العلى لقد تذأبتِ النقاد

(١) هى فى سبعة وثلاثين بيتاً ، فى مخطوطة « نكت الوزراء » ، الورقة ٥٧ ب – ٥٨ / أ ، ولكنى لم أستطع قراءة أبيات كثيرة منها .

وقال يصف الشمعة :

وصفر كأطرافِ العوالي قُدودُهَا قيامٍ على أعلى كراسٍ من التبر
تلبَّسْنَ من شمسِ الأصيلِ غلائلاً وأشرقن في الظلماءِ في الخِلَعِ الصفر
عرائسُ يجلوها الدجى لمماتها وتحيا إذا أذرتْ دموعاً من الجمر
إذا ضُرِبَتْ أعناقُها في رضى الدجى أعارتْهُ من أنوارها خِلَعَ الفجر
وتبكي على أجسامها بجسومها فأدمعها أجسامها أبداً تجرى
عليها ضياءٌ عاملٌ في حياتها كما تعملُ الأيامُ في قِصَرِ العمر

واعتل إلفه بعد هجرة بينهما ومات فقال يرثيه :

لقد بؤتُ من دينِ المروءةِ بالكفرِ وأصبحتُ أغشى صفحةَ الغدرِ بالغدرِ
عصيتُ الهوى العذريَّ في هجرِ شادنٍ أضعتُ بهجراني له فرصةَ الدهر
نَمَى في حُجُورِ الملكِ ثم ملكتُهُ بظلِّ شبابٍ حازه لي وما أدرى
فقيِّد فتكي في هواه إنابةٌ إلى الله خلَّتْ دمعَهُ واكفاً يجرى
يهونُ عليه أن تُساعِفَهُ المنى وأُرْجَمَ يومَ البعث في لَهَبِ الجمر
وما زال هجرانيه حتى تركتُهُ جديثاً برغمي مودَعاً أضلعَ القبر
لقد كاد ذاك القبرُ يومَ أزورُهُ يعلِّقُ ثوبي شاكياً ألمَ الهجر
نفسيَ مَنْ خوفي من الإثمِ قادني إلى الإثم فاستوفيتُ من قتله وزري

وكتب إلى إلف له كانت بينه وبينه مخالفة على مذهب التصوف:

يا مَنْ لقلبٍ هائمٍ لم يستطعْ ... ذِكْرَ اسم مَنْ يهواهُ من إشفاقِه
ولعاشقٍ غلبتْ عليه خَجْلَةٌ ... فكأنه المعشوقُ فى إطراقه
يَنْهَى عن البثِّ المريحِ لسانَه ... فيموتُ مطوّياً على أشواقه
سمع الغناءَ فردَّ سَيْلَ دموعه ... من بعد ما ذابتْ على آماقه
عبثٌ من الأشواقِ لو هُزَّتْ به ... أعطافُ غُصْنٍ سُلَّ من أوراقه
كَتَمَ الهوى من بعد ما نَمَّتْ به ... ريّا كنشرِ الروضِ من أخلاقه
ولدى الهوى العذرىِّ طيبُ شمائلٍ ... ما مثلها يَخْفَى على ذواقه
وأرى اللقاءَ مع الحياءِ مقابلاً ... منى ومنه مثل بعد فراقه
أو يجمع الشوقُ المبرِّحُ طالباً ... ما بين مركزِ دُمْلُجَيْهِ وساقه

وقال:

ولى جارةٌ لا يُلِمُّ الكرَى ... بأجفانها الدُّعْجِ فيما يُلِمْ
تردُّ فضولَ أحاديثِها ... إلى ضَحِكٍ لم يُعَوِّقْهُ هم
وآوى بوجدى إلى زفرةٍ ... تكادُ تبلُّ لهاتى بدم
فيا جارتى بُعْدَ ما بيننا ... وما كان بيتُكِ منّى أَمَمْ
فأُقسم لو فى يدى مهجتى ... لأعفيتُها من مِطالِ الألم
ولكنّها فى يدىْ مالكٍ ... إليه الشفاءُ ومنه السقم
هو المحسنُ البَرُّ فى ما قضاهُ ... والحاكمُ العدلُ فى ما حكم
وإنى وإن حجبتنى الذنوبُ ... فمنى السؤالُ ومنه الكرم

ابن درّاج القسطلى

(٣٤٧ - ٤٢١ هـ)

أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصى المعروف بابن درّاج أعظم شعراء الأندلس فى القرن الرابع ، ولد فى قرية من أعمال جيان تدعى قسطلّة درّاج ، إذ كان أجداده قد سكنوها وتداولوا رياستها ، وأسرته تنتمى إلى قبيلة صنهاجة البربرية التى استقرت فى هذه المنطقة منذ فتح الأندلس . ولسنا نعرف شيئا عن طفولته ولا صباه ، إذ أن أول ما نعرفه عنه هو ظهوره فجأة في بلاط المنصور بن أبى عامر فى سنة ٣٨٢هـ ، وابتداءً من هذا التاريخ يمكن تقسيم حياة ابن دراج إلى مراحل أولاها حياته فى ظل الدولة العامرية (بين ٣٨٢ و ٣٩٩هـ) وفيها أصبح الشاعر الأول فى بلاط المنصور بن أبى عامر وابنيه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن الملقب بشنجول . وكانت فترة حكم المنصور متسمة بمواصلة الجهاد ضد الممالك المسيحية فى الشمال ، وكثيراً ما كان ابن دراج يرافق المنصور فى هذه الغزوات ويصف ما يدور فيها من وقائع الحرب وصفاً حياً يشيد فيه بانتصارات الحاجب العامرى الذى لم تهزم له راية حتى إن مواطنيه لقبوه بمتنبى الأندلس إذ كان شعره فى الإشادة بالمنصور يماثل شعر المتنبى فى وقائع سيف الدولة بالروم . ويعد شعر ابن دراج خلال هذه الفترة العامرية سجلا صادقا لحياة الأندلس فى ظل المنصور وابنيه . والمرحلة الثانية من حياته تبدأ باشتعال الفتنة والحروب الأهلية فى قرطبة سنة ٣٩٩هـ وتنتهى بلجوئه إلى سرقسطة فى سنة ٤٠٨هـ، وكانت سنوات من التشرد والتنقل بين العديد من المدن الأندلسية مثل غيره من اللاجئين

الفارين من عاصمة الخلافة السابقة . خلال هذه الفترة الحزينة من حياة ابن دراج يتوجه بمدائحه إلى أمراء المدن التى تردد عليها باحثا عن مأوى جديد ، ومنهم خيران العامرى أمير مدينة المرية وغيره من أمراء الطوائف . وفى هذه القصائد يعبر عن مأساة الأندلس التى مزقتها الحروب الأهلية وألجأت أهلها إلى التشرد والضياع . وانعكست هذه المأساة على حياته هو وأسرته الكبيرة التى كانت تجاوز اثنى عشر فرداً ظل يتنقل بهم بين مكان وآخر حتى انتهى به المطاف فى سنة ٤٠٨هـ إلى سرقسطة فى بلاط التجيبيين أمراء الثغر .

وفى سرقطة تبدأ مرحلة جديدة من حياة ابن دراج تمتد إلى سنة ٤١٩هـ ، وفيها يصبح شاعر أمير البلد منذر بن يحيى التجيبى وشاعر ابنه يحيى بن منذر من بعده ، يشيد بسياسته التى كانت تقوم فى علاقاته بجيرانه من ملوك المسيحية بالمزاوجة بين الحرب والمهادنة ، يتاح له خلال هذه الفترة شئ من اليسار والثروة وإن كان لايكف عن تذكر أيامه الماضية فى قرطبة وعن بكاء المصير الحزين الذى انتهت إليه الأندلس من تمزق بعد وحدة وضعف بعد قوة .

ويظهر أن العلاقات ساءت بينه وبين الأمير يحيى بن منذر التجيبى بعد نحو اثنى عشر عاماً من المقام فى سرقسطة ، فإذا بنا نراه يهاجر من جديد ويتوجه هذه المرة وهو فوق السبعين من عمره إلى ثغر دانية الذى كان يحكمه مجاهد العامرى فيتوجه إليه بمدحة تبدو آخر ما نظمه من شعر ، إذ أنه لا يلبث أن ينتقل إلى جوار ربه بعد نزوله دانية بسنتين فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٤٢١ هـ (يونيه ١٠٣٠ م) .

ويجمع نقاد الأندلس على أن ابن دراج هو أعظم شعراء الأندلس خلال القرن الرابع الذى بلغت فيه هذه البلاد أوج عظمتها السياسية والعمرانية والثقافية ويسميه ابن حيان « سباق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين » .

وشعره يجمع بين الغوص على المعانى واستقصائها وتوليد الصور والاهتمام الفائق بالصياغة واختيار الألفاظ ، مع العناية بتلاحم أجزاء القصيدة وطول النفس ، مع الإجادة فى وصف مشاهد الحرب ، فكأنه كان مزيجاً من أبى تمام وابن الرومى والمتنبى ، وقد ذاع شعره فى المشرق فى حياته ، فاختار له الثعالبى نماذج عديدة فى كتابه « يتيمة الدهر » وهو صاحب عبارة « كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام » .

وقال من قصيدة أولها (١) (من البسيط)

– ١ –

في الغـزل :

لَوْلاَ التَّحرُّجُ لم يُحْجَبْ مُحَيَّاك (٢) … ....

وَحْشِيَّةَ اللَّفْظِ هل يودِى قتيلُكُمُ ؟ … دمى مُضاعٌ ، وجاني ذاك عيناكِ

إنِى أَراكِ بقتلِ النفس حاذقةً … قُولى – فَدَيْتُكِ – مَنْ بالقَتْلِ أوصاكِ ؟

مالِي وللبرقِ أَستسقيه من ظَمَأٍ ؟ … هيهاتَ ، لا رِيَّ إلا مِنْ ثَنَاياكِ

لولاَ الضلُوع لَظَلَّ (٣) القلبُ نَحْوَكُمُ … ضَعِى بعَيْشِكِ فوق القلب يُمنَاكِ

أَصْلَيْتني لوعةَ الهِجْرانِ ظالمةً … رُحْماكِ من لوعة الهجران رُحماكِ !

أَظَنَّ عَزْمُكِ أن أَخفى لأَسْلُوَكُمْ ؟ … حُلِّى عَزِيمِىَ ، إنِّى لَسْتُ أَسْلاكِ !

حاشاكِ أن تَجْمعِي حُسْنَ الصفَّاتِ إلى … قُبْحِ الصنيعِ بِمَنْ يهواكِ حاشاكِ !

إن كانَ واديكِ ممنوعاً فموعدُنا … وادى الكَرى فلعلِّى فيه أَلْقاكِ (٤)

ظَبْىٌ وقَلْبٌ فَمَنْ لى أن أَصِيدَهُما … ضاعَ الفؤادُ وقَلْبُ الظَّبْيِ أَشْراكِي

(١) الثعالبى : يتمية الدهر ٢ / ١٠٤ – ١٠٥

(٢) لم يحتفظ الثعالبى إلا بشطر هذا المطلع ؛ وقد أورد ابن خلكان م هذه القطعة بيتا واحدا ، انظر وفيات الأعيان ١ / ١٢٢ .

(٣) كذا ، وتبدو قلقة فى هذا الموضع ، ولعل صحتها : لطار .

(٤) أورد هذا البيت ابن خلكان فى الوفيات .

– ٢ –

في مدح المنصور بن أبي عامر : (*) (من الطويل)

دَعِي عَزَمَاتِ المستضامِ تسيرُ فتنجدُ في عرضِ الفلا وتغورُ
لعلّ بما أشجاكِ من لوعةِ النّوى يعزُّ ذليلٌ أو يُفكُّ أسيرُ
ألم تعلمي أن الثَّواءَ هو التَّوى وأنّ بيوتَ العاجزين قبورُ
ولم تزجُرِي طيرَ السُّرى بحروفها فتنبئكِ إنْ يَمَّنَّ (١) فهي سرورُ
تخوّفني طولَ السِّفارِ وإنّه لتقبيلِ كفِّ العامريِّ سفيرُ
دعيني أردْ ماءَ المفاوزِ آجناً إلى حيثُ ماءُ المكرماتِ نميرُ
وأختلسِ الأيامَ خُلْسَةَ فاتكٍ إلى حيثُ لي من غدرهنّ خفيرُ
فإنّ خطيراتِ المهالكِ ضُمَّنٌ لراكبها أنّ الجزاءَ خطيرُ
ولمّا تدانتْ للوداعِ وقد هفا بصبريَ منها أنّةٌ وزفيرُ

(*) وردت مقتطفات من هذه القصيدة في المراجع الآتية :

– ابن بسام : الذخيرة – ق ١ – ١ / ٦٥ – ٦٧ (تسعة وعشرون بيتا) .
– الثعالبي : يتيمة الدهر – ٢ / ١١٢ – ١١٤ (ثمانية وثلاثون بيتا) .
– ابن خلكان : وفيات الأعيان (بتحقيق الأستاذ/محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط القاهرة سنة ١٩٤٨) ١ / ١١٧ – ١٢٠ (خمسة وعشرون بيتا) .
– ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب (ط . القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ .) ٣ / ٢١٨ – ٢١٩
– المقري : نفح الطيب (ط . ليدن) ١ / ٢٦٤ (بيتان) ؛ ٢ / ١٣٢ (ثلاثة عشر بيتا) ؛ ٢ / ١٥٥ (ثلاثة أبيات) .
– الشريف الغرناطي : شرح مقصورة حازم القرطاجني ١ / ٤٣ (أربعة أبيات)
– ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ٢/ ٢٧٤ (بيتان) .
– عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب (بتحقيق الأستاذين/محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي – ط . القاهرة سنة ١٩٤٩) ص ٣٩ (بيتان) .
– ابن فضل الله العمري : مسالك ١١/ ٢٠٢ – ٢٠٣ (ثلاثة وعشرون بيتا) .

(١) في الأصل : يممن ، وقد آثرنا قراءة اليتيمة . ومعنى يمن : سرن يمينا .

تناشدني عهدَ المودّةِ والهوى[1] وفي المَهْدِ مبغومُ النداءِ صغيرُ
عَيِيٌّ بمرجوعِ الخطابِ ولفظُهُ بموقعِ أهواءِ النفوسِ خبيرُ
تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ ومُهِّدَتْ له أذرعٌ محفوفةٌ ونحورُ
فكلٌّ مُفدّاةُ الترائبِ مُرضِعٌ وكلٌّ مُحَيَّاةُ المحاسنِ ظيرُ
عَصَيْتُ شفيعَ النفسِ فيه وقادني رَوَاحٌ لتدآبِ السُّرى وبكورُ
وطار جَناحُ الشوقِ بي وهَفَتْ بها جوانحُ من ذُعْرِ الفراقِ تطيرُ
لئنْ ودّعتْ مني غَيوراً فإنّني عَلَى عَزْمَتي من شَجْوِها لَغَيورُ
ولو شاهَدَتْني والصَّواخِدُ تلْتظي عَلَيَّ ورقراقُ السرابِ يَمُورُ
أُسلِّطُ حَرَّ الهاجِراتِ إذا سَطَا على حُرِّ وَجْهي والأصيلُ هَجيرُ
وأَسْتنشقُ النكباءَ وهي بوارحٌ وأَسْتَوطِئُ الرَّمْضاءَ وهي تفُورُ
ولِلْموتِ في عيشِ الجبانِ تلوُّنٌ وللذُّعْرِ في سَمْعِ الجريءِ صَفيرُ
لَبَانَ لها أنّي من الضَّيْمِ جازعٌ وأنّي على مضِّ الخطوبِ صبورُ
أسيرٌ على غَوْلِ التنائفِ مالَهُ إذا رِيعَ إلاّ المَشْرَفيَّ وزيرُ
ولو بَصُرَتْ بي والسُّرى جُلُّ عَزْمَتي وجَرْسِي لجِنّانِ الفَلاةِ سَميرُ
وأَعْتَسِفُ المَوْمَاةَ في غَسَقِ الدُّجى وللأُسْدِ في غِيلِ الغِياضِ زئيرُ
وقد حَوَّمَتْ زُهْرُ النُّجومِ كأنّها كواعبُ في خُضْرِ الحدائقِ حُورُ
ودارَتْ نجومُ القُطْبِ حتّى كأنّها كُئوسُ مَهاً والَى بهِنَّ مُدِيرُ
وقد خَيَّلَتْ طُرُقُ المَجَرَّةِ أنّها عَلَى مَفْرِقِ الليلِ البهيمِ قَتيرُ
وثاقِبُ عَزْمي والظلامُ مُرَوَّعٌ وقد غَضَّ أجفانَ النجومِ فُتورُ
لقد أيقَنَتْ أنَّ المُنى طَوْعُ همّتي وأنّي بعطفِ العامريِّ جديرُ

(١) في الأصل ، والنوى ، وقد آثرنا القراءة التي أجمعت عليها الذخيرة واليتيمة .

وأنّى بذكراه لِهَمّىَ زاجرٌ ... وأنّىَ منه للخطوب نَذيرُ

وأىُّ فتًى للدين و الملك والنّدى ... وتصديقُ ظنّ الراغبين نزورُ

مُجيرُ الهدى والدينِ من كلِّ مُلحدٍ ... وليس عليه للضلالِ مُجيرُ

تلاقتْ عليه من تميمٍ ويعربٍ ... شموسٌ تلالاَ (١) فى العلا وبدورُ (٢)

منَ الحميريّين الّذين أكفُّهم ... سحائبُ تهمى بالنّدى وبحورُ (٣)

ذوو دوَلِ المُلْكِ الّذى سَلَفَتْ بها ... لهم أعصرٌ موصولةٌ ودهورُ

لهم بَذَلَ الدهرُ الأبىُّ قيادهُ ... وهم سكّنوا الأيّامَ وهى نفورُ

وهم ضربوا الآفاقَ شرقاً ومغرباً ... بجمعٍ يسيرُ النّصرُ حيثُ يسيرُ

وهم يستقلّونَ الحياةَ لراغبٍ ... ويستصغرونَ الخطبَ وهو كبيرُ

وهم نصروا حزبَ النّبوّةِ و الهدى ... وليس لها فى العالمينَ نصيرُ

وهم صدّقوا بالوحيِ لما أتاهمُ ... وما النّاسُ إلا عاندٌ وكفورُ

مناقبُ يعيا الوصفُ عن كُنهِ قدرها ... ويرجعُ عنها الوهمُ وهو حسيرُ

ألا كلُّ مدحٍ عن مداكَ مقصّرٌ ... وكلُّ رجاءٍ فى سواكَ غرورُ

تملّيتَ هذا العيدَ عدّةَ أعصرٍ ... تواليكَ منها أنعمٌ وحبورُ

ولا فقدتْ أيامَكَ الغرَّ أنفسٌ ... حياتُكَ أعيادٌ لهم وسرورُ

ولما توافوْا للسّلامِ ورُفّعتْ ... عن الشمسِ فى أُفُقِ الشّروقِ ستورُ

---

(١) نفح (٢ / ١٣٢) : تلاقى ، هذا وقد جاءت فى موضع آخر من نفح الطيب نفسه « تلالا » كما هى (١ / ٢٦٤) .

(٢) فى الأصل : ويدور ، وقد آثرنا القراءة التى أجمع عليها نفح الطيب فى الموضوعين ، كذلك البيان المغرب واليتيمة ، والمعجب .

(٣) علق عبد الواحد المراكشى فى المعجب على هذين البيتين بقوله : وكان [يعنى المنصور بن أبى عامر] معافرى النسب وأمه تميمية اسمها فريهة بنت يحيى بن زكريا التميمى كان يعرف بابن برطل ، ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المعروف بالقسطلى من قصيدة له ...... (ثم ساق البيتين) .

وقَـدْ قـامَ من زُرْقِ الأَسنَّة دُونَهـا صـفـوفٌ ومن بيضِ السُّيُوفِ سُطُور
رأَوا طاعـةَ الرَّحـمنِ كَـيفَ اعـتزازُها وآيات صُنْعِ اللّه كـيفَ تنيـر
وكَيفَ استوى بالبَحرِ والبَدْرِ مَجْلِسٌ وقـامَ بعبْءِ الرَّاسـيـاتِ سَـرير
فـسـاروا عـجـالاً والقُلوبُ خَـوافقٌ وأُدْنوا بـطـاءً والنَّـواظِرُ صُـور
يَقُـولُونَ والإجْـلالُ يُخْـرِسُ أَلْسُناً وحـازَتْ عُـيُـونٌ مـلأَها وصُـدُور
لَقَـدْ حـاطَ أَعْـلامَ الهُـدى بكَ حـائطٌ وقَـدَّرَ فـيكَ المَكْرُمـاتِ قـدير
مُـقـيـمٌ عَلَى بَذْلِ الرَّغـائبِ واللُّهى وفِكْرُكَ في أَقْـصى البِـلادِ يَسـيـر
وأَينَ انْتَـوى فَلَّ الضَّـلالَةَ فَـانْتَـهى وأَينَ جُـيُـوشُ المسلمـينَ تغـيـر
وحَـسْبُكَ من خَفْضِ النَّعيمِ مُعَـيَّداً جـهـازٌ إلى أَرْضِ العـدى ونَفـيـر
فَـقُـدْها إلى الأَعْـداءِ شُعْـثاً كـأَنَّهـا أَراقِمُ فى شُمِّ الرُّبى وصُـقُـور
فَـعَـزْمُكَ بالنَّصْـرِ العَـزيزِ مُـخَـبِّـرٌ وسَـعْـدُكَ بالفَـتْحِ المُبينِ بَشـيـر
ونادَاكَ يا بْنَ المُنْعِـمـينَ ابنُ عَـشْـرةٍ وعَـبْـدٌ لنُعْـمـاكَ الجِسـامِ شَكُور.
غَنيٌّ بجَـدْوى راحَـتَـيْكَ وإنَّهُ إلى سَـبَبٍ يُدْني رِضـاكَ فَـقـيـر
ومِنْ دُونِ سِـتْرَيْ عِـفَّتي وتَجَـمُّلي لَرَيْبٌ وَصَـرْفٌ للزَّمـانِ يَجُـور
وضَـاءَلَ قَـدْري فى ذَرَاكَ عَـوائقٌ جَرَتْ لي بَرْحـاً والقَـضـاءُ عَـسـيـر
ومـا شَكَـرَ « النَّخْعيُّ » شُكْري ولاَ وَفَى وفـائى ـ إذْ عَزَّ الوَفـاءُ ـ « قَـصير »
فَقُدني لِكَشْفِ الخَطْبِ والخَطْبُ مُعضلٌ وكِلْنى للَيْثِ الغـابِ وَهْوَ هَصُـور
فَقَـدْ تَخـفِـضُ الأَسماءُ وَهيَ سَواكِـنٌ ويَـعْـمَـلُ فى الفِعْلِ الصَّحيحِ ضَمير
وتَنْبُـو الرُّدَيْنيَّـاتُ والطُّولُ وافِـرٌ وينفُـذُ وَقعُ السَّـهْمِ وَهْوَ قَـصـيـر
حنانَيْكَ فى غُـفـرانِ زَلَّةِ تائِبٍ وإنَّ الَّذى يَجْـرِى به لَغَـفُـور

- ١٦ -

وورد الخبر على «المنصور» بظهور خيل «لابن شَنج (١)» على أهل «قَلْعَة أيُّوب(٢)» وقتلِهِم أخاً واليها «حَكَم بَن عبد العزيز التُّجيبي (*)» وقوماً معه . فأمر المنصورُ بضربِ أعناقِ من كان فى أسرِه بقرطُبَةَ من فُرْسان ابن شنج وأقاربِه الأشْراف الذين

(١) يعنى بابن شنج فى الغالب ملك البشكنس (نبارة) صاحب بنبلونه ، وإذا كنا نرجح أن تاريخ هذه القصيدة هو سنة ٣٨٧ (٩٩٧) كما سنبين فإن « ابن شنج » هذا ينبغى أن يكون غرسية بن شانجه المعروف بالرعديد El Temblon الذى كان يحكم نبارة بين سنتى ٣٨٤ و٣٩١ هـ (٩٩٤ - ١٠٠٠م) ؛ (انظر تعليقنا على ص ٣٨٠) .

(٢) من أعمال سرقسطة ، وتقع إلى الجنوب الشرقى منها وتنسب إلى أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى ابن نصير ووالى الأندلس بين سنتى ٩٧ و ١٠٠ هـ (٧١٦ - ٧١٩) ، وتسمى الآن Calatayud .

(*) لم تحفظ المراجع الأندلسية التى وقعت إلينا ترجمة تعرف بحكم بن عبدالعزيز هذا ، غير أننا وجدنا فى «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ص ٤٠٤ - ٤٠٥) تفصيلا لنسب التجيبيين فى سرقسطة ودروقة Daroca وقلعة أيوب Calatayud ، وقد جاء فيه ذكر لرجل منهم هو حكم بن عبد العزيز بن حكم بن المنذر ابن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله بن المهاجر ، وكان جده الأعلى عبد الرحمن بن عبد العزيز واليا على دروقة وقلعة أيوب ، وولى جده المباشر حكم بن المنذر على قلعة أيوب أيضا لعبد الرحمن الناصر إذ كان قد والاه على أخيه سليمان الشويرب الذى ثار على الخليفة فى ذلك الوقت ، أما أبوه عبد العزيز فقد ولاه المنصور بن أبى عامر على قلعة أيوب لسبب مماثل إذ أنه والى المنصور على أخيه هاشم الذى اشترك فى التآمر على ابن أبى عامر مع القائد غالب ، ولهذا فإننا نرجح أن حكما المذكور هنا هو ابن لعبد العزيز والى قلعة أيوب للمنصور ، وربما كان ابن أبى عامر عهد إليه بمنصب أبيه بعد موته إن لم ينص ابن حزم على ذلك ، أما أخوه الذى قتل فى غارة «ابن شنج» على قلعة أيوب فلسنا نعرف اسمه ولكنه قد يكون واحداً من الإخوة الثمانية الذين أورد ابن حزم أسماءهم .

ظَفِرَ بهم في مدينةَ « أُونَة قَشْتيل (١) » وغيرها من بلاد « بَنْبلُونة » ، وركب ابنه « عبد الرحمن بنُ المنصور (٢) » إلى باب السُّدَّة (٣) بقصرقرطبة وضرب بينَ يديه رِقابَ خمسين رجلاً منهم صَبْراً ، وقَتَلَ عبدُ الرحمنِ بيده رحمه الله تعالى شريفًا منهم وهُمْ أخْوالُه ، فقالَ أبو عمرَ بن درَّاج القَسْطَلِّيّ (٤) رحمهُ الله في ذلك :

يا غياثَ العبادِ إن بَخِلَ المزْ ... نُ سقاهُمْ وَبْلاً وما استَمْطَروهُ

والذى أمَّنَ العبادَ ببيضٍ ... مرهفاتٍ لقاؤهُنَّ كَريهُ

شَهِدَ الناسُ أمس ما لَمْ يروه ... في الذى أدركوا ولا شهدوهُ

قَتَلَ المشركونَ منّا شهيداً ... فتمنّوا بأنَّهم أنشروهُ

سُفِكَتْ بالدَّمِ الكريمِ دماءٌ ... وكذا يُوبِقُ الحليمَ السَّفيهُ

قَتلوه مُصفَّداً فَودوه ... ولو عَلا ظَهرَ طرفه لَمْ يدوهُ

لَقِيَ الموتَ في الرَّصيف (٥) رجالٌ ... كلُّهمْ في بَني أبيه وَجيهُ

---

(١) بلدة صغيرة تقع على مقربه من سرقسطة (على بعد خمسة عشر فرسخا) وهى تكون الآن مع أربع قرى بجوارها ما يعرف بـ « قرى أرغون الخمس Las Cineo Villas de Aragon » وتقع في واد عميق بين فرعى ريجل Rihuel وكارديناس Cardenas وهما من فروع نهر إبره Ebro ، وتقوم الآن فيها قلعة قديمة تدل على أهميتها في الماضي (انظر مادوث . المعجم الجغرافي ٢١٥/١٥ - ٢١٦) ، وقد أشار إلى مكانتها في القرنين العاشر والحادى عشر بيريث دى أوربل : شانجه الأكبر ص ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٣ - ٦٤ . وتسمى الآن Uncastillo ، أما اسمها القديم فقد كان Unocastello .

(٢) هو عبد الرحمن المعروف باسم شنجول أى تصغير شانجه نسبة إلى جده لأمه شانجه بن غريسة ملك نبارة (انظر تعليقنا على صفحة ٣٩٥) .

(٣) هو باب قصر الخلافة بقرطبة وكان يقع على ضفة « الوادى الكبير » في الطرف الجنوبى الغربى من قرطبة ، وقد اشتهر هذا الباب كما يقول ابن حيان بأنه كان هو المكان الذى تعرض عليه رؤوس من يتم إعدامه بقرطبة من الثوار أو من زعماء المسيحيين الذى يقتلون في المعارك الدائرة بينهم وبين المسلمين .

(٤) في حاشية هذا الموضوع تعليق بخط متأخر هذا نصه «وهنا أيضا صرح باسم ناظم الديوان وزاد نسبه » .

(٥) تطلق كلمة الرصيف في قرطبة على الطريق المرصوف الذى كان يمتد بين الأسوار من يتم =

غَادرتْهُم صوارمُ الهندِ والزُّرْ — قُ حَصيداً يا بُؤْسَ يومٍ لَقُوه
ورأينا الوزيرَ كالليْث ، أنّى — غيرُ هذا والعامِريُّ أبوهْ !
أيقَنُوا بالحِمامِ لما رأوْهُ — مُقبلاً نحوهَم وسيئت وجوه
ورأيناهْ كالحسام مضاءً — فَشَهدنَا أنَّ الحُسَامَ أخوهْ
زَرَقَ العلْجَ زرقةً تركتْهُ — حَرِضًا قد أظلهُ المكروهُ
ماتَ ذُعراً [منه (١)] وكم لقيَ الأبطالَ — في هَبْوَةٍ فما ذَعَروهُ
ولكَمْ أيِّمًا له وقتيلاً — صَمَّ عن أنْ يُجيبَ مَنْ يَدْعوهُ
وأسيراً مُصَفَّداً في وثَاقِ — وغيَاثًا لطارق جف فُوهُ
ذاكَ حتى [إذا اللقاءُ دعَاه] — عَايَنَ الناسُ منهُ ما اسْتعظَمُوهُ (٢)
أسداً ساقطًا لزرقة شبْلٍ — لو دروْا حيثُ أوْغلَتْ عَذَروهُ
وَقَفُوا يذْعَرُون (٣) منه فَلَمَّا — عاينوا الفضلَ مائلاً أمَّلُوهُ
وكذا العامريُّ ما دامَ طفلاً — ولَعَمري لَنعْمَ ما شَبَّهوهُ
غُصْنٌ ما يزالُ من دوْحَةِ المَجْدِ — فروعٌ كثيرةٌ تغذُوهُ

= الجنوبية لقصر الخلافة وضفة « الوادى الكبير » وكان الذى شق هذا « الرصيف » هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط بشهادة ابن الأبار : الحلة السيراء ص ٦١ (انظر مقال الأستاذ تورى بلبا السالف الذكر ص ١٦٥) .

(١) كلمة ناقصة من الأصل ، وقد أضفناها لكى يستقيم الوزن والمعنى ، ويبدو أن الذى اطلع على المخطوط وعلق على حواشيه قد لاحظ اختلال هذا البيت فكتب فى الهامش : « لعله من » مقترحا إضافة هذا الحرف «من» بعد كلمة « لقى » ، غير أن هذه الإضافة لا تقيم البيت ولا تصلح السياق .

(٢) هذا البيت مطموس فى الأصل طمسا لا تكاد تبين منه إلا بعض الكلمات ، وقد جعلنا أعسر الكلمات صعوبة فى القراءة بين حاصرتين إذ لسنا نجزم بأن ما أثبتناه فى موضعها هو الصواب ، وإنما هو أقرب ما تراءى لنا إلى الأصل .

(٣) هذه الكلمة غير واضحة تماماً فى الأصل .

فـإذا جـاز تسـعـة وثلاثـا جل عن أن يحـده تشـبيـه (١)
يا ثمـال العـفـاة يا ملك الدنـ ـيا ومن فـاز بالغنى آملوه
قد حبانى (٢) دهرى بإدراك دهر مـا به ناجـه ولا منجـوه
لو حبانى بذاك عصر شبابى لرآنى على العبـاد أتيـه
ورجائى مـا قد علمت وشكرى وثنائى فى الناس مـا علموه
غيـر أن الزمـان ثقل ظهرى فـهـو ثقل على صعب كريه
ولعمرى مالى سوى الملك « المنـ ـصور » فى الأرض سيـد أرجوه

(١) فى هذا البيت إشارة إلى أن سن عبد الرحمن بن المنصور (شنجول) كانت فى ذلك الوقت تجاوز الثانية عشرة بقليل ، وإذا كان عبد الرحمن هذا قد ولد فى سنة ٣٧٤ (٩٨٤) على أرجح الأقوال (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٢٤٢/٢) فإن هذه الحادثة تكون قد وقعت فى الغالب بين سنتى ٣٨٦ ، ٣٨٧ (٩٩٦ - ٩٩٧) .

(٢) فى الأصل : حيانى ؛ والنجه : هو استقبال الرجل بما يكره .

– ٤ –

وله في خيران العامري (*) رحمهما الله تعالى وذكر الفتنة[1] بقرطبة : (من الطويل)

لكَ الخَيرُ ، قد أَوْفى بعَهْدِكَ خَيرانُ ... وبُشْراكَ ، قد آواكَ عِزٌ وسُلْطانُ
هو النُّجحُ ، لا يُدْعى إلى الصُّبحِ شاهِدٌ ... هو الفَوْزُ ، لا يبْغى عَلَى الشمْسِ بُرهانُ
إلَيْكَ شَحَنَّا الفُلْكَ تَهْوى كَأَنَّها ... وقَدْ ذُعِرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشمسِ – غِرْبانُ
عَلَى لُجَجٍ خُضْرٍ إذا هَبَّتِ الصَّبا ... ترامى بنا فيها ثَبِيرٌ وَثَهلانُ
مَواثِلُ نَرْعى في ذُراها مَوَاثِلاً ... كما عُبِدَتْ في الجَاهِلِيَّةِ أَوْثانُ
وفي طَيِّ أَسْمالِ الغَرِيبِ غَرَائِبٌ ... سكَنَّ شَغافَ القَلْبِ شِيبٌ وَوِلدانُ

(*) خيران العامرى الصقلى كان من جلة فتيان المنصور بن أبى عامر ، احتفظ ابن بسام فى « الذخيرة » من هذه القصيدة بأربعة وستين (ق ١- ١ / ٧٤ - ٧٨) ؛ ونقل ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » منها واحداً وستين بيتاً (١) لما (ص ٢١٢-٢١٥) ؛ واختار منها الثعالبى فى « يتيمة الدهر » ثمانية وثلاثين بيتا (٢ / ١٠٦ - ١٠٧) ؛ واحتفظ المقرى منها بخمسة أبيات (نفح الطيب - ط . القاهرة ٤ / ٤٠٥) .

(١) لما نشبت الفتنة من بين مَنْ أيدوا محمد بن هشام المهدى حتى بدا لهم فى أمره فغدروا به ، ولما دخل سليمان المستعين قرطبة فر منها ، ثم كان ممن أعانوا على ابن حمود فى ثورته على سليمان إلا أنه حين دخل قرطبة معه كان يطمع فى أن يجد هشاماً المؤيد حياً ، فلما لم يجده استراب من ابن حمود وفرّ من قرطبة واشترك مع منذر بن يحيى فى تدبير الأمر لعبد الرحمن المرتضي ولكنه عاد فغدر به ودبر قتله بعد هزيمته أمام أسوار غرناطة سنة ٤٠٩ هـ ، وكان خيران قد استقل بالمرية فى سنة ٤٠٥هـ (١٠١٥م) واستولى كذلك على أريوله ومرسية ، وبقى على المرية حتى توفى سنة ٤١٩م (١٠٢٨م) . انظر ابن عذارى : البيان المغرب وابن الخطيب : الأعمال (الفهرس) . أما تاريخ هذه القصيدة فقد نص ابن الخطيب على أنه قالها فى سنة ٤٠٧هـ (أعمال ص ٢١٢) .

يُرَدِّدْنَ في الأحْشاءِ حَزَّ مَصائبٍ تزيدُ ظَلامًا لَيْلَهَا وهْيَ نيرانُ
إذا غيضَ ماءُ البَحْرِ منها مَدَدْنَهُ بدمعِ عيونٍ يَمْتَرِيهِنَّ أَشْجانُ
وإنْ سَكَنَتْ عنَّا الرياحُ جَرى بِنا زَفيرٌ إلى ذِكْرِ الأَحِبَّةِ حَنَّانُ
يقُلْنَ – ومَوْجُ البَحْرِ والهَمُّ والدُّجى تموجُ بنا فيها عُيُونٌ وآذانُ – :
ألاَ هَلْ إلى الدُّنيا مَعادٌ وهَلْ لَنا سِوى البَحْرِ قَبْرٌ أو سِوى الماءِ أَكْفانُ ؟
وهَبْنا رأينا مَعْلَمَ الأرْضِ هَلْ لَنا من الأَرْضِ مأْوىً أَوْ من الإِنْسِ عِرْفانُ ؟
وصَرْفُ الرَّدى من دونِ أَدْنى مَنازِلٍ تَباهى إِلَيْنا بالسُّرورِ وتَزْدانُ
تَقَسَّمهُنَّ السيْفُ والحَيْفُ والبِلى وشَطَّتْ بنا عنها عُصورٌ وأَزْمانُ
كما اقْتَسَمَتْ أَخْدانَهُنَّ يَدُ النَّوى فَهُمْ للرَّدى والبَرِّ والبَحْرِ أَخْدانُ
ظعائنُ عُمْرانُ المَعاهِد مُقْفِرٌ بِهِنَّ ، وقَفْرُ الأَرْضِ مِنْهُنَّ عُمْرانُ
هَوَتْ أُمُّهُمْ ماذا هوَتْ بِرِحالِهِمْ إلى نازِحِ الآفاقِ سُفْنٌ وأَظْعانُ ؟
كَواكِبُ ، إلاَّ أَنَّ أفلاكَ سَيْرِها زِمامٌ ورَحْلٌ ، أو شِراعٌ وسُكَّانُ
فإنْ غَرَّبَتْ أَرْضُ المغارِبِ مَوْئِلي وأَنْكَرَني فيها خَليطٌ وخِلاَّنُ
فكَمْ رَحَّبَتْ أَرْضُ العِراقِ بِمَقْدَمي وأَجْزَلَتِ البُشْرى عَلَيَّ خُراسانُ
وإنَّ بلاداً أَخْرَجَتْني لَعُطَّلٌ وإنَّ زمانًا خانَ عَهْدي لَخَوَّانُ
سَلاَمٌ عَلَى الإِخْوانِ ! تَسْليمَ آيِسٍ وسَقْيًا لدهرٍ كانَ لي فيهِ إِخْوانُ
ولا عَرَّفَتْ بي خَلَّةً دارُ خُلَّةٍ عَفا رَسْمَها منها جَفاءٌ ونِسْيانُ
وغَرَّتْ بِبَرْقِ المُزْنِ مِنْ ذِكْرِ صَعْقِهِ ومن ذِكْرِ رَبِّ كُلِّ يَوْمٍ لَهُ شانُ
ويارُبَّ يومٍ بانَ صَدْعُ سَلامِهِ بصَدْعِ النَّوى أَفْلاذَ قَلْبِيَ إِذْ بانُوا

نُوَدِّعُهُمْ شَجْواً بِشَجْوٍ كَمِثْلِما … أَجابَتْ حَفِيفَ السَّهْمِ عَوْجاءُ مِرْنانُ
ويَصْدَعُ ما ضَمَّ الوداعَ تَفَرُّقٌ … كما انْشَعَبَتْ تحتَ العواصِفِ أَغْصانُ
إذا شَرَّقَ الحادي بِهِمْ غَرَّبَتْ بنا … نَوًى يومُها يومانِ والحِينُ أَحْيانُ
فلا مُؤنِسٌ إلا شَهِيقٌ وزَفْرَةٌ … ولا مُسْعِدٌ إلا دُموعٌ وأَجْفانُ
وما كانَ ذاكَ البَيْنُ بَيْنَ أَحِبَّةٍ … ولكنْ قلوبٌ فارَقَتْهُنَّ أَبْدانُ
فيا عَجَبًا للصَّبْرِ منّا كَأَنَّنا … لَهُمْ غيرُ مَنْ كُنّا ، وهُمْ غيرُ مَنْ كانوا
قَضَى عَيْشُهُمْ بَعْدِي وعَيْشِي بعدَهُمْ … بِأَنِّي قد خُنْتُ الوفاءَ وقد خانوا
وأَفْجِعْ بِمَنْ آوى صَفِيحٌ وجامِدٌ … ووارَتْ رِمالٌ بالفَلاةِ وكُثْبانُ
وجُوهٌ تَناءَتْ في البلادِ قُبورُها … وإنَّهُمُ في القلبِ مِنِّي لَسُكّانُ
وما بَلِيَتْ في التُّرْبِ إلاّ تَجَدَّدَتْ … عليها من القَلْبِ المُفَجَّعِ أَحْزانُ
هُمُ اسْتَخْلَفُوا الأَحْبابَ أَمْواجَ لُجَّةٍ … هِيَ المَوْتُ أَوْ في الموتِ عنهنّ سُلْوانُ
بَقايا نُفُوسٍ مِنْ بَقِيَّةِ أَنْفُسٍ … يُمِيتُونَ أَحْزاني ، فَدِينُوا بما دانوا
أَقُولُ لَهُمْ صَبْراً لَكُمْ أَوْ عليكُمُ … عسى العيشُ محمودٌ أَوِ المَوْتُ عَجْلانُ
ولاَ قَنَطٌ ، واليُسْرُ للعُسْرِ غالِبٌ … وفي العَرْشِ رَبٌّ بالخَلائِقِ رَحْمنُ
ولا يَأْسَ مِنْ رَوْحٍ وفي اللهِ مَطْمَعٌ … ولا بُعْدَ مِنْ خَيْرٍ وفي الأَرْضِ « خَيْرانُ »
سَتَنْسَوْنَ أَهْوالَ العَذابِ ومالِكًا … إذا ضَمَّكُمْ في جَنَّةِ الفَوْزِ رِضْوانُ
مَتى تَلْحَظُوا قَصْرَ « المَرِيَّةِ » تَظْفَرُوا … بِبَحْرٍ حَصِيٍّ يُمْناهُ دُرٌّ ومَرْجانُ
وتَسْتَبْدِلُوا مِنْ مَوْجِ بَحْرٍ شَجاكُمُ … بِبَحْرٍ لَكُمْ منه لُجَيْنٌ وعِقْيانُ
فَتًى سَيْفُهُ للدِّينِ أَمْنٌ وإيمانُ … ويُمْناهُ لِلآمالِ رَوْحٌ ورَيْحانُ
تَقَلَّدَ سَيْفَ اللهِ فِينا بِحَقِّهِ … فَبَرَّتْ عُهُودٌ بالوفاءِ وأَيْمانُ
وحَلَّى بِتاجِ العِزِّ مَفْرِقَ مُخْبِتٍ … يُقَلِّبُهُ داعٍ إلى اللهِ دَيّانُ
وبالخَيْرِ فَتّاحٌ ، وبالخَيْرِ عائِدٌ ، … وبالخَيْلِ ظَعّانٌ ، ولِلْخَيْلِ طَعّانُ
فَقُضَّتْ سُيُوفٌ حارَبَتْهُ وأَيْمُنٌ ، … وشاهَتْ وجُوهٌ فاخَرَتْهُ وتِيجانُ
لَهُ الكَرَّةُ العَزّاءُ عن كُلِّ شارِدٍ … أَضاءَتْ لَهُمْ منها دِيارٌ وأَوْطانُ
ورد بها اللقاء زِناتَةٌ … انقلبت يوم « الهباءة » ذبيانُ

بِكُلِّ كَمِىٍّ عامِرِىٍّ يَسُوقُهُ لِحَرِّ الوَغى قَلْبٌ عَلَى الدِّينِ حَرَّانُ
حُلِيُّهمْ بِيضُ الصَّوَارِمِ والقَنا لها وحُلاَها سابغاتٌ وأبْدانُ
تَراءَاكَ حِزْبُ البَغْيِ منهُمْ فأقْبَلُوا وفى كُلِّ أنْفٍ للغِوَايَةِ شَيْطانُ
فَأىُّ صُقُورٍ قَلَّبَتْ أىَّ أعْيُنٍ إلى أىِّ لَيْثٍ رَدَّها وَهْىَ خِلْدَانُ
عُيُوناً بها كَادُوا الهُدى فَفَقَأْتَها فهُمْ فى شِعاب الغَىِّ والرُّشْدِ عُمْيانُ
وما لَهُمُ فى ظلْمَةٍ بَعْدُ كَوكَبٌ وما لَهُمُ فى مُقْلَةٍ بَعْدُ إنْسانُ
يَضِيقُ بِهِمْ رَحْبُ القُصُورِ وَوُدُّهُمْ لَوِ احْتَازَهُمْ عَنْها كُهُوفٌ وغِيرَانُ
وأنْسَيْتَهم حَمْلَ القَنا فَسِلاَحُهُمْ عَلَيْكَ إذا لاَقَوْكَ ذُلٌّ وإذْعانُ
وأنّىَ لِفَلِّ القِبْطِ فى مِصْرَ مَوْئِلٌ وقَدْ غِيلَ فِرْعَوْنٌ وأُهْلِكَ هامانُ
فَيا ذُلَّ أعلاَمِ الهُدى يَوْمَ عِزِّهِمْ ويا عِزَّ أعْلاَمِ الهُدى بِكَ إذْ هانُوا
حَفَرْتَ لَهُمْ فى يَوْمِ قَبْرَةَ بالقَنا قُبُوراً هَوَاءُ الجَوِّ مِنْهُنَّ مَلآنُ
يَطِيرُ بِها هامٌ ونَسْرٌ وناعِبٌ ويَغْدُو بِها ذِيبٌ وذِيخٌ وسِرْحانُ
فَلَوْ شَهِدَ الأمْلاَكُ يومَكَ فِيهِمُ لألْقى إليكَ التّاجَ كِسْرى وَخاقانُ
ولَوْ رُدَّ فى « المَنْصُورِ » رُوحُ حَياتِهِ غداةَ لَقِيتَ المَوْتَ والمَوْتُ عُرْيانُ
[وَنادَيْتَ لِلْهَيْجاءِ أبْناءَ مُلْكِهِ فَلَبّاكَ آسادٌ عَبِيدٌ وفِتْيانُ]
جِبالٌ إذَا أرْسَيْتَها حَوْمَةَ الوَغى وإنْ تَدْعُهُمْ يوماً إلَيْكَ فعِقْبانُ
يَقُودُهُمُ داعٍ إلى الحَقِّ مُجْلِبٌ عَلَى البَغْيِ يُرْضِى رَبَّهُ وَهْوَ غَضْبانُ
كَتائِبُ بَلْ كُتْبٌ بِنَصْرِكَ سُطِّرَتْ وَوَجْهُكَ « بِاسْمِ اللّهِ » والسَّيْفُ عُنْوَانُ
هو السَّيْفُ لا يرتابُ أنّكَ سَيْفُهُ إذا نازَلَ الأقْرانَ فى الحَرْبِ أقْرَانُ
كَأنَّ العِدى لَمّا اصْطَلَوْا حَرَّ نارِهِ أصابَ هَوَادِيهِمْ مِنَ الجَوِّ حُسْبانُ

وأسْمَرَ يَسْرِى فى بحارٍ من النَّدى … بيُمْناكَ لكنْ يَغْتَدى وَهْوَ ظَمْآنُ
تَلأْلأَ نُوراً مِنْ سَنَاكَ سِنَانُهُ … وقد دَعَت الفُرْسانَ للحَرْبِ فُرسانُ
لَحَيَّاكَ مَنْ أَحْيَيْتَ منه شَمائلاً … يموتُ بها فى الأَرْضِ ظُلْمٌ وعُدوانُ
وناجاكَ إِسْرَاراً وناداكَ مُعْلِناً … وَحَسْبُ العُلى منهُ سِرارٌ وإِعْلانُ
أَلاَ هَكَذا فَلْيَحْفَظِ العَهْدَ حافِظٌ … أَلاَ هكَذا فَلْيَخْلُفِ المُلْكَ سُلْطانُ
فَللّه ماذا أَنْجَبَتْ منْكَ عامِرٌ ! … ولله ماذا ناسَبَتْ منْكَ قَحْطانُ !
ولله منّا أَهْلَ بَيْتٍ رَمَتْهُمُ … إِلى يَدِكَ العُلْيا بُحُورٌ وبُلْدانُ
وكُلُّهم يَزْهى عَلَى الشمْسِ فى الضُّحى … وبَدْرِ الدَّياجى أَنَّهُمْ لَكَ جيرانُ
وقد زادَ أَبْناءُ السَّبيلِ وَسيلَةً … وحَلُّوا فَزادُوا أَنَّهُمْ لَكَ ضيفانُ
فما قَصَّرتْ بى عن عُلاكَ شَفاعَةٌ … ولا بِكَ عن مِثْلى جَزاءٌ وإِحْسانُ

وله فى مدح منذر بن يحيى التجيبىّ والحنين إلى قرطبة[1]:

(من الكامل)

قُلْ للرَّبيع اسْحَبْ مُلاءَ سحائب[2] … فاجْرُرْ ذُيُولَكَ فى مَجَرِّ ذَوائبى
لا تُكْذينَّ[3] ومن وَرَائِكَ أَدْمُعى … مَدداً إِلَيْكَ بفَيْضِ دَمْعٍ ساكِبِ
وصَبَابَه أَنفاسُها لَكَ أُسْوَةٌ … إِنْ ضاقَ ذَرْعُكَ بالغَمامِ الصَّائِبِ
وامْزِجْ بطيبِ تَحيَّتى غَدقَ الحَيا … فاجْعلْهُ سَقْىَ أَحِبَّتى وحبائِبى

(١) أورد الحميدى من هذه القصيدة مطلعها وأربعة أبيات أخرى . انظر « جذوة المقتبس » ص ١٠٥ ؛ ونقلها عنه الضبى فى بغية الملتمس ص ١٥٠ .

(٢) فى الجذوة : سحائبى .

(٣) فى الجذوة : لاتكذبن ولا معنى لها هنا ، وأكدى المطر أى قل وبخل .

عهداً كعَهْدِكَ من عهادٍ طالَما ... كَست البُرودَ معاهدى ومَلاعبى
واجْنحْ لقُرْطُبَةٍ فعانِقْ تُرْبَها ... عنّى بمِثْلِ جوانحى وترائبى
حَيْثُ اسْتَكانَتْ للعفاءِ منازِلى ... وهَوَتْ بأفلاذِ الفؤادِ نَجائبى
ذُلُلاً تَعَسَّفْنَ الدُّجى بأدِلَّةٍ ... ولواغباً جُبْنَ الفَلاَ بِواغِبِ
وكواكبٌ ناءَتْ بِغُرْبَتِها النَّوى ... فقَضَتْ مدامعُها بِنَوْءِ الغارِبِ
من كُلِّ مَفْجوعٍ بتَرْحَةِ راحِلٍ ... لم يُسْلِه طَمَعٌ بفَرْحَةِ آيِبِ
كَذَبَتْهُ بارِقَةُ المُنى عن صادقٍ ... من ظَنِّه وصَدَقْنَهُ عن كاذِبِ
ظُعُنٌ سَرَيْنَ الليلَ ضَرْبَةَ لازِمٍ ... وسَرى إليْها الهَمُّ ضَرْبَةَ لازِبِ
جَمَدَتْ عليهِنَّ القُلوبُ فأسْبَلَتْ ... فَوْقَ المحاجِرِ كُلَّ ذائبِ
وتخازَرَتْ عنها العُيُونُ فأبْرَزَتْ ... عن أعْيُنٍ بِدِمائِهِنَّ سَواكِبِ
وتَقَطَّعَتْ أسبابُهُنَّ لِطيَّةٍ ... وَصَلَتْ بِهِنَّ سباسِباً بسباسِبِ
يَطْلُبْنَ شَأْوَ غرائبٍ لِىَ كُلَّما ... نَأَت البِلادُ حَلَلْنَ غَيْرَ غرائبِ
لَحِقَتْ بأسْبابِ السَّماءِ فأُعْطِيَتْ ... فيها خُلُودَ أهِلَّةٍ وكَواكِبِ
وأعَدَّتِ الأزْمانُ ماءَ شَبابِها ... لِحُنُوِّ ظَهْرٍ أوْ لِرأْسٍ شائِبِ
وعَقَدْنَ بالأبَدِ الأبيدِ وإنْ نَأى ... حِلْفَيْنِ: حِلْفَ مُسايِرٍ ومُعاقِبِ
ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفَةً وتقاذَفَتْ ... أمْواجُهُ بشَمائِلٍ وجَنائِبِ

هَدَمــاً إلى هَدَمٍ وحِــفْظَ دَمٍ دَمــا[١] حَـدَبٌ بعَطْفِ مُـشَـاكِـهِ[٢] ومُنَـاسِبِ
زُهْرٌ طوالِعُــهَــا لِكُلِّ غَـدٍ غَـدٌ وجَـــــزاؤُهَا رَهْنٌ بأمْسِ الذَّاهِبِ
تَشْدُو بهـاَ خُضْـرُ الحَـمَـامِ وَحَظُّهَا عنْقَـاءُ ربعَتْ بالغُـرَابِ النَّاعِبِ[٣]
حَلْيتُـهَـا الأرْضَ الَّتِي هِيَ فَـارِكِي وكَـسَوتُهَـا الدَّهْرَ الَّذِى هُوَ سَـالِبِى
وَمَـلأْتُ مِنْهُنَّ العُـقُـولَ عَـجَـائِبـاً ولَنَقْصُ حَظِّى مِنْ تَمَامِ عَـجَائِبِى
مَـيْتُ الرَّغَـائِبِ والمَسِـيحُ مُـورِّثِى إحْـيَــاءَ آثَارِى وخُلْدَ مَنَاقِـبِى
بِشَــوَارِدٍ فى الأرْضِ غَـيْــرِ أوَابِدِ وطوالِعٍ فى الجَـوِّ غَـيْـرِ غَـوارِبِ
ولقـد قَـضَـيْتُ من الصَّبَـابَةِ حَـقَّـهَـا فَـقَـضَتْ من الأَمَلِ البـعـيـدِ مـآرِبِى
قَنَّعتُـهَـا الصَّبْرَ الجَـمِـيلَ فَأَسْـفَرَتْ فى آلِ « يَحْيَى » عن جميلِ عواقِبِ
وشَدَدْتُ عَـقْدَ خِتَـامِهـا فاسْتَفْتَحتْ بمكارِمِ « المنصـورِ » ضِـيقَ مَـذَاهِبِى
فَــهَلْ أنتَ يا زَمَنَ الرَّبِيعِ مُـبَلِّغٌ بالمَغْـرِبَيْنِ أَحِـبَّـتِى وأَقَـارِبِى
أنَّ الربيعَ لَدَىَّ شِـيـمَــةُ قَــاطِنٍ وحَيـا الغَـمـامِ عَلَىَّ دِيمَةُ دائبِ
من بعـدِ مـا غَمَّ الصَّبَــاحُ لِناظِرى واشْـتَفَّ مِنِّى البَحْـرُ جَرْعَـةَ شَـارِبِ
وأَنِسْتُ بالأهوالِ حَـتَّى لَمْ أُبَلْ أَلِقَـاءُ أُسْـدٍ أمْ لقَـاءُ ثَعَـالِبِ

(١) الهدِم هـو القبـر ، والعرب تقـول : دمى دمك وهدمى هدمك وذلك عند المعاهدة والنصرة ، ومنه قول النبى (ﷺ) : « بل الدم الدم الهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى » .
(٢) فى الأصل : متشاكه وقد قومناها بما أثبتنا حتى يستقيم الوزن ، وهكذا وردت فى « ق » .
(٣) فى الأصل : ... وحظها عنقاء ...

كَمْ أَنْشَبَتْ فِيَّ الخطوبُ مخالباً ... حتى انثنت عنّى بغير مخالب
وشَفَيْتُ سُمَّ عقاربٍ بأساود ... ودقعت سُمَّ أساودٍ بعقارب
حتى نزفن سمومهن فلم يرع ... من نافثات السُّمِّ ليل الحاطب
وسدكتُ (١) بالغمرات حتى بلّدت ... فرمين حبلى فوق ذروة غارب
وتداركتني ذمّة من يعرب ... مطرت عليّ ثمار جنة مارب
فهناك أنصلت الأسنة وانتحى ... سيفي بها مسحاً بسوق ركائبي
ورفعت ناراً للعيون وقودها ... أقتاب أحداجي ووقر (٢) حقائبي
نعم تكاد تردّ أيام الصبا ... وتعيد أزمان النعيم الذاهب
أيام ألقى الصبح ترب كواكب ... أدبًا وأحيى الليل خلب كواعب
والمكرمات منازلي ومشاهدي ... والمقربات مراكبي ومراقبي
إذ أنت يا زمن الربيع مخيم ... في ساحلي ومغيم من جانبي
عبق الروائح من نثير غدائري ... غدق السحائب من فضول مشاربي
وتروح مغتبقاً شمول شمائلي ... وتعود مصطبحاً ضريب ضرائبي (٣)
تغدو فتستملي بديع محاسني ... وتروح تستقري نفيس غرائبي
وتبيت تنشر في الأباطح والربى (٤) ... زهراً يخبر عنك أنك كاتبي
ممّا ترف به رياض حدائقي ... ويفيض جوهره عباب غواربي
فنظمتها في كل أفق نازح ... وبعثتها مع كل نجم ثاقب
ونظمت يا « منصور » ذكرك وسطها ... نظم العقود على ترائب كاعب
ذكر على الألباب أكرم نازل ... وعلى فجاج الأرض أوضح راكب
سور لمجدك رفعت آياتها ... أعلام آدابي وذكر مناقبي

(١) سدك بالشيء : أى لزمه .
(٢) فى الأصل : ووفر .
(٣) الضريب هو اللبن ، والضرائب جمع ضريبة وهى الخليقة والسجية .
(٤) فى الجذوة : وانشر على تلك الأباطح والربى .

بفواتحٍ من كُلِّ مَدْحٍ سائرٍ وخواتمٍ من كُلِّ حَمْدٍ ذاهبِ[1]
فاستشرفَ الثقلان أخطبَ شاعرٍ وأصاختَ الدُّنيا لأشعرِ خاطبِ
فخطبْتُ والعوّاءُ[2] بعضُ منابري وأممْتُ والجوزاءُ بعض محاربي
وكتبْتُ منها لليالي مُصحَفاً تتلوه ألسنةُ الزمانِ الدائبِ
حتى تركتُ سناءَ ملكِك حاضراً في كلِّ أُفْقٍ عن بلادكَ غائبِ
وجلَوْتُ للدنيا مثالَكَ في الوغى تختالُ بين ذوابلٍ وقواضبِ
وأريْتُكَ الأُممَ الخلوفَ متوَّجاً بخوافقٍ ومكلَّلاً بكتائبِ
ورفعْتُ سترَ الليلِ عنكَ لغابرٍ ومقدِّمٍ ومباعِدٍ ومقاربِ
حتى أريتُهُمُ السَّنا تحتَ الدُّجى وخيالَ سارٍ في مخيلةِ ساربِ
طيّارَ بارقةِ الوغى بمقادمٍ كقوادمٍ ومواكبٍ كمناكبِ
حتّى « ابنُ شنْجٍ » يومَ أمَّكَ خاضعاً تسعى إليْكَ به ندامةُ تائبِ
منْ بعْدِ ما رازَ[3] البلادَ فلَمْ يجدْ في الأرضِ عن مأواكَ مهرَبَ هاربِ
ورأى الضّلالَ عليْكَ أضعفَ ناصرٍ ورأى الفرارَ إليْكَ أيمنَ صاحبِ
ودعاكَ معترِفاً بذلّةِ مُذنبٍ وأتاكَ مشتملاً بلبْسةِ راهبِ
ولقد تراءتْ في ذراكَ مطالعي حينَ استبدَّ تغرُّبي بغاربي
فختمْتَ طولَ تقلُّبي بتقبُّلي وجزيْتَ غُرَّ غرائبي برغائبِ

(١) في الأصل : واصب ، ولا معنى لها هنا ، ولعل الصواب ما أثبتنا .
(٢) العواء هي أربعة كواكب ثلاثة متفرقة والرابع قريب منها وبه سميت العواء كأنه يعوى إليها عواء الذئب ، وقد أراد الشاعر أن يقابل بها الجوزاء في الشطر الثاني ، وهي بروج السماء .
(٣) راز أي امتحن وجرب ، وقد تكون « راد » ، وفي « ق » : زار .

وأجرتَني مــن كُلِّ خطْبٍ طارِقٍ حتَّى مُناجَاة الرَّجَاءِ الخائِبِ
ووَجَدْتُ عند يَدَيْكَ سَدَّ مَفَاقِرِى وسُلُوَّ أحزانى وبُرْءَ مصائِبِى
ولقد تَجلَّى العيدُ عَنْكَ بِغُرَّةٍ جَلاَّءة لِقَوادِحٍ وغَيَاهِبِ
يتلُوكَ حاجِبُكَ الذى أنْجَبْتَهُ كالشَّمْسِ إذْ ضَرَبَتْ إلَيْكَ بِحاجِبِ[1]
فى مَشْهَدٍ بِسَنَا جبينِكَ مشرقٍ شَرِقٍ بآسادٍ وجُرْدٍ سَلاَهِبِ
غُرٍّ تَوَاعَدُ للطِّعانِ صَواهِلٍ تختالُ بَيْنَ مُخَاطِبٍ ومُجاوِبِ
حتَّى ارْتَقَيْتَ سريرَ مُلْكِكَ حَفَّهُ[2] نُورُ السرورِ جوانِباً بِجوانِبِ
ومَدَدْتَ للتَّقْبيلِ راحَةَ مُنْعِمٍ تَنْهَلُّ أَنْمُلُهَا بُحُورَ مَوَاهِبِ
وتكادُ تهتِفُ عَنْكَ : هَلْ مِنْ راغِبٍ أو راهِبٍ أو خائفٍ أو طالبِ ؟
فاسْلَمْ وكُنْ للأَرْضِ آخِرَ عامِرٍ ولغالِبِ الأَعْداءِ أَوَّلَ غالبِ

---

(١) يشير هنا إلى يحيى بن منذر بن يحيى .
(٢) فى الأصل : حقه ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

فى مدح منذر بن يحيى التجيبىّ امير سرقسطة(١)
وذكر قدوم الأستاذ صاعد أبى العلاء البغدادى
رحمة الله تعالى عليهم (*) : (من الطويل)

أبى اللّهُ إلاّ أنْ يرى يدَكَ العُلْيـا فَـيُبْلِيَـها سَعْداً وتُبْلِيَـهُ سَعْيَـا
ويُوسعَـها سَقْيـاً ورَعْيـاً كَـمِثْلِ مَا سَمَتْ للمُنى سَقْياً وسامَتْ بها رَعْيَا
وأىُّ حيـاً فى الشَّـرْقِ والغـربِ للوَرى وأىُّ حِـمًى للملكِ والدِّينِ والدُّنْيـا
وأىُّ فَـتًى والنفسُ كـاذِبَةُ المُنى وأىُّ فـتًى والحـربُ صـادقَـةُ الرُّؤْيا
عَـلاَ فَـحَـوى مـيـراثَ عـادٍ وتُبَّعٍ بِهِـمَّـتِـهِ العُلْيـا ونِسْبَـتِـهِ الدُّنْيـا
فـأعْـرَبَ عن إقْـدَامِ يَعْـرُبَ واحْـتَـبى فلَـمْ يَنْـسَ مـن هُـودٍ سَنـاءً ولا هَدْيـا
ومِنْ « حِمْيَرٍ » بردَّ القَنا أحْمَرَ الذُّرى ومِنْ «سَبَاءٍ» قادَتْ كَتائِبُهُ السَّبْيا

---

(١) اختـار ابن بسـام من هذه القصـيـدة تسعة وعشرين بيتا (انظر الذخيرة ق ١ - ١ / ٥٤ - ٥٦) وأورد الحميدى منها أربعة أبيات (الجذوة ص ١٠٥) .

(*) هو أبو العلاء صاعد بن أحمد الربعى البغدادى ورد من المشرق إلى الأندلس فى نحو سنة ٣٨٢ فى عهد المنصور بن أبى عامر وكان مقربا إليه وإلى ابنه المظفر من بعده ، وقد أزعجته الفتنة عن قرطبة فتردد على بعض ملوك الطوائف ، ويبدو أنه قصد منذر بن يحيى بسرقسطة فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨م) ، ثم خرج إلى صقلية فمات بها سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) . انظر جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى - ترجمة الدكتور حسين مؤنس - ص ٦٦ ؛ وبحث الأستاذ بلاشير عن صاعد البغدادى فى مجلة « إكنسبريس » ، المجلد العاشر سنة ١٩٣٠ ، ص ١٥ - ٣٦ .

وما نامَ عنه عِرقُ « قَحْطَانَ » إذْ فَدى عُروقَ الثَّرى من غُلَّة القَحْط بالسُّقْيا

ولاأسْكَنَتْ عَنْهُ « السُّكُونُ » سِيادَةً ولارَضِيَتْ « طَيٌّ » لراحَتِه طَيَّا(١)

ولاكَنَدَتْ(٢) أسيافُهُ مُلْكَ « كِنْدَةٍ » فَيَتْرُكَ في أركانِ عِزَّتِها وَهْيَا

ولا أقْعَدَتْهُ عن إجابةِ صارِخٍ « تُجيبُ » ولو حَبْواً إلى الطَّعْنِ أو مَشْيا

وكائنْ لَهُ في « الأوْسِ » من حَقِّ أُسْوَةٍ بنَصْرِ الهُدى جَهْراً وبَذْلِ النَّدى خَفْيا

هُمُ أورثُوهُ نَصْرَ دينِ مُحَمَّدٍ وحازُوا له فَخْرَ النَّدى والقِرى وحْيا

وَهُمْ أوجَدُوهُ الجودَ أعذبَ مطعَماً منَ الرِّيقَةِ الشَّنْباءِ في الشَّفَةِ اللَّمْيا

مَناقِبُ أدَّوْها إلَيْهِ وِراثَةً فكانَ لها صَدْراً وكانَتْ له حَلْيا

وروضَةُ مُلْكٍ عاهَدَتْها عِهادُهُ فأغْدِقْ بها رِيًّا ، وأعبِقْ بها رَيَّا

وصَوْتُ ثناءٍ أسْمَعَ اللهُ ذِكْرَهُ لِيُسْمِعَ منْهُ الصُّمَّ أوْ يَهْدِيَ العُمْيا

لِمَنْ يَلْحَظُ الأعْلَيْنَ في المَجْدِ مِنْ عَلٍ وجارى فأعْيا السَّابقينَ وما أعْيا

أنيسُ القُلُوبِ في الصُّدورِ ولَمْ يَكُنْ لِيُوحِشَ مَثْواهُ الفَراقِدَ والجَدْيا

وَمَوْرِدُ مَنْ أظْمَا ، وإصْباحُ من سَرى ومَبْرَكُ مَنْ أعْيا ، وغايَةُ مَنْ أغْيا(٣)

---

(١) استخدم ابن درّاج في هذا البيت وماقبله وما بعده جناس الاشتقاق مستنداً إلى أسماء القبائل اليمنية كحمير وقحطان والسكون وطيئ وكندة وتجيب والأوس .

(٢) كند أي جحد أو كفر النعمة .

(٣) أغيا مشتق من الغياية وهي كل ما أظل الإنسان فوق رأسه مثل السحابة والغبرة ، وأغيا عليه السحاب أي أظل عليه .

فَقَصْرٌ (١) مُلُوكِ الأَرْضِ سُدَّةُ قَصْرِهِ ... وإنْ سَحَقُوا بُعْداً ، وإنْ شَحَطُوا نَأْيَا
وأَهْدَتْ لَهُ بَغْدَادُ دِيوانَ عِلْمِهَا(٢) ... هَدِيَّةَ مَنْ وَالَى ، ونُخْبَةَ مَنْ حَيَّا
فكانَتْ كَمَنْ حَيَّا الرِّياضَ بِزَهْرِها ... وأَهْدَى إلى صَنْعاءَ مِن نَسْجِها (٣) وَشْيَا
وحَسْبُ رُوَاةِ العِلْمِ أَنْ يَتَدَارَسُوا ... مَآثِرَهُ حِفْظاً ، وآثارَهُ وَعْيَا
ويَكْفِي مُلُوكَ الأَرْضِ مِن كُلِّ مَفْخَرٍ ... إذا امْتَثَلُوا من بَعْضِ أَفْعَالِهِ شَيَّا
وأَن يَسْمَعُوا من ضَيْفِهِ في ثَنائِهِ ... غَرائِبَ حَلْيٍ مِنْ جَوَاهِرِها الدُّنْيَا
وأَنْ يَنْظُرُوا كَيْفَ ازْدَهَى مَفْرِقُ العُلاَ ... بِعَقْدِي لَهُ تاجاً من الكَلِمِ العُلْيَا
أَوابِدُ حَالَفْنَ اللَّيالِيَ أَنَّها ... تَمُوتُ اللَّيالِي وَهْيَ باقِيَةٌ تَحْيَا
لِمَنْ كَفَلَ الإِسْلامَ أُمَّ سِيادَةٍ ... فَبَرَّتْ بِهِ حِجْراً ، ودَرَّتْ لَهُ ثَدْيا
ومَنْ ذَعَرَ الأَعْدَاءَ حَتَّى تَوَهَّمُوا ... به الصُّبْحَ جَيْشاً والظَّلامَ لَهُ دَهْيا
لِطاعَةِ مَن وَصَّى المنايا بِطَوْعِهِ ... فلم تَعْصِهِ في الشِّرْكِ أَمْراً ولا نَهْيا
فَكَمْ رأْسِ كُفْرٍ قد أَنافَتْ بِرَأْسِهِ ... من الصَّرْعَةِ السُّفْلَى إلى الصَّعْدَةِ العُلْيَا
فأَوْفَتْ بِهِ في مَرْقَبِ السُّورِ كالحاً ... يُؤَذِّنُ بالأَعْدَاءِ: حَيَّ هَلاَ حَيَّا(٤)
وتَفْلِي الصَّبا مِنْهُ ذَوائِبَ لِمَّةٍ ... تَفَاخَرُ أَيْدِي المُصْبِيَاتِ بِهَا فَلْيا
فَهَامَتُهُ لِلْهامِ تَسْتامُها القِرى ... وأَشْلاؤُهُ لِلرِّيحِ تَسْتامُها السَّفْيا(٥)

(١) أي قصاري .
(٢) يشير هنا إلى قدوم صاعد اللغوى البغدادى على منذر بن يحيى .
(٣) فى الأصل : وشيها ، وقد آثرنا قراءة الذخيرة .
(٤) حى هى صيحة يقصد بها التعجيل ، وهو يعنى أنه ينادى الأعداء أن عجلوا بالفرار .
(٥) فى الأصل : السقيا ، ولعل الأصح ما أثبتنا ، والسفى مصدر سفى ، وهو ما تسفيه الريح أى ما تذروه .

وكَمْ ردَّ عنْ نَفْسِ «ابْنِ شَنْجٍ» سِهامَها ... وقـد أغْـرقَتْ نزْعـاً وأمْكَنَهـا رَمْـيـا
طَليـقُكَ من كَفِّ الإسـارِ وقَـدْ هوَتْ ... به الرَّقمُ الرَّقْـمـاءُ(١) والمُوبِدُ الدَّهْيـا
فَحكَّمْتَ فى حَدِّ سَيفِكَ فاقْتضَى ... وشاورْتَ فيهِ الفضْلَ فاستَعْجمَ الفُتْيا
فـأخَّـرْتَ عنه حُكْمَ بأْسِـكَ بالـرَّدى ... وأمْضَيْتَ فيـه حُكْمَ عَفْـوكَ بالبُـقْيـا
ووَقَّـيْـتَـهُ حَـرَّ الحِـمـامِ لَوِ اتَّقى ... وزوَّدتَه مَـرْدَ الحَـيـاةِ لَوِ اسْـتَـحْـيـا
فـأفْلَتَ ينزو فى حَـبـائِلِ غَـدْرَةٍ ... بأَوْتَ بهـا عـزًّا ، وباءَ بهـا خِـزْيا
فـأتْبَـعْـتَـهُ تحْتَ العَـجـاجَـةِ رايَةً ... بَهَـرْتَ بهـا رَأيًا وأعْلَيْـتَـهـا رأْيا
وجـرَّدْتَ سَـيْفَ الحَقِّ مُـدَّرِعَ الهُـدى ... لمَنْ سَلَّ سَيْفَ النَّكْثِ وادَّرَعَ البَغْـيـا
وأعْلَيْـتَـهـا فى دَعْـوَةِ الحَقِّ دَعْـوَةً ... كـفـاكَ بهـا بُشْرى وأعْـداءَها نَعْـيـا
فـجـاءتْكَ تحتَ الخـافـقَـاتِ كَـتَـائِبـاً ... كـمـا حَدَتِ الأفْـلاكُ أنْجُـمَـهـا جَرْيَا
مُـهـلِّينَ بالنصـرِ العـزيزِ لمَنْ دَعَـا ... مُلَبِّينَ بـالفَـــتـحِ المبينِ لمن أَيَّا(٢)
بكُلِّ أمـيـرٍ طَوْعِ يُمْنَاكَ جَـيْـشُـهُ ... وطاعَـتُكَ العَلْيَـاءُ غَـايَتُـهُ القُـصْـيـا
وكُلِّ كَـمِـيٍّ فى مَنَاطِ نجَـادِه ... دواءٌ لِداءِ النَّاكِـثِـينَ إذا أعْـيـا
وإنْ لَمْ يُفِقْ داءُ «ابْنِ شَنْجٍ» بِطبِّـه ... فَـقَـدْ بَلَغَتْ أدْواؤهُ النَّارَ والكَيَّـا
بسـابحَـةِ الأجْـيـادِ فى كُلِّ لُجَّـةٍ ... تُريكَ عُبابَ البَحْرِ منْ هَوْلِها حِسْيَا
قَـدَحْتَ بأيْديهـا صَفَـا الشِّرْكِ قَدْحَـةً ... جَـعَلْتَ ضِـرَامَ المَشْـرَفِيِّ لهـا وَرْيَا

(١) يقال : وقع فى الرقم الرقماء إذا وقع فيما لا يقوم به ، وهو مثل قولهم بالداهية الدهياء .
(٢) يقال : أيا بالإبل إذا زجرها يقول لهـا : أيا أيا .

خَـواطفَ إبْرَاقٍ جَـلاَهُنَّ عـارِضٌ — من النَّقْعِ لا يُونِى دِمَاءَ العِدى مَرْيَا(١)
عُقِدْنَ بأيْمَانٍ من الضُّرَابِ وعُوقِدَتْ — بأيْمَـانِ عَـهْـدٍ لا انْثِنَاءَ ولا ثُنْيَـا(٢)
وَزُرْقـاً تَشَكَّى من ظِمـاءٍ كُـعُـوبهـا — وتَسْـقِى رُبُوعَ الكُفْـرِ من دَمِـهِ رِيًّا
إذا غَـرِبَتْ نـاءتْ بِمُنْهَـمِرِ الكُلى — وإن طَلَعَتْ فـاءَتْ بملْءِ المَلاَ فَـيًّـا
فـأبْتَ بأعْـدَادِ النُّجُـومِ مَسـاعِـياً — وأمثـالِهـا سُـمْـراً وأضعـافِهـا سَبْـياً
وُجُوهاً سُلِبْنَ العَصْبَ والحَلْى فَاكْتَسَتْ — مَـحَـاسِنَ أنْسَيْنَ المَجَـاسِدَ والحَلْيَـا
كـأنْ لَمْ تَدَعْ بالْبِيـدِ أيْكاً ولاغَـضَى — ولا فى شِعَـابِ الرَّمْلِ خِشْفـاً ولاظَبْـيَا
إِيَابَ مليكٍ قُلِّدَتْ عَـزَمَـاتُهُ — من الرُّشْـدِ والتَّـوفِـيقِ مـادمَّرَ الغَـيَّـا
يُقِـرُّ عيـونَ الخَيْلِ فى حَوْمَـةِ الوَغى — إذا مـا قُـدُورُ الحَـرْبِ فـارَتْ بهـا غَلْيـا
ويُعْـرِضُ عَنْ فُـرْشِ القُـصُـورِ وَثِيـرَةً — لِيَـرْكَبَ ظَهْـرَ الحَـرْبِ مُحْـدَوْدِباً عُـرِيَا
ويَحْسُو ذُعَـافَ السُّمِّ فى جاحِمِ الوَغى — لِيُـرْوِى آمَـالَ النُّـفُـوسِ بِهَـا أرْيا(٣)
ويُصْلِى بِحَـرِّ الشَّـمسِ حُـرَّ جَبِينِهِ — لِيَـبْـسُطَ للإِسْـلاَمِ من نُورِهِ فَـيًّـا(٤)
ويا شَـامِـتـاً أنّى طَرِيدُ حِـجَـابِهِ — لِيُـخْـزِكَ أنّى حُـزْتُه بينَ جَنْبَـيَّـا
ويا حَـاجِـبـاً قَـدْ رَدَّ طَرْفِى دُونَهُ — تَأمَّلْ تَجِـدْهُ وَهْوَ إنْسَـانُ عَـيْـنِيَّـا

---

(١) المرى مصدر مرى ويقال مرى الناقة إذا مسح ضرعها لتدر ، ومرى الدم أى استخرجه .
(٢) الثنيا من المصطلحات الفقهية ، وهى أن يستثنى من الشىء المبيع شىء مجهول فيفد البيع ، وهى محرمة من أجل ذلك .
(٣) الأرى هو الشهد .
(٤) الفىء هنا الظل .

صَفاء ودادٍ إنْ رمى فوقَه القذى ... ظنوناً من الإشفاق طيّرها نفيا
وصدْقُ رجاءٍ كلّما متُّ رحمةً ... على مثلِ أفراخِ القطا ردَّني حَيّا
ظِماءٌ وما يدرونَ في الأرضِ مشرباً ... سوى كَبِدى الحرَّى ومُهجتيَ الظمْيا
وكم عَفَوْا بحراً بحَرٍّ للندى ... وخاضوا سرابَ البيدِ نِهْيًا ولانِهْيا(١)
وباتوا يُراعونَ النجومَ وقد رأتْ ... وسائلَهُمْ ألاّ حِفاظَ ولا رَعْيا
ولا خُلّةٌ إلاّ الهَجيرُ إذا التظى ... فكانَ لَهُمْ جَمْراً وكانوا لهُ شَيّا
ولا نَسَبٌ إلاّ الثُّريّا إذا انتَحَتْ ... فكانَتْ لهُمْ نصفاً وكانوا لها ثنْيا(٢)
وكم زَجَروها باسمِها وخُفوقِها ... فما صَدَقَتْهُمْ لا ثَراءَ ولا ثَرْيا(٣)
ولا صِدْقَ إلاّ للرجاءِ الّذى سَرى ... فقَصَّرَ طولَ اللّيلِ واستَقْرَبَ النأيا
وبارى هُوِيَّ الريحِ يَسْبِقُها هوى ... وغالَ قِفارَ البيدِ ينسِفُها طيّا
إلى سابِقِ الأملاكِ علّمَ سَيْفُهُ ... ندى كَفِّهِ أنْ يَسْبِقَ الوعْدَ والوأيا(٤)
أبو الحَكَمِ المُمْضِى لحُكْمِ عُفاتِه ... رغائبَ لا يَعْرِفْنَ سَوْفاً ولا ليّا
ومَثَّلَ لى فى الحَرْبِ حَسْرُ ذِراعِه ... بحَسْرِىَ فى حَرْبِ الخُطوبِ ذِراعَيّا
إذا لَمَعَتْ بيضُ الصّوارِمِ حَوْلَهُ ... كإضْرامِ نيرانِ الهمومِ حَوالَيّا

(١) النهى بكسر النون وفتحها هو الغدير وكل موضع يجتمع فيه الماء .
(٢) ثنيا الحبل طرفاه .
(٣) الثرى مصدر ثرى (بفتحة فكسرة) ويقال ثرى بالشيء إذا سر به وفرح .
(٤) الوأى مرادف للوعد .

وقد عاذَ أبطالُ الجلادِ بعطفه كما عادَ أطفالُ الجلاءِ بعطفيّا
وقد قصّرتْ عنه رماحُ عُداته كما قصّرتْ عنهمْ رياشُ جناحيّا
ولكنْ أُواسي بيْنَ عارٍ ولابسٍ أُقلِّص عَنْ ذيّا لأثنِي عَلَى تيّا
وإنْ لوتِ اللأواءُ مِنْ شأوِ همّتي وألحقَ ذُلُّ العسرِ وجهي بنعليّا
فلمْ تلوِ عَنْ مدحِ « ابنِ يحيى » مدائحي بأطيبِ ذكرٍ في المماتِ وفي المحيا
يُصيخُ إليه كلُّ سمعٍ موقّرٍ ويجلو سناهُ كلَّ ناظرةٍ عميا
وأُنشيكَ (١) عنه المسكَ ما عشتَ يورى وأكسوكِ منهُ الدرَّ مادمتِ يادنيا
وإنْ برتِ الأيامُ منْ حدِّ همّتي سلامُ الحادثاتِ غراريا
فهلْ قلمٌ خطّتْ به الأرض كلُّها نظامًا ونثرًا ينكرُ القطَّ والبريا
وزندٌ ينيرُ الشرقَ والغربَ قدحُه جديرٌ بأنْ يستلحقَ المحقَ والوهيا
ويالكِ منْ ذكرى سناءٍ ورفعةٍ إذا وضعوا في التُّربِ أيمنَ جنبيّا
وفاحتْ ليالي الدهرِ منّيَ ميّتًا فأخزينَ أيامًا دُفنتُ بها حيّا
وكانَ ضياعي حسرةً وتندُّمًا إذا لَمْ يفدْ شيئًا ولم يغننِي شيّا
وأصبحتُ في دارِ الغنى عَنْ ذوي الغنى وعوّضتُ فاستقبلتُ أسعدَ يوميّا
سوى حسرتَيْ عرضٍ ووجهٍ تضعضعا لقارعةِ البلوى وكانَا عتاديّا
ولِلسترِ والصبرِ الجميلِ تأخّرا فأمّهما حرصي وكانَ إماميّا

---

(١) أي أشمك ، مشتق من نشى الرائحة إذا استنشقها وشمها .

فـيـا عَـبْـرَتِىَ سُـحِّى لَعَلِّى مُـبَلَّلٌ ... بِبَـحْـرِيْك مـا أنْزَفْتُ من مَـاء عَـيْنَيَّـا
ويا زَفْـرَتِى هَلْ فى وَقُـودِكِ جَـذْوَةٌ ... تُنِيـرُ لَنَا صُـبْـحـًا ثَنَاهُ الأسى مُـسْـنِـيـا
ويا خلّتِى إنْ سَـوَّفَ الغَـوْثُ بالمُنى ... ويا غُلّتِى إنْ أبْطَأَ الغَـيْـثُ بالسُّـقْـيـاَ
فَـقُـومـاَ إلى رَبِّ السَّـمَـاءِ فَـأسْـعِـدَا ... تَقَلُّبَ وَجْـهِى فى السَّـمَـاءِ وَكَـفَّـيَّـا
عَسى مَيِّتُ الأَظْمَـاءِ فى رَوْضَـةِ النّدى ... سَيَـرْجِعُ عَنْ رَبِّ السَّـمَـاءِ وقَـدْ أحْـيـاَ
ويا أوْجُـهَ الأحْـرَارِ لاَ تَتَـبَـدَّلِى ... بِظِلٍّ « ابْنِ يَحْـيى » بَعْـدُ ظِلاًّ ولا فَـيَّـا
ويا حَلْبَـةَ الآمَـالِ زِيدِى عَلَى المَدى ... بَقَاءَ « ابْنِ يَحْيى » ثُمَّ حَيِّى عَلَى «يَحْيى »

الشـريف العقيلـي

أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة (توفى قبل سنة ٤٢٩ هـ)

والشريف العقيلي من الأشراف الطالبيين ، فجده الأعلى هو العقيلى بن أبى طالب أخو عليّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما .

وقد ولد الشريف وعاش حياته بالفسطاط حيث أهله . وكانوا من الثراء والنعمة على درجة كبيرة ، وقد ورث عنهم الشاعر الشرف والغنى ، فكانت له القصور والبساتين بالجيزة فى مقابل مدينة الفسطاط .

ويغلب على حياته أنه عاش معظمها فى القرن الرابع ، ولحق بالربع الأول من القرن الخامس ، وليست لدينا تفصيلات محددة تشير إلى مولده أو وفاته . وعبارة الثعالبى فى الترحم عليه تعني أنه مات قبل أن يلقى الثعالبى ربه سنة ٤٢٩ هـ .

وهناك فى شعره من الدلائل ما يؤكد حياته فى القرن الرابع ، فقد مدح بعض كبار رجاله ،كالقائد الحسين بن جوهر الصقلى ، الذى خدم العزيز بالله نزار ، وابنه الحاكم بالله حتى بطش به الأخير .

وعاش العقيلى حياته طولاً وعرضاً ، مستمتعاً بملاذ العيش ونعمه ، ورفاهية فى القصور بين الجوارى والخدم ، وكان يشرب الخمر ، ويلتذ بالشراب والطعام ، ويولم الولائم ، ويدعو إليها الرفاق من خلانه . وشعره حافل بوصف الشراب ، والسقاه ، ووصف الغناء والمغنين ، وصور الطبيعة من : مياه وبرك وبساتين فاكهة ، وأزهار ورياحين كما هو حافلٌ بوصف أنواع الطعام ، ويسجل لنا كثيراً مما لا نعرفه من أطعمة العصر التى تقدم على موائد الصفوة من أثرياء العصر ومترفيه .

وشعـره صور متتابعة ، وتسجيل لحياته ، وتصرف العيش به ، من شبابه حتى شيخوخته ، معظمه فى وصف متعه ، ومجالس لهوه ، وشرابه وطعامه . وغزله رقيق الحاشية ، ومدحه قليل ، وكذلك هجاؤه ، وكان مسلطاً على بعض حسّاده والحاقدين ممن يرون أنه قليل بضاعة الشعر . وله شعر غير قليل فى الشكوى من الأصدقاء ، والناس ، ومن الزمن ، والشيب والشيخوخة .

وفى الجملة ، فإن ديوانه يكشف عن شخصيته وحياته ، كما يعكس صور عصره ويجرى فى هذا المضمار مع تميم بن المعزّ ، وإن كان شعر تميم فى رأينا يرتفع عنه درجة فى الشاعرية ، والنبض الفنى ، وابتداع الأخيلة ، والتصرف فى اللغة .

وقال يعاتب :

حللتَ عُـرى إخـائك من إخـائى ... ومِلْتَ إلى ابن مَـصّـاصِ الدمـاءِ
فلم أُطْلِقْ سِـبَـاقَ العَـتْب منّى ... غـداةَ نَشَـرْتَ أجنحـةَ الجَـفَـاءِ
لأنّكَ بِعتَ ضـرغـامـاً بكلْبٍ ... وآثرتَ الحـضـيض على السـمـاء
ولم يخـجَلْ صـدودُكَ من وصـالى ... ولم يَسْـتَـحْيِ غَـدْرُك من وفـائى
فلمـا لم يكن منك اعـتـذارٌ ... أَسَمْتُ (١) القلب فى مَرْعَى العزاء
وقلت : أُروضُ بالسُّلوان قلبى ... فـلسـتُ ألامُ إنْ داوَيتُ دائى

---

(١) أسمت : من أسام الإبل ، أرسلها للرعى .

وقال يدعو صديقاً:

الغَيْمُ فى حافَتَيْه البرقُ يلْتَهِبُ ... كأنَّه مُطْرَفٌ أعلامُه ذَهَبُ
والقَطْرُ يَلْثم ثَغْرَ الأُقْحُوَانِ إذا ... تبسَّمَتْ عنه فى أفواهها القُضُبُ
فبالإخاء ترجَّلْ عن مخالَفتى ... واركب نشاطاً له من طاعتى لَبَبُ
وسِرْ إلى بنت كَرْمٍ فوق مَفْرقها ... من صَنْعة الماءِ تاجٌ درُّه الحَبَبُ
فالوقت إن جئتَه حتى تشاهدَه ... رأيته حَسَناً قد عمَّه الطَّربُ

وقال فى الغزل:

صَدَّ بعد الوصالِ تيهاً وعُجْباً ... فأذابَ الفؤاد همًّا وكَرْباً
رشأٌ جِسْمُهُ أرقُّ من الما ... ءِ وأقْسَى من الحوادث قَلْبا

وقال أيضاً:

غزالٌ تبدَّى فأبدى لنا ... هلالاً مُنيراً وغُصْناً رطيبا
وطرفاً كحيلاً ووجهاً جميلاً ... وخدًّا أسيلاً وحسْناً غريباً
فأفديه من قمرٍ طالع ... محاسنهُ ينتهبْنَ القلوبا

وقال أيضاً:

إذا الحبُّ لم يحفظ لشكواى حُرْمَةً ... ولم يرع فى حفظى له حُرْمَةَ الحُبِّ
نَشَرْتُ احتمالى ثم غَطَّيته به ... وأعطيته منى أماناً من العَتْبِ

وكتب إلى صديق له يدعوه :

يـامَـنْ هـو الأمُّ لـنـا والأبُ ... ومن إلي مـذهبـه نذهب
ومن هو المرءُ الذى لم يزل ... يَصْدُقُ فى القول ولا يكذب
ومن خَبَأْتُ العفوَ منه لمَا ... يغشاه من زلاَّتنا مُخْصِبُ
نحن خليعان فما بالنَا ... قل لى مَرْعَى قَصْفِنا مُجْدِبٌ !؟
لاسيما واليومُ يومٌ له ... جنائبٌ من سُحْبِه تَجْنُبُ
والطَّيْرُ قد غنّت غناءً لنا ... فى كل لَحْنٍ لفظُهُ مُعْرِبُ
فما الذى ترسُمُ قل لى فما ... رسمتَ لى عندى ما يَصْعُبُ
من الحوفيَّة (١) الشُّقرما ... طبيخُه من شَيِّه أصوبُ
إهابه أبيضُ من شحمه ... وعَظْمُهُ من لحمه أرْطَبُ
وأفرخٍ تعملُ تبَّالةً (٢) ... أقربُ شىء أمره يَقْرُبُ
وبطةٌ إن دلّيتَ تحتها ... جوذابةٌ (٣) فهى التى نطلب
وثمّ طرذينٌ (٤) وسنبوسقٌ (٥) ... إليهما فى السَّغَبِ المهرب
وليس تخلو الدارُ من فضلة ... متى أعانتنى لا أُغْلَبُ
تُسْفِرُ عنها جُونَةٌ وجهَهَا ... لنافرِ الشهوة مُسْتَجْذِبِ
تشاهدُ البَقْلَ بساحاتها ... لكلِ ذيلٍ أخضرٍ يُسْحَبُ
بين الفراريج السمان التى ... يَرْبَحُ فيها كلُّ من يَحْلُبُ
وبين جُبْنٍ مقدسىٍّ إلى ... خَلٍّ ومِلْحٍ فيهما يرغبُ
وقد عَمَرْنا قَطْرَ ميزاننا ... ببنتِ كَرْمٍ ثغرُها أشنبُ
يزفُّها فى قُمُصٍ كاساتها ... من زقّه من ريقه أطيبُ

---

(١) الحوفية : نسبة إلى حوف مصر فى شرقيها ، ولعله طير .
(٢) التبالة : ضرب من خليط الأفاويه .
(٣) جوذابة : ضرب من الطعام يتخذ من لباب الخبز ويخلط باللبن والسكر واللوز . انظر كتاب الطبيخ للبغدادى ص ٧٠ .
(٤) طرذين : ضرب من الطعام .
(٥) السنبوسق : فطائر من خبز ولحم . انظر البغدادى ص ٥٨ .

مُقَرْطَقٌ [1] تبدو على كفِّه كواكبٌ يحملها كَوكَبُ
والرأى أن نلتذَّ فى يومنا بصبحةٍ من عُمْرِنا تُحْسَبُ
مَعْ مُبْسِمٍ فى خدِّه وردةٌ تحرسها من صُدْغه عَقْرَبُ
لثامُه ينحطُّ من وجهه عن سَحَرٍ من فوقه غيهب
يضرب أعناقَ صباباتنا حين يَجُسُّ العودَ أو يضرب
يظفر مَن يَهْواه منه بما فيه له المَضْرَبُ والمطرب
فردْ بنا اللهوَ الذى ماؤه فى لهوات العيش مُستعذب
بين شقيقٍ صُدْغُه حالك وأقحوانٍ ثغرُه أشنب
والرعد يشدو والثَّرَي منتشٍ والسحب تبكى والرُّبَى تشرب
وعندنا طارمةٌ [2] رَسْمُها فى كل يوم مثل ذا تُنْصَبُ
بين يديها بركةٌ ماؤها جارٍ مع الأيام لا يَنْضَبُ
ماحَطَّ مذ أنشأتها سالفاً قطٌّ على سالفها طُحْلُبُ
يرقص فى حافاتها بطُّها إذا غدا بُلْبُلها يلعب
وربما تُطلع أمواجها كواكباً من وقتها تغْرُبُ
فاركبْ على عزمك ذاك الذى أعرفه يجرى ولا يتعب

---

(١) مقرطق : لابس القرطق ، وهو قباء ذو طاق واحد .

(٢) الطارمة : بيت من خشب (كشك) .

وصِــــرْ إلى دار أخـــيك الذى ... مــابرْقُـــهُ فى وَعْـــدِهِ خُلَّب
مــا دام لَيْثُ الدهرِ فى غـــفلة ... لا نابهُ يُخْـــشَى ولا المخلب
واربِطْ على كـــفِّك إن أنت لم ... تُجِبْ ســـؤالى ، أننى أغـــضب

وقال أيضاً:

نورُ الصــبــاح مُــسْبَلُ الأطنابِ ... ولجُّـــةُ الجـــوِّ بلاحَـــبَـــابِ
فــانعَمْ بإحـــدى نِعَمِ الأعناب ... صــفــراءَ مــثل الذهب المذاب
أرقُّ ســـربالاً من السَّـــراب ... تُعْرَضُ فى مــعــارض الأكـــواب
فى روضـــةٍ مُــعْلَمَـــةِ الأثواب ... كـــأنهـــا زيارة الأحـــبـــاب
فــقـــد بدا زبرجـــد اللِّبـــلاب ... مُــرَصَّـعــاً بلؤلؤ الســحـــاب
وانتَـــشَـــر الزهر على الروابى ... كـــأنه الديبـــاج والعَـــتَّـــابى
فــاحـــمل على همِّك بالتـصـــابى ... مــازلتَ فى ســابغَــةِ الشَّــبــاب

وقال أيضاً:

لا أنـــسَ أيـــامـــى ولا أطـــرابـــى ... أيام كنت أجـــرُّ ذيل شـــبـــابى
مَع مَنْ إذا حملت عليـــهم هفـــوةٌ ... ثبـــتـــوا ولم يستنجـــدوا بعـــتـــابِ
قـــومٌ إذا خطَب الفـــتى ألفـــاظهم ... زُفَّت إليـــــه جــــواهرُ الآداب
إن حكمـــةٌ منعـــتـــهم من نفـــسهـــا ... كـــانت لهم خُـــدَعٌ من الألبـــاب
كم من دُجَى هــمٍ أمــاطوا جُنْحَــه ... عَنِّى بنور كــــواكب الأكـــواب
حـتى أُصِــبْتُ بقــربهم فــأصــابنى ... قَلَقٌ يقلُ كـــثـــيــرهُ لمصـــابى

وقال أيضاً:

لأحسنُ من مُصَافحة الصِّفَاحِ ... ومن وَقْعِ الرِّمَاحِ على الرِّماحِ
بقاعٌ ترقصُ الأمواجُ فيها ... على النغمات من زَمْرِ الرياحِ
وأغصانٌ يذهّبها بهَارٌ ... وغيطانٌ يفضِّضها أقاحِي
وأنداءٌ إذا سُلَّتْ عليها ... سُيوفُ البرق تُبْطَحُ في البطاحِ
وكاساتٌ تدور على النَّدامى ... بأجسامٍ لها أرواحُ راحِ
وساقيةٌ تحضُّ على انتِحَابِ ... وملهيةٌ تحثُّ على اقتراحِ
وأنهارٌ تُنَضَّدُ لاغتباقٍ ... وفاكهةٌ تجدَّدُ لاصطباحِ
تفوحُ لنا بمسك تُبَّتِيٍّ ... وتنفحنا بكافور رَبَاحي
فكُنْ باللهو متَّشِحاً إذا ما ... رأيتَ الأرض تُجْلَى في وشاحِ
فقد لاحتْ من الأشجار غُلْفٌ ... مفتَّحةٌ عن المُلَحِ الملاحِ
وكان الجوُّ ذا شَعَثٍ فأضحى ... وقبَّته مُرَخَّمَةُ النَّواحي
وإن جَمَحَ الزمان إلى التصابي ... فخلِّ عنانه طوْعَ الجِماحِ
فصُبْحُ العيشِ سوف يعود ليلاً ... إذا ما الليل نُغِّصَ بالصباحِ
أتطمعُ بعد شيبك في سُرُورٍ !؟ ... محالٌ أن تطير بلا جَنَاحِ

وقال خمرية :

تَشَتَّتَ شَمْلُ الصبر واتَّصَلَ الضَّدُّ   فوا أسفا طال التأسُّفُ والوَجْدُ !
إلى اللّه أشكو أنَّ قلبى يذيبه   بَرَهْرَهَةٌ (١) كالبدر حَفَّ بها السعد
فللوصل من بعد الصدود جَبينُها   وللسخط من بعد الرضا فَرْعُهَا الجَعْدُ
وللمسك والكافور والدرِّ والمها   لواحظها والثغرُ والصُّدغ والخدُّ
ونكهتها عند التنفس عَنْبَرٌ   وريقتها فى كل أوقاتها شُهْدُ
لقد أُعطيَتْ فى خَلْقها غايةَ المنى   فليس لها فى الناس شِبْهٌ ولا ندُّ
ترى وَصْلَ من يدنو إليها محرَّمًا   فطوبى لمن أضحى له عندها رِفْدُ
بدتْ فتبدّت بالسلام تعرضاً   ولم يكُ عندى فى الذى قصدتْ عنْدُ
وراحتْ بروحى واستقلّت بمهجتى   وليس لما لا بد من كَونِه بُدُّ
فلما رأتنى نازحَ الصبر أعرَضَتْ   ولكنها بالطبع ليس لها رَدُّ
فسُقْمىَ فى جنب الهوى وسبيله   وما خاننى صبرى وما صنع الصدُّ
فإن جئت أشكو ما أقاسيه أعرضَتْ   ولم تسمع الشكوى ولم ينجح القصد
فكيف احتيالى مَعْشَرَ الناس أَرْشِدُوا   أخاَ حُرَقٍ فالصبُّ ليس له رشد
هو الحب لا تسلك مدى الدهر طُرْقَه   فما كل قلبٍ شابه حَجَرٌ صَلْدُ

---

(١) البرهرهة : المرأة البيضاء والناعمة .

وكن عن جـمـيـع العـالمين بمعـزلٍ ... فـمـا منهمُ حـرٌّ ولا من له عَـهْـدُ
ولا تعـتـقـدْ منهم على ذِى بشـاشـةٍ ... فـسلمـهـمُ حـربٌ وقـربهـمُ بعْـدُ
وخَـمَّـارةٍ نَبَّـهْـتُـهَـا بعـد هَجْـعَـةٍ ... وجُنْح الدُّجَى حَيْرَانُ كالقار مُسْوَدُّ
يشقُّ جـلابيبَ الدُّجَى بن عـمـردٌ ... أَقَبُّ الحشَا عَبْلُ الشوى جُرْشُعٌ نَهْدُ (١)
سـريعُ الخُطَى لا يدرك الطَّرْفُ لَوْنَه ... إذا شاء شدّاً كان طوعاً له الشَّدُّ (٢)
فلو أنه والبـرقُ يومـا تـسـابقـا ... لَقَـدَّمَـهُ مَـشْـيـاً وخلَّفَـهُ بَعْـدُ
جـــوادٌ جــــوادٌ لا يَرُدُّ عنـانَهُ ... إذا انهزمَتْ بالصَّيد يوم الوغى الجُرْدُ
ولى صـاحبٌ مـاضى الغِـرار مـخـذمٌ ... صـقـيـلٌ به تُزْهَى على العرَب الهِنْدُ
يظلُّ إلى خلف الطُّلا مـسـتطْلعَـا ... كـذى ظمـأ حـيـرانَ لاح له وِرْدُ
وأى فـتًى لاقـاه للحَـيْنِ حَـدُّهُ ... ثناه وأَشْـدَاقُ الوحـوش له لَحْـدُ
تـقـلَّدتـه والـليـل داجٍ رواقُـــــهُ ... وقـد ضَمَّه مـا بين أحشائه الغِمْـدُ
فوافيتُـهـا وَهْناً فـقـالت : مَنِ الفتى ... فـقـد نال منك السَّيْـرُ لا شك والكَدُّ
فـقلت لهـا : قـرمٌ همـامٌ غـضنفـر ... تكامل فـيـه البـأس والجـود والمجـد
صَبُورٌ على الأهوال كـهفٌ لمن لَجَا ... إليـه وعَـضْبٌ ليس ينبـو له حَـدُّ
فقالتْ : وما تَبْغِى ؟ فقلتُ : مُدَامَةٌ ... تُشَـتِّتُ شَـمْلَ الهمِّ أول مـا تَبْـدُو
ولا تجـعلى بالردِّ قَـصـدىَ ضـائعـاً ... لديك فـمــاءُ الوجــه يُذْهِبُــه الرَّدُّ
فـقـالت : سَتَلْقَى مـا تحب مُيَسَّراً ... فقلت لها : هاتى فذا (٣) كله وَعْدُ
فقامتْ فقالت : لا ، وعيسى ابنِ مريمٍ ... فـقلتُ لهـا : للّه ثُمَّ لك الحـمـدُ

(١) أقب الحشا : ضامر الحصر ، عبل الشوى : ملىء الأطراف ، والنهد : الفرس الجميل الجسم .
(٢) الشد : الجرى السريع .
(٣) فى مغ : قرى .

وجــاءتْ بهـــا راحـــاً كـــأن إناهـا   إذا مــا تَبَــدَّى دُرَّةٌ حَـشْـوُها وردُ
لهـــا حَــبَـبٌ لما أُريقَـتْ كــأنَّه   من الدرِّ طوقٌ للزجـاجــة أو عــقْــدُ
وإن مُـزجَـتْ لاحَـتْ كـوَجْنَةِ عـاشقٍ   وفـــاحتْ لنا مــسْكاً يخـــالطه نَدُّ
وجاءت بممشوق القـوام رَضيتـهُ   نديماً إذا دارتْ أباريقنا يَشْـــدو
وقـــد غـــاب عنا الهم حـــتى كـــأنما الزَّمـــانُ لنا مما حَـبـــانَا به عَـبْــدُ
وأنفَسُ عــيش المْرء مـــالم يكنْ له   إذا همَّ باللذاتِ من دونهـــا ضِــدُّ

وقال أيضا :

وظالمةِ الأرداف مظلومــةِ الخَـصْـرِ   عقـيقيَّة الخـدين فضِّـيةِ الثغـرِ
سَقَتْنِى عروساً قد كستها زجاجةٌ   وخــاطتْ لهـــا بالماء طوقــاً من الدرِّ
لدى روضـــةٍ تاهت بسَـــرْوٍ كـــأنه   وصائفُ صافَتْ فى غلائلها الخضر
فـوفَّيْتُـهـا بالشُّرب مـا تستحقه   إلى أن توفَّـــانى بهـــا مَلَكُ السكر

وقـال أيضـا[1] :

ياطلعـــــة القـــمــــر المنيـــر   ياقـــامـــة الغُـصْنِ النَّضِيـــرِ
جـــارَ الخِـــمــــارُ فـــقُمْ بنا   نعـــدل إلى عـــدلْ الخـــمــــور
لا تغــــفلــنْ عـــن لَــــذَّةٍ   فى مـــثل ذا اليـــوم المطيـــرِ
فــــالقـــاش فى ديبــــاجـــــةٍ   أعـــلامُـــهـــا آسٌ وخـيــــرى
أشــــجـــاره ونســـيــــمُــــهُ   مـــثلُ المشـــاجبِ والبُـــخـــورِ
وبهَـــارهُ مـــثل الشـــمـــو   سِ وغُـــدْرُه مـــثل البـــدورِ

(١) روى الثعالبى فى اليتيمة سبعة أبيات من هذه القطعة مختلفة فى ترتيبها عما هنا .

ونخـــيلهُ كـــشـــواكلٍ هتكتْ مـصـونات الشُّـعُـورِ
والـطيـــــرُ فى أرجـــائه متـجـاوباتٌ بالصـفـيـر
فـــعليك بـالـذهب الـذى أجـــراه روباسُ (١) العـصـيـر
مـــا زال يُـشْـبكُ بـالـذى قـد شبَّ من نار الهـجـيـر
حـــتى صـــفـــا فكأنه دَمْعُ الطليقِ على الأسـيـر
يُبْـدِى حَـبـاباً كـالعـقـو دِ على كـؤوسٍ كـالبـخـور
فــدعِ (٢) الصـغـيـر مكانه واعـدل إلى جـهـة الكبـيـر
مـــابين وردٍ كـــالخـــدو د وأقـحـوانٍ كـالثـغـور
إن كـنـت تـعـلـم أن لـى علمــاً بأسـرار السـرور
فـاعـمل بحَـسْبِ وصـيَّـتى لك فى مــلازمــة البكور
فــإن اسـتـفـدتَ مـسـرةً فـبـحُـسْن مَشُورةِ المُشِير

---

(١) هكذا فى اليتيمة ، ويريد بروباس العصير : عناقيد العنب .

(٢) فى اليتيمة : ودع .

القسم الثانى

النثر

الحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٣٥ هـ)

وفد إلى بغداد سنة ٣١٤ هـ . واتصل فيها بأئمة اللغة وعلوم الدين والعربية .

تلقى قراءة القرآن من ابن مجاهد : أبي أحمد بن موسى ، كما تلقى منه قراءات عاصم ونافع وحمزة وغيرهم من القراء المشهورين .

وأخذ الأدب والنحو عن ابن دريد ، وأبي بكر محمد بن القاسم الأنبارى ، وإبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى ، ونفطويه ، وأبي سعيد السيرافى .

من مؤلفاته : ليس فى كلام العرب – أسماء الأسد ، إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، البديع فى القراءات ، الاشتقاق ، الجمل ، تقنية ما اتفق لفظه واختلف معناه .

باب

ليس في كلام العرب: مثل نَسِيجٌ وحده إلاَّ أربعة أحرف : حرفان للمَدْح ، وحَرْفان للذَّمِّ . فنسيج وحده ، ورجيل وحده ، مدح وفلانٌ عيير وحده ، وجحيش وحده ذمٌّ ، ومرَّ كأنّه تصغير عير : وهو الحمار ، وتصغير جحشٍ . وسائر كلام العرب مفتوح [١] ، جاء زيدٌ وحده ، مصدر ، وجاءني القوم وحدهم ، كأنه بمعنى منفردين ، وتوحَّد وحده ، مصدر ، وواحد لايثنَّى ولا يجمع إلا الكميت ، فإنه قال : « فضمَّ قواصى الأحياء منهم فقد رجعوا » كحيٍّ واحدينا .

وقال آخر في التثنية :

فلمَّا التقينا واحدين علوته ... بذى الكفِّ إني للكماة ضروبُ [٢]

ويقال جلس فلانٌ على وحده وجلس وحدهُ وجلسا على وحدهما ، فقد صار الآن خمسة أحرف بالخفض . ولم يسمع تثنية وحده إلا فى بيت لعمارة :

ناجى الضمير به وحديـ ... ـن أبرز ضحكه المحض

(١) أى مفتوح الدال من وحده – وقال ابن السراج فى نحو جاء زيد وحده ، ومررت برجل وحده : مذهب سيبويه أنه معرفة أقيم مقام مصدر يقوم مقام الحال ، وهو موافق لما ذكره ابن خالويه ، وبنو تميم يعربونه إعراب الاسم الأول ؛ أى على الاتباع ، وزعم يونس أن وحده بمنزله عنده – راجع مادة « وحد » فى المصباح .

(٢) وجاء أيضا جمع تكسير ، كقول قريط بن أنيف :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

قال التبريزى فى شرح ديوان الحماسة : ووحدانا جمع واحد صفة كراكب وركبان ، وذلك إذا جعلته بمعنى الفرد فتغير حكمه وتنقله عن أصله ؛ لأن الأصل فى الأعداد ألا تثنى ولا تجمع ، فليس المقصود العدد بل المقصود أنهم جاءوا أفرادا بدليل المقابلة بزرافات (جماعات) ، وما يقال هنا يقال فى بيتى ابن خالويه . قال التبريزى : وقد جاء عن العرب واحد بمعنى فرد ، وهو قول النابغة :

لك الخير إن وارت بك الأرض واحداً ... وأصبح جد الناس يطلع عاثرا

وكان من طلاق الجاهلية : « أنت واحدة » أى منفردة لا زوج لك .

وجوز التبريزى أن يكون وحدانا فى البيت جمع وحد . وعلى هذا يكون وحد ورد مثنى ومجموعا أيضا ، وهو المنفرد . قال ابن دريد: رجل وحد أى منفرد ، والجمع أحدان . وقد روى فى البيت أحدان ، أصله وحدان ، قلبت واوه همزة لضمها مثل أجوده وأقتت .

باب

ليس في كلام العرب : فَعَلُولٌ إلاّ نَحْو من بِضْعَ عَشَرَة : سَلَعُوس : بَلَدٌ ، وبَرَهوتٌ : وادى جَهَنَّم ، وطَرَبوسُ السَّرجِ ،وثَقَفورُ النَّصَارى ، وبَلَصُوصٌ : طَائِر ، وأَسْوَدُ حَلَكُوكٌ ، وبَعَكُوكٌ ، يقال : وقَعُوا في بَعَكُوكٍ : أى اخْتِلاط وغُبارٍ ، وقَاعٌ قَرَقُوسٌ : وَاسِع ، وَعَرَبُونٌ ، وزَرَجُونٌ (١) ، وكَلَمُونٌ ، وعَسَطُوسٌ : شَجَرٌ .

باب

ليس في كلام العرب : فَعَلاءُ صِفَةً (٢) إلاّ ثَأَداء للأَمَة ، وَدَأَثاء ، وقد يَجِيءُ في الأسماء جَنَفاء، وقَرَماء : مَوْضِع ، وينشد «للسُّلَيْك بن السُّلَكَة » :

« كَـأَنَّ قَـوَائِمَ النَّحَّـامِ لَـمَّـا تروح صحبتى أُصُلاً مَحَارُ » (٣)
عَلَى قَـرَمَـاءَ عَـالِيَـةً شَـوَاهُ كَـأَنَّ بَيَـاضَ غُـرَّتِهِ خِـمَـارُ

يَصِفُ فَرَساً قد نَفَقَ على هذه العَقَبَة شائلاً قَوَائِمَهُ ، وَغُرَّتُهُ في جَبْهَتِهِ ،فلذلك قال عَالِيَةً شَوَاهُ.

---

(١) الزرجون : الخمر ، والكرم ، أو قضبانها ، وصبغ أحمر .

(٢) نقل السيوطى في المزهر عن كتاب المقصور للقالى : نفساء لغة فى النُفَساء ، والسُّحناء لغة فى السحناء : الهيئة ، ولين البشرة ، والنعمة ، واللون – ا هـ . وقد حكاهما صاحب القاموس .

(٣) البيت الأول ليس فى الأصل : والنحّام : اسم فرسه ، وهو يشبه قوائمه حينما تروح معه فى الأصيل بالمحار . ومن معانى المحارة الصدفة ، والعظم ، والهودج ويظهر أنه المراد لأنه يصف ضخامة قوائمه . والبيت الثانى وهو موضع الشاهد من شواهد سيبويه . قال الأعلم : الشاهد فى قوله قرماء ، وهو مثال غريب فى الاسم والصفة ، قليل ، وصف فرسا مرتفع القوائم ، عاليها ، وشبه غرته فى البياض والاستطالة بما أسبل من الخمار ، وهو العمامة . ويروى عاليه شواه (ورواية سيبويه عاليةً بالتاء) ويفسر على أنه مات وانتفخ ، فارتفعت قوائمه فصارت عالية ، وليس فى القصيدة ما يدل على موته . والشوى : القوائم ا هـ . هذا وقد استشهد سيبويه لجنفاء بقول الشاعر :

رحلت إليك من جَنَفاء حتى أنخْتُ فناء بيتك بالمطالى

والمطالى : مناقع الماء ، واحدها مطلاء ، يريد خصب المكان الذى حل فيه .

بـاب

ليس فى كلام العَرَب : اسْمٌ عَلَى إِفْعَالٍ إلاَّ إِسْحَارٌ : شَجَرٌ(١) . وكُلُّ ما فى كلام العَرَبِ إِفْعَالٌ فهو مَصْدَرٌ مثل : أَكْرَمَ إِكْرَامًا ، وأَنْفَقَ إِنْفَاقًا ، إلاَّ إِسْكَافٌ : وَهو كل صَانِعٍ عند العرب ، وإِسْنَامٌ(٢) : شَجَرٌ ، وإِشْنَانٌ لُغَةٌ(٣) فى الأُشْنَانِ ، وكل ما كان فى الكلام أَفْعَالٌ فهو جَمْعٌ مثل : أَجْمَالٍ ، وأَحْبَالٍ ، وأَغْنَامٍ .

وقد وجدت فى القرآن ثمانية أَحْرُفٍ تكون جمعًا ومصدرًا : الحرف الأَوَّلُ فى آلِ عِمْـرَانَ : (بالعَشِيِّ والإِبْكَارِ) ، ذَكَرَهُ الأَخْفَشُ . والحرف الثانى فى الأنعام : (فَالِقُ الإِصْبَاحِ) وَالأَصْبَاحِ ، قَرأَ بالفتح الحَسَنُ . والحرف الثالث فى بَرَاءةٍ : (إنهُمْ لا أَيمَانَ لهم) ولا إِيمانَ لَهُمْ ، قَرأَهَا ابنُ عَامِرٍ . والحرف الرابع فى هُودٍ : (فَعَلَيَّ إِجْرَامِى) ذكره الفَرَّاءُ . والحرف الخامس فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم : (وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ) وأَسْرَارَهُمْ ، قَرأَهَا حَمْزَةُ والكِسَائىُّ . والحرف السَّادِسُ فى (ق) : (وإِدبَارَ السُّجُودِ) وأَدْبَارَ السُّجُودِ ، قرأها أبو عمـرو والحـرف السابع فى والطُورِ : (وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) وأَدْبَارَ النُّجُومِ ، قَرَأَهَا الأَعْمَش . والحرف الثامن : (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) وإيمانَهُمْ ، ذكره الزَّجَّاجُ فى كتابه . هذه الحروف إذا كُسِرتْ فهى مَصَادِرٌ ، وإذا فُتِحَتْ فهى جَمْعٌ .

---

(١) فى القاموس : والإِسْحَارَة والإِسْحَارُ ويفتح والسَّحَارُ وهذه مخففة : بقلة تسمن المال . فلعل ابن خالويه يقصد « إسحارّ » بالتشديد ، وهذا أصح لئلا يعارض الحصر المذكور قريبا .

(٢) فى القاموس : والإسنام بالكسر : جبل لبنى أسد ، وثمر الحَلِىّ ، الواحدة بهاء .

(٣) أشنان : ذكرها صاحب القاموس فى أشن ، ومعنى هذا أن همزتها أصلية ، فهى فعلال أو فعلان لا إفعال .
وقال صاحب المصباح : الأشنان بضم الهمزة و الكسر لغة ، معرب ، وتقديره فعلان ، ويقال له بالعربية الحرض . وتأشن : غسل يده بالأشنان .

بــاب

اســتقصاء التثنية

ليس فى كلام العرب : أنْواعُ التثنية إلاَّ ما ذكرت ، وَما أعْلَمُ أحداً جمعه وَلا فَرعَهُ نحو مائة وَجْهٍ . قَول ذلكَ أن كل اسم إذا أردنا تَثْنِيَتَهُ ، مَعْرِفَةً كان أو نكرةً ، مذكراً كان أو مؤنثا ، عربياً أو أعجميًا ، جمَادًا أوْ حيَوَانًا فإنه يكون بالرفع بألفٍ ونون مَزيدَتَيْن فى آخره ، وبياءٍ ونون فى النَصْبِ وَالجَرّ : هذان رَجُلاَن ، ورأَيتُ رَجلَيْن ، وفَرَسَان وفَرَسَيْن ، والزّيدان والزيدَيْنِ؛ وهذا معروفٌ . ومن التَثْنِيَة ما لا يُفْرَدُ واحده ، وهما المِذْروَان : فَوْدَا الرأْسِ ، شَاب مِذْرواه ؛ وَالمِذْرَوَان : طَرَفَا الأَلْيَتَيْنِ . ومنها تَثْنِيَةٌ واحدةٌ ، فإذا أُفْرِدتْ كان لها ستَّةُ أَلْفَاظٍ وهي هَاتَانِ الْمرأَتَانِ بالتاء ، فإذا أَفْرَدْتَ قلت : هَذى المرأَةُ ، وذى المرأة ، وهذه ، وهَاتَا ، وتَا ، وذِهْ[1] كُلُّ ذلك محكى ، وينشد :

فَــهَـذى سُــيُـوفٌ يا صُـدَىّ بن مَـالك كَـثِـيــرٌ ولكن أَيْنَ لِلْسَّـيفِ ضَـارِبُ

وَمنها أن تكون التثنية فى الرفع وَالنصب وَالجر على حال وَاحدة لغة بَني الحَارِثِ بن كَعْبٍ : جلَسْتُ بين يدَاهُ ، ورأَيتُ الزيدان ، كما قال :

تَـزَوَّدَ مـنّـا بَيْـنَ أُذْنَـاهُ ضَـــــــربَـةً دَعَـتْـهُ إلى هَـابِى الـتُـرَابِ عَـقِـيـمُ

وَمنها تثنية جاءَتْ نونها مفْتوحةً[2] مررت بالزّيدَيْنَ ، أنشد الفَرّاءُ :

عَلَى أَحْـوَذِيّيْنَ اسْـتَـقَلّتْ عَـشِـيَّـةً وَمَـا هيَ إلاَّ لَمْـحَـةٌ فَـتَـغِـيْبُ[3]

وروى ابن مجاهد عن أبى عمرو « أَتعِدَانِنِى أَنْ أُخرجَ » وأنشد .

---

(١) ومما يشار به إلي المؤنثة أيضا تَه ، وته ، وتي ، وذان ، وذه . ويلاحظ أنه لم يذكر إلا ثلاثة ألفاظ بغير (ها) التنبيه ، وأدخل عليها (ها) التنبيه . ويلاحظ أنه فى حكمه هذا نظر إلى التثنية الاصطلاحية .

(٢) وهي لغة بنى أسد .

(٣) قائله حميد بن ثور بن حزم أبو المثنى ، وقيل : أبو خالد . والأحوذىُّ : هو الخفيف . وأراد بالأحوذيين جناحى قطاة . واستقل الطائر : ارتفع . وعشية نصبت على الظرف – راجع شواهد العينى .

أَعْرِفُ منها الجِيدَ والعَيْنَانَا ومَنْخِرانِ أَشْبَهَا ظَبْيَانَا (١)

ومنها نون تثنية تُشْبِهُ الجمع ، وذلك تثنية صِنْوَان وقِنْوَان ، الواحد صِنْوٌ وقِنْوٌ والتثنية قِنْوانِ وصِنْوَانِ ، والجمع صِنْوان وقِنْوانٌ ، لافرق بين التثنية والجمع إلاّ ضمةٌ وكسرةٌ فى الدَرجِ . فإذا وَقَفْتَ استويا .

ومنها تثنية حذفت نونها ، وهى « الشعر للأخطل وعنى عَمْراً ومُرَّةَ بن كلثوم » :

أَبَنِى كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّىَّ اللَّذا قَتَلاَ المُلُوكَ وفَكَّكا الأَغْلالا

يريد اللّذَانِ . ومنها نون تثنيَة مُشَدَّدةٍ ، وذلك فى المُبْهَمَات خاصّةً (٢) هذَانِّ واللّذَانِّ ، وهَاتَيْنِّ لُغَةُ أهْلِ مكة . ومنها تثنية قد أفردتها العَامَّةُ خطأً : الجَلَمُ (٣) ، والمِقْرَاضُ ، إنما هُمَا الجَلَمَانِ وَالمِقْرَاضَانِ . وكذلك الكَلْبَتَانِ (٤) ، لأن الكَلْبَةَ الواحدة والمِقْرَاضَ الواحدَ لا يَقْطَعُ ولا الجَلَمُ . ومنها تثنية هُما فَرْدَانِ ، وتَتَوهم العامّة أنه جمع ، وذلك زَوْجَانِ وهما فردان ، والعامَّةُ وتقدر أن الزَوْج اثنان . قال اللّه عز وَجَلّ : (احْمِلْ فيها من كل زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) ، فالرَجُلُ زَوْجُ المرأةِ ، والمرأةُ زَوْجُ الرَجُلِ . قال اللّه تعالى -لآدم عليه السلام-: ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ ﴾ وربما قيل

(١) قال العينى : قيل : قائله مجهول ، وقيل : رؤبة ؛ وكلاهما غير صحيح و الصحيح أنه لرجل من بنى ضبة ، كما ذكر أبو زيد . والجيد : العنق . وظبيان : اسم رجل بعينه . والضميرفى « منها » يرجع إلى سلمى المذكورة فى قوله قبل :

إن لسلمى عندنا ديوانا

وفى البيت شاهد آخر ، وهو إجراء المثنى بالألف حالة النصب ، وهى لغة بنى الحارث بن كعب – كما ذكر ابن خالويه – وبنى العنبر ، وبنى الهجيم .

(٢) اتفق النحويون على تشديد النون فى اللذين ، واللتين ، وذين ، وتين ، فى حالة الرفع ، واختلفوا فى التشديد عند غيره ، والصحيح جوازه – راجع شرح قول ابن مالك فى الموصول :

والنون إن تتشدد فلا ملامه

والنون من ذين وتين شددا

(٣) فى القاموس : الجلم : مايجزّ به . وفى المصباح : الجَلَمُ بفتحتين : المقراض ، والجلمان بلفظ التثنية مثله ، كما يقال فيه المقراض والمقرضان ، وثم قال : ويجوز أن يجعل اسما واحدا على فلان كالسرطان ، وتجعل النون حرف إعراب ، ويجوز أن يعرب كالمثنى ا هـ بتصرف .

(٤) الكلبتان : مايأخذ به الحداد الحديد المحمى .

للمرأة : زوجة ، بالهاء توكيداً للتأنيث ورَفعاً لِلَّبسِ ، كما قالوا : فَرَسٌ للذكر والأنثى ، وربما قالوا فَرَسَةٌ .

ومنها لفظُ كِلْتَا ، قال أهل الكوفة : إنه تثنية . وقال أهل البَصْرَة : هو واحد ، وهو قولك كِلْتَا المرأتَيْنِ قامتْ . قالوا (١) : الواحدُ كِلْتَ ، والتثنية كِلْتَا . وقال أهل البصرة : أخطئوا لأنك تقول كِلْتَا المرأتَيْنِ قَامَتْ ، ولا تقول قَامَتَا ، وقال الله تعالى : ﴿ كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ ﴾ ولأن الشاعر قال :

فى كِلتَ رِجْلَيْهَا سُلامَى وَاحِدَهْ كِلْتَاهُمَا قَدْ قُرِنَتْ بزَائِدَهْ

وهذا الشاعر إنما اضطر فحذف الألف . ولأنهم رأوه مع المَكْنى(٢) تصير أَلِفُهُ ياءً ، تقول : جَاءَتَنى كِلْتَاهُمَا ، ورَأَيْتُهُمَا كِلْتَيْهِمَا ، وهذا إنما هو مثل لَدَى وعَلَى وإلى ، يكون مع الظاهر ألفاً ، ومع المَكْنِيِّ يَاءً ، نحو ، قولك . عَلَيْكَ ولَدَيْكَ وإِلَيْكَ .

ومنها ما يفرق بين المذكر والمؤنث فى الواحد ، ويستويان فى التثنية ، وهو قولك : هُمَا قَامَا ، ثم تقول : هِىَ ، وَهُوَ ، كذلك أَنْتِ وأَنْتَ ، ثم تقول : أَنْتُمَا لَهُمَا . ومنها تثنية يكون لَفْظُها والجمع سواء ، وذلك قولك : أنا ، ثم تقول : نحن ، للجمع والاثنين . وكذلك تقول : ضَرَبْتُ ، ثم تقول ضَرَبْنَا ومَرَرْنَا ، فيستوى الجمع والتثنية وكذلك يستوى المُؤَنَّثُ والمذكر فى الأمر إذَا ثنيته ، فتقول : اضْرِبْ يا رَجُلُ ، واضْرِبِى يا امرأة ، فإذا ثَنَّيْتَ تقول فيهما : اضْرِبَا . ومن ذلك تثنية بلا جمع ، وهو قولك : هٰذَانِ بَشَرَانِ ، ولا يجمع ، والواحد بَشَرٌ . وقال الله تعالى : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ .

ومنه ما يجمع وأنت تريدُ التثنيةَ ، وذلك إذا كان سيَّان من سيَّيْنِ(٣) أو ما فى البَدَنِ من جَارِحَةٍ واحدة ، ضَرَبْتُ رأس زيد ، وَضَرَبْتُ رءوسَ الزَيْدَيْنِ ، وبَقَرْتُ بطْنَهُ وبُطُونَهُمَا ، ولا تَقُلْ

(١) واضح أن قائل هذا القول هم الكوفيون ، فالضمير فى « قالوا » إذن يرجع إلى الكوفيين لا البصريين ، كما يبدو من سياق العبارة هنا ، ولعله سقط من العبارة شئ هنا . وانظر الإنصاف لابن الأنبارى ٢٦٠ .

(٢) تقدم أن تكلمنا عن كلا وكلتا فى ص ٦٢ ، وقوله « مع المكنى » أى عند الإضافة إلى الضمير .

(٣) الصواب شيئان من شيئين ، كما يظهر من التمثيل . فقلوبكما : المراد قلبين من إنسانين ، وعبَّر عن كل منهما بشيئين ، وذلك أن العرب تكره إضافة المثنى إلى المثنى .

بَطْنَيْهِمَا ، قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ولم يَقُلْ قَلْبَاكُمَا ، ورُبَّمَا ثَنَّاه الشاعر كما قال :

فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِنَوَافِذٍ ... كَنَوَافِذِ العُبُطِ التى لا تُرْقَعُ

ونحو قوله :

هُمَا نَفَثَا فى فِيَّ مِنْ فَمَوَيْهِمَا ... عَلَى النَابِحِ العَاوِى أَشَدَّ رِجَامِ(1)

وأَحْسَبُهُ ذَهَبَ بالفَمَوَيْنِ إِلَى الشفَتَيْنِ ، كما قالوا : مَاتَ حَتْفَ أَنْفَيْه ، ذَهَبَ إِلَى المَنْخِرَيْنِ ، فإِنْ أَضَفْتَ ذلك إِلى واحدٍ ثم ثَنَّيْتَهُ جَازَ أَن تقول : أَخَذْتُ خَاتَمَيْه ، وما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ رَأْسَيْنِ ، ولا تقول رُءُوسًا هُنَا ، لأَنَّكَ أَضَفْتَهُ إِلى واحد ، وقال الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ومنها ما ثُنِّيَ وهو جمعٌ . تقول : مَرَّ بنَا إِبلان أَسْوَدَان وغَنَمَان ، وقال الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَموات والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ولم يَقُلْ : كُنَّ ، وهي سبعُ سَمَاوَاتٍ ، وسَبْعُ أَرَضِينَ . ومنها ما يُثَنَّى وهو واحدٌ تقول : يَا غُلَامُ اضْرِبَا زيداً ، ويَا زَيْدُ اسْفَعَا بيدِهِ ، وَيَا حَرَسِيُّ اضْرِبَا عُنُقَهُ ومنها ما يُؤَكَّدُ ولم يخافوا لَبْساً ، وهو قولهم : مَرَرْتُ برجلين كِلَيْهِمَا ، وقال الله تعالى : ﴿ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هو إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

ومنها ما لَفْظُهُ كلَفْظِ التَثْنِيَة ، واختلف النحويون فيه ، وذلك قولك : لَبَّيْكَ ، وحَنَانَيْكَ ، وحَوَالَيْكَ ، وكذا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ ، وَظَهْرَيْهِمْ . فمن زَعَمَ أنه مُثَنًّى قال : أَنَا مُقِيمٌ مُلِبٌّ إِلْبَاباً وإِجَابَةً بَعْدَ إِجَابَةٍ ، وَسَعْدَيْكَ إِسْعَاداً بعد إِسْعَادٍ ومن زَعَمَ أَنه غير مُثَنًّى قال : إِنما هو لَبَّيكَ ، فَاسْتَثْقَلُوا ثلاث باءاتٍ فقلبوا أُخْرَاهُنَّ يَاءً .

ومنها ما تُحْذَفُ الياءُ منه فى التثنية لِطُولِ الاسْم ، فيقال فى تثنية قَرْقَرَى : قَرْقَرَان . ومنها ما يجمع لَفْظَيْنِ مختلفين فيجعلان على لفظ واحد ، نحو قولهم : سُنَّةُ العُمَرَيْنِ ،

---

(1) تقدم شرحنا لهذا البيت فى ص ٩٩ ، ١٠٠ .

يريدون أبَا بكْر وعُمرَ رضى الله عنهما ، والْخُبَيْبَان : يُريدون أبَا خُبَيْب ومُصْعَبًا أخَاهُ(١) ، وكـذلك الزهْدَمان(٢) يريدون زَهْدَمًا وكَرْدمًا أخَاهُ ، والقَمرَان : الشَمْسُ والقَمرُ وهو كثير ، وقد أفردنا له كتاباً ، ويقال : للأُمّ والأب : الأبَوَان ، وكذلك الأبُ والخَالَةُ ، قال الله تعالى فى قصّة يُوسُفَ عليه السَلاَمُ : ﴿ ورَفَعَ أَبَوَيْه عَلَي العَرْشِ ﴾ يعنى أبَاهُ وخَالَتَهُ ، لأنّ أُمَّهُ شَرَاحِيلَ كانت قد ماتت ؛ وقولهم : شَاوَرَ نَفْسَيْه أى إِرادَتَيْه أيفْعَلُ أمْ لا . ومن التثنية ما يُذْكرُ واحداً والمراد اثنان ، نحو قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ ﴾ يُريدُ الحرَّ والبَرْدَ ، فاجْتَزأ بأحدهما لأنه معلوم أنَّ مَا وَقَى الحَرَّ وقَى البرْدَ ، وقال الشاعر :

وَمَا أدْرى إذا يَمَّمْتُ أرْضًا … أُريدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِى

يريد الخيرَ والشرَّ ، وقد فَسَّرَهُ بالبيت الذى بعده :

أأَلْخَيْرُ الذى أنا أبْتَغِيهِ … أَمِ الشَّرُّ الذى هُوَ يَبْتَغِينِى

أى لا يألو جَهْداً فى طَلَبى . ومن التثنية ما يذكر اثنين ثم يعود الضمير إلى أربعة أوجه : إمّا عليهما ، وإما على الأهم، وإمّا على الأقْرب ، وإمّا على الأشْرَف . فأمّا ما عاد عليهما فقوله عزّ وجَلّ : ﴿ قَالَ رَجُلاَنِ من الَّذينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهما ﴾ . وعَلَى الأهَمّ قوله تعالى : ﴿ وإذَا رَأَوْا تجارَةً أوْ لَهْواً انفَضُّوا إليهَا ﴾ لأن التجارَةَ كانت أحَبَّ إليهم وعلى الأقْرَب قوله تعالى ﴿ واسْتَعِينُوا بالصبْرِ والصَلاَةِ وإنَّها لَكَبِيرَةٌ ﴾ . وعلى الأشْرَفِ قوله جل اسمه : ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يرْضُوهُ ﴾ .

---

(١) ومنه قول حميد بن مالك الأرقط ، أو أبو بحدلة :
قدنى من نصر الخبيبين قدى
قال العينى : أراد بهما عبد الله وأخاه مصعبا ، أو أراد خُبيب بن عبد الله بن الزبير بن العوام رضى الله عنهم أجمعين وأباه عبد الله .

(٢) فى القاموس : والزهدمان : أخوان من عبس ، زهدم وكردم أو وقيسٌ .

من كتاب « إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم »

قال أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالَوْيه النحويَ : هذا كتاب ذكرات فيه إعراب ثلاثين سُورةً من المفَصَّل بشَرْح أُصول كلِّ حرفٍ وتلْخيصِ فُروعِه ، وذكرتُ فيه غريبَ ما أشْكَلَ (منه) وتبيينَ مَصادِره وتثنيه وجَمْعِه ؛ ليكونَ مَعُونةً على جميع ما يَرِدُ عليك من إعراب القُرآن إن شاء الله . وما توفيقُنا إلا بالله .

فأوّل ذلك : ﴿ أَعُوذُ بالله مِنَ الشَّيْطَان الرَّجيم ﴾ .

« أَعُوذُ » فِعْلٌ مُضَارِعٌ ، علامةُ مُضَارَعته الهمزةُ فى أوّله ، وعلامةُ رَفْعه ضَمُّ آخره . وهو فِعْلٌ معتلٌ لأنّ عينَ الفعلِ واوٌ ، والأصلُ أَعْوُذُ (على مثل أَفْعُلُ) ، فاستثقلوا الضَّمّةَ على الواو فَنقلتْ إلى العَيْن فصارتْ أَعُوذُ ، وكذلك أَقُولُ وأَزُولُ ، وما كان مثلَه فهذه علّتُه . فالهمزةُ فى أعُوذُ إخبارٌ عن النَّفْسِ ، أَعُوذُ أنا والياءُ للغائب ، يَعُوذُ هو . والتاءُ للمؤنّث الغائبة ، تَعُوذُ هِيَ ، وللمُخَاطبِ الشاهد ، تَعُوذُ أنتَ يا رَجُلُ . فإنْ جعلْتَ الْخُطَابَ للمرأة قلت أنت تَعُوذِينَ يا امرأةُ ؛ فالياءُ علامةُ التأنيث ، والنُّون علامةُ الرَّفْع لأنها تسقط للجَزْم إذا قلتَ لم تَعُوذى ، وكذلك للنَّصْب . والنونُ للمتكلم إذا كان معه غيرُه نحن نعوذ نحن نَقُومُ . فإذا صرّفْتَ الفعلَ قلتَ عَاذَ يَعُوذُ عَوْذاً فهو عائذٌ . فعَاذَ فعْلٌ مَاضٍ . ويَعُوذُ فِعْلٌ مُضَارِعٌ يصلُح لزمانَيْن الحالِ والاستقبال ، والماضى لا يصلُح إلاّ لزمانٍ مُنْقَضٍ قَرُبَ أو بَعُدَ فإذا دخلتْ على الفعلِ المضارِع السينُ أو سَوْفَ أزالتاهُ إلى الاستقبالِ لا غَيْرُ . وعَوذاً مَصْدَر ، وإنْ شتَ قُلْتَ عَاذَ مَعَاذاً وعَوْذَةً وعِياذاً ، كُلُّ ذلكَ صَوابٌ . وعائذٌ اسمُ الفاعلِ ، واسمُ المفعول مَعوذٌ به، والأمرُ عُذْ للمُذَكَّرِ ، وعُوذى للمؤنَّث ، وعُوذَا للاثنين ، وعُوذُوا للرِّجالِ ، وعُذْنَ يا نِسْوَةُ . ومعنى أَعوذ (بالله) أَعْتَصِمُ وأَمْتَنِعُ بالله من الشيطان الرجيم .

ويُنْشَدُ : أَنفِى لَكَ اللّهمَّ عَانٍ رَاغِمُ * مَهْمَا تُجَشِّمْنِى فإنِّى جَاشِمُ

* عُذْتُ بما عَاذَ به إبراهِمُ *

يريد به إبراهيمَ (النبىَّ عليه السلامُ) . ومنَ العَرَب مَنْ يقولُ إبراهام وكذلك قرأ ابنُ عامرٍ . وذلك أنَّ إبراهيم اسمٌ أعجمىٌّ ، فإذا عَرَّبته العربُ فإنَّها تُخَالِفُ بين ألفاظه ، ومنهم مَنْ يقولُ إبْرَهَم بغير ألف ؛ قال الشاعرُ :

نَحنُ آلُ اللهِ فى كَعْبَتِه   لم يزَلْ ذاكَ عَلَى عَهْدِ ابْرَهَمْ

وحدّثنا(١) محمدٌ عن ثَعلَب عن سَلَمةَ عَنِ الفرّاء قال : العربُ تقولُ نعُوذُ باللهِ من طئة الذَّليلِ أى أعوذُ باللهِ من أنْ يَطَأنى ذليلٌ . ويقال مَعَاذَ اللهِ من ذلك ، ومَعَاذةَ اللهِ من ذلك ، وعِيَاذاً باللهِ من ذلك ، وعَوْذاً باللهِ من ذلك وعائذاً باللهِ من ذلك ، معناه أعوذُ باللهِ من ذلك . (وروى عن الحسن البصرىّ أنه قرأ « وقُلْ رَبِّ عائذاً بك من هَمَزاتِ الشَّياطينِ وعائذاً بكَ ربِّ أنْ يَحْضُرُونِ ») فأمّا قول العربِ : أطيَبُ اللحمِ ما أُكِلَ عن عَوْذِه ، يريدون ما أكل عن العظم . والعُوذةُ ما عاذ من الرِّيح بشجرةٍ أو غيرِها(٢) . فأمّا الذى حدّثنى ابنُ مُجَاهِد(٣) . عن السَّمّرىِّ عن الفرّاء أنَّ العرب تضرب مثلاً وأولُ من قاله سُلَيْكُ بنُ السُّلَكة « اللهم إنى أعوذُ بك من الخَيْبة ، فأمّا الهَيْبةُ فلا هيبةَ » فالخيبةُ الفقر . ومعنى لا هيبةَ أى لا أهاب أحداً .

« باللهِ » جرٌّ بباءِ الصفة وهى زائدة ؛ لأنك تقولُ اللهَ فتُسقط الباءَ . وحروف الزوائد فى صور الأسماء ثلاثةٌ اللامُ والكافُ والباء . فالكاف للتشبيه ، واللام للمِلْكِ ، والباء للاتّصال واللُّصوق . وموضعُ الباء نصبٌ لأنها قد حلّتْ محلَّ مفعولٍ . وعلامةُ جرّه كسرة الهاء . والأصلُ أعوذ بالإله فحذفوا الهمزةَ اختصاراً وأدغموا اللام فى اللام ، فالتشديدُ من أجْلِ ذلك ؛ كما قال تعالى : ﴿ لكنّا هُوَ اللهُ ربّى ﴾ . الأصلُ لكن أنا ، فحذفوا الهمزة اختصاراً ، وأدغموا النون فى النون . قال الشاعر :

وتَرمِينَنِى بالطَّرْفِ أىْ أنتَ مُذْنِبٌ   وتَقْلِينَنِى لكنَّ إيّاكِ لا أَقْلِى

(١) محمد هو محمد بن القاسم بن بشار بن الأنبارى المتوفى سنة ٣١٨ . وثعلب أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ . وسلمة هو ابن عاصم النحوى الكوفى . والفراء يحيى بن زياد الباخلىّ المتوفى سنة ٢٠٧ .

(٢) كذا . والذى فى القاموس وشرحه أن العوذة هى الرقية ، فأما ما عاذ من الريح الخ فإنه عوّذ كسكر . أقول : فقد يحتمل أن يكون هنا سقط ، وكان الأصل : والعوذة الرقية ، والعوّذ ما عاذ الخ . ع . ى .

(٣) ابن مجاهد هو أبو بكر أحمد بن موسى القارئ المتوفى سنة ٣٢٤ . والسمرى هو محمد بن الجهم المتوفى سنة ٢٧٧ .

(أرادَ : لكنْ أنا) يُخاطب امرأةً . فإن قيل لِمَ شُدِّدت اللامُ ؟ فقل للإدغام ، وذلك أنَّ الإدغامَ (في الكلام) على ضربَين لقُرْبِ المخْرَجَيْنِ وتَجانُسِ الحرْفَيْنِ . فإن قيل لِمَ لم ينّون ، ؟ فقل لدخول الألف واللام ؛ لأنّ التنوين والإضافة والألف واللام من دلائل الأسماء ، فكلٌّ واحدٍ منها يُعَاقِبُ صاحبَيْه .

« منَ » حرْف جرّ ، وهي لمبتدأ الغاية ، كما أنّ « إلى » لـمُنْتَهَى الغاية . فإذا قلتَ : لزيْدٍ من الحائط ، فقد بَيّنتَ به طَرَفَيْ مَالَه لأنك ابتدأت بمنْ وانتهيتَ بإلى ؛ وكذلك خرجتُ من العراق إلى مكّةَ . حدّثني الحندان النحويُّ واللُّغويُّ عن ثعْلَب قال : إذا قال الرجل : لزيدٍ عليَّ من واحد إلى عَشَرَةٌ فجائزٌ أن يكون عليه ثمانيةٌ إذا أخرجتَ الحَدَّيْنِ معاً وجائز أن يكون عليه عشرة إذا ادخلت الحدين معا وجائز أن يكون عليه تسعةٌ إذا أخرجتَ حداً وأدخلتَ حداً .

« الشَّيْطَانِ » جرٌّ بمنْ ، علامةُ جرّه كسرةُ النون . فإن قيل لك لِمَ شُدِّدتِ الشين ، فقل أُدغمَتْ فيها اللّام . واللامُ تُدْغَمُ في أربعةَ عَشَرَ حرفاً : في التاء والثاء والدال والذال والراء والزاى والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء واللام والنون . وإنما صارت اللّامُ تُدْغَمُ في أربعةَ عشرَ حرفاً وهي نصفُ حروف المُعْجَم لأنها أوسعُ الحروف مخرجاً ، وهي تخرج من حافَة اللّسان من أدناه إلى منتهى طَرَف اللّسان وفُوَيْقَ الضاحك والنابِ والرَّبَاعيَة والثَّنية . فلما اتسعتْ في الفم وقَرُبتْ من الحروف أدغمتْ فيها فاعرفْ ذلك إن شاء الله تعالى . حَافَةُ اللّسان طَرَفُه وجَمْعُها حِيَفٌ حدّثني بذلك محمد بن أبي هاشم عن ثعلبٍ عن ابن الأعرابيّ . فإن قيل : لم فُتحت النونُ في قولك منَ الشيطانِ وكُسرت النونُ في قولك عَنِ الشيطان ؟ فالجواب في ذلك أنَّ النونَ حُرِّكت فيهما لالتقاء الساكنين ، غيرَ أنهم اختاروا الفَتْحَ في « من » لانكسار الميم ، واختاروا الكسرَ في « عَنْ » لانفتاح العين . فأمّا قولهم إن الله أمْكنَني مِنْ فُلانٍ ، فإنّهم كسروا النونَ مع الهمزة لقلّة استعمالهم إيّاه .

والشيطان يكون فَعْلانَ من شَاطَ يَشيطُ[1] بقلب ابن آدَمَ وأشاطَه أي أهلكه ، ومن شاطَ بقلبه أي مال به ، ويكون فَيْعَالاً من شَطَنَ أي بَعُدَ كأنه بَعُدَ عن الخير ؛ كما أنه سمّي إبليسَ

(١) « من أشاطه يشيطه أي أهلكه ، وشاط بقلبه أي مال بقلب ابن آدم » .

لأنه أُبْلِس من رحمة الله أي يَئِس ، وكان اسمه عَزَازِيلَ . يقال دارٌ شَطَونٌ أىْ بعيدةٌ ، ونَوًى شَطُونٌ ؛ قال الشاعر(١) :

أَيُّهـمَا شـاطِنٍ عَصَـاهُ عكَاهُ في وَثاقِ السُّجونِ والأغلالِ

معنى عكاه شدّه . يعني بذلك سليمان بن داود عليه السلام . وكلُّ متمرِّد من النّاس وغيرهم (يقال له) شيطان ؛ قال الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ أى إلى رُؤساءِ المُنَافقين والكفار(٢) من اليهود . وأمّا قولُه تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ فقيل الحيَّات، وقيل الجنّ . وأمّا قولُ شَبِيبِ بن البَرْصاءِ :

نَوًى شَطَنَتْـهُمْ عَنْ هَوَانَا وهيَّـجتْ لنـا طَرَباً إنَّ الخطوبَ تَهـيجُ

فمعنى شطنتهم خالفتْ بهم وبَعُدتْ . ويقال بئرٌ شَطُونٌ أى عَوْجاء فيها عوَجٌ فيُسْتَقى منها بِشَطَنَيْنِ أى بحبْلَين .

« الرَّجِيمِ » [جرٌّ] نعتٌ للشيطان ، علامةُ جرّه كسرةُ الميمِ ، ولم تُنوّنه لدخول الألف واللام . وشُدّدت الراء لإدغام اللّام فيها . فإنْ سال سائلٌ فقال الشيطان رجَمَ أو رُجِمَ ؟ فقل لا بل رُجِم ، والأصلُ من الشيطان المرْجوم ؛ كما قال : * رُجْمَ(٣) به الشيطانُ في هَوَائه * . فصُرِفَ [من] مفعولٍ لأنّ الياء أخفُّ من الواو ، كما يقال كفٌّ خَضيبٌ والأصلُ مخضوبةٌ ، ولحْيةٌ دَهِينٌ والأصلُ مدهونةٌ ، ورجلٌ جريحٌ وصَرِيعٌ ، كلُّ ذلك أصلُه الواو لأنه مفعولٌ . والمرجومُ في اللُّغة الملعونُ المطرودُ ، لَعنه الله معناه طَرده [الله] وأبعده . قال الشّمَّاخُ :

ومـاءٍ قـد وردتُ لِوَصْلِ أَرْوَى عليـه الطيـرُ كـالوَرَقِ اللَّجينِ(٤)
ذَعَـرتُ به القَطَا ونَفَـيْتُ عنه مَـقَـامَ الذئبِ كـالرَّجُلِ اللَّعينِ

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت .
(٢) : « أى إلى رؤساء المنافقين واليهود » .
(٣) تسكن الجيم هنا ليستقيم الوزن ، ومثل هذا كثير في الشعر كقوله : « لو عصر منه البانُ والمسك انعصر » .
(٤) لورق اللجين هنا : الخبط .

اللّعين نعتٌ للذئب فى قوله سَلَمَةَ(١) . والرَّجْمُ أيضاً القتلُ ؛ كقوله عزّ وجلّ : ﴿لنَرجُمنَّكُمْ﴾ والرَّجْمُ الشتم ، والرجم بالحجارة ؛ ومنه رَجْمُ المُحْصنَات والمُحْصنين إذا زنَوْا . وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : « ما منْ نَفْسٍ مولودٍ يُولَدُ إلاّ والشيطانُ ينالُ منه تلك الطَّعْنةَ ولها يَسْتَهلّ الصبىُّ (صارخاً) إلاّ ما كان من مرْيَمَ بنة عمْرانَ فإنها لمّا وضعتْها قالت ربِّ إنّي وضعتُها أُنْثى أُعيذُها بك وذُرّيتَها من الشيطان الرجيم ، فضُربَ دونَها حجابٌ فطعَن فيه . وإنّ المَسيحَ لمّا وُلدَ حفت به الملائكةُ فلم ينْهزْه إبليسُ ، وصارت الشياطينُ إليه فقالوا : قد نَكَستِ الأصنامُ رءوسَها ، فقال : قد حَدَث أمر عظيم ، فضربَ خافقَى الأرضِ وأتى البحارَ فلم يجدْ شيئاً ثم وجَد المَسيحَ – صلّى الله عليه – قد وُلدَ فقال : قد وُلدَ نبيٌّ » صلى الله عليه .

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم ﴾

« بِسْمِ » جرٌّ بباءِ الصفة وهى زائدة . فإنْ قيل : ما موضعُ الباء من بسم الله ؟ ففى ذلك ثلاثةُ أجوبةٍ : قال الكسائىّ : لا موضعَ للباء ، لأنها أداة . وقال الفرّاء : مَوْضعُ الباءِ نصبٌ على تقدير أقول (بسم الله أو قل بسم الله) . وقال البصريّون : موضع الباء رفعٌ بالابتداء أو بخبر الابتداء ، فكأنّ التقدير أوّلُ كلامى (باسم الله ، أو باسم الله أوّلُ كلامى) . قال الشاعر :(٢)

تسألُنى عن بَعْلِها أىُّ فَتَى خَبٌّ جَبَانٌ فإذا جاع بَكَى

أى هو (خَبٌّ) جبانٌ ، وأىُّ فَتًى هو . وقال الله تعالى وتبارك : ﴿ بِشَرٍّ مِنْ ذلكُم النّارُ ﴾ أىْ هى النارُ . وعلامةُ الجرّ فى « بِسمِ » كسرةُ الميم ، ولم تنوّنه لأنه مضاف . فإنْ قيل لك : لِمَ لَم تنوِّن المضافَ ؟ فقلْ : لأنّ الإضافةَ زائدةٌ والتنوين زائدٌ ، ولا يُجْمَع بين زائدَين . فإنْ قيل : لِمَ أُسقطتِ الألفُ من بِسم والأصلُ ؟ باسم ؟ فقلْ : لأنها كثُرت على ألسنة العرب عند الأكل والشرب والقيام والقعود ، فحُذفتِ الألف اختصاراً من الخطّ لأنها ألفُ وَصْلٍ ساقطةٌ فى اللفظ . فإنْ ذكرتَ اسماً من أسماء الله عزّ وجلّ وقد أضفتَ إليه الاسمَ لم تَحْذفِ الألفَ لقلّة الاستعمالِ نحو قولك باسم الربّ ، وباسم العزيز . فإن أتيتَ بحرف سوَى الباء أثبتَّ أيضاً الألفَ

---

(١) وقيل : هو نعت للرجل .
(٢) الرجز للجليح بن شميذ .

نحو قولك لاسم الله حلاوةٌ فى القلوب ، وليس اسمٌ كاسم الله ، وكذلك باسم الرحمن ، وباسم الجليل ، و « اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذى خَلَقَ » . إذا أسقطت الباء كان لك في الاسم أربعُ لُغاتٍ : اسْمٌ وسِمٌ واسُمٌ وسُمٌ . قال الشاعر :

أرسلَ فيها بازِلاً لا نَعدمُهْ باسم الذى فى كلِّ سُورةٍ سِمُهْ
قد وردتْ على طريقٍ تَعْلَمُهْ (١)

وقال آخر :

وعامنا أعجبنا مُقَدَّمُهْ يُدْعَى أبا السَّمْحِ وقِرْضَابٌ سُمُهْ

القرضاب اللِّصّ . فمَنْ قال اسْمٌ وسِمٌ أخذه من سَمِيَ يَسْمَى مثل علِيَ يَعْلَى . ومَنْ قال سُمٌ وسُمٌ أخذه من سَمَا يَسْمُو ، وكلاهما معناه العُلُوّ والارتفاع .

فإنْ سأل سائلٌ فقال : لِمَ أُدخلت الباءُ في بِسْمِ وهي لاتكون إلا صلةً لشيء قبلها ؟ فالجواب فى ذلك أنّ الله تبارك وتعالى أدّب نبيّه صلّى الله عليه وسلّم أن يُقدِّمَ اسمه عند كل أخْذٍ فى عملٍ ومُفتتحِ كلِّ كلام تبرُّكاً باسمه جلّ وعزّ ؛ فكان التقدير قُلْ يامحمدُ باسم الله .

والألفُ فى اسم الله ألِفُ وَصْلٍ تسقُط فى التصغير إذا قلتَ سُمَيٌّ .

فإن قال قائلٌ : الأسماء لاتَتَصَرَّف وإنما التصرُّف للأفعال كقولك ضَرَبَ يَضْرِبُ ضَرْباً ، فلِمَ قالتِ العربُ بَسْمَلَ (٢) يُبَسْمِلُ بَسْمَلةً ؟ فالجواب فى لك أنّ هذه الأسماءَ مشتقّة من الأفعال ، فصارت الباءُ كبعض حُروفه إذ كانتْ لاتُفارقه وقد كثُرتْ صُحْبتُها له ؛ قال الشاعر :

لقد بَسْمَلَتْ فيا حَبَّذاً ذاك الحَبيبُ المُبَسْمِلُ (٣)

---

(١) ورد هذا الرجز فى لسان العرب ج ١٩ ص ١٣٦ هكذا :

أرسل فيها بازلاً يقرمه وهو بها ينحو طريقاً يعلمه
باسم الذى فى كل سورة سمه

والتقويم: جعل الصبي أو الدابة يقرم أى يأكل .

(٢) بسمل فعل مولّد إسلامى لم تعرف العرب مثل هذا .

(٣) لسان العرب ج ١٣ ص ٥٨ ، والبيت مولّد .

ومن ذلك قولهم : قد هيْلَلَ الرّجلُ إذا قال لاَ إلهَ إلاّ الله، وقد حَوْلَقَ إذا قال لا حَوْلَ ولا قُوةَ إلاّ بالله ، وقد حَيْعَلَ إذا قال حَيّ على الصّلاة ، وقد حَمْدَلَ إذا قال الحمدُ لله ، وقد أكثَرَ من الجَعْفَلَة أىْ من قولِ جَعَلَنى الله فداكَ .

واسم « الله » جرٌّ بإضافة الاسمِ إليه ، والأصلُ باسمِ الإله ؛ قال عبد الله بن رواحةَ :

باسمِ الإلهِ وبه بَدينَا ولو عَبَدْنا غيرهَ شَقينَا

وحَبَّذَا ربّاً وحَبَّ ديناَ

فحُذفتِ الهمزةُ اختصاراً وأُدغمتِ اللامُ فى اللام ، فالتشديدُ من جَلَلِ ذلك ، ولم تُنَوَّنْ وذلك لدخول الألف واللاّمِ .

وسمعتُ أبا عليٍّ النحويَ يقول : اسمُ الله تعالى مشتقٌ من تألّه الخَلْق(١) إليه أى فقرهم وحاجتهم إليه . وقال آخرون فى قوله تعالى : ﴿ وإلهُكُمْ إلهٌ وَاحدٌ لاَ إلهَ إلاّ هوَ الرّحْمَنُ الرّحيمُ ﴾ إنّ الأُلُوهيّةَ اعتبادُ الخَلْقِ مِثْلُكم إلهكم . والواحد الذى لا مِثْلَ له ولا شبيه [له] ، كما تقول : فلانٌ واحدٌ فى الناس . وقال آخرون : معنى الوحدانيّة انفرادُه عن الأشياء كلّها غير داخل فى الأشياء جلّ الله وعلا .

« الرّحْمنِ الرّحيمِ » جرّانِ صفتانِ لله تعالى ، علامةُ جرِّهما كسرةُ النون والميم . وشدّدْتَ الراءَ فيهما لأنك قلبتَ من اللّام راءً وأدغمت الرّاء في الرّاء . فإن سأل سائل فقال : إنما أدْغَمَتَ [اللّامَ فى الرّاء لقُرب المَخْرَجَيْن ، فهل يجوز إدغام] الراء فى اللّام نحو «استَغْفِر لَهُمْ » ؟ فقلْ لاَ ؛ وذلك أنّ سِيبَوَيْهِ وغيرَهُ من البَصْرِيّين لاَ يجيزون إدغامَ الرّاء فى اللّام نحو اخْتَرْ ليطة(١)؛ لأنّ الراء حرف فيه تكرير ، فكأنه إذا أدغمه فقد أدغم حرفاً مُشَدّدا نحو « مَسّ سَقَرَ » ، و « أُحِلّ لَكُمْ مَا وراءَ ذلكُمْ » وإدغامُ المشدّد فيما بعده خطأ بإجماع . فأمّا ما رواه

(١) هذا وهم من أبى على ؛ إنما التأليه منقول من اسم الله تعالى . وفى لسان العرب : « ومعنى ولاه أن الخلق يولهون فى حوائجهم أى يضرعون إليه فيما يصيبهم ويفزعون إليه فى كل ماينوبهم ، كما يوله كل طفل إلى أمه » .

(٢) لعله « أخبر لبطة » . ع . ى .

اليزيدىّ عن أبى عمرو : « اسْتَغْفِر لَهُمْ » واصطَبِر لِعبادَته » [ونحو ذلك] ، فكان ابن مُجاهدٌ يُضَعِّف لرداءته فى العربيّة ، ولأنّ الرواية الصحيحةَ عن أبى عمرو الإظهارُ لأنه رأسُ البصريين ، فلم يَكُ لِيَجْتَمع أهلُ البَصْرة على شىءٍ وسيِّدُهم على ضدّه . وكان لفرّاء يُجيز إدغام الراء فى اللام كما يُجيز إدغامَ اللام فى الراء .

واسم الله عزّ وجلّ قُدّم على الرحمن الرحيم لأنه اسمٌ لاينبغى إلّا لله جلّ ثناؤه . وقيل في قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ له ﴾ أى هل تعرف فى السَّهْل والجَبَلِ والبَرّ والبحر والَمشرقِ والَمغْرب أحداً اسمهُ الأعظم ، وقيل اسمهُ الأعظم ياذا الجَلاَلِ والإكرام ، وقيل ياحَىُّ ياقَيُّومُ .

وقُدِّم الرحمنُ على الرَّحيم لأنَ الرحمنَ اسمٌ خاصٌ لله ، والرحيم مُشتركٌ ، يقال رجل رحيم ولايقال رحمن ، فُقدِّم الخاصُّ على العامِّ . وقال ابن عَبّاس : الرحمنُ الرحيمُ اسمان رَقيقان أحدُهما أرقّ من الآخر . قال آخرون : الرحمنُ أمْدَحُ ، والرحيمُ أرقُّ ، فرحيمٌ فَعِيلُ [من الرحمة] كما تقول لَطِيفٌ . وقال أبو عُبَيْدةَ : رَحِيم ورحمنٌ لُغَتانِ ، وفرحيمٌ فَعِيلٌ [من الرحمة] ، ورَحْمنُ فَعْلانُ من الرحمة . قال : وذلك لاتّساع اللّغة عندهم ،كما تقول نديمٌ ونَدْمانٌ بمعنًى، وأنشد :

ونَدْمانٍ يَزِيدُ الكَأْسَ طِيباً سَقَيْتُ وقد تَغَوَّرَتِ النُّجومُ (١)

وقال آخرون : رحمنُ بالعِبْرانيةَ (٢) رخمان ؛ ،أنشدوا بيتَ جرير :

أوتتركون (٣) إلى القِسِّينَ هِجْرَتَكم ومَسْحَكُمْ صُلْبَهم رَخْمانَ قُرْبانا

(١) البيت للبرج بن مسهر .
(٢) كذا ! والصواب بالسريانية .
(٣) فى ديوان جرير (نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية بدار الكتب المصرية برقم ١ أدب ش) : « هل تتركن » .

والذى أذهب إليه أنّ هذ الأسماء كلّها صفاتٌ لله تبَارَكَ وتعالى وثناءٌ عليه وهى الأسماء الحُسْنَى ؛ كما قال الله : ﴿ ولله الأَسْماءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ فسُئِل النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عنها فقال « تِسعةٌ وتسعونَ اسمًا مَنْ أحصاها دخل الجنّةَ ».. وقد بيّنْتُها فى كتاب مُفْرد ، واشتقاقَ كلِّ اسمٍ منها ومعناه . لأنّى قد تَحرّيْتُ فى هذا الكتاب الاختصارَ والإيجازَ ما وجدتُ إليه سبيلاً ، ليتعجّلَ الإنتفاعُ به ويَسْهُلَ حِفْظُهُ [على من أراده] . وما توفيقى إلا بالله (عليه توكلت) .

ذكر فائدةٍ فى بسم الله :

أمّا قولُه تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللهِ مُجْرَاهَا ومُرْسَاهَا ﴾ هذا مما حكى الله تبارك وتعالى عن نبىٍّ من أنبيائه وصَفِىٍّ من أصفيائه تَقْدِيمُه اسمَ الله قبلَ ركُوبِه وأَخْذِه فى كلِّ عملٍ .

فمُجْراها ومُرساها رفعٌ بالابتداء ، وبِسْمِ الله خبره ، ومعناه التقديم والتأخير ، والتقدير إجراؤها وإرساؤها بسم الله . فعلى هذا التمامُ عند مُرْسَاها . ويجوز أن يُجْعَلَ بسم الله كلامًا تامًا كما قيل فى نَحْرِ البُدْنِ ﴿ فَاذْكُرِ اسمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ فيكون مُجْرَاها ومُرْساها فى موضع نَصْبٍ[(١)] .

فأمّا قراءة مُجاهِدٍ (التى حدّثنى ابنُ مجاهد عن السّمّرىّ عن الفرّاء أن مجاهدًا) قرأ « باسم الله مُجْرِيها ومُرسيها » فجعلهما صِفَتَين لله تعالى فموضعهما جرٌّ . قال الفرّاء : ويجوز أن يجعلهما فى قراءة مُجاهدٍ نَصْبًا على الحالِ . يريد المجْريها والمُرسِيها ، فلمّا خُزِلَت الأَلِفُ واللامُ نَصَبَهما على الحال والقطع . قال : ومثلُ هذا مما لَفْظُه مَعْرِفةٌ ومعناه الانفصالُ والتنكيرُ قوله (عزّ وجل) : (هذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا) معناه مُمْطِرٌ لنا ؛ كما قال جريرُ :

يارب عـــابطنا لوكـــان يأملكم — لاقى مـبــاعـدة منكم وحـرمـانا

ذكر فائدة اخرى :

اعلم أنّ بسم الله الرحمن الرحيم آيةٌ من سُورة الحَمْد وآيةٌ من أوائل كلِّ سورةٍ فى مذهب الشافعىّ ، وليستْ آيةً فى (كل) ذلك عند مالك ؛ وعند الباقين هى آيةٌ من أوّل أمّ الكِتَابِ

(١) على الظروف .

وليست آيةً فى غير ذلك(١) . وقد ذكرنا الاحتجاجَ فى ذلك فى كتابِ شرح أسماء الله جلّ وعزّ.
فأمّا القُرّاء السبعةُ فيُثْبِتون بِسْمِ الله الرحمن الرحيم فى أوّل كلّ سورةٍ إلاّ فى براءةَ ما خلاَ أبا عمرو وحمزةَ فإنهما كان لا يَفْصِلان بين السُّورتين ببسم الله الرحمن الرحيم . حدّثنى أبو سعيد الحافظ قال حدّثنى أبو بكر النَّيْسَابوريّ قال سمعت الربيعَ يقول سمعتُ الشافعيّ يقول : أوّلُ الحمد بسم الله الرحمن الرحيم وأوّلُ البقرة ألّم . وكلٌّ ذكرتُ من اختلاف العلماء والقِراءة فقد رُوِيتْ عن رسول الله ﷺ . والذى صحّ عندى فمذهبُ الشافعيّ (رحمه الله) وإليه أذهب .

ذكر فائدةٍ أخرى فى بِسْمِ الله :

إنْ سأل سائلٌ فقال: لِم كُسرتِ الباءُ فى بِسْمِ الله؟ فالجوابُ فى ذلك أنهم لمّا وجدوا الباءَ حرفاً واحداً وعَملُها الجرُّ ألزموها حركةَ عَمَلِها .

ومن سورة مريم

قوله تعالى : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾(٢) يقرأ بفتح جميع حروفه ، وبإمالتها ، وبين الإمالة والفتح ، وبإمالة الياء وفتح الهاء وبكسر الهاء وفتح الياء . فالحجة لمن فتحهن : أنه أتى بالكلام على أصله ، ووفّاه حقّ ما وجب له ، لأن الحروف إذا قطعت كانت أولى بالفتح فرقاً بينها وبين ما يمال من الأسماء ،، والحروف ، والأفعال . والحجة لمن أمالهن : أنه فرّق بين هاء التنبيه ، وهاء الهجاء ، وبين ما إذا كانت نداء ، وإذا كانت هجاءً . والحجة لمن قرأهن (بين بين) : أنه عَدل بين اللفظين ، وأخذ بأقرب اللغتين. والحجة لمن أمال بعضاً، وفخّم بعضاً : أنه كره توالى الكسرات أو الفتحات ، فأمال بعضاً وفخم بعضاً وقد قلنا فيما تقدم : : إن العرب تذكّر حروف الهجاء وتؤنثها ، وتميلها وتفخمها ، وتمدّها ، وتَقْصُرها ، ولها مراتب : فما كان منها على حرفين مُدّ مداً وسَطًا ، وما كان على ثلاثة أحرف ، مُدّ فوق ذلك .وقيل فى معناهن : إن الله

(١) هامش : « قال ابن هاشم غفر الله له : هذا وجه حسن وهو أنها تثبت فى أوّل الفاتحة فهى آية منها وهى فى أول كل سورة إعادة لها فلا تكون منها ، فيقال هى آية فى أوّل كل سورة وليست من كل سورة » . انتهى.

(٢) مريم : ١ .

تعالى أقسم بحروف المعجم ، أنها أصل لتأليف أسمائه ، فاجتزأ بما فى أوائل السُّور منها . وقيل : هى : شعار للسورة ، وقيل : هى سِّر الله تعالى عند نبيّه ، وقيل : كل حرف منها نائب عن اسم من أسماء الله عز وجل ، فالكاف من (كافٍ) والهاء من (هادٍ) والعين من (عليم) والصاد من (صادق) .

قوله تعالى : ﴿ صاد ذكر ﴾[1] بالإظهار على الأصل وبالإدغام للمقاربة بين الحرفين .

قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رحمة ربك ﴾[2] يقرأ بالإدغام وطرْح الحركة من الراء لمجانسة الحرفين وطلب التخفيف ، وبالإظهار لأن الحرفين من كلمتين ، والحركة تمنع من الإدغام ، وإنما يجوز الإدغام مع السكون ، لا مع الحركة .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ ورائى ﴾[3] يقرأ بإسكان الياء لطول الاسم ، وثقله بالهمز ، إلاّ ما روى عن (ابن كثير) أنه فتح الياء مع المدّ ، لئلا يجمع بين ياء إضافة ساكنة ، وهمزة مكسورة ، ففتحها طلباً للتخفيف .

قوله تعالى : ﴿ وَلِيًّا يرثنى ﴾[4] يقرأ بالجزم ، والرفع . فالحجة لمن جزم : أنه جعله جواباً للأمر لأن معنى الشرط موجود فيه ، يريد : إن تهب لى وليًّا يرثْنى . والحجة لمن رفع : أنه جعل قوله : يرثنى صلة[5] لولىّ ، لأنه نكرة ، عاد الجواب عليها بالذكر ، ودليله قوله تعالى : ﴿ أَنْزِل علينا مائدةً من السماء تكون ﴾[6] ولو قيل : إنه إنما جاز الرفع فى قوله : (يرثنى) وما أشبهه ، لأنه حالٌ ، حلّ محلّ اسم الفاعل لكان وجهاً بيّناً ، ودليله قوله تعالى : ﴿ ثم ذَرْهُم فى خوضهم يلعبون ﴾[7] يريد : (لاعبين) وفيه بعض الضعف ، لأن الأول حالٌ من (ولىّ) وهو نكرة ، وهذا حال من الهاء والميم ، وهما معرفة .

---

(١) مريم : ١ ، ٢
(٢) مريم : ٢
(٣) مريم : ٥
(٤) مريم : ٥ ، ٦
(٥) يريد بالصلة : الصفة ، وهذا التعبير شائع عند قدامى النحاة .
(٦) المائدة : ١١٤
(٧) الأنعام : ٩١

قوله تعالى : ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾(١) يقرأ بالرفع والجزم عطفاً على ما تقدّم من الوجهين فى أول الكلام .

قوله تعالى : ﴿ وقد بلغت من الكِبَر عتيًّا ﴾(٢) يقرأ بالكسر والضم ، وما شاكله من قوله (صليًّا)(٣) و (جثيًّا)(٤) و (بكيًّا)(٥) فالحجة لمن قرأ بالكسر : أنه نحا ذلك لمجاورة الياء ، وجذْبها من قبلها إلى الكسر ، ليكون اللفظ به من وجه واحد ؛ لأنه يثقل عليهم الخروج من ضم إلى كسر ، والحجة لمن ضم : أن الأصل عنده فى هذه الأسماء الضّم ، لأنها فى الأصل على وزن : (فُعُول) فانقلبت الواو فيهم ياء لسكونها وكون الياء بعدها فصارتا ياءً مشددة . فإن قيل : فهلاّ كانت هذه الأسماء بالواو(٦) ، كما كان قوله (وعَتَوْا عُتُوًّا كبيرا)(٧) بالواو ، فقل : الأصل فى الواحد من هذا الجمع (عاتوٌ وجَاثوٌ) لأنه من (يعتو) و (يجثو) فانقلبت فيه الواو ياء لانكسار ما قبلها ، كما قالوا : (غازٍ) والأصل (غَازِو) ، لأنه من يغزو ، فجاء الجمع فى ذلك تالياً للواحد فى بنائه ، لأن الجمع أثقل من الواحد ، والواو أثقل من الياء ، فإذا كان القلب فى الواحد واجباً كان فى الجمع لازماً . فأمّا قوله : (عَتوّاً) فإنما صحّ بالواو ؛ لأنه مصدر ، والمصدر يجرى مجرى الاسم الواحد حُكْماً وإن شارك الجمع لفظاً ، فصحّت الواو فيه لخفّته ، واعتلت فى الجمع لثقله ، واعتلالها فى واحده . فإن قيل : فيلزم على هذا أن يجيز فى قوله : (فما استطاعوا مُضيًّا)(٨) كسر الميم فقل : هذا لا يلزم ، لأنه مصدر ، والفعل منه مضى يَمضى مضاءً ، ومُضيًّا ، وقد بيّنا وجه صِحّة لفظ المصدر ، وإنما كان يلزم ذلك لو أنه جمعٌ لماضٍ ، فأمّا وهو مصدر (فلا) .

قوله تعالى : ﴿ وقد خلقتك ﴾(٩) يقرأ بالتاء ، وبالنّون والألف . فالحجة لمن قرأه بالتاء : أنه ردّه على قوله : (هو على هيّن) ، وقد خلقتك . والحجة لمن قرأه بالنون والألف : أنه حمله على

(١) مريم : ٦ .
(٢) مريم : ٨ .
(٣) مريم : ٧٠ .
(٤) مريم : ٦٨ ، ٧٢ .
(٥) مريم : ٥٨ .
(٦) أى : صلوا ، وجثواً ، وبكواً .
(٧) الفرقان : ٢١
(٨) يس : ٦٧
(٩) مريم : ٩

قوله : (وحناناً من لَدُنَّا)(١)، وقد خلقناك ، وكلاهما من إخبار الله تعالى عن نفسه ، فإن قيل : فما معنى قوله : ﴿ ولم تك شيئاً ﴾(٢) فقل : معناه : ولم تك شيئاً مرئياً مخلوقاً موجوداً عند المخلوقين ، فأما فى عِلْم الله فقد كان شيئاً ، وإنما سُمِّى « يحيى » ، ولأنه حَيِىَ من عَقيمين ، قد نيَّفا على التسعين ، ويئسا من الولد ، وقوله : (لم نَجْعَلْ له من قبل سَمِيًّا)(٣) قيل : لم يُسَمَّ باسْمِهِ غيره ، وقيل : لم يُولَدْ لأبويه ولد قبله ،وقوله : (هل تَعْلَمُ له سمِيًّا)(٤) يحتمل الوجهين .

قوله تعالى : « ليهب لك »(٥) يقرأ بالياء ، والهمزة . فالحجة لمن قرأه بالياء : أنه جعله من إخبار جبريل عليه السلام عن الله عز وجل ومعناه : ليهب لك ربك . والحجة لمن قرأه بالهمز : أنه أراد بذلك : حكاية جبريل عليه السلام عن الله تعالى : ﴿ إنى أنا رسول ربك ﴾ وهو يقول : (لأهب لك) ، فأراد أن جبريل عليه السلام أخبر بذلك عن نفسه ، لأنه هو كان المخاطِبُ لها ، والنافخ بأمر الله فى حيها(٦) .

قوله تعالى :﴿ وكنت نسياً ﴾(٧) ، يقرأ بفتح النون وكسرها . فالحجة لمن فتح : أنه أراد المصدر من قولك « نسيت » . والحجة لمن كسر : أنه أراد كنت شيئاً أُلقى فَنسِيَ ، والعرب تقول : هذا الشيء لَقَىً(٨) ونِسْىٌ (٩) ، ومنه قول الشاعر يصف امرأة بالحياء والخفر ، وغضّ الطرف :

كأنَّ لها فى الأرض نسْياً تَقُصُّه ... إذا ما غَدَت وإنْ تُحَدِّثك تَبْلَتِ(١٠)

---

(١) مريم : ١٣ .
(٢) مريم : ٩ .
(٣) مريم : ٧ .
(٤) مريم : ٦٥ .
(٥) مريم : ١٩ .
(٦) قال فى اللسان : والحيّ فرج المرأة ، ورأى أعرابى جهاز عروس فقال : هذا سقف الحيّ : أى جهاز فرج المرأة : اللسان : مادة : حيا .
(٧) مريم : ٢٣ .
(٨) قال فى اللسان : اللَّقَى : الشيء المُلقى ، وفى حديث أبى ذَر مالى أراك لَقَىً بقَىً ، هكذا جاء مخففاً فى رواية بوزن عصاً انظر : (اللسان : مادة لقا) .
(٩) قال الزجاج : النِّسْيُ فى كلام العرب : الشيء المطروح ، لايؤبه له . (اللسان مادة : نسا) .
(١٠) البيت نسبه اللسان إلى الشنفرى على هذه الصورة :
كأنَّ لها فى الأرض نسياً تقصُّه ... على أُمها وإنْ تخاطبك تَبْلَتِ
انظر : اللسان : مادة : نسا .
ورواية الطبرى تتفق مع رواية ابن خالويه ، انظر : (الطبرى جـ ١٦ ص ٦٦) مطبعة مصطفى الحلبى طبعة ثانية.

يريد : كأنها تطلب شيئاً ألقته لتعرف خبره ، ومعنى تبلت : تقصّ وتصدّق .

قوله تعالى : « فناداها من تحتها »[١] يقرأ بفتح الميم والتاء ، وبكسرهما فالحجة لمن فتح : أنه جعله اسم عيسى وفتح التاء لأنه ظرف مكانيّ متضمن لجثة (مضمنٌ) ، ومَنْ مستقرٌ فيه والاستقرار كون له ، والكون مُشْتمِلٌ على الفعل فانتصب الظرف لأنه مفعول فيه بما قدّمناه من القول في معناه ، والحجة لمن كسر الميم والتاء : أنه جعلها حرفاً خافضاً للظرف لأنه اسم للموضوع والظرف في الحقيقة الوعاء فلذلك جعل المكان ظرفاً ، لأن الفعل يقع فيه فيحويه ، والمراد بالنداء : جبريل ، فأمّا مواقع (مَنْ) في الكلام ، فتقع ابتداءَ غاية ، وتقع تبعيضاً ، وتقع زائدةً مؤكّدةً .

قوله تعالى : «تساقط»[٢] يقرأ بالتشديد والتخفيف ، فالحجة لمن شدّد : أنه أراد : تتساقط فأسكن التاء الثانية ، وأدغمها في السين فشدّد لذلك . والحجة لمن خفف : أنه حذف التاء تخفيفاً، لأنه يثقل عليهم اجتماع حرفين متجانسين ، متحرّكين ، فمنهم مَنْ يخفف بالإدغام ، ومنهم من يخفّف بالحذف .

قوله تعالى : «وأوصاني»[٣] يقرأ بالتفخيم والإمالة ، وقد ذكر في أمثاله من الاحتجاج ما يغني عن إعادته ههنا[٤] .

قوله تعالى : «قول الحق»[٥] يقرأ بالرفع والنصب . فالحجة لمن نصب : أنه وجهه إلى نَصْب المصدر كما يقول : هذا قولاً حقّاً ، وقولَ الحقّ . والحجة لمن رفع : أنه جعله بَدَلاً من (عيسى) أو أضْمَرَ لَهُ «ذلك» ثانيةً ، فعيسى كلمة الله ، لأنه بكلمته كان ، وقَوْله ، لأنه بِقَوْلة : (كن تكون) و «رُوحه» لأنه كان رحمة على مَنْ بعث إليه إذ آمنوا به فنَجَوْا .

قوله تعالى : «وأن الله ربي وربكم»[٦] يقرأ بفتح الهمزة وكسرها . فالحجة لمن فتحها : أنه رد الكلام بالواو على قوله : وأوصاني بالصلاة وبأن الله ربي . والحجة لمن كسرها : أنه استأنف الكلام بالواو ودليله : أنها في قراءة «أبيّ» : (إنّ الله) بغير واو .

---

(١) مريم : ٢٤ .
(٢) مريم : ٢٥ .
(٣) مريم : ٣١ .
(٤) انظر : ص : ١١٩ عند قوله تعالى : «وقد هدان» .
(٥) مريم : ٣٤ .
(٦) مريم : ٣٦ .

قوله تعالى : ﴿أولا يذكر الإنسان﴾(١) يقرأ بتشديد الكاف وفتح الذال ، وبضم الكاف وإسكان الذال ، وقد تقدم من القول فى نظائره ما يغنى عن إعادته(٢)

قوله تعالى : ﴿إنَّهُ كان مخلصاً﴾(٣) يقرأ بفتح اللام وكسرها والحجة فيه كالحجة فى (المخلصين) وقد ذكرت آنفاً(٤)

قوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَم﴾(٥) يقرأ بالإدغام للمقاربة ، وبالإظهار على الأصل وانفصال الحرفين .

قوله تعالى : ﴿ثم ننجي﴾(٦) يقرأ بالتشديد من نجّى ، وبالتخفيف من أنْجى .

قوله تعالى : ﴿خيرٌ مقاما﴾(٧) يقرأ بفتح الميم وضمها . فالحجة لمن ضمَّ : أنه جعله من الإقامة ، ولمن فتح : أنه جعله اسماً للمكان .

قوله تعالى : ﴿أثاثاً ورئياً﴾(٨) يقرأ بالهمز وتخفيف الياء ، وبترك الهمز وتشديد الياء . فالحجة لمن همز : أنه أخذه من رؤية المنظر والحُسْن ، والحجة لمن شدد : أنه أخذه من الرِّيِّ وهو : امتلاء الشباب ، وتحيّر مائه فى الوجه ، أو يكون أراد : الهمز فتركه وعوّض التشديد منه .

وقوله تعالى : ﴿مالاً وولداً﴾(٩) يقرأ بفتح الواو واللام ، وبضم الواو وإسكان اللام ، ههنا فى أربعة مواضع(١٠) ، وفى (الزخرف)(١١) وفى (نوح)(١٢) . فالحجة لمن فتح : أنه أراد : الواحد من الأولاد . والحجة لمن ضَمَّ : أنه أراد : جمع (وَلَد) . وقيل هما : لغتان فى الواحد كقولهم : عُدْم وعَدَم ، وسُقْم وسَقَم .

---

(١) مريم : ٦٧ .
(٢) انظر : ص : ١٣٦ عند قوله تعالى : ﴿فإذا هى تلقف﴾ .
(٣) مريم : ٥١ .
(٤) انظر : ص : ١٦٩ عند قوله تعالى : ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ .
(٥) مريم : ٦٥ .
(٦) مريم : ٧٢ .
(٧) مريم : ٧٣ .
(٨) مريم : ٧٤ .
(٩) مريم : ٧٧ .
(١٠) انظر الآيات : ٨٨ - ٩١ ، ٩٢ من سورة مريم .
(١١) الزخرف : ٨١ .
(١٢) نوح : ٢١ .

قوله تعالى : « تكاد السموات يتفطرن »[١] يقرأ تكاد بالتاء . وقد تقدم ذكره . فأما « يتفطرن » فيقرأ بالنون والتخفيف ، وبالتاء والتشديد ههنا ، وفي « عسق »[٢] فالحجة لمن قرأه بالتخفيف : أنه مأخوذ من قوله : (إذا السماء انفطرت)[٣] ، ودليله قوله : (السماء منفطِرٌ به)[٤] ،والحجة لمن قرأه بالتشديد : أنه أخذه من تفطّرت السماء تتفطّر ، وهما لغتان فصيحتان ، معناهما : التشقق ، ومنه قولهم : تفطّر الشجر : إذا تَشَقّق ليورِق ، ومنه قوله تعالى : « هل تَرَى من فُطُور »[٥] .

---

(١) مريم : ٩٠ .

(٢) الشّورى : ٥ .

(٣) الانفطار : ١ .

(٤) المزّمل : ١٨ .

(٥) المُلْك : ٣ .

الحاتمي (*) - ت ٣٨٨ هـ

قال أبو على الحاتمي (١) :

كان أبو الطيب المتنبى عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبر، وأذال ذيول التيه، وصعّر خدّه، ونأى بجانبه، وكان لا يلقى أحداً إلا نافضاً مذرويه(٢)، ورافلاً من التيه فى برديه، يخيّل إليه أن العلم مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يغترف نمير مائه غيره، وروض لم يرع نوّاره سواه فدلّ(٣) بذلك مديدة أجرته رسن الجهل فيها ، فظلّ يمرح فى تثنّيه ، حتى إذا تخيّل أنه القريع الذى لا يقارع ، والنزيع الذى لا يجارى ولا ينازع ، وأنه ربّ الغلب ومالك القصب ، وثقلت

(١) هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى ، وكنيته أبو على . أدرك ابن دريد وأخذ عنه ، وهو من حذاق أهل اللغة والأدب شديد العارضة . قال ياقوت : وكان مبغضاً إلى أهل العلم فهجاه ابن الحجاج وغيره بأهاج مرة ، ومات سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة .

وذكره الثعالبى فى كتاب يتيمة الدهر فقال : محمد بن الحسن الحاتمى : حسن التصرف فى الشعر موف على كثير من شعراء العصر ، وأبوه أيضاً شاعر ، وأبو على شاعر كاتب يجمع بين البلاغة فى النثر والبراعة فى النظم .

وللحاتمى تصانيف كثيرة منها : كتاب حلية المحاضرة فى صناعة الشعر ، وكتاب سر الصناعة فى الشعر أيضاً .

وهذه الرسالة الحاتمية التى نوردها إياك رجعنا فيها إلى نسخة خطية بدار الكتب فى نهاية كتاب «الإبانة عن سرقات المتنبى» ورقمها ٢٠٣٩ .

كما رجعنا فى تحقيقها إلى نسخة خطية لكتاب الصبح المنبى للشيخ يوسف البديعى وقد أورد هذه الرسالة بالكتاب المذكور ورقم هذه النسخة الخطية ٧٥٥٥ وهى بدار الكتب العامة بالقاهرة كما رجعت إلى رواية أخرى لهذه الرسالة بمعجم الأدباء لياقوت . وجاء بعض هذه الرسالة بوفيات الأعيان . ولأبى على محمد ابن الحسن بن المظفر الحاتمى رسالة أخرى تسمى «الرسالة الحاتمية» أيضاً وهى تتضمن حكم أرسطاطاليس التى صاغها المتنبى شعراً ، فأكسبها الخلود ، وهذه الرسالة مطبوعة فى مطبعة الجوائب بقسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ ورقمها بدار الكتب ٢٨٠٣ ولم نسق هذه الرسالة الأخرى هنا ؛ لأننا قصدنا أن نجمع كثيراً مما قيل فى نقد شعر المتنبى ، وقد أوردنا الكثير ، بل ربما كان الذى جمعنا فى هذا المصنف من نقد شعر المتنبى أكثر مما جمع فى أى كتاب . المحقق .

(٢) المذروان : ناحيتا الرأس ، وهو على صيغة المثنى وليس به ، فيعرب إعرابه . ويريد بذلك أن يصف المتنبى بالكبر وبالغرور هكذا جاء فى معجم ياقوت تفسير المذروين وفى اللسان : المذرى طرف الألية . وجاء فلان ينفض مذرويه إذا جاء باغياً يتهدد . قال عنترة يهجو عمارة بن زياد العبسى :

أحولى تنفض استك مذرويها لتقتلنى فهأنذا عمارا

يريد يا عمارة ، وقيل المذروان أطراف الإليتين ليس لهما واحد .

(٣) دل : تدلل وتكبر .

(*) انظر ترجمته فى القسم الخاص بالشعر .

وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام ، فطأطأ كثير منهم رأسَه ، وخفض جناحَه ، وطامَنَ على التسليم له جأشَه وتخيل أبو محمد المهلبيُّ أن أحداً لا يقدر على مُساجلته ومجاراته ، ولا يقوم لتتبُّعه بشيء من مطاعنه ، وساء معزَّ الدولة أن يَرِد على حضرة عدوِّه رجلٌ فلا يكون في مَمْلكته أحد يُماثله في صناعته ، ويساويه في منزلته . نَهَدْتُ(١) حينئذ مُتَتَبِّعاً عُوارَه ، ومتعقباً آثاره ، ومُطْفيا نارَه ، ومُهتكا أستاره ، ومُقَلما أظفاره ، ونَاشِراً مطاويه ، ومُمزقاً جلبابَ مَساويه ، مُتحيّنًا أن تجمعَنا دار ، فأُجْرِى أنا وهو في مضمار يُعْرَفُ فيه السابقِ من المسبوق ، حتى إذا لم أجد ذلك قصدت مَوْضعه الذي كان يحلُّه في ربَض(٢) حُمَيْدٍ ، فوافق مصيرى إليه حضورَ جماعة تقرأ شيئًا من شعره عليه ، فحين أوذنَ بحضورى ، واستؤذن عليه لدخولى نهضَ عن مجلسه مُسْرِعًا ، ووارَى شخصَه عنّى مُستَخفيًا ، فنزلت عن بغلة كانت تحتى ناحيةً وهو يرانى نازلا عنها متوجهاً إلى حيث حاذيته ، فجلست في موضعه وإذا تحته قطعة من زيلَو مُخْلَقة(٣) قد أكلَتْها الأيام ، وتعاورتها السِّنون ، فهى رسومٌ خافية وسلُوكٌ بادية ، حتى إذا خرج إلىّ نَهَضت إليه فوَفَّيتُه حقّ السلام غير مُشَاحّ(٤) له في القيام ، لأنه إنما اعتمد بنهوضه ألا ينهض لي عند موافاتى ، وإذا هو قد لَبس سبْعَةَ أقبية كلّ قَبَاء(٥) منها لون ، وكان الوقت آخرَ أيام الصيف وأخلَقَها بتخفيف اللُّبس ، فجلست وجلس وأعرض عنى ساعة لا يُعيرنى فيها طَرْفَه ، ولا يسألنى عما قصدت له ، وقد كدت أتميّز غيظاً ، وأقبلت أستخِفُّ رأيى في قصده ، وأُفْند نفسى في التوجه نحو مثله ، ولَوَى عِذارَه عنّى مقبلاً على تلك الزِّعْنَفَة(٦) التى بين يديه ، كل واحد منهم يومئ إليه ويوحى بطرفه ، ويشير إلى مكانى بيده ، ويوقظه من سِنَة جهله ، ويأبى إلا ازوراراً ونِفَاراً ، جرياً على شاكله خُلُقه ، ثم رأى أن يثّنى رأسَه إلىّ ، فو الله ما زادنى على أن قال : أىُّ شىءٍ خَبَرك ؟ قلت : أنا بخير لولا ما

(١) نهد الرجل لعدوه : نهض وصمد ، عواره : عيبه .

(٢) الربض : الناحية ، وكل ما يؤدى إليه .

(٣) الزيلو : اللحاف ، كلمة فارسية .

(٤) غير مشاح : غير منازع .

(٥) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

(٦) الزعنفة بالكسر والفتح : القطعة من القبيلة تشذ وتنفرد .

جَنَيْتُ على نفس من قَصْدك ، وكَلفت قدمى فى المصير إلى مثلك ، ثم انْحَدرت عليه انحدارَ السَّيْل إلى القرار ، وقلت له : أبِنْ لى - عافاك الله - ما الذى يوجب ما أنت عليه من العظمة والكبرياء ، وما الذى يوجب ما أنت عليه من التجبُّر والتَّنمُّر ؟ هل هَهُنا نسب(١) فى الأبطح(٢) تَبحْبَحتَ(٣) فى بحبوحة الشرف وفَرعْتَ سماء المجد به ؟ أم علمٌ أصبحت علَما يقَعُ الإيماءُ إليك فيه ؟ هل أنت إلا وَتِدٌ بقَاع فى شَرِّ البقاع ؟ وجُفَاءُ(٤) سيْل دَفَّاع ؟ يالله اسْتَنّت الفصال حتى القَرْعى(٥) وإنى لأسمع جَعْجَعَة ولا أرى طِحْناً(٦) ، فامْتُقِعَ(٧) عند سماع كلامى ، وعَصِبَ(٨) رِيقُه ، وجحظت عيناه ، وسُقِط فى يده ، وجعل يلين فى الاعتذار لينًا كاد يعطفُ عليه عِطْفَ صَفحى عنه .

ثم قلت : يا هذا ، إن جاءك رجل شريف فى نسب تجاهلت نسبه ، أو عظيمٌ فى أدبه صغَّرتَ أدبه ، أو مُتَقدِّمٌ عند سلطانه لم تعرفْ له موضعَه ، فهل العزّ تراثٌ لك دون غيرك ؟ كلا والله ! لكنك مددتَ الكِبْر ستْراً على نقصك ، وضربته رواقاً دُونَ جَهْلك .

فعاد إلى الاعتذار ، وأخذت الجماعة فى تَلْيين جانبى والرغبة إلىّ فى قبول عذره ، واعتماد مُياسرته ، وأنا آبى إلا استشْراءً(٩) واجتراء ، وهو يؤكد الأقْسام ويُواصِلها على أنه لم يعرفنى ، فأقول: يا هذا ، ألم يُسْتأذَنْ لى عليك باسمى ونَسبى ؟ أما كان فى هذه الجماعة من يُعرِّفك بى

---

(١) هذه رواية ياقوت والنسخة الخطية ٢٠٣٩ بدار الكتب ، ورواية الصبح المنبى : هل ههنا نسب يورثك الفخر، أو شرف تجب به دون أبناء الدهر .

(٢) البطحاء والأبطح : المسيل الواسع .

(٣) تبحبحت : توسعت .

(٤) الجفاء : ما نفاه السيل من الزبد .

(٥) مثل يضرب للذى يتكلم مع من لا ينبغى له أن يتكلم بين يديه لجلالة قدره .

(٦) مثل يضرب لمن يتكلم كثيراً ، ولا يعمل إلا قليلا .

(٧) امتقع بالبناء للمجهول : تغير لونه من حزن أو فزع .

(٨) عصب : جف .

(٩) استشراء : لجاجة وعناداً .

إن كنت جهلتنى ؟وهَبْ ذلك كذلك ، ألم تَرَنى مُمتطياً بَغْلَةً رائعةً يعلوها مَرْكَبٌ ثقيل وبين يَدَىّ عدّةٌ من الغلمان ؟ أما شاهدت لباَسى ؟ أما شممتَ نَشْرَ عطرى ؟ أما راعَكَ شىءٌ من أمرى أتميّزُ به فى نَفْسِك عن غيرى ؟ وهو فى أثناء ما أُكَلمهُ يقول : خَفِّض عليك ، ارْفَق ، استأن ، فأصْحَبَ جانبى(١) بعضَ الإصْحاب ، ولان شماَسى(٢) بعض اللّيان ، وأقبل علىّ وأقبلْتُ عليه ساعة ، ثم قلت : أشياءُ تختلج فى صدرى منْ شِعرك أحبُّ أن أراجعَك فيها .

قال وما هى ؟ قلت : خبرنى عن قولك :

فإن كان بعضُ الناسِ سيفاً لدولة ... ففى الناس بُوقَاتٌ(٣) لها وطبول

أهكذا تَمْدح الملوك ؟ وعن قولك :

خفِ اللهَ واستر ذا الجمالَ ببُرْقُع ... فإذا لُحْتَ حَاضت(٤) فى الخدور العواتق(٥)

أهكذا يتشبب بالمحبوب(٦) ؟ وعن قولك :

ولامَن فى جنازتها تجار ... يكونُ وداعُهم نَفْضَ النعال

أهكذا تُؤبّن أخواتِ الملوك ؟ والله لو كان هذا فى أدنى عبيدها لكان قبيحاً . وعن قولك :

سلام(٧) الله خالقنا حَنُوطٌ ... على الوجه المبرقع (٨) بالجمال

(١) أصحب جانبى : جعلنى صاحباً له

(٢) الشماس : الامتناع والإباء .

(٣) قال أبو الفتح : عاب عليه من لامخبرة له بكلام العرب جمع بوق على بوقات ، والقياس يعضده ؛ إذ له نظائر كثيرة مثل حمام وحمامات وسرادق وسرداقات وجواب وجوابات ، وهو كثير فى جمع مالا يعقل من المذكر ؛ إذ لا يوجد له مثال القلة . وقد بينا ذلك من قبل .

(٤) رواية الديوان : ذابت .

(٥) العواتق : جمع عاتق ، وهى الجارية . ومعنى البيت : خف الله واستر جمالك بنقاب على وجهك ؛ فإنك إن ظهرت ذاب الجوارى شوقاً إليك . وروى أبو الفتح : حاضت فى الخدور ، ويقال إن المرأة إذا اشتدت شهوتها سال دم حيضها .

(٦) هكذا فى النسخة المخطوطة ، ورواها ياقوت هكذا تنسب بالمحبوبين ؟

(٧) رواية الديوان : صلاة الله .

(٨) رواية الديوان : المكفن .

أما استحيت من سيف الدولة ؟ وعن قولك فى هجاء ابن كَيْغلَغ :

وإذا أشار مُحَدِّثًا فكأنه قردٌ يقهقه أو عجوزٌ تَلْطِم

أما كان لك فى أفانين الهجاء التى تصرّفت فيها الشعراء مندوحةٌ عن هذا الكلام الرَّذْل الذى ينفرُ منه كلُّ طبع ، ويمجّه كلُّ سمع .

وعن قولك :

وضاقت الأرض حتى ظَنَّ هاربُهم إذا رأى غير شىءٍ ظنّه رجُلا

أفتعلم مرئيًا يتناوله النظر لا يقع عليه اسمُ شىء ؟ وما أراك نظرت إلا إلى قول جرير :

ما زلتَ تحسَب كلّ شىء بعدهم خيلاً تكُرّ عليهِمُ ورِجالا

فأحلْتَ المعنى عن جهته ، وعبّرت عنه بغير عبارته .

وعن قولك :

أليس عجيباً أنّ وصفك مُعْجِزٌ وأن ظنونى فى معاليك تَظْلَعُ

فاستعرت الظَّلَعَ لظنونك ، وهى استعارة قبيحة ، وتَعَجَّبتَ من غير مُتَعجَّب ؛ لأن من أعْجَزَ وصفه لم يُسْتَنكَر قصور الظنونِ وتحيُّرها فى معاليه ، وإنما نقلته وأنشدته من قول أبى تمام :

تَرقّتْ مُناه طَوْدَ عِزٍّ لو ارتقَتْ به الريح فِتراً لانْثَنَتْ وهى ظالع

وعن قولك تمدح كافورا :

فإن نلْتُ ما أمّلْتُ منك فربَما شربت بماء يُعْجِزُ الطيرَ وِرْدُه

إنها مدح أو ذم ؟ قال : مَدْح : إنك جعلته بخيلاً لا يُوصَلُك إلى خيره من جهته ، وشبهتَ نفسَك فى وصولكَ إلى ما وصلت إليه منْه بشُرْبك من ماءٍ يُعْجز الطيرَ وِردُه لبعده وترامى موضعِه .

وأخبرني أيضاً عن قولك في صفة كلب وظبي :

فصار ما في جلده في المِرْجَل ... ولم يضرنا معه فقدُ الأجْدل(١)

فأى شيء أعجبك من هذا الوصف ؟ أعذوبة عبارته ؟ أم لطف معناه ؟ أما قرأت رَجَزَ الحَسَنِ بنِ هانيء وطَرِدية ابن المعتز ؟ أما كان في المعاني التي ابتدعها هذان الشاعران وغُرر المعاني التي اقتضباها ما تتشاغلُ به عن بُنَيَّات صَدْرِكَ هذه ؟ وألاَّ اقتصرتَ على مافي أرجوزتكَ هذه من الكلام السليم ولم تُسِفّ(٢) إلى هذه الألفاظ القَلقة والأوصاف المختلفة ؟ وعن قولك :

أرَقٌ على أرق ومثلي يأْرَق ... وجَوًى يزيد وعَبْرة تترقرق

أهكذا تكون الافتتاحات ؟ وعن قولك :

أحبُّكِ أو يقولوا جَرَّ نَمْلٌ ... ثَبِيراً وابن براهيم رِيعَا(٣)

أهكذا تكون المخالص ؟ وعن قولك :

فَقَلْقَلْتُ بالهَمّ الذى قَلْقَل الحَشَا ... قَلاقِلَ عيسٍ كُلُّهن قلاقل(٤)

---

(١) هذه رواية ياقوت ، وقريب منها رواية الصبح المنبى والنسخة الخطية لكتاب الإبانة ، أما راوية الديوان الذى شرحه العكبرى فهى :

فحال ما للقفز في التجدل ... وصار ما في جلده في المرجل

وحال : القلب ، والقفز : الوثوب . والتجدل : السقوط على الأرض .

ورواية الديوان الذى طبعه أمين هدية سنة ١٨٩٨ :

وصار ما في جلد في المرجل ... فلم يضرنا معه فقد الأجدل

(٢) تسف : تنزل .

(٣) يقول : أحبك إلى أن يقولوا جر النمل ثبيرا وهو الجبل المعروف بالحجاز ، أو يقولوا أخيف بن إبراهيم ، وهذا محال . وهذا البيت والذى قبله لم يوردهما ياقوت واوردهما « الصبح المبنى » .

(٤) قلاقل عيسى : جمع قلقل ، وهى الناقة الخفيفة سريعة الحركة ، والقلاقل الثانية : جمع قلقلة وهى الحركة. حركت بسبب الهم الذى حرك نفسى نوقا خفافاً في السير يعنى سافرت ولم أعرج بالمقام الذى يلحقنى فيه الضيم قال أبو الفتح : وعاب الصاحب إسماعيل بن عباد أبا الطيب بهذا البيت ، وقال : ماله قلقل الله أحشاءه وهذه القافات الباردة ، ولايلزمه من هذا عيب ، فقد جرت العادة بذلك ، وقال أبو نصر بن المرزبان : ثلاثة من الشعراء رؤساء : شلشل أحدهما ، وسلسل الثانى ، وقلقل الثالث . فالذى شلشل الأعشى فهو الذى يقول :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى ... شاء ومثل شول شلشل شول

والذى سلسل مسلم بن الوليد :

سلت وسلت ثم سل سليلها ... فأتى سليل سليلها مسلولا

وأما الذى قلقل فالمتنبى .

وبيت المتنبى «فقلقلت» إلخ يورده ياقوت في رواية للرسالة الحاتمية ، وأورده «الصبح المنبى» .

قال أبو عليّ الحاتمي : فأقبلَ عليّ ، ثم قال : أين أنت من قولي ؟ :

كـأنَّ الهـامَ في الهـيـجـا عـيـونٌ ... وقـد طُبـعت سُـيـوفُك مِن رقـاد(١)

وقـــد صُـــغْتَ الأسنةَ من همـــوم ... فـــمـــا يَخْطُرنَ إلا في فــؤاد(٢)

وأين أنت من قولي في صِفَة جيش ؟ :

في فَـيْلَقٍ من حـديد لو رَمَـيْتَ به(٣) ... صَـــرفَ الزمـــان لما دارت دوائره

وأين أنت من قولي ؟ :

لوتَعْـــقِلُ الشـجـر التي قـابَلْتَـهـا ... مَـدّت مُـحَـيِّـيةً إليك الأغـصـان(٤)

وأين أنت من قولي ؟ :

أيَقْـــدح في الخَـــيْـمَـــة العُـــذّلُ ... وتَشـــمَلُ مَنْ دَهْرَه يشـــمل(٥)

فَـمـا اعـتـمـد اللهُ تقـويضـهـا ... ولكِـنْ أشَـــارَ بما تَفْـــعَلُ

---

(١) قال الخطيب : سيوفك كالرقاد ، فلا تمنع منه العيون . وقال الواحدى : سيوفه لا تقع إلا على الهام ولا تحل إلا الرءوس كالنون .

(٢) في هذا المعنى قال المهلهل :

الطاعن الطعنة النجلاء تحسبها ... نوماً أنا بجفن العين يفغيها

بلهذم من هموم النفس صيغته ... فليس ينفك يجرى في مجاريها

وقال العكبرى : بيت أبي الطيب منقول من قول دعبل بن على الخزاعى في على عليه السلام :

كأن سنانه أبدا ضمير ... فليس له عن القلب انقلاب

وصارمه كبيعته بخم ... فموضعها من الناس الرقاب

(٣) رواية العكبرى : قذفت به .

(٤) وفي هذا المعنى قال كثير :

لو كان حيا قبلهن ظعائنا ... حيا الحطى وجوههن وزمزم

(٥) رواية الديوان : أينفع ، ورواية الخوارزمى : أيقدح : لا ينفع في هذه الخيمة أن تعذل على سقوطها ، فإنها تحيط بمن يحيط بالدهر ، ومن كان هكذا فلا يعلوه شيء . والسبب أنه ضربت خيمة لسقف الدولة فسقطت من الريح .

وفيها أصف كَتيبةً :

وَمَلْمُومَةٌ زَرَدٌ ثوبُها ولكنه بالقَنَا مُخْمَلُ(١)

وأين أنت من قولى أيضاً :

الناس ما لم يروك أشباه والدهر لفظ وأنت معناه
والجُودُ عَيْنٌ وأنت ناظرُها والبأس باعٌ وأنت يمناه

وأين أنت من قولى ؟:

وما شَرَقِى بالماء إلا تذكراً لماء به أهْل الحبيب نُزُولُ(٢)
يُحَرِّمُهُ لَمْعُ الأسِنَّةِ فوْقَهُ فليسَ لظمآنٍ إليه سبيل

أما يُلْهيك إحسانى فى هذه عن إساءتى فى تلك ؟ قلت : ما أعرف لك إحساناً فى جميع ماذَكَرْتَه ، إنما أنت سارق متَّبع ، وآخذٌ مُقصّر ، وفيما تَقَدَّم من هذه المعانى التى ابتكرها أصحابها مندوحة عن التشاغل بقولك .

فأما قولك :

كأن الهامَ فى الهيجا عيون « البيت » فهو منقول من منصور النُميرى:

فكأنما وقْعُ الحسام بهَامِه خَدَرُ المنيةِ أو نُعَاس الهاجع(٣)

(١) يقول : هذه الكتيبة يلبس فرسانها الدروع ، وتتدلى منها الرماح .

(٢) يقول : إنى أتذكر الماء الذى ينزل به أحبابى وأخلائى فلا يسوغ لى الماء .

وأشار فى البيت الذى يليه إلى أن محبوبه ممنوع منه على القرب والبعد ؛ فإن أسنة قومه تمنعه .

(٣) روى العكبرى بيت النميرى هكذا :

وكأن موقعه بجمجمة الفتى سكر المدامة أو نعاس الهاجع

وأما قولك : فى فيلق « البيت » فإنما نقلته نقلا لم تحسن فيه من قول الناجم :

وَلِى فى حـــامـــد أَمَل بَعـيـــدٌ ... ومَـــدْحٌ قَــدْ مَــدَحْتُ به طريفُ

مـــديحٌ لو مَـــدَحْتُ به الليـــالى ... لما دارت عَلَىَّ لهـــا صـــروفُ

والناجم إنما نظمه من قول أرسطاطاليس : قد تكلمتُ بكلام لو مدحْتُ به الدهرَ لما دارت علىَّ صروفُه . وأما قولك :

لو تَعْــقِل الشَّجــر التي قــابلتــهــا ... مَــدَّتْ مُـحَـيِّـيَـةً إليكَ الأغْـصُنَا

فهذا معنى متداول تساجَلَتْه الشعراء وأُكْثِرَتْ فيه فمن ذلك قول الفرزدق :

يكاد يُمْــسكه عــرفــان راحَــتــه ... ركنُ الحَطِيم إذا مــا جــاء يَسْــتلم

ثم تكرر على ألسنة الشعراء إلى أن قال أبو تمام :

لو ســمــعت بقْــعــةٌ لإعظام أخــرى ... لســعى نحــوها المكان الجـديبُ(١)

وأخذ هذا المعنى البحترى فقال :

لو أنَّ مــشــتــاقــاً تَكَلفَ فــوقَ مــا ... فى وســعــه لمشى إليك المِنْبَــرُ(٢)

وأما قولك : «فمـا اعتـمـد الله تقويضـها(٣) » فقـد نظرت فيـه إلى قـول رجل مَدَح بعض الأمراء بالموصل وقد كان عزم على السير فانْدَقَّ لواؤه فقال :

---

(١) هذا البيت من قصيدة لأبى تمام يمدح محمد بن عبد الملك الزيات مطلعها :

ديمة سمحة القياد ســـكوب ... مستغيث بها الثرى المكروب

ويروى بيت الشاهد هكذا :

لو سمعت بقعة لإعظام نعمى ... لسعى نحوها المكان الجديب

(٢) روى ياقوت هذا البيت هكذا :

لو أن مشتاقاً تكلف غيـر مـا ... فى وسعه لمشى إليك المنـبر

(٣) البيت كما سبقت روايته :

فمــا اعتمــد الله تقـويضــها ... ولكــن أشار بمـا تـفـعــل

وهو يقول : إن سقوط هذه الخيمة كان تنبيهاً من الله بما تفعل من التوجه إلى الغزو .

مـــا كـــان مُنْدَقّ اللواء لريبـــة ... تُخْــشى ولا أمـــرٍ يكون مُـــزيّلا
لكن لأنّ العُـــود ضَـــعف مَـــتْنَه ... صِـغَر الولاية فـاستَـقَلّ الموصـلا(١)

أما قولك « وملمُومةٌ زَرَدٌ ثوبُها » فمن أبى نواس :

أمّـــا خـــمـــيس أرجـــوان كـــأنه ... قـــميص مَحُـوكٌ من قنًا وجـيـاد

وأما قولك : « الناس مالم يروك أشباه » فمن قول على بن نصر بن بَسام فى عبيد الله بن سليمان يرثيه :

قــد اســتـوى الناسُ ومــات الكمـــال ... وصـــاح صـــرف الدهر أين الرجـــال
هذا أبو القـــاسم فى نعـــشـــه ... قوموا انظروا كيف تسير الجبال(٢)

فقوله : « قد استوى الناس ومات الكمال » هو قولك : « الناس مالم يروك أشباه » فقال بعض من حضر : ما أحسن قوله : « قوموا انظروا كيف تسير الجبال » !.

فقال أبو الطيب : اسكت مافيه من حسن . ألم يسرقه من قول النابغة الذبيانى ؟ :

يقـــولون حِـــصْنٌ ثم تأبى نفـــوســـهم ... وكـــيف بحـصنٍ والجـبـــال جُنُوح

قلت : والله لَئِن كان أخذه فقد أحسن وأخفى الأخذ ، ثم قلت له :

وأما قولك : « والدهر لفظ وأنت معناه » فمنقول من قول الأخطل ، والبيت له فى عبد الملك بن مروان :

وإنّ أمـــيـــرَ المؤمَنين وِفـــعْلَه ... لكالدهر لا عـــار بما فـــعل الدهر

---

(١) رواية الصبح المنبى هكذا :

مـــاكان مندق اللواء لريبـــة ... تخـشى ولاامـر يكون مرتـلا
وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى ... صغر الولاية فاستقل الموصلا

(٢) رواية ياقوت : كيف تزول الجبال .

وقد قال جرير حين قال له الفرزدق:

فإنى أنا الموت الذى هو نازلٌ   بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله

فقال جرير :

أنا الدهر يَفْنَى الموت والدهر خالد   فجئنى بمثل الدهر شيئاً تطاوله

ثم قلت له : أترى أن جريراً أخذ قوله : يَفْنَى الموتُ من أحد ، وأن أحداً شَرِكَهُ فى إفناء الموت ؟ ففكّر طويلا ثم قال:لا ، قلت : أخذه من عمران بن حطّان حيث يقول :

لَنْ يُعْجِزَ الموتَ شيءٌ دون خالقه   والموت فَان إذا ما نَالَه الأجَلُ
وكلُّ كَرب أمامَ الموتِ مُتَّضَعٌ   بالموت والموتُ فيما بَعدهَ جَلَل

فأماتَ الموتَ وأحياه وما سبقه إلى ذلك أحد ، ثم قلت له : أترى أن البيت المتقدم الذى يقول فيه : « لكالدهر لا عار بما فعل الدهر » مأخوذ من أحد ؟ فأطرق هنيهة ثم قال : وما تصنع بهذا ؟ قلت : يُستَدَلُّ على موضعك ومواضع أمثالك من سَرِقَة الشعر . فقال : الله المستعان ، أساء سمعاً فأساء جابةً ، (١) ماأردتُ ماذهبت إليه . قلت فإنه أخذه من قول النابغة وهو أول من ابتكره :

وعَيَّرتْنى بنو ذُبْيَانَ خَشْيَتَه   وما عَلَىَّ بأن أخشاكَ مِن عَار

ثم أخذه أبو تمام حيث يقول وأجاد :

---

(١) هذا مثل عربى ، ويروى : ساء سمعا فأساء إجابة ، وأول من قال ذلك سهيل بن عمرو أخو بنى عامر ابن لؤى ، وكان تزوج صفية بنت أبى جهل بن أبى هشام ، فولدت له أنس بن سهيل ، فخرج معه ذات يوم فوقف بجزوة « رابية » مكة ، فأقبل الأخنس بن شريق الثقفى ، فقال من هذا ؟ قال : سهيل ابنى ، قال الأخنس حياك الله يافتي قال لا والله مامى فى البيت فانطلقت إلى أم حنظلة تطحن دقيقا فقال أبوه : أساء سمعا فأساء جابة ، فأرسلها مثلا ، فلما رجعا قال أبوه : فضحنى ابنك اليوم عند الأخنس قال كذا وكذا ، فقالت الأم : إنما ابنى صبى . انتهى ملخصاً من كتاب مجمع الأمثال للميدانى .

خَشعُوا لصَولَتكَ التى هىَ فيهمُ ... كالموت يأتى ليسَ فيه عارُ

قال : ومَنْ أبو تمام ؟ قلت : الذى سَرَقْتَ شعره فأنشَدْتَه . قال : هذه خلائق السفهاء لاخلائق العلماء . قلت : أجل ، أنت سَفهتَ رأيى ولم يكن سفيهاً ، ألست القائل :

ذى المعالى فَلْيَعْلُوَن من تعالى ... هكذا هكذا وإلا فلا لا

شَرَفٌ ينطح الثريّا برَوْقَيْـ ... ـه وفخرٌ يُقَلْقِلُ الأجبالا

قال : بلى . قلت فإنك أخذت البيت الأول من بيت بكر بن النَّطّاح :

يتلَقى الندى بوجْهٍ حيّىٍّ ... وصدورَ القَنَا بوَجْهٍ وَقَاحِ[1]

هكذا هكذا تكون المعالى ... طُرُق الجِدِّ غيرُ طُرْقِ المزاح

وأخذت البيت الثانى فأفسدته من قول أبى تمام :

همّةٌ تنطح الثريا وجَدٌّ ... آلفٌ للحضيض فَهْو حضيض

قال : وبأى شىء أفسَدْتُه ؟ قلت بأن جعلت للشرف قَرْناً . قال : وأنى لك بذلك ؟ قلت : ألم تقل : ينطح السماء بروقيه والروقان : القرنان ؟ قال أجَلْ ، إنما هى استعارة . قلت : نعم هى استعارة خبيثة . قال : أقسمتُ غيرَ مُحْرَج فى قسمى إننى لم أقرأ شعراً قطّ لأبى تمامكم هذا . فقلت : هذه سوءة لو سترتها كان أولى . قال : السوءة قراءةُ شعر مثله ، أليس هو الذى يقول :

خَشُنْتِ عليه أخْتَ يومَ بنى خُشَينٍ ... وأنْجحَ فيكِ قولُ العاذلين

والذى يقول :

لعمرى لقد حرّرتُ يومَ لَقِيتهُ ... لوانّ القضاءَ وحده لم يُبَرِّد

---

(١) أوقح الرجل : قل حياؤه . يريد جرأته وإقدامه .

والذى يقول :

تكادُ عطاياهُ يُجَنّ جنونُها إذا لم يُعَوِّذْها بنَغْمةِ طالبِ

والذى يقول :

تسعون ألفاً كآساد الشَّرى نَضِجَتْ أعمارُهم قبل نُضْج التين والعنب

والذى يقول :

وَلَّى ولم يَظْلِم وهل ظَلَم امرؤٌ حَثَّ النَّجَاءَ وخَلْفَه التّنّينُ

والذى يقول :

فضربتَ الشتاء فى أخدعيه ضَرْبَةً غادرَتْه عَوْداً(١) رَكوبا

والذى يقول :

كانوا رِداء زمانهم فتَصَدَّعوا فكأنما لبسَ الزّمانُ الصُّوفا

والذى يقول :

أقول لقُرحانٍ من البَيْن لم يُصِب رَسِيسَ(٢) الهوى بيْنَ الحَشا والترائب

ماقرحان البين أخرسَ الله لسانه ؟ فأحفَظنى(٣) ذلك وقلت : ياهذا من أدل الدليل على أنك قرأت شعر هذا الرجل تَتَبُّعُك مساويه ، فهل فى الدلالة على اختلاقك إنكارَه أوضحُ مما ذكرتَه ؟ وهل يَصِم أبا تمام أو يسمهُ بميسَم النقيصة ماعَدَدْتَه من سقطاته وتَخَوَّنْتَه(٤) من أبياته ، وهو الذى يقول فى النونيّة :

(١) العود : المسن من الإبل .

(٢) رسيس الهوى : بقيته وأثره . والقرحان الذى لم يصبه مرض مثل الجدرى والحصبة وقوله : لقرحان من البين أى لقوم لم يقاسوا من البين ما قاسيت منه .

(٣) أحفظنى : أغضبنى .

(٤) تخونته : تنقصته .

نوالك ردّ حسّادى فلولا وأصلح بين أيامى وبينى

فهلاّ اغتفرت الأول لهذا البيت الذى لا يستطيع أحدٌ أن يأتى بمثله؟

وأما قوله :

تسعون ألفاً كآساد الشّرى نَضجت أعمارُهم قبل نُضْج التّين والعنب

فلهذا البيت خبر لو استقريتَ صُحُفَه لأقصرت عَما تناولْتَه بالطعن فيه . ثم قصصت الخبر ، وقلت فى هذه القصيدة مالا يستطيع أحدٌ من متقدمى الشعراء وأمراء الكلام وأرباب الصناعة أن يأتى بمثله . قال : وماهو ؟ قلت لو قال قائل : إن أحداً لم يَبتَدىء بأوجَزَ ولا أحسنَ ولا أخصرَ من قوله :

السيف أصدق إنْباءً(١) من الكتب فى حَدّه الحد بين الجدّ واللعب

لما عنّفَ فى ذلك وفيها يقول :

رَمَى بِكَ اللهُ بُرجَيْها فهَدّمَها ولو رَمَى بك غيرُ الله لم يُصِبِ(٢)

وفيها يقول :

لما رأى الحرب رأى العين توفَلس(٣) والحرب مشْتَقّة المعنى من الحَرَبِ

وفيها يقول :

فَتح تفتّحُ أبوابُ السماءِ لَه وتَبرُزُ الأرض فى أبْرادها(٤) القُشُبِ

---

(١) رواها ياقوت بكسر الهمزة ورواها الديوان بفتحها .

(٢) كنت تقاتل ناصراً لدين الله ، ولو كان القتال لغير دين الله لم تنتصر .

(٣) توفلس : رواية النسخة الخطية ، ورواية الصبح المنبى ، ورواية ياقوت . ورواها الديوان «شرح محيى الدين الخياط» : نوفلس بالنون وفى شرح الأستاذ محمد عبده عزام : توفلس بالتاء . والحرب : يستعمل فى معنى الغضب وفى معنى ذهاب المال .

(٤) وتروى : فى أثوابها . والقشب : جمع قشيب وهو الجديد .

وفيها يقول :

بكرٌ فما افترعتها كفُّ حادثة ... ولا ترقَّتْ إليها هِمَّةُ النُّوَبِ[١]

وفيها يقول :

غادرتَ فيها بهيمَ الليل وهو ضُحًى ... تَشُبُّها[٢] وَسْطَها صبحٌ من اللَّهَبِ

حتى كأنَّ جلابيبَ الدّجى رَغِبت ... على لَوْنِها وكأنَّ الشمسَ لم تَغِبِ

وفيها يقول :

أجَبْتَهُ مُعْلِناً بالسيف مُنْصَلِتًا ... ولو أجَبْتَ بغير السيف لم تُصِبِ[٣]

وأما قوله :

أو قل لقُرحان من البين

فإن يريد رجُلاً لم يقطعْهُ أحبابُه ولم يَبينُوا عنه قبل ذلك ، وإذا كانت حاله كذلك كان موقعُ البَيْن أشَدَّ عليه وأفَتَّ فى عضده ، والأصل فى هذا أن القُرْحانَ : الذى لم يُجدَّرْ قطّ . وقد قال جرير :

وكنتُ من زفرات البَيْن قُرْحانا

وفى هذه القصيدة من المعانى الرائعة ، والتشبيهات الفائقة والاستعارات البارعة ما يُغتَفَر مَعَه هذا البيتُ وأمثاله . على أنَّا أبنَّا عن صحة معناه وعن أمثاله فمن ذلك :

إذا العيس لاقت بى أبا دُلَف[٤] فقد ... تَقَطَّعَ ما بينى وبَين النوائب

(١) يقول : إن هذه المدينة لم تفتح قبل هذا الفتح .

(٢) هذه رواية ياقوت ورويت : يشبه ويشله . ورواية يشله هى الأولى أى يطرده أى كان ضوء النهار يطرد الليل وهو كالإصباح لتوقده .

(٣) بعض المولدين يظن « الدجى » مفرداً مثل هدى ولكنه جمع مثل زبية وزبى .

(٤) هو أبو دلف القاسم بن عيسى العجلى ، ومطلع هذه القصيدة :

على مثلها من أربع وملاعب ... أيلت مصونات الدموع السواكب

يرى أقبحَ الأشيـاء أوبةَ آمل(١) كَسَتْـه يَدُ المأمولِ حُلةَ خـائب
وأحسنُ من نَوْرٍ يُفَتحـهُ الندى(٢) بيـاضُ العطايا فى سَـوادِ المطالب
وقـد عَلِمَ الأفـشين وهْوَ الذى به يُصَان رداء الملكِ عن كل جاذب(*)
بأنك لما استحكم النصرُ واكتَسى أهَابِىٌّ تَسْفِى فى وجوه التجارب
تَجَلّلتَـه بالرأى حـتى أريْتَـه به مِلْءَ عينيه مكان العواقب جَرَتْ
بأرشَقَ(٣)إذ سالت عليه غمامة بالعوالى والعتاق الشوازب
ولو كان يَفْنى الشِعر أفْناه ماقَرت(٤) حياضُك منه فى العصور الذّواهب
ولَكنه فَيْضُ العقول إذا انجلت سحائب جُود أعْقبَتْ بسحائب

(١) رواية الديوان : أوبة آئب .
(٢) رواية الديوان : تفتحه الصبا .
(*) كان الأفشين عبداً للمعتصم ، فاصطنعه ورفع شأنه ثم قتله بعد ذلك ، وهذا الشعر قيل فى زمن دولة الأفشين وإقبال الدنيا عليه .
ورواية الديوان للبيت بعده : اسحنكك بدلا من : استحكم ، ويروى : الأمر بدلا من النصر والسحنكك : اسود وأظلم ، وأهابى : جمع إهباء وهو الغبار ، وقوله تسفى فى وجوه التجارب : أى لا تنفع معها التجربة فكأنها تملأ عينها بالغبار . وتجللته بالرأى : أى علوته به . يقول : لما أظلم وجه الرأى عليه أريته إياه ملء عينى حتى ينظر إلى عواقبه . وفى يوم بابك أبلى أبو دلف بلاء حسناً ،، فيقول إن الأفشين حسده وهم بقتله لما قدم عليه حتى خلصه ابن أبى دؤاد .
(٣) الأرشق : القوس الخفيفة سريعة السهم . وقال الصولى : يقول هذه الغمامة إنما سالت برماح وخيل ضامرة .
(٤) قرت : جمعت . والمعنى أنك شريف الآباء قد مدح آباؤك بشعر كثير ، فلو كان الشعر يفنى لفنى من أجل ما مدحتم به . ويروى البيت التالى هكذا :
ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب
قال الخازنجى : يقول : لو كان للشعر فناء لأفناه كثرة عطائك قبل وبعد ، ولكنه مما صبت عقول الشعراء وأذهانهم ، فإذا انكشفت سحائب من ذلك أعقبتها سحائب من الشعر فلا فناء له ، وقال الصولى : هو من قول أوس بن حجر :
أقول بما صبت على غمامتى وجهدى فى حبل العشيرة أحطب
والأحطب : الشديد الهزال أو المشئوم .
وقد ألم بقول الأخطل : فلولا بغاة الشعر أنفذه البشر .

وأما قولك :

ومـــا شـــرقى بالماء إلا تذكـــرا لماء به أهل الحـــبـــيب نزول
يُحـــرِّمُـــه وَقْع الأسنة فـــوقـــه فليس لظمـــآن إليـــه وصـــول

فهو من قول عبد الله بن دارة :

ألم تعلمى يا أحسنَ الناسِ أننى وإن طال هجْرى فى لِقَائك جاهدُ
فلا تَعْذلينا فى التنائى فإننا وإياك كـــالظمـــآن والماء باردُ
يراه قـــريبـــاً دانيـــاً غـــيْـــرَ أنه تَحُـــولُ المنايا دونَه والمراصـــد

فبهره مما أوْرَدتُه ما قصرَ عنانَ عبارته ، وحبس بُنَيَاتِ صوره ، وَعَقَل عن الإجابَة لِسانَه ، وكان يَشْغَبُ(١) لولا ما تَخَوَّفَهُ مِنْ عَاقبَة شَغْبِه ، وعَرَفَه من مَكانى فى تلك الأيام ، وأنَّ ذلك لا يَتِمُّ له ، فما زاد على أن قال : قد أكثَرْتَ من أبى تمام ، لاقدّس الله أبا تمام وذَوِيه . قلت : ولا قَدّس السارقَ مِنْه والواقِعَ فيه . ثم قلت له : ما الفرقُ – فى كلام العرب – بين التقديس والقَدَّاس والقَدَاس والقَدِس ؟ فقال : وأيُّ شيء غرضُك فى هذا ؟ فقلت : المذاكرة ، فقال : بَلِ المهاترَة(٢) ، ثم قال : التقديس : التطهيرُ فى كلام العرب ، ولذلك سُمّى القُدّسُ قُدْساً لأنه يشتمل على الذى به الطُّهور، وكل هذه الأحرف تئُولُ إليه . فقلت له : ما أحسبُكَ أنعمت النظر فى كتب اللغة وعلوم العرب ، ولو تقدَّمَتْ منك مطالعةٌ لها لما استجزْتَ أن تجمع بين معانى هذه الكلمات مع تبَايُنها ، وذلك لأن القدَّاس بتشديد الدال : حَجَرٌ يلقى فى البئر لَيُعْلَمَ به غزارةُ مائها من قِلّته ، حكى ذلك ابن الأعرابىّ ، والقَدَاس : الجُمَانُ ، حكى ذلكَ الخليلُ واستشهد بقوله :

كنظم قَدَاس سِلْكُهُ متَقَطّع

---

(١) شغبه وشغب به وعليه : هيج الشر .

(٢) المهاترة : المسابة بالقبيح من القول .

والقادس : السفينة . قال الشاعر يصف ناقة :

وتهفو بهادٍ لها مُتْلعٍ[١] كما اقتحمَ القادسَ الأردمونا[٢]

فلما علوته بالكلام قال : يا هذا ، مُسَلّمَةٌ إليك اللغةُ . قلت : وكيف تُسَلمُها وأنت أبو غُذْرتها[٣] ؟ ومنْ نِصَابِها وسِرِّها ، وأولى الناس بالتحقق بها والتوسع فى اشتقاقها والكلامِ على أفانينها ، وما أحد أولى بأن يسْأل عن لغته منك .

فشعرت الجماعةُ الحاضرةُ فى إعفائه ، وقبول عذره ، والتواطؤِ له[٤] ، وقال كلٌ منهم : أنت أولى بالمراجعة والمياسَرَة لمثل هذا الرجل من كل أحد . وكنت قد بلَغْتُ شفاء نفسى ، وعلمت أنّ الزيادة على الحدّ الذى انتهيت إليه ضربٌ من البغى لا أراه فى مذهبى ، ورأيت له حقّ القدَمة[٥] فى صناعته ، فطأطأت له كتفى[٦] ، واستأنَفْت جميلا من وصفه ، ونهضت فنهض لى مشيعاً إلى الباب حتى ركبت ، وأقسمت عليه أن يعود إلى مكانه ، وتشاغلت بقية يومى بشغل عَنّ لى تأخرتُ معه قليلا عن حضرة المُهَلّب[٧] وانتهى إليه الخبر ، وأتتنى رُسُلُه ليلاً فأتيته ، فأخبرته بالقصة على الحال[٨] ، فكان من سروره وابتهاجه بما جرى ما بَعَثَه على مباركة مُعِزّ الدولة وأخبرهُ بكل ما أخبرته . وأخبرنى الرئيس أبو القاسم محمد بن العباس أنه ساعة دخوله على معز الدولة قال له : أعلمت ما كان من أبى علىّ الحاتمى والمتنبى ؟ قال : نعم ، قد شفا منه

(١) أتلع : مد عنقه متطاولا .

(٢) الأردمون : جمع أردم ، الملاح الحاذق .

(٣) أبو عذرتها : مفتض لبكارتها .

(٤) التواطؤ : أى الموافقة .

(٥) حق القدَمة : أى التقدم .

(٦) هذه رواية ياقوت وبالصبح المنبى والنسخة المخطوطة ٢٠٣٩ كنفى بالنون .

(٧) هذه رواية ياقوت وبالصبح المنبى : عن حضرة الوزير المهلبى .

(٨) هذه رواية ياقوت والنسخة الخطية ٢٠٣٩ ورواية الصبح المنبى : فأخبرته بالقصة بتمامها .

قال[*] الحاتمى : ومن فضيلته وصفاء ذهنه وجودة حذقه ما حدانى إلى عمل الحاتمية الثانية[1] ، وتأكد بينى وبينه صحبة وثيقة ، فصرت أتردد إليه أحياناً .

وهذا آخر المناظرة .

(*) من هنا إلى النهاية زائد فى النسخة الخطية .

(١) الحاتمية الثانية لأبى محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى أيضاً ، وهى تتضمن الحكم والفلسفة التى اقتبسها المتنبى من أرسطاطاليس ، وصاغها شعراً رائعاً تمثل به الكتاب والحكماء من بعده ، هذه الرسالة مطبوعة بمطبعة الجوائب مع رسالات أخرى سنة ١٣٠٢ هـ زرقمها بدار الكتب العامة بالقاهرة ٢٨٠٣ كما أن للصاحب بن عباد رسالة أخرى ضمنها الأبيات التى قالها المتنبى وأودع فيها حكمه الرائعة ، فسارت هذه الأبيات مسير الأمثال ، وتمثل بها جميع الأجيال وترى هذه الرسالة فى الجزء الثانى من كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المصفى . فالحاتمى والصاحب بن عباد وإن كانا قد نقدا المتنبى نقداً عنيفاً فى هاتين الرسالتين اللتين سقناهما إليك إلا أنهما فى الرسالتين الأخريين اللتين نوهنا عنهما قد عرفا للمتنبى فضله وأدبه وسبقه على غيره ، فصدق عليهما قول القائل : «رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الثانية» .

وأقول :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

المتنبى ! لقد كان شاعراً عظيماً .

ابو نصر الفارابى - ٣٣٩ هـ

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان ، قال عنه صاعد الأندلسى إنه فليسوف المسلمين غير مدافع ، وهو عند ابن خلكان أكبر فلاسفة المسلمين ، ولم يكن فيهم من بلغ رتبته فى فنونه ، والرئيس ابن سينا بكتبه تخرج وبكلامه انتفع . وتعويل ابن سينا على مصنفات الفارابى وإفادته منها ، مما اتفق عليه أصحاب التراجم كظهير الدين البيقى فى تاريخ حكماء الإسلام ، والشهر زورى فى نزهة الأرواح . وقد أثر عنه أنه كان يحيا حياته على التأمل الفلسفى وأظله الملوك بسلطانهم ، ثم ظهر آخر الأمر فى ولاية فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر . واتفاق صاعد وابن أبى أصيبعة والقفطى وابن خلكان على أنه مات عن ثمانين عاماً ، يعنى أنه ولد تقريبا سنة ٢٥٩ هـ ، ولم يذكر تاريخ مولده أحد من المترجمين ، غير أنهم مجمعون على توفى سنة ٣٣٩ هـ .

وقد حصل علومه فى بغداد ، وقرأ بعضها على معلم نصرانى هو يوحنا بن حيلان ، وألم فى دراسته بالأدب والرياضيات ، ويبدو من كتبه أنه كان يعرف الفارسية والتركية ، وكانت عربيته واضحة لاتخلو من جمال البلاغة . وبعد أن عاش فى بغداد ، واشتغل فيها زمانا طويلاً ارتحل إلى حلب ، واستقر فى مجلس سيف الدولة الذى كان يحتضن العلماء ،ويبدو أن الفارابى لم يقض أواخر أيامه فى القصر ، بل قضاها خاليا بنفسه بين مظاهر الطبيعة ، ويقول ابن خلكان : « وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ، وهناك كان يقضى وقته ويؤلف كتبه » . مات الفارابى فى دمشق وهو مسافر فى صحبة الأمير سيف الدولة سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠م . وقد سماه أهل المشرق المعلم الثانى ، وأى بعد أرسطو باعتباره المعلم الأول . ومنذ أيام الفارابى أحصيت كتب أرسطو أو الكتب المنسوبة له ، ورتبت على صورة لم تتغير فى جملتها ، وصارت تفسر وتشرح على طريقة الفارابى سواء فى ذلك كتب المنطق وكتب الطبيعات . لقد عاش الفارابى فى عالم العقل ابتغاء للخلود ، وكان فقيرا لم يقتن من متاع الدنيا ما يذكر ، وكانت تسعده كتبه والأطيار المغردة فى حديقته .

ومن كتبه الذائعة ، المدينة الفاضلة ، والجمع بين الحكيمين ، وإحصاء العلوم ، وعيون المسائل ، والسياسات المدنية وغير ذلك مما أحصاه أصحاب التراجم . ولم يكن للفارابي كثير من التلاميذ ، واشتهر من بين تلاميذه بترجمة كتب أرسطو ، أبو زكريا يحيى بن عدي وهو نصراني يعقوبي وكان بعض تلاميذ الفارابي يجلونه، ويرون أن الحكمة قد تجسدت فيه، أما علماء الإسلام الحقيقيون فقد اتهموه بالزندقة فوسم بها إلى الأبد .

رسالة فى قوانين صناعة الشعراء

للمعلم الثانى (الفارابى)

لخص الفارابى كتاب الشعر لأرسطو مستعيناً بشرح ثامسطيوس، وقد اكتشف الأستاذ آرثر آربرى وجود هذه الرسالة فى مكتبة الديوان الهندى، ونشر المخطوط مع ترجمة إنجليزية فى مجلة الدراسات الشرقية ولا شك فى أن ابن سينا استعان فى تلخيص كتاب الشعر فى الشفاء بتلخيص الفارابى .

نقلاً عن كتاب أرسطوطاليس : فنّ الشعر لعبد الرحمن بدوى .

نصُّ الرسالة

قصدُنا فى هذا القول إثباتُ أقاويلَ وذكْرُ معانٍ تُفْضى بمن عرَفها إلى الوقوف على ما أثبتهُ الحكيم (١) فى صناعة الشعر، من غير أن نقْصدَ إلى استيفاء جميع ما يُحتاجُ إليه فى هذه الصناعة وترتيبها، إذ الحكيمُ لم يُكمل القْولَ فى صناعة المغالَطة فضلاً عن القول فى صناعة الشعر، ، ذلك وأنه لم يجدْ لِمَنْ تقدمَهُ أصولاً ولا قوانينَ حتى كانَ يأخذُها ويُرتبَها ويبْنى عليها ويُعْطيها حقَّها على ما يذكره فى آخر أقاويله فى صناعة المغالطين .

ولو رُمْنا إتمامَ الصناعة التى لم يرُم الحكيمُ إتمامَها - مع فضله وبراعته - لكان ذلك مما لا يليقُ بنا . فالأوْلى بنا أن نومئَ إلى ما يحْضُرنا فى هذا الوقت من القوانين والأمثلة والأقاويل التى يُنْتفَعُ بها فى هذه الصناعة .

---

(١) يقصد أرسطو .

فنقولُ : إن الألفاظَ لا تخلُو منْ أن تكونَ : إما دالّةً، وإما غيْرَ دالّةٍ . والألفاظُ الدالّةُ : منها ما هي مفردةٌ ، ومنها ما هي مركبةٌ . ، والمركبةُ : منها ما هي أقاويلُ. ومنها ما هي غيرُ أقاويلَ .

والأقاويلُ : منها ما هي جازِمةٌ . ومنها ما هي غيْرُ جازمةٍ . والجازمة : منها ما هي صادقةٌ ، ومنها ما هي كاذبةٌ . والكاذبةُ : منها ما يُوقِعُ في ذهن السامعين الشيءَ المُعبَّرَ عنه بدلَ القول ، ومنها ما يوقعُ فيه المحاكيَ للشيء – وهذه هي الأقاويلُ الشعريّةُ .

ومنْ هذه المحاكية ما هو أتمُّ محاكاة ، ومنها ما هو أنقصُ محاكاةً . والاستقصاءُ في الأتمّ منها والأنقص إنما يليقُ بالشعراء وأهْلِ المعرفة بأشعارِ لسانٍ لسانٍ ولغةٍ لغةٍ ، ولذلك ما يخلى عن القول فيها لأولئك – ولا يظُنَنَّ ظانٌّ أن المُغلِّطَ والمحاكيَ قولٌ واحدٌ ، وذلك أنهما مختلفان بوجوه منها أن غرضَ المغلِّط غيرُ غرض المحاكي ، إذ المغلِّطُ هو الذي يُغلِّطُ السامعَ إلى نقيض الشيء حتى يوهمَهُ أن الموجودَ غيرُ موجودٍ وأن غيْرَ الموجودِ موجودٌ . فأما المحاكِي للشيء فليس يُوهِمُ النقيضَ ، لكن الشبيه[1] . ويُوجَدُ نظيرُ ذلك في الحسّ ، وذلك أن الحالَ التي توجب إيهام الساكنِ أنه متحركٌ ، مثلُ ما يعرضُ لراكب السفينة عند نظره إلى الأشخاص التي هي على الشطوط أو لمنْ على الأرض في وقت الربيع عند نظره إلى القمر والكواكب من وراء الغيوم السريعة السيْرِ هي الحالُ المغلِّطةُ للحسّ ؛ فأما الحالُ التي تعرضُ للناظر في المرائي والأجسام الصقيلة فهي الحالُ الموهمةُ شبيهَ الشيء .

وقد يمكنُ أنْ تُقسَّمَ الأقاويلُ بقسْمةٍ أخرى وهي أنْ نقولَ : القولُ لا يخلو من أن يكونَ : إمّا جازمًا، وإما غيْرَ جازمٍ . والجازمُ منه ما يكونُ قياسًا ، ومنه ما يكون غير قياسٍ . والقياسُ : منه ما هو بالقوة . ومنه ما هو بالفعل . وما هو بالقوة : إما أن يكون استقراءً ، وإمّا أن يكونَ تَمثيلاً . والتمثيلُ أكثرُ ما يُستعمَلُ إنما يُستعملُ في صناعة الشعر . فقد تبين أن القول الشعريَّ هو التمثيل.

---

(١) يوازن الفارابي في هذا السياق بين صنعة السفسطة وصنعة الشعر .

وقد يمكن أن تَقسّمَ القياساتُ ، وبالجملة الأقاويلُ ، بقسْمة أخرى فيُقال : إنّ الأقاويلَ إمّا أن تكونَ صادقةً لا محالةَ بالكل ، وإما أنْ تكونَ كاذبةً لا محالة بالكل ، وإما أن تكون صادقةً بالأكثر كاذبةً بالأقلّ ، وإما عكس ذلك ، وإما أن تكونَ متساوية الصدق والكذب . فالصادقة بالكل لا محالةَ هى البرهانيةُ ، والصادقةُ بالبعض على الأكثر فهى الجدليّةُ . والصادقةُ بالمساواة فهى الخطبيّةُ والصادقةُ بالبعض على الأقلّ فهى السوفسطائية ، والكاذبةُ بالكلّ لا محالةَ فهى الشعريةُ — وقد تبيّن من هذه القسمة أنّ القوْلَ الشعريَّ هو الذى ليس بالبرهانية ولا الجدلية ولا الخطابية ولا المغالطية ، وهو مع ذلك يرجعُ إلى نوع من أنواع السولوجسموس(١) أو ما يتبع السولوجسموس وأعنى بقولى : « ما يتبعه » : الاستقراءَ والمثالَ والفراسةَ ، وما أشبهها مما قوتُه قوةُ قياس . وإذْ قد وصفْتُ ما تقدّمَ ذكره فخليقٌ بنا أنْ نصفَ الأقاويلَ الشعرية وكيف أنها تتنوع فنقول : إن الأقاويلَ الشعريةَ إمّا أن تتنوّعَ بأوزانها ، وإمّا أن تتنوّعَ بمعانيها . فأما تنوعها من جهة الأوزان فالقولُ المستقصى فيه إنما هو لصاحب الموسيقى والعروضىّ ، فى أىّ لغة كانت تلك الأقاويلُ ، وفى أىّ طائفة كانت الموسيقى .

وأمّا تنوعهُا من جهة معانيها على جهة الاستقصاء ، فهو للعالم بالرموز والمعبِّر بالأشعار والناظرِ فى معانيها والمُستنبط لها فى أمة أمة وعند طائفة طائفة ، مثلما فى أهل زماننا من العلماء بأشعار العرب والفُرْسِ الذين صنّفُوا الكتب فى ذلك المعنى وقسّموا الأشعارَ إلى الأهاجى والمدائح والمفاخرات والألْغازِ والمضحكاتِ والغزليّات والوَصْفيّات وسائرِ ما دوّنوه فى الكتب التى لا يَعْسُر وجودها ، مما يَسْتغنى عن الإطنابِ فى ذكرها .

فلنرجعْ إلى ابتداءِ آخرَ ونقول : إنّ جُلَّ الشعراء فى الأمم الماضية والحاضرةِ الذين بلَغَنا أخبارهُمْ خلطوا أوزانَ أشعارهم بأحوالها ولم يرتبوا لكل نوع من أنواع المعانى الشعريّة وزنًا معلومًا— إلا اليونانيين فقط : فإنهم جعلوا لكل نوْع من أنْواع الشعر نوعًا من أنواع الوزن ، مثلُ أنّ أوْزانَ المدائح غيرُ أوزان الأهاجى ، وأوزانُ الأهاجى غيرُ أوزان المُضْحكات ، وكذلك سائرُها . فأما غيرهُم من الأمم والطوائف فقد يقولون المدائح بأوزانٍ كثيرةٍ مما يقولون بها الأهاجىَ إما بكلّها وإما بأكثرها؛ ولم يضبطوا هذا البابَ على ما ضبطهُ اليونانيون .

(١) السولوجسموس : القياس .

ونحنُ نعدّدُ أصنافَ أشعارِ اليونانيين على ما عدده الحكيمُ فى أقاويله فى صناعة الشعرِ ونومىء إلى كل نوع منها إيماءً فنقول :

إن أشعارَ اليونانيين كانت مقصورة على هذه الأنواع التى أعُدُّها وهى :

طراغوذيا ، وديثرمبى ، وقوموذيا ، وإيامبو ، ودراماطا ، وإينى ، وديقرامى ، وساطورى ، وفيومويتا ، وافيقى ، وريطورى ، وايفيجاناساوس ، وأقوستقى .

أما طراغوذيا فهى نوعٌ من الشعر له وزنٌ معلومٌ يلْتذُّ به كلُّ من سمعَهُ من الناس أو تلاه ، يُذْكرُ فيه الخيرُ والأمورُ المحمودةُ المحروصُ عليها ويُمْدَحُ بها مُدبِّرو المدن. وكان الموسيقاريون يغنّون بها بين يدىْ الملوك،فإذا مات الملكُ زادوا فى أجزائها نغماتٍ أخرى وناحوا بها على أولئك الملوك.

وأما ديثرمبى فهو نوعٌ من الشعر له وزنٌ ضِعفُ وزْنِ طراغوذيا يُذْكَرُ فيه الخيرُ والأخلاقُ الكليةُ المحمودةُ والفضائلُ الإنسانيةُ، ولا يُقْصد به مَدْحُ ملكٍ معلومٍ ولا إنسانٍ معلومٍ لكنْ تذكر فيه الخيراتُ الكلية .

وأما قوموذيا فهو نوعٌ من الشعر له وزْنٌ معلومٌ تُذكَر فيه الشرورُ وأهاجى الناسِ وأخلاقُهُم المذمومةُ وسيَرُهُم غَيْرُ المَرْضيةِ . وربما زادوا فى أجزائه نغماتٍ وذكروا فيها الأخلاقَ المذمومةَ التى يشترك فيه الناسُ والبهائمُ والصورُ المشتركةُ القبيحةُ أيضاً .

وأما أيامبو فهو نوعٌ من الشعر له وزنٌ معلومٌ تذكرُ فيه الأقاويلُ المشهورةُ : سواء كانت تلك من الخيرات أو الشرور ، بعد أنْ كانت مشهورةً – مثلَ الأمثالِ المضروبة. وكان يُستعمل هذا النوعُ من الشعر فى الجدال والحروب وعند الغَضَب والضَجَر .

وأما دراماطا فهذا الصِّنْفُ بعينه ، إلا أنه تُذكرُ فيه الأمثالُ والأقاويلُ المشهورةُ فى أُناس معلومين وفى أشخاصٍ معلومة .

وأما إينى فهو نوعٌ من الشعر تذكرُ فيه الأقاويلُ المُفْرِحةُ: إما لإفراط جودتها ، وإمّا لأنها عجيبةٌ بديعة .

وأما ديقرامى فهو نوعٌ من الشعر كان يستعمله أصحابُ النواميس يذكرون فيه الأهوالَ التى تتلقاها أنفُسُ البشر إذا كانت غيْرَ مهذَّبة ولا مُقوَّمة .

وأما أفيقى وريطورى فهو نوعٌ تُوصفُ به المقدماتُ السياسيَّةُ والنواميسيَّةُ ويُذْكَرُ بهذا النوع سيرُ الملوك وأخبارُهم وأيامُهم ووقائعُهم .

وأما ساطورى فهو نوعٌ من الشعر له وزنٌ أحدثه علماء الموسيقاريين ليحدثوا بإنشادهم حركاتٍ فى البهائم ، وبالجملة فى جميع الحيوان ، مما يُتعجَّبُ منها لخروجها عن الحركات الطبيعيـة .

وأما فيوموتا فهو نوعٌ من الشعر يُوصفُ به الشعرُ الجيِّدُ والرديءُ ، المستقيمُ والمعوَجُّ ، ويشبه كلُّ نوع من أنواع الشعر بما يشبه من الأمور الحسنة الجيدة والقبيحة الرَّذْلة .

وأما ايفيجاناساوس فهو نوعٌ من الشعر أحدثه علماءُ الطبيعيين ، وصفوا فيه العلومَ الطبيعية ؛ وهو أشدُّ أنواع الشعر مباينةً لصناعة الشعر .

وأما اقوستقى فهو نوعٌ من الشعر يُقْصدُ به تلْقينُ المتعلمين لصناعة الموسيقار ، وهو مقصورٌ على ذلك ، ولا يُنْتَفعُ به فى غير هذا الباب .

فهذه هى أصنافُ أشعار اليونانيين ومعانيها على ما تناهى إلينا من العارفين بأشعارهم وعلى ما وجدناه فى الأقاويل المنسوبة إلى الحكيم أرسطو فى صناعة الشعر وإلى ثامسطيوس وغيرهما من القدماء والمفسرين لكتبهم . وقد وجدنا فى بعض أقاويلهم معانىَ ألحقوها بأواخر تعديدهم هذه الأصناف ، ونحن نذكرها أيضاً على ما وجدناها فنقول :

إن الشعراءَ إمّا أن يكونوا ذوى جبِلّةٍ وطبيعة مُهيّئة لحكاية الشعر وقوْله ولهم تأتٍ جيدٌ للتشبيه والتمثيل : إما لأكثر أنواع الشعر ، وإمّا لنوع واحدٍ من أنواعه ، ولا يكونوا عارفين بصناعة الشعر على ما ينبغى ، بل هم مقتصرون على جوْدة طباعهم وتأتّيهم لما هم مُيسَّرون نحوه ، وهؤلاء غير مُسَلّجسين بالحقيقة لِمَا عدِمُوا من كمال الرُّوِيَّة والتثبُّت فى الصناعة . ومن سمّاه مُسَلّجساً شعريا فذلك لما يصْدُر عنه من أفعال الشعراء .

وإما أن يكونوا عارفين بصناعة الشعراء حقَّ المعرفة حتى لا يندّ عنهم خاصّةٌ من خواصّها ولا قانونٌ من قوانينها فى أىّ نوعٍ شرعوا فيه، ويجوّدون التمثيلات والتشبيهات بالصناعة ، وهؤلاء هم المستحقون اسْمَ الشعراء المُسَلْجسين(١)

وإما أن يكونوا أصْحابَ تقليد لهاتيْن الطبقتيْن ولأفعالهما : يحفظون عنهما أفاعيلَهُما ويحتذون حَذْوَيْهما فى التمثيلات والتشبيهات من غير أن تكون لهم طباعٌ شعرية ولا وقوفٌ على قوانين الصناعة – وهؤلاء أكثرهم زللاً وخطأً .

ونقول : إن ما يصنَعه كلٌّ واحدٍ من هؤلاء الطوائف الثلاث لا يخلو من أن يكونَ عن طبع، أو عن قهْر ، وأعنى بذلك أن الذى جُبلَ على المدْح وقوْلِ الخير فربما اضطرّه بعضُ الأحوال إلى قوْل بعض الأهاجى – وكذلك سائرها ؛ والذى تعلَّم الصناعة وعوّد نفسَهُ نوعًا من أنواع الشعر واختاره من بين الأنواع ربما ألجأه أمرٌ يعرض له إلى تعاطى ما لم يسْتخرهُ لنفسه فيكون ذلك عن قهْر : إما من نفسه أو من خارج . وأحْمدُها ما كان عن طبع .

ثم إن أحوالَ الشعراءِ فى تقوّالهم الشّعْرَ تختلف فى التكميل والتقصير. ويعرضُ ذلك إما مِنْ جهة الخاطر، وإما من جهة الأمر نفسه. أما الذى يكون من جهة الخاطر فإنه ربما لم يساعده الخاطرُ فى الوقت دونَ الوقت، ويكون سببَ ذلك بعضُ الكيفيات النفسانية : إما لغلبة بعضها ، أو لفتور بعْضٍ منها مما يحتاج إليها. والاستقصاء فى هذا الباب ليس مما يليق بهذا القول .....

وأما الذى يكون من جهة الأمر نفسه فلأنه ربما كانت المشابهةُ بين الأمريْن اللذيْن يشبهُ أحدهما بالآخر ، وربما كانت قريبةً ظاهرةً لأكثر الناس ، فيكون القولُ فى كماله ونقصانه بحسب مشابهة الأمور من قرْبها وبُعْدها. وإنَّ المتخلّفَ فى الصناعة ربما أتى بالجيّد الفائق الذى يَعْسُرُ على العالم بالصناعةِ إتيانُ مثله، ويكون سببَ ذلك البختُ والاتفاقُ ولا يستحق اسم المُسَلْجس .

---

(١) السلجسة : القياس والمسلجس الشاعر الذى يُعمل القياس .

وجودة التشبيه تَختلف: فمن ذلك ما يكونُ من جهة الأمر نفسه بأن تكون المشابهةُ قريبةً ملائمةً وربما كان منْ جهة الحِذْق بالصنعة حتى يجْعَلَ المتباينيْن فى صورة المتلائميْن بزيادات فى الأقاويل مما لا يخْفَى على الشعراء: فمن ذلك أن يُشبّهوا ا ب و ب ج لأجل أنه يوجد بين أ و ب مشابهةٌ قريبةٌ ملائمةٌ معروفة، ويوجد بيْن ب و ج مشابهةٌ قريبةٌ ملائمةٌ معروفة، فيُدْرجُوا الكلام فى ذلك حتى يُخْطِروا ببال السامعين والمنشدين مشابهةً ما بين أ و ب ، ب و ج – وإن كانتْ فى الأصل بعيدة .

وللإخْطار بالبال فى هذه الصناعة غَناءٌ عظيم، وذلك مثْلُ ما يفعلُه بعضُ الشعراء فى زماننا هذا من أنهم إذا أرادوا أن يضعوا كلمةً فى قافية البيت ذكروا لازمًا من لوازمها أو وصفًا من أوصافها فى أول البيت ، فيكون لذلك رونقٌ عجيب .

ونقول أيضاً : إن بين أهل هذه الصناعة وبيْن أهل صناعة التزويق مناسبةً ، وكأنهما مختلفان فى مادّة الصناعة ومتفقان فى صورتها وفى أفعالها وأغراضها؛ أو نقول: إن بين الفاعليْن والصورتيْن والفرضيْن تشابهًا، وذلك أن موضعَ هذه الصناعة الأقاويلُ، وموضعَ تلك الصناعة الأصباغُ، وإن بين كليهما فرقًا، إلا أن فعليهما جميعًا التشبيهُ وغرضهْما إيقاعُ المحاكيات فى أوهام الناسِ وحواسّهم .

فهذه قوانينُ كلّيةٌ ينْتَفَعُ بها فى إحاطة العلم بصناعة الشعراء ، ويمكن استقصاءُ القول فى كثير منها ، إلا أن الاستقصاءَ فى مثل هذه الصناعة يذهب بالإنسان فى نوع واحدٍ من الصناعة وفى جهة واحدة ، ويشغله عن الأنواع والجهات الأُخَر . ولذلك ما لم يشرعْ فى شيء من ذلك قولُنا هذا .

مقتطفات من التساع الخامس من تُساعات أفلوطين

رســالة

فى العلم الإلهى

(منسوبة إلى الفارابى)(*)

« فى الأول وفى الأشياء التى بعده وكيف هى منه »

كلُّ ما كان بعد الأوَّلِ فهو من الأوَّلِ اضطراراً ، إلا أنه إما أن يكون منه سواءً بلا توسُّطٍ ، وإما أن يكونَ منه بتوسُّط أشياء أُخَرَ هى بينه وبين الأول . فيكون إذاً للأشياء نظامٌ وشرْحٌ . ذلك أن منها ما هو ثانٍ بعْدَ الأول ، ومنها ثالث . أما الثانى فيضاف إلى الأول؛ وأما الثالثُ فيضاف إلى الثانى، وينبغى أن يكون قبل الأشياء كلها شيءٌ بلا متوسط، وأن يكون غيْرَ الأشياء التى بعده ، وأن يكون مكتفياً غنياً بنفسه ؛ وأنْ لا يكون مختلطاً بالأشياء ، وأن يكونَ حاضرَ الأشياء بنوع ما ، وأن يكونَ واحداً ، وأنْ لا يكونَ شيئاً ما ثم يكون بعد ذلك واحداً ، فإن الشيء إذا كانَ واحداً على هذا النوع كان الواحدُ فيه كذباً وليس واحداً حقّاً ؛ ولا يكون له صفةٌ ؛ ولا يناله علمٌ البتة ، وأن يكون فوق كلِّ جوْهرٍ حسيٍّ وعقليٍّ . وذلك أنه إنْ لم يكنْ الأولُ مبسوطاً واحداً حقّاً خارجاً عن كل صفةٍ وعن كل تركيب ، لم يكنْ أولاً البتة ...

والمعقولاتُ ثلاثةٌ : الأولُ الذى هو معقول حقّاً . وذلك أن الأشياءَ العقليةَ والحسّيةَ تشتاقُ إلى أن تعقلَهُ ، وهو لا يشتاق إلى أن يعقل شيئاً ، لأنها فيه وهو علةٌ لها بأنَّه فقط (١) ، وهو مبدعُ العقل . والمعقول الثانى هو العقلُ ، إلا أنه معقول وعاقل : يشتاق إلى أن يعقل ما فيه ، ومعقولٌ لما تحته، والمعقولُ الثالثُ هى الصورةُ الحسية الهيولانيةُ ، التى هى معقولةٌ بِعَرَضٍ لا بذاتها ...

(*) نقلاً عن كتاب : أفلوطين عند العرب ، حققه وقدم له : عبد الرحمن بدوى .
(١) الأنُّ:وجود الشيء وحقيقته .

إن العاقلَ الأولَ إنما يعقلُ وهو ساكنٌ ثابتٌ ، غيرَ أنَّ من فعله ما هو جوهرٌ ، ومنه ما هو من الجوهر. فأما العقلُ الذى هو الجوهرُ ، فهو فعلهُ الأولُ . وأما الفعْلُ الذى هو من الجوهر ، فهو الكائنُ من فعله ، وهو الفاعلُ الثانى ، والفاعلُ الثانى تبعٌ للفاعل الأوّل اضطراراً وهو غيرُ ذلك ، لأن الفعْلَ كان لا حركة والفعلُ الثانى كان لحركة . ومثالُ هذيْن الفعليْن النارُ ، فإنَّ النارَ حرارةٌ هى المتممةُ جوهرَ النّارِ ؛ ثم تُولِّدُ من تلك الحرارة حرارةٌ أخرى فى بعض الأشياء شبيهة بالحرارة المتممّة جوهرَ النّارِ ؛ غير أنه وإن كانت الحرارةُ هى التى تُولدُ حرارةً أخرى فى بعض الأشياء فإنما يُفْعَلُ ذلك بفعل النار ؛ وذلك أن النارَ تفعلُ قوةً أخرى مثلَ قبوتها ، وهى نارٌ ثابتةٌ قائمةٌ على حالها .....

والعقل واحدٌ من الطبائع الكريمة الشريفة التى لا يمكنُ أن تكون الأشياءُ الطبيعيةُ أكرمَ ولا أشرفَ منه ، لأنه هو الأشياءُ كلُّها ، وهو الحقُّ الذى يعلمُ الأشياءَ بلا قياسٍ ولا برهان وههنا طبيعة أخرى أعلمُ وأشرفُ من العقل لأنها قبله وعلةٌ له ، وهى التى تسمى إلاله تبارك وتعالى . ونحن وإن كنا نعدُّه ونذكره مع عدد سائر الأشياء ، فإنه فوق كل عدد ، وهو خارجٌ من جميع أصناف العدد . وذلك أن العددَ الجوهريَّ لا يقع عليه ، ولا العدد الكميّ ..... والكمية وإن تكثرت ، فإنما تتكثر من الواحد من غير أن تفنيه ولا أن تُفرّقه .

وذلك أن الواحدَ إذا صار اثنيْن فالواحدُ على حاله ، أعنى الواحدَ الذى قبل الاثنيْن . والواحدُ فى الاثنيْن كلاهما أحدان ... وكما أن العددَ موجودٌ فى سائر الأشياء وليس هو فى الأشياء كلهاَ على نوع واحد: وذلك أنه يُقالُ العَسْكرُ الواحد والبيتُ الواحدُ والخط الواحدُ والآنيةُ الواحدةُ — كذلك سائرُ العدد فى الكمية كلهاَ على نوع واحد وذلك أن الآحاد التى فى الخمسة غيرُ الآحاد التى فى العشرة ، فأمّا الواحدُ الذى فى الخمسة فهو الذى فى العشرة ... وعلى ذلك لا ينالُ الأعدادَ كلَّها صورةُ الواحدِ نيْلاً سواءً وذلك أن ما قرُب من الواحد كانت صورةُ الواحدِ فيه أقوى وأوضحَ، وما بعُد من الواحد كانت صورة الواحد فيه أضْعفَ وأخفى .

كان أصحابُ فيثاغورس يُسمُّون المبدعَ الأوّلَ بلُغز « أبولون » وتفسيرُ « أبولون » الذى ليس بكثير . إنّ أوّلَ الأوائلِ موجودٌ فى الأشياء وليس بموجود فيها . إن المبدعَ الأوّلَ يرى العالمَ لأنه مُبدعُ العالم ، ولا يُوجَدُ عالمٌ كان قبله ، وليس هو فى العالم ولا فى موضع ، لأنه هو أبْدع

العالمَ ، فليس هو فى موضع لأنه لم يكن موضعٌ قبل العالم . فأما أجزاءُ العالم فإنها معلَّقةٌ بالعالم وقوامُها فيه . فأما النفسُ فليستْ فى العالم بل العالمُ فيها ... فلهذه العلة ليس المبدعُ الأول ثابتاً فى شىء من الأشياء ألبتّة ، بل هو ثابتٌ قائم بذاته ، وليس بثابت مُباينٍ ولا هو قائم فيها . وليس شىء من الأشياء يحيط به ، بل هو يحيطُ بالأشياء كلها ، فلذلك صارخيرَ الأشياء كلها لأن الأشياءَ كلها كانتْ به ، وهو الذى ابتدعها وكلهُّا متعلّقةٌ به ، غير أن بَعْضَ الأشياء تعلُّقه به أكثرُ وأقوى ، وبعضها تعلُّقهُ به أقلُّ وأضعفُ . فلذلك صار بعضُ الأشياء خيْراً من بعْض... فإذا أردْتَ أن تنظرَ إلى المبدع الأول فإيّاك أن تنظرَ إليه بتوسُّط الأشياء ، وإلا كُنْتَ إنما نظرْتَ إلى أثره لا إليه

فإذا أردْتَ النظرَ إليه ففكر ما الشىء القائمُ بذاته ، المكتفى بنفسه النقىُّ المحض الذى لا يشوبهُ شىءٌ آخرُ ، والذى ينالُ الأشياءَ كلها ولا يناله شىءٌ آخرُ من الأشياء . فإذا فكرت فى ذلك ، علمتَ أنه لا بُدّ من أن يكون فى الأشياء شىءٌ على هذه الصفة وأنه هو مُبْدعُ الأشياء كلها . ومن الذى يَقْوى على أن يصفَ قوة البارى تعالى كلَّها وينالهَا بأسرها .

ما أشرفَ الشىءَ الذى يقْوى أن ينالَ منها الشىءَ بعد الشىء ، وهو العقلُ !. فإن العقْلَ إذا هَبَّ إلى البارى تعالى ثم ألقى عليه بصرَهُ ليناله ، فإنه ينالُ منه شيئًا قليلاً نَزْراً ، فيصفَه بتلك الصفة . فأما صفته كلها فلن يقوى العقلُ أن ينالهَا ولا يصفَها ....

وإذا أراد العقْلُ أن يعرفَ البارىَ تعالى واجتهد فى معرفته وظنَّ أنه قد عرفَ شيئاً منه ، فإنما يزدادُ منه بُعْداً ... فإذا أردْتَ أن تُبْصرَ البارىَ تعالى ، فألْقِ بصرَك عليه إلقاءً كلياً لا إلقاءً متجزئًا . وقُلْ إنه الخيْرُ . فإنه علّةٌ للحياة الزكيّة العقلية الجليلة . وذلك أنه ينبوع الحياة والعقل والجوهر والهوية بأنّهُ واحدٌ فقط وهو بسيطُ البسيطات ، وأوّل الأوائل ، لأنه بَدْءُ الأشياء كلها ، وهو الذى ابتدعها . والحركةُ الأولى منه لا فيه ، والسكونُ منه ، وهو لا يحتاج إلى السكون – فإن كان البارى تعالى على ما وصفْنا فلا تطلبَنَّ البارىَ بعين دائرة . فإنما الشىءُ الأوّل فإنه بدْءُ الكون . وهو أعلى وأشرفُ من الجوهر ، لأنّه مُبدعُ الجوهر فإن كان هذا على ما وصفْنا قلنا : إنه ليست الأشياءُ كلها واقعةً تحت الحسّ ، وذلك أن هاهنا شيئاً لا يقع تحت الحسّ ألبتة . فإنه إن لم يكن على ما قلنا أُحلتَ من الإله تبارك وتعالى فيعرضُ له حينئذٍ ما يعرض للناس الحنينُ فى الأعياد

فإنهم يتهيمون من الطعام والشراب . فإذا رأوا أحداً يدخل فى هياكلهم دعوه فقالوا : هلمّ وتنعّم وعبّدْ لهذه الآلهة فتروقه الأصنامُ ، فينكرُ الإله الذى لا يرى ، ويصدق بالصنم الذى يرى . وإنما فعلوا ذلك لأنهم قالوا : ما لا يقعُ تحت الأعيان فليس بشىء ؛ وإنما الشىءُ الحقُّ الواقعُ تحت الأعيان . ويشبه من انتحلَ هذا القول من أصحاب الحسِّ الذين قد غَلَبَ عليهم النومُ جُلٌّ وهرهم فيصدِّقون بما رأوا قريباً من الرؤيا ويظنون أنها هى الأشياء الحقُّ .

وهذا الشوْقُ ، أعنى الشوْقَ الحسىَّ ، إنما هو شوْقٌ ثانٍ لا الشوْقُ الأوّلُ ، لأنه لا يراه المشتاقُ إلا بحُسْن المعاينة . فلذلك صار شوْقًا ثانيًا . فأما الشوقُ الأوّلُ الذى لا يقع تحت الحسِّ فهو أعلى وأشرفُ وأقْدمُ من كل شوقٍ ؛ وهو الخيْرُ الذى لا يُجِدُّه (١) السبيلُ إلى الصعود إلى شىء آخرَ هو أعلى منه ، فيشتاق إليه . فلذلك كلٌّ من نال هذا الخيْرَ الأوّلَ المحْضَ اكتفى به ووقف ولم يطالب شيئًا آخرَ منْ ورائه ، لأنه قد سلك إلى أفق الأشياء وغاية الغايات .

مقالة فى إحصاء العلوم (*)

كتاب أبى نصر محمد بن محمد الفارابى فى مراتب العلوم . قال :

قصْدُنا فى هذا الكتاب أن نحصى العلوم المشهورةَ علمًا علمًا ، ونعرفَ جُمَلَ ما يشتمل عليه كل واحدٍ منها وأجزاءَ كلِّ ما له منها أجزاء ، وجُمَل ما فى كل واحدٍ من أجزائه ؛ ونجعله فى خمسة فصول : الأولُ فى علم اللسان وأجزائه ؛ والثانى فى علم المنطق وأجزائه ؛ والثالثُ فى علوم التعاليم ، وهى العددُ والهندسةُ وعلم المناظر وعلم النجوم التعليمى وعلمُ الموسيقى ، وعلم الأثقال وعلمُ الحيل ؛ والرابعُ فى العلم الطبيعى وأجزائه ، وفى العلم الإلهىِّ وأجزائه، والخامسُ فى العلم المدنى وأجزائه ، وفى علم الفقه ، وعلم الكلام .

وينتفَعُ بما فى هذا الكتاب ، لأن الإنسانَ إذا أراد أن يتعلّمَ علمًا من هذه العلوم وينظرَ فيه علِمَ على ماذا يُقْدمُ وفى ماذا ينظرُ وأىَّ شىء سيفيدُ بنظره وما غَناءُ ذلك وأىَّ فضيلة تنال به ،

(١) أى لا يتهيأ لـه سبيلٍ مستو يدعوه إلى طلب شىء أعلى .

(*) حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عثمان أمين .

ليكون إقدامُه على ما يُقْدِمُ عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لاعلى عمىً وغرَر . وبهذا الكتاب يقْدِرُ الإنسانُ على أن يُقايسَ بين العلوم ، فيعْلمَ أيُّها أفضلُ ، وأيُّها أنْفَعُ ، وأيُّها أتْقَنُ وأوْثَقُ وأقْوى، وأيُّها أوْهَنُ وأوْهى وأضعف .

ويُنْتَفَعُ به أيضاً في تكشيف من ادّعى البصرَ بعلم من هذه العلوم ولم يكُنْ كذلك : فإنه إذا طولب بالإخبار عن جُمْلة ما فيه وبإحصاء أجزائه وبجمل ما في كلّ جُزْءٍ منه فلم يضطلعْ به تبيّن كذبُ دعواه وتكشّفَ تمويهه .

وبه يتبيّنُ أيضاً فيمن يحسنُ علماً منها هل يُحْسنُ جميعَهُ أوْ بعْضَ أجزائه وكم مقدارُ ما يُحْسِنُه .

ويَنْتَفِعُ به المتأدِّبُ المتفنّنُ الذي قَصْدُه أنْ يَشْدُوَ جُمَلَ ما في كُلّ علم ، ومن أحبَّ أنْ يتشبه بأهل العلم ليُظَنَّ به أنه منهم .

الفصل الأول

في علم اللسان

علمُ اللسان في الجملة ضربان :

أحدهما حفظُ الألفاظ الدالّة عند أُمّةٍ ما وعلْمُ ما يدُلُّ عليه شيءٌ منها ، والثاني علمُ قوانينِ تلك الألفاظ .

والقوانينُ في كلّ صناعة أقاويلُ كليّةٌ أي جامعةٌ ينحصرُ في كلّ واحدٍ منها أشياء كثيرةٌ مما تشتمل عليه تلك الصناعةُ وحْدَها حتى يأتي على جميع الأشياء التي هي موضوعةٌ للصناعة أو على أكثرها .

وتكون مُعَدَّةً إما ليُحاطَ بها ما هو من تلك الصناعة لئلا يدخلَ فيها ما ليس منها أو يَشذَّ عنها ما هو منها ؛ وإما ليُمْتحنَ بها ما لا يُؤْمَنُ أن يكون قد غلطَ فيه غالط ، وإما ليسْهُلَ بها تعلُّمُ ما تحتوي عليه الصناعةُ وحفظُها .

والأشياءُ المفردةُ الكثيرةُ إنما تصيرُ صنائعَ أو فى صنائعَ بأن تُحْصَرَ فى قوانينَ تحصل فى نفس الإنسانِ على ترتيب معلوم : وذلك مثلُ الكتابةِ والطبِّ والفلاحةِ والعمارةِ وغيرها من الصنائع عمليةً كانتْ أو نظرية .

وكلُّ قولٍ كان قانوناً فى صناعة ما فإنه مُعَدٌّ بما هو قانونٌ لأحَدِ ما ذكرنا أو لجميعه: فلذلك كان القدماءُ يُسمّونَ كل آلةٍ عُملت لامتحان ما عسى أن يكون الحسُّ قد غَلِطَ فيه ، من كمية جسْم أو كيفيته أو غيْر ذلك مثلِ الشاقول[١] والبركار[٢] والمسطرة والموازين ، قوانين ؛ ويسمون أيضاً جوامعَ الحساب وجداولَ النجوم قوانين ؛ والكتب المختصرة التى جُعلتْ تذاكيرَ الكتب الطويلة قوانين ، إذ كانت أشياء قليلةُ العدد تحصرُ أشياء كثيرةً ويكون تعلُّمنا لها وحفظنا إياها ، وهى قليلة العدد ، قد علمنا أشياء كثيرة العدد .

ونرجعُ الآنَ إلى ما كنا فيه فنقول : إن الألفاظ الدالّة فى لسان كُلِّ أمةٍ ضربان : مفردٌ ومركب . فالمفردُ كالبياض والسواد والإنسان والحيوان ؛ والمركبُ كقولنا : الإنسانُ حيوانٌ ، وعمرو أبيضُ . والمفردةُ منها ما هى ألقابُ أعيْان : مثل زيد وعمرو ؛ ومنها ما يدل على أجناس الأشياء وأنواعها : مثل الإنسان والفرس والحيوان والبياض والسواد . والمفردةُ الدالةُ على الأجناس والأنواع منها أسماء ومنها كلمٌ ومنها أدواتٌ . ويلحقُ الأسماءَ والكلمَ التذكيرُ والتأنيثُ والتوحيدُ والتثنيةُ والجمعُ ؛ ويلحق الكلمَ خاصةً الأزمانُ وهى الماضى والحاضرُ والمستقبل .

وعلمُ اللسان عند كلِّ أمةٍ ينقسم سبعة أجزاء عظمى :

علمُ الألفاظ المفردة ، وعلمُ الألفاظ المركبة ، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة وقوانين الألفاظ عندما تركَّبُ ، وقوانين تصحيح الكتابة ، وقوانين تصحيح القراءة ، وقوانين الأشعار

---

(١) الشاقولُ : عصاً فى رأسها زُجٌ يستعملها الزراع فى قياس الأرض أو ضبط حدودها ومثله شاقول البنائين وغيرهم والجمع شواقيل .

(٢) البركار ويقال له أيضا فرْجار:آلة ترسم بها الدوائر والأقواس .

فعلمُ الألفاظ المفردة الدالَّة يحتوى على علم ما تدل عليه لفظةٌ لفظةٌ من الألفاظ المفردة الدالَّة على أجناس الأشياء وأنواعها وحفظها وروايتها كلها ، الخاصَّ بذلك اللسان والدخيل فيه والغريب عنه والمشهور عند جميعهم . وعلمُ الألفاظ المركبة هو علم الأقاويل التى تُصادَفُ مركبةً عند تلك الأمة ، وهى التى صنعها خطباؤهم وشعراؤهم ونطق بها بُلَغاؤهم وفُصَحاؤهم المشهورون عندهم ، وروايتُها وحفظُها ، طِوالاً كانتْ أو قصاراً ، موزونة كانت أو غيرَ موزونة .

وعلمُ قوانين الألفاظِ المفردة يفحص أولاً فى الحروف المعجمة عن عددها ومن أين يخرجُ كلُّ واحد منها فى آلات التصويت ؛ وعن المصَوِّت منها ، وعما يتركبُ منها فى ذلك اللسان وعمّا لا يتركبُ وعن أقلِّ ما يتركب منها حتى يحدثَ عنها لفظةٌ دالّةٌ وكم أكثر ما يتركبُ ؛ وعن الحروف الثابتة التى لا تتبدَّل فى بنية اللفظ عند لواحق الألفاظ من تثنية وجمع وتذكير وتأنيث واشتقاق وغيْرَ ذلك ؛ وعن الحروف التى بها يكون تغايرُ الألفاظ عند اللواحق ، وعن الحروف التى تندغمُ عندما تتلاقى .

ثم من بعد هذا يُعطى قوانين أمثلة الألفاظ المفردة ويميز بين المثالات الأُوَل التى ليست هى مشتقةً من شىء وبين ما هى مشتقةٌ ، ويُعطى أمثلة أصناف الألفاظ المشتقة ، ويميز فى المثالات الأُول بين ما هى منها مصادر وهى التى منها يُعْمَلُ الكلمُ وبيْن ما ليس منها بمصدر ، وكيف تُغيُّر المصادرُ حتى تصيرَ كلِماً ويعطى أصناف أمثلة الكلم وكيف يُعْدَلُ بالكلم حتى تصير أمراً ونهيًا وما جانس ذلك فى أصنافِ كميتها : وهى الثلاثيةُ والرباعيةُ وما هو أكثرُ منها ، والمضاعَفُ منها وغيْرُ المضاعَفِ وفى كيفيّتها : وهى الصحيحُ منها والمعتَلُّ ، ويعرفُ كيف يكون ذلك عند التذكير والتأنيث والتثنية والجمع ، وفى وجوه الكلم وفى أزمانها جميعًا ، والوجوه هى أنا وأنت وذاك وهو ، ثم يفحص عن الألفاظ التى عَسُرَ النطقُ بها أوَّلَ ما وُضِعَتْ فُغيِّرتْ حتى سَهُلَ النطقُ بها .

وعلمُ قوانينَ الألفاظ عندما تركبُ ضربان : أحدهما يُعْطى قوانينَ أطرافِ الأسماء والكلم عندما تُركَّبُ أوْ تُرتَّبُ والثانى يُعْطى قوانينَ فى أحْوال التركيب والترتيب نفْسه كيف هى فى ذلك اللسان ، وعلمُ قوانين الأطرافِ المخصوصِ بعلم النحو ، فهو يعرف أن الأطرافَ

إنما تكون أولاً للأسماء ثم للكلم وأنّ أطرافَ الأسماء منها ما يكون فى أوائلها مثل ألف لام التعريف العربية أو ما قام مقامَها فى سائر الألسنة ؛ ومنها ما يكون فى نهاياتها ، وهى الأطرافُ الأخيرةُ وتلك التى تسمّى حروفَ الإعراب . وإن الكلم ليس لها أطراف أولُ وإنما لها أطرافٌ أخيرةٌ ؛ والأطرافُ الأخيرة للأسماء والكلم هى فى العربية مثلُ التنوينات الثلاثةُ والحركاتُ الثلاثُ والجزمُ وشىءٌ آخرُ إن كان يُستعمل فى اللسان العربى طرفًا ؛ ويعرف أن من الألفاظ ما لا ينصرف فى الأطراف كلها ، بلْ إنما هو مبنىٌ على طرف واحدٍ فقط فى جميع الأحوالِ التى ينصرف فيها غيرُه من الألفاظ ، ومنها ما ينصرف فى بعضها دونَ بعْضٍ ، ومنها ما ينصرف فى جميعها ؛ ويحصى الأطرافَ كلها ؛ ويميز أطرافَ الأسماءِ من أطرافِ الكلم ؛ ويُحْصى جميعَ الأحوالِ التى تتصرف فيها الأسماءُ المنصرفةُ وجميعَ الأحوال التى ينصرف فِيها الكلم ؛ ثم يعرفُ فى أىِّ حالٍ يلحق كلَّ واحدٍ من الأسماء والكلم أى طرف ؛ فيأتى أولاً على إحصاء حالٍ حالٍ من أحوال الأسماء الموحدة المنصرفة التى يلحقها فى كل حالٍ طرف ما من أطراف الأسماء ثم يُعطى مثْلَ ذلك فى الأسماء المثناة والمجموعة إلى أن يستوْعبَ الأحوالَ التى يتبدّل فيها على الكلم أطرافُها التى جُعلتْ لها ؛ ثم يعرف الأسماءَ التى تتصرف فى بعض الأطراف وفى أيّها تنصرفُ وفى أيّها لا تتصرف ، ثم يعرف الأسماءَ التى كلُّ واحدٍ منها مبنىٌ على طرفٍ واحدٍ فقط وأيها مبنىٌ على أىِّ طرف ....

وأما الضرْبُ الذى يُعطى قوانينَ التركيب نفْسه فإنه يبيّن أولاً كيف تتركّبُ الألفاظُ وتترتبُ فى ذلك اللسانِ وعلى كم ضرْب حتى تصير أقاويلَ . ثم يبيّن أيها هو التركيب والترتيب الأفصحُ فى ذلك اللسان .

وعلمُ قوانين الكتابة يميز أولاً ما لا يكتب فى السطور من حروفهم وما يكتب ؛ ثم يبيّن فيما يكتب فى السطور كيف سبيلُه أنْ يُكْتَبَ .

وعلمُ قوانين تصحيح القراءة يعرّفُ مواضع النقط والعلامات التى تُجْعَلُ عندهم لما لا يُكْتَبُ فى السطور من حروفهم وما يكتب والعلامات التى تميز بين الحروف المشتركة ، والعلامات التى تجعل للحروف التى إذا تلاقتْ اندغم بعضُها فى بعض أو تنحّى بعضُها لبعض والعلامات التى

تجعل عندهم لمقاطع الأقاويل ، وتميز علامات المقاطع الصغرى من علامات المقاطع الوسطى والكبرى ، فتبين علامات رداءة الألفاظ والأقاويل المرتبطة والتى ينقضُ بعضُها بعضاً وخاصة إذا تباعد ما بينها .

وعلمُ الأشعارِ على الجهة التى تُشاكلُ علمَ اللسانِ ثلاثةُ أجزاء :

أحدُها إحصاء الأوزان المستعملة فى أشعارهم ، بسيطة كانت الأوزانُ أو مركبة ، ثم إحصاء تركيبات الحروفِ المعجمة التى تحصلُ عن صنفٍ صنفٍ فيها ووزْنٍ وزنٍ من أوزانهم وهى التى تعرف عند العرب بالأسباب والأوتاد وعند اليونانيين بالمقاطع والأرجُل ؛ ثم الفحص عن مقادير الأبيات والمصاريع ، ومن كم حرْف ومقطع يتم بيت بيت فى وزْنٍ وزْنٍ . ثم يميز الأوزان الوافية من الناقصة وأىُّ الأوزان أبهى وأحْسَنُ وألَذُّ مسموعًا . والجزء الثانى النظرُ فى نهايات الأبيات فى وزن وزن أيُّما منها عندهم على وجه واحد ، وأيما منها على وجوه كثيرة . ومن هذه أيها هو التامُّ وأيها الزائدُ وأيُّها الناقص ، وأى النهايات يكون بحرف واحدٍ بعينه محفوظًا فى الشعر كُلِّه ، وأيها منها يكون بحروف أكثر من واحد محفوظة فى القصيدة ، وكم أكثر الحروف التى تكون نهايات الأبيات عندهم ؛ ثم نعرف التى هى بحروف كثيرة هل يجوز أن يُبْدلَ مكان بعضها حروفٌ أُخَرُ مساويةٌ لها فى زمان النطق بها أم لا ، وأيها منها يجوز أن يُبْدلَ بحرفٍ مساوٍ له فى الزمان .

والجزء الثالثُ يفحَصُ عما يصلُحُ أن يُسْتعَملَ فى الأشعار من الألفاظ عندهم مما ليس يَصْلُح أن يستعملَ فى القول الذى ليس بشعر .

فهذه جمل ما فى كل واحد من أجزاء علم اللسان .

من كتاب : الحروف

١ - اللغة والصوت :

العوامّ والجمهور هم أسبق فى الزمان من الخواصّ . والمعارف المشتركة التى هى بادئ رأى الجميع هى أسبق فى الزمان من الصنائع العمليّة ومن المعارف التى تخصّ صناعة صناعة منها ، وهذه جميعا هى المعارف العامية . وأول ما يحدثون ويكونون هؤلاء . فإنّهم يكونون فى مسكن وبلد محدود ، ويُفطَرون على صوَر وخِلَق فى أبدانهم محدودة ، وتكون أبدانهم على كيفيّة وأمزجة محدودة ، وتكون أنفسهم معدّة ومسدّدة نحو معارف وتصوّرات وتخيّلات بمقادير محدودة فى الكمّيّة والكيفيّة - فتكون هذه أسهل عليهم من غيرها - ، وأن تنفعل انفعالات على أنحاء ومقادير محدودة الكيفيّة والكمّيّة- وتكون هذه أسهل عليها - ، وتكون أعضاؤهم معدّة لأن تكون حركتها إلى جهات ما وعلى أنحاء أسهل عليها من حركتها إلى جهات أخر وعلى أنحاء أخر .

(١١٥) والإنسان إذا خلا من أوّل ما يُفطَر ينهض ويتحرّك نحو الشئ الذى تكون حركته إليه أسهل عليه بالفطرة وعلى النوع الذى تكون به حركته أسهل عليه، فتنهض نفسه إلى أن يعلم أو يفكّر أو يتصوّر أو يتخيّل أو يتعقّل كلّ ما كان استعداده له بالفطرة أشدّ وأكثر - فإنّ هذا هو الأسهل عليه - ويحرّك جسمه وأعضاءه إلى حيث تحرّكه وعلى النوع الذى استعدادُه بالفطرة له أشدّ وأكثر وأكمل - فإنّ هذا أيضا هو الأسهل عليه . وأوّل ما يفعل شيئا من ذلك يفعل بقوّة فيه بالفطرة وبملكه طبيعية ، لا باعتياد له سابق قبل ذلك ولا بصناعة . وإذا كرّر فعل شئ من نوع واحد مرارا كثيرة حدث له ملكة اعتياديّة ، إمّا خلقيّة أو صناعيّة .

(١١٦) وإذا احتاج أن يعرّف غيره ما فى ضميره أو مقصوده بضميره استعمل الإشارة أوّلا فى الدلالة على ما كان يريد ممّن يلتمس تفهيمه إذا كان مَن يلتمس تفهيمه بحيث يبصر إشارته ، ثمّ استعمل بعد ذلك التصويت . وأوّل التصويتات النداء - فإنه بهذا ينتبه من يلتمس تفهيمه أنّه هو المقصود بالتفهيم لا سواه - وذلك حين ما يقتصر فى الدلالة على ما فى ضميره بالإشارة إلى

المحسوسات . ثمّ من بعد ذلك يستعمل تصويتات مختلفة يدلّ بواحد واحد منها على واحد واحد مما يدلّ عليه بالإشارة إليه وإلى محسوساته ، فيجعل لكلّ مشار إليه محدود تصويتا ما محدودا لا يستعمل ذلك التصويت في غيره ، وكلّ واحد من كلّ واحد كذلك .

(١١٧) وظاهر أنّ تلك التصويتات إنّما تكون من القرع بهواء النفَس . بجزء وأجزاء من حلقه أو بشئ من أجزاء ما فيه وباطن أنفه أو شفتيه ، فإنّ هذه هي الأعضاء المقروعة بهواء النفَس. والقارع أوّلا هي القوّة التي تسرّب هواء النفَس من الرئة وتجويف الحلق أوّلا فأوّلا إلى طرف الحلق الذي يلي الفم والأنف وإلى ما بين الشفتين ، ثمّ اللسان يتلقّى ذلك الهواء فيضغطه إلى جزء جزء من أجزاء باطن الفم وإلى جزء جزء من أجزاء أصول الأسنان وإلى الأسنان ، فيقرع به ذلك الجزءَ فيحدث من كلّ جزء يضغطه اللسان عليه ويقرعه به تصويت محدود ، وينقله اللسان بالهواء من جزء إلى جزء من أجزاء أصل الفم فتحدث تصويتات متوالية كثيرة محدودة .

(١١٨) وظاهر أنّ اللسان إنّما يتحرّك أوّلا إلى الجزء الذي حركته إليه أسهل . فالذين هم في مسكن واحد وعلى خِلَق في أعضائهم متقاربة ، تكون ألسنتهم مفطورة على أن تكون أنواع حركاتها إلى أجزاء (أجزاء) من داخل الفم أنواعا واحدة بأعيانها ، وتكون تلك أسهل عليها من حركاتها إلى أجزاء أجزاء (أخر) . ويكون أهل مسكن وبلد آخر ، إذا كانت أعضاؤهم على خِلَق وأمزجة مخالفة لخِلَق أعضاء أولئك ، مفطورين على أن تكون حركة ألسنتهم إلى أجزاء أجزاء من داخل الفم أسهل عليهم من حركتها إلى الأجزاء التي كانت ألسنة أهل المسكن الآخر (تتحرّك) إليها ، فتخالف حينئذ التصويتات التي يجعلونها علامات يدلّ بها بعضهم بعضا على ما في ضميره ممّا كان يُشير إليه وإلى محسوسه / أوّلا . ويكون ذلك هو السبب الأوّل في اختلاف ألسنة الأمم . فإنّ تلك التصويتات الأول هي الحروف المعجمة .

(١١٩) ولأنّ هذه الحروف إذا جعلوها علامات أوّلا كانت محدودة العدد ، لم تف بالدلالة على جميع ما يتّفق أن يكون في ضمائرهم . فيضطرّون إلى تركيب بعضها إلى بعض بموالاة حرف حرف ، فتحصل في ألفاظ من حرفين (أو حروف) ، فيستعملونها علامات أيضا لأشياء

أخر . فتكون الحروف والألفاظ الأول علامات لمحسوسات يمكن أن يشار إليها ولمعقولات تستند إلى محسوسات يمكن أن يشار إليها ، فإنّ كلّ معقول كلّيّ له أشخاص غير أشخاص المعقول الآخر . فتحدث تصويتات كثيرة مختلفة ، بعضها علامات لمحسوسات - وهي ألقاب - وبعضها دالّة على معقولات كليّة لها أشخاص محسوسة . وإنّما يُفهَم من تصويت تصويت أنّه دالّ على معقول (معقول) متى كان تردّد تصويت واحد بعينه على شخص مشار إليه وعلى كلّ ما يشابه (في) ذلك المعقول . ثمّ يُستعمَل أيضا تصويت آخر على شخص تحت معقول ما (آخر) وعلى كلّ (ما) يشابه في ذلك المعقول .

٢ - أصل لغة الأمّة واكتمالها :

(١٢٠) فهكذا تحدث أوّلا حروف تلك الأمّة وألفاظها الكائنة عن تلك الحروف . ويكون ذلك أوّلا ممّن اتّفق منهم . فيتّفق أن يستعمل الواحد منهم تصويتا أو لفظة في الدلالة على شيء ما عندما يخاطب غيره فيحفظ السامع ذلك ، فيستعمل السامع ذلك بعينه عندما يخاطب المنشئ الأوّل لتلك اللفظة ، ويكون السامع الأوّل قد احتذى بذلك فيقع به ، فيكونان قد اصطلحا وتواطئا على تلك اللفظة ، فيخاطبان بها غيرهما إلى أن تشيع عند جماعة .

ثمّ كلّما حدث في ضمير إنسان منهم شيء احتاج أن يُفهمه غيره ممّن يجاوره ، اخترع تصويتا فدلّ صاحبَه عليه وسمعه منه فيحفظ كلّ واحد منهما ذلك وجعلاه تصويتا دالاً على ذلك الشيء . ولا يزال يُحدث التصويتات واحد بعد آخر ممّن اتّفق من أهل ذلك البلد ، إلى أن يُحدث مَن يدبّر أمرهم ويضع بالإحداث ما يحتاجون إليه من التصويتات للأمور الباقية التي لم يتّفق لها عندهم تصويتات دالّة عليها . فيكون هو واضع لسان تلك الأمّة . فلا يزال منذ أوّل ذلك يدبّر أمرهم إلى أن توضع الألفاظ لكلّ ما يحتاجون إليه في ضروريّة أمرهم .

(١٢١) ويكون ذلك أوّلا لما عرفوه ببادئ (الرأي) المشترك وما يُحَس من الأمور التي هي محسوسات مشتركة من الأمور النظريّة مثل السماء والكواكب والأرض و (ما) فيها ، ثمّ لما استنبطوه عنه ، ثمّ من بعد ذلك للأفعال الكائنة عن قواهم التي هي لهم بالفطرة ، ثمّ للملَكات

الحاصلة عن اعتياد تلك الأفعال من أخلاق أو صنائع وللأفعال الكائنة عنها بعد أن حصلت ملكات عن اعتيادهم (ثمّ) من بعد ذلك لما تحصل لهم معرفته بالتجربة أوّلا أوّلا ولما يُستنبَط عمّا حصلت معرفته بالتجربة من الأمور المشتركة لهم أجمعين ، ثمّ من بعد ذلك للأشياء التى تخصّ صناعة (صناعة) من الصنائع العمليّة من الآلات وغيرها ، ثمّ لما يُستخرَج ويوجد بصناعة صناعة ، إلى أن يؤتى على ما تحتاج إليه تلك الأمّة .

(١٢٢) فإن كانت فِطَر تلك الأمّة على اعتدال وكانت أمّة مائلة إلى الذكاء والعلم طلبوا بفطَرهم من غير أن يتعمّدوا فى تلك الألفاظ التى تُجعَل دالّة على المعانى محاكاة المعانى وأن يجعلوها أقرب شبها بالمعانى والموجود ، ونهضت أنفسهم بفطَرها لأن تتحرّى فى تلك الألفاظ أن تنتظم بحسب انتظام المعانى على أكثر ما تتأتّى لها فى الألفاظ ، فيُجتهَد فى أن تُقرَّب أحوالها الشبه من أحوال المعانى . فإن لم يفعل ذلك مَن اتّفق منهم فعل ذلك مدبّرو أمورهم فى ألفاظهم التى يشرّعونها .

(١٢٣) فيبين منذ أوّل الأمر أنّ ههنا محسوسات مدرَكة بالحسّ ، وأنّ فيها أشياء متشابهة وأشياء متباينة ، وأنّ المحسوسات المتشابهة إنّما تتشابه فى معنى واحد معقول تشترك فيه ، وذلك يكون مشتركا لجميع ما تشابه ، ويُعقَل فى كلّ واحد منها ما يُعقَل فى الآخر ، ويسمّى هذا المعقول المحمول على كثير « الكلّىّ » و « المعنى العامّ » . وأمّا المحسوس نفسه ، فكلّ معنى كان واحدا ولم يكن صفة مشتركة لأشياء كثيرة ولم يكن يشابهه شئ أصلا ، فيسمّى الأشخاص والأعيان؛ والكلّيّات كلّها فتسمّى الأجناس والأنواع . فالألفاظ إذن بعضها ألفاظ دالّة على أجناس وأنواع وبالجملة الكلّيّات ، ومنها دالّة على الأعيان والأشخاص . والمعانى تتفاضل فى العموم والخصوص . فإذا (طلبوا) تشبيه الألفاظ بالمعانى جعلوا العبارة عن معنى واحد يعمّ أشياء ما كثيرة بلفظ واحد بعينه يعمّ تلك الأشياء الكثيرة ، وتكون للمعانى المتفاضلة فى العموم والخصوص ألفاظ متفاضلة فى العموم والخصوص ، وللمعانى المتباينة ألفاظ متباينة . وكما أنّ فى المعانى معانى تبقى واحدة بعينها تتبدّل عليها أعراض تتعاقب عليها ، كذلك تُجعَل فى الألفاظ

حروف راتبة وحروف كأنّها أعراض متبـدّلة على لفظ واحد بعينه ، كلّ حرف يتبدّل لعرض يتبدّل . فإذا كان المعنى الواحد يثبت وتتبدّل عليه أعراض متعاقبة ، جُعلت العبارة بلفظ واحد يثبت ويتبدّل عليها حرف حرف ، وكلّ حرف منها دالّ على تغيير تغيير . وإذا كانت المعانى متشابهة بعرض أو حال ما تشترك فيها ، جُعلت العبارة عنها بألفاظ متشابهة الأشكال ومتشابهة بالأواخر والأوائل ، وجُعلت أواخرها كلها (أو) أوائلها حـرفا واحدا فجُعل دالاً على ذلك العرض . وهكذا يُطلَب النظام فى الألفاظ تحرّيا لأن تكون العبارة عن معان بألفاظ شبيهة بتلك المعـانى .

(١٢٤) ويبلغ من الاجتهـاد فى طلب النظام وشبه الألفاظ بالمعانى إلى أن تُجعَل اللفظة الواحدة دالّة على معان متباينة الذوات متى تشابهت بشئ ما غير ذلك وعلى أدائها وإن كان بعيدا عنها جدّا ، فتحدث الألفاظ المشكّكة .

(١٢٥) ثمّ يبين لنا شبه الألفاظ بالمعانى ، ونحاكى بالألفاظ المعانى التى ليست تكون بها العبارة ، فيُطلَب أن يُجعَل فى الألفاظ ألفاظ (تعمّ) أشياء كثيرة من حيث هى ألفاظ ، كما أنّ (فى) المعانى معانى تعمّ الأشياء كثيرة المعانى . فتحدث الألفاظ المشتركة ، فتكون هذه الألفاظ المشتركة من غير أن يدلّ كل واحد منها على معنى مشترك . وكذلك يُجعَل فى الألفاظ ألفاظ متباينة من حيث هى ألفاظ فقط ، كما أنّ فى المعانى معانيَ متباينة . فتحصل ألفاظ مترادفة .

(١٢٦) ويُجرى ذلك بعينه فى تركيب الألفاظ ، فيحصل تركيب الألفاظ شبيها بتركيب المعانى المركّبة التى تدلّ عليها تلك الألفاظ المركّبة ، ويُجعَل فى الألفاظ المركّبة أشياء ترتبط (بها) الألفاظ بعضها إلى بعض متى كانت الألفاظ دالّة على معان مركّبة ترتبط بعضها ببعض . ويُتحرّى أن يُجعَل ترتيب الألفاظ مساويا لترتيب المعانى فى النفس .

(١٢٧) فإذا استقرّت الألفاظ على المعانى التى جُعلت علامات لها فصار واحد واحد لواحد واحد وكثير لواحد أو واحد لكثير ، وصارت راتبة على التى جُعلت دالّة على ذواتها ، صار الناس بعد ذلك إلى النسخ والتجوّز فى العبارة بالألفاظ ، فعُبّر بالمعنى بغير اسمه الذى جُعل له أوّلا

وجُعل الاسم الذى كان لمعنى ما راتبا له دالاً على ذاته عبارة عن شئ آخر متى كان له به تعلق ولو (كان) يسيرا إمّا لشبه بعيد وإمّا لغير ذلك ، من غير أن يُجعل ذلك راتبا للثانى دالاً على ذاته. فيحدث حينئذ الاستعارات والمجازات والتجرّد بلفظ معنى ما عن التصريح بلفظ المعنى الذى يتلوه متى كان الثانى يُفهَم (من) الأوّل ، وبألفاظ معان كثيرة يصرّح بألفاظها عن التصريح بألفاظ معان أخر إذا كان سبيلها أن تُقرَن بالمعانى الأول متى كانت تُفهَم الأخيرة مع فهم الأولى، والتوسّع فى العبارة بتكثير الألفاظ (و) تبديل بعضها ببعض وترتيبها وتحسينها . فيبتدئ حين ذلك فى أن تحدث الخطبيّة أوّلا ثم الشعريّة قليلا قليلا .

(١٢٨) فينشأ مَن نشأ فيهم على اعتيادهم النطق بحروفهم وألفاظهم الكائنة عنها وأقاويلهم المؤلّفة عن ألفاظهم من حيث لا يتعدّون اعتيادهم ومن غير أن يُنطَق عن شىء (إلّا) ممّا تعوّدوا استعمالها . ويمكّن ذلك اعتيادهم لها فى أنفسهم وعلى ألسنتهم حتّى لا يعرفوا غيرها ، حتّى تحفوا ألسنتهم عن كلّ لفظ سواها وعن كلّ تشكيل لتلك الألفاظ غير التشكيل الذى تمكّن فيهم وعن كلّ ترتيب للأقاويل سوى ما اعتادوه . وهذه التى تمكّنت على ألسنتهم وفى أنفسهم بالعادة على ما أخذوه ممّن سلف منهم ، وأولئك أيضا عن من سلف ، وأولئك أيضا عن مَن وضعها لهم أوّلا ، بإكمال التى وضعها لهم أولئك (فهذا) هو الفصيح والصواب من ألفاظهم ، وتلك الألفاظ هى لغة تلك الأمّة وما خالف ذلك فهو الأعجم والخطأ من ألفاظهم .

٣ - اللغة والأدب

(١٢٩) وبيّن أنّ المعانى المعقولة عند هؤلاء هى كلّها خطبيّة ، كانت كلّها ببادئ الرأى . والمقدّمات عندهم وألفاظهم وأقاويلهم كلّها أوّلا خطبيّة . فالخطبيّة هى السابقة أوّلا . وعلى طول الزمان تحدثُ حوادث تُحْوجهم فيها إلى خُطَب وأجزاء خُطَب . ولا تزال تنشأ قليلا قليلا إلى أن تحدث فيهم أوّلا من الصنائع القياسيّة صناعة الخطابة . ويبتدئ مع نشئها أو بعد نشئها استعمال مثالات المعانى وخيالاتها مفهمة لها أو بدلا منها ، فتحدث المعانى الشعريّة . ولا يزال ينمو ذلك قليلا قليلا إلى أن يحدث الشعر قليلا قليلا فتحصل فيهم من الصنائع القياسيّة صناعة الشعر لما فى فطرة الإنسان من تحرّى الترتيب والنظام فى كلّ شئ . فإنّ أوزان الألفاظ هى لها

رتبة حسن تأليف ونظام بالإضافة إلى زمان النطق . فتحصل أيضا على طول الزمان صناعة الشعر . فتحصل فيهم من الصنائع القياسيّة هاتان (الصناعتان – و) هما العامّتان – من الصنائع القياسيّة .

(١٣٠) فيشتغلون أيضا فى الخُطَب والأشعار حتّى يقتصّوا بهما الأخبار عن الأمور السابقة والحاضرة التى يحتاجون إليها . فيحدث فيهم رواة الخُطَب ورواة الأشعار وحفّاظ الأخبار التى اقتُصّت بها . فيكون هؤلاء هم فصحاء تلك الأمّة وبلغاءَهم ، ويكونون هم حكماء تلك الأمّة أوّلا ومدبّريهم والمرجوع إليهم فى لسان تلك الأمّة . وهؤلاء أيضا هم الذين يركّبون لتلك الأمّة ألفاظا كانت غير مركّبة قبل ذلك ، ويجعلونها مرادفة للألفاظ المشهورة ويُمعنون فى ذلك ويُكثرون منها، فتحصل ألفاظ غريبة يتعارفها هؤلاء ويتعلّمها بعضهم عن بعض ويأخذها غابرهم عن سالفهم . وأيضا فإنّهم مع ذلك يعمدون إلى الأشياء التى لم تكن اتّفقت لها تسمية من الأمور الداخلة تحت جنس أو نوع . فربّما شعروا بأعراض فيصيّرون لها أسماء . وكذلك الأشياء التي لم يكن يُحتاج إليها ضرورة فلم يكن اتّفق لها أسماء لأجل ذلك ، فإنّهم يركّبون لها أسماء/ ، والباقون من تلك الأمّة سواهم لا يعرفون تلك الأسماء ، فيكون جميع ذلك من الغريب . فهؤلاء هم الذين يتأمّلون ألفاظ هذه الأمّة ويُصلحون المختلّ منها . وينظرون إلى ما كان النطق به عسيرا فى أوّل ما وُضع فيسهّلونه ؛ وإلى ما كان بشع المسموع فيجعلونه لذيذ المسموع ؛ وإلى ما عرض فيه عسر النطق عند التركيبات الذى لم يكن الأوّلون يشعرون به ولا عرض فى زمانهم فيعرفونه أو يشعرون فيه بشاعة المسموع ، فيحتالون فى الأمرين جميعا حتّى يسهّلوا ذلك ويجعلوا هذا لذيذا فى السمع . وينظرون إلى أصناف التركيبات الممكنة فى ألفاظهم والترتيبات فيها . وينبّهون عليها ، ويتركون الباقية فلا يستعملونها إلّا عند ضرورة تدعو إلى ذلك . فتصير عندها ألفاظ تلك الأمّة أفصح ممّا كانت ، فتتكمّل عند ذلك لغتهم ولسانهم ، ثمّ يأخذ الناشئ هذه الأشياء عن السالف على الأحوال التى سمعها من السالف ، وينشؤ عليها ويتعوّدها مع مَن نشأه ، إلى أن تتمكّن فيه تمكّنا يحفو به أن يكون ناطقا لغير الأفصح من ألفاظهم . ويحفظ الغابر منهم ما قد عمل به الماضى من الخُطَب والأشعار وما فيها من الأخبار والآداب .

(١٣١) ولا يزالون يتداولون الحفظ إلى أن يكثر عليهم ما يلتمسون حفظه ويعسر فيُحْوِجهم ذلك إلى الفكر فيما يسهّلونه به على أنفسهم فتُستنبَط الكتابة . وتكون فى أوّل أمرها مختلطة إلى أن تصلح قليلا قليلا على طول الزمان ويحاكى بها الألفاظ وتُشبَّه بها وتُقرَّب منها أكثر ما يمكن، على ما فعلوا قديما بالألفاظ بأن قرّبوها فى الشبه من المعانى ما أمكنهم من التقريب . فيدوّنون بها فى الكتب ما عسر حفظه عليهم وما لا يؤمَن بأن يُنسى على طول الزمان وما يلتمسون إبقاءها على مَن بعدهم وما يلتمسون تعليمها وتفهيمها مَن هو ناء عنهم فى بلد أو مسكن آخر .

(١٣٢) ثمّ من بعد ذلك يُري أن يُحدَث صناعة علم اللسان قليلا قليلا بأن يتشوّق إلى أن يحفظ ألفاظهم المفردة الدالّة بعد أن يحفظ الأشعار والخُطَب والأقاويل المركّبة ، فيتحرّىٰ أن يفردها بعد التركيب ، أو أراد التقاطها بالسماع من جماعتهم ومن / المشهورين باستعمال الأفصح من ألفاظهم وفى مخاطباته كلّها وممّن قد عنى بحفظ خطَبِهم وأشعارهم وأخبارهم أو ممّن سمع منهم، فيسمعها من واحد واحد منهم فى زمان طويل ، ويكتب ما يسمعه منهم ويحفظه .

(١٣٣) وقد يجب لذلك أن يعلم مَن الذين ينبغى أن يؤخذ عنهم لسان تلك الأمّة . فنقول إنّه ينبغى أن يؤخذ عن الذين تمكّنت عادتهم لهم على طول الزمان فى ألسنتهم وأنفسهم تمكنًا يحصنُون به عن تخيّل حروف سوى حروفهم والنطق بها، وعن تحصيل ألفاظ سوى المركّبة عن حروفهم وعن النطق بها ممّن لم يسمع غير لسانهم ولغتهم أو ممّن سمعها وجفا ذهنه عن تخيّلها ولسانه عن النطق بها . وأمّا مَن كان لسانه مطاوعا على النطق بأىّ حرف شاء ممّا هو خارج عن حروفهم وبأىّ لفظ شاء من الألفاظ المركّبة عن حروف غير حروفهم وبأىّ قول شاء من الأقاويل المركّبة من ألفاظ سوى ألفاظهم فإنّه لا يؤمَن أن يجرى على لسانه ما هو خارج عن عاداتهم الممكّنة الأولى فيعوِّد ما قد جرى على لسانه فتصير عبارته خارجة عن عبارة الأمّة ويكون خطأ ولحنا وغير فصيح. فإن كان مع ذلك قد خالط غيرهم من الأمم وسمع ألسنتهم أو نطق بها كان الخطأ منه أقرب وأحرى ، ولم يؤمَن بما يوجد جاريا فى عادته أنّه لغير تلك الأمّة التى هو منهم .

وكذلك الذين كانوا يحصّنون عن النطق وعن تحصيل حروف سائر الأمم وألفاظهم – إذ كانوا يصنّعون عما لم يكن تعودوه من مخالفة أشكال ألفاظهم وإعرابها – إذا كثرت مخالطتهم لسائر الأمم وسما بحروفهم وألفاظهم ، ولم يؤمَن عليه أن تتغيّر مادته الأولى ويتمكّن فيه بسمعه منهم فيصير بحيث لا يوثق بما يُسمَع منه .

(١٣٤) ولمّا كان سكان البرّية في بيوت الشَعر أو الصوف والخيام والأخرى من كلّ أمّة أجفى وأبعد من أن يتركوا ما قد تمكّن بالعادة فيهم وأحرى يحصّنوا نفوسهم عن تخيّل حروف سائر الأمم وألفاظهم وألسنتهم عن النطق بها وأحرى أن لا يخالطهم غيرهم من الأمم للتوحّش والجفاء الذى فيهم ، وكان سكّان والقرى وبيوت المدر منهم أطبع وكانت نفوسهم أشدّ انقيادا لتفهّم ما لم يتعود ولتصوّره وتخيّله وألسنتهم للنطق / بما لم يتعوّدوه ، كان الأفضل أن تؤخذ لغة الأمّة عن سكّان البرارى منهم متى كانت الأمم فيهم هاتان الطائفتان ويُتحرّى منهم من كان فى أوسط بلادهم . فإنّ مَن كان فى الأطم منهم أحرى أن يخالطوا مجاوريهم من الأمم فتختلط لغاتهم بلغات أولئك و أن يتخيّلوا عجمة مَن يجاورهم . فإنّهم إذا عاملوهم احتاج أن أولئك يتكلّموا بلغة غريبة عن ألسنتهم ، فلا تطاوعهم على كثير من حروف هؤلاء فيلتجئوا إلى أن يعبّروا بما يتأتّى لهم ويتركوا ما يعسر عليهم . فتكون ألفاظهم عسيرة قبيحة وتوجد فيها لكنة وعجمة مأخوذة من لغات أولئك . كثر سماع هؤلاء ممّن جاورهم من هذه الأمم للخطأ وتعوّدوا أن يفهموه على أن من الصواب لم يؤمَن تغيّر عادتهم ، فلذلك ليس ينبغى أن تؤخذ عنهم اللغة ، ومَن لم يكن فيهم سكّان البرارى أُخذت عن أوسطهم مسكنا .

(١٣٥)وأنت تتبيّن ذلك متى تأمّلت أمر العرب فى هذه الأشياء . فإنّ فيهم سكّان البرارى وفيهم سكّان الأمصار . وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين . وكان الذى تولّى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق . فتعلّموا لغتهم والفصيح منها من سكّان البرارى منهم دون أهل الحضر ، ثم من سكّان البرارى مَن كان فى أوسط بلادهم من

أشدّهم توحّشا وجفاء وأبعدهم إذعانا وانقيادا ، وهم قَيس وتَميم وأسَد وطَيّ ثمّ هُذَيل ، فإنّ هؤلاء هم مُعظَم مَن نُقل عنه لسان العرب . والباقون فلم يؤخذ عنهم شئ لأنّهم كانوا فى أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيّين وأهل الشام وأهل مصر .

(١٣٦) فتؤخذ ألفاظهم المفردة أوّلا إلى أن يؤتى عليها ، الغريب والمشهور منها ، فيُحفَظ أو يُكتَب ، ثمّ ألفاظهم المركّبة كلّها من الأشعار والخُطَب . ثمّ من بعد ذلك يحدث للناظر فيها تأمّل ما كان منها متشابها فى المفردة منها وعند التركيب ، وتؤخذ أصناف المتشابهات منها وبماذا تتشابه فى صنف صنف منها وما الذى يلحق كلّ صنف منها . فيحدث لها عند ذلك فى النفس كلّيات وقوانين كلّيّة . فيحتاج فيما حدث فى النفس من كلّيات الألفاظ وقوانين الألفاظ إلى ألفاظ يعبّر بها عن تلك الكلّيات / والقوانين حتّى يُمكن تعليمها وتعلّمها . فيعمل عند ذلك أحد شيئين ، إمّا أن يخترع ويركّب من حروفهم ألفاظا لم يُنطَق بها أصلا قبل ذلك ، وإمّا أن ينقل إليها ألفاظا من ألفاظهم التى كانوا يستعملونها قبل ذلك فى الدلالة على معان أخر غيرها إمّا كيف اتّفق لا لأجل شئ وإمّا لأجل شئ ما . وكلّ ذلك ممكن شائع ، لكنّ الأجود أن تسمّى القوانين بأسماء أقرب شبها بالقوانين ، بأن ينظر أى معنى من المعانى الأول يوجد أقرب شبها بقانون من قوانين الألفاظ فيسمّى ذلك الكلّيّ وذلك القانون باسم ذلك المعنى ، حتّى يؤتى من هذا المثال على تسمية جميع تلك الكلّيات والقوانين بأسماء أشباهها من المعانى الأول التى كانت لها عندهم أسماء .

(١٣٧) فيصيّرون عند ذلك لسانهم ولغتهم بصورة صناعة يمكن أن تُتعلّم وتُعلّم ، وحتّى يمكن أن تُعطى علَل كلّ ما يقولون . كذلك خطوطهم التى بها كانوا يكتبون ألفاظهم ، إذا كانت فيها كلّيات وقوانين أُخذت كلّها فالتمس حتّى تصير يُنطَق عنها ويمكن أن تعلّم

وتُعلّم بقول . فتصير الألفاظ التى يعبر بها حينئذ عن تلك القوانين الألفاظ التى فى الوضع الثانى، والألفاظ الأول هى الألفاظ التى فى الوضع الأوّل ، فالألفاظ التى فى الوضع الثانى منقولة عن المعانى التى كانت تدلّ عليها .

(١٣٨) فتحصل عندهم خمس صنائع : صناعة الخطابة ، وصناعة الشعر ، والقوّة على حفظ أخبارهم وأشعارهم وروايتها ، وصناعة علم لسانهم ، وصناعة الكتابة . فالخطابة جودة إقناع الجمهور فى الأشياء التى يزاولها الجمهور وبمقدار المعارف التى لهم وبمقدّمات هى فى بادئ الرأى مؤثّرة عند الجمهور وبالألفاظ التى هى فى الوضع الأوّل على الحال التى اعتاد الجمهور استعمالها . والصناعة الشعريّة تُخيّل بالقول فى هذه الأشياء بأعيانها . وصناعة علم اللسان إنّما تشتمل علي الألفاظ التى هى فى الوضع الأوّل دالّة على تلك المعانى بأعيانها .

(١٣٩) فالمعتنون بها يُعدّون إذن مع الجمهور ، إذ كان ليس معانى ولا واحد منهم بصناعته هى من الأمور النظريّة ولا شيئا من الصناعة التى هى رئيسة الصنائع على الإطلاق . وقد لا يمتنع أن يكون لهم رؤساء وصنائع رئيسة – وهى الصنائع التى بها يتأتّى تدبير أمورهم – وهى إمّا صناعة تحفظ / عليهم صنائعهم التى يزاولونها ليبلغ كلّ واحد ممّا يزاوله منها غرضه به ولا يعتاق عنه ، وإمّا صناعة يستعملهم بها رئيسهم فى صنائعهم ليبلغ بهم غرضه وما يهواه لنفسه من مال أو كرامة . ويكون منزلته منهم منزلة رئيس الفلّاحين . وذلك أنّ رئيس الفلّاحين تكون له قدرة على جودة التأتّى لأن يستعمل الفلّاحين وجودة المشورة عليهم فى الفلاحة ليبلغوا غرضهم بأصناف فلاحتهم أو ليبلغ هو بأصناف فلاحتهم غرضه وما يلتمسه ، فهكذا هو يُعَد أيضا منهم . وعلى هذا المثال يكون رئيس الجمهور ومدبّر أمورهم فيما يستعملهم فيه من الصنائع العمليّة وفيما يحفظ عليهم صنائعهم وبالجملة استعمالهم فيها لأنفسهم أو لنفسه أو لهم وله . فهو أيضا منهم، إذ كان غرضه الأقصى هو غرضهم أيضا بصناعته ، إذ هى بعينها صناعتهم فى الجنس والنوع ، إلّا أنّها أسمى ما فى ذلك الجنس أو النوع . فإذن رؤساء الجمهور الذين يحفظون عليهم الأشياء

التى هم بها جمهور ويستعملونهم فى التى هم بها جمهور (هم من الجمهور) ، إذ كان الرئيس غرضه فى حفظها عليهم واستعمالهم فيها هو غرضهم ، بأن يحصل له وحدة وبأن يحصل لهم ، فهو منهم . فإذن رؤساء الجمهور الذين هكذا هم من الجمهور أيضا . فهذه صناعة أخرى من صنائع الجمهور . وهى أيضا صناعة عاميّة ، إلّا أنّ أصحابها والمعتنين بها يجعلون أنفسهم من الخواص . فإذن ملوك الجمهور هم أيضا من الجمهور .

٤ - حدوث الصنائع القياسية فى الأمم

(١٤٠) فإذا استُوفيت الصنائع ا لعمليّة وسائر الصنائع العامية التى ذكرناها اشتاقت النفوس بعد ذلك إلى معرفة أسباب الأمور المحسوسة فى الأرض وفيما عليها وفيما حولها وإلى سائر ما يُحَسّ من السماء ويظهر ، وإلى من الأمور التى استنبطتها الصنائع العمليّة من الأشكال والأعداد فى المرايا والألوان وغير ذلك . فينشأ مَنْ يبحث عن علَل هذه الأشكال ويستعمل أوّلا فى الفحص عنها وفى تصحيح ما يصحّح لنفسه فيها وفى تعليم غيره وما يصحّحه عند مراجعته الطرق الخطبيّة لا الطرق القياسيَة التى يشعرون بها أوّلا . فيحدث الفحص عن الأمور وعن الطبيعة .

(١٤١) ولا يزال الناظرون فيها يستعملون الطرق الخطبيّة ، فتختلف بينهم الآراء والمذاهب وتكثر مخاطبة بعضهم بعضا فى الآراء التى يصحح كل واحدٍ لنفسه ومراجعة كلّ واحد للآخر . فيحتاج كلّ واحد إذا روج فيما يراه مراجعة معاندة أن يوثّق ما يستعمله من الطرق ويتحرى أن يجعلها بحيث لا نعانَد أو يعسر عنادها . ولا يزالون يجتهدون ويختبرون الأوثق إلى أن يقفوا على الطرق الجدلية بعد زمان . وتتميّز لهم الطرق الجدلية من الطرق السوفسطائيّة ، إذ كانوا قبل ذلك يستعملونهما غير متميّزتين ، إذ كانت الطرق الجدلية الخطبيّة مشتركة لهما ومختلطة بهما ، فتُرفَض عند ذلك الطرق الخطبيّة وتُستعمَل الجدليّة . ولأنّ السوفسطائيّة تشبه الجدليّة يستعمل كثير من الناس الطرق السوفسطائيّة فى الفحص عن الآراء وفى تصحيحها . ثم يُستَقَر فى النظر فى الأمور النظريّة والفحص عنها وتصحيحها عن الطرق الجدليّة وتُطرَح السوفسطائيّة ولا تُستعمَل إلّا عند المحنة .

(١٤٢) فلا تزال تُستعمَل إلى أن تكمل المخاطبات الجدليّة ، فتبين بالطرق الجدليّة أنّها ليست هى كافية بعد فى أن يحصل اليقين . فيحدث حينئذ الفحص عن طرق التعليم والعلم اليقين ، وفى خلال ذلك يكون الناس قد وقعوا على الطرق التعاليميّة وتكاد تكتمل أو تكوّن قد قاربت الكمال ، فيلوح لهم مع ذلك الفرق بين الطرق الجدليّة وبين الطرق اليقينيّة وتتميزّ بعض التمييز . ويميل الناس مع ذلك إلى علم الأمور المدنيّة ، وهى الأشياء التى هى مبدؤها الإرادة والاختيار . ويفحصون عنها بالطرق الجدليّة مخلوطة بالطرق اليقينيّة وقد بُلغ بالجدليّة أكثر ما أمكن فيها من التوثيق حتى كادت تصير عمليّة . ولا تزال هكذا إلى أن تصير الحال فى الفلسفة إلى ما كانت عليه فى زمن أفلاطون .

(١٤٣) ثمّ يُتداوَل ذلك إلى أن يستقرّ الأمر على ما استقرّ عليه أيّام أرسطوطاليس . فيتناهى النظر العلمىّ وتُميَّز الطرق كلها وتكمل الفلسفة النظريّة والعاميّة الكليّة ، ولا يبقى فيها موضع فحص ، فتصير صناعة تُتَعَلّم وتُعلَّم فقط ويكون تعليمها تعليما خاصّا وتعليما مشتركا للجميع . فالتعليم الخاصّ هو بالطرق البرهانيّة فقط ، والمشترك الذى هو العامّ فهو بالطرق الجدليّة أو بالخطبيّة أو بالشعريّة . غير أنّ الخطبيّة والشعريّة هما أحرى أن تُستعمَلا فى تعليم الجمهور ما قد استقرّ الرأى فيه ويصحّ بالبرهان من الأشياء النظريّة والعملية .

(١٤٤) ومن بعد هذه كلّها يُحتاج إلى وضع النواميس ، وتعليم الجمهور ما قد استُنبط وفُرغ منه وصُحّح بالبراهين من الأمور النظريّة ، وما استُنبط بقوّة التعقّل من الأمور العمليّة . وصناعة / وضع النواميس فهى بالاقتدار على جودة تخييل ما عسر على الجمهور تصوّره من المعقولات النظريّة ، وعلى جودة استنباط شئ شئ من الأفعال المدنيّة النافعة فى بلوغ السعادة ، وعلى جودة الإقناع فى الأمور النظريّة والعمليّة التى سبيلها أن يعلّمها الجمهور بجميع طرق الإقناع . فإذا وُضعت النواميس فى هذين الصنفين وانضاف إليها الطرق التى بها يُقنَع ويعلّم ويؤدّب الجمهور فقد حصلت الملّة التى بها عُلّم الجمهور وأُدّبوا وأُخذوا بكلّ ما ينالون به السعادة .

(١٤٥) فإذا حدث بعد ذلك قوم يتأمّلون ما تشتمل عليه الملّة ، وكان فيهم مَن يأخذ ما صرّح به فى الملّة واضعُها من الأشياء العملية الجزئيّة مسلّمة ويلتمس أن يستنبط عنها ما لم يتّفق أن يصرّح به ، محتذيًا بما يستنبط من ذلك حذو غرضه بما صرّح به ، حدثت من ذلك صناعة الفقه . فإن رام مع ذلك قوم أن يستنبطوا من الأمور النظريّة والعمليّة الكلّيّة ما لم يصرّح به واضع الملّة أو غير ما صرّح به منها ، محتذين فيها حذوه فيما صرّح به ، حدثت من ذلك صناعة ما أخرى ، وتلك صناعة الكلام . وإن اتّفق أن يكون هناك قوم يرومون إبطال ما فى هذه الملّة ، احتاج أهل الكلام إلى قوّة ينصرون بها تلك الملّة ويناقضون الذين يخالفونها ويناقضون الأغاليط التى التُمس بها إبطال ما صُرّح به فى الملّة ، فتكمل بذلك صناعة الكلام . فتحصل صناعة هاتين القوّتين . وبيّن أنّه ليس يمكن ذلك إلّا بالطرق المشتركة والطرق الخطبية .

(١٤٦) فعلى هذا الترتيب تحدث الصنائع القياسيّة فى الأمم متى حدثت عن قرائحهم أنفسهم وفِطَرهم .

٥ - الصلة بين الملّة والفلسفة

(١٤٧) فإذا كانت الملّة تابعة للفلسفة التى كملت بعد أن تميّزت الصنائع القياسيّة كلّها بعضها عن بعض على الجهة والترتيب الذى اقتضينا كانت ملّة صحيحة فى غاية الجودة . فأمّا إذا كانت الفلسفة لم تصر بعد برهانيّة يقينيّة فى غاية الجودة ، بل كانت بعد تُصحّح آراؤها بالخطبيّة أو الجدليّة أو السوفسطائيّة ، لم يمتنع أن تقع فيها كلّها أو فى جلّها أو فى أكثرها آراء كلّها كاذبة لم يُشعَر بها ، وكانت فلسفة مظنونة أو مموّهة . فإذا أُنشئت ملّة ما بعد ذلك تابعة لتلك الفلسفة ، وقعت فيها آراء كاذبة كثيرة . فإذا أُخذ أيضا كثير من تلك الآراء الكاذبة وأُخذت مثالاتها مكانها ، على ما هو شأن الملّة فيما عسر وعسر تصوّره على الجمهور ، كانت / تلك أبعد عن الحقّ أكثر وكانت ملّة فاسدة ولا يُشعَر فسادها . وأشدّ من تلك فسادا أن يأتى بعد ذلك واضع

نواميس فلا يأخذ الآراء فى ملته من الفلسفة التى يتّفق أن تكون فى زمانه بل يأخذ الآراء الموضوعة فى الملّة الأولى على أنّها هى الحق، فيحصلها ويأخذ مثالاتها ويعلّمها الجمهور. وإن جاء بعدهَ واضع نواميس آخر فتبع هذا الثانى ، كان أشدّ فسادا . فالملّة الصحيحة إنمّا تحصل فى الأمّة متى كان حصولها فيهم على الجهة الأولى، والملّة الفاسدة تحصل فيهم متى كان حصولها على الجهة الثانية إلّا أنّ الملّة على الجهتين إنّما تحدث بعد الفلسفة المظنونة التى يُظَنّ بها أنّها فلسفة من غير أن تكون فلسفة فى الحقيقة ، وذلك متى كان حدوثها فيهم عن قرائحهم وفِطَرهم ومن أنفسهم .

(١٤٨) وأمّا إن نُقلت الملّة من أمّة كانت لها تلك الملّة إلى أمّة لم تكن لها ملّة ، أو أُخذت ملّة كانت لأمّة فأُصلحت فزيد فيها أو أنقص منها أو غُيرّت تغيراً آخر فجُعلت لأمّة أخرى فأُدّبوا بها وعُلّموها ودُبّروا بها ، أمكن أن تحدث الملّة فيهم قبل أن تحصل الفلسفة وقبل أن يحصل الجدل والسوفسطائيّة ، والفلسفة التى لم تحدث فيهم عن قرائحهم ولكن نُقلت إليهم عن قوم آخرين كانت هذه فيهم قبل ذلك ، أمكن أن تحدث فيهم بعد الملّة المنقولة إليهم .

(١٤٩) فإذا كانت الملّة تابعة لفلسفة كاملة وكانت الأمور النظريّة التى فيها غير موضوعة فيها كما هى فى الفلسفة بتلك الألفاظ التى يعبّر بها عنها بل إنّما كانت قد أخذت مثالاتها مكانها إمّا فى كلّها أو فى أكثرها ، ونُقلت تلك الملّة إلى أمّة أخرى من غير أن يعرفوا أنّها تابعة لفلسفة ولا أنّ ما فيها مثالات لأمور نظريّة صحّت فى الفلسفة ببراهين يقينيّة بل سُكت عن ذلك حتّى ظنّت تلك الأمّة أنّ المثالات التى تشتمل عليها تلك الملّة هى الحقّ وأنّها هى الأمور النظريّة أنفسها ، ثمّ نُقلت إليهم بعد ذلك الفلسفة التى هذه الملّة تابعة لها فى الجودة ، / لم يؤمَن أن تضادّ تلك الملّة الفلسفة ويعاندها أهلُها ويطّرحونها ، ويعاند أهلُ الفلسفة تلك الملّة ما لم يعلموا أنّ تلك الملّة مثالات لما فى الفلسفة . ومتى علموا أنّها مثالات لما فيها لم يعاندوها هم ولكنّ أهل الملّة يعاندون أهل تلك الفلسفة . ولا تكون للفلسفة ولا لأهلها رئاسة على تلك الملّة ولا على أهلها بل تكون مطّرَحة وأهلها مطّرَحين ، ولا يلحق الملّة كثير نصرة من الفلسفة ، ولا يؤمَن أن تلحق الفلسفة وأهلها مَضرّة عظيمة من تلك الملّة وأهلها . فلذلك ربّما اضطرّ أهل الفلسفة عند

ذلك إلى معاندة أهل الملّة طلبا لسلامة أهل الفلسفة . ويتحرّون أن لا يعاندوا الملّة نفسها بل إنّما يعاندونهم فى ظنّهم أنّ الملّة مضادّة للفلسفة ويجتهدون فى أن يُزيلوا عنهم هذا الظنّ بأن يلتمسوا تفهيمهم أنّ التى فى ملّتهم هى مثالات .

(١٥٠) وإذا كانت الملّة تابعة لفلسفة هى فلسفة فاسدة ثمّ نُقلت إليهم بعد ذلك الفلسفة الصحيحة البرهانيّة ، كانت الفلسفة معاندة لتلك الملّة من كلّ الجهات وكانت الملّة معاندة بالكلّيّة للفلسفة . فكلّ واحدة منهما تروم إبطال الأخرى ، فأيّتهما غلبت وتمكّنت فى النفوس أبطلت الأخرى أو أيّتهما قهرت تلك الأمّة أبطلت عنها الأخرى .

(١٥١) وإذا نُقل الجدل أو السوفسطائيّة إلى أُمّةَ لها ملّة مستقرّة ممكّنة فيهم فإنّ كلّ واحد منهما ضارّ لتلك الملّة ويهوّنها فى نفوس المعتقدين لها ، إذ كانت قوّة (كلّ واحدة منهما) فعلها إثبات الشئ أو إبطال ذلك الشئ بعينه فلذلك صار استعمال الطرق الجدليّة والسوفسطائيّة فى الآراء التى تمكّنت فى النفوس عن الملّة يُزيل تمكّنها ويوقع فيها شكوكا ويجعلها بمنزلة ما لم يصحّ بعد ويُنتظَر صحّتها ، أو يُتحيَّر فيها حتّى يُظَنّ أنّها لا تصحّ هى ولا ضدّها . ولذلك صار حال واضعى النواميس ينهون عن الجدل والسوفسطائيّة ويمنعون منهما أشدّ المنع . وكذلك الملوك الذين رُتّبوا لحفظ الملّة — أىّ ملّة كانت — فإنّهم يشدّدون فى منع أهلها ذينك ويحذّرونهم إيّاهما أشدّ تحذير .

(١٥٢) فأمّا الفلسفة فإنّ قوما منهم حنوا عليها . وقوم أطلقوا فيها وقوم منهم سكتوا عنها . وقوم منهم نهوا عنها ، إمّا لأنّ تلك الأمّة / ليس سبيلها أن تُعلَّم صريح الحقّ ولا الأمور النظريّة كما هى بل يكون سبيلها بحسب فطَر أهلها أو بحسب الغرض فيها أو منها أن لا تطّلع على الحقّ نفسها بل إنّما تؤدّب بمثالات الحقّ فقط أو كانت الأمّة أمّة سبيلها أن تؤدّب بالأفعال والأعمال والأشياء العمليّة فقط لا بالأمور النظريّة أو بالشئ اليسير منها فقط وإمّا لأنّ الملّة التى أتى بها كانت فاسدة جاهلية لم يلتمس بها السعادة لها بل يلتمس واضعها سعادة ذاته وأراد أن يستعملها فيما يسعد هو به فقط دونهم فخشى أن تقف الأمّة على فسادها وفساد ما التمس تمكينه فى نفوسها متى أطلق لهم النظر فى الفلسفة .

(١٥٣) وظاهر فى كلّ ملّة كانت معاندة للفلسفة فإنّ صناعة الكلام فيها تكون معاندة للفلسفة ، وأهلها يكونون معاندين لأهلها ، على مقدار معاندة تلك الملّة للفلسفة .

٦ - اختراع الأسماء ونقلها

(١٥٤) فإذا حدثت ملّة فى أمّة لم تكن لها ملّة قبلها، ولم تكن تلك ملّة لأمّة أخرى قبلهم، فإنّ الشرائع التى فيها بيّن أنّها لم تكن معلومة قبل ذلك عند تلك الأمّة ، ولذلك لم تكن لها عندهم أسماء . فإذا احتاج واضع الملّة إلى أن يجعل لها أسماء فإمّا أن يخترع لها أسماء لم تكن تُعرَف عندهم قبله وإمّا أن ينقل إليها أسماء أقرب الأشياء التى لها أسماء عندهما شبها بالشرائع التى وضعها . فإن كانت لهم قبلها ملّة أخرى فربمّا استعمل أسماء شرائع تلك الملّة الأولى منقولة إلى أشباهها من شرائع ملّته . فإن كانت ملّته أو بعضها منقولة عن أمّة أخرى فربّما استعمل أسماء ما نُقل من شرائعهم فى الدلالة عليها بعد أن يغيّر تلك الألفاظ تغييرا تصير بها حروفُها وبِنيَتُها حروفَ أمّته وبنيتَها ليسهل النطق بها عندهم . وإن حدث فيهم الجدل أو السوفسطائيّة واحتاج أهلها إلى أن ينطقوا عن معان استنبطوها لم تكن لها عندهم أسماء ، إذ لم تكن معلومة عندهم قبل ذلك ، فإمّا اخترعوا لها ألفاظا من حروفهم وإمّا نقلوا إليها أسماء أقرب الأشياء شبها بها . وكذلك إن حدثت الفلسفة احتاج أهلها ضرورة إلى أن ينطقوا عن معان لم تكن عندهم معلومة قبل ذلك ، فيفعلون فيها أحد ذينك .

(١٥٥) فإن كانت الفلسفةُ قد انتقلت إليهم من أمّة أخرى ، فإنّ على أهلها أن ينظروا إلى الألفاظ التى كانت الأمّةُ / الأولى تعبّر بها عن معانى الفلسفة ويعرفوا عن أىّ معنى من المعانى المشتركة معرفتها عند الأمّتين هى منقولة عند الأمّة الأولى . فإذا عرفوها أخذوا من ألفاظ أمّتهم الألفاظ التى كانوا يعبّرون بها عن تلك المعانى العاميّة بأعيانها ، فيجعلوها أسماء تلك المعانى من معانى الفلسفة . فإن وُجدت فيها معان نَقلت إليها الأمّة الأولى أسماءَ معان عاميّة عندهم غير معلومة عند الأمّة الثانية وليست لها عندهم لذلك أسماء ، وكانت تلك المعانى بأعيانها تشبه معانىَ أخر عاميّة معلومة عند الثانية ولها عندهم ألفاظ ، فالأفضل أن يطرحوا أسماءها وينظروا إلى أقرب الأشياء شبها بها من المعانى العاميّة عندهم فيأخذوا ألفاظها ويسمّوا بها تلك المعانى الفلسفيّة .

وإن وُجدت فيها معان سُمّيت عند الأولى بأسماء أقرب الأشياء العاميّة شبها بها عندهم وعلى حسب تخيّلهم الأشياء وكانت تلك المعانى الفلسفيّة أقرب شبها عند الأمّة الثانية على حسب تخيّلهم للأشياء بمعان عاميّة أخرى غير تلك ، فينبغى أن لا تسمّى عند الأمّة الثانية بأسمائها عند الأمّة الأولى ولا يُتكلّم بها عند الأمّة الثانية . فإن كانت فيها معان لا توجد عند الأمّة الثانية معان عاميّة تشبهها أصلا – على أنّ هذا لا يكاد يوجد – فإمّا أن تُخترَع لها ألفاظ من حروفهم ، وإمّا أن يُشرَك بينها وبين معان أخر – كيف اتّفقت – فى العبارة ، وإمّا أن يعبّر بها بألفاظ الأمّة الأولى بعد أن تغيّر تغييرا يسهل به على الأمّة الثانية النطق بها . ويكون هذا المعنى غريبا جدّا عند الأمّة الثانية ، إذ لم يكن عندهم لا هو ولا شبهه . وإن اتّفق أن كان معنى فلسفىّ يشبه معنيين من المعانى العاميّة ، ولكلّ واحد منهما اسم عند الأمّتين ، وكان أقرب شبها بأحدهما ، وكانت تسميتها له باسم الذى هو أقرب شبها به ، فينبغى أن يسمّى ذلك باسم ما هو أقرب شبها به .

(١٥٦) والفلسفة الموجودة اليوم عند العرب منقولة إليهم من اليونانيّين . وقد تحرّى الذى نقلها فى تسمية المعانى التى فيها أن يسلك الطرق التى ذكرنا . ونحن نجد المسرفين والمبالغين فى أن تكون العبارة عنها كلّها بالعربيّة . وقد يُشركوا بينها . ومنها أن يجعلوا لهذين المعنيين / اسمها بالعربيّة : فإنّ الأسطقس « العنصر » وسمّوا الهيولى « العنصر » أيضا – وأمّا الأسطقس فلا يسمّى « مادّة » و « هيولى » – وربّما استعملوا « الهيولى » وربّما استعملوا العنصر مكان « الهيولى » . غير أن التى تركوها على أسمائها اليونانيّة هى أشياء قليلة . فتلك كان من المعانى الفلسفيّة جرى أمر التسمية فيها على المذهب الأوّل الباقية المعانى يقال إنّها مأخوذة من حيث هى معان مدلول عليها بألفاظ الأمتين . وإن كانت المعانى العاميّة التى منها نُقلت إلى المعانى الفلسفيّة أسماؤها مشتركة لجميع الأمم كانت تلك المعانى الفلسفيّة مأخوذة من حيث تدل عليها ألفاظ الأمم كلّها . وما جرى أمر التسمية فيها على المذاهب الباقية فإنّها مأخوذة من حيث تدلّ عليها ألفاظ الأمّة الثانية فقط .

(١٥٧) وينبغى أن تؤخذ المعانى الفلسفيّة إمّا غير مدلول عليها بلفظ أصلا بل من حيث هى معقولة فقط ، وإمّا إن أُخذت مدلولا عليها بالألفاظ فإنّما ينبغى أن تؤخذ مدلولا عليها بألفاظ أىّ أمّة اتفقت والاحتفاظ فيها عندما يُنطَق بها وقت التعليم لشبهها بالمعانى العاميّة التى منها نُقلت ألفاظها وربّما خُلطت بها وأُوهم فيها أنّها هى المعانى العاميّة بأعيانها فى العدد وأنّها مواطئة لها فى لفظها . فلذلك رأى قوم أن لا يعبّروا عنها بألفاظ أشباهها بل

رأوا أنّ الأفضل هو أن تُجعَل لها أسماء مخترعة لم تكن قبل ذلك مستعملة عندهم فى الدلالة على شيء أصلا ، مركّبة من حروفهم على عاداتهم فى أشكال ألفاظهم . ولكنّ هذه الوجوه من الشبه لها غناء ما عند تعليم الوارد على الصناعة فى سرعة تفهيمه لتلك المعانى متى كانت العبارة بألفاظ أشباهها من المعانى التى عرفها قبل وروده على الصناعة . غير أنّه ينبغى أن يُتحرّز من أن تصير مغلطة على مثال ما يُتحرّز به من تغليط الأسماء التى تقال باشتراك .

(١٥٨) والألفاظ المنقولة عن المعانى العاميّة إلى المعانى الفلسفيّة فإنّ كثيرا منها يستعملها الجمهور مشتركة لمعان عاميّة كثيرة وتُستعمَل فى الفلسفة أيضا / مشتركة لمعان كثيرة . والمعانى التى تشترك فى اسم واحد منها ما هى صفة فى ذلك الاسم المشترك ؛ ومنها ما لها نسَب متشابهة إلى أشياء كثيرة ؛ ومنها ما يُنسَب إلى أمر واحد على ترتيب ، وذلك إمّا أن تكون رتبتها من ذلك الواحد رتبة واحدة وإمّا أن تكون رتبتها منه متفاضلة بأن يكون بعضها أقرب رتبة إليه وبعضها أبعد منه . وكلّ واحد من هذين إمّا أن تسمّى هى باسم واحد غير اسم الأمر الواحد الذى إليه نُسبت وإمّا أن تسمّى هى وذلك الأمر معا باسم واحد بعينه . ويكون ذلك الأمر الواحد أشدّها تقدّما . وتقدّمه قد يكون فى الوجود وقد يكون فى المعرفة . فالذى يرتّب كلّ واحد منها إذا كان فى المعرفة ، وتقاس إلى الواحد الذى هو أعرف ، فإذن أعرف كلّ اثنين منهما وأقربهما فى المعرفة إلى ذلك الواحد الذى هو أعرفها كلّها هو أشدّهما تقدّما ، ولا سيّما إذا كان مع أنّه أعرف سببا أيضا لأن يُعرَف أو عُرف به الآخر . وأحراها بذلك الاسم أو أحراها بأن يُجعَل له ذلك الاسم بإطلاق ذلك الواحد إذا كان أيضا سُمّى باسم تلك ، ثمّ أوْلى الباقية ما كان أعرف أو كان أعرف وسببا لأن تُعرَف به الأخر ، إلى أن يؤتى على جميع ما يسمّى بذلك الاسم . وعلى هذا المثال إذا كان فيها واحد هو أقدم فى الوجود أو كان مع ذلك سببا لوجودها إنه أحق وأوْلى بذلك الاسم على الإطلاق ، ثمّ كلّ ما كان أقرب إلى ذلك الواحد ، ثمّ الأقرب فالأقرب ، أحقّ بذلك الاسم ، ولا سيّما إذا كان كل اثنين منهما سببا لوجود الآخر ، فإنّه أحقّ بذلك الاسم من الآخر أحق فى كثير من الأمور أن يكون الأقدم فى المعرفة هو أشد تأخرا فى الوجود منهما أشدّ تقدّما فى الوجود، فيكون اسما لها واحدا لأجل تشابه نسَبها كثيرة ، أو لأجل على أنها تُنسَب إلى شئ واحد – إمّا بتساو ، كان ذلك الواحد يسمّى باسمها هى أو كان يسمّى باسم غير اسمها . غير المتّفقة أسماؤها وغير المتواطئة أسماؤها ، وهى متوسّطة بينهما ، وقد تسمى المشككة أسماؤها .

أبو على القالى (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ) :

إسماعيل بن القاسم بن عيزون بن هارون : عالم أديب لغوى ، ينسب إلى قالى قلا من أعمال ديار بكر بآسيا الوسطى وتلقى العلم فى العراق على نخبة من علماء عصره كابن دريد ونفطويه وابن درستويه ، وقرأ النحو على ابن إسحاق والزجاج والأخفش الصغير وابن السراج ، وتكونت له بذلك ثقافة موضوعية عميقة ، ودراية واسعة باللغة والأدب والنحو ، وللقالي رحلة إلى الأندلس ، إذ استدعاه الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فوفد إلى قرطبة ، وهناك أملى العديد من كتبه وكثر تلاميذه .

ويعد كتاب « الأمالى » أشهر مؤلفاته ، وله أيضا : البارع فى اللغة وكتاب « الإبل » ونتاجها وما تصرف منها و « مقاتل الفرسان » وتفسير السبع الطوال وغير ذلك كثير .

انظر عنه : إنباه الرواة للقفطى ٢٠٤/١ - ٢٠٩ ، ومعجم الأدباء ٢٥/٧ - ٣٣ ووفيات الأعيان ٢٢٦/١ الذى يصفه بأنه كان « أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين » .

[حديث المرأة التى سكنت البادية قريبا من قبور أهلها]

قال أبو علي : وحدّثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : دُفْعت يوما في تَلَمُّسي بالبادية إلى واد خَلاءٍ لا أنيس به إلا بيْتٌ مُعْتَنِز بفنائه أعْنُز وقد ظَمِئْتُ فَيَمَّمْته فسلّمْت ، فإذا عجوز قد بَرَزَت كأنها نعامة راخم ، فقلت : هل من ماء؟ فقالت : أو لَبَن ؟ فقلت : ما كانت بغيتي إلا الماء فإذا يَسَّرَ اللهُ اللبن فإنّي إليه فقير ، فقامت إلى قَعْب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله ثم جاءت إلي الأعْنزِ فتَغَبَّرتْهن حتي احتَلَبَتْ قُرَاب مِلْءِ القَعْب ، ثم أفرغت عليه ماءً حتى رغا وَطَفَتْ ثُمالته كأنها غمامة بيضاء ، ثم ناولتنى إياه فشربت حتى تَحَبَّبْت رِيًا ، واطمأننت فقلت إنى أراك معتنزة فى هذا الوادى المُوحِش والحِلّةُ منك قريب ، فلو أنضممت الي جَنَابِهِمْ فأَنِسْتِ بهم ! فقالت : يابن أخي إني لآنس بالوَحْشة ، وأستريح إلى الوَحْدة ، ويطمئن قلبي إلي هذا الوادي المُوحِش ، فأَتَذَكّر مَنْ عَهِدت ، فكأني أخاطب أعيانهم ، وأَتَراءى أشباحهم ، وتَتخيّل لى أَنْدِية رجالهم ، ومَلاعب وُلْدَانِهم ، ومُنَدّى أموالهم ، والله يابن أخي ، لقد رأيت هذا الوادى بَشِعَ اللّديدَيْن ، بأهل أدواح وقِباب ، ونَعَم كالهضاب ، وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرِّماح يُبَارُون الرياح ، ويَحْمون الصِّباح ، فأحال عليهم الجَلاءُ قَمًّا بغَرَفة

فأصبحت الآثار دارسة والمَحَالُّ طامسة ، وكذلك سيرة الدهر فيمن وَثِقَ به . ثم قالت : ارم بعينك في هذا الملا المُتباطِن ، فنظرت ، فإذا قُبور نحو أربعين أو خمسين ، فقالت ألا تري تلك الأجداث ؟ قلت : نعم ! قالت : ما انطوت إلاَّ علي أخ أو ابن أخ ، أو عم أو ابن عم ، فأصبحوا قد أَلْمَأت عليهم الأرضُ ، وأنا أترقب ما غالهم ، انصرف راشدا رحمكَ الله .

قال أبو علي : معتنز منفرد ، والرَاخِم : التي تَحْضُن بيضها .

[مطلب حديث الغلام الذى سمّاه أهله حريقيصا وما وقع له مع الأصمعي وشرح غريب ذلك]

وحدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال : بيّنَا أنا بحِمَى ضَرِيَّةَ إذ وقــف علي غلام من بنى أَسَد فى أطمارٍ ما ظننته يجمع بين كَلِمَتَيْن فقلت : ما اسمك ؟ فقال: حُرَيْقيص ؛ فقلت : أَمَا كَفَى أهْلَكَ أن يُسَمّوك حُرْقوصا[1] حتى حقروا اسْمَك ! فقال : إنَّ السَّقْطَ لَيُحرق الحَرَجة ؛ فعجبت من جوابه ، فقلت : أَتُنْشِد شيئا من أشعار قومك ؟ قال : نعم أنشدك لمَرَّارنا ، قلت : افعل ، فقال :

سَكَنُوا شُبَيْثًا والأَحَصَّ[2] وأصبحوا ... نَزَلَتْ مَنازِلَهم بَنُو ذُبْيانِ
وإذا يقــال أُتيتُم لم يَبْرَحُوا ... حتَّى تقيمَ الخيلُ سُوقَ طِعان
وإذا فــلانٌ مــات عن أُكْرومــة ... رَقَعُوا مَعَاوِزَ فَقْده بفلان

قال : فكادت الأرض تَسُوخ بي لحسن إنشاده وَجَوْدة الشعر ، فأنشدت الرشيد هذه الأبيات ، فقال : وَدِدْت يا أصمعى أن لو رأيتَ هذا الغلام فكنت أبلغه أعلى المراتب .

قال أبو علي : السَّقْط : ما يَسْقُط من الزَّنْد إذا قُدح ، وقال أبو عبيدة : فى سقط النار وسقْط الوَلَد وسقْط الرَّمْل ثلاث لغات : الضم والفتح والكسر ، وزِناد العرب من خشب ، وأكثر ما يكون من المَرَخ والعَفَار و ولذلك قال الأعشى :

زِنَادُكَ خَيْرُ زناد المُلو ... كِ صادَفَ مِنْهُنَّ مَرْخٌ عَفَارا

وإنما يؤخذ عودٌ قدر شبر فُيثقَب فى وَسَطه ثَقْبٌ لا ينفذ ويؤخذ عود آخر قدر ذراع فُيحدّد طَرَفه فُيجعل ذلك المُحَدَّد فى ذلك الثَّقب وقد وضعه رجل بين رجليه فُيديره ويفتله فُيوري نارا ، فالأعلي زَنْد والأَسْفل زَنْدة ، والحَرَجة : الشجرالكثير المُلْتَف وجمعه حِرَاج وأحراج قال العجّاج :

(١) الحرقوص : اسم دويبة كالبرغوث ، أو كالقراد .

(٢) شبيث والأحص : اسما موضعين بنجد .

عايَنَ حيًّا كالحرَاجِ نَعَمُهْ يكون أقصَى شلّه مُحرَنْجمُهْ

يقول : عايَن هذا الجيشُ الذى أتانا حيًّا ؛ ويعني بالحيِّ : قومَه بني سَعْد ، والنَّعَمُ : الإبل ، وأقصَى : أبعد ، وشلّه : طردُه ، ومحرَنْجَمُهُ : مَبْرَكُه حيث يجتمع بعضه إلى بعض ، والمعنى أن الناس إذا فُوجئوا بالغارة طرَدوا إبلَهم وقاموا هم يقاتلون فإن انهزموا كانوا قد نَجَوْا بها ؛ يقول : فهؤلاء من عِزّهم ومَنَعتهم لا يَطْرُدونها ، ولكن يكون أقصى طردهم أن ينيخوها فى مبركها ثم يقاتلوا عنها والمَعَاوز : الثياب الخلقان .

[مطلب حديث حضرمي بن عامر مع ابن عمه وشرح غريب شعره]

وحدّثنا أبو بكر بن دريد قال حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن العباس بن هشام عن أبيه قال : كان حَضْرَميُّ بن عامر عاشرَ عشرةٍ من إخوته فماتوا فوَرِثَهم ، فقال ابن عم له يقال له جَزْء : مَنْ مِثْلُك ، مات إخوتك فورثتهم فأصبحت ناعما جَذلا ! فقال حضرمي .

يزْعُم جَــزْءٌ ولم يَقُلْ سَــددًا أنّي تَرَوّحْتُ ناعِــمًــا جَــذلا
إن كُنْتَ أَزْننتني بهــا كَــذِبًا جَـزْءُ فَلاقَيْتَ مِثْلها عَجِـلا
أفْــرَحُ أنْ أُرْزَأَ الكـرَامَ وأن أُورَثَ ذَوْدًا شَــصَــائِصًــا نَبَــلا
كم كـان فى إخْوَتي إذا احْتَضَنَ الأقْوامُ تَحْتَ العَجَاجة[1] الأسَلا[2]
مِن واجِـدٍ مـاجِـدٍ أخي ثِقَــةٍ يُعْطي جَــزيلا ويَضْــربُ البَطَلا
إن جِـئْـتَـهُ خـائفـا أمِنْتَ وإن قـال سَـأَحْـبُـوك نائلا فَـعَـلا

فجلس جَزْءٌ على شَفِير بئر وكان له تسعة إخْوة فانْخَسفَتْ بإخوته ونجا هو ، فبلغ ذلك حضرَميًا فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون كلمةٌ وافقَتْ قَدَراً وأبْقَتْ حقْدا .

قال أبو علي : الشّصَائص : التى لا ألبان لها ، واحدتها شَصُوص ، قال الأصمعي : يقال : أشَصّتْ فهى شَصُوص وهو على غير القياس ، وقال الكسائي : شَصّت ، والنَّبل : الصِّغار هَهُنا ، والنَّبل : الكبار ، وهو من الأضداد ، والواجد : الغَنِيُّ الذى يجد .

(١) العجاجة : الغبار .

(٢) الأسل : الرماح .

وأنشدنا أبو بكر قال أنشدنا أبو حاتم عن الأصمعي ليزيد بن الحكم الثقفيّ :

تُكاشرني كُرهًا كأنّك ناصحٌ وعينك تُبدي أنّ صدرك لي دوِي
لسانُك ماذِيٌّ وغيبُك علقَمٌ وشرُّك مبسوطٌ وخيرُك منطوِي
فليتَ كفافًا كان خيرُك كُلُّه وشرُّك عنّي ما ارتوى الماءَ مُرتوِي
عدوُّك[1] يخشى صولتي إنْ لقيتَه وأنت عدوِّي ليس ذاك بمُستوِي
تُصافحُ من لاقيتَ لي ذا عداوة صِفاحًا وغيي بين عينيك منزوِي
أراك إذا لم أهوَ أمرًا هويتَه ولستَ لما أهوَى من الأمر بالهوِي
أراك اجتويتَ الخيرَ منّي وأجتوِي أذاك فكلٌّ يجتوِي قُربَ مُجتوِي
وكم موطنٍ لولايَ طحتَ كما هوَى بأجرامه من قُلّة[2] النِّيق[3] مُنهوِي
إذا ما ابتنى المَجدَ ابنُ عمّك لم تُعنْ وقلتَ ألا ياليت بنيانَه خَوِي
فإنّك إن قيل ابن عمّك غانمٌ شجٍ أو عميدٌ أو أخو مغلةٍ لوِي
تملّأتَ من غيظٍ عليَّ فلم يزلْ بك الغيظُ حتى كدتَ بالغيظ تنشوِي
وما برحتْ نفسٌ حسودٌ حسبتُها تُذيبك حتّى قيل هل أنتَ مُكتوِي
وقال النِّطاسيُّون إنّك مُشعَرٌ سُلالًا ألا بل أنتَ من حسدٍ ذوِي
جمعتَ وفحشًا غيبةً ونميمةً خصالًا ثلاثًا لستَ عنها بمُرعوِي
أفحشًا وجُبنًا ، واختناءً عن النّدى كأنّك أفعَى كُدْيةٍ[4] فرّ مُحجوِي
فيدحُو[5] بك الدّاحي إلى كلِّ سوءةٍ فياشرَّ من يدحُو بأطيش مُدحوِي
بدا منك غشٌّ طالما قد كتمتَه كما كتمتْ داءَ ابنها أمُّ مُدّوِي

(١) روى هذا البيت في حماسة البحتري هكذا .
تود عدوى ثم تزعم أنني صديقك ليس الفعل منك بمستوى
(٢) القلة : أعلى الجبل .
(٣) النيق : أرفع موضع في الجبل .
(٤) الكدية : الأرض الغليظة الصلبة .
(٥) دحا الحجر بيده أي رمى به ودفعه .

قال أبو علي : الاختناء :التقبُّض ، قال : وقال أبو بكر : مُحْجَوى : مُنْطَوى ، والمُدَوِّى : الذى يأخُذ الدُّواية وهي جلدة رقيقة تركَبُ اللَّبن ، ويقال : دوَّى اللَّبنُ يُدَوِّى فهو مُدَوٍّ ، وأقبل الصِّبْيَانُ على اللَّبنِ يدُّونه ، أى يأخذون ما عليه من الجلدة ، وجاء غلام من العرب إلى أمه وعندما أُمُّ خِطْبه فقال : يا أُمَّاه ، أُدْوِى ؟ فقالت : اللُّجَام مُعلَّق بعمُود البيت ، تُوَرِّى بذلك وترى القوم أنه إنما سألها عن اللجام وأنه صاحب خيل وركوب . والمُجْتوى : الكاره ، والماذِئُ : العَسَل الأبيض ، ومنه قيل : دِرْعٌ ماذِيَّة .

وأنشدنا أبو بكر قال : أنشدنا عبد الرحمن عن عمّه :

أذْكُرُ مجالِسَ من بنى أسَدِ ... بَعُدُوا فَحَنَّ إليهمُ القَلْبُ
الشَّرقُ مَنْزِلُهُمْ ومَنْزِلُنا ... غَربٌ وأنَّى الشَّرقُ والغَرْبُ
منْ كلِّ أبيضَ جَلَّ زينتِه ... مِسْكٌ أحَمُّ وصارِمٌ عَضْب
ومُدَجَّجٍ يَسْعَى بِشِكَّتِه ... وَعَقِيرةٍ بفنائه تَحْبُو

قال أبو علي : عَقِيرة : مَعْقورة .

وحدثنا أبو بكر بن دريد قال أخبرنا الرياشي عن ابن سلام قال : بلغنى أن الأحوَص دخل على يزيد بن عبد الملك فقال له يزيد : لو لم تَمُتَّ إلينا بحُرْمة ، ولا تَوَسَّلْت بدالَّة ، ولا جدَّدْت لنا مَدْحا و غير أنك مقتصر على بيتَيْكَ لاستَوجبْتَ عندنا جَزيلَ الصِّلَة ، ثم أنشد يزيد :

وإنِّى لأسْتَحْيِيكُمُ أن يَقُودَنى ... إلى غَيْرِكم من سائر الناس مَطْمَعُ
وأن أجتدِى للنَّفع غَيْرَكَ منهمُ ... وأنتَ إمامٌ للبَرِيةِ مَقْنَعُ

وقال الرياشى : وإنما قال هذين البيتين فى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وقرأنا على أبى بكر بن دريد قول الشاعر :

إنِّى رأيْتكَ كالوَرْقَاء يُوحِشُها ... قُرْبُ الأليفِ وتغْشاه إذا نُحِرا

الورقاء : دويبة تنفر من الذئب وهو حي وتغشاه إذا رأت به الدم .

وأنشدنا أبو عبد الله نفطويه قال أنشدنا أبو العباس أحمد بن يحيى وأبو العباس محمد بن يزيد لأبى حية النميرى يزيد بعضُهم على بعض ، وأنشدنا أيضا أبو بكر بن دريد ، واللفظ والترتيب على ما أنشدنا أبو عبد الله .

بَدَا يومَ رُحْنا عـامِـدِين لأرضـهـا سَنِيحٌ[١] فـقـال القـوم مَرَّ سَنِيحُ
فـهـابَ رجـالٌ منهمُ وتَقـاعَـسُـوا فـقلتُ لَهُمْ جـارِى إلىَّ رَبِيحُ
عُـقَـابٌ بأعـقـابٍ مِنَ الدارِ بَعْـدَمـا جَـرَتْ نِيَّـةٌ تُسلِى المُحبَّ طَرُوحُ
وقـالوا حَـمَـامـاتٌ فَـحُمٌ لِقَـاؤُها وطَلْحٌ فَـزِيرَتْ والمَطِىُّ طَلِيحُ
وقـال صِـحَـابِى هُدْهُدٌ فـوقَ بانةٍ هُدًى وبَيَـانٌ بالنَّجَـاحِ يَلُوحُ
وقـالوا دَمٌ دامتْ مَـوَاثِيقُ بيننا ودامَ لنا حُلْو الصَّـفـاء صَـرِيحُ
لَعَـيْناكَ يومَ البَـيْن أسـرعُ واكـفـا من الفَنَن[٢] المَمْطُور وهو مُرَوحُ[٣]
ونِسْـوةِ شَـحْـشـاحٍ[٤] غَـيُورٍ يَخَـفْنَهُ أخى ثِقَـةٍ يَلْهُـون وهو مُـشِـيحُ
يَقُلْنَ ومـا يَدْرِين عنى[٥] سَـمِـعْـتُـه وهُنَّ بأبواب الخـيـام جُنُوحُ
أهذا الذى غَنَّى بِسَـمْـراءَ مَـوْهِنًا أتاح له حُـسـنَ الغناء مـتـيحُ
إذا مـا تَغنىَّ أنَّ من بَعْـد زَفْـرة كـمـا أنّ من حَرِّ السلاح جَرِيحُ
وقـائـلـةٍ يـادَهْـمُ وَيْحَكَ إنَّـهُ على غُنَّةٍ فى صَـوته لَمَلِيحُ
وقـائـلةٍ أوْلِينَه البُـخْـلَ إنَّه بما شـاءَ مِنْ زُورِ الكلام فَـصِيحُ
فلو أن قَـوْلاً يَكْلِم الجلد قـد بَدَا بجلدى مِنْ قـول الوُشـاة جُـرُوحُ

وحدّثنا الأخفش قال : حدّثنى بعض أصحابنا قال : حدثنى أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد البصرى المعروف بأبى العيناء ، قال : أنشدنا ابن أبي فَنَنٍ فى مجلس على بن الجَهْم فكَتَبْتُ لِي وله

ولَمَّـا أبتْ عَـيْناى أن تَكْتُـمَـا البُكا وأن تَحْبسا سَحَّ الدُّموع السَّواكب
تَشَـاءبْتُ كى لا يُنْكِرَ الدمعَ مُنكِرٌ ولكن قليـلا مـا بَقـاءُ التَّثَـاؤُب
أعَـرَّضْـتـمـانى للهـوى ونَمَـمـتُـمـا علَىَّ لبئس الصاحبانِ لصاحب

(١) السنيح كالسانح : ما يتبرك به .
(٢) الفنن : الغصن .
(٣) مروح : أصابته الريح .
(٤) شحشاح : يقال رجل شحشاح وشحشح : سيء الخلق .
(٥) عنى : بمعنى أنى بإبدال الهمزة عينا ، ويسمى هذا الإبدال عنعنة تميم وقيس .

وأنشدنا أبو بكر بن الأنباري رحمه الله تعالى قال : أنشدنا أحمد بن يحيى النحوى :

يقولون لَيْلَى بالمَغيب أَمِينةٌ ... بلَى وهو راعٍ عَهْدَها وأَمِينُها

فإن تَكُ لَيْلَى استودعتنى أمانةً ... فلا وأبى أعدائها لا أخونُها

أأُرضى بلَيْلَى الكاشحين وأَبْتَغى ... كَرامةَ أعدائى لها وأُهينُها

مَعاذَةَ وَجْهِ الله أن أُشمت العِدا ... بلَيْلَى وإنْ لمن تجزنى بما أَدينُها

سأجعَلُ عِرضى جُنّةً دون عرضها ... ودينى ، فيَبْقى عِرضُ ليلى وَدينُها

وأنشدنا أبو الحسن جحظة البرمكى قال أنشدنا حماد بن إسحاق قال : أنشدنى أبى لنفسه :

لاح بالمَفرِق منك القَتيرُ(١) ... وذَوَى غُصْنُ الشَّباب النَّضيرُ

هَزِئت أسماءُ منّى وقالت ... أنتَ يابْنَ المَوْصِلىّ كبيرُ

ورأتْ شَيْبًا علانى فأنّتْ ... وابنُ ستّين بشَيْبٍ جَدير

إنْ ترَىْ شَيْبًا علانى فإنّى ... مَعَ ذاك الشّيب حُلْوٌ مَزير

قد يُفَلُّ السَّيفُ وهو جُرازٌ ... ويَصُول اللّيْث وهْوَ عَقيرُ(٢)

قال أبو على : المَزِير : المُعظَّم المُكرَّم ، يقال : مَزَرْتُ الرجلَ إذا عظّمته وكرّمته ، كذا قال على بن سليمان الأخفش ، وقال النّضر بن شُمَيل : المَزِير : الظّريف ، وقال لى أبو بكر بن دريد : المَزَارة : الزيادة فى جسم أو عقل ، يقال : مَزُرَ يَمْزُر مَزَارةً فهو، مَزِير ، والجُراز : الماضى فى الضَّريبة ، قال الجَعْدى :

يُصَمِّمُ وهْوَ مَأْثورٌ جُرازٌ ... إذا اجْتَمَعَتْ بقائمه اليدَان

وقرأت على أبى بكر بن الأنبارى للأسود بن يعفُر :

وكُنْتُ إذا ما قُرِّب الزادُ مُولَعًا ... بكُلِّ كُمَيْتٍ جَلْدةٍ لم تُوَسَّفِ

مُداخلة الأقراب غير ضَئيلة ... كُمَيْتٍ كأنها(٣) مَزَادة مُخْلِفِ

(١) القتير : المشيب .

(٢) العقير المعقور : الجريح .

(٣) دخل على هذه الكلمة «القبض» وهو حذف الخامس الساكن من «مفاعيلن» .

كُمَيْتَ ، يعني تُمْرة ، وجَدْدة : غليظة اللحاء . لم توَسَّف : لم تُقَشَّر . وأقرابها ، وإنما هو مَثل ، والقُرُبانِ : الخاصرتان والضَّيلة : الدقيقة ، والمُخلف : المُسْتَقى ، يريد كأنها من امتلائها مزادة .

وقرأت على أبى بكر بن الأنبارى قال : قرأت علي أبى لهُذْبة بن خَشْرَم :

طَرِبْتَ وأنتَ أحْيانًا طَرُوب ... وكَيْفَ وقد تعَلاَّك المَشيب
يُجِدُّ النَّأْىُ ذِكْرَك فى فؤادى ... إذا ذَهلَتْ عن النَّأى القلوب
يُؤَرِّقنى اكْتِئابُ أبى نُمَيْرٍ ... فَقلْبى من كآبته كئيب
فقلت له هَدَاك الله مَهْلاً ... وخَيْرُ القول ذو اللُّبِّ المُصيب
عَسَى الكَرْب الذى أمْسَيْت فيه ... يكون وراءَه فَرَجٌ قريب
فَيَأْمَنَ خائفٌ ويُفَكَّ عانٍ ... ويَأتِىَ أهلَه النائى الغريب
ألا لَيْتَ الرِّياحَ مُسَخَّراتٌ ... بحاجتنا تُباكِر أو تؤوب
فَتُخْبِرَنا الشمالُ إذا أتتنا ... وتُخْبِرَ أهلَنا عنا الجَنُوب
فإنا قد حَلَلْنا دار بَلْوَى ... فَتُخْطِئُنَا المَنايا أو تُصيب
فإن يَكُ صَدْرُ هذا اليوم وَلَّى ... فإنَّ غَدا لناظره قريب
وقد عَلِمَتْ سُلَيْمَى أن عُودى ... على الحَدَثان ذو أَيْدٍ صَلِيب
وأن خَلِيقَتى كَرَمٌ وأنى ... إذا أبْدَتْ نَوَاجِذَها الحروب ،
أُعِين على مَكارِمِها وأغْشَى ... مَكارِهَها إذا كَعَّ[(١)] الهَيُوب[(٢)]
وقد أبْقَى الحوادثُ منك رُكْنا ... صَلِيبًا ما تُؤَيِّسه الخُطوب
على أن المَنِيَّةَ قد تُوافِى ... لوقْتٍ والنَّوائبَ قد تَنُوب

قال أبو على : قوله : تُؤَيِّسه : تؤثِّر فيه ، قال المُتَلَمِّس :

ألم تَرَ أنَّ الجَوْن أصبح راسيا ... تُطيف به الأيَّام ما يَتَأيَّس

وقال الطَّرِيف العَنْبَرى :

إنَّ قَناتى لَنَبْعٌ ما يُؤَيِّسُها ... عَضُّ الثِّقاف ولا دُهْنٌ ولا نار

(١) كع : جبن وضعف .
(٢) الهيوب : الذى يخاف الناس .

[حديث المفضل الضبيّ وقد دخل على المهدىّ فاستنشده]

وحدّثنا قال : حدّثنا أبو حاتم عن أبى زيد عن المفُضّل الضبىّ قال : دخلت على المهدىّ فقال لى قبل أن أجلس: أنشدنى أربعة أبيات لا تزِدْ عليهن – وعنده عبد الله بن مالك الخزاعىّ – فأنشدته :

وأشْعَثَ قَدْ قَدَّ السِّفارُ قميصَه ... يَجُرُّ شواءً بالعصا غير مُنْضَجِ[1]
دعوتُ إلى ما نابنى فأجابنى ... كريم من الفتيان غَيْرُ مُزلَّجِ[2]
فتًى يَمْلأُ الشِّيزَى ويُرْوِى سِنانَه ... ويَضْرِب فى رأس الكَمِىِّ المُدَجَّجِ
فتًى ليس بالراضى بأدنى معيشة ... ولا فى بيوت الحىِّ بالمُتَولِّجِ

فقال المهدى : هو هذا – وأشار إلى عبد الله بن مالك – فلما انصرفت بعث إلىَّ بألف دينار وبعث إلىَّ عبدُ الله بأربعة آلاف درهم .

وقرأت على أبى بكر لعبد الرحمن بن زيد :

يُؤَمِّنى عن زيادةَ كُلُّ حَىٍّ ... خلِّى ما تأوبهُ الهُموم
فلو كنتُ القتيلَ وكان حَيًّا ... لَطَالَبَ لا ألَفُّ[3] ولا سَئُوم
ولا هَيَّابَةٌ بالليل نِكْسٌ[4] ... ولا ضَرَعٌ[5] إذا أمسى تؤوم
وكيف تَجلُّدُ الأقوام عنه ... ولم يُقتل به الثأر المُنيم
غَشُومٌ حين يُبْصِرُ مُسْتقادٌ ... وخَيْرُ الطالبى التِّرَةَ الغَشُوم

وأنشدنا أبو بكر أبى الأزهر مستملى أبى العباس محمد بن يزيد قال : أنشدنا الزبير لأبى الهَيْذَام المُرّى فى أخيه :

سأبكيك بالبِيضِ الرِّقاق وبالقَنا ... فإن بها ما يُدْرِكُ الماجدُ الوترا
ولَسْتُ كمن يبكى أخاه بَعبْرة ... يُعَصِّرها من جفن مقلته عَصْرا
وإنا أناسٌ ما تفيض دُموعنا ... على هالك منّا وإن قَصَمَ الظَّهْرا

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة للشماخ بن ضرار الغطفانى ، كما فى ديوانه (ص ٩ طبع مصر) .
(٢) المزلج : الرجل الناقص أو الدون .
(٣) يقال : رجل ألف وامرأة لفاء ، واللفف : تدانى الفخذين من السمن وهو عيب فى الرجل مدح فى المرأة .
(٤) النكس : الضعيف .
(٥) الضرع : الجبان الذليل

وأنشدنا أبو بكر بن الأنبارى قال أنشدنا أبو العباس أحمد بن يحيى :

ولقد رأيتُ مَطيَّةً معكوسة ... تَمشى بكَلْكَلِها وتزجيها الصَّبا
ولقد رأيت سَبِيئة من أرضها ... تَسْبِي القلوب وما تُنيب إلى هوَى
ولقد رأيت الخيل أو أشباهَها ... تُثْنَى مُعَطَّفةً إذا ما تُجتلى
ولقد رأيت جَوَارياً بمفازة ... تَجْرى بغير قوائم عند الحرا
ولقد رأيت غَضِيضةً هِرْكَوْلَة(١) ... رود(٢) الشباب غَرِيرةً عادت فَتى
ولقد رأيت مكفَّرا ذا نعمة ... جَهَدُوه بالأعمال حتى قَدْ وَنَى

قال أبو العباس : المَطيَّة المعكوسة : سفينة ، والسَّبيئة من أرضها : خَمْرٌ ، والخيل أو أشباهها عنى بها تَصاوير فى وسائد ، وجوَاريا بمفازة ، عَنَى بهن السَّراب ، والغَضيضة الهِرْكَوْلة : امرأة ، وعادت : من العيَادة ، ومكفَّرا ذا نعمة ، عَنَى به السيف .

وأنشدنا أبو بكر بن السراج لعلي بن أبي العباس الرومىّ :

خَجِلَتْ خُدود الوَرْد من تَفْضيله ... خَجَلاً تَوَرُّدُها عليه شاهد
لم يَخْجَل الوردُ المُورَّد لونُه ... إلا وناحِلُه الفَضيلةَ عائد
للنرجس الفَضْلُ المُبين وإن أبى ... آبٍ وحادَ عن الطريقة حائد
فَصْلُ القَضِية أن هذا قائد ... زَهَرَ الرياض وأن هذا طارد
شَتَّانَ بين اثنين هذا مُوعِدٌ ... بتَسلُّب الدنيا وهذا واعد
وإذا احْتَفَظْتَ به فأَمْتَعُ صاحبٍ ... بحياته لو أنَّ حَيًّا خالد
يَنْهَى النَّديمَ عن القبيح بلَحْظه ... وعلى المدامة والسماع مساعد
أطْلُبْ بعيشك فى الملاح سَمِيَّه ... أبدا فإنك لا محالة واجد
والوَرْدُ إن فتشت فَرْدٌ فى اسمه ... ما فى الملاح له سَمِيٌّ واحد
هذى النجوم هى التى ربَّتْهما ... بحَيا السحاب كما يُرَبِّى الوالد

(١) الهركولة : الحسنة الجسم والخلق والمشية .

(٢) الرود مسهل رؤد المهموز : الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء .

فَتَأَمَّل الأخَوينِ مَنْ أدناهما شَبَهًا بوالده فذاك الماجد
أين الخدودُ من العيون نفاسةً ورياسة لولا القياس الفاسد

وأنشدنى أبو المياس قال : أنشدنى الأخيطل لنفسه بواسط :

سَقيا لأرض إذا ما شئتُ نبّهنى بعد الهُدوء بها قَرْعُ النّواقيس
كأن سَوْسَنَها فى كل شارقة على الميادين أذناب الطّواويس

وأنشدنا أبو بكر بن أبى الأزهر قال أنشدنا الزبير :

نجوم وأقمار من الزّهْر طُلّع لذى اللّهْو فى أكنافها مُتَمَتّع
تَسَاوَى تثنيها الرياح فَتَنْثنى ويلثم بعضٌ بعضَها ثم ترجع
كأنَّ عليها من مُجَاجة طَلِّها لآلىءَ إلا أنها هى أَلْمَع
وَيحْدُرها عنها الصَّبا فكأنها دُموعٌ مَراها البَيْنُ والبين يَفْجَع

وحدّثنا أبو بكر رحمه الله قال : حدثنا أبو عثمان عن سعيد بن مَسْعَدَةَ الأخفش قال : اعتذر رجل من العرب إلى بعض ملوكهم فقال : إن زلّتي وإن كانت قد أحاطت بحرْمتى ، فإن فَضْلَك يحيط بها ، وكَرَمك؛ يوفى عليها ، ثم قال :

إنى اليك سَلِمْتَ كانت رحلتى أرجو الإلَه وصفْحك المبذولا
إن كان ذنبى قد أحاط بحرمتى فأحِطْ بذنبى عَفْوَك المأمولا

وحدّثنا أبو بكر رحمه الله قال : حدثنا أبو عثمان قال : حدثنا أبو قلابة الجرمي قال : تخلفت عن حلقة العتبى أياما ، فكتب إلى : تَرَكْتنا تَرْكَ رَجلٍ أوحَدَه جُرْمٌ ، أو أغناه علْم ، فإن كان عن جُرم فعن غير إرادة بقلب ولا تعمد بلسان ، وإن كان عن علم غنيت به فتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين .

وحدثنا أبو بكر قال : حدثنا أبو عثمان عن العتبى قال : قال عبد الله بن على بعد قتله من قَتَلَ من بني أمية لإسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاصى : أساءك مافَعَلْتُ بأصحابك ؟ فقال : كانوا يدا فقطعتها ، وعضدا ففتتها ، ومرةً فنقضتها ، وركنا فهدمته ، وجناحا فهضته ؛ فقال : إنى لخليق أن ألحقك بهم ، قال : إنى إذًا لسعيد .

(١) فى النسخة المطبوعة « ظلها » والتصويب عن النسخة المخطوطة .

وحدّثنا أبو بكر قال : حدّثنا أبو عثمان عن العتبى قال : تذاكَر قوم فى مجلس الأحنف الطعام والنساء ، فقال الأحنف : جنّبوا مجالسكم النساء والطعام ، فإنى أكره للرجل السَّرِىّ أن يكون وَصّافًا لبطنه وقد عرف ما يحور إليه ، ولفرجه وقد علم أين مجلسه .

[قصيدة السموءل بن عادياء]

قال أبو على : وقرأت على أبى بكر للسَّموءَل بن عادياء اليهودى :

إذا المرء لم يدنس من اللُّؤم عِرضُه ... فكل رداء يرتديه جميل
إذا[1] المرء لم يَحْمِلْ على النفس ضَيْمَها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل
تُعَيِّرنا أنا قليلٌ عَديدُنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما قَلّ من كانت بقاياه مِثْلَنَا ... شَبابٌ تَسامَى للعُلا وكُهول
وما ضَرَّنا أنا قليلٌ وجارُنا ... عزيز وجارُ الأكثرين ذليل
لنا جَبَلٌ يحتَلُّه مَنْ نُجيره ... مَنيعٌ يردُّ الطَّرف وهو كليل
رسا أصلُه تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فَرْعٌ لا يُرام طويل
وإنا لَقَوْمٌ ما نرى القتل سُبَّة ... إذا ما رأته عامِرٌ وسَلُول
يُقَرِّبُ حُبُّ الموت آجالَنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حَتْفَ أنفه ... ولا طُلَّ[2] منا حيث كان قتيل

قال أبو على : وهذا مثل قول عمرو بن شاس :

« لَسْنا نموت على مضاجعنا ... بالليل بل أدواؤنا القتل »
تَسيل على حَدِّ الظُّبات نفوسُنا ... وليست على غير السيوف تَسيل
صَفَوْنا فلم نَكْدُرْ وأخلَصَ سِرَّنا ... إناثٌ أطابت حَمْلَنَا وفُحول
عَلَوْنا إلى خير الظهور وحَطَّنا ... لوقت إلى خير البطون نُزول
فنَحْنُ كماء المُزْنِ ما في نِصابنا ... كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخيل
وتنكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القوم حين نقول
إذا سَيِّدٌ منا خَلاَ قام سيد ... قؤول لما قال الكرام فعول

(١) المشهور فى رواية هذا البيت وإن هو لم يحمل بدل إذا المرء لم يحمل .
(٢) طل : لم يؤخذ له بثأر .

وما أُخْمِدَتْ نارٌ لنا دون طارق … ولا ذمَّنا فى النازلين نزيل
وأيامُنا مشهورة فى عدونا … لها غُرَرٌ معلومة وحُجُول
وأسيافُنا فى كل غَرْبٍ ومشرق … بها من قِراع الدّارعين فُلول
مُعَوَّدة ألا تُسَلّ نصولُها … فَتُغْمَدَ حتى يُسْتَباح قَبيل
سَلِى إن جَهِلْتِ الناس عنا وعنهم … وليس سَواءٌ عالمٌ وجهول
فإنَّ بَنى الدَّيّان[1] قُطْبٌ لقومهم … تَدُور رَحاهم حَوْلَهم وتَجُول

وأنشدنا أبو بكر بن الأنبارى قال أنشدنا أبو العباس أحمد بن يحيى للفرزدق :

يُفَلِّقْن هاَ مْن لم تَنَلْه سيوفنا … بأسيافنا هامَ الملوك القَماقم

قال أبو العباس : ها تنبيه والتقدير يفلقن بأسيافنا هام الملوك القماقم ، ثم قال : ها للتنبيه ، ثم قال مستفهما : من لم تنله سيوفنا ؟ ، قال أبو بكر : وسمعت شيخا منذ حين يعيب هذا الجواب ويقول : يفلقن هامًا جمع هامة وهام الملوك مردود على هامًا كما قال جلّ ثناؤه : « إلى صراط مستقيم صراط الله » فاحتججت عليه بقوله لم تنله ، وقلت له : لو أراد الهام لقال : لم تنلها لأن الهام مؤنثة لم يؤثر عن العرب فيها تذكير ، ولم يقل أحد منهم : الهام فلقته ، كما قالوا : النخل قطعته، والتذكير والتأنيث لا يعمل قياسا إنما يبنى فيه على السماع واتباع الأثر .

وأنشدنا أبو عبد الله نفطويه قال : أنشدنا أحمد بن يحيى النحوى لمطيع بن إياس الكوفى يرثى يحيى بن زياد الحارثى :

ويُنادُونه وقد صم عنهم … ثم قالوا وللنساء نَحيبُ
ما الذى غالَ أن تُحير جوابا … أيها المِصْقَع الخَطيب الأديب
فَلَئِنْ كنتَ لا تُحيرُ جوابا … فَبِما قد تُرَى وأنت خطيب
فى مقال وما وَعَظْتَ بشىء … مثل وَعْظ بالصَّمْت إذ لاتُجيب

وقرأت على أبى بكر فى أشعار هذيل – ولم أر أحدا يقوم بأشعار هذيل غيره – لأبى خِراش الهذَلىّ :

حَمِدْتُ إلهى بعد عروة إذ نجا … خِراش وبَعْض من بعض
فو الله لاَ أَنْسَى قتيلا رزئته … بجانب قوسى[2] ما مَشَيْتُ على الأرض

(١) الديان . هو يزيد بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن كعب الحارثى أبو قطين وكان شريف قومه (راجع تاج العروس مادة دين) .
واسمه خويلد بن مرة مات زمن عمر بن الخطاب .
(٢) قوسي : بلد بالسراة قتل بها عروة أخو أبي خراش الهذلى ونجا ولده فقال في ذلك الأبيات المذكورة .

بلَى إنَّهـا تَعْـفـو الكُلومُ وإنما نوكَّلُ بالأدْنَى وإن جَلَّ ما يَمْضِى
ولم أدرِ من ألْقَى عليه رِدَاءه خَلا أنه قد سُلَّ عن ماجدٍ مَحْض
ولم يك مَثْلوجَ الفؤاد مُهَبَّجا أضاعَ الشَّبابَ فى الرَّبيلة والخَفْض
ولكنَّه قد لوحته(١) مخامص(٢) على أنه ذو مِرَّة صادقُ النَّهْض
كأنهمُ يشْبِشُون بطائر خَفيف المُشَاش(٣) عَظْمُه غير ذى نَحْض(٤)
يُبَادِر قُرْبَ الليل فهو مهابذٌ يَحُثُّ الجناح بالتَّبسُّط والقبض

قال أبو على : المَثْلوج : البليد ، ومثله قول الآخر :

ولكنَّ قلبا بين جنبيْك بارد

والمهبَّج : المنتفخ ، ويروى : مُهَبَّلا ، وهو الثقيل الجافي ، والربيلة : الخَفْض والدَّعَة ، ويروى : الرِّبالة ، وهو كثرة اللحم لا اللحم نفسه . والمهابذ : المُجاهد فى العَدْو والسَّيْر ، ويقال : أهْذَب وأهْبَذ إذا اجتهد فى الإسراع .

وقرأت عليه لأبى عطاء السندى(٥) فى ابن هُبَيْرة :

ألا إنَّ عينًا لم تَجُدْ يومَ واسط عليك بجارى دمعها لَجَمُود
عَشِيَّةَ قام النائحات وشُقِّقتْ جُيوبٌ بأيدِي مَأْتَمٍ وخدود
فإن تُمْسِ مَهْجور الفناء فربَّما أقام به بعد الوُفود وُفود
فإنَّك لم تَبْعُد علي مُتَعَهِّد بَلَي كلُّ مَنْ تحتَ التراب بعيد

وأملي علينا أبو بكر بن الأنباري هذه القصيدة لجميل قال : وقرأتها علي أبي بكر بن دريد في شعر جميل ، وفي الروايتين اختلاف فى تقديم الأبيات وتأخيرها وفي ألفاظ بعض الأبيات :

ألا لَيْتَ أيامَ الصفاء تعود ودهراً تَولَّي يابُثَيْن جَديد
فَنَغْنَي كما كُنَّا نكون وأنتمُ صَديقٌ وإذ ما تَبْذُلين زَهيد

(١) لوحته : غيرته .

(٢) مخامص : جمع مخمصة وهى خلاء البطن من الطعام جوعا .

(٣) المشاش . العظام اللينة .

(٤) النحض . اللحم المكتنز . كذا فى تاج العروس ، وحماسة أبى تمام ، وفى الطبعة الأولى

(٥) (السدّى) بدون نون وهو تحريف .

وما أنسَ ملأشياء لا أنسَ قولها — وقد قربت نُصْرَى أمصر تُريد
خليليّ ما أُخفي من الوجد ظاهرٌ — فدمعي بما أُخفي الغداة شهيد
ألا قد أرى والله أن رُبَّ عَبْرة — اذا الدار شطّت بيننا ستزود
إذا قلت ما بي يا بُثينة قاتلي — من الحبّ قالت ثابتٌ ويزيد
وإن قلت ردّي بعض عقلي أعش به — مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردودٌ بما جئت طالبا — ولا حبّها فيما يبيد يبيد
جزتْك الجوازي يا بُثين ملامةً — اذا ما خليلٌ راح وهْو حميد
وقلت لها بيني وبينك فاعلمي — من الله ميثاقٌ لنا وعهود
وقد كان حبّيكم طريفاً وتالداً — وما الحبّ إلاّ طارفٌ وتليد
وإنّ عَروض(١) الوصْل بيني وبينها — وإن سهّلته بالمُنى لكؤود
فأفنيتُ عيشي بانتظاري نوالَها — وأبليتُ بذاك الدّهرَ وهْو جديد
فليتَ وشاةَ الناس بيني وبينها — تذوف(٢) لهم سُمّاً طماطمُ سود

وحدّثني أبو بكر بن الأنباري قال : حدّثني أبي قال : أنشدنا أحمد بن عبيد لامرأة من الأعراب

لَعمرك ما الرزيّةُ فقدُ مال — ولا شاةٌ تموت ولا بعيرُ
ولكنّ الرزية فقدُ قرمٍ — يموت بموته بشرٌ كثير

قال أبو علي : وأنشدنيهما بعض أصحابنا قال في البيت الأول : «هلْك مال» وقال في الثاني «هلك ميت و« خلق كثير» .

وأنشدني بعض أصحابنا لعليّ بن العباس الروميّ:

خيرُما استعصمتْ به الكفُّ عضبٌ — ذكرٌ حدُّه أنيثُ المهز
ما تأمّلته بعينيك إلاّ — أُرعشتْ صفحتاه من غير هزّ
مثله أفزع الشجاعَ الي الدّرْ — ع فغالى بها على كل بزّ
ما أبالي أصمّمتْ شفرتاه — في محزٍّ أم جارتا عن محزّ

(١) العروض . الطريق في عرض الجبل في مضيق يريد الطريق الى وصلها .
(٢) تذوف . تخلط وهى لغة في تدوف بالدال المهملة . والطماطم : جمع طمطم بكسر الطاء وهو من في لسانه عجمة ، وأراد بالطماطم هنا : الموالي .

أبو الفرج الأصفهاني (ت: ٣٥٦ هـ)[١]

هو أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان ابن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ، القرشي الأموي الكاتب الأصبهانيّ صاحب كتاب الأغاني . ومنه تري أن نسبه ينتهي إلي مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية .

ولد بأصبهان سنة ٢٨٤ أربع وثمانين ومائتين ، في خلافة المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق ، وهي السنة التي مات فيها البحتري الشاعر ، ونشأ ببغداد واستوطن بها ، كانت داره ببغداد واقعة علي دجلة في المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة ، وملاصقة لدار أبى الفتح البريدى .

وذكره أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر فقال :

« وكان من أعيان أدبائها (بغداد) وأفراد مصنفيها . وله شعر يجمع إتقان العلماء » .

ذكره ابن النديم في الفهرست فقال :

« كان شاعراً مصنفا أديبا ، وله رواية يسيرة ، وأكثر تعويل له كان في تصنيفه علي الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد » . ويؤيد هذا أنه في كتابه الأغاني يروي كثيرا من الأخبار بقوله : « نسخت من كتاب فلان » .

وذكره ابن الجوزى في كتابه المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » فقال:

« إنه كان متشيعاً ومثله لا يوثق بروايته فإنه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق ، ويهوي شرب الخمر وربما حكي ذلك عن نفسه ، ومن تأمل كتاب الأغاني رأي كل قبيح ومنكر » .

ونقل ابن شاكر في كتابه « عيون التواريخ » أن الشيخ شمس الدين الذهبي قال : « رأيت شيخنا تقي الدين بن تيمية يضعفه ويتهمه في نقله ويستهول ما يأتى به ، وما علمت فيه جرحا إلا قول ابن أبي الفوارس : خلط قبل ما يموت » .

---

(١) المصادر التي أخذنا منها هذه الترجمة هي :
معجم الأدباء لياقوت ، وفيات الأعيان لابن خلكان ، عيون التواريخ لابن شاكر ، الفهرست لابن النديم ، الكامل لابن الأثير ، نفح الطيب ، مقدمة ابن خلدون ، النجوم الزاهرة في أعيان مصر والقاهرة ، الجمهرة لابن حزم ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ، يتيمة الدهر ، كشف الظنون ، كتاب رنات المثالث والمثانى في روايات الأغاني .

كان أبو الفرج الأصفهاني ، مع كونه من صميم بني أمية ، علي مذهب الشيعة فقد قال التنوخي عنه : ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصفهاني . وقال ابن شاكر في عيون التواريخ عنه : إنه كان ظاهر التشيع . قال ابن الأثير في كتاب الكامل : وكان أبو الفرج شيعيا ، وهذا من العجب .

كان أبو الفرج كاتبا لركن الدولة حظيا عنده محتشما لديه . وكان يتوقع من الرئيس أبي الفضل بن العميد أن يكرمه ويبجله ويتوفر عليه [1] في دخوله وخروجه ، وعدم ذلك منه فقال :

مالُك موفورٌ فما بالُه أكسبك التيهَ علي المُعدمِ
ولِمْ إذا جئتَ نهضنا وإن جئنا تطاولتَ ولم تتمم
وإن خرجنا لم تقل مثلَ ما نقول « قدِّمْ طِرْفه قدمْ »
وإن كنت ذا علمٍ فمن ذا الذي مثل الذي تعلم لِم يعلم
ولستَ في الغارب من دولة ونحن من دونك في المَنْسِم [2]
وقد وَلِينا وعُزِلنا كما أنت فلم نصغُرْ ولم تعظُم
تكافأت أحوالُنا كلُّها فَصِلْ علي الإنصاف أو فاصرم

وكتب أبو الفرج إلى المهلّبي يشكو الفأر ويصف الهر :

يالحُدْبِ الظهور قُصْعِ الرقاب لدقاق الأنياب والأذناب
خُلِقتْ للفساد مذ خلق الخلـ ـق وللعَيْث والأذى والخرابَ
ناقبات في الأرض والسقف والحيـ ـطان نقبا أعيا على النّقّاب
آكلاتٍ كلّ المآكل لا تأ منها شاربات كلّ الشراب
آلفات قَرْضَ الثياب وقد يعـ ـدل قرضَ القلوب قرض الثياب
زال[3] هَمّي منهن أزرق تركـ ـيّ السّبالين[4] أنمر[5] الجلباب
ليث غابٍ خَلْقًا وخلقًا فمن لا ح لعينيه خاله ليثَ غاب
ناصب طرفَه إزاءَ الزوايا وإزاء السقوف والأبواب
ينتضى الظفر حين يظفر للصيـ ـد وإلا فظفره في قِراب

(١) توفر على صاحبه : رعي حامانه .
(٢) الغارب : ما بين العنق والسنام من البعير . والمنسم : خفه .
(٣) زال : فرق .
(٤) السبالان : الشاربان .
(٥) الأنمر : ما فيه نمرة بيضاء وأخرى سوداء .

لا ترى أخبشيه عين ولا يعـ ـلم ما جنّتاه[١] غير التراب
قـرّطوه[٢] وشنّفوه[٣] وحلّو ه أخيرا وأوّلا بالخضاب
فـهو طورا يمشى بحلْى عَروس وهو طورا يخطو على عُنّاب
حبذا ذاك صاحبًا هو فى الصحـ ـبة أوفى من أكثر الأصحاب

وقال من قصيدة في المهلب عِيديّة :

إذا ما علاَ فى الصدر للنهى والأمر وبشّهما فى النفع منه وفى الضر
وأجرى ظُبَا[٤] أقلامه وتدفّقتْ بديهته كالمستمدّ من البحر
رأيت نظامَ الدرّ فى نظم قوله منشوره الرقراق فى ذلك النثر
ويقتضب المعنى الكثير بلفظةٍ ويأتى بما تحوى الطوامير[٥] فى سطر
أيا غرّة الدهر ائتنف غُرّةَ الشهر وقابلْ هلال الفطر فى ليلة الفطر
بأيمنِ إقبالٍ وأسعد طائرٍ وأفضل ما ترجوه فى أفسح العمر
مضى عنك شهر الصوم يشهد صادقا بطهرك فيه واجتنابك للوزر
فأكْرِم بما خطّ الحفيظان منهما وأثنَى به المثنى وأطرى به المطرى
وزكّتك أوراق المصاحف وانتهى إلى الله منها طولُ درسك والذكر
وقبضُك كفّ البطش عن كل مجرمٍ وبَسْطُكَها بالعُرف فى الخير والبِرّ

وله فيه :

وهذا الشتاء كما قد ترى عسوفٌ[٦] علىّ قبيحُ الأثرْ
يُغادى بِصرٍّ من[٧] العاصفا ت أو دَمَقٍ[٨] مثل وَخْز الإبر
وسكّان دارك ممن أعو ل يَلْقَيْنَ من برده كلّ شرّ

---

(١) جن الشيء : أخفاه وستره .
(٢) قرطوه : ألبسوه القرط .
(٣) شنفوه : جعلوا له شنفا وهو القرط .
(٤) الظباء : جمع ظبة ، وهى فى الأصل حد السيف أو السنان ونحوه .
(٥) جمع طومار أو طامور وهو الصحيفة .
(٦) العسوف : الجائر الظلوم .
(٧) ريح صر : شديدة الصوت أو البرد .
(٨) الدمق : الريح والثلج .

فـــــهــــــذى تـحنّ وهـذى تئنّ وأدمعُ هـاتيـك تجـــــــرى دِرَر[١]

إذا مــــا تملمـلـن تحت الظلام تعلّـلـن منك بحُــــسن النظر

ولاحظن ربعك ، كــالممــحلين شــامـوا البــروق رجــاء المطر

يؤمّلـن عَـــودى بما ينتظرن كــمـا يُرتَجَى آئبٌ من سـفـر

فـأنعمْ بإنجاز مـا قـد وعدتَ فـمـا غـيـرُك اليـومَ من ينتظر

وعش لى وبعـدى فـأنت الحـيـا ة والسمع من جسدى والبصر

وقال من قصيدة يهنئه بمولود من سُرِّية رومية :

اسْعَدْ بمولود أتاك مبـاركـا كـالبـدر أشـرق جنحَ ليلٍ مـقـمـرِ

سعـد لوقت سعـادةٍ جـاءت به أُمٌ حَـصَانٌ[٢] من بنات الأصفـر

متبحبح[٣] فى ذروتى شرف العُلا بين المهلّب منتمـاه وقيصـر

شـمس الضحى قُرنت إلى بدر الدُّجَى حتى إذا اجتمعا أتت بالمشترى

ولما تولى أبو عبد الله البريدى الوزارة هجاه أبو الفرج بقصيدة طويلة أولها :

ياسمـاء اسقُطى ويا أرض مِيدِى قـد تولى الوزارة ابن البـريدى

ومنها :

يَالَقَـومى لَحـرِّ صـدرى وعَـولى وغليلى وقلبىَ المعمـود[٤]

حين سار الخميس[٥] يوم خـميس بالبـريدىّ فى ثيـابٍ سـودِ

قـد حباه بهـا الإمام اصطفاءً واعتمـادا منه لغير عميد

خِلَعٌ تخلع العـلا ولواءٌ عَقْدُه حلّ عُقْدةَ المعقود

---

(١) درر : جمع درة والدرة فى الأمطار أن يتبع بعضها بعضا .

(٢) الحصان : العفيفة .

(٣) متبحبح : متمكن .

(٤) المعمود : من عمده أى أضناه وأوجعه .

(٥) الخميس : الجيش لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة .

وقال أبو الفرج الأصفهاني : بلغ أبو الحسن جحظة أن مدرك بن محمد الشيباني الشاعر ذكره بسوء في مجلس كنت حاضره ، فكتب إلى :

أبا فـــرج أهجى لديك ويُعـتـــدى ... علىّ فـــلا تَحْـــمَي لذاك وتغـضب

فكتبت إليه :

لعـمـرك مـا أنصـفـتنى فى مـودّتى ... فكن مُـعـتـبـا إنّ الأركـام تُعـتِبُ

عـجـبْت لـمـا بُلِّغت عنّىَ باطلاً ... وظنُّك بى فـيـه لعـمـرك أعـجبُ

ثَكلتُ إذاً نفـسى وعِـرْسى وأُسرتى ... بفَـقْـدى ولا أدركت مـاكنتُ أطلبُ

فكيف بمن لاحَظُّ لى فى لقـائه ... وسـيّـان عندى وصلُه والتـجنُّبُ

فـثِقْ بأخٍ أصـفـاك مَـحْضَ مـودّةٍ ... تَشَـاكل منهـا مـا بدا والمُغَـيَّبُ

وقال من قصيدة يرثى بها ديكا وهى من أجود ما قيل فى مراثى الحيوان :

خـطـبٌ طُـرقـتُ بـه أمــرٌ طُروق ... فَظٌّ الحُلولِ علىّ غـيـرُ شـفـيق

فكأنما نُوَبُ الزمـان مـحـيطةٌ ... بى راصـدات(١) لى بكلّ طريق

حـتى متى تُنحِى(٢) علىّ صـروفـهـا ... وتُغـصّنى فَـجَـعـاتُهـا بالريق

ذهبتْ بكلّ مـصـاحب ومناسبٍ ... ومُـوافق ومُـرافق وصـديق

حـتى بديكٍ كنتُ آلَفُ قـربَه ... حـسنٍ إلىّ من الديوك رشـيق

ومنها :

لهـفى عليك أبا النذير لَوَ انّه ... دَفَعَ المنايا عنك لَهْفُ شـفـيق

وعلى شـمـائلك اللواتى مـا نمتْ ... حـتى ذوتْ من بعـد حسن سُمُـوق(٣)

لما بَقِـعْتَ(٤) وصـرتَ عِلْقَ(٥) مَضِنّةٍ ... ونشـأت نَشْءَ المقبل الموموق(٦)

(١) راصدات : راقبات .
(٢) تنحى : تقبل .
(٣) سموق : علو وارتفاع .
(٤) يقال : بقع الطير : أى اختلف لونه فهو أبقع .
(٥) العلق : النفيس من كل شيء . ويقال : هذا الشيءعلق مضنة أى يضن به .
(٦) الموموق : المحبوب .

وتكاملت جُمَلُ الجمال بأسْرها ... لك من جليل واضح ودقيق
وكُسيتَ كالطاوس ريشا لامعا ... متلألئا ذا رونقٍ وبريق
من حُمرةٍ فى صُفرةٍ فى خضرة ... تخييلُها يُغنى عن التحقيق
عَرَضٌ يَجِلُّ عن القياس وجوهرٌ ... لَطُفَتْ معانيه عن التدقيق
وخطرتَ ملتحفًا ببُرْدٍ حَبَّرتْ(١) ... منه بديع الوَشْى كَفٌّ أنيق
كالجُلَّنارة(٢) أو صفاءِ عقيقةٍ ... أو لمع نارٍ أو وميض بُروق
أو قَهْوةٍ(٣) تختال فى بَلُّورةٍ ... بتألق الترويق(٤) والتصفيق(٥)
وكأنّ سالفَتَيْك(٦) تِبْرٌ سائلٌ ... وعلى المفَارق(٧) منك تاجَ عقيق
وكأنّ مَجْرَى الصوت منك إذا نبتْ ... وجَفَتْ عن الأسماع بُحٌّ(٨) حلوق
ناىٌ(٩) دقيقٌ ناعمٌ قُرِنتْ به ... نَغَمٌ مؤلَّفة من المُوسِيقى

ومنها :

أبكى إذا أبصرتُ ربْعَك مُوحِشًا ... بتحنُّنٍ وتأسُّفٍ وشهيق
ويزيدنى جَزَعًا لفقدك صادح ... في منزلٍ دانٍ إلىّ لصيق
قَرَع(١٠) الفؤادَ وقد زقا فكأنه ... نادَى ببَيْنٍ أو نَعِيِّ شقيق
فتأسفى أبدًا عليك مُواصَلٌ ... بسواد ليلٍ أو بياض شُروق
وإذا أفاق ذوو المصائب سَلْوةً ... وتصبَّروا أمسيتُ غيرَ مُفيق

(١) حبرت : حسنت .
(٢) الجلنار : زهر الرمان ، معرّب كلنار .
(٣) القهوة : الخمر .
(٤) الترويق : التصفية .
(٥) التصفيق : يقال : صفق فلان الشراب إذا حوله من إناء إلى إناء ليصفو .
(٦) السالفتان : صفحتا العنق .
(٧) المفارق : جمع مفرق ، وأصله وسط الرأس الذي يفرق فيه الشعر ، والمراد هنا أعالى الرأس ،
(٨) بح : جمع أبح من البحة وهى خشونة وغلظ فى الصوت .
(٩) الناى من آلات اللهو أعجمي معرب ، وعربيه رمخر ومزمار .
(١٠) قرع الفؤاد : فجأه .

لأبي الفرج الأصفهاني مصنفات كثيرة عدا كتاب الأغاني ، منها : كتاب مجرَّد[١] الأغاني ، وكتاب أخبار القيان ، وكتاب الإماء الشواعر ، وكتاب المماليك الشعراء ، وكتاب أدب الغرباء ، وكتاب الديارات ، وكتاب تفضيل ذى الحجة ، وكتاب الأخبار والنوادر ، وكتاب مقاتل الطالبيين[٢] ، وكتاب أدب السماع ، وكتاب أخبار الطفيليين ، وكتاب مجموع الأخبار والآثار ، وكتاب الخمَّارين والخمَّارات ، وكتاب الفرق والمعيار في الأوغاد والأحرار[٣] ، وهي رسالة عملها في هارون بن المنجم ، وكتاب دعوة التجار ، وكتاب أخبار جحظة البرمكى ، وكتاب نسب بني عبد شمس ، وكتاب نسب بنى شيبان ، وكتاب نسب المهالبة ، وكتاب نسب بني تغلب ، وكتاب نسب بنى كلاب ، وكتاب الغلمان المغنين ، وكتاب مناجيب الخصيان عمله للوزير المهلبى فى خصيين مغنين كَانَا لَهُ ، وكتاب الحانات ، وكتاب التعديل والانتصاف في أخبار القبائل وأنسابها[٤] وهو كتاب جمهرة أنساب العرب[٥] وكتاب أيام العرب : ألف وسبعمائة يوم ، وكتاب دعوة الأطباء وكتاب تحف الوسائد في أخبار الولائد ، وجمع ديوان أبى تمام ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع كما هو الآن فى نسخة مصر ، وجمع ديوان أبى نواس ، وجمع ديوان البحترى ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع كما فعل بديوان أبى تمام وله أيضا كتاب فى النغم [٦]ورسالة فى الأغاني[٧] .

---

(١) أشار إلى هذا الكتاب فى أول مقدمته فى كتاب الأغانى حيث قال فى الصفحة الأولى : ولم يستوعب كل ماغنى فى هذا الكتاب ولا أتى بجميعه ، إذ كان قد أفرد لذلك كتابا مجردا من الأخبار ومحتويا على جميع الغناء المتقدم والمتأخر .

(٢) طبع هذا الكتاب بطهران فى سنة ١٣٠٧ هـ .

(٣) ذكر صاحب الفهرست هذا الكتاب وذكر له كتابا آخر باسم كتاب « صفة هارون » .

(٤) كذا فى معجم الأدباء وتاريخ ابن شاكر ، وفى تاريخ ابن خلكان « فى مآثر العرب ومثالبها » .

(٥) نبه على ذلك المؤلف في كتاب الأغانى جزء ١٩ص ٥٣ (طبعة بولاق) .

(٦) ورد ذكر هذا الكتاب فى كتاب الأغانى ج٩ ص ٤٩ .

(٧) ورد ذكر هذه الرسالة فى كتاب الأغانى ج ٥ ص ٥٣ (طبعة بولاق) .

أخبار ابن سُرَيج ونسبه

هو عُبيد بنُ سُرَيج ، ويُكنّى أبا يحيى ، مولَى بنى نوفَلِ بنِ عبدِ منَافٍ ، وذكَر ابن الكلبى عن أبيه وأبى مِسْكينٍ أنه مولًى لبنى الحارث بنِ عبد المطَّلب .

وأخبرنى أحمدُ بن عبد العزيز الجوهرى قال حدثنا عمر بنُ شبّة قال حدثنا محمد بن يحيى أبو غسَّان قال : ابن سريج مولًى لبنى ليْث ، ومنزلُه مكة .

وأخبرنى الحسين بن يحيى عنِ حمَّاد بنِ إسحاقَ عن أبيه قال : سألت الحَسَن بن عتبة اللَّهبى عن ابن سريج فقال : هو مولًى لبنى عائذ بنِ عبدِ الله بن عمر بن مخزوم ، وفى بنى عائذ يقول الشاعر :

فإن تَصلُحْ فإنَّكَ عائذيٌّ وصَلْحُ العائذىِّ إلى فَسَاد

قال إسحاقُ : وقال سَلَمةُ بن نوْفل بنِ عمارَةَ : ابن سُرَيْج مولى عبد الرحمن بنِ أبى حُسين بنِ الحارث بن نوفلٍ ، أوِ ابن عامرِ بنِ الحارث بن نوفلِ بن عبد منَافٍ .

أخبرنى أحمد بن عبد العزيز عن أبى أيُّوبَ المَدينىّ قال : ذكر إبراهيمُ بن زِيَاد بن عَنْبَسَة ابن سعيد بن العاصِ :

أنَّ ابنَ سُرَيْج كان آدَمَ أحمرَ ظاهرَ الدَّم سِنَاطًا(١) في عينيه قَبَلٌ (٢)، بلغ خمساً وثمانين سنةً ، وصلِعَ فكان يلبَس جمَّةً(٣) مركَّبة ، وكان أكثر ما يرى مقنَّعا(٤) ، وكان منقطعاً إلى عبد الله بنِ جعفر .

وقال ابن الكلبى عن أبيه قال : كان ابنُ سُرَيجٍ مُخنَّثاً أحولَ أعمشَ يلقَّب « وجهَ الباب »، وصلِعَ فكان يلبس جمَّة ، وكان لا يُغنِّي إلا مقنَّعاً يسبِلُ القنَاعَ على وجهه .

وقال ابنُ الكَلْبىّ عن أبيه وأبى مسكينٍ : كان ابنُ سُرَيْجٍ أحسنَ الناسِ غناءً وكانَ يغنّى مرتَجِلا ويوقع بقضيب ، وغنى فى زمن عثمانَ بنِ عفّان رضى الله عنه وماتَ فى خِلافة هشامِ ابن عبد الملك .

قال إسحاقُ : وكان الحَسَنُ بن عُتْبَةَ اللَّهَبى يَروِى مثلَ ذلك فيه ، وذكَر أن قبره بنَخْلَة(٥) قريباً من بستانِ ابنِ عامر (٦)

(١) السناط : الذى لا لحية له أو الخفيف العارض أو من لحيته بالذقن وليس بالعارضين شيء .
(٢) القبل في العين : إقبال إحدي الحدقتين على الأخرى .
(٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس ، والمراد أنه كان يلبس شعرا مصطنعاً .
(٤) مقنعا : لابسا القناع وهو ما يوضع علي الرأس .
(٥) المراد بها نخلة اليمانية وهى واد يصب فيه يدعان وبه مسجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبه عسكرت هوازن يوم حنين .
(٦) بستان ابن عامر ، هو مجتمع النخلتين ، وكذلك يسميه العامة ، والصواب فيه بستان ابن معمر ؛ لأنه كان لعمر بن عبد الله بن معمر .

قال إسحاق وحدّثني الهيْثَمُ بنُ عَدِىّ عن صالح بنِ حَسّان قال : كان عبيد بن سَريج من أهل مكّةَ وكان أحسنَ الناسِ غناءً ، قال إسحاق قال عُمارَةُ بن أبى طَرَفة الهُذَلىّ : سمعتُ ابن جُرَيج يقول : عُبَيْد بنُ سريج من أهل مكةَ مولَى آل خالد بن أسيد .

قال إسحاق وحدّثنى إبراهيمُ بن زِيَاد عن أيوبَ بنِ سَلَمَةَ المَخْزُومِى قال : كان فى عين ابنِ سُرَيج قَبَلٌ حُلْو لا يبْلُغ أن يكون حَوَلا ، وغنّى فى خلافة عثمانَ رضى الله عنه ، ومات بعدَ قتل الوليد بن يزيد وكان صلع فى جبهته وكان يلبس جمة مُرَكّبة فيكونُ فيها أحسنَ شيء ، وكان يُلقَّب « وجهَ الباب » ولا يغضب من ذلك وكان أبوه تُرْكيًّا .

وقال أبو أيوبَ المدَينى : كان ابنُ سُرَيج ، فيما روّينَا عن جَمَاعة من المكّيّين ، مولَى بنى جنْدَع بن ليْثِ بن بَكْر ، وكان إذا غنّى سَدَل قِناعَه على وجهه حتى لا يُرى حَوْلَه ، وكان يُوقِعُ بقِضيبٍ ، وقيل : إنه كان يضرِب بالعُود ، وكانت عِلّته التى مات منها الجُذَامَ .

قال إسحاق وحدّثنى أبى قال : أخبرنى مَنْ رأى عُودَ ابنِ سُرَيج وكان على صَنْعة عِيدان الفُرْس ، وكان ابنُ سُرَيج أولَ من ضرَب به على الغناء العربىّ بمكة وذلك أنه رآه مع العَجَم الذين قَدِم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة ، فأعجب أهل مكه غناؤهم ، فقال ابن سُرَيج : أنا أضرب به على غنائى ؛ فضرَب به فكان أَحْذَقَ الناسِ .

قال إسحاق وذكر الزُّبيرىّ : أنّ أم ابنِ سُرَيج مَوْلاة لآلِ المُطَّلب يقال لها « رائقَةُ » ، وقيل : بل أُمُّه هند أختُ رائقةَ ؛ فَمِن ثَمّ قيل : إنه مَوْلَى بنى المُطلب بن حنطب ، وكان ابنُ سُرَيج بعد وفاة عبد الله بن جَعْفَرٍ قد انقطع إلى الحكَم بن المطّلب بن عبد الله بن المُطّلب بن حنطب أحد بنى مَخزوم ، وكان من سادةِ قُرَيش ووجوهها ، وأخَذ ابنُ سُرَيج الغناء عن ابن مِسْجَح .

قال إسحاق : وأصلُ الغناء أربعةُ نَفَرٍ : مكّيانِ ومَدَنيّان ؛ فالمكّيان : ابنُ سُرَيج وابن مُحْرِز ، والمدنيان : معْبَد ومالكٌ .

قال إسحاقُ وقال سلمة بنُ نَوْفَلِ بن عُمَارَةَ : أخبرنى بذلك مَنْ شئتَ من مَشْيَختنَا : أن يوماً شُهِرَ فيه ابنُ سُرَيج بالغناء فى خِتَان ابنِ مَوْلاه عبدِ الله بنِ عبد الرحمن بن أبى حُسَين ، قال لأمّ الغلام : خفّضِى عليك بعضَ الغُرْم والكُلْفة ؛ فو الله لأُلْهِيَنّ نساءك حتى لا يَدْرِين

ما جئتِ به ولا ما عزّمت عليه .

قال إسحاق : وسألتُ هِشَامَ بنَ المُرِّيّة ، وكان قد عُمِّر ، وكان عالمًا بالغناء فلا يُمَارَى فيه ، فقلتُ له : مَنْ أحْذَقُ الناسِ بالغناء ؟ فقال لى : أتحبُّ الإطالة أم الاختصار ؟ فقلت : أُحبُّ الاختصارَ الذى يأتى على سؤالى ، قال : ما خلَق اللّه تعالى بعد داود النبىِّ عليه الصلاة والسلام أحسنَ صوتًا من ابن سُرَيج ، ولا صاغ اللّهُ عزّ وجلّ أحدًا أحْذقَ منه بالغناء ، ويَدلّك على ذلك أن مَعْبدًا كان إذا أعجبه غناؤه قال : أنا اليومَ سُرَيْجِىّ .

قال وأخبرنى إبراهيمُ - يعنى أباه - قال : أدركتُ يونُسَ بنَ محمدٍ الكاتبَ فحدَّثنى عن الأربعة : ابنِ سُرَيج وابنِ مُحْرِز والغَرِيض ومَعْبَد ، فقلت له : من أحسنُ الناسِ غناء ؟ فقال : أبو يَحْيَى ، قلت : عُبَيدُ بنُ سُرَيج ؟ قال نعمْ ، قلت : وكيف ذاكَ ؟ قال : إن شئتَ فسَّرْتُ لك ، وإن شئتَ أجْمَلْتُ ، قلت : أجْمِلْ . قال : كأنه خُلِقَ من كلِّ قَلْبٍ ، فهو يغنّى لكل إنسانٍ ما يَشْتَهِى .

أخبرنى أحمدُ بن جَعْفَرٍ جَحْظَةُ قال : حَمّادُ بنُ إسحاقَ : أخبرنى أبى عن الفضل بن يحيى بن خالد بن برْمَك قال : سألتُ إبراهيمَ المَوْصلىَّ ليلةً وقد أخَذ منه النبيذُ : مَنْ أحْسَنُ الناسِ غناءً ؟ فقال لى : من الرجالِ أم من النساء ؟ فقلتُ : من الرجال ، فقال : ابنُ مُحْرِز ، قلتُ : ومنَ النساء ؟ قال : ابنُ سُرَيج ، ثم قال لى : إنْ كان ابنُ سُرَيج إلا كأنه خُلِقَ من كلِّ قلب فهو يُغَنِّى له ما يشتهى !

أخبرنى جَحْظَةُ قال حدّثنى علىُّ بنُ يحيى المنجم قال : أرسلنى محمد بنُ الحُسين بنِ مُصْعَب إلى إسحاقَ أسألُه عن لحنِه ولحنِ ابن سُرَيج فى :

★ تَشَكَّى الكميت الجرى لما جَهَدْتُه ★

أيهما أحسنُ ؟ فصرْت إليه فسألته عن ذلك ، فقال لى : يا أبا الحَسَنِ ، واللّه لقد أخذتُ بخَطام راحلته فزَعْزَعْتُها وأنختُها وقمتُ بها فما بَلغتهُ ، فرجَعت إلى محمد بن الحُسين فأخبرتُه ، فقال : واللّه إنه ليَعْلَم أن لحنَه أحسنُ من لحنِ بنِ سُرَيج ، ولقد تحَامَلَ لابن سُرَيج على نفسه ، ولكن لا يَدَعُ تعَصُّبَهُ للقُدَماء ، وقد أخبرنا يحيى بنُ على بن يحيى هذا الخبرَ عن

أبيه ، فذكَر نحوَ ما ذكره جَحْظَةُ في خبره ولم يُقلْ : أرسلني محمد بن الحسين إلي إسحاق ، وقال جحظة في خبره : قال عليُّ بنُ يحيى : وقد صدَق محمدُ بنُ الحُسَين لأنه قلّما غُنِّى فى صوت واحد لحنان فسقَط خيرُهما ، والذي في أيدى الناس الآنَ من اللحنين لحنُ إسحاق ، وقد تُرِك لحنُ ابن سُرَيج ، فَقلَّ مَنْ يسمُعه إلا من العَجائزِ المتقدِّماتِ مشايخ المغنِّينَ ، هذا أو نحوه .

وأخبرني يحيى بن عليّ حدّثنا أبو أيوبَ المدَيني عن إبراهيمَ بنِ عليّ بن هشام قال : يقولون إنّ ابتداء غناء إسحاق الذى في :

تَشَكَّى الكميت الجرْىَ لمَّا جَهَدْتُه .

إنما أخذه من صوتِ الأَبْجَرَ :

يقولون ما أبكاك والمالُ غامرُ

نسبة هذا الصوت

صـوت

يقـــولون مـــا أبكاكَ والمالُ غـــامـــرُ عليكَ وضَـــاحِي الجلدِ منكَ كَنينُ

فـــقُلْتُ لهم لا تَسْـــأَلُونى وانظروا إلى الطَّربِ النَّزَّاعِ كـــيفَ يكونُ

غنّاه الأَبْجَرُ ثقيلا أول بالبِنْصَر ، عن عَمْرٍو ودنَانِيرَ ، وذَكَرَ الهِشَامِىّ أنْ فيه لعَزّةَ المرْزوقِيَّة ثانى ثقيلٍ بالوُسْطى .

أخبرني رِضْوَانُ بنُ أحمدَ الصَّيْدَلانى قال حدّثنا يوسفُ بنُ إبراهيمَ قال : حدّثنى إبراهيمُ ابنُ المَهْدِىّ قال : حدّثنى إسماعيلُ بنُ جامع عن سِيَاطٍ قال :

كان ابنُ سُرَيج أول مَنْ غنى الغناءَ المُتْقَنَ بالحجاز بعد طُوَيس ، وكان مَولدُه فى خلافة عمر بنِ الخَطّاب ، وأدرك يزيد بنَ عبد الملك وناح عليه ، ومات فى خلافة هشام ، قال :

وكان قبلَ أن يُغَنِّيَ نائحًا ولم يكن مذكوراً ، حتى وَرَدَ الخبرُ مكَّةَ بما فعله مُسْرِفُ[1] بن عُقْبَةَ بالمدينة ، فعَلا على أبى قُبَيْسٍ وناح بشعرٍ هو اليومَ داخلٌ فى أغانيه ، وهو :

يا عينُ جُودِى بالدُّموعِ السُّفَّاحِ[2] وابكى على قَتْلَى قُرَيْشِ البِطَاحِ[3]

---

(١) هو لقب مسلم بن عقبة المرى صاحب وقعة الحرة الذى وجهه يزيد بن معاوية فى جيش عظيم لقتال ابن الزبير بالمدينة ، فقاتل أهلها وهزمهم وأباح المدينة ثلاثة أيام ، وقد لُقِّب مسرفا لأنه أسرف فى القتل فى هذه الوقعة ، قال على بن عبد الله بن عباس :

وهم منعوا ذمارى يوم جاءت كتائب مسرف وبنو اللكيعة

(٢) السفاح : جمع سافح من سفح الدمع سفحا وسفوحا وسفحانا : انصب ، ويقال أيضا : سفحت العين الدمع سفحا سفوحا إذا أرسلته . (٣) البطاح : جمع بطحاء ، والبطحاء : مسيل فيه دقائق الحصى ، وقريش البطاح كما قال ابن الأعرابى : الذين ينزلون الشعب بين أخشبى مكة ، وقريش الظواهر : الذين ينزلون خارج الشعب ، وأكرمهما قريش البطاح ، وقال الزبير بن أبى بكر : قريش البطاح بنو كعب بن لؤى ، وقريش الظواهر ما فوق ذلك ، سكنوا البطحاء والظواهر ، وقبائل بنى كعب منهم عدى وجمح وسهم وتيم ومخزوم وزهرة وأسد وعبد مناف ، كل هؤلاء قريش البطاح . وأما قريش الظواهر فهم بنو عامر بن لؤى : وإنما سموا بذلك لأن قريشا اقتسموا فأصاب الأوّلون البطحاء وأصاب الآخرون الظواهر ، فهذا تعريف القبائل لا للمواضع ؛ فإن البطحاويين لو سكنوا الظواهر كانوا بطحاويين ؛ وكذلك الظواهر لو كانوا سكنوا البطحاء كانوا ظواهر وقد جمعا معا فى قول الشاعر :

فلو شهدتنى من قريش عصابة قريش البطاح لا قريش الظواهر

وقد قيل بصيغة الجمع وليس فى مكة إلا بطحاء واحدة ؛ لأن العرب تتوسع فى كلامها وشعرها فتجعل الواحد جمعا أو مثنى وينقلون الألقاب ويغيرونها لتستقيم لهم الأوزان ؛ قال أبو تمام يمدح الواثق :

يسمو بك السفاح والمنصور والـ ـمهدى والمعصوم والمأمون

وأراد بالمعصوم المعتصم ، وقال ابن نباتة :

فأقام باللورين حولا كاملا يترقب القدَرَ الذى لم يُقدَر

وما فى البلاد إلا اللور المعروفة ، وإذا صح بإجماع أهل اللغة أن البطحاء الأرض ذات الحصى ، فكل قطعة من تلك الأرض بطحاء . (انظر ياقوت فى مادة البطاح وديوان أبى تمام طبع مصر ص ٣٣٠) .

فاستحسن الناسُ ذلك منه ، وكان أوّلَ ما نَدَب به .

قال ابنُ جَامع : وحدَّثني جماعةٌ من شُيُوخ أهلِ مكةَ أنهم حدَّثُوا : أنْ سُكَينة بنتَ الحُسَين عليهما السلام بعثَتْ إلى ابنِ سُرَيج بشعرٍ أمرتْه أن يَصُوغَ فيه لحناً يُنَاح به ، فصاغ فيه ، وهو الآن داخلٌ في غنائه ، والشعر :

يا أرضُ ويْحكِ أكْرِمي أمواتي فلقد ظَفِرْتِ بسادتي وحُماتي

فقدَّمه ذلك عند أهل الحَرَمَيْن على جميع نَاحَةِ مكةَ والمدينة والطائِف .

قال وحدّثني ابنُ جَامع وابن أبي الكنات[1] جميعا : أن سُكَينة بعثَتْ إليه بمملوكٍ لها يقال له عبد الملك ، وأمَرتْه أن يُعلّمه النِّيَاحَةَ ، فلم يَزَلْ يعلّمه مدّة طويلة ، ثم تُوفّيَ عمُّها أبو القاسم محمد ابن الحَنَفيَّة عليه السلام ، وكان ابن سُرَيج عَليلا علَّةً صَعْبَةً فلم يقدر على النِّيَاحة ، فقال لها عبدها عبد الملك : أنا أنوحُ لك نَوْحا أُنْسيكِ به نَوْحَ ابنِ سُرَيج ، قالتْ : أوَ تُحْسِنُ ذاك ؟ قال نعمْ ، فأمرتْه فناح ؛ فكان نَوْحُه في الغاية من الجودة ، وقال النساء : هذا نوْحٌ غَرِيضٌ ؛ فلُقِّب عبدُ الملك الغَرِيضَ ، وأفاق ابنُ سُرَيج من علّته بعد أيام وعرَف خبرَ وفاة ابن الحنفيَّة ، فقال لَهم : فمَنْ ناح عليه ؟ قالوا : عبدُ الملك غلامُ سُكَينة ، قال : فهل جَوّز[2] الناسُ نوحهَ ؟ قالوا : نعمْ وقدَّمه بعضُهم عليك ، فحلَف ابنُ سُرَيج ألا ينوحَ بعد ذلك اليوم ، وترك النوحَ وعدَل إلى الغناء ، فلم يَنُحْ حتى ماتت حَبَابةٌ ، وكانت قد أخذَتْ عنه وأحسنتْ إليه فناح عليها ثم ناح بعدَها على يزيدَ بنِ عبد الملك ، ثم لم يَنُح بعدَ حتى هلَك

قال : ولمّا عَدل ابن سُرَيج عن النَّوْح إلى الغناء عَدَل معه الغَرِيضُ إليه ، فكان لا يُغنّي صوتاً إلا عارضه فيه .

(١) لم نعثر على ضبطه ، وقد ورد في نهاية الأرب للنويرى فى الجزء الرابع في ترجمته (الكيات) بالباء والكنة : روح الابن أو الاخ ، وستأتى ترجمته فى الجزء السابع عشر من الأغانى .

(٢) أي أصاغوا له ذلك وارتضوه ، ضبط في الكامل لابن الأثير طبع بولاق جزء ٥ صفحة ٥٠ سطر٣ بتخفيف الباء الموحدة ؛ إذ يقول : سلامة بتشديد اللام ، وحبابة بتخفيف الباء الموحدة ، وذلك فى ذكره لسيرة يزيد بن عبد الملك ، وفى ترجمة حبابة فى الجزء الثالث عشر من الأغانى شعر يدل على أنه بتخفيف الباء أيضا وهو :

أبلـغ حبابة أسقى ربعـها المطر ما للفؤاد سوي ذكراكم وطر
إن سار صحبى لم أملك تذكركم أو عرسوا فهموم النفس والسهر

أخبرني رضْوان بنُ أحمدَ الصيْدَلانيّ قال حدّثنا يوسفُ بن إبراهيمَ قال : حدّث[١] إسحاقُ ابنُ إبراهيمَ المَوْصِليّ أبا إسحاق إبراهيمَ بنَ المَهْديّ وأنا حاضرٌ أن يحيى المكّيّ حدّثه أن عطَاءَ ابنَ أبي ربَاح لَقي ابنَ سُرَيج بذي طُوًى[٢] ، وعليه ثياب مُصبّغة وفي يده جرادةٌ مشدودةُ الرِّجل بخيطٍ يطيِّرها ويجذبُها به كلّما تخلّقت[٣] ، فقال له عطاء : يا فتّانُ ، ألا تكف عما أنت عليه ! كفَى اللهُ الناسَ مؤنتَك ، فقال ابنُ سُرَيج : وما على الناس من تلْويني ثيابي ولَعبي بجَرادتي ؟ فقال له : تَفْتنهم أغانيك الخبيثة فقال له ابنُ سُرَيج : سألتُك بحقّ من تبعْتَه من أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلّم ، وبحقّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليك، إلا ما سمعتَ مني بيتا من الشعر ، فإن سمعتَ منْكَرا أمرتنّي بالإمساك عما أنا عليه ، وأنا أقسم بالله وبحق هذه البَنِيّة لئن أمرتَني بعد استماعك منّي بالإمساك عما أنا عليه لأفعلنّ ذلك فأطمع ذلك عطَاءً في ابنِ سُرَيج ، و قال : قُلْ ، فاندفع يغني بشعر جرير :

صــوت

إنّ الذيـــن غَــدَوْا بلُبِّكَ غادرُوا   وَشَلاً[٤] بعينك لا يزال مَعينا[٥]

غيّضْن[٦] من عبَراتهنّ وقُلْنَ لي   مــاذا لَقيتَ من الهوى ولَقينا

لَحْنُ ابنِ سُرَيج هذا ثقيلٌ أوّلُ بالوُسْطَى عن ابن المكي والهِشَاميّ له أيضا فيه رَمَلٌ ، ولإسحاق فيه رَمَلٌ آخرُ بالوسطى ، وفيه هَزَجٌ بالوُسْطَى يُنسَبُ إلى ابن سُرَيج والغَرِيض – قال : فلمّا سَمعه عَطَاء اضطرب اضطراباً شديدا ودخلته أرْيَحيّةٌ ، فحلَف ألا يُكلّمَ أحداً بقيةَ يومه إلا بهذا الشِّعْر ، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام ؛ فكان كلُّ من يأتيه سائلا عن حَلالٍ أو حَرَامٍ أو خبر من الأخبار ، لا يجيبه إلا بأن يَضربَ إحدى يديه على الأخرى وينْشدَ هذا الشِّعرَ حتى صَلّى المغربَ ، ولم يُعاوِد ابنَ سُرَيج بعد هذا ولا تعرّض له .

(١) سائر النسخ : « قال حدثنا يوسف بن إبراهيم قال حدّثنا إسحاق الموصليّ أن أبا إسحاق بن المهدى قال الخ » وهو من تحريف النساخ .

(٢) ذو طوي : موضع عند مكة .

(٣) في ت : « تحلقت » ولم نجد فيما بين أيدينا من كتب اللغة هذه الصيغة بمعنى حلق الطائر إذا ارتفع في الهواء كهيئة الحلقة ، ويستأنس لذلك بما ورد في شعر مهيار الديلمي في قوله :

وزاد عزا أنفسا تحلقت   فوق السهاوما انتهت أقدارها

(٤) الوشل : الماء والدمع القليل والكثير ، والمراد هنا الدمع الكثير.

(٥) السائل على وجه الأرض ، وقد قيل في اشتقاقه إنه اسم مفعول من عانَ الماء : أساله ، وقيل هو اسم مفعول لافعل له ، وقيل هو صفة مشبهة من معن الماء يمعن فهو معين إذا جرى وسال . (انظر اللسان مادتي عين ومعين)

(٦) غيضن من عبراتهن : أرسلن دموعهن حتى ترفنها .

أخبرني جعفر بن قدامة قال حدثني حماد بن إسحاق عن أبيه، وأخبرني الحسن بن علي قال حدثني الفضل بن محمد اليزيدي قال حدثني إسحاق عن ابن جامع عن سياط عن يونس الكاتب قال:

لما قال عمر بن أبي ربيعة:

نظرت إليها بالمحصب من منى ولي نظر لولا التحرج عارم

غنى فيه ابن سريج.

قال: وحج يزيد بن عبد الملك في تلك السنة بالناس، وخرج عمر بن أبي ربيعة ومعه ابن سريج على نجيبين رحالتاهما[1] ملبستان بالديباج، وقد خضبا النجيبين ولبسا حلتين فجعلا يتلقيان الحاج ويتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل، فعدلا إلى كثيب مشرف والقمر طالع يضيء، فجلسا على الكثيب، وقال عمر لابن سريج: غنني صوتك الجديد، فاندفع يغنيه، فلم يستتمه إلا وقد طلع عليه رجل راكب على فرس عتيق، فسلم ثم قال: أيمكنك — أعزك الله — أن تراد هذا الصوت؟ قال: نعم ونعمة عين[2] على أن تنزل وتجلس معنا، قال: أنا أعجل من ذلك، فإن أجملت وأنعمت أعدته! وليس عليك من وقوفي شيء ولا مؤنة، فأعاده فقال له: بالله أنت ابن سريج؟ قال نعم، قال: حياك الله! وهذا عمر بن أبي ربيعة؟ قال نعم، قال: حياك الله يا أبا الخطاب! فقال له: وأنت فحياك الله! قد عرفتنا فعرفنا نفسك، قال: لا يمكنني ذلك، فغضب ابن سريج وقال: والله لو كنت يزيد بن عبد الملك لما زاد، فقال له: أنا يزيد بن عبد الملك، فوثب إليه عمر فأعظمه ابن سريج إليه فقبل ركابه؛ فنزع حلته وخاتمه فدفعهما إليه، ومضى يركض حتى لحق ثقله، فجاء بهما ابن سريج إلى عمر فأعطاه إياهما، وقال له: إن هذين بك أشبه منهما بي، فأعطاه عمر ثلثمائة دينار وغدا فيهما إلى المسجد، فعرفهما الناس وجعلوا يتعجبون ويقولون: كأنهما والله حلة يزيد بن عبد الملك وخاتمه، ثم يسألون عمر عنهما فيخبرهم أن يزيد بن عبد الملك كساه ذلك.

(١) الرحالة: سرج من جلود لا خشب فيه يتخذ للركض الشديد يكون للخيل والنجائب من الإبل وفي ب، س «راحلتاهما وهو تحريف».

(٢) نعمة عين: مثلثة النون، قال سيبويه: نصبوه على إضمار الفعل المتروك إظهاره. أي أفعل ذلك كرامة لك وإنعاما لعينك (أي قرة لها).

وأخبرنى بهذا الخبر جعفرُ بن قُدَامَةَ أيضا قال وحدّثنى ابن عبدُ الله بن أبى سَعيد قال: حدّثنى علّى بن الصبّاح عن ابنِ الكَلْبىّ قال :

حَجّ عمرُ بن أبى ربيعةَ في عام مِن الأعوام على نَجيبٍ له مَخْضُوبٍ بالحنّاء مشهر الرحل بقَرابٍ[١] مُذْهَب[٢] ، ومعه عُبَيد بن سُرَيج على بغله له شَقْراءَ ، ومعه غلامُه جنّادٌ يَقود فرسًا له أدهم أغرّ مُحجّلا ، وكان عمرُ بن أبى ربيعة يُسَمّيه « الكوكَب » ، فى عُنقه طَوْق ذَهَب — وجنّادٌ هذا هو الذى يقول فيه :

صوت

فقلْـــت لَجنّـادٍ خُـــذ السيفَ واشتمل عليـه برفْقٍ وارقُبِ الشمسَ تَغْرُبِ
وأَسْرِجْ لِي الدُّهماءَ وأعْجَلْ بِممْطَرى[٣] ولا تُعلمَنْ خَلْقًا مِن الناس مَذْهَبى

الغناء لزرزرٍ غلامِ المارِقىّ خفيفُ ثقيلٍ وهو أجود صوتٍ صنعه — قال : ومع عمرَ جماعةٌ من حَشَمِه وغِلْمَانه ومَوَاليه وعليه حُلّة مَوْشِيّة يمَانية ، وعلى ابنِ سُرَيج :

قلْت لمّا فاضَتِ العيْنان دمعا ذا انْسكاب
إنْ جفتْنى اليومَ هندٌ بعدَ وُدٍّ واقتراب
فسبيــلُ النــاس طُرًّا لفَناءِ وذَهـــاب

الغناء لأهلِ مكة رَملٌ بالوُسْطى .

أخبرنى محمد بن خَلَف بن المَرْزبان قال حدّثنى أبو على الأَسَدىّ — وهو بِشْرُ بن موسى ابن صالح — قال : حدّثنى أبى موسى بنُ صالح عن أبى بكر القُرشىّ قال :

كان عمر بن أبى ربيعة جالسا بمنًى فى فناءِ مضْرَبه وغِلْمانه حولَه ، وإذ أَقْبلت امرأة بَرْزةٌ[٤] عليها أثرُ النّعْمة ، فسلّمتْ ، فردّ عليها عمرُ السلامَ ، فقالت له أنت عمر بن أبى ربيعة ؟ فقال لها : أنا هو ، فما حاجتك ؟ قالت له حياكَ اللّهُ وقَرّبَكَ ! هل لك فى محادثة أحسنِ النـاس وجها وأتمهم خَلْقًا ، وأكملهم أدبًا ، وأشرفهم حَسَبًا ؟ قال : ما أَحَبَّ إلىّ ذلك !

(١) قال الأزهرىّ : قراب السيف : شبه جراب من أدم يضع الراكب فيه سيفه بجفنة وسوطه وعصاه وأداته ، وقال ابن الأثير: هو شبه الجراب يطرح فيه الراكب سيفه بغمده وسوطه وقد يطرح به زادة من تمر وغيره .

(٢) الإذهاب والتذهيب واحد وهو الطلاء بالذهب .

(٣) الممطر والممطرة : ثوب يتخذ لتوقى المطر .

(٤) البرزة من النساء : البارزة الجمال أو التي تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون معها .

قالت : على شرطٍ ، قال : قُولِي ، قالت تمكنني من عينيك حتى أشُدَّهما وأقودَك ، حتى إذا توسطت الموضع الذى أريد حللت الشد ، ثم أفعل ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهى بك إلى مضربك ، قال : شأنَك ، ففعلتْ ذلك به ، قال عمر : فلما انتهت بى إلى المضرب الذى أرادتْ كشفَتْ عن وجهى ، فإذا أنا بامرأه على كرسىّ لم أرَ مثلَها قطُّ جمالاً وكمالاً ، فسلَّمْتُ وجلست ، فقالت : أأنت عمر بن أبى ربيعة ؟ قلت : أنا عمر ، قالت : أنت الفاضح للحرائر ؟ قلت : وما ذاكِ جعلني الله فداءك ؟ قالت : ألستَ القائلَ :

صوت

قالت وعَيش أخي ونعمة[(١)] والدى ... لأُنَبِّهنّ الحيّ إن لم تَخْرج[(٢)]

فخرجتُ خَوْفَ يمينها فتبسَّمَتْ ... فعلمتُ أنّ يمينَها لم تَحْرج[(٣)]

فتناولتْ رأسي لتعرفَ مَسَّه ... بمخضب الأطراف غير مُشنَّج[(٤)]

فلثمت[(٥)] فاها آخذاً بقرونها ... شُرْبَ[(٦)] النزيف[(٧)] ببَرْد ماء الحَشْرَج

(١) « وعيش أبي وحرمة إخوتى » وفى الكامل للمبرد طبع ليبزج ص ١٦٥ :
قالت وعيش أبى أكبر إخوتى وفي العيني على هامش الخزانة ج ٣ ص ٢٧٩ :
قالت وعيش أبى وعدّة إخوتى .

(٢) نسبت هذه الأبيات إلى جميل بن معمر العذرى فيما نقله ابن عساكر عن أبي بكر محمد بن القاسم الأنبارى (راجع ترجمة جميل في « وفيات الأعيان » ج١ ص ١٦١ – ١٦٤) ، وقد عزي البيت الثالث فى اللسان وشرح القاموس فى مادة شنج لجميل أيضا . ورويت الأبيات الثلاثة الأخرى في مادة حشرج فى اللسان لعمر بن أبى ربيعة ، وقال ابن برى : إنها لجميل وليست لعمر ، وقد رويت الأبيات في الكامل للمبرد طبع ليبزج ص ١٦٥ قال المبرد : وأنشدنى أبو العالية قال : قيل إن الشعر لعروة بن أذينة ، وفى شرح العينى بهامش خزانة البغدادى ج ٣ ص ٢٧٩ – ٢٨٢ فى الكلام على البيت « فلثمت فاها .. » : أن قائل هذا الشعر هو عمر بن أبى ربيعة ، وقيل هو جميل وهو الأصح وكذا قاله الجوهرى ، وفى « الحماسة البصرية » : قائله عبيد بن أوس الطائى فى أخت عدى بن أوس الطائى .

(٣) لم تحرج : لم تضق ولم تكن جادة هى فى حلفها فلا تأثم إذا لم تبر فيها وتجوز روايته : «لم تحرج» أي لم توقعها في الحرج والإثم ، وروى فى وفيات الأعيان لابن خلكان وفى العيني بهامش خزانة الأدب ج٣ ص٢٨٠ : «لم تلجج » أى لم تعتزم ؛ يقال : لج في الأمر ، إذا تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه

(٤) مشنج : متقبض .

(٥) لثم يلثم من باب فرح بمعنى قبل ، ولثم يلثم من باب ضرب بمعنى تلثم ، وربما قيل الأول بالفتح ، روى ابن كيسان أنه سمع المبرد ينشد هذا البيت : « فلثمت فاها الخ » (انظر اللسان مادة لثم)

(٦) نصب « شرب » على المصدر المشبه به لأن في اللثم معنى امتصاص الريق ، فكأنه قال شربت ريقها شرب النزيف من ماء الحشرج البارد .

(٧) النزيف كالمنزوف : من عطش حتى يبست عروقه وجف لسانه أو هو المحموم الذى منع الماء والحشرج : النقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو ، أو هو كوز صغير لطيف ، (راجع اللسان مادتى نزف وحشرج والعيني بهامش الخزانة ج ٣ ص ٢٨١) .

– الغناء لمَعْبَد ثقيلٌ أولُ بالبِنْصر عن يونُسَ وعمرٍو – .

ثم قالت : قم فاخرُجْ عنّى ، ثم قامتْ من مجلسها ، وجاءتِ المرأةُ فَشدَّتْ عينى ، ثم أخرجتنى حتى انتهتْ بى إلى مِضْربى ، وانصرفتْ وتركتني ، فحللتَ عينيَّ وقد دخلنى من الكآبة والحزنَ ما الله به أعلم ، وبتُّ ليلتى ، فلما أصبحتُ إذا أنا بها فقالت : هل لك فى العَوْد ؟ فقلتُ : شأنَك ، ففعلتْ بى مثل فعْلها بالأمس ، حتى انتهتْ بي إلى الموضع ، فلما دخلتُ إذا بتلك الفتاة على كرسىّ ، فقالتْ : إيه[1] يافَضَّاحَ الحَرَائر قلت : بماذا جعلنى الله فداءكِ ؟ قالت : بقولك :

صوت

وناهدة الثَّدْيين قلتُ لهــا اتَّكي ... علي الرمِلِ من جَبَّـانة[2] لم تَوَسَّــد
فقالَتْ على اسمِ الله أمرُكَ طاعة ... وإن كنتَ قـد كُلِّفتُ مـا لم أُعَــوَّد
فلمَّا دنا الإصباحُ قالتْ فضحتنى ... فَقُم غيــر مطرودٍ وإن شئت فازْدد

الغناء لأهلِ مكةَ ثقيل أولُ عن الهشامي[3] – ثم قالت قُمْ فاخرجْ عنّى ، فقمتُ فخرجتُ ثم رددتُ ، فقالت لى : لَولا وَشْكُ الرَّحيلِ ، وخوفُ الفوت ، ومحبتى لمُنَاجاتك والاستكثار من محادثتك ، لأقصيْتُك ، هاتِ الآن كلمني وحدثني وأنشدني .. فكلمتُ آدبَ الناس وأعلمَهم بكلّ شيء ثم نهضتْ وأبطأت العجوز وخلا لى البيتُ ، فأخذتُ أنظر : فإذا أنا بتور[4] فيه خَلوق ، فأدخلت يدى فيه ثم خبأتُها فى رُدْنى وجاءتِ تلك العجوز فشدَّتْ عينى ونهضتْ بى تقودنى ، حتى إذا صرت على باب المضْرِب أخرجتُ يدى فضربتُ بها على المِضْرب ، ثم صِرتُ إلى : مِضْربى ، فدعوت غلْمانى فقلتُ :

(١) إيه : كلمة استزادة واستنطاق ، وهى مبنية على الكسر وقد تنون ، تقول للرجل إذا استزدته من حديث أو عمل : إيه بكسر الهاء ، وقال ابن السرى : إذا قلت : إيه يا رجل فانما تأمره بأن يزيدك من الحديث المعهود بينكما كأنك قلت : هات الحديثَ ، وإن قلت : إيهٍ بالتنوين فكانك قلت : هات حديثا ما وفى حـ ، ر : « إيها » بالتنوين ، وإيهَ بالفتح وإيهاً بالتنوين : أمر بالسكوت والكف

(٢) الجبّانة ومثله الجبّان : الصحراء وتسمي بهما المقابر لأنها تكون بها ، وفى ت : « من ديمومة لم تمهد » والديمومة : الفلاة الواسعة يدوم السير فيها لبعدها ، ولم تمهد : لم تذلل ولم تصلح ولم تسو .

(٣) فى ت كتبت هذه الجملة بهامشها وكتب بعدها كلمة «صح » ، وفى الصلب : « فيه هزج يمان بالبنصر عن يحيى المكىّ » .

(٤) التور : إناء صغير ؛ سمّى بذلك لأنه يتعاور ويردَّد ، أو سمى بالتور وهو الرسول الذى يتردد ويدور بين العشاق ، قال الشاعر :

والتور فيما بيننا معمَل ... يرضى به المأتيّ والمرسل

ومأخذه من التارة ؛ لأنه تارة عند هذا وتارة عند هذا (راجع أساس البلاغة مادة تور)

أيكم يَقفني على باب مضرب عليه خَلُوق كأنه أثركف فهو حرٌ وله خمسمائة درهم[(١)] ، فلم ألبث أن جاء بعضهم فقال : قم فنهضت معه ، فإذا أنا بالكف طريّـة ، وإذا المضرب مضرب فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، فأخذت في أهبة الرحيل ؛ فلما نفرت نفرت معها فبصرت في طريقها بقباب ومضرب وهيئة جميلة ، فسألت عن ذلك ، فقيل لها : هذا عمر بن أبي ربيعة ؛ فساءها أمره ، وقالت للعجوز التى كانت ترسلها إليه : قولي له نشدتك الله والرحم أن تصحبني[(٢)] ، ويحك ! ما شأنك وما الذى تريد ؟ انصرف ولا تفضحني[(٣)] وتشيط بدمك[(٤)] ، فسارت العجوز إليه فأدت إليه ما قالت لها فاطمة ، فقال لست بمنصرف أو توجه إليّ بقميصها الذى يلي جلدها فأخبرتها ففعلت ووجّهت إليه بقميص من ثيابها ؛ فزاده ذلك شغفًا ، ولم يزل يتبعهم لا يخالطهم ، حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف وقال فى ذلك :

ضاق الغداةَ بحاجتي صدري ... ويئستُ بعد تقارُب الأمرِ

وذكرتُ فاطمةَ التي علّقتُها ... عَرَضًا[(٥)] فيا لحوادث[(٦)] الدهر

وفى هذه القصيدة مما يغنّى فيه قولُه :

صوت

ممكورةٌ رَدْعُ[(٧)] العبيرِ بها ... جَمُّ العظام[(٨)] لطيفةُ الخَصْرِ

وكأنَّ فاهَا عند رقدتها ... تجري عليه سُلافةُ الخَمْرِ

الغناء لإبراهيمَ بن المَهْدىّ ثانى ثقيلٍ من جامعه ، وفيه لمُتيّم رَمَلٌ من جامعها أيضا ، وتمام الأبيات وليست فيه صنعة :

---

(١) فى حـ ، ر : « دينار » .

(٢) كذا فى ت تريد : ألا تصحبنى . (وانظر الحاشية رقم ١ صفحة ١٦٧) ، وفى سائر النسخ : « أن فضحتى » .

(٣) هذه الواو ينصب بعدها الفعل ، والشرط فيها أن يتقدم الواو نفى أو طلب كقوله تعالى : (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وكقول الشاعر : لاتنه عن خلق وتأتى مثله .
وسمّى الكوفيون هذه الواو واو الصرف ، وذلك لأنها لا يستقيم عطف مابعدها على ما قبلها . (انظر المغنى طبع مصرج ٢ ص ٣٥ واللسان مادة « وا ») .

(٤) أشاط دمه وبدمه : أهدره وعرض نفسه لقتل ، وفى ب ، س : « وانشط بدمك » أى فز به مسرعا ولا تهدره .

(٥) فى ديوانه : « غرضاً » . والغرض هنا الشوق .

(٦) هذه اللام يجوز فيها الفتح على أنها داخلة على المتعجب منه والكسر على أنها داخلة على المستغاث من أجله والمستغاث محذوف ؛ كأنه قال : ياللناس لحودات الدهر !

(٧) الردع : أثر الخلوق والطيب فى الجسد ، والعبير : ضرب من الطيب ذو لون يجمع من أخلاط .

(٨) جم العظام : دقيقتها مكتنزة اللحم ، والمعروف فى وصف المؤنث من هذه المادة جماء ، فلعل الأصل « جماء العظام » مقصورة لضرورة الوزن .

[فسَبَتْ(١) فؤادى إذ عرضْتُ لها ... يومَ الرَّحيلِ بساحة القَصْرِ
بمُزيَّنٍ ردْعُ العبيرِ به ... حَسَنِ التَّرائب(٢) واضِح النَّحْرِ]
وبجيد(٣) آدمَ(٤) شادنٍ(٥) خَرِقٍ(٦) ... يرْعَى الرياضَ ببلدة قفْرِ
لما رأيتُ مَطيَّها حِزَقًا(٧) ... خَفَقَ الفؤادُ وكنتُ ذا صبرِ
وتبادرتْ(٨) عيناىَ بعدهُمُ ... وانهلَّ دمعُهما على الصَّدْرِ
ولقد عصَيتُ ذوِى القَرابة(٩) فيكُم ... طُرًّا وأهلَ الوُدِّ والصِّهْرِ
حتى لقد قالوا وما كذَبوا ... أجُننتَ أم بك داخلُ السِّحْرِ

أخبرنا محمد بن خلَف بن المَرْزُبان قال حدَّثنى إسحاقُ عن محمد بن أبَان(١٠) قال حدثنى الوَليدُ بنِ هشام القَحْذَمى عن أبى مُعاذ القُرَشيّ قال :

لما قَدمتْ فاطمةُ بنتُ عبد الملك بن مرْوان مكةَ جعلَ عمرُ بن أبى ربيعة يدور حولَها ويقولُ فيها الشعرَ ولا يذكُرها باسمها فَرَقًا من عبد الملك بن مروان ومن الحجَّاج ؛ لأنه كان كتب إليه يتوعَّدُه إن ذكرها أو عرَّض باسمها ، فلما قضتْ حجَّها وارتحلتْ أنشأ يقول :

صوت

كِدْتُ يومَ الرَّحيل أقضى حياتِى ... ليتَنى مِتُّ قبلَ يوم الرَّحيلِ
لا أُطيقُ الكلام من شدَّة الخوْ ... فِ ودمْعِى يَسيلُ كلَّ مَسِيلِ

---

(١) زيادة عن الديوان .
(٢) الترائب : عظام الصدر ، واحدتها تريبة .
(٣) في الديوان : « وبعين » .
(٤) الأدمة : السمرة ، وقيل : فى الإنسان السمرة ، وفى الظباء لون مشرب بياضا .
(٥) شدن الظبى : شبَّ وترعرع .
(٦) الخرق : الخائف المتحير .
(٧) كذا فى الديوان والحزقة : الجماعة من كل شيء .
(٨) تبادرت عيناى : سالت دموعهما ، وفى حديث اعتزال النبى صلى الله عليه وسلم نساءه قال عمر : « فابتدرت عيناى » أي سالتا بالدموع .
(٩) كذا في الديوان : وفى الأصول : « ذوى أقاربها » والإضافة فيه غير صحيحة ، ولعلها : « ذوى قرابتها » ، لتصح الإضافة ويستقيم الوزن .
(١٠) وفى سائر النسخ : « إسحاق بن محمد بن أبان » .

ابـن جلجـل

(٣٣٢ - ٣٥٨ هـ)

أبو داود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل طبيب ومؤلف أندلسى لم تعط المصادر تاريخا لميلاده أو وفاته ، باستثناء « تكملة » ابن الأبار .

كان ابن جلجل طبيبا من أهل قرطبة . سمع الحديث فى صباه ، وتخصص فى الطب وتاريخ الأطباء والنباتات الطبية . أهم كتبه : « طبقات الأطباء والحكماء » ، أتمه سنة ٣٣٧ وكان ابن جلجل معنيا بكتاب ديسقوريدس لما له من أهمية فى النبات والطب ، وكتب عليه شرحا كان معروفا فى عصره . وعنوانه : تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ، وقد ألفه فى قرطبة سنة ٣٧٢ . ولابن جلجل أيضا دراسات أخرى تتصل بهذا الكتاب ، منها مقالة فى ذكر الأدوية التى لم يذكرها ديسقوريدس فى كتابه مما يستعمل فى صناعة الطب وينتفع به ، وما لا يستعمل لكيلا يغفل ذكره . وقل ابن جلجل : إن ديسقوريدس أغفل ذلك ولم يذكره إما لأنه لم يره ولم يشاهده عيانا ، وإما لأن ذلك كان غير مستعمل فى دهره وأبناء جنسه وله أيضا : رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين وكتاب يتضمن ذكر شيء من أخبار الأطباء والفلاسفة ألفه فى أيام المؤيد بالله .

كتـاب ديسقوريـدس

إن كتاب ديسقوريدس ترجم بمدينة السلام فى الدولة العباسية فى أيام جعفر المتوكل وكان المترجم له اصطفن بن بسيل الترجمان من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى ، وتصفح ذلك حنين بن اسحق المترجم ، فصحح الترجمة وأجازها فما علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية فى وقته له اسماً فى اللسان العربى فسره بالعربية ، وما لم يعلم له فى اللسان العربى اسماً تركه فى الكتاب على اسمه اليونانى اتكالاً منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك

ويفسره باللسان العربى ، إذ التسمية لا تكون بالتواطؤ من أهل كل بلد على أعيان الأدوية بما رأوا ، وأن يسموا ذلك إما باشتقاق وإما بغير ذلك من تواطئهم على التسمية فاتكل اصطفن على شخوص يأتون بعده ممن قد عرف أعيان الأدوية التى لم يعرف هو لها اسماً فى وقته فيسميها على قدر ما سمع فى ذلك الوقت فيخرج إلى المعرفة .

قال ابن جلجل : وورد هذا الكتاب إلي الأندلس وهو على ترجمة اصطفن منه ما عرف له اسماً بالعربية ، ومنه ما لم يعرف له اسماً . فانتفع الناس بالمعروف منه بالمشرق وبالأندلس إلى أيام الناصر عبد الرحمن بن محمد ، وهو يومئذ صاحب الأندلس . فكاتبه أرمانيوس الملك ، ملك قسطنطينية ، فى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وهاداه بهدايا لها قدر عظيم ، فكان فى جملة هديته كتاب ديسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير الرومى العجيب . وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقى الذى هو اليونانى ، وبعث معه كتاب هروسيس صاحب القصص ، وهو تاريخ للروم عجيب ، فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول ، وفوائد عظيمة . وكتب أرمانيوس فى كتابه إلى الناصر أن كتاب ديسقوريدس لا تجتنىٰ فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك الأدوية ، فإن كان فى بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب ؛ وأما كتاب هروسيس فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطينى ، وان كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطينى إلى اللسان العربى .

قال ابن جلجل : ولم يكن يؤمئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ اللسان الإغريقى الذى هو اليونانى القديم ، فبقى كتاب ديسقوريدس فى خزانة عبد الرحمن الناصر باللسان الإغريقى ، ولم يترجم إلى اللسان العربى ، وبقى الكتاب بالأندلس . والذى بين أيدى الناس بترجمة اسطفن الواردة من مدينة السلام بغداد .

فلما جاوب الناصر ارمانيوس الملك سأله أن يبعث إليه برجل يتكلم بالاغريقى واللطينى ليعلم له عبيداً يكونون مترجمين ، فبعث أرمانيوس الملك إلى الناصر براهب كان يسمى نقولا فوصل إلى قرطبة سنة أربعين وثلثمائة وكان يومئذ بقرطبة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية ، وكان أبحثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب إلى الملك عبد الرحمن الناصر ، حسداى ابن بشروط الإسرائيلى ، وكان نقولا الراهب عنده عمل بقرطبة ترياق الفاروق على تصحيح الشجارية التى فيه . وكان فى ذلك الوقت من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير الكتاب وتعيين أشخاصه محمد المعروف بالشجار ، ورجل كان يعرف بالبسباسى ، وأبو عثمان الجزار الملقب باليابسة ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبد الرحمن بن اسحق ابن هيثم وأبو عبد الله الصقلى ، وكان يتكلم باليونانية ويعرف أشخاص الأدوية .

قال ابن جلجل : وكان هؤلاء النفر كلهم فى زمان واحد مع نقولا الراهب أدركته وأدركت نقولا الراهب فى أيام المستنصر ، وصحبتهم فى أيام المستنصر الحكم . وفى صدر دولته مات نقولا الراهب ، فصح ببحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة خاصة بناحية الأندلس ، وما أزال الشك فيها عن القلوب ، وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها ، وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف إلا القليل منها الذى لا بال به ، ولا خطر له . وذلك يكون فى مثل عشرة أدوية .

قال : وكان لى فى معرفة تصحيح هيولى الطب الذى هو أصل الأدوية المركبة حرص شديد وبحث عظيم ، حتى وهبنى الله من ذلك بفضله بقدر ما اطلع عليه من نيتى فى احياء ما خفت أن يدرس وتذهب منفعته لأبدان الناس ، فالله قد خلق الشفاء وبثه فيما أنبتته الأرض ، واستقر عليها من الحيوان المشاء ، السابح فى الماء والمنساب ، وما يكون تحت الأرض فى جوفها من المعدنية ، كل ذلك فيه شفاء ورحمة ورفق .

القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى

(٢٩٠-٣٦٦)

واحد من أعلام القرن الرابع للهجرة ، ولد بجرجان عام ٢٩٠ وبها دفن . ولاه الصاحب ابن عباد قضاء الرى . وسافر إلى حواضر العالم الإسلامى للقاء علماء زمانه .

اشتغل القاضى الجرجانى بالتفسير والفقه . واذا كان الأدب صناعة كثير من علماء العصر فقد عرض القاضى صورة لبعض ماكان فى عصره . عرض ما كان يؤخذ على الشاعر من محاسن وعيوب وتعقيد وغموض وسرقة وغير ذلك . وكان من رأيه أن يقدم نماذج للصيغ الشعرية المثالية . وكيف تترك البيئة أثرها على شاعرية صاحبها .

أهم كتبه : « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، وهو من أهم كتب الحركة النقدية حول المتنبى . كان له خصوم يتهمونه بالتعقيد والسرقة ، وكان له محبون ينسبون إليه كل فضل ويدافعون عنه . وكتاب الوساطة محاولة لتقديم أصول نقدية ، لا تقتصر أهميتها على دراسة شعر المتنبى ، بل لها أهميتها فى بحث الإبداع الأدبى وعوامله وفى فهم الأدب ونقده .

وفي الصفحات التالية بعض فصول هذا الكتاب :

شعر المتنبى

ثم أعود إلى نسق الكتاب وأكتفى بما قدّمتهُ من هفوات أبى تمام وإن كان ما أغفلته أضعافَ ما أثبتّه ؛ إذ البغية فيه الاعتذار لأبى الطيب ، لا النّعي على أبى تمام . وإنما خَصَصْتُ أبا نُوَاس وأبا تمام لأجمع لك بين سيّدَى المطبوعين ، وإمامَىْ أهلِ الصنعة ، وأريك أن فضلَهما لم يحمِهما من زلَل ، وإحسانهما لم يصفُ من كدَر ؛ فإن أنصفتَ فلك فيها عِبْرة ومَقْنع ، وإن لججتَ فما تُغْنِى الآيات والنُّذر عن قومٍ لا يؤمنون .

وقد رأيتك – وفقّك الله – لما احتفلت وتعمّلت ، وجمعت أعوانك واحتشدت ، وتصفّحت هذا الديوان حرفا حرفا ، واستعرضته بيتا بيتا ، وقلّبته ظَهْراً وبَطْنا ، لم تزد على أحرف تلقَطتَها ، وألفاظ تمحّلتها ، ادّعيت فى بعضها الغلَط واللحن ، وفى أخرى الاختلال والإحالة ، ووصفت بعضا بالتّعَسّف والغَثاثة ، وبعضاً بالضّعف والركاكة ، وبعضا بالتعدّى فى الاستعارة ؛ ثم تعدّيت بهذه السِّمة إلى جملة شعره ، فأسقطت القصيدة من أجل البيت ، ونفيت الديوان لأجل القصيدة ، وعجّلت بالحُكم قبل استيفاء الحجة ، وأبرمت القضاء قبل امتحان الشهادة ، فعبت قوله[1] :

فَتًى أَلْفُ جُزْءٍ رَأْيُهُ فى زَمَانه ... وما قَلّ جُزْء بعضُه الرأى أجْمَعُ[2]

وقوله[3] :

ومِنْ جَاهِلٍ بى وَهْوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ ... ويَجْهَلُ عِلْمِى أَنّهُ بى جَاهِلُ

---

(١) ديوانه (٢ : ٢٤٢) .

(٢) رواية الديوان :

* أقل جزء بعضه الرأى أجمع *

(٣) ديوانه (٣ : ١٧٤) .

وقولـه[(١)]:

فَـقَلْقَلْت بالهَمِّ الَّذى قَلقَلَ الحَـشـاَ قَـلاَقِلَ عِـيسٍ[(٢)] كلُّهنّ قَــلاَقِلُ[(٣)]

غَـشَـائَةُ عـيـشى أن تَغثَّ كـرامـتي وليـس بـغَـثٍ أن تـغـثّ[(٤)] المـآكـلُ

وقولـه[(٥)]:

لك الخيـرُ غَـيْـرِى رَامَ من غـيـرك الغِنَى وغَـيْـرِي بغـيـرِ اللاذِقـيَّـةِ[(٦)] لاَحِــقُ

وقولـه[(٧)]:

عَظُمتَ فَلَمَّــا لَمْ تُكلَّم مَـهَـــابَةً تَوَاضَــعْتَ وَهْوَ العظْم عُظْمـاً عَنِ الْعظْم

وقولـه[(٨)]:

ولَسْتَ بِدُونٍ يُرتَجى الغَـــيثُ دُونه ولا مُنْتَـهى الجـودِ الذي خَلْفَــه خَلْفُ

ولا وَاحِــداً فى ذَا الْورَى من جَـمـاعَـة ولا الْبَــعْضُ مِن كلٍّ ولَكنَّكَ الضِّــعْفُ

ولا الضِّعْفُ حتى يَتْبَع الضِّعْفَ ضِعفُهُ ولا ضِعْفَ ضِعْفِ الضِّعْفِ بل مِثْلَه أَلْف

وقولـه[(٩)]:

قَـــبِــــيلٌ أَنْتَ أَنتَ وأَنتَ مِنْهُمْ وَجَـــدُّكَ بِشْــرٌ المَلِكُ الهُـــمَــــامُ

---

(١) ديوانه (٣ : ١٧٥) .

(٢) فى ا « عيش » . تحريف . والعيس : إبل يخالط بياضها شقرة .

(٣) قال أبو نصر بن المرزبانى : « ثلاثة من الشعراء رؤساء ؛ شلشل أحدهم ، وسلسل الثانى ؛ وقلقل الثالث ؛ فالذى شلشل الأعشى ، وهو من رؤساء شعراء الجاهلية ، وهو الذى يقول :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول

والذى سلسل مسلم بن الوليد ، وهو من رؤساء المحدثين ، قال :

سلت وسلت ثم سل سليلها فأتى سليل سليلها مسلولا

وأما الذى قلقل فالمتنبى : شرح ديوان المتنبي (٣ : ١٧٦) .

(٤) الغث : الهزال .

(٥) ديوانه (٢ : ٣٥٠) .

(٦) اللاذقية بلد الممدوح (الحسين بن إسحاق التنوخى) ، وهى من بلاد الساحل بالشام .

(٧) ديوانه (٤ : ٥٨) .

(٨) ديوانه (٢ : ٢٩٠) .

(٩) ديوانه (٤ : ٧٩) .

وقولـه[١] :

كَـيف تَرْثِي التى تَرَى كُلَّ جَـفْن رَاءَهَا[٢] غَـيْـرَ جَـفْنِهـا غَـيْـرَ رَاقِي

وقلتَ : مازلنا نتعجب من قولة مسلم بن الوليد[٣] :

سُلَّتْ وسُلَّتْ ثُمَّ سُلَّ سَلِيلُهَا فَأَتي سَلِيلُ سَلِيلِها مَسْلُولا

حتي جاء المتنبى فملأ ديوانه من هذا الجنس ، فأنسانا بيتَ مُسْلِم .

وقولـه[٤] :

أَبَا شُـجَـاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدَ الـ دَّولة فَنَا خُسْرو شَهَنْشَاهَا[٥]

وقولـه[٦] :

رِوَاقُ الْعِزِّ فَوقَكَ مُسْبَطِرٌّ[٧] ومُلْكُ عَلي ابْنِكَ فِي كَمَالِ

يُعَلِّلُهَا نَطَاسِيُّ[٨] الشَّكَايَا وَوَاحِدُهَا نَطَاسِيُّ الْمَعَالِي

وَلَيْسَتْ كَالإِنَاثِ وَلاَ اللَّواتي تُعَدُّ لَهَا الْقُبُورُ مِنَ الْحِجَالِ[٩]

وَلاَ مَنْ في جِنَازَتِهَا تِجَارٌ يَكُونُ وَدَاعُهَا نَفْضَ النِّعَالِ[١٠]

---

(١) ديوانه (٢ : ٣٦٢) .

(٢) راءها : رآها . رقأ الدم والدمع ؛ إذا انقطع ، وإنما أبدل الهمزة ياء لأنه آخر البيت .

(٣) التبيان (٣ : ١٧٦) .

(٤) ديوانه (٤ : ٢٧٥) .

(٥) يمدح بالبيت عضد الدولة ؛ وقد جمع فيه كنية الممدوح وبلده واسمه ونعته ، وسماه بملك الملوك : « شاهنشاه » .

(٦) ديوانه (٣ : ١٣) ، (٣ : ١٦) ، (٣ : ١٧) ، يرثي والدة سيف الدولة .

(٧) المسبطر : الممتد . قال الصاحب : ذكـره الاسبطـرار فى مرثية النساء من الخذلان .

(٨) النطاسي : الحاذق في الأمور . الشكايا ؛ واحدها شكوي .

(٩) الحجال : مايستر النساء ، وهو الخدر .

(١٠) الجنازة ، بالفتح والكسر : النعش . .

وقوله[1] :

أوه من أن لا أرى محاسنها … وأصل واها وأوه مرآها[2]

وقوله[3] :

كيف يقوى بكفك الزند والآ … فاق فيها كالكف في الآفاق

أنت فيه[4] وكان كل زمان … يشتهي بعض ذا على الخلاق

وقوله[5] :

مبيتي من دمشق على فراش … حشاه لي بحر حشاى[6] حاش

وقوله[7] :

وربما يشهد[8] الطعام معي … من لا يساوى الخبز الذى أكله

وقوله[9] :

إني على شغفي بما في خمرها … لأعف عما في سراويلاتها

وقوله[10] :

لا خلق أسمح منك إلا عارف … بك راء نفسك لم يقل لك هاتها[11]

---

(١) ديوانه (٢ : ١٥٨) .

(٢) يقول : أتوجع لأني لا أرى محاسنها ، وأصل توجعي وتعجبي أنني رأيتها فهويتها .

(٣) ديوانه (٢ : ٣٦٩ ، ٣٧١) . والآفاق : جمع أفق . وهو نواحي الدنيا .

(٤) الضمير يرجع إلي الدهر في البيت قبله ، وهو :

ليت لي مثل جد ذا الدهر في الأد … هر أو رزقه من الأرزاق

(٥) ديوانه (٢ : ٢٠٧) .

(٦) في الأصلين : « حشاه » ، وهذه رواية الديوان .

(٧) ديوانه (٣ : ٢٧٠) .

(٨) في الأصلين : « أشهد » ، وهذه رواية الديوان .

(٩) ديوانه (١ : ٢٢٦) . والخمر : جمع خمار ، وهو ما تختمر به المرأة .

(١٠) ديوانه (١ : ٢٣٢) .

(١١) راء : مقلوب رأى ، كما قال : ناء ونأى .

وقوله(١) :

لِسَانِى وعينى والفُؤادُ وهِمَّتِى ... أُوِدُّ(٢) اللَّواتى ذَا اسْمُها منْكَ والشَّطْرُ
ومَا أنَا وَحْدِى قُلْتُ ذا الشِّعْرَ كُلَّهُ ... ولكِنْ لِشِعْرِى فيكَ من نفسِه شِعْرُ(٣)

وقوله(٤) :

وشَيْخٌ فى الشَّبابِ ليس شَيْخاً ... يُسَمَّى كلُّ مَنْ بَلَغَ المَشِيبا(٥)

وقوله(٦) :

قَسَا فالأُسْدُ تَفْزَعُ من يَدَيْه(٧) ... ورَقَّ فنحنُ نَفْزَعُ أَنْ يَذُوبا

وقوله(٨) :

وسَيْفِى لأَنْتَ السَّيْفُ لا مَا تَسُلُّه ... لِضَرْبٍ ومِمَّا السَّيْفُ منهُ لكَ الغِمْدُ(٩)

وقوله(١٠) :

أيفطِمه التُّوْرَابُ(١١) قبلَ فِطَامِه ... ويأكلُهُ قبلَ البلوغ إلى الأَكْلِ(١٢)

وقوله(١٣) :

إذا ما لبِستَ الدَّهرَ مُسْتَمْتِعًا به ... تخرَّقتَ والملبوسُ لم يتَخَرَّق

---

(١) ديوانه (٤ : ٢٧٠) .
(٢) أود : جمع ود ، والشطر : النصف . قال العكبرى : « ذا حشو » .
(٣) يقول أنا ما انفردت بعمل هذا الشعر ؛ ولكن شعرى أعاننى على مدحك ؛ لأنه أراد مدحك كما مدحته .
(٤) ديوانه (١ : ١٤٢) .
(٥) يريد أنه شيخ فى شبابه لعقله وكمال رأيه ، وإن كان شابا .
(٦) ديوانه (١ : ١٤٢) .
(٧) في الديوان : « من قواه » .
(٨) ديوانه (٢ : ٦) .
(٩) يريد : وغمدك من الحديد الذي منه السيف .
(١٠) ديوانه (٣ : ٥٠) .
(١١) التوارب : التراب .
(١٢) فى الأصلين : « إلى الأرض » . وهو خطأ ، صوابه من الديوان .
(١٣) ديوانه (٢ : ٣٠٧) .

وقوله[1]:

أغــرّكُمُ طُولُ الْجُـيُـوشِ وعَــرْضُــهـــا عليٌّ[2] شَــرُوبٌ لِلْجُـيُــوشِ أكُــولُ
إذَا لَمْ تَكُنْ لِلَّيْثِ إلاّ فَــريـسَــةً غَذَاهُ[3] فَلَمْ يَنْفَــعْكَ أنّكَ فِــيلُ
إذَا الطّعْنُ لَمْ تُدْخِلْكَ فِـيـهِ شَجَاعَةٌ هِيَ[4] الطّعْنُ لَمْ يُدْخِلْكَ فِيـهِ عَـذُولُ
إذَا كَــانَ بَعْضُ النّاسِ سَـيْـفـاً لِدَوْلَةٍ فَــفِي النّاسِ بُوقَــاتٌ[5] لَهَــا وطُبُـولُ

وقوله[6]:

فكلّكُمُ أتَى مَــــأتَى أبِيــــهِ فكلُّ فِــعَــالِ كلّكُم عُــجَــابُ

وقوله[7]:

مُلِثُّ القَطْرِ أعْطِشْـــهَــا رُبُوعـــا وإلا فــاسْــقِــهَــا السُّمُّ النَّقِــيـعَــا[8]
أُسَــائِلُهَـــا عَنِ المُتَــدَبِّرِيهَــا فَــلا تَدْرِي ولا تُذْرِي دُمُــوعَــا[9]
إذا مَـــاسَتْ رأيتَ لهـــا ارْتِجَـاجـاً لهُ لولا سَــوَاعِــدُهَا نُزُوعَـــا[10]
تَــألَّــمَ دَرْزُهُ والــدَّرْزُ لَــيْــنٌ كَـمـا تَتَـألَّمُ العَـضْبُ الصَّنِيـعَـا[11]
ذِرَاعَـــاهَا عَـــدُوَّا دُمْلُجَــيْــهَـــا يظُنُّ ضَـجِـيـعُـهَـا الزَّنْدَ الضَّجِيعَا[12]

---

(١) ديوانه (٣ : ١٠٧ ، ١٠٨) يمدح سيف الدولة .
(٢) هو اسم سيف الدولة .
(٣) غذاه : صار له غذاء ، والضمير راجع إلى الليث .
(٤) في الأصلين : « هو » . والضمير يعود على الشجاعة ، وهذه رواية الديوان .
(٥) عيب علي المتنبي جمع بوق على بوقات ؛ والقياس يعضده ؛ إذ له نظائر .
(٦) ديوانه (١ : ٨٥) .
(٧) ديوانه (٢ : ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧) .
(٨) الملث : الدائم المقيم . والربوع : جمع ربع . والنقيع : المنقع .
(٩) تدير المكان : اتخذه دارا ، وتذري : تلقى دموعا .
(١٠) قبله :

ترفع ثوبها الأرداف عنها فيبقي من وشاحيها شسوعا

(١١) الدرز : موضع الخياطة المكفوفة من الثوب . العضب : السيف ، والصنيع : المحكم الصقل والصنعة .
(١٢) الدملج : المعضد من الحلى ؛ يصف ذراعيها بالغلظ .

أحِـــبُّكِ أَوْ يَقُــــولُوا جَـــرُّ نَمْلٍ ثَبِيراً[١] أَوِ ابْـنُ إِبراهِـيمَ رِيعـــــا

أَمُنْسِيَّ الكِنَاسَ وحَـــضْـــرَمَـــوْتاً وَوَالِدَتِي وكِنْدَةَ والسَّـــبِـــيـــعـــا[٢]

وقوله[٣]:

جَـوادٌ سَـمَتْ في الخيـرِ والشَّـرِّ كَـفُّـهُ سُـــمُـــوّاً أَوَدَّ الدَّهْرَ أَنَّ اسْـمَـهُ كَفُّ[٤]

وُقُـــوفَـــيْنِ في وَقْـــفَـــيْنِ : شُكْرٍ ونائِلٍ فَنائِلُـه وَقْـفٌ ، وشُـكْـرُهُـم وَقْـفُ[٥]

ولَمَّا فَـقَـــدْنَا مِـــثْلَه دَامَ كَـــشْـــفُنَا عَلَيْـهِ فَدامَ الفَـقْـدُ وانكشَفَ الكَشْفُ[٦]

وقوله[٧]:

ولا جَلَسَ البَـحْـرُ المُحِيطُ لقَـاصِـدٍ ومِنْ تَحْـتِـهِ فَـرْشٌ ومِنْ فَـوْقِـهِ سَـقْفُ

وقوله[٨]:

رَجُلٌ طِينُهُ مِنَ العَنْبَـــــرِ الوَرْ دِ[٩] وطِينُ الرِّجَـــالِ مِنْ صَلْصَـــالِ

وقوله[١٠]:

إِنَّمَا النَّاسُ حَـــيْثُ أَنْتَ وَمَـــا النَّا سُ بِنَاسٍ فِي مَـــوْضِعٍ مِنْكَ خَـــالِي

---

(١) ثبير : جبل بالحجاز . وابن إبراهيم هو على بن إبراهيم التنوخي ، الممدوح .

(٢) الكناس ، وحضرموت ، وكندة ، والسبيع : أمكنة بالكوفة ، سميت بأسمـــاء من سكنهـــا وفى الأصلين « أمنسي السكون » . يقول : أنت أنسيتني بإحسانك والدتي وبلدى وأهلي .

(٣) ديوانه (٢ : ٢٨٥) .

(٤) يقول : هو جواد علت كفه فى الخير والشر ؛ الخير لأوليائه والشر لأعدائه . والدهـــر يتمنـــى أن يكون كفا يشارك كفه .

(٥) يقول : الناس والممدوح فريقان واقفان في شيئين وقفين ؛ أحدهما على الناس منه وهو العطاء ، والثانى على الممدوح من الناس وهو الثناء .

(٦) يقول : لما فقدنا نظيره ومن يكون له مثلا ، (لأنه عديم المثل) دام الكشف عن مثل له ، ثم بطل لأنا أيسنا من وجود مثله .

(٧) ديوانه (٢ : ٢٨٩) .

(٨) ديوانه (٣ : ١٩٨) .

(٩) العنبر الورد : الذى يضرب لونه إلى الحمرة ، والصلصـــال : الطين اليابس .

(١٠) ديوانه (٣ : ٢٠١) .

وقوله [1] :

لاَ يَسْتَكِنُّ الرُّعْبُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ يَوْمًا وَلاَ الإِحْسَانُ أَنْ لاَ يُحْسِنَا [2]
مُتَقَاصِرُ الأَوْهَامِ عَنْ إِدْرَاكِهِ مِثْلُ الَّذِى الأَفْلاَكُ فِيهِ وَالدُّنَا [3]

وقوله [4] :

وَلِذَا اسْمُ أَغْطِيَةِ الْعُيُونِ جُفُونُهَا مِنْ أَنَّهَا عَمَلَ السُّيُوفِ عَوَامِلُ [5]

وإن كان قد تغلغل إلى معنى لطيف أحسن استخراجه لو ساعده اللفظ .

وقوله [6] :

جَفَخَتْ [7] وَهُمْ لاَ يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمِ شِيَمٌ عَلَى الحَسَبِ الأَغَرِّ دَلاَئِلُ

وقوله [8] :

الطِّيبُ أَنْتَ إِذَا أَصَابَكَ طِيبُهُ وَالْمَاءُ أَنْتَ إِذَا اغْتَسَلْتَ الْغَاسِلُ

وقوله [9] :

فَتَبِيتُ تُسْئِدُ مُسْئِدًا فِى نَيِّهَا إِسْآدَهَا فِى الْمَهْمَهِ الإِنْضَاءُ [10]

وقوله [11] :

كُفِّى أَرَانِى وَيْكِ لَوْمَكِ أَلْوَمَا هَمٌّ أَقَامَ عَلَى فُؤَادٍ أَنْجَمَا [12]

---

(١) ديوانه (٤ : ٢٠١) .
(٢) أى لا يحسن عدم الإحسان ، والإحسان الأول مصدر والثانى ضد الإساءة .
(٣) الدنا : جمع دنيا ؛ كالعلا جمع عليا والقصا جمع قصيا .
(٤) ديوانه (٣ : ٢٥٢) .
(٥) يقول : إنما سميت أغطية العيون جفونها ؛ لأنها ضمنت أحداقا تعمل عمل السيوف .
(٦) ديوانه (٣ : ٢٥٨) .
(٧) جفخ : تكبر وفخر . والشيم : جمع شيمة ، وهي الخليقة . والأغر : الأبيض .
(٨) ديوانه (٣ : ٢٦١).
(٩) ديوانه (١ : ١٧) .
(١٠) الإسآد : الإسراع فى السير ، أو سير الليل بلا تعريس ، أو سير الإبل الليل مع النهار . والنيء : الشحم . والمهمه : المفازة . والإنضاء ؛ فاعل لاسم الفاعل .
(١١) ديوانه (٤ : ٢٧) .
(١٢) كفى : دعى واتركى ، أنجم : أقلع ؛ يقال : أنجمت السماء ؛ إذا أقلعت من المطر.

وقوله[١] :

رَمَانِى خِسَاسُ النَّاسِ مِنْ صَائِبِ اسْتِهِ   وَآخَرُ قُطْنٌ مِنْ يَدَيْهِ الجَنَادِلُ[٢]

وقوله[٣] :

فَلَوْلا تَوَلِّى نَفْسِهِ حَمْلَ حِلْمِهِ   عَنِ الأَرْضِ لانْهَدَّتْ وَنَاءَ بِهَا الْحِمْلُ

وقوله[٤] :

أَنَّى يَكُونُ أَبَا الْبَرِيَّةِ آدَمٌ   وَأَبُوكَ وَالثَّقَلانِ أَنْتَ مُحَمَّدُ !

وقوله[٥] :

خَفِ اللهَ واسْتُرْ ذَا الجَمَالَ ببُرْقُعٍ   فَإِنْ لُحْتَ حاضَتْ فى الْخُدُورِ العَوَاتِقُ[٦]

وقلت : لما أنكر عليه حاضت غيَّره فجعله ذابت .

وقوله[٧] :

مُذِلُّ الأَعِزَّاءِ الْمُعِزُّ وَإِنْ يَئِنْ   بِهِ يُتْمُهُمْ فَالْمُوتِمُ الْجَابِرُ الْيُتْمِ[٨]

وقوله[٩] :

تَحَرَّجَ عَنْ حَقْنِ الدِّمَاءِ كَأَنَّهُ   يَرَى قَتْلَ نَفْسٍ تَرْكَ رَأْسٍ عَلَى جِسْمِ[١٠]

---

(١) ديوانه (٣ : ١٧٤) .

(٢) خساس الناس : أراذلهم ، والصائب ، بمعنى المصيب ؛ يقال صابه يصيبه وأصابه يصيبه فهو صائب ومصيب .

(٣) ديوانه (٣ : ١٨٨) .

(٤) ديوانه (١ : ٣٤٠) .

(٥) ديوانه (٢ : ٣٤٩) .

(٦) العواتق : جمع عاتق ، وهى الجارية المقاربة للاحتلام . وفى رواية :

* فإن لحت ذابت فى الخدور العواتق *

(٧) ديوانه (٤ : ٥٣) .

(٨) الموتم الجابر اليتم : مبتدأ وخبر ، أى أنه يقتل الآباء ثم يحسن إلى الأبناء الأيتام ويصطنعهم .

(٩) ديوانه (٤ : ٥٤ ، ٥٦) .

(١٠) التحرج : الكف عن الشىء والإمساك عنه ، وحقن الدماء : حفظها وتركها فى أبدانها . يريد : أنه يريق دماء الأعداء ولا يحفظها .

أَطْعَنَاكَ طَوْعَ الدَّهْرِ يابْنَ ابْنِ يُوسُفٍ لِشَهْوَتِنا وَالْحَاسِدُونَ لَكَ بالرَّغْمِ[١]
إِذَا مَا ضَرَبْتَ القِرْنَ ثُمَّ أَجَزْتَنِي فَكِلْ ذَهَبًا لِي مَرَّةً مِنْهُ بِالْكَلْمِ[٢]
فَكَمْ قَائِلٍ لَوْ كَانَ ذَا الشَّخْصُ نَفْسَهُ لَكَانَ قَرَاهُ مَكْمَنَ العَسْكَرِ الدَّهْمِ[٣]
وقَائِلَةٍ والأَرْضَ أَعْنِي تَعَجُّبًا عَلَيَّ امْرُؤٌ يَمْشِي بِوَقْرِي[٤] مِنَ الحِلْم

وقوله[٥]:

وأَنَّكَ فِي ثَوْبٍ وَصَدْرُكَ فِيكُمَا عَلَى أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ الأَرْضِ أَوْسَعُ
وَقَلْبُكَ فِي الدُّنْيَا ولو دَخَلَتْ بِنَا وبالجِنِّ فِيهِ[٦] مَادَرَتْ كَيْفَ تَرْجِعُ

وقوله[٧]:

أَحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِي أُحَادِ لُيَيْلَتُنَا المَنُوطَةُ بالتَّنَادِ[٨]

وقوله[٩]:

وأَبْعَدَ[١٠] بُعْدَنَا بُعْدَ التَّدَانِي وقَرَّبَ قُرْبَنَا قُرْبَ البِعَادِ

---

(١) ارتفع « الحاسدون » عطفا على الضمير المرفوع فى «أطعناك» ، وحذف النون فى : «الحاسدو» لأنه شبه باسم الموصول ؛ كأنه قال : والذين حسدوك . وقد جاء مثله فيما أنشده سيبويه :
الحافظو عورة العشيرة لا يأتيهم من ورائهم وكف
(٢) القرن : كفء الرجل فى شجاعته ، والجائزة : ما يعطاها الشاعر ، والكلم : الجرح ، أى أعطنى ذهباً بقدر ما تسع ضربتك الواسعة .
(٣) القرى : الظهر . والمكمن : المخفى والمستتر ، الدهم : الكثير .
(٤) الوقر : الثقل .
(٥) ديوانه (٢ : ٢٤٧) .
(٦) الضمير فى « فيه » للقلب ، يقول ، قلبك قد أحاطت به الدنيا ، وهو فيها من جملة ما فيها ، ولو دخلت الدنيا بالإنس والجن لضلت فيه .
(٧) ديوانه (١ : ٣٥٣) .
(٨) التناد : يوم القيامة .
(٩) ديوانه (١ : ٣٥٨) .
(١٠) الضمير فى أبعد وقرب يعود على المسير فى بيت قبله . وقرب وبعد ، نصبهما نصب المصادر .

قلت : قد جمع في هذه الأبيات وفي غيرها مما احتذى به حذوها بين البرد والغثاثة ، وبين الثقل والوخامة ، فأبعد الاستعارة ، وعوّص اللفظ ، وعقّد الكلام ، وأساء الترتيب ، وبالغ في التكلّف ، وزاد على التعمّق ؛ حتى خرج إلى السّخف في بعض ، وإلى الإحالة في بعض . وقلت : كيف يعدّ في الفحول المفلقين من يقول[1] :

جَمَدَتْ نفوسُهم فلمّا جئتَها أجريتَها وسقيتَها الفولاذا

فَغَدَا أسيرًا قد بَلَلْتَ ثيابَه بدمٍ وبَلَّ ببولِه الأفخاذا

أعجلت أنفسَهم[2] بضربِ رقابِهِمْ عن قولِهِم لا فارسٌ إلاّ ذا

طَلَبَ الإمارةَ في الثغورِ وقد نَشَا[3] ما بين كرخايا إلى كلواذا

فكأنّه حَسِبَ الأسنَّةَ حلوةً أو ظنّها البَرْنِىَّ والآزاذا[4]

وقوله[5]:

بَشَرٌ تَصَوَّرَ غايةً في آيةٍ يَنْفي الظُّنونَ ويُفسِدُ التَّقييسا

يا من تَلُوذُ من الزمانِ بظلِّه أبدًا وتَطْرُدُ باسمِه إبليسا

إنّي نثرتُ عليك دُرًّا فانتقِدْ[6] كَثُرَ المدلِّسُ فاحذرِ التّدليسا[7]

حَجَّبْتُها عن أهلِ إنطاكيّةٍ وجلوتُها لكَ فاجتليتَ عروسا

خيرُ الطيورِ على القصورِ وشرُّها يأوي الخرابَ ويَسْكُنُ النّاووسا[8]

(١) ديوانه (٢ : ٨٣) .

(٢) في الديوان : « أعجلت ألسنهم » ، جمع لسان .

(٣) في الديوان : « ونشؤه » ، وكرخايا وكلواذا : قريتان من أعمال بغداد .

(٤) البرني والآزاذ : نوعان من أجود التمر .

(٥) ديوانه (٢ : ١٩٧ - ٢٠٠) .

(٦) انتقد الدراهم : أخرج الزيف منها .

(٧) صدره من قول الحكمي :

نثرت عليك الدر يا در هاشم فيا من رأى درا على الدر ينثر

وعجزه ينظر فيه إلى قول ابن الرومي :

أول ما أسأل من حاجة أن يقرأ الشعر إلى آخره

ثم كفاني بالذي ترتضي في جودة الشعر وفي شاعره

(٨) الناووس : مقابر النصارى ، وقيل : مقابر المجوس .

وقوله[١]:

ولعلّى مُـــــؤمّلٌ بعْضَ مَـــــا أبـْـ ـــلُغُ باللُّطْفِ من عَــزِيزٍ حَــمِــيــد
لِسَــرىٌّ لِبَــاسُــهُ خَــشِنُ القُطْـ ـــنِ ومَــرْوِىُّ[٢] مَــرْوَ لِبْسُ القُــرُود

وقوله[٣]:

ألْقَى الْكِرَامُ الأُلَى بَادُوا مَكارِمَــهُم عَلَى الْخَصِيبِىّ[٤] عِنْدَ الفَــرْضِ والسُّنَنِ
فَــهُنَّ فِى الْحَــجْرِ مِنْهُ كُلَّمَــا عرضَتْ لَهُ الْيَــتَــامَى بَدَا بالمَجْــدِ والمِنَنِ[٥]

وقوله[٦]:

جَــعَلْتُكَ بالْقَــلْبِ لِى عُــدَّةً لأنَّكَ بـالْيَـــدِ لاَ تُجْـــعَلُ[٧]

وقوله[٨]:

ونُصْــفِى الَّذِى يُكْنَى أَبَا الحَسَنِ[٩] الْهَوى ونُرْضِى الَّذِى يُسْــمَى الإلهَ وَلاَ يُكْنَى

وقوله[١٠]:

وكَــلامُ الْوُشَــاةِ لَيس عَلَى الأحْـــ ـــبَــابِ سُــلْطَانُهُ عَــلَى الأضْــدَادِ

---

(١) ديوانه (١ : ٣٢٠) .
(٢) مروى مرو : ثياب رقاق تنسج بها .
(٣) ديوانه (٤ : ٢١٤) .
(٤) باد الشيء : هلك ، وأباده غيره : أهلكه . الخصيبى : هو الممدوح نسبة إلى الجد ، وهو أبو عبيد الله محمد بن عبد الله القاضى الأنطاكى .
(٥) أصل الحجر المنع ، وحجر القاضى على فلان : منعه من التصرف . والمنن : جمع منة ، وهو ما يمن به الإنسان على صاحبه .
(٦) ديوانه (٣ : ٧١) .
(٧) يقول : جعلتك بالقول عدة أعتدها ، وعصمة أعتقدها ؛ لأنك أرفع قدراً من أن تتناول بالجوارح .
(٨) ديوانه (٤ : ١٦٦) .
(٩) أبو الحسن : هو على بن عبد الله سيف الدولة الممدوح .
(١٠) ديوانه (٢ : ٣١) .

وقوله(١):

ليس كلُّ السَّراة(٢) بالرُّوذَبَارِ ... يَّ ولا كلُّ ما يَطيرُ ببَازِ
فارسيٌّ له المجد تَاجٌ ... كان من جَوْهَرٍ على أَبْرَوَازِ(٣)
فكأنَّ الفَريدَ والدُّرَّ واليَا ... قُوتَ من لَفظه وَسَامَ الرِّكَازِ(٤)
تَقْضَمُ الجَمْرَ والحديدَ الأعَادى ... دُونَهُ قَضْمَ سُكَّرِ الأَهْوَازِ

وقوله(٥):

ونَهْبُ نُفُوسِ أهْلِ النَّهْبِ أَوْلَى ... بأهل المجد من نَهْبِ القُمَاشِ(٦)
ومنْ قَبْلِ النِّطَاحِ وقبلِ يَأْنِى(٧) ... تَبِينُ لَكَ النِّعَاجُ من الكِبَاشِ
تُطَاعِنُ كلُّ خَيْلٍ سِرْتَ فيها ... ولو كانوا النَّبِيطَ على الجِحَاشِ(٨)
أَتى خَبَرُ الأَمِيرِ فقِيلَ كَرُّوا ... فقلتُ نعم ولو لحِقُوا بشَاشِ(٩)

وقوله(١٠):

مُسْتَقِلٌّ لكَ الدِّيارَ ولوْ كا ... نَ نُجُومًا آجُرُّ هذا البناء
ولوْ أنَّ الذى يَخِرُّ من الأمْ ... وَاهِ فيها من فِضَّةٍ بَيْضَاءِ
أنتَ أعْلَى مَحَلَّةً أنْ تُهَنَّى ... بمكانٍ فى الأرضِ أو فى السَّماءِ
ولكَ(١١) الناسُ والبلادُ وما يَسْ ... رَحُ بين الغَبْراءِ والخضراءِ

---

(١) ديوانه (٢ : ١٧٩) .
(٢) فى الأصلين « البزاة » ، وهذه رواية الديوان . والسراة : الأشراف ، جمع سرى على غير قياس . والروذبارى : هو الممدوح نسبة إلى بلد أبيه ، وهى من بلاد العجم .
(٣) أبرواز : هو أبرويز أحد ملوك العجم ، وإنما غيره للوزن .
(٤) الفريد : الدر إذا نظم وفصل بغيره ، أو الكبار منه . والسام : عروق الذهب ؛ يقول كأن هذه الأشياء مأخوذة من لفظه لحسنه ونفاسته .
(٥) ديوانه (٢ : ٢١٠ ، ٢١٣) .
(٦) القماش : متاع البيت ومتاع الإنسان .
(٧) يأنى : يحين ؛ من أنى الشىء ؛ إذا حان ، وأراد : قبل أن يأنى .
(٨) رواية الديوان : « ولو كان النبيط » ، والنبيط : قوم بسواد العراق حراثون .
(٩) الكر : الرجوع على القرن بعد الفر للجولان ، وشاش : موضع بما وراء النهر .
(١٠) ديوانه (١ : ٣٢) .
(١١) فى الأصلين : « ملك » .

يفضحُ الشمسَ كلَّما ذرَّت[1] الشمـ ـسُ بشمسٍ منيرةٍ سوداء
إنما الجِلدُ ملبسٌ وابيضاضُ النـ ـنفسِ خيرٌ من ابيضاضِ القَباء

ويقول[2] :

ما أنصفَ القومُ ضبَّهْ[3] وأمَّهُ الطُّرْطُبَّهْ[4]
رموْا برأسِ أبيه وناكوا الأمَّ غُلُبَّهْ[5]
فلا بمن ماتَ فخرٌ ولا بمن نيكَ رغبهْ
وإنما قلتُ ما قلـ ـتُ رحمةً لا محبَّهْ
ما كنتَ إلا ذبابا نفتْكَ عنا مذبَّهْ
وكنتَ تنخَر[6] تيهاً فصرتَ تضرطُ رهبهْ
وإن بعُدنا قليلاً حمَلْتَ رمحاً وحربهْ

ويقول[7] :

قد بلغتَ الذى أردتَ من البِـ ـرِّ ومن حقِّ ذا الشريفِ عليكا
وإذا لم تسِرْ إلى الدارِ فى وقـ ـتِكَ ذا خِفتُ أن تسيرَ إليكا

* * *

وقلت : وهو أكثر الشعراء استعمالا لذا التى هى للإشارة ، وهى ضعيفة فى صنعة الشعر ، دالة على التكلف ، وربما وافقت موضعا يليق بها ، فاكتست قبولا ؛ فأما فى مثل قوله فى هذين البيتين : « ومن حق ذا الشريف عليكا » ؛ و« فى وقتك ذا » ، وقوله[8] :

---

(١) ذرت الشمس : بدت أول ما تطلع .
(٢) ديوانه (١ : ٢٠٤ ، ٢٠٨) .
(٣) ضبة : اسم من يهجوه بهذه القصيدة ، وهو ضبة بن يزيد العتبى ؛ وكان فيمن كان مع الخارجى الذى نجم فى بنى كلاب .
(٤) الطرطبة : القصيرة الضخمة ، وقيل : المسترخية الثديين .
(٥) الغلبة : المغالبة .
(٦) فى الديوان : « تفخر » .
(٧) ديوانه (٢ : ٣٨٤) .
(٨) ديوانه (١ : ٣١) .

لَو لم تَكن من ذَا الْوَرَى اللَّذْ(١) مِنكَ هُوْ عَقِمَتْ بمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَّاءُ

وقوله(٢):

عَنْ ذَا الَّذِى حُرِمَ اللُّيُوثُ كَمَالَهُ يُنْسِى الْفَرِيسَةَ خَوْفَهُ بجَمَالِهِ

وقوله(٣):

وَإِنْ بكَيْنَا(٤) لَهُ فَلاَ عَجَبٌ ذَا الْجَزْرُ فى البحْرِ غيرُ مَعْهُودِ

وقوله(٥):

ذَا الَّذى أنتَ جَدُّه وأَبُوه [دنيَةً(٦) دون جدّه وأبيه]

وقوله(٧):

أَفى كلِّ يَوْمٍ ذَا الدُّمُسْتُقُ(٨)مقْدِمٌ قَفَاهُ على الإِقْدَامِ لَلْوَجْهِ لاَئِمُ

وقوله(٩):

أَبَا الْمِسْكِ ذَا الوجْهُ الذى كنتُ تَائِقًا إليه ، وذا الوقتُ الذى كنتُ رَاجيًا(١٠)

وقوله(١١):

نحنُ فى أرضِ فارسٍ فى سُرُورٍ ذا الصَّبَاحُ الذى يُرَى مِيلاَدُهْ
كلما قال نَائلٌ(١٢) : أنا منهُ سَرَفٌ ، قال آخرٌ : ذَا اقْتِصَادُهْ

(١) اللذ : لغة فى الذى .
(٢) ديوانه (٣ : ٥٩) .
(٣) ديوانه (١ : ٢٦٢) .
(٤) رواية الديوان : وإن جزعنا . وجزر البحر : رجوع مائه إلى خلف ونضوبه .
(٥) ديوانه (٤ : ٢٦٣) .
(٦) يقال هو ابن عمى دنية : وهو القريب .
(٧) ديوانه (٣ : ٣٨٩) .
(٨) الدمستق : صاحب جيش الروم .
(٩) ديوانه (٤ : ٢٨٩) .
(١٠) أبو المسك : كنية كافور ، وتاق يتوق توقا ، إذا نازعه الحنين إلى الوطن وغيره . يخاطبه ويناديه : يا أبا الحسن ، هذا الذى كنت أشتاق إليه وأحن ، وهذا الوقت الذي كنت أرجو لقاءه وأتمناه .
(١١) ديوانه (٢ : ٤٨) .
(١٢) فى الأصلين : « قائل » .

وقوله(١):

فَــإنْ يكُنِ المَهْــدِىُّ مَنْ بَانَ هَدْيُهُ فـهـذا وإلاَّ فـالْهُـدَى ذَا فـمـا المَهْـدِى !

وقوله(٢):

يُعَلِّلُنَا هـذا الزّمـــانُ بِذَا الوَعْــد ويخْـدَعُ عـمـا فى يديه من النَّقْـد(٣)

وقوله(٤):

وهـــذا أوَّلُ الـــنَّــاعِــين طُــرًّا لأوَّلِ مـــيْـــتَـــةٍ فى ذا الْجَــلاَل(٥)

وقوله(٦):

فـــإن أتى حَظُّهــا(٧) بــأَزْمِـــنَــةٍ أَوْسَعَ مِنْ ذَا الـزَّمَـــانِ أَبْـدَاهَـا

وقوله(٨):

حَـلَفَتْ لِـذَا بَرَكَــاتُ غُــرَّةِ ذا فى المَهْـــدِ أَنْ لاَ فَــاتَهـمْ أَمَلُ

فهذا صالح، **وقوله**(٩):

فَبَعْدُهُ(١٠) وَإلَى ذا الْيَــوْمِ لَو رَكَـضَتْ بالخَـيل فى لهَـوَاتِ الطِّفْلِ مـا سَـعَلا

فهو – كما تراه – سخافةً وضعفا، ولو تصفّحت شعره لوجدت فيه أضعافَ مما ذكره من هذه الإشارة؛ وأنت لا تجدُ منها فى عدّة دواوين جاهليةٍ حرفاً، والمحدثون أكثر استعانة بها، لكن فى الفرط والنُّدْرة، أو على سبيل الغلط والفلتة.

*

(١) ديوانه (٢ : ٦٧).

(٢) ديوانه (١ : ٦٨).

(٣) النقد : خلاف النسيئة.

(٤) ديوانه (٣ : ١٠).

(٥) الناعون : جمع ناع، وأصله رفع الصوت. و«طرا»: نصب على الحال، والبيت من قصيدة فى رثاء أم سيف الدولة.

(٦) ديوانه (٤ : ٢٧٨).

(٧) الضمير يعود على همم فى البيت الذى قبله، وهو:

تجمعت فى فؤاده همم ملء فؤاد الزمان إحداها

(٨) ديوانه (٣ : ٣١١).

(٩) ديوانه (١ : ١٤٢).

(١٠) الفاء واقعة فى جواب أما فيما قبل.

وقلت : احتملنا له ما قدّمناه على ما فيه من فُنون المَعايب ، وأصناف القبائح ؛ كيف يُحْتمل له اللفظُ المعقّد ، والترتيب المتعسّف لغير معنى بديع يفي شرفُه وغرابتُه بالتعب في استخراجه ، وتقوم فائدةُ الانتفاع بإزاء التأذى باستماعه ، كقوله(١) :

وَفَاؤُكُما كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ بأَن تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ(٢)

ومَنْ يَرى هذه الألفاظ الهائلة ، والتعقيد المُفْرِط ، فيشك أن وراءَها كنزا من الحكمة ، وأنّ في طيِّها الغنيمة الباردة ؛ حتى إذا فتّشها ، وكشف عن سترها ، وسَهِر ليالى متواليةً فيها حصل على أن « وفاءكما ياعاذليّ بأن تُسْعدانى إذا درس شَجاى ، وكلما ازداد تَدَارُساً ازددت له شجْوا ؛ كما أن الربع أشجاه دارسُه » .

فما هذا من المعاني التى يضيع لها حلاوةَ اللفظ ، وبهاءَ الطبع ، ورونق الاستهلال ، ويشحّ عليها حتى يُهَلْهِل لأجلها النَّسْج ، ويُفْسِد النظم ، ويَفْصِل بين الباء ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه ، ويقدّم ويؤخّر ، ويعمّى ويعوّص !

ولو احتمل الوزن ترتيبَ الكلام على صحته فقيل : « وفاؤكما بأن تُسْعِدا أشجاه(٣) طاسِمُه كالربع » ، أو « وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاه طاسمه » لظهرَ هذا المعنى المضْنون به ، المتنافَس فيه ؛ فأما قولهُ : « والدمعُ أشفاه ساجمُه » فخطاب مستأنَف ، وفصلٌ منقطِع عن الأول ، وكأنه قال : « وفاؤكما والربع أشجاه ما طسَم ، والدمع أشفاه ما سجَم » .

وكذلك قوله(٤) :

أحَادٌ أم سُدَاسٌ فى أُحَادِ لُيَيْلَتُنا المَنُوطَةُ بالتَّنَادِ(٥)

(١) ديوانه (٣ : ٣٢٥) .

(٢) الطاسم : الدارس ، والساجم : السائل .

(٣) هذه الجملة خبر وفاؤكما .

(٤) ديوانه (١ : ٣٥٣) .

(٥) الليلة : تصغير ليلة ، والمنوطة : المعلقة ، والتنادى : كناية عن القيامة . يقول : إن هذه الليلة منوطة بيوم القيامة ، فهى لطولها بمنزلة ليالى الدهر كلها ؛ إلا أن كل واحدة من تلك الليالى طويلة أيضا ؛ حتى كأنها ست ليال فى ليلة .

تعرّض فيه لوجوهٍ من الطعن : منها قوله : « سُدَاس » ، وقد زعموا أنها غيرُ مَرْوِيّة عن العرب ، وإنما رُوى أُحَاد وثُناء وثُلاث ورُباع وعُشَار ، وهذه معدولات لا يُتجاوز بها السماعُ ، ولا يسوغُ فيها القياس .

ومنها أنه أقام أُحادا وسُدَاسا مقام واحد وستة ؛ والعربُ إنما عَدلوا به عن واحد واحد ، واثنين اثنين ، ولذلك لا يقولون للاثنين والثلاثة . هذا ثُناء وهذا ثُلاَث ؛ وإنما يقولون : جاء القوم أُحاد ومَثْنَى وثُلاَث : أى واحدا واحدا ،واثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ؛ وبذلك نطق القرآنُ ، قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وفُرَادَى ﴾ . أى اثنين اثنين ، وقال تعالى : ﴿ فانْكِحُوا ماطَابَ لكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلاَثَ ورُبَاعَ ﴾ ، أى اثنتين اثنتين ، وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً أربعاً .

ومنها أنه صغّر الليلة ، ثم وصفها بالطُّول ، ووصلها بالتَّناد ، حتى احتاج إلى إطالة الاعتذار إلى التأول والاستشهاد . وأنت إذا امتحنتَ الذى عَزاه لم تجد أكثرَ من « أُوَاحِدَةٌ ليلتُنا هذه أم ستٌّ ليال فى واحدة » وهل يساوى ذلك – وإن عُرِض سَمْحاً مطاوعاً ووُجد سهلا مُوَاتياً – أن يُفتتح به قصيدة ، أو تُعْقَد عليه قافية !

وما باله خصّ سُدَاساً ، وعُشَارٌ أكثر إن أراد التكثير ! واجتماع عشر ليالٍ أطول من اجتماع ست . فإن ادّعى مُدّعٍ أنه أراد استيفاء ليالى الأسبوع ، فجمعها فى الستّ والواحدة ، فكملت سبْعاً استدل النابهُ على ضعف بصره بالحساب ؛ لأن الستّ فى الواحدة ستٌّ ، فأينَ السابعة ؟ ولِمَ اقتصر على الأسبوع وهو يريدُ المبالغة فى الطول ؟ وهلا بلغ أقصى ما يحتمله الوزن وأكثر ما يُمكنه النظم !

فإن توسّعتَ فى الدعاوى فضلَ توسّع ، ومِلْتَ مع الحيْفِ بعض الميل حتى تناولت طائفةً من المختار ، فجعلتَه فى المنفىّ ، وأخذْتَ صدْراً من الجيد فجعلته مع الردئ – ولسنا ننَازعك فى هذا الباب – فهو باب يضيق مجالُ الحجة فيه ، ويصعبُ وصول البرهان إليه . وإنما مدارُه

على استشهاد القرائحِ الصافية ، والطبائع السليمة ، التى طالت مُمَارستُها للشعر ، فحَذَقَتْ نَقْدَه ، وأثبتت عياره ، وقَوِيتَ على تمييز ، وعرفت خلاصه ، وأنما تُقابل دعواك بإنكار خَصْمك ، ونُعارض حُجَّتك بإلزام محالفك إذا صِرْنا إلي ما جعلتَه من باب الغَلط واللَّحْنِ ، ونسبتَه إلى الإحالة والمناقضة ، فأمّا ، وأنت تقول : هذا غَثٌّ مستبَرَد ، وهذا متكلّف متعسِّف ، فإنما تخبر عن نُبُوّ النفس عنه ، وقلّةِ ارتياح القلبِ إليه .

والشعر لايحبَّبُ إلى النفوس بالنظر والمحاجّة ، ولا يحلَّى فى الصدور بالجدَال والمُقايسة ؛ وإنما يعطِفُها عليه القبولُ والطَّلاَوَة ، ويقرِّبُه منها الرونقُ والحلاوة ؛ وقد يكون الشئُ مُتقَناً مُحْكماً ، ولا يكونُ حُلْواً مقبولا ، ويكون جيِّداً وثيقاً ، وإن لم يكن لطيفاً رشيقاً .

وقد يجدُ الصورةَ الحسنة والْخلقة التَّامةَ مقلية ممقوتةً ، وأخرى دونها مُسْتَحْلاَةً مَرْموقة ؛ ولكلّ صناعة أهلٌ يُرْجع إليهم فى خصائصها ، ويُسْتَظْهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها .

وما أُنكرُ أن يكونَ كثير مما عددتُه من هذه الأبيات ساقطةً عن الاختيار ، غيرَ لاحقة بالإحسان . وأنّ منها ماغلَب عليه الضعفُ ، ومنها ما أثِر فيه التعسُّف ؛ ومنها ما خانه السَّبْك ؛ فساء ترتيبهُ ، وأخلّ نظمه . ومنها ما حمل عليه التعمّق ؛ فخرج به إلى الغَثَاثة والبَرْد ، وإن كان أكثرُها لم يأتِ من قِبَل المعنى وشَرَفه ، وكنا نجد لكل واحد منها مثالا يحسِّنه ، وشبيهاً يعضده ويسدده : ولكن الذى أُطالبك به وأُلزمك إياه ألاَّ تستعجلَ بالسيئة قبل الحسنة ، ولا تقدِّمَ السُّخْط على الرحمة ، وإن فعلتَ فلا تُهْمِل الإنصاف جملـــة ، وتخرج عن العَدْل صِفْراً ؛ فإنّ الأديبَ الفاضل لايستحسن أن يعقد بالعثرة على الذنب اليسير من لايحمد منه الإحسان الكثير؛ وليس من شرائط النَّصفَة أن تنعى على أبى الطيب بيتاً شذَّ،وكلمةً نَدَرت ،

وقصيدةً لم يُسْعِده فيها طَبْعُه ؛ ولفظةٌ قصرت عنها عنايته ، وتَنسَى محاسنَه ، وقد ملأت الأسْماعَ ، وروائقه وقد بهرت . ولا من العدل أن تُؤَخّره الهَفْوَةُ المنفردة ، ولا تقدمه الفضائلُ المجتمعة ، وأن تحطه الزلةُ العابرة ولا تنفعه المناقبُ الباهرة .

وكيف أسقطته عن طبقات الفحول وأخرجتَه من ديوان المحسنين لهذه الأبيات التى أنكرتَها، ولم تسلّم له قصب السَّبْقِ ونصال النضال ، وتُعْنون باسمه صحيفة الاختيار لقوله[١] :

هُوَ الجَدُّ[٢] حتى تَفْضُلَ العَيْنُ أُخْتَها ... وحَتى يكونَ[٣] الْيَوْمُ لِليَوْمِ سَيِّدا[٤]

ومَا قَتَلَ الأحْرارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمُ ... ومَنْ لَكَ بالحُرِّ الّذى يَحْفَظُ الْيَدَا !

إذَا أنتَ أكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ ... وإنْ أنتَ أكْرَمْتَ اللئِيمَ تمرّدا[٥]

أزِلْ حَسَدَ الحُسّادِ عَنِّى بِكَبْتِهِمْ[٦] ... فأنْتَ الّذى صَيَّرْتَهُمْ لِىَ حُسَّدَا

ومَا أنَا إلاَّ سَمْهَرِىٌّ[٧] حَمَلْتَهُ ... فزَيَّنَ مَعْرُوضاً وَرَاعَ مُسَدَّدَا

أجِزْنِي إذا أُنْشِدْتَ شِعْراً فإنّما ... بِشِعْرِى أتَاكَ المادِحُونَ مُرَدَّدَا

ودَعْ كلَّ صَوْتٍ دونَ صَوْتِي فإنّنى ... أنا الصائِحُ المَحْكِيُّ والآخرُ الصَّدَى[٨]

تركْتُ السُّرَى خَلْفِى لِمَنْ قلَّ مَالُهُ ... وأنْعَلْتُ أفْرَاسِى بنُعْمَاكَ عَسْجَدَا[٩]

---

(١) ديوانه (١ : ٢٨٦) ، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ، ويهنئه فيها بعيد الأضحى .

(٢) الجد : الحظ .

(٣) فى الديوان : « يصير » .

(٤) يقول : الحظ يفرق بين الشئ وما يساويه ، فيجعل لأحدهما مزية على الآخر ؛ حتى لقد يقع التفاضل بين العين وأختها .

(٥) أنت فى الشطرين فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور ، والبيت تأكيد لما قبله .

(٦) الكبت : الصرف والإذلال .

(٧) السمهرى : الرمح ؛ منسوب إلى سمهر؛ اسم رجل كان يقوّم الرماح ، وفى الأصلين «السمهرى» وهذه رواية الديوان .

(٨) الصدى : الصوت الذى يسمع من بعيد كأنه يحكى قولك أو صياحك .

(٩) السرى : مشى الليل . والعسجد : الذهب . يقول : استغنيت عن السرى بوصولى إليك ، فتركته خلفى لمن أحوجه الفقر إليه ، وأثريت بنعمتك ؛ حتى لو شئت أنعلت أفراسى بالذهب .

وقَيَّدْتُ نفسى فى ذَرَاكَ محبَّةً ... ومَنْ وجدَ الإحسانَ قَيْداً تقَيَّدا
إذا سألَ الإنسانُ أيامَه الغنَى ... وكُنتَ على بُعْدٍ جَعلْتُكَ(١) مَوْعِدا

وقوله(٢):

وأطْمَعَ عامِرَ البُقْيا عَلَيْهِمْ ... ونزَّقَها احْتِمالُكَ والوَقارُ(٣)
وكانتْ(٤) بالتَّوقُّفِ عن رَدَاها ... نُفوساً فى رَدَاها تُسْتَشارُ
وكنتَ السَّيْفَ قائِمُهُ إلَيْها(٥) ... وفى الأعْداءِ حَدُّكَ والغِرارُ(٦)
وظلَّ الطَّعْنُ فى الخَيْلَيْنِ خَلْساً ... كأنَّ المَوْتَ بَيْنَهُمُ(٧) اخْتِصارُ(٨)
مضَوْا مُتَسابِقى الأعْضاءِ فيهِ ... لأرْؤُسِهِمْ بأرْجُلِهمْ عِثارُ
إذا صرَفَ النَّهارُ الضَّوْءَ عنهم ... دَجا لَيْلانِ : لَيْلٌ والغُبارُ
وإنْ جُنْحُ الظَّلامِ انْجابَ عنهمْ ... أضاءَ المَشْرَفيَّةُ(٩) والنَّهارُ
إذا فاتُوا الرِّماحَ تَناوَلَتْهُمْ ... بأرْماحٍ من العطَشِ القِفارُ
يرَوْنَ المَوْتَ قُدَّاماً وخَلْفاً ... فيَخْتارُونَ والمَوْتُ اضْطِرارُ
إذا سَلَكَ السَّماوَةَ(١٠) غيْرُ هادٍ ... فقَتْلاهُمْ لعَيْنَيْهِ مَنارُ
فمَنْ طَلَبَ الطِّعانَ فذَا عَلِيٌّ ... وخَيْلُ اللهِ والأسَلُ الحِرارُ(١١)

---

(١) فى رواية : « جعلتك » .
(٢) ديوانه (٢ : ١٠١) ، من قصيدة يصف إيقاع سيف الدولة بالقبائل العربية .
(٣) عامر : اسم قبيلة ، ولذلك منعها من الصرف ، وقال « عليهم » ، وفى رواية : « عليها » . ونزقها : حملها على النزق ، والنزق : الخفة والطيش .
(٤) الضمير فى « وكانت » يعود على الفرسان فى بيت قبله .
(٥) فى الديوان : « إليهم » .
(٦) الغرار : الحد .
(٧) فى الديوان « بينهما » .
(٨) يريد أنهم مازالوا يتخالسون الطعن ، فيسرع إليهم الموت ؛ فكأنهم يختصرون الآجال .
(٩) جنح الليل : جانبه ، والمشرفية : السيوف .
(١٠) السماوة : بادية الكوفة والشام .
(١١) الحرار : العطاش . الأسل : الرماح .

يراه النّاسُ حيثُ رأتْهُ كعْبٌ ... بأرضٍ ما لنازلِها استتارُ
بنو كعْبٍ وما أثّرتَ فيهمْ ... يَدٌ لم يُدْمِها إلاّ السِّوارُ
بها مِنْ قَطْعِهِ ألَمٌ ونَقْصٌ ... وفيها من جَلالتِهِ افتخارُ
لهمْ حَقٌّ بشِرْكِكَ في نِزارٍ ... وأدْنى الشِّرْكِ في نَسَبٍ جِوارُ
لعلّ بَنيهِمُ لبَنيكَ جُنْدٌ ... فأوّلُ قُرّحٍ(١) الخَيْلِ المِهارُ

وقوله(٢):

نَزَلوا في مَصارِعٍ عرفوها ... يَنْدُبونَ الأعمامَ والأخْوالا
تَحْمِلُ الرّيحُ بينَهمْ شَعَرَ الهَا ... مِ وتُذْرى(٣) عليهِمُ الأوْصالا
تُنْذِرُ الجِسْمَ أنْ يُقيمَ لَدَيْهَا ... وتُريهِ لكلّ عُضْوٍ مِثالا
أبْصَروا الطّعْنَ في القُلوبِ دِراكاً ... قَبْلَ أنْ يُبصِروا الرّماحَ خَيالا(٤)
يَنْفُضُ الرّوْعُ أيْدِياً لَيسَ تَدْرِي ... أسُيوفاً حَمَلْنَ أمْ أغْلالا(٥)
وإذا ما خَلا الجَبانُ بأرْضٍ ... طَلَبَ الطّعْنَ وَحْدَهُ والنِّزالا(٦)
إنّ دونَ الّتي على الدّرْبِ والأحْـ ... ـدَبِ والنّهْرِ مِخْلَطاً مِزْيالا(٧)
غَصَبَ الدّهْرَ والمُلوكَ عَلَيْها ... وبَنَاهَا في وَجْنَةِ الدّهْرِ خَالا

---

(١) القرح من الخيل : جمع قارح ، وهو الذى استكمل سنه .
(٢) ديوانه (٣ : ١٤٠) ، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ، يذكر نهوضه لغزو الروم .
(٣) الهام : الرؤوس ، وتذرى : تنثر وتفرق . ويريد بالأوصال : الأعضاء .
(٤) الدراك : التتابع ، وخيالا : متخيلا .
(٥) الروع : الخوف والفزع . والأغلال : جمع غل ، وهو رباط تشد به اليد إلى العنق .
(٦) قال العكبرى : « وهذا من قول الحكيم : الجبن ذلة كامنة فى نفس الجبان ؛ فإذا خلا بنفسه أظهر شجاعتها » .
(٧) الدرب : المدخل من أرض العدو . والأحدب : جبل . والنهر : موضع . وفلان مخلط مزيال : موصوف بالشجاعة وجودة الرأى ، أى كثير المخالطة للأمور ثم يزايلها ، أو مزيال عن أطراف بلاده .

إنما أَنْفُسُ الأنيسِ سِبَاعٌ ... يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً واغْتِيالا[1]
مَنْ أطاقَ الْتِمَاسَ شيْءٍ غِلابًا ... واغْتِصَابًا لم يَلْتَمِسْهُ سُؤالا[2]

وقوله[3]:

قَادَ الجيَادَ[4] إلى الطِّعَانِ ولَمْ يَقُدْ ... إلاَّ إلى العادات والأوْطَان
إن خُلِّيَتْ رُبِطَتْ بآداب الْوغَى ... فدعَاؤها يُغْنِى عن الأرْسَان[5]
فى جَحْفَلٍ[6] سَتَرَ العيُونَ غُبارُهُ ... فكأنمَا يُبْصِرنَ بالآذان
يرْمى بها البلدَ البعيدَ مُظَفَّرٌ ... كلُّ الْبعيد له قريبٌ دَان
حتى عَبَرْنَ بأَرْسَنَاسَ[7] سَوَابحًا ... يَنْشُرْنَ فيه عَمَائمَ الْفُرْسَان
يَقْمُصْنَ فى مثل المُدَى من باردٍ ... يَذَرُ الْفُحُولَ وَهُنَّ كالْخِصْيان[8]
بَحْرٌ تَعَوَّدَ أَوْ يُذِمُّ لأَهْلِه ... من دَهْره وطَوَارِق الْحِدْثَان[9]
فَتَرَكْتَهُ وإِذَا أَذَمَّ من الْوَرَى ... رَاعَاكَ وَاسْتَثْنَى بَنِى حَمْدَان[10]
نظَرُوا إِلى زُبَرِ الحديد كأنمَا ... يَصْعَدْنَ بين مَنَاكِب العِقْبان[11]
وَفَوَارِسٍ يُحْيِى[12] الحِمَامُ نفُوسَها ... فكأنها ليست من الحيوان

(١) الأنيس : جماعة الناس . والتفارس : التقاتل . والاغتيال : القتل بالخديعة .
(٢) الغلاب : الغلبة . والاغتصاب : الأخذ بالقهر .
(٣) ديوانه (٤ : ١٧٦) .
(٤) الجياد : جمع جواد على غير قياس .
(٥) الوغى : من أسماء الحرب . والأرسان : جمع رسن ، وهو ما يكون فى رأس الدابة .
(٦) الجحفل : الجيش العظيم .
(٧) أرسناس : نهر بالشام بارد الماء جدا ، يسيل من ذوب الثلج .
(٨) يقمصن : يثبن لشدة برده . والمدى : جمع مدية ، وهى السكين . والخصيان : جمع خصى من الخيل .
(٩) الذمام : العهد . والحدثان : حوادث الدهر .
(١٠) أذم : أجار ، وبنو حمدان : قبائل سيف الدولة .
(١١) زبر الحديد : قطعه . والعقبان : جمع عقاب ، وهو من سباع الطير .
(١٢) فى الأصلين : « يحمى » . والحمام : الموت .

مــــازِلْتَ تَضْــــرِبُهُمْ دِراكًــا فى الذُّرَى ضَــرْبًا كَــأنَّ السَّـيْفَ فِــيـه اثْنان(١)

خصَّ الجمــاجِمَ وَالْوُجُـوهَ كــأنَّمَــا جــاءتْ إليْكَ جُسُــومُــهُمْ بأمَــان(٢)

وقوله(٣):

لَوْ كَلَّتِ الخــيلُ حــتى لاتَحَــمَّلَهُ تَحَــمَّلَتْــهُ إلى أعْــدائِه الْهِــمَمُ(٤)

شُحْبٌ تَمُــرُّ بِحِصْنِ الرَّانِ مُــمْسِــكَةٌ ومــا بهــا الْبُــخْلُ لَوْلا أنَّهــا نِقَمُ(٥)

وشُزَّبٍ أحْــمَتِ الشِّـعْـرَى شَكائمَــهَــا وَوَسَّمَــتْــهــا عَلَى آنافِــهــا الْحَكَمُ(٦)

تَرْمــى عَــلَى شَــفَـرَاتِ الْبَــاتِرَاتِ بِهِمْ مَكامِنُ الأرض والْغــيطانُ والأكَمُ(٧)

ومــا يَصُــدُّكَ عَنْ بَحــرٍ لَهُمْ سَــعَــةٌ ومــا يَرُدُّكَ عَن طَوْدٍ لَهُمْ شَــمَمُ(٨)

ضَرَبْتَه(٩) بصُــدورِ الخــيْلِ حَــامِلَةً قَــوْمًـا إذَا تَلِفُــوا قُــدْماً فَــقَــدْ سَلِمُــوا

وفيها:

هِنْدِيَّةٌ(١٠) إنْ تُصَــغِّرْ مَـعْشَــراً صَــغُــرُوا بِحَــدِّها أوْ تُعَظِّمْ مَــعْشَــراً عَظُمُــوا

---

(١) الدراك : التتابع : وذرى الشيء : أعلاه .

(٢) الجماجم : جمع جمجمة ، وهى أعلى الرأس . يريد أن الضرب لا يقع إلا فى وجه أو رأس ولا يتعرض لسائر الجسد .

(٣) ديوانه (٤ : ١٦) .

(٤) كلت : ضعفت . والهمم : جمع همة ، وهى العزيمة .

(٥) حصن الران : موضع من بلاد سيف الدولة . والنقم : جمع نقمة ، كنعم جمع نعمة .

(٦) الشزب : جمع شازب ؛ وهى الفرس الضامر . الشعرى : نجم يطلع فى الصيف ويكون فيه شدة الحر . الشكائم : جمع شكيمة ، وهى رأس اللجام ، والحكم : جمع حكمة ، وهى ما على أنف الفرس .

(٧) الشفرات : جمع شفرة ، وهى حد السيف . والباترات : القاطعات ومكامن الأرض : الخفيات منها . والغيطان : جمع غائط ، وهو المطمئن من الأرض .

(٨) الطود : الجبل ، والشمم : العلو .

(٩) فى الأصلين « ضربتهم » ، والضمير فى ضربته للنهر ، وهو أرسناس السابق .

(١٠) هندية : منسوبة إلى الهند .

قَاسَمْتَهَا تَلَّ بِطْرِيقٍ[١] فَكَانَ لَهَا ... أَبْطَالُهَا وَلَكَ الأَطْفَالُ وَالحُرَمُ
وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِى لَجَبٍ ... أَنْ يُبْصِرُوكَ فَلَمَّا أَبْصَرُوكَ عَمُوا[٢]
فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمُ ... يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ وَالأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ[٣]
إِذَا تَوَافَقَتِ الضَّرْبَاتُ صَاعِدَةً ... تَوَافَقَتْ قُلَلٌ فِى الجَوِّ تَصْطَدِمُ[٤]
لاَ يَأْمُلُ النَّفَسَ الأَقْصَى لِمُهْجَتِهِ ... فَيَسْرِقُ النَّفَسَ الأَدْنَى وَيَغْتَنِمُ
أَلْقَتْ إِلَيْكَ دِمَاءُ الرُّومِ طَاعَتَهَا ... فَلَوْ دَعَوْتَ بِلاَ ضَرْبٍ أَجَابَ دَمُ
يُسَابِقُ القَتْلُ فِيهِمْ كُلَّ حَادِثَةٍ ... فَمَا يُصِيبُهُمُ مَوْتٌ وَلاَ هَرَمُ
أَلْهَى المَمَالِكَ عَنْ فَخْرٍ قَفَلْتَ بِهِ ... شُرْبُ المُدَامَةِ وَالأَوْتَارُ وَالنَّغَمُ
مُقَلَّداً فَوْقَ شُكْرِ اللهِ ذَا شُطَبٍ[٥] ... لاَ تُسْتَدَامُ بِأَمْضَى مِنْهُمَا النِّعَمُ

وقوله[٦]:

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلاَّ فِى مُعَامَلَتِى ... فِيكَ الخِصَامُ وَأَنْتَ الخَصْمُ وَالحَكَمُ
إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً ... فَلاَ تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ
وَمُهْجَةٍ مُهْجَتِى مِنْ هَمِّ صَاحِبِهَا ... أَدْرَكْتُهَا بِجَوَادٍ ظَهْرُهُ حَرَمُ[٧]
رِجْلاَهُ فِى الرَّكْضِ رِجْلٌ وَالْيَدَانِ يَدٌ ... وَفِعْلُهُ مَا تُرِيدُ الكَفُّ وَالْقَدَمُ
يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ ... وِجْدَانُنَا كُلَّ شَىْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ[٨]
مَا كَانَ أَخْلَقَنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ ... لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمُ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمُ[٩]

---

(١) تل بطريق : بلد .

(٢) الدرب : موضع . واللجب : اختلاف الأصوات .

(٣) يقول : كانت جسومهم الثابتة ساقطة بين يديك وأرواحهم منهزمة .

(٤) يريد أنهم لا يضربون ضربة إلا قطعوا بها رأساً ، فالرءوس المقطوعة على قدر الضربات .

(٥) ذا شطب : سيفاً فيه طرائق ، والضمير فى « منهما » للشكر والسيف .

(٦) ديوانه (٣ : ٣٦٦) « من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ويعاتبه .

(٧) المهجة : الروح . والهم : ما اهتممت به . والجواد : الفرس الكريم . والحرم : ما لا يحل انتهاكه.

(٨) أى إذا فارقناكم ووجدنا كل شىء ، فوجدانه والعدم سواء لأنه لايغنى غناءكم أحد .

(٩) أخلقنا : أحرانا . الأمم القصد « يقول : ما كان أحرانا ببركم لو كان أمركم فى الاعتقاد لنا مثل أمرنا فى الاعتقاد بكم .

إنْ كانَ سَرَّكُمْ ما قالَ حَاسِدُنا … فَما لجُرحٍ إذا أرضَاكُمُ ألَمُ
وبيننَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةٌ … إنَّ المَعَارِفَ فى أهلِ النُّهَى ذِمَمُ(١)
ما أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصَانَ مِنْ شِيَمِي(٢) … أنا الثُّريّا وذَانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ
لَيْتَ الغَمَامَ الَّذى عِنْدى صَوَاعِقُهُ … يُزِيلُهُنَّ إلَى مَنْ عِنْدَهُ الدِّيَمُ(٣)
شَرُّ البِلاَدِ مَكانٌ لاَ صَدِيقَ بِهِ … وشَرُّ ما يَكْسِبُ الإنْسَانُ مَا يَصِمُ(٤)
وشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِى قَنَصٌ … شُهْبُ البُزَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ والرَّخَمُ(٥)

ويقول(٦):

النَّاسُ مَا لم يَرَوْكَ أشْبَاهُ … والدَّهْرُ لَفْظٌ وأنْتَ مَعْنَاهُ
وَالجُودُ عَيْنٌ وأنت نَاظِرُهَا … وَالبَأسُ بَاعٌ وأنْتَ يُمْنَاهُ
تُنْشِدُ أثْوابُنَا مَدَائِحَهُ … بِألْسُنٍ مَا لَهُنَّ أفْوَاهُ
إذَا مَرَرْنَا علَى الأصَمِّ بِهَا … أغْنَتْهُ عن مِسْمَعَيْهِ عَيْنَاهُ
يَارَاحِلاً كُلُّ مَنْ يُوَدِّعُهُ … مُوَدِّعٌ دِينَهُ ودُنْيَاهُ
إنْ كانَ فِيما نَرَاهُ مِن كَرَمٍ … فِيكَ مَزِيدٌ، فَزَادَكَ اللهُ

وقوله(٧):

وَفَارِسُ الخَيْلِ مَنْ خَفَّتْ فَوَقَّرَهَا … فى الدَّرْبِ والدَّمُ فِي أعْطَافِهَا دُفَعُ(٨)

---

(١) النهى : العقول . الذمم . العهود .

(٢) فى الديوان : « من شرفى » .

(٣) الديم : الأمطار .

(٤) يصم : يعيب .

(٥) الرخم : جمع رخمة ، وهى طائر يشبه النسر فى الخلقة . والشهب : جمع أشهب ، وهو ما فيه بياض يخالطه سواد ، والبزاة جمع باز ؛ وهو من جوارح الطير .

(٦) ديوانه (٤ : ٢٦٣) . من قصيدة يمدح فيها أبا العشائر ، ويودعه حين سفره .

(٧) ديوانه (٢ : ٢٢٣) ، من قصيدة أنشدها سيف الدولة ، وقد عاد منهزماً من غزو الروم .

(٨) خفت : أسرعت فى الهزيمة . وقرها : ثبتها . والدرب : المضيق . وأعطافها : جوانبها . والدفعة من الشىء : ما انصب منه بمرة .

فَــأَوْحَــدَتْهُ ومَــا في قَلْبِــه قَلَقٌ ... وأَغْـضَـبَـتْـهُ وَمَـا في لَفْظِه قَـذَعُ(١)
قَــادَ الْمَقَــانبَ أَقْـصَى شُـرْبِهَـا نَهَلٌ ... على الشَّكِيمِ وأَدْنَى سَـيْـرِهَا سَـرَعُ(٢)
لاَ يَعْتَقِي(٣) بَلَدٌ مَــسْــرَاه عن بَلَدٍ ... كَـالمَوْتِ ليس له رِيٌّ ولا شِـبَعُ
يُطَمِّعُ الطَّيْـرَ فـيـهِمْ طولُ أَكْلِهِم ... حَـتى تَكادَ على أَحْـيَـائِهم تَقَعُ
ذَمَّ الدُّمُـسْتُقُ عَـيْنَيْـه وقَـدْ طَلَعَتْ ... سُـودُ الْغَـمَـامِ فظَنُّوا أَنَّهَـا قَـزَعُ(٤)
فـيـهـا الْكُمَـاةُ التي مَـفْطُومُـهـا رَجُلٌ ... على الْجِيَـادِ التي حَـوْلِيُّـهَـا جَـذَعُ(٥)
كَــأَنهَــا تَتَلَقَّــاهُمْ لِتَــسْلُكَهُمْ ... فَـالطَّعْنُ يفْـتَحُ في الأَجْـوَافِ مَـاتَسَعُ
إذا دَعَـا الْعِلْجُ عِلْجـاً حَـالَ بَيْنَهُـمَـا ... أَظْمَى(٦) تُفَـارِقُ منهُ أُخْـتَـهـا الضِّلَعُ
لا تَحْـسَـبُوا مَنْ أَسَـرْتُمْ كَـانَ ذَا رَمَقٍ ... فليس يأْكلُ إلا الْمَيْـتَـةَ الضَّـبُعُ
وإنمَّا عَــــرَضَ اللهُ الْجُنُودَ بِكُمْ ... لِكَي يكُونُوا بلا فَــسْلٍ(٧) إذَا رَجَـعُـوا
وهل يَشِــينُكَ وَقْتٌ أَنْتَ فَــارِسُــهُ ... وكَـانَ غَـيـرَكَ فـيـه الْعَاجِزُ الضَّـرَعُ(٨)
مَن كَـان فـوقَ مَـحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِـعُـهُ ... فـلَيـس يَرفَــعُــهُ شيءٌ ولا يَضَعُ
لايُسْلِمُ الكَرُّ فى الأعْـقَـابِ مُـهْـجَـتَـهُ ... إنْ كَـانَ أَسْلَمَـهـا الأصـحـابُ والشِّيَعُ(٩)
ومَــا حَـمِـدْتُكَ فى هَوْلٍ ثَبَتَّ لَهُ ... حَـتى بَلَوْتُكَ وَالأَبْطالُ تَمْـتَـصِـعُ(١٠)

(١) أوحدته : تركته وحيداً . والقذع : الفحش .

(٢) المقانب : جمع مقنب ، وهو زهاء الثلاثمائة من الخيل ، والنهل : الشرب أول مرة .

(٣) يعتقى : يعوق .

(٤) الدمستق : صاحب جيش الروم ، والقزع : المتفرق من السحاب .

(٥) الضمير يعود على « سود الغمام » فى البيت قبله . الجذع : الذى أتى عليه حولان ، والحولى : الذى أتى عليه حول .

(٦) العلج . الرجل من كفار العجم . والأظمى : الرمح .

(٧) الفسل : الدنىء العاجز من الرجال .

(٨) يشينك : يعيبك . الضرع : الضعيف .

(٩) أسلمه : خذله . والكر : الرجوع مرة بعد أخرى . والأعقاب : جمع عقب ، وهو مؤخر كل شئ . والشيع : الأتباع .

(١٠) تمتصع : تذهب فى الأرض . هاربة . يقول : لم أحمدك فى مواقف الهول إلا بعد أن اختبرتك ، وعرفت ثباتك .

فقد يُظَنُّ شُجاعاً مَنْ به خَرَقٌ وقد يُظَنُّ جَباناً مَنْ به زَمَعُ(١)

وقوله(٢):

خَليلَيَّ إنِّى لا أرى غيرَ شاعرٍ فَلِمْ منهُمُ الدَّعْوَى ومنِّى القَصائدُ
فلا تعجَبا إنَّ السُّيوفَ كثيرةٌ ولكنَّ سيفَ الدَّوْلة اليومَ واحدُ
لَهُ من كريمِ الطَّبعِ فى الحَرْبِ مُنْتَضٍ ومنْ عادةِ الإحسانِ والصَّفْحِ غامدُ(٣)
ولَمَّا رأيتُ الناسَ دونَ محلِّه تيقَّنتُ أنَّ الدَّهْرَ للناس ناقدُ
ومنْ شَرَفِ الإقْدامِ أنَّكَ فيهمُ على القَتْلِ مَوْمُوقٌ كأنَّكَ شاكدُ(٤)
وأنَّ دَماً أجْرَيْتَهُ بكَ فاخرٌ وأنَّ فُؤاداً رُعْتَهُ لَكَ حامدُ
وكلٌّ يرى طُرْقَ الشَّجاعةِ والنَّدَى ولَكِنَّ طَبْعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قائدُ
نَهَبْتَ منَ الأعمارِ ما لَوْ حَوَيْتَهُ لهُنِّئَتِ الدُّنْيا بأنَّكَ خالدُ

وقوله - يرثى عبداً لسيف الدولة(٥):

ومَنْ سَرَّ أهْلَ الأرْضِ ثم بكَى أسىً بكَى بعُيونٍ سَرَّها وقُلُوبِ
سُبِقْنَا إلَى الدُّنْيا فلو عاشَ أهْلُها مُنِعْنَا بها من جَيْئَةٍ وذُهُوبِ
وأوْفَى حَيَاةِ الغابِرينَ لِصَاحِبٍ حَيَاةُ امْرِئٍ خانَتْهُ بَعْدَ مَشِيبِ

وفيها:

فإنْ يَكُنِ العِلْقَ النَّفيسَ فَقَدْتَهُ فَمِنْ كَفِّ مِتْلافٍ أغَرَّ وَهُوبِ
كأنَّ الرَّدَى عادٍ على كلِّ ماجِدٍ إذَا لمْ يُعَوِّذْ مَجْدَهُ بعُيُوبِ

---

(١) الزمع : رعدة تعترى الشجاع من الغضب .

(٢) ديوانه (١ : ٢٧١) ، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ؛ وقد أراد الذهاب إلى خرشنة ، فعاقه الثلج .

(٣) انتضى السيف : جرده ، يريد أنه سيف يجرده كرم طبعه بما فيه من الشجاعة والأنفة ، ويغمده ما تعوده من الإحسان والصفح .

(٤) الشاكد : المعطى .

(٥) ديوانه (١ : ٤٩) .

وَلَوْلاَ أَيَادِى الدَّهْرِ فِى الجَمْعِ بَيْنَنَا ... غَفَلْنَا فَلَمْ نَشْعُرْ لَهُ بِذُنُوبِ
تَسَلَّ بِفِكْرٍ فِى أَبِيكَ فَإِنَّمَا ... بَكَيْتَ وَكَانَ الضِّحْكُ بَعْدَ قَرِيبِ

وقوله[1]:

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ[2] نَمْشِى كَرَامَةً ... لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا
نَذُمُّ السَّحَابَ الغُرَّ فِى فِعْلِهَا بِهِ ... وَنُعْرِضُ عَنْهَا كُلَّمَا طَلَعَتْ عَتْبَا
وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا طَوِيلاً تَقَلَّبَتْ ... عَلَى عَيْنِهِ حَتَّى يَرَى صِدْقَهَا كِذْبَا
ذَكَرْتُ بِهِ وَصْلاً كَأَنْ لَمْ أَفُزْ بِهِ ... وَعَيْشاً كَأَنِّى كُنْتُ أَقْطَعُهُ نَهْبَا[3]

وقوله فيها:

مَضَى بَعْدَ مَا الْتَفَّ الرِّمَاحَانِ سَاعَةً ... كَمَا يَتَلَقَّى الهُدْبُ فِى الرَّقْدَةِ الهُدْبَا[4]
وَلَكِنَّهُ وَلَّى وَلِلطَّعْنِ سَوْرَةٌ ... إِذَا ذَكَرَتْهَا نَفْسُهُ لَمَسَ الجَنْبَا
أَرَى كُلَّنَا يَبْغِى الْحَيَاةَ بِسَعْيِهِ[5] ... حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبَّا
فَحُبُّ الجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ التُّقَى ... وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ[6] أَوْرَدَهُ الحَرْبَا
وَيَخْتَلِفُ الرِّزْقَانِ وَالفِعْلُ وَاحِدٌ ... إِلَى أَنْ يُرَى إِحْسَانُ هَذَا لِذَا ذَنْبَا

وفيها:

وَلَمْ تَفْتَرِقْ عَنْهُ الأَسِنَّةُ رَحْمَةً ... وَلَمْ يَتْرُكِ الشَّامَ الأَعَادِى لَهُ حُبَّا
وَلَكِنْ نَفَاهَا عَنْهُ غَيْرُ كَرِيمَةٍ ... كَرِيمُ الثَّنَا مَا سُبَّ قَطُّ وَلاَ سَبَّا
وَجَيْشٌ يُثَنِّى كُلَّ طَوْدٍ كَأَنَّهُ ... خَرِيقُ[7] رِيَاحٍ وَاجَهَتْ غُصُناً رَطْبَا
كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ خَافَتْ مُغَارَهُ[8] ... فَمَدَّتْ عَلَيْهِ مِنْ عَجَاجَتِهِ حُجْبَا

---

(١) ديوانه (١ : ٥٦) ، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ويذكر بناءه مرعش .

(٢) الأكوار : جمع كور ؛ وهو رحل الناقة .

(٣) فى الديوان : « وثبا » .

(٤) أراد بقوله « الرماحان » رماح الفريقين . والهدب : شعر الجفن . أى انهزم بعد ما اشتبكت الرماح ساعة ، واختلط بعضها ببعض ، كما تختلط الأهداب العليا والسفلى عند النوم .

(٥) فى الديوان : « لسعيه » .

(٦) فى الأصلين : « الحرب » .

(٧) الخريق : الريح الشديدة .

(٨) مغاره : إغارته . والعجاجة : الغبار .

ويقول - يذكر رسول صاحب الروم[1]:

رأى مَلِكُ الرُّومِ ارْتِياحَكَ للنَّدَى فقامَ مَقامَ المُجْتَدى المُتَملِّقِ
وخلّى الرِّماحَ السَّمْهَرِيّةَ صاغراً لأدْرَبَ مِنْهُ بالطِّعانِ وأحْذَقِ[2]
وكاتَبَ من أرضٍ بعيدٍ مَرامُها قَرِيبٍ على خَيْلٍ حَوالَيْكَ سُبَّقِ
وقَدْ سارَ في مَسْراكَ منها رَسُولُهُ فَما سارَ إلا فوقَ هامٍ مُفلَّقِ
وكُنْتَ إذا كاتَبْتَهُ قَبْلَ هذه كَتَبْتَ إليه في قَذالِ الدُّمُسْتُقِ[3]
وهَلْ تَرَكَ البِيضُ الصَّوارِمُ مِنْهُمُ حَبِيساً[4] لِفادٍ أوْ رفيقاً لِمُعْتِقِ

وقوله[5]:

فَلَوْ خُلِقَ النّاسُ مِنْ دَهْرِهِمْ لكانُوا الظَّلامَ وكُنْتَ النَّهارَا
أشَدُّهُمُ في النَّدَى هِزَّةً وأبْعَدُهُمْ في عَدُوٍّ مُغارَا
سَما بِكَ هَمِّي فَوْقَ الهُمُومِ فَلَسْتُ أُعِدُّ يَساراً يَسارَا
ومَنْ كُنْتَ بَحْراً لَهُ يا عَلِـ ـيّ لم يَقْبَلِ الدُّرَّ إلاّ كِبارَا
وعِنْدِي لَكَ الشُّرُدُ السّائِرا تُ لا يَخْتَصِصْنَ مِنَ الأرْضِ دارَا
وكُنَّ إذا سِرْنَ مِنْ مِقْوَلِي[6] وثَبْنَ الجِبالَ وخُضْنَ البِحارَا

---

(١) ديوانه (٢ : ٣١١) .
(٢) السمهرية : الرماح المنسوبة إلى سمهر ؛ وهو رجل كان يقوم الرماح . والصاغر : الذليل . وأدرب ، من الدربة ، وهي العادة والجرأة على الأمر .
(٣) القذال : مؤخر الرأس .
(٤) في الديوان : « أسيرا » .
(٥) ديوانه (٢ : ٩٦) من قصيدة أنشدها سيف الدولة ، وقد استبطأ مدحه وأنكر ذلك .
(٦) رواية الديوان :

* قواف إذا سرن عن مقولي *

ويروي أيضا : « وهن إذا سرن » .

وقوله يذكر رسول صاحب الروم[1] :

وَأنَّى اهْتَدَى هذا الرسولُ بأرْضِهِ ... وما سكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فيها القَساطلُ[2]
ومنْ أىِّ ماءٍ كانَ يَسْقِى جِيادَهُ ... ولم تَصْفُ مِنْ مَزْجِ الدِّماءِ المَناهِلُ
أتاكَ يكادُ الرأسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ ... وتَنْقَدُّ تحتَ الذُّعْرِ[3] منه المفاصِلُ
فما بلَّغَتْهُ ما أراد كَرامَةٌ ... عَلَيْكَ ولكن لم يَخِبْ لَكَ سائلُ
وأكْبَرَ منهُ هِمَّةً بَعَثَتْ بِهِ ... إليك العِدَى وَاسْتَنْظَرَتْهُ الجحافلُ[4]
فأقْبَلَ من أصحابه وهْوَ مُرْسَلٌ ... وعاد إلى أصحابه وهوَ عاذلُ
إذا عايَنَتْكَ الرُّسْلُ هانَتْ نفوسُها ... عليها وما جاءتْ به والمُراسِلُ[5]
وقَدْ زعموا أنَّ النُّجومَ خَوالدٌ ... ولو حارَبَتْهُ ناحَ فيها الثَّواكِلُ
وما كان أدْناها لَهُ لَوْ أرادَها ... وأَلْطَفَها لو أنَّه المُتَناوِلُ !

وقوله[6] :

طَلَبْتَهم على الأمْواهِ حتى ... تَخَوَّفَ أن تُفَتِّشَهُ السَّحابُ
وتَسألُ عنهمُ الفَلَواتِ حتى ... أجابَكَ بعضُها وَهُمُ الجوابُ
إذا ما سِرْتَ فى آثارِ قَوْمٍ ... تَخاذَلَت الجماجمُ والرِّقابُ
ولو غيرُ الأميرِ غَزَا كِلاباً ... ثَناهُ عن شُموسِهِمُ ضَبابُ
ولاقَى دونَ ثايِهِمُ[7] طِعاناً ... يُلاقى عِنده الذِّئْبَ الغُرابُ

(١) ديوانه (٣ : ١١٢) .

(٢) القساطل : جمع قسطل ، وهو الغبار الذى تثيره الخيل بحوافرها .

(٣) فى الديوان : « تحت الذعر » .

(٤) الجحافل : جمع جحفل ، وهو الجمع العظيم . واستنظرته : انتظرته .

(٥) نظر فيه إلى قول البحترى :

لحظوك أول لحظة فاستصغروا ... من كان يعظم عندهم ويبجل

(٦) ديوانه (١ : ٧٦) ، أنشدها سيف الدولة وقد أوقع ببنى كلاب .

(٧) فى الأصلين : « نأيهم » . والثاى : جمع ثاية ، وهى حجارة تجعل حول البيت يأوى إليها الراعى ليلا ؛ وهى مبارك الإبل ومرابض الغنم .

وَخَيْلا تَغْتَذِى رِيحَ المَوَامِى[١] وَيَكْفِيهَا من الماءِ السَّرَابُ

يقول[٢] :

هَلِ الْحَدَثُ الْحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا وتَعْلَمُ أىُّ السَّاقِيَيْنِ الْغَمَائِمُ[٣]
سَقَتْهَا الْغَمَامُ قَبلَ نزوله فلما دَنا منها سَقَتْهَا الجماجِمُ
وكان بها مثلُ الْجُنُونِ فأصْبَحَتْ ومن جُثَثِ الْقَتْلَى عليها تَمائِمُ[٤]
طَرِيدَةُ دَهْرٍ سَاقَهَا فَرَدَدْتَها على الدِّينِ بالخَطِّىِّ والدَّهْرُ رَاغِمُ
تُفِيتُ اللَّيالِي كلَّ شئٍ أخَذْتَهُ وَهُنَّ لمَا يأْخُذْنَ منكَ غَوَارِمُ
أَتَوْكَ يَجُرُّونَ الحديدَ كأَنَّهمْ سَرَوْا بجِيَادٍ ما لَهُنَّ قَوَائِمُ
وَقَفْتَ وما فى المَوْتِ شَكٌّ لوَاقِفٍ كأنكَ فى جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نائِمُ
تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى[٥] هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وثَغْرُكَ بَاسِمُ
ضَمَمْتَ جَنَاحَيْهم على القَلْبِ ضَمَّةً تَمُوتُ الْخَوَافِي تَحْتَها وَالْقَوَادِمُ
بضَرْبٍ أَتَى الهاماتِ والنَّصْرُ[٦] غائبٌ وصارَ إلى اللَّبَّاتِ وَالنصْرُ قادِمُ

وقوله[٧] :

وَدَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا فأصْبَحَ جالساً وأيامُها[٨] فيما يريدُ قِيَامُ
وكلُّ أُنَاسٍ يَتْبَعُونَ إمَامَهُمْ وأَنتَ لأَهْلِ المَكْرُمَاتِ إمَامُ
ورُبَّ جَوابٍ عن كتابٍ بَعَثْتَهُ وعُنْوَانُه لِلنَّاظِرِينَ قَتَامُ[٩]

---

(١) الموامى : جمع موماة ، وهى المفازة . والسراب : الذى تراه نصف النهار كأنه ماء .

(٢) ديوانه (٣ : ٣٨٠) .

(٣) الحدث : قلعة ، وسميت حمراء لأنها بنيت بحجارة حمر ، أو لكثرة ما أجرى عندها من الدماء .

(٤) الجثث : جمع جثة ، وهى الجسد . والتمائم : العوذ ، واحدها تميمة . جعل الاضطراب بالفتنة فيها جنونا لها .

(٥) كلمى : جرحى ، وهزيمة : مهزومة .

(٦) فى الأصلين : « والدهر غائب » .

(٧) ديوانه (٣ : ٣٩٣) ، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ، وقد ورد عليه رسول الروم يطلب الهدنة .

(٨) فى الأصلين : « وأيامه » .

(٩) القتام : الغبار .

تَضيقُ به الْبَيْداءُ من قَبلِ نَشْرِه ... وما فُضَّ بالبَيْداءِ عنه خِتَامُ (١)
وَرَبَّوْا لَكَ الأَوْلاَدَ حتى أصَبْتَها ... وقد كَعَبَتْ بِنتٌ وَشَبَّ غُلاَمُ (٢)
جَرَى معك الجارُونَ حتى إذا انتَهَوْا ... إلى الْغَايَةِ الْقُصْوَى جَرَيْتَ وقاموا

وقوله (٣) :

وللنَّفْس أخْلاَقٌ تَدُلُّ علي الْفَتَى ... أكان سَخَاءً ما أتي أم تَسَاخِيَا
خُلِقْتُ أُلُوفًا لَوْ رَحَلْتُ إلَي الصِّبَا ... لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ الْقَلْبِ باكِيَا
فَإنَّ دُمُوعَ العَيْنِ غُدْرٌ بِرَبِّهَا ... إذا كُنَّ إثْرَ الغَادِرِين جَوارِيا
وَجُرْدًا مَدَدْنَا بين آذَانِهَا الْقَنَا ... فَبِتْنَ خِفَافًا يَتَّبِعْنَ الْعَوَالِيَا (٤)
تَمَاشَي بأَيْدٍ كلَّما وَافَت الصَّفَا ... نَقَشْنَ به صَدْرَ الْبُزاةِ حَوَافِيَا (٥)
وتَنْظُرُ من سُودٍ صَوَادِقَ في الدُّجَى ... يَرَيْنَ بَعيداتِ الشُّخُوصِ كَمَاهِيَا
وتَنْصِبُ للْجَرْسِ الْخَفِيِّ سَوَامِعًا ... يَخَلْنَ مُنَاجَاةَ الضَّمِيرِ تَنَادِيا (٦)
تُجَاذِبُ فُرْسَانَ الصَّبَاحِ أعِنَّةً ... كأنَّ علي الأعْنَاقِ منها أفَاعِيَا
قَوَاصِدَ كافُورٍ تَوَارِكَ غَيْرِه ... وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَاءتْ بِنَا إنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِه ... وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَآقِيَا
نَجُوزُ عليها الْمُحْسِنينَ إلى الذى ... نَرَى عِنْدَهم إحْسَانَهُ وَالأيادِيَا

وقوله (٧) :

ومازال أهلُ الدَّهْرِ يَشْتَبِهُونَ لِي ... إليكَ فلما لُحْتَ لي لاَحَ فَرْدُهُ (٨)

(١) البيداء : الأرض المقفرة البعيدة . والفض : الكسر . والختام : طابع الكتاب .
(٢) الكاعب : التي قد بدا ثديها للنهود . وشب الغلام : نشأ وكبر .
(٣) ديوانه (٤ : ٢٨٤) ، من قصيدة يمدح بها كافوراً ، وهي أولى مدائحه له .
(٤) يريد خيلا قليلات الشعر ، وهو مدح للفرس . والعوالي : الرماح .
(٥) الصفا : الصخر . والبزاة جمع باز . وحوافيا : جمع حاف .
(٦) في رواية : « وتنظرني » .
(٧) ديوانه (٢ : ٢٧) ، من قصيدة يمدح فيها كافوراً .
(٨) يشتبهون بمعنى يتشابهون . يقول : مازال أهل الدهر يتشابهون إلى قبل وصولي إليك ، حتى ظهرت أنت لي ؛ فإذا أنت فردهم .

يُقَـالُ إذَا أَبْصـرْتَ جَـيْـشًـا وَرَبَّـهُ ... أمَـامَكَ رَبٌّ رَبُّ ذَا الجـيْشِ عَـبْـدُهُ
وأَلْقَي الْفَمَ الضَّـحَّـاكَ أَعْلَمُ أنَّهُ ... قَـرِيبٌ بذِى الْكَفِّ الْمُفَـدَّاةِ عَـهْـدُهُ
فَكُنْ في اصْطِنَاعِي مُحْسِنًا كَمُجَرِّبٍ ... يَبِنْ لَكَ تَقْـرِيبُ الجَـوَادِ وَشَـدُّهُ (١)
ومـا الصَّـارِمُ الهِنْدِيُّ إلاَّ كـغَـيْـرِهِ ... إذَا لم يُفَـارِقْـهُ النِّجـادُ وَغِـمْـدُهُ
فـإنك مـا مَـرَّ النُّحُـوسُ بكَوْكَبٍ ... وَقَـابَلْتَـهُ إلاَّ ووجـهُكَ سَـعْـدُهُ

وقوله : (٢)

إذا سَـاءَ فِـعْلُ المَرْءِ سَـاءَتْ ظُنُونُه ... وصَـدَّقَ مـا يعـتـادُهُ من تَوَهُّمِ (٣)
وعَـادَي مُـحِـبِّـيـه بِقَـوْلِ عُـدَاتِه ... وأصـبحَ فى لَيْلٍ منَ الشَّكِّ مُظْلِمِ
أُصَادِقُ نَفْسَ المَرْءِ مِنْ قَبلِ جِسمِه ... وأعـرِفُـهـا في فِـعْلِه وَالتَّكَلُّمِ
ومـا كلُّ هاوٍ لِلْجَمِـيلِ بِفَـاعِلٍ ... ولا كلُّ فَـعَّـالٍ لَهُ بمُتَـمِّـمِ
وأَبْلَجَ (٤) يَعْصِي باخْتِصَاصِي مُشِيرَهُ ... عَصَيْتُ بقَصْـدِيه مُشِـيرِي ولُوَّمِي
فَسَـاقَ إليَّ الْعُـرْفَ غَـيْـرَ مُكَدَّرٍ ... وَسُقْتُ إِلَيْـه الشُّكْرَ غيرَ مُجَمْجَمِ (٥)
فـأَحْسَنُ وجْهٍ فى الْوَرَي وَجْهُ مُحْسِنٍ ... وأَيْمَنُ كَفٍّ فِـيـهِمُ كَفُّ مُنْعِمِ
ولو كنتُ أدري كم حَيـاتى قَسَمْتُها ... وصَـيَّـرْتُ ثُلْثَـيْـهـا انتظارَكَ فَـاعْلَمِ

وقوله (٦) :

أمـــا تَغْلَطُ الأيامُ فِيَّ بأنْ أرَى ... بَغِـيضًا تُنَائى أو حبِـيبـاً تُقَرِّبُ (٧)

(١) التقريب : ضرب من العدو ، وكذلك الشد . والجواد : الفرس .
(٢) ديوانه (٤ : ١٣٥) ، من قصيدة يمدح بها كافوراً ، وقد أهداه فرساً أدهم .
(٣) نظر فيه إلي قول الشاعر :
وما فسدت لى – يشهد الله – نية ... عليك بل استفسدتنى فاتهمتنى
(٤) في الديوان : « أبلخ » بالخاء ، وهو العظيم ، وهو من صفة الملوك . أما الأبلج بالجيم فهو الجميل الوجه .
(٥) الجمجم : الذي لا يفهم . يقول : لم يكدر إحسانه إلي بالمن ، ولم ينغصه بالأذى .
(٦) ديوانه (١ : ١٧٧) ، من قصيدة يمدح فيها كافوراً .
(٧) الاستفهام للتعجب ، وتنائى : تفاعل ، من النأى وهو البعد .

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ الْعاشِقِينَ كَمَنْتُهُ (١) ... أُراقِبُ فيهِ الشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وعَيْنِي إلى أُذُنَيْ أَغَرَّ (٢) كأنَّهُ ... من اللَّيْلِ باقٍ بين عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ
لهُ فَضْلَةٌ عن جِسْمِهِ في إهابِهِ ... تَجِيءُ علي صَدْرٍ رَحِيبٍ وتَذْهَبُ (٣)
شَقَقْتُ به الظَّلْماءَ أُدْنِي عِنانَهُ ... فَيَطْغَى وأُرْخِيهِ مِرَاراً فَيَلْعَبُ
وأَصْرَعُ أَيَّ الوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بهِ ... وأَنْزِلُ عنهُ مِثْلَهُ حينَ أَرْكَبُ (٤)
ومَا الخَيْلُ إلاَّ كالصَّدِيقِ قليلةٌ ... وإنْ كَثُرَتْ في عَيْنِ مَنْ لا يُجَرِّبُ
إذَا لم تُشاهِدْ غيرَ حُسْنِ شِيَاتِها (٥) ... وأَعْضائِها فالْحُسْنُ عنكَ مُغَيَّبُ

وفيها:

يُرِيدُ بكَ الحُسَّادُ ما اللهُ دَافِعٌ ... وَسُمْرُ الْعَوَالِي وَالحَدِيدُ المُذَرَّبُ (٦)
إذا طلبوا جَدْوَاكَ أُعْطُوا وَحُكِّمُوا ... وإن طلبوا المَجْدَ الذي فيكَ خُيِّبُوا
ولو جازَ أن يَحْوُوا عُلاكَ وَهَبْتَهَا ... ولكن من الأشياءِ ما ليس يُوهَبُ
وأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ باتَ حَاسِداً ... لِمَنْ باتَ في نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ
ويُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أنَّهُ ... إليكَ تَنَاهَى المَكْرُمَاتُ وتُنْسَبُ
وتَعْذُلُنِي فيكَ القَوَافِي وهِمَّتِي ... كأنِّي بمَدْحٍ قَبْلَ مَدْحِكَ مُذْنِبُ

وقوله (٧):

رَأَيْتُكُم لا يَصُونُ العِرْضَ جَارُكُم ... وَلاَ يَدِرُّ علي مَرْعَاكُم اللَّبَنُ
جَزَاءُ كلِّ قَرِيبٍ مِنْكُم مَلَلٌ ... وَحَظُّ كلِّ مُحِبٍّ مِنْكُم ضَغَنُ (٨)

---

(١) كمنته ، أي كمنت فيه ، فترك الحرف ونصب الضمير مفعولا به .

(٢) الأغر : ذو الغرة ، وهي البياض ، ويريد به الفرس .

(٣) الإهاب : الجلد . والرحيب : الواسع . يصف فرسه بعرض الصدر وسعة الجلد عليه ، وكلاهما يقتضى سعة الخطو وسرعة العدو .

(٤) قفيته : أتبعته ، يقول : إذا طردت به وحشاً أدركه فصرعه . وأنزل عنه بعد الطرد وهو باق على نشاطه وقوة جريه ، مثلما كان حين الركوب .

(٥) الشيات : جمع شية ، وهي اللون .

(٦) المذرب : المحدد .

(٧) ديوانه (٤ : ١٣٦) ، من قصيدة قالها بمصر ، وقد بلغه أن قوما نعوه في مجلس سيف الدولة .

(٨) الضغن : الحقد والحسد .

وتغضبون على من نال رفدكم ... حتى يعاقبه التنغيص والمنن
فغادر الهجر ما بيني وبينكم ... يهماء(١) تكذب فيها العين والأذن
تحبو الرواسم من بعد الرسيم بها ... وتسأل الأرض عن أخفافها الثفن (٢)
سهرت بعد رحيلي وحشة لكم ... ثم استمر مريري وارعوي الوسن (٣)
وإن بليت بود مثل ودكم ... فإنني بفراق مثله قمن (٤)

وقوله (٥) :

برغم شبيب (٦) فارق السيف كفه ... وكانا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه ... رفيقك قيسي وأنت يماني
وهل ينفع الجيش الكثير التفافه ... على غير منصور وغير معان
ثني يده الإحسان حتي كأنها ... وقد قبضت كانت بغير بنان (٧)

وقوله (٨) :

عيون رواحلي إن حرت عيني ... وكل بغام رازحة بغامي (٩)
فقد أرد المياه بغير هاد ... سوى عدّى لها برق الغمام (١٠)

---

(١) اليهماء : الأرض التي لا يهتدى فيها .
(٢) الرواسم : الإبل التي سيرها الرسيم (ضرب من السير) ، الثفن : جمع ثفنة ، وهى واحدة ثفنات البعير ، وهو ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ .
(٣) المرير : جمع مريرة ، وهى القوة من الخيل . واستمر : استقام . وارعوى : انزجر . والوسن : النعاس .
(٤) قمن : خليق وجدير . يقول : إن كنت فى قوم آخرين وعاملونى معاملتكم فارقتهم كما فارقتكم .
(٥) ديوانه (٤ :٢٤٣) من قصيدة يذكر فيها شبيبا ومخالفته كافوراً .
(٦) شبيب هذا هو ابن جرير العقيلى ، من قوم كانوا من القرامطة ، وكانوا مع سيف الدولة .
(٧) ثنى يده : ردها . والبنان : الأصابع ؛ واحدتها بنانة .
(٨) ديوانه (٤ : ١٤٣) ، من قصيدة يصف فيها الحمى التى كانت تعتاده بمصر .
(٩) حرت : تحيرت . البغام : صوت الناقة للتعب . ورزحت الإبل : سقطت من الإعياء هزالا . شبه نفسه فى التحير بالبهيمة ؛ لأنها لاتدرى أين تذهب .
(١٠) قال ابن السكيت : العرب إذا عدت للسحاب مائة برقة ؛ لم تشك فى أنها ماطرة .

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا (١) جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الأَنَامِ
أَرَى الأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيراً عَلَى الأَوْلَادِ أَخْلَاقُ اللِّئَامِ

وقوله (٢) :

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا (٣) فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ نَفَسِي وَعَنْهَا فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
إِذَا مَا فَارَقَتْنِي غَسَّلَتْنِي كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامِ (٤)
كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةٍ سِجَامِ (٥)
أُرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ مُرَاقَبَةَ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا وَالصِّدْقُ شَرٌّ إِذَا أَلْقَاكَ فِي الْكُرَبِ الْعِظَامِ

ومنها :

أَلَا يَا لَيْتَ شِعْرَ يَدِي أَتُمْسِي تَصَرَّفُ فِي عِنَانٍ أَوْ زِمَامِ (٦)
وَهَلْ أَرْمِي هَوَايَ بِرَاقِصَاتٍ مُحَلَّاةِ الْمَقَاوِدِ بِاللُّغَامِ (٧)
فَرُبَّتَمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِي بِسَيْرٍ أَوْ قَنَاةٍ أَوْ حُسَامِ
وَضَاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ مِنْهَا خَلَاصَ الْخَمْرِ مِنْ نَسْجِ الْفِدَامِ (٨)

---

(١) الخب : المكر . والود : الحب والصداقة .

(٢) ديوانه (٤ : ١٤٦) ؛ من القصيدة السابقة .

(٣) المطارف : جمع مطرف ، وهو من الثياب الذى فى طرفه علمان . والحشايا : جمع حشية ، وهو ما حشى من الفرش مما يجلس عليه .

(٤) قال الواحدى : يريد أنه يعرق لفراقها ؛ فكأنها تغسله ؛ لعكوفهما على ما يوجب الغسل . وإنما خص الحرام للقافية ؛ وإلا فالجماع على الحلال كالجماع على الحرام .

(٥) بأربعة سجام ؛ أى ذات سجام فحذف . وأراد بالأربعة اللحاظين والموقين .

(٦) العنان للفرس ، والزمام للإبل . يقول: ياليت يدى علمت هل تتصرف بعد هذا فى عنان الفرس أو زمام الإبل ! .

(٧) الراقصات : الإبل . اللغام : زبد يخرج من فم البعير .

(٨) الفدام : ما يجعل على رءوس الأباريق التى يكون فيها الخمر .

وفَــارقتُ الحــبيبَ بلاَ وداعٍ ... وودَّعتُ البلادَ بلاَ سَلاَمِ
يقُولُ لِىَ الطَّبيبُ أكلتَ شَيئاً ... وداؤكَ فى شرابكَ والطَّعامِ
ومَــا فى طِبِّــه أنى جَـوَادٌ ... أضرَّ بجسْمهِ طُولُ الجِمَامِ (١)
تعـوَّدَ أنْ يُغَبِّرَ فى السَّرَايا (٢) ... ويدْخلَ مِنْ قَتَامٍ فى قَتَامِ
فَأُمْسِكَ لاَ يُطَالُ (٣) لهُ فيَرْعَى ... ولا هُوَ فى الْعَلِيقِ ولاَ اللِّجَامِ
فَإِنْ أَمْرَضْ فمَا مَرِضَ اصْطِبارِى ... وإن أُحْمَمْ فمَا حُمَّ اعْتِزَامِى
وإنْ أَسْلَمْ فمَا أَبْقَى ولَكِنْ ... سَلِمْتُ مِنَ الْحِمَامِ إلى الْحِمَامِ

وهذه القصيدةُ كلُّها مختارةٌ ؛ لا يعلمُ لأحدٍ فى معناها مثلُها . والأبياتُ التى وصف فيها الحمى أفراد ، قد اخترع أكثرَ معانيها ، وسهل فى ألفاظها ؛ فجاءت مطبوعةً مصنوعة . وهذا القسم من الشعر هو المطمِع المُؤيِس .

وقد أحسن عبد الصَّمد (٤) بن المُعَذَّل فى قصيدته الرائية التى وصفَ فيها الحمَّى ، وقصر فى الضادية وفى مقاطيع له فى وصفِها ، وكأن أبا الطيِّب قصدَ تنكُّب معانيه فلم يُلِمَّ بشىء منها ؛ قال عبد الصَّمد (٥) :

وبِنْتِ المنيَّةِ تَنْتَابُنِى ... هُدُوًّا وتَطْرُقُنى سُحْرَه (٦)
إذا وَرَدَتْ لَمْ يَدَعْ وِرْدُهَا ... عن القلبِ حجبٌ ولا سُتْرَه (٧)
كأَنَّ لهَا ضَرَمًا فى الحَشَى ... وفى كلِّ عُضْوٍ لهَا جَمْرَه
إذَا لم تَرُحْ أُصُلاً فى العَشِىِّ ... فأَقْصَى مَوَاعِدها بُكْرَه

---

(١) الجمام : أصله أن يترك الفرس فلا يركب ؛ ويريد به هنا الراحة .
(٢) السرايا : جمع سرية ، وهى التى تسرى إلى العدو فى الحرب . والقتام : الغبار .
(٣) لا يطال له : لا يرخى له الطول ، وهو الحبل .
(٤) هو من شعراء الدولة العباسية ، ولد ونشأ فى البصرة ، توفى نحو سنة ٢٤٠ هـ .
(٥) ديوان المعانى (٢ : ١٦٧) ، مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات .
(٦) السحرة كالسحر : آخر الليل قبل الصبح .
(٧) السترة : ما استترت به من شىء كائناً ما كان .

السـرقات الشعـرية

قد أنصفناك في الاستيفاء لك ، والتبليغ عنك ، ولسنا نُنكرُ كثيراً مما قلتَه ، ولا نردّ اليسير مما ادّعيتَه ، غير أن لخَصْمك حُجَجًا تُقابل حُجَجك ، ومقالاً لا يُقَصّر عن مَقالك . وزعم خَصْمُك أنك وأصحابَكَ وكثيراً منكم لايعرفُ من السَّرَق إلا اسمَه ، فإن تجاوزه حصل على ظاهره ، ووقف عند أوائله ؛ فإن استَثْبتَ فيه ، وكُشف عنه ، وُجد عارياً من معرفة واضحه ، فضلا عن غامضه ، وبعيداً من جليّه ، قبل الوصول إلى مُشْكله ؛ وهذا باب لاينهض به إلاّ الناقد البصير ، والعالمِ المبرِّز وليس كلّ مَنْ تعرّض له أدركه ، ولا كلّ مَنْ أدركه استوفاه واستكمله . ولستَ تعدّ من جهابذة الكلام ، ونقّاد الشعر ، حتى تميِّزَ بينَ أصنافه وأقسامه ، وتحيط علمًا برُتَبه ومنازله ، فتفصل بين السَّرَق والغَصْب ، وبين الإغارة والاختلاس ، وتعرف الإلمام من الملاحظة ، وتَفْرق بين المشترك الذى لا يجوز ادّعاء السَّرَق فيه ، والمبتذلِ الذى ليس أحدٌ أولى به ، وبين المختصِّ الذى حازه المبتدىء فملكه ، وأحياه السابق فاقتطعه ، فصار المعتدى مُخْتَلساً سارقاً ، والمشارِك له محتذياً تابعًا ، وتعرفَ اللفظَ الذى يجوزُ أن يقالَ فيه : أُخذ ونقل ، والكلمةَ التى يصحُّ أن يقال فيها : هى لفلان دون فلان .

* * *

فمتى نظرتَ فرأيتَ أن تشبيه الحَسَن بالشمس والبدرِ ، والجوادِ بالغيث والبحر ، والبليدِ البطىء بالحجر والحمار ، والشجاعِ الماضى بالسيف والنار ، والصبَّ المستهام بالمخبول فى حيرته ، والسليم فى سَهره ، والسقيم فى أنينه وتألّمه ، أمورٌ [1] متقررة فى النفوس ، متصوَّرة للعقول ، يشتركُ فيها الناطق والأبكم ، والفصيحُ والأعجم ، والشاعرُ والمفحَم ، حكمتَ بأن السرقةَ عنها مُنْتَفية ، والأخذَ بالاتباع مستحيل ممتنع ، وفَصلتَ بين ما يشبه هذا ويُبَاينه ، وما يلحق به وما يتميَّز عنه ، ثم اعتبرتَ ما يصحّ فيه الاختراعُ والابتداع ؛ فوجدتَ منه مستفيضاً مُتَدَاوَلا متناقلا لايعدّ فى عصرنا مسروقًا ، ولا يُحْسَب مأخوذاً ، وإن كان الأصلُ فيه لمن انفرد به ، وأوله للذى سَبَقَ إليه ؛

(١) خبر أن ، فى قوله : « فرأيت أن تشبيه » .

كتشبيه الطَّلَل المُحيل بالخطّ الدَّارس وبالبُرْد النَّهج [(١)] والوَشْم فى المِعْصَم ، والظُّعن المتحمّلة بالنَّخل ، وعلائقها بأعذاق البُسْر ، والفحل بالفَدَن [(٢)] المَشيد ، والظَّليم المهيج بأحْقَب [(٣)] يسوق أُتنه ، وكوصف الحمول ومَوَرَان [(٤)] الآلِ بها ، وذم الغراب ، والصُّرَد ، والسانح [(٥)] والبارِح [(٦)] ، وسؤال المنزل عن أهله ، والتفجّع لمن استبدل بعد ساكنه ، ولوم النفس على بُكاء الدار ، واستعطاف العقلِ واستبطاء الصبر ، وتحسينه تارةً وتقبيحه أخرى ، وتشبيه الفرس باللَّقْوَة [(٧)] والظَّبي بشهاب قذف ، والعقاب بالدَّلو التى خانها الرِّشاء ، وكوصف الغيث بالعموم والتطبيق [(٨)] ، واقتلاع الدوح ، وتفريق الوَحْشِ ، وتشبيه دَفْعه بعَطِّ [(٩)] المَزَاد ، وحَلِّ العَزَالَى [(١٠)] ووصف البرق بخَطْف الأبصار ، وسرعة اللَّمح ، وأنه كالقَبَس من النار ، وكالحريق المتضرّم ، وكَمصباح الرَّاهب.

ولم أرد هذه بأعيانها دون غيرها ، ولم أُوردها إلاّ دلائل على أمثالها ؛ فإذا اعتبرتَها تصنّفت لك صنفين : إما مشترك عامُّ الشَّركة ، لا ينفرد أحدٌ منه بسهم لا يُساهَم عليه [(١١)] ، ولا يختصّ بقسْم لا ينازَع فيه ؛ فإن حُسْــنَ الشمس والقمر ، ومَضَاء السيف ، وبلادةَ الحمار ، وجَوْد الغَيْث ، وحيرة المخبول ، ونحو ذلك مقرَّر فى البداية ، وهو مركّب فى النفس تركيبَ الخلقة . وصنفٌ سبق التقدّم إليه ففاز به ، ثم تدوول بعده فكثر واستعمل ؛ فصار كالأول فى الجلاء والاستشهاد ، والاستفاضة على أَلْسُن الشعراء ، فحمى نفسه عن السَّرَق ، وأزال عن صاحبه مذمّة الأخذ ، كما يشاهد ذلك فى تمثيل الطَّلَل بالكتاب والبُرْد ، والفتاة بالغزال فى جيدها وعينيها ، والمَهَاة فى حُسْنها وصفائها . ومتى شئتَ أن ترى ما وصفته عياناً ، وتعلمه يقيناً فاعترض أوّل عامى غُفْل تستقبله ، وأعجمى جِلف تلْقاه ، ثم سَلْه عن البرق فإنه يؤدى إلى معنى قول عنترة [(١٢)] :

---

(١) نهج البرد : بلى .

(٢) الفدن : القصر المرتفع .

(٣) الأحقب : الحمار الوحشى الذى فى بطنه بياض .

(٤) الموران : الاضطراب .

(٥) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك .

(٦) البارح : ما أتاك عن يسارك من ظبى أو طائر أو غير ذلك .

(٧) اللقوة : بفتح اللام المشددة وكسرها : المرأة السريعة اللقاح ، كالناقة والعقاب الأنثى ، أو الخفيفة السريعة .

(٨) التطبيق : من طبق الشىء تطبيقا : عم ، وطبق السحاب الجو : غشاه ، وطبق الماء وجه الأرض : غطاه .

(٩) العط : الشق .

(١٠) العزالى : جمع عزلاء ؛ مصب الماء من القربة فى أسفلها حيث يستفرغ ما فيها من الماء ، وتفتح اللام وتكسر .

(١١) لا يساهم : لا يقارع .

(١٢) لم نجده فى ديوانه .

ألا يَامَا لِذَا الْبَرقِ الْيَمَانِى ... يُضِىءُ كأنَّه مِصْبَاحُ بَانِ (١)

وإن لم يذكر لك البانَ لجَهْله بعادة العرب فى الاستصباح به ، ولأنه لم يعرف منه ما عرفه عنْترة ، ومعنى امرئ القيس فى قوله (٢) :

يُضِىء سَنَاه أو مصابيحُ رَاهِبٍ ... أمَالَ(٣) السَّليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّل

وهيهات أن يعرضَ لك الأديبُ الفَطِن لقول عامر الثقفى :

كأن رَيِّقَه لما عَلاَ سَبِطًا (٤) ... أقْرَابُ أبلق ينفى الخيلَ رَمَّاح

وقول آخر (٥) :

وترى البرقَ عارضًا مُستَطِيرا ... مَرَحَ البُلْقِ جُلْنَ فى الأجلال

إلاّ عن روية كثيرة ، أو فكْر طويل ، ولو سمعتَ قائلا يقول إن فلانا الشاعر أخذ عن فلان قولَه : لا مرحباً بالشيبِ ، وحبَّذا الشباب ! وكيف لو عاد ، ويا أسفى لفراق الأحبة ! وما لذذت العيش بعدهم ، وفاضت عيني صبابةً لذكرهم . لحكمت بجهلِهِ ، ولم تشك فى غَفْلته . وقد يكون فى هذا الباب ما تتَّسع له أمة ، وتَضيق عنه أخرى ، ويسبق إليه قوم دون قوم ؛ لعادة أو عهد ، أو مشاهدة أو مِرَاس ؛ كتشبيه العرب الفتاة الحسناء بتريكة (٦) النَّعامة ، ولعلّ فى الأمم من لم يرها ؛ وحمرة الخدود بالورد والتفاح ؛ وكثير من الأعراب من لم يعرفهما ؛ وكأوصاف الفلاة ، وفى الناس من لم يصحر ؛ وسير الإبل ؛ وكثير منهم لم يركب .

***

وقد يتفاضل متنازعو هذه المعانى بحسب مراتبهم من العلمِ بصنْعة الشعر ؛ فتشترك الجماعة فى الشيء المتداوَل وينفرد أحدهم بلفظة تستعذَب ، أو ترتيب يستحسن ، أو تأكيد يوضع موضعه ، أو زيادة اهتدى لها دون غيره ؛ فيريك المشترَك فى صورة المبتدَع المخترع ، كما قال لبيد (٧) :

(١) البان : من العضاه ، وله حب ، ومن ذلك الحب يستخرج دهن البان .

(٢) ديوانه ص ٤١ .

(٣) رواية الديوان : * أهان السليط بالذبال المفتل *

والسليط : الزيت . والذبال : جمع ذبالة ، وهى الفتيلة .

(٤) يقال : مطر سبط ؛ أى سح . القرب (بضم القاف وسكون الراء ، وبضمهما) الخاصرة ، وجمعه الأقراب.

(٥) منسوب إلى كثير — كما فى اللسان.

(٦) التريكة : البيضة بعد ما يخرج منها الفرخ ، وخص بعضهم به بيض النعام التى تتركها بالفلاة بعد خلوها مما فيها ؛ وقيل : هي بيض النعام المنفرد .

(٧) اللسان — مادة زبر ، العمدة (١ : ١٩٧) ، وشرح المعلقات للتبريزى ص ١٢٨ .

وجَــلاَ الـسُّـيـولُ عن الطُّلول كـأنهـا   زُبُرٌ(١) تُجِـدُّ مُـتُـونَهـا أقْـلامُـهـا

فأدّى إليك المعنى الذى تداولته الشعراء ، قال امرؤ القيس (٢) :

لِمَنْ طَلَلٌ أبصَـرْته فَـشَـجَـانى   كـخَطِّ زَبُورٍ فى عَـسِـيبِ يمانى (٣)

وقـــــال حــــــاتم (٤) :

أتَعْـرِفُ أطْلاَلاً ونؤيًا مُـهَـدَّمـا   كـخطِّك فى رَقٍّ كِـتـابا مُنَمْنَمـا

وقـــــال الـهـــــذلى (٥) :

عَـرفتُ الديار كـرَسْمِ الكِتـا   ب يَزْبُره الكاتبُ الْحِـمْـيَـرى

وأمثال ذلك مما لا يُحصى كثرة ، ولا يَخْفَى شُهرة ، وبين بيت لبيد وبينهما ما تراه من الفَضْل ، وله عليها ما تشاهد من الزيادة والشَّف (٦) . ولم تَزَل العامَّة والخاصة تشبّه الوردَ بالخدود ، والخدود بالورد ، نثرا ونظما ، وتقول فيه الشعراء فتُكْثر ، وهو من الباب الذى لا يمكن ادّعاءُ السَّرقةِ فيه إلا بتناول زيادة تُضَمّ إليه ، أو معنى يُشْفَع به ، كقول علىّ بن الجَهْم :

عـشـيـةَ حَـيَّـانى بورْدٍ كـأنه   خدودٌ أُضِـيـفت بعضُهن إلى بعض

فأضاف بعضهن إلى بعض له ، وإن أُخذ فمنه يؤخذ ، وإليه ينسب . وكقول ابن المعتز :

بيـاضٌ فى جـوانبـه احـمـرارٌ   كـمـا احـمرَّت من الخجل الخدودُ

والخَجل إنما يحمرّ وجنتاه ، فأما منبت الأصداغ ، ومخطّ العِذَار فقليلا ما يحمرّان ؛ فهذا التمييز مسلّم له ، وإن لم يكن يسبق إليه ، ولو اتفق له أن يقول : حمرة فى جوانبها بياض ، لكان قد طبّق المَفْصِل ، وأصاب الغَرَض ، ووافق شَبَه الخجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة

---

(١) الزبور : الكتاب ، والجمع زبر . وتجد : تجدد .

(٢) ديوانه ص ١٠٩ .

(٣) العسيب : سعف النخل ، وفى الديوان : * كخط الزبور فى العسيب اليمانى *

(٤) شعراء النصرانية ص ١١٨ .

(٥) اللسان – مادة دوى ، وروايته : عرفت الديار كخط الدو   ى حبره الكاتب الحميرى

(٦) الشف (بفتح الشين وكسرها) : الفضل والزيادة ، والمعروف بالكسر .

يجتمعان ، فجعل الاحمرارَ فى جوانب البياض ، فراغ عن موقع التشبيه . ثم قال أبو سعيد المخزومى :

والوردُ فيه كأنما أوْراقُه نُزِعت وردَ مكانهن خدود

فلم يزد على ذلك التشبيه المجرّد ، لكنه كساه هذا اللَّفْظَ الرشيق ، فصرت إذا قستَه إلى غيره وجدتَ المعنى واحدا ، ثم أحسستَ فى نفسك عنده هِزّة ، ووجدت طرْبَة تعلم لها أنه انفردَ بفضيلة لم يُنَازع فيها .

***

ومتى جاءت السرقةُ هذا المجئ لم تُعَدّ مع المعايب ، ولم تُحْص فى جملة المثالب ، وكان صاحبها بالتفضيل أحقّ ، وبالمدح والتزكية أولى . ومن ذا يشكّ فى فضل امرئ القيس يشبِّه الناقة فى سرعتها بتيّس الظباء فى عَدْوه بقوله[1] :

أو تيس أظبٍ ببطن واد يعدو وقد أُفْرِدَ الْغَزَالُ

على كل ما قِيل فيه ، والمعنى واحد ؛ لكن امرأ القيس زاد إفراد الغزال ، وهذه زيادةٌ حسنة ، لأنه إذا أُفرد اجتمع للتيس الخوف والوَلَه ؛ فكان أشدَّ لعَدْوه ، وإن امرأ القيس زاد فى قوله يصف الطعنة[2] :

كَجَيْبِ الدِّفْنس[3] الورْها ءِ ريعَتْ وهى تَسْتَفْلِى

على كل من شبهَّها بجيّب الحمقاء ؛ وَجَيْب الفتاة ، لأنها إذا رِيعَت وهى تستفلى عجلت عن الرِّفق . وقال أوس بن حَجَر :

---

(١) ديوانه : ١٦٢ ، وروايته — بشرح السندوبى :
كأنها عنز بطن واد تعدو وقد أفرد الغزال

(٢) اللسان — مادة دفنس .

(٣) الدفنس : المرأة الحمقاء .

وفى صَدْرِه مثلُ جَيْبِ الفتاة تشهق حينًا وحينا تهِرْ

فزاد بالتقسيم الجارى على الشهيق والهَرير ، ولكنّ زيادة الأول أحسن وأَغْمَض مأخذا ، وأوقع تشبيها ، فأما الفِنْد فإنه أورد البيت على حاله : واضطرته القافية إلى ترك الزيادة التى ذكرناها ، فقال :

كَجَيْبِ الدِّفْنِسِ الورْها ء رِيعَتْ بَعْدَ إجفالِ

ومتى سمعتَ قول أبى دَهْبل الجُمَحى :

وكيف أنساك ! لا أَيْديك واحدة عندى ولا بالذى أَوْلَيْتَ مِن قِدَم

علمتَ أنه من قولِ النابغة(١) :

أَبى غفلتى أنى إذا ما ذكرتُه تقطّع حزنٌ فى حَشَى الجَوْفِ دَاخل(٢)

وأنّ تِلادى إنْ نَظَرت وشِكّتى ومُهْرى وما ضمّت إلىّ الأناملُ

حِبَاؤُك العِيسُ العِتَاقُ كأنها هِجَان المها تُرْدَى (٣) عليها الرّحائل(٤)

فإذا أنصفْتَ أبا دَهْبل عرفتَ فضلَه ، وشهِدْتَ له بالإحسان ؛ لأنه جمع هذا الكلام الطويل فى : « ولا أيديك واحدة عندى » . ثم أضاف إليه « ولا بالّذى أوليتَ مِنْ قِدَم » . فتم المعنى ، وأكّده أحسن تأكيد ، لأن الأمور العظيمة قد تُنْسى إذا طال أمدُها ، وتقادَم عَهْدُها ، فنفى عنه وجوه النسيان كلّها ، وقد اختصر النابغةُ أبياته هذه فى بيتٍ من كلمة أخرى ؛ فقال(٥) :

---

(١) ديوانه ص ٦١ .

(٢) فى الديوان : * تحرك داء فى فؤادى شاغل *

(٣) ردت الفرس رديا ورديانا : رجمت الأرض بحوافرها فى سيرها وعدوها .

(٤) فى الديوان : * هجان المها تحدى عليها الرحائل *

(٥) ديوانه : ٦٥ ، ورواية الديوان مع بيت قبله :

فلا عمر الذى أثنى عليه وما رفع الحجيج إلى إلال

لما أغفلت شكرك فانتصحنى فكيف ومن عطائك جل مالى .

وما أغْفَلْتُ شُكْرَك فانتصحنى فكيفَ ومِن عَطائِك جلُّ مَالى

فأحسن وزاد على أبى دَهْبل بأن جعل جُلَّ ماله من عطائه . واقتصر أبو دَهْبل على تتابع الأيادى ، وقد تَصْغُر وقد تَكْبُر ، لكنه انفرد بالمصراع الثانى ، فحصل له زيادة لا تقصر عن معنى منفرد .

وما أبْعد ما وقع العَطَوى من أبى دَهْبَلٍ إذْ أخذ قول ابن مُناذر (قال الأصمعى : ابن مَناذر[1] جمع مُنْذِر . قال القاضى ؛ هو أعرفُ به لأنه بصرى) ، فقال :

تراضَيْنَا بحُكْمِ الله فينا لنا أدبٌ وللثَّقَفىِّ مالُ

ففرّقه فى أربعة أبيات ، بيتُ ابن مَناذر خيرٌ من جميعها ؛ فقال :

رضينا بحُكْمِ الله بين عباده رِضَا عُلَمَاءِ لا تَسَخُّط جُهَّالِ
لئن خَصّ قوما بالنباهة والغِنَى وألْبَسَنا ثوبَىْ خمول وإقْلالِ
لقد جاء بالعِلْم النفيس الذى به رُشِدْنا فلم نلبس ملابسَ ضُلاَّل
فلو سُمْتَنَا لم نُعْطِ علمًا بثروة ولم نَرَ للتمييز كُفْوًا مِنَ المالِ

وما ضرّ قول المتنبى[2] :

فاستعارَ الحديدُ لَونًا وألْقَى لونَهُ فى ذَوائبِ الأطفالِ

وإن كان مأخوذا من قول العامة : هذا أمرٌ يشيب الطفل ، وكانتِ الشعراء قد تداولَتْه وابتذلته حتى أخلق ورثَّ ، وقد زاد فيه الزيادة المليحة ، وإنما العيبُ على أبى

(١) من فتح الميم منه لم يصرفه ويقول : إنه جمع منذر لأنه محمد بن منذر بن منذر بن منذر ، ومن ضمها صرفه .
(٢) ديوانه (٣ : ٢٠٠) .

الجُوَيرية[١] العبدى إذ أخذ قول نُصيّب[٢] ، فقال :

قـفـوا خـبـرونى عن سليـمـان إنّنى لمعــروفــه من أهل وَدّانَ طالبُ[٣]

فـعـاجُـوا فـأثْنَوْا بالذى أنت أهلُه ولو سَكتُـوا أثنت عليكَ الحـقـائب

فنقل معناه وكثيرا من ألفاظه ، ثم يقعُ من إحسانه أحسن موقع فيقول :

أقـــولُ لقـافلين يُرَى عليــهـمْ عطايا منكَ ليس لهـا حِـسَـاب

قِـفُـوا أُخْـبـرْكمُ وتُخَـبِّـرونى قَليـلا والسَّـرَابُ له اخْـتِـبـاب[٤]

لأفْـصِحَـهم ومـا كـفُـوك حُـسْنا ولو فَـعَلوا لكذَّبه العِـيـاب[٥]

وقد أخذ أبو الجُوَيرية بيتى الخنْساء أحسن أخذ ، وجمعهما فى بيت استوفى فيه معنييهما . قالت الخنْساء :

ومـا بَلَغت كفُّ امـرئٍ مـتـناول من المجـد إلاّ والذى فـيك أطْوَلُ

ومـا بَلغ المُهْـدُون نحـوك مِـدْحَـة وإن أطنَبـوا إلاّ ومـا فـيك أفـضلُ

فقال أبو الجُوَيرية :

يزيدُ على سَـرْوِ الرجـال بِسَـرْوه[٦] ويقـصـر عنه قـولُ مَنْ يتـمـدّح

وعلى من يأخذ قولَ أبى العطاء :

جَلَّتْ رزيَّتُـه فـعمَّ مُـصَـابهـا فـالناسُ فـيـه كلُّهم مَـأجُـور

(١) أبو الجويرية العَبدى : اسمه عيسى بن أوس العبدى ، شاعر محسن – سمط اللآلى ص٣٢٣ .
(٢) البيان والتبيين (١:٨٣) .
(٣) رواية البيان والتبيين :

قفوا خبرونا عن سليمان إننى لمعروفه من آل ودان طالب

(٤) الخبب : ضرب من العدو ، والسرعة ، وخب واختب بمعنى .
(٥) العياب : جمع عية ، وهى ما يجعل فيه الثياب .
(٦) السرو : المروءة فى شرف .

فيقول:

ولقد أصابَ غليلُها مَنْ لم يُصَب   وتصيَّرت فَقْداً لمن لم يَفْقِد

وبين الكلامين فى صحّة النظم وعذوبة المنطق ما تراه . ثم قد كرر المعنى فى المصراعين ، ولم يزد على قول أبى العطاء : فعم مصابه ، وبقية البيت فضل . ومن يأخذ قول ساعدة بن جؤية :

للمَشْرفيّةِ وَقْعٌ فى قِلالِهم   نَحْتَ القُيُون رِطاب الأَثْل بالقَدُم

فيقول:

للمشرفيّةِ وَقْعٌ فى قِلالِهم   وَقْع القَدُوم بكفّ القَيْنِ فى الخَشَبِ

فيبدل تلك الألفاظ ، والبيت نقلا ونسخا على هيئته لما كان هذا المعنى يُعَدُّ مسروقا ؛ لأنه من المبتذَل العامى المشاهَد فى كل حال .

ومتى أحكمتَ هذا الباب حقَّ الإحكام ، وأوليتهَ حسنَ التمييز فقد ألقيتَ عن نفسك ثقلا ، وكفيتها مؤونة ، ولم يبقَ عليك إلا أن تَحْترس من التفريط ، كما احترستَ من الإفراط . فلا تكن كمن يرى السَّرقَ لا يتمُّ إلا باجتماع اللفظ والمعنى ، ونَقْل البيت جملة ، والمصراعَ تامًّا ؛ بل لا يَعْرفُ السارق إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزّبير بأبيات معن بن أوس . حكى أبو عبيدة وغيره أن عبدَ الله بن الزّبير دخل على معاوية فأنشده لنفسه[١] :

إذَا أنتَ لم تُنْصِفْ أخَاك وجدتَه   على طَرَفِ الهِجْرَان إن كان يَعْقِل

ويركبُ حدَّ السّيفِ من أن تَضِيمه   إذا لم يكن عن شَفْرَةِ السيفِ مَزْحَلُ

فقال له معاوية ؛ لقد شعرت بعدى يا أبا بكر ! ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل مَعْنُ بن أوس المزنى ، فأنشده كلمته التى أولها[٢] :

---

(١) الأمالى (٣ : ٢١٨) .

(٢) اللسان – مادة شفع ، وديوانه ص ٣٧٢

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإني لأوجَلُ ... على أيِّنا تعْدُو المنيةُ أولُ

حتي أتى عليها ، وهذه الأبيات فيها . فأقبل معاوية علي عبدِ الله بن الزّبير فقال : ألم تخبرني أنها لك ؟ فقال : المعنى لى واللفظُ له ؛ وبعدُ فهو أخى من الرضاع وأنا أحقّ الناس بشعره .

وكفعل جرير بقول سُوَيد بن كراع العُكْلى[1] :

وما بات قومٌ ضامِنينَ لنا دمًا ... فنوفيها[2] إلا دِماءٌ شَوافِعُ

فإنه نقل البيتَ إلى قصيدة له ، فلما أنشدها نبه عليه عمر بن لجاء التميمى ، وكان أحدَ الأسباب التى هاجت الشر بينهما .

وفِعْل الفرزدق إذ سمع جميلا ينشد :

ترى الناسَ ما سِرْنَا يسيرون خَلْفَنا ... وإن نحنُ أومأنا إلى الناس وقَّفُوا

فقال : أنا أحقُّ بهذا البيت ، فأخذه غصبًا . وكما ادعي دعْبل علي أبى تمام[3] في كلمته الرائية ، التى رثى بها محمد بن حميد ؛ فإنه زعم أن أبا مكْنف المزنى ، من ولد زهير ابن أبى سلمى رثى دُفافَةَ العبْسى ، فقال :

أبعد أبي العباس يُسْتَعتب الدّهرُ ... وما بعده للدهرِ عُتْبَى(٤) ولا عذر

ألا أيُّها الناعى دُفافةَ والنّدَى ... تعستَ وشَلّت من أناملك العَشْر

إذا ما أبو العباس خَلّى مكانه ... فما حملَتْ أنثى ولا مَسَّها طُهْر

ولا مطَرت أرضًا سماءٌ ولا جَرَت ... نجومٌ ولا لذّت لشاربها الخَمْرُ

كأنَّ بنى القَعْقَاع بعد وَفَاته ... نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البَدْرُ

---

(١) ديوان جرير ص ٥٧ .

(٢) فى الديوان : « فتوفينا » وفى اللسان : « فيشفينا » .

(٣) ديوانه ص ٣٦٨ ، أخبار أبى تمام ص ٢٠٠ ، وفى الأصلين : « كما ادعى وعمل » .

(٤) العتبى هنا : ما تعوتب به .

تُوفِّيتِ الآمالُ بعدَ ذفافةٍ ... وأصبحَ فى شغلٍ عن السَّفرِ السَّفْرُ
يُعَزّوْنَ عن ثاوٍ تعزَّى به العُلا ... ويبكى عليه البأسُ والمجدُ والشِّعرُ
وما كان إلاّ مالَ مَنْ قلَّ مالُه ... وذخراً لمن أمسى وليس له ذُخْرُ

فأخذ أبو تمام أكثر هذه القصيدة وجعل مكان « بنى القعقاع » « بنى نبهان » وأبدل باسم ذُفافة محمدا .

أو كما فعل أبو نُخَيْلة بأُرجوزَة العجّاج : زعم أبو عبيدة عن أبى الخطاب أن أبا نُخيلة قال : وفدتُ على مَسلمة بن عبد الملك وقد مدحته فأكرمنى وأنزلنى ، ثم قال لى : مالكَ والقَصِيد وأنتَ من بنى سعد ! عليك بالرجز ! فقلت : أولستُ بأرجز العرب ؟ فقال : أسمعنى ، فأنشدته :

يا صاحِ ما شاقَك من رَسْمٍ خالِ ... ودمنةٍ تعرِفُها وأطلالِ

وهو من قول العجّاج ، فلما سمع أولها أصاخَ ، فلما أسهبتُ فيها قال : أمسك . فنحنُ أَرْوى لهذا منك ، وظننته مقتَنى ، فما أصبتُ منه خيراً .

وكما أخذ زُهير[(١)] بيت أوس :

إذا أنت لم تَعْرِض[(٢)] عن الجهْلِ والخنا ... أصبتَ حليماً أو أصابكَ جاهلُ

وهو مرويٌّ فى قصيدته . وكقول المَعْلُوط[(٣)] :

إن الظعائنَ يومَ حَزْمِ عُنَيْزَةٍ ... بَكَّيْنَ[(٤)] عند فراقِهِنَّ عُيُونَا
غَيَّضْنَ من عَبَرَاتِهنّ وقُلْنَ لى ... ماذا لقيتَ من الهَوَى ولَقِينَا !

وقال جرير[(٥)] :

إن الذين غدَوْا بلُبِّك غادروا ... وشَلاً بعَيْنِك مايزال مَعِينا

(١) أمالى ابن الشجرى (٢ : ١٧) .
(٢) رواية الأمالى : « تقصر » .
(٣) الأمالى (٣ : ٨٠) .
(٤) فى الأمالى : « أبكين » .
(٥) ديوانه ص ٥٧٨ .

غَيَّضْنَ من عَبَراتهنَّ وقلن لى ... مـاذا لقيتَ من الهوى ولَقينا

★★★

ولا تعدّ المعنى مأخوذا حتى يجىء مجىء قول النابغة[١] :

لو أنها عَرَضَتْ لأشْمَطَ راهبٍ ... عَبَدَ الإلهَ صَرُورةٍ[٢] متعبِّدِ

وقول ربيعة بن مقروم[٣] :

لو أنها عَرَضَتْ لأشْمَطَ راهبٍ ... عَبَدَ الإلهَ صَرُورةٍ متبتِّلِ

وقول امرئ القيس[٤] :

كأنِّىَ لم أركَبْ جَوَاداً للذَّة ... ولم أتبطَّن كاعبًا ذاتَ خلْخَالِ[٥]

ولم أسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقُلْ ... لِخَيْلِىَ كُرِّى كَرَّةً بعْدَ إجْفَالِ[٦]

وقول عبد يَغُوث بن وقاص الحارثى[٧] :

كأنِّىَ لم أركَبْ جَوَاداً ولم أقل ... لخَيلىَ كُرِّى نفِّسى عن رِجاليا

ولم أسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقُلْ ... لأيْسَارِ[٨] صِدْق عظِّمُوا ضَوْءَ نارِيَا

★★★

وقول النابغة[٩] :

وما كان دونَ[١٠] الخير لو جاء مُسَالماً ... أبُو حَجَرٍ إلا لَيَالٍ قَلائِل

---

(١) اللسان (مادة صرر) وديوانه ص ٣١ . (٢) الصرورة : الذى لم يتزوج .

(٣) اللسان (مادة تبل) . (٤) ديوانه ص ٥٨ .

(٥) الجواد : الفرس اللاحق ، ولم أتبطن ؛ من البطانة . والكاعب : الجارية التى كعب ثديها وارتفع . والخلخال من الحلى ؛ مثل السوار .

(٦) سبأ الخمر : اشتراها ، والروى : الذى يروى .

(٧) خزانة الأدب (١ : ٢٩٨) . المواهب الفتحية (١ : ١٠٨) .

(٨) الأيسار جمع ياسر ، وهو الجازر ، والذى يلى قسمة جزور الميسر .

(٩) ديوانه ص ٦٢ . (١٠) رواية الديوان : « بين » .

(١٠) رواية الديوان : « بين » .

وقول الحطيئة[1] :

وما كان بيني لو لقيتُك سالِما وبين الغِنَى إلاّ ليالٍ قلائِل

*

وقول مالك بن الرَّيب :

العبدُ يُقْرَعُ بالعَصا والحرُّ يكفيه الوَعيدْ

وقول يزيد بن [ربيعة بن] مُفَرِّغ :

العبدُ يُقْرَع بالعصا والحرُّ تَكْفيه المَلاَمَهْ

وقال آخر بعدهما :

العبدُ يُقْرَع بالعصا والحرُّ تَكْفيه الإشارهْ

*

وقول ذى الرُّمة :

يَطْرَحْنَ بالدَّوِّيَّة[2] الأمْلاَس[3] لكلِّ ذئبٍ قَفْرَةٍ ولَاّس[4]

مَوْتى العظام حيَّةَ الأنفاس

وقول رؤْبة :

يَطْرَحْنَ بالدَّوِّيَّةِ الأغْفالِ[5] كلَّ جنين لفق السِّرْبال

حيِّ الشَّهيق ميِّتِ الأوصال

*

(١) ديوانه ص ٩٩ .

(٢) الدوية : المفازة ، وفى الأصلين : « بالذرية » .

(٣) الملس : المكان المستوى ، والجمع أملاس .

(٤) الولاس ؛ من الموالسة ، وهى المخادعة .

(٥) كل ما لا علامة فيه ولا أثر للعمارة من الأرضين والطرق ونحوهما غفل ، والجمع أغفال .

وقول امرئ القيس بن عابس[1] :

قِفْ بالدِّيار وقوفَ حابسْ وتأنَّ إنك غيرُ آيسْ
ماذا عليك من الوقو ف بهامد الطَّلَلين دَارسْ
لعبَت بهن العاصفات[2] الرا ئحات من الرَّوائس[3]

وقول الكُميت :

قف بالديارِ وقوفَ زائرْ وتأنَّ إنك غيرُ صاغرْ
ماذا عليك من الوقو ف بهامد الطَّلَلين دَاثر
درجت عليه الغاديات الرَّا ئحات من الأعاصرْ

*

ومثل قول الأُقَيْشر – إن كانت له :

جريْتُ مع الصِّبا طَلَقَ العَتيقِ وهانَ عليَّ مأثُورُ الفُسوقِ
وَجَدْتُ أَلذَّ عَارِيةِ اللَّيالِي قِرانَ النَّغمِ بالوتَرِ الخَفُوقِ
ومُسْمِعَةً إذا ما شئتُ غنَّت : متى نزل الأحِبَّةُ بالعقيق
تمتَّعْ من شبابٍ ليس يبقى وصِلْ بعُرَى الصَّبوح عُرَى الغَبُوق[4]

وقول أبي نواس[5] :

جريتُ مع الصِّبا طَلَقَ الجُمُوحِ وهانَ عليَّ مَأثورُ القَبيحِ
وَجَدْتُ أَلذَّ عارِيةِ اللَّيالي قِرَانَ النَّغمِ بالوتَرِ الفصيحِ
ومُسْمِعَةً إذا ما شئتُ غنَّت : متى كان الخيامُ بذى طُلوحِ

---

(١) أخبار المراقسة ص ٩٣ ، وهو امرؤ القيس بن عابس الكندى . ذكره ابن حجر فى الإصابة (١ : ٦٤) ، وأورد شعره المذكور .
(٢) فى أخبار المراقسة : « الغاديات »
(٣) الرائس : رأس الوادى ، وكل مشرف ، وجمعه روائس . وروائس الوادى : أعاليه . وسحابه رائسة : هى التى تتقدم السحاب .
(٤) الغبوق : الشرب بالعشى .
(٥) ديوانه ص ٢٥٧ .

تمتّعْ من شـبـابٍ ليس يَبْـقَى   وَصِلْ بعُرَى الغَبُوق عُرَى الصَّبُوحِ

وأنا أرتابُ بأبيـات الأُقَيْشِر ؛ فإنها لاتُشْبه شعرَه ، ولم أرها فى ديوانه .

***

وقول الراعى :

فتًى يَشْتَرى حُسنَ الثناءِ بماله   إذا ما اشترى المَخْزاةَ بالمال بَيْهَسُ

وقال الأبيرد :

فتًى يشترى حسن الثناءِ بماله   إذا السَّنَةُ الشَّهْباءُ(١) أعْوَزَها القَطْرُ

وقول أبى نواس(٢):

فتًى يشترى حُسنَ الثَّناءِ بماله   ويعلمُ أنَّ الدائرات تَدُور

***

وقول محمد بن وَهْب :

هل الدَّهْرُ إلا غَمْرَةٌ وانجلاؤُها   وَشيكا وإلا ضِيقةٌ تتفرّجُ

وقول البُحترى(٣):

هل الدهر إلاّ غَمْرةٌ ثم يَنْجَلى   عَمَاها وإلاّ ضِيقَةٌ وانفِرَاجُها

***

وقول حَزْن بن جَناب المِنقرى(٤):

ومـا المرءُ إلا حيثُ يَجعلُ نفسَه   ففى صالح الأخلاقِ نفسَك فاجْعَلِ

وقول حُرَيْث أبو اللّحام(٥):

ومـا المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نفسَه   فأبْصِرْ بعينَيك امْرءًا حيثُ يَعْمِدُ(٦)

***

(١) سنة شهباء : كثيرة الثلج مجدبة .

(٢) ديوانه ص ٩٩ .

(٣) ديوانه (١ : ١٠٣) ، ورواية الديوان :

هل الدهر إلا غمرة وانجلاؤها   وشيكا وإلا ضيقة وانفراجها

(٤) فى الأصلين : «ابن حيان» ، والتصحيح عن معجم الشعراء ص ١٠١ .

(٥) فى الأصلين : «حريث اللجام» ، والتصحيح عن الخزانة .

(٦) يعمد : يقصد .

وقال مالك بن الريب[١]:

يقــولون لا تبــعــد وهم يَدْفِنونني وليس[٢]مكانُ البُــعْــدِ إلاَّ مَكانيــا

وقول هُدْبَة بن الخَشْرَم[٣]:

يقــولون لا تبــعــد وهم يَدْفِنونني وليس مكانُ البُـعْـدِ إلا ضَـرَائحي[٤]

***

وقول العباس بن المطلب:

ومــا الناسُ بالناس الذين عَـهِـدْتهم ولا الدَّارُ بـالـدارِ الـتـى كـنـت تَـعْـلَـمُ

وقول الفرزدق:

ومــا الناسُ بالناسِ الذين عــهِــدتهم ولا الـدَّارُ بالدارِ التى كنت تعــرِفُ

***

وقول نافذ بن عُطارد[٥]:

وإنى لأعطى المالَ مَنْ ليس سَــائلاً ومَنْ لم يكُن يومــا لِيُـعْطِيَنى سُـؤْلى

وقول الأصلع بن قصاب:

وإنى لأُعْطى المالَ مَن ليس ســائلاً وأُعْــرِضُ عن بادِى الشَّــذَاةِ[٦] مُلِيم

***

وقول المُخَصَّع العَبْدى[٧]:

ومَن يَقْتَرِف خُلْقـاً سوى خُلْقِ نفســه يَدَعْــه وتَرْجِــعــه إليــه الرَّوَاجِع

وقول الأعْوَر الشَنّى:

ومن يقْترف خُلْقاً سِوَى خُلْق نفسه[٨] يَدَعْـه ويَغْلبه على النَّفْس خِيمُـهـا[٩]

***

---

(١) الأمالى (٣ : ١٣٧).

(٢) فى الأمالى : «وأين مكان البعد».

(٣) فى الأصلين «هرمة بن الخشرم».

(٤) الضريح : الشق فى وسط القبر ، واللحد فى الجانب.

(٥) فى الأصلين : «ناقد».

(٦) الشذاة : الحدة ، وفى الأصلين : «الشداة» – بالدال.

(٧) هو من عبد قيس.

(٨) رواية البيت فى المؤتلف والمختلف ص ٤٧٥ :

* ومن يبتدع خلقا سوى خلق نفسه *

(٩) الخيم : الطبع.

وقول والبة :

ياشـــقـــيقَ النَّفسِ مِن أَسَـــدِ نمتَ عن لَيْلى ولم أَكَـــدِ

وقول أبي نواس[١] :

يا شَـــقـــيقَ النَّفْسِ من حَكَمِ[٢] نِـمْـتَ عـن لـيْـلـى ولـم أَنَـم

***

وقول حاتم[٣] :

وإنِّي لعفُّ الفَـقْـرِ مُـشْـتَـرَكُ الغِنى وتاركُ شَكلٍ يُوافِـــقُـــه شَكلى

وقول جرير[٤] :

وإني لعفُّ الفَـقْـرِ مُـشْـتَـرَكُ الْغنى سـريعٌ إذا لم أرضَ دَارى احـتـمـاليـا

وأشباه ذلك مما جمعَ اتفاقَ الألفاظ ، وتساويَ المعانى ، وتماثُلَ الأوزان .

***

وأول ما يلزمُك فى هذا الباب ألاّ تَقْصر السَّرقة على ما ظهرَ ودعا إلى نفسه دون ماكَمَن ، ونَضَح[٥] عن صاحبه ؛ وألاّ يكون همُّك فى تتبع الأبيات المتشابهة ، والمعانى المتناسخة طَلَبَ الألفاظ والظواهر دون الأغراض والمقاصد ، ولن تُكْملَ ذلك حتى تعرفَ تناسب قول لبيد[٦] :

ومـــا المالُ والأهـلونَ إلا وَدائِـع ولا بُـدَّ يـومـــًا أن تـردَّ الـوَدَائـعُ

وقول الأفوه الأودى :

إنما نعْـمَـــةُ قَـــوْمٍ مُـتْـعَـــةٌ وحَـيـــاةُ المرءِ ثوبٌ مُـسْـتَـعَـار

وإن كان هذا ذكر الحياة ، وذلك ذكر المال والولد ، وكان أَحدُهما جُعِل وديعة ، والآخرُ عارية ، وتعلم أنَّ قولَ الشاعر[٧] :

* وما المرءُ إلا حيثُ يَجْعَلُ نفسه *

---

(١) ديوانه : ٣٢٤ .

(٢) حكم : قبيلة .

(٣) مهذب الأغانى (١ : ٦٦) ، ديوانه ص ٢٠ .

(٤) ديوانه ص ٦٠٥ .

(٥) نضح عن صاحبه : دفع عنه .

(٦) مهذب الأغانى (٢ : ٦٤) .

(٧) سبق منسوبا إلى حزن بن جناب ص ١٩٣ .

هو من قول الآخر :

فنفسَكَ أكْـرِمـهـا فـإنَّك إن تَهُنْ ... عليك فلن تَلْقى لهـا الدهرَ مُكْرِمـا

وحتى تتأملَ هذه الأبيات فتعرف انتسابَ بعضها إلى بعض ، واتصالَ كلٍّ واحد منها بصاحبه مع افْتنان مذاهبهما ، واختلاف مواقعهما ، كقولِ زهير(١) :

وليس لمنْ يركب الهـولَ بَغْـيـة ... وليس لمن قـد حطَّه اللّه حَـامِل

وقول حاتم(٢) :

إذا أوْطَنَ(٣) القـومُ البـيـوتَ وجـدتَهم ... عُـمَـاةً عن الأخْـبَـار خُـرْقَ المكاسِبِ

وقول الآخر :

خـاطِرْ بنفسك كى تُصِيبَ غنيـمَـةً ... إن القُـعُـودَ مع العـيـالِ قَـبِـيح

وقولَ الآخر(٤) :

ومَن يكُ مـثلى ذَا عـيـال ومُـقْـتـراً ... من المال يَطْرَحْ نفـسَـه كلَّ مَطْرَحِ

وقال غيره - ويقال لسَهم بن حنظلةَ(٥) :

اعصِ العـواذل وارمِ الليلِ عن عَـرَضٍ ... بذى سَـبِـيب(٦) يُقـاسي لَيلَه خَـبَـبـاَ

حـتى تصَـادَف مـالاً أو يقـالَ فَـتًى ... لاَقى(٧) الذى شَعَبَ الفِتْيَان فـانْشَعَبـا

وقول هبيرة بن عبد مناف :

إذا المرء لَـم يغشَ الكريهــةَ أوشكَتْ ... حـبـالُ الهـوينى بالفـتى أن تَقَطَّعـا

وقول أبى تمام(٨) :

ذَرينى وأهوالَ الزمـانِ أُعـانهـا(٩) ... فـأهوالُه العظمى تليـهـا رغـائبُـهْ

وتَعلم أن زهيرا جمع فى قوله :

* وليس لمن لم يركب الهولَ بُغْية *

---

(١) مختارات ابن الشجرى : ١٨ ، قال : وقد روى الشطر الثانى :

* ليس لرحل حله اللّه حامل *

(٢) شعراء النصرانية ص ١٢٩ ، ديوانه ص ٤ .

(٣) أوطنه : اتخذه محلا وسكنا (وطنا) .

(٤) هو أبو العيال ، ولا يعرف له اسم غير هذا : العمدة (١ : ٢٤) .

(٥) اللسان – مادة شعب .

(٦) السبيب : شعر الناصية .

(٧) رواية اللسان :

* لاقى التى تشعب الفتيان فانشعبا *

(٨) ديوانه ص ٤٤ .

(٩) فى الديوان : «فإنها» .

ما بسطه هؤلاء ، وأن أبا تمام زاد بأن حقّق درك البُغية ، وحصول المراد لا محالة .

واقتصر زهير على التأميل ؛ فلأبي تمام فضيلة التأكد ، وأن الغرض الحثّ على تجشّم الأهوال فى الطلب ، فكلما ازداد الكلام تأكيداً كان أبلغ . ولزهير مَزِيّة الصدق ؛ لأن الأملَ مقرون بهذه الحالِ ، والبغية مطلوبة ؛ فأما الظفرُ الذى حكم به أبو تمام فقد يكون، وقد يُقْتَطع الطالب دونه ، ويُحَالُ بينه وبينه .

***

وألطف من هذا التناسب ، وأغْمض مَأْخذا ما تجده بين هذه الأبيات إذا حذفتَ عنك اعتبار أمْثلتها ، وأقبلت على صريح معانيها :

قال بعض العرب:

يهاب العديدَ الدُّهْم من حيثُ لا يُرى ويخشى شَذَاةَ[1] العزّ والعزُّ غائبُ

وقال أبو هفّان :

أنا السيفُ يُخشَى حدُّه قبل هزّه فكيف وقد هُزّ الحُسامُ المهنّدُ

وقول البحترى[2]:

ويخشى شَذَاهُ وهو غيرُ مُسلّط وقد يُتَوَقّى السيفُ والسيفُ فى الغِمْد

وقول المتنبي[3]:

تُهَابُ سيوفُ الهند وهْىَ حَدائدٌ فكيفَ إذا كانتْ نزازيةً عُرْبَا
ويُرْهَبُ نابُ الليثِ وَحْدَهُ فكيفَ إذا كان الليوثُ له صَحْبا
ويُخشى عُبابُ البَحر وهو مكانه فكيف بمَنْ يَغْشى البلادَ إذا عَبّا

معنى هذه الأبيات الثلاثة واحد ، وإن اختلفت المعارض والأمثلة .

***

وكاختلافها واتفاق أغراضها قول الطُّفَيْل الغَنَوى[4]:

(١) الشذاة : الحدة ، وفى الأصل : الشداة – بالدال .
(٢) ديوانه (١ : ١٩٦) ، وفى الأصلين « شداه » .
(٣) ديوانه (١ : ٦١) .
(٤) مهذب الأغانى (١ : ٢٢٧) وروايته :
* كواكب دجن كلما انقض كوكب *

نجوم سماء كلما انقضّ كوكبٌ بدا وانجلت عنه الدُّجُنَّة[١] كوكبُ

وقول ابي الطمحان[٢] [القيني]:

نجوم سماء كلما غار كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبه

وقال أوس[٣]:

إذا مقرمٌ منّا ذرا حدُّ نابه تخمّط منا[٤] نابُ آخر مُقرمِ

وقال الخريمي[٥]:

إذا قمرٌ منّا تغوّر أو خبا بدا قمرٌ في جانب الأُفق يلمعُ

وقال ابو تمام[٦]:

رأيتهم ريش الجناح إذا مضت[٧] قوادمُ منه بشّرت[٨] بقوادمِ

***

وحتى لا يغرّك من البيتين المتشابهين أن يكونَ أحدُهما نسيباً ، والآخر مديحاً ، وأن يكون هذا هجاءً ، وذاك افتخاراً ؛ فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصنفه وعن وزنه ونظمه، وعن رويّه وقافيته، فإذا مرّ بالغبيّ الغُفْل وجدهما أجنبيين متباعدين، وإذا تأملهما الفطن الذكى عرف قرابةَ ما بينهما، والوصلَة التي تجمعهما ، قال كثيّر[٩] :

أُريد لأنسى ذكرَها فكأنما تمثّلُ لى ليلى بكلّ سبيلِ

وقال ابو نواس[١٠]:

ملك تصوّر فى القلوب مثالُه فكأنه لم يخلُ منه مكان

فلم يشكّ عالمٌ فى أن أحدهما من الآخر ، وإن كان الأول نسيباً والثانى مديحا .

***

(١) الدجنة : الظلمة .

(٢) فى الأصلين « الطحان »

(٣) اللسان – مادة خمط ، وسمط اللآلىء : ٤٥٥ ، وروايته :

وإن سيد منا ذرا حد نابه تخمط فينا ناب آخر مقرم

(٤) فى اللسان : فينا ، والتخمط : الغضب والتكبر والأخذ والقهر بغلبة ، والمقرم : السيد ، أراد أنه إذا هلك سيد قام آخر .

(٥) فى الأصلين : « الخزيمى » .

(٦) ديوانه : ٣٨٦ .

(٧) فى الديوان : « ذوت » .

(٨) فى الديوان : « أبدت » .

(٩) الأمالى (٣ : ١١٩) .

(١٠) ديوانه ص (٥٩).

وقال أبو نواس[١]:

خُلِّيتَ والحُسْنَ تأخذه ... تَنْتَقِي منه وتَنْتَخِبُ
فاكْتَسَتْ منه طرائفَه ... واستزادت فضلَ

وقال عبد الله بن مُصْعَب:

كأنك جئت مُحْتَكِمًا عليهم ... تَخَيَّرُ فى الأبوَّة ما تَشَاءُ

***

فأحدُ البيتين هو الآخرُ فى المعنى ، وإن كان أحدُهما يتخيَّر الحسن والآخر الأبوة ، وإنما هما من قول بشار[٢] :

خُلِقْتُ على ما فىَّ غيرَ مُخَيَّرٍ ... هَواىَ ولو خُيِّرتُ كنتُ المهذَّبا

ثم تناوله أبو تمام . فأخفاه فقال[٣]:

ولو صوَّرتَ نفسَكَ لم تَزِدْها ... عَلَى ما فيك من كَرَمِ الطِّبَاعِ

***

والسَّرَقُ – أيدَكَ الله – داءٌ قديم ، وعيبٌ عتيق ، وما زال الشاعر يستعينُ بخاطر الآخر ، ويستمدُّ من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ؛ وكان أكثره ظاهراً كالتوارد الذى صدَّرنا بذكره الكلام ، وإن تجاوزَ ذلك قليلا فى الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ ، ثم تسبَّب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب ؛ وتغيير المنهاج والترتيب ، وتكلفوا جبْرَ ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض فى حال ، والتصريح فى أخرى ، والاحتجاج والتعليل ؛ فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله . وقد ادَّعى جرير على الفرزدق السَّرَق فقال[٤] :

سيعلمُ مَنْ يكونُ أبوه فينا ... ومَن عُرِفَتْ قصائدُه اجتلابا

وادَّعى الفرزدق على جرير فقال[٥]:

إنَّ استراقَك يا جريرُ قصائدى ... مثل ادِّعائكَ سِوَى أبيك تَنَقُّلُ

---

(١) ديوانه ص (٣٦١) .
(٢) ديوانه ص (٣٣) ، وروايته :

* طبعت على مافى غير مخير *

(٣) ديوانه ص ١٩٥ .
(٤) ديوانه ص ٦٢ .
(٥) النقائض (١ : ١٨٩) .

ومتى أنصفتَ علمت أن أهل عصرنا ، ثم العصر الذى بعدنا أقربُ فيه إلى المعذرة ، وأبعد من المذَمّة ؛ لأن مَنْ تقدّمنا قد استغرق المعانى وسبق إليها ، وأتى على مُعْظَمِها ؛ وإنما يحصل على بقايا : إمّا أن تكونَ تُركت رغبةً عنها ، واستهانةً بها ، أو لبعد مَطْلَبها ، واعتياص مَرَامها ، وتعذُّر الوصول إليها ؛ ومتى أَجْهَدَ أحدُنا نفسَه، وأعمل فكرَه ، وأتْعب خاطره وذهنه في تحصيل معني يظنُّه غريبا مبتدَعا ، ونَظَمِ بيت يحسبه فرداً مخترعا ، ثم تصفّح عنه الدواوين لم يُخْطِئه أن يجدَه بعينه ، أو يجد له مثالا يغضُّ من حُسْنه؛ ولهذا السبب أحظر على نفسى، ولا أرى لغيرى بتَّ الحكم على شاعر بالسرقة. وقد أحسن أحمد بن أبى طاهر فى محاجّة البحترى لما ادّعى عليه السَّرَق قوله :

والشـــعـــرُ ظَهْـــر طَرِيقٍ أنتَ راكـبـــه ... فـمنه مُنْشَـعب أو غـيـرُ مُنْشَعب
وربمـا ضـمَّ بين الرَّكـب منهـــجـــه ... وألْصَق الطُّنُبَ العـــالى على الطُّنب

إلا أنى إذا وجدتُ فى شعره معانى كثيرة أجدها لغيره حكمت بأن فيها مـــأخوذا لا أثبته بعينه ، ومسروقا لا يتميز لى من غيره ، وإنما أقول : قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا ، فأغتنم به فضيلةَ الصدق ، وأسلم من اقتحام التهوّر .

سرقات المتنبى

وهذا ما ادُّعى على أبى الطيب فيه السَّرقة ، وما أُضيف إليه مما عثرت به :

قال أبو تمام – وقد روى هذا البيت لبكر بن النّطاح ، وقد دخل فى شعر أبى تمام[١] :

ولو لم يكن فى كفـه غـيـرُ نَفْســه[٢] ... جـــادَ بهـــا فليـــتّق اللّه ســـائلُه

قال أبو الطيب[٣]:

يأيهـــا المُجْـــدَى عليـــه رُوحُـــه ... إذ لَيْسَ يأتيـــه لهـــا اسـتـجْـداءُ
احـمَدْ عُفَـاتَكَ[٤] لاَ فُجِعْتَ بِفَقْدهم ... فَلَتَـــرْكُ مـــاَ لم يأخـــذُوا إعْطَاءُ

(١) ديوانه : ٢٣٢ ، التبيان : ٢٦ : وقد رواه هناك منسوبا إلى بكر بن النطاح ، وروايته فيه :
* ولو أن ما فى كفه غير نفسه *

(٢) فى الديوان : « غير روحه » .

(٣) ديوانه (١ : ٢٦) .

(٤) العفاة : جمع عاف ، وهو الفقير السائل ، وهو طالب المعروف .

وبيت أبى تمام أو بكر بن النَّطاح أملحُ لفظا وأصحّ سبكا. وزاد أبو الطيب بقوله: إنه يجدى عليه روحه . ولكن فى اللفظ قصور ، والأول نهاية فى الحسن ، ثم نقل المعنى عن الروح إلى الجسد ، فقال[١]:

لو اشتهتْ لَحْمَ قاريها لَبادرَهَا ... خراذلٌ منْهُ فى الشِّيزَى وأوْصالُ[٢]

وهذا هو الأول ، ومن جاد بأوصاله فقد جاد بروحه ، وكأنه من قول ابن الرُّومى :

لو حزّ من جسمه لسائله ... أنفَسَ أعْضائه لَمَا ألما

ثم كرره وغيَّره بعض التغيير فقال[٣]:

مِلْتَ إلى من يكاد بينكما[٤] ... لَوْ كُنْتُمَا السَّائلَيْنِ يَنْقَسِمُ[٥]

ثم لاحظ هذا فأخفاه ؛ وأحسن ماشاء ، فقال[٦]:

إنّكَ مِنْ مَعْشرٍ إذا وهبوا ... مَادُونَ أعْمَارِهِمْ فَقَدْ بَخلُوا

فجاء به معنى مُفْرَداً ، وهو من باب السماحة بالرُّوح . والغرضُ واحد . ومن هذا المعنى قول بَكْر بن النَّطَّاح[٧]:

ولو خَذَلَتْ أمواله فيضَ[٨] كفِّه ... لقاسم من يَرْجوه شَطْرَ حَياته

***

قال أبو تمام[٩]:

لو حار[١٠] مُرْتَادُ المنيّةِ لم يجدْ ... إلاّ الفِراقَ على النُّفوس دَليلاَ

قال أبو الطيب[١١]:

لَوْلا مفارقَةُ الأحباب ما وجَدتْ ... لهَا المنايا إلى أرْوَاحنا سُبُلاَ

***

(١) ديوانه (٣ : ٢٨١) .

(٢) القارى : المضيف . خرادل (بالدال والذال) : القطَع . والأوصال : جمع وصل ؛ وهو كل عظم لايكسر ، ولا يخلط به غيره . الشيزى : جفان تصنع من خشب أسود .

(٣) ديوانه (٤ : ٦٣) .

(٤) يخاطب صاحبيه ، وهى من عادة الشعراء .

(٥) المعنى : إنى عدلت إلى زيارة رجل ، لو جئتما تسألانه يكاد ينقسم بينكما ؛ فصار لكل واحد منكما نفسه . وهذا مبالغة فى الكرم .

(٦) ديوانه (٣ : ٢١٦) .

(٧) الأمالى (١ : ٢٤٧) .

(٨) فى الأمالى : « جود كفه » .

(٩) ديوانه ص ٢٤٢ .

(١٠) فى الديوان : « جاء » ، وحار : رجع .

(١١) ديوانه (٣ : ١٦٣) .

وقال الأعشى[١] :

لو أسْنَدَتْ مَــيْــتًــا إلى نَحْــرِها عــــاشَ ولم يُنْقَلْ إلى قـــــابر

وقال أبو الطيب[٢] :

فَـذقْت مـاءَ حـيـاة من مُـقـبَّلهـا لو صـابَ تُرْبـًا لأحْـيـا سـالِفَ الأُمَمِ

وهذا معنى متداوَل بعدَ الأعشى ، وقد قيل فيه ما كَثر .

***

قال أبو العباس الناشيء الأكبر[٣]:

لَفظِى ولَفْظُكَ بالشَّكوى قَـدِ ائتلَفَـا يا ليتَ[٤] شِـعْرِى فَـقَلْبـانَا لِمَ اخْتَلَفَـا

قال أبو الطيب[٥] :

أبدَيْت مِـثلَ الَّذى أبْدَيْتُ من جَـزَعٍ ولـم تُجِنِّى الَّذى أجْنَنْتُ[٦] مِنْ ألَـمِ

والأولَ أملحِ لفظاً ! .

***

قا ل محمد بن داود[٧]:

كـأن رَقـيـبـًا منك يرْعَى خَـوَاطِرى وآخـــرَ يرْعَى نَاظِرِى ولِسَـــانِى

وإنما أخذه من قول العباس[٨] :[ابن الأحنف]

أقَـامَتْ عَلَى قَلبى رَقـيـبـًا ونَاظِرى فَلَيْسَ يُؤَدِّى عَنْ سِـــوَاها إلى قَلْبى

قال أبو الطيب[٩] :

كـأنَّ رَقـيـبـاً منك سَـدَّ مَـسَـامِـعِى عَنِ الْعَذْلِ حَتى لَيْسَ يَدْخُلُها عَذْلُ[١٠]

***

أبو تمام[١١] :

مُتـواطِئـو عَـقِبَيْكَ سَـدٌّ فى طَلَبِ العُـلاَ والمجْـدِ ثُمَّـتَ تَسْـتَـــوِى الأقْــدَامُ

---

(١) التبيان (٤ : ٣٧) .

(٢) ديوانه (٤ : ٣٧) .

(٣) التبيان (٤ : ٣٨) .

(٤) فى الأصلين : « فليت » .

(٥) ديوانه (٤ : ٣٨) .

(٦) أجننت الشيء : سترته وكتمته .

(٧) التبيان (٣ : ١٨٣) .

(٨) التبيان (٣ : ١٨٣) ، ديوانه ص ١٦ .

(٩) ديوانه (٣ : ١٨٣) .

(١٠) فى الديوان « يدخلها العذل » .

(١١) ديوانه : ٢٨٢ ، والتبيان (٢ : ١٠) .

قال أبو الطيب(١):

رأيتُ عَلِيّاً وابنَه خيرَ قومِه ... وهُمْ خيرُ قومٍ واستَوى الحرُّ والعبدُ

وأعاده فقال(٢):

حتى يُشارُ إليكَ ذَا مولاهُمُ ... وهُمُ المَوالي والخليقةُ أعْبُدُ

قال أبو تمام(٣):

غرَّبتْهُ العُلا على كَثْرةِ الأهْـ ... ـلِ فأضْحَى في الأقْرَبينَ جَنيبا(٤)

فلْيَطُلْ عُمْرُهُ فلَوْ ماتَ في مَرْ ... وَ مُقيماً بها لماتَ غَريبا

وقال أبو الطيب(٥):

وهكذا كُنْتُ في أهلي وفي وطَني ... إنَّ النَّفيس غريبٌ حيثما كانا

وبيتُ أبي الطيب أجودُ وأسلم ، وقد أساء أبو تمام بذكر الموت في المديح ، فلا حاجةَ به إليه ؛ والمعنى لايختلّ بفقده ، ومن مات في بلده غريباً فهو في حياته أيضا غَريب ، فأيّ فائدة في استقبال الممدوح بما يتطيّر منه !

***

قال أبو تمام(٦):

كفى فقَتْلُ محمد لَكَ(٧) شاهد ... أن العزيزَ مع القَضاء ذَليلُ

قال أبو الطيب(٨):

ألاَ إنما كانت وفاةُ محمَّدٍ ... دَليلاً على أنْ ليسَ للهِ غالِبُ

***

(١) ديوانه (٢ : ١٠).

(٢) ديوانه (١ : ٣٣٩) .

(٣) ديوانه ص ٢٦ ، والتبيان (٤ : ٢٢٣) .

(٤) جنيبا : أجنبيا .

(٥) ديوانه (٤ : ٢٢٣) .

(٦) ديوانه : ٣٧٥ ، والتبيان (١ : ١٠٩) .

(٧) في الديوان : « لي شاهد » . ورواية التبيان :

* وكفى بقتل محمد لي شاهدا *

(٨) ديوانه (١ : ١٠٩) .

قال كثير[١]:

أُريد لأنسَى ذِكْرَها فكأنما ... تَمَثَّلُ لي لَيْلَى بكلِّ سَبيلِ

وقال أبو نواس[٢]:

مَلِكٌ تَصَوَّرَ فى القلوبِ مِثَالُه ... فكأنَّه لم يخلُ منه مَكانُ

قال أبو الطيب[٣]:

كذب المُخبِّرُ عنك دُونَك وَصْفُه ... مَنْ بالعراقِ يراك فى طَرَسُوسا

فقصّر ، لأنه اقتصر على مَنْ بالعراق ، وعمَّ أبو نواس القلوب والأماكن ، وبين اللفظين بَوْنٌ فى الجزالة والصِّحة ؛ وقد كرّره واستوفى ، فقال[٤] :

هذا الذى أبصرتَ منه حاضِراً ... مثلُ الذى أبصرتَ منه غائباً

ثم مثل فقال:

كالبَدْرِ من حيثُ الْتَفَتَّ رأيتَه ... يُهْدِى إلى عَيْنَيْك نُوراً ثاقبا

* * *

قال عبد الله بن محمد المهلبى[٥]:

ما كُنْتَ إلا كلَحْمِ مَيْتٍ ... دَعَا إلى أكلِه اضْطِرارُ

وقال أبو الطيب[٦]:

غَيْرَ اختيارٍ رَضِيتُ بِرّكَ بى[٧] ... والجوعُ يُرْضِى الأُسودَ بالجِيَفِ

(١) التبيان (٢ : ٢٠٠) .
(٢) ديوانه ص ٥٩
(٣) ديوانه (٢ : ٢٠٠) ، وفى الديوان : « صدق المخبر » .
(٤) ديوانه (١ : ١٢٩) .
(٥) التبيان (٢ : ٢٨١) .
(٦) ديوانه (٢ : ٢٨١) .
(٧) فى الديوان : « قبلت برك لى » .

وقريب منه قول أبى علىّ البصير[١] :

ولكنَّ البـــلادَ إذَا اقـــشــعــرَّتْ وصَـــوَّحَ نَبْـتُـهــا رُعِىَ الهَـشِـيمُ

ومنه قول الآخر[٢] :

فـــلا تَحْـــمَـــدُونى فى الزِّيارةِ إنّنى أزورُكُمُ إذْ لاَ أرَى مـــتـــعـلّلا

وهذا مما قدمت لك ذكره من اختلاف صور الأمثلة على المعنى الواحد .

***

قال أبو تمام[٣] :

هانت على كلّ شىءٍ فهو يسفكُها حـــتى المنازلُ والأحـــداج[٤] والإبلُ

قال أبو الطيب[٥] :

فـــمـــا أمْـــرٌ بربْعٍ لاَ أُسَـــائِله ولا بِذَاتِ خِـــمَـــارٍ لا تُريقُ دَمى

جعل أبو تمام كلّ شىءٍ يسفك دمه ، وجعل أبو الطيب ذات خمار تريق دمه ، فاقتصر على بعض تلك الجملة .

***

قال بشار[٦] :

إذا أنشَـــدَ حَـــمّـــادٌ فَـــقُـــلْ أحْـــسَـــنَ بَشَّـــارُ

وقال أبو هفان يهجو ابن أبى طاهر[٧] :

إذا أنْشَـــدْكم شِـــعْـــراً فَـــقُـــولُوا أحْـــسَـــنَ النَّاسُ

---

(١) التبيان (٢ : ٢٨١) .

(٢) التبيان (٢ : ٢٨١) .

(٣) ديوانه ص ٢٧٧ .

(٤) الأحداج : الهوادج .

(٥) ديوانه (٤ : ٣٦) ، وفى الديوان :

* فما أمر يرسم لا أسائله *

(٦) التبيان (١ : ٢٩١) .

(٧) التبيان (١ : ٢٩١) .

وقال ابو تمام مثله فى غير هذا المعنى[1]:

ومــهــمــا تَكُنْ من وَقْـعَـةٍ بَعْـدُ لا تَكُنْ   سِـوَى حَـسَـنٍ مِـمَّـا فَـعَلْـتَ مُـرَدَّدِ

فقال ابو الطيب[2]:

أجِـزْنى إذا أُنْشِـدْتَ شِـعْـراً فـإنما   بشِـعْـرِى أتاك المادِحُـون مُـرَدَّدَا

* * *

وقال ابو تمام[3]:

وكـانَتْ ولَيْس الصُّبْحُ فـيـهـا بأبْيضٍ   فـأمـست[4] ولَيْسَ اللَّيلُ فـيـهـا بأسْوَدِ

وقال ابو الطيب[5]:

فـاللَّيل حين قَـدِمْتَ فـيـهـا أبْيَضٌ   والصُّـبْحُ مُنْذُ رَحَلْتَ عَنهـا أسْـوَدُ

* * *

وقال ابو تمام[6]:

لبِـسْـتُ سِـوَاهُ أقْـوَامـاً فكانُوا   كـمـا أغْنَى التَّـيَـمُّمُ بالصَّـعِـيدِ[7]

قال ابو الطيب[8]:

وزَارَكَ بى دُونَ المُلُوكِ تحَـرُّجِى   إذَا عَنَّ بَحْـرٌ لَم يَجُـزْ لِي التَّـيَـمُّمُ[9]

* * *

(١) ديوانه ص ١٠٣ ، التبيان (١ : ٢٩١) .

(٢) ديوانه (١ : ٢٩١) .

(٣) ديوانه ص ١٠٣ ، التبيان (١ : ٣٣٤) .

(٤) فى التبيان « وأوضحت » .

(٥) ديوانه (١ : ٣٣٤) .

(٦) ديوانه ص ١٠٧ ، التبيان (٤ : ٩١) .

(٧) الصعيد : وجه الأرض .

(٨) ديوانه (٤ : ٩١) .

(٩) التحرج : التضييق ، والتيمم : القصد . يقول : تحرجى عن قصد غيرك من الملوك حملنى على زيارتك ، وتركى إياك إلى مدح غيرك كترك الماء مع وجود التراب ، وهذا غير جائز .

قال ابن الخياط[١] :

لَمَسْتُ بِكَفِّى كَفَّهُ أَبْتَغِى الغِنى ... وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الجُودَ مَنْ كَفِّهِ يُعْدِى

فَلاَ أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذَوُو الغِنى ... أَفَدْتُ ، وأَعْدَانِي فَأَتْلَفْتُ ماعِنْدِى

قال أبو تمام[٢] :

علَّمَنى جُودُكَ السَّمَاحَ فَمَا ... أَبْقَيْتُ شَيْئاً لَدَىَّ مِنْ صِلَتِكْ

وقال آخر :

لستُ أُضْحِى مصافحاً لسلام ... إننى إن فعلتُ أَتْلَفْتُ مَالى

فنقله أبو الطيب إلى الزمان ، فصار كالمعنى المنفرد ، فقال[٣] :

أَعْدَى الزَّمانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا به ... ولَقَدْ يَكُونُ به الزمَانُ بَخِيلاَ

وأما بخل الزمان فمن قول أبي تمام[٤] :

هَيْهَاتَ لا يأتي[٥] الزَّمَانُ بِمِثْلِه ... إنَّ الزَّمَانَ بمِثْلِه لَبَخِيلُ

***

أبو تمام[٦] :

لَمَّا انتضَيْتُكَ للخطُوبِ كَفَيْتَها ... والسَّيْفُ لا يَكْفِيكَ حتى يُنْتَضَى

أبو الطيب[٧] :

ومَا الصَّارِمُ الهِنْدِىُّ إلا كَغَيْرِه ... إذَا لَم يُفَارِقْهُ النِّجَادُ وَغِمْدُهُ

***

(١) التبيان (٣ : ٢٣٦) .
(٢) التبيان (٣ : ٢٢٦) .
(٣) ديوانه (٣ : ٢٣٦) .
(٤) ديوانه ص ٣٧٥
(٥) فى التبيان : « أن يسخو » .
(٦) ديوانه ص ١٨٦ .
(٧) ديوانه (٢ : ٢٩) .

ابو تمام(١) :

فـاضت سَحائبُ من نَعْمـائه وكَفَتْ بؤساً على البؤْسِ حتى اجتثّتِ البؤْساَ

قال ابو الطيب(٢) :

نِقَمٌ على نِقَمِ الزَّمَـان يَصُـبُّـهَــا نِعَمٌ على النِّعمِ التي لا تُجْـحَـد

***

ابو تمام(٣) :

كَـتَـبَـتْ أَوْجُـهَـهُمْ مَـشْـقـاً ونَمْنَمَـةً طَعْنًا وَضَـرباً يَفُلُّ الهـامَ والصُّلُفَـا (٤)

قال ابو الطيب(٥) :

وكلُّ فَـتَى لِلْحَـرْب فَـوْقَ جَـبـيِنه مِنَ الضَّـرْبِ سَطْرٌ بالأسِنَّة مُـعْـجَمُ

***

العتابي(٦) :

فـإنَّ جـسـيـمـات المَعَـالى(٧) مَـشُوبَةٌ بِمُـسْـتَـوْدَعَـاتٍ فى بُطُونِ الأَسَـاوِدِ

ابو الطيب(٨) :

تُرِيدِينَ إِدْرَاكَ المعـالى رَخِـيـصَـةً وَلابُدَّ دونَ الشَّـهْـدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْل

***

(١) ديوانه ص ١٧١ ، وروايته في الديوان :

فاضت سحائب من أنعامه فطمت نعماه بالبؤس حتى اجتثت البؤسا

(٢) ديوانه (١ : ٣٣٣) .

(٣) ديوانه ص ٢٠٣ ، التبيان (٣ : ٣٥٧) . وفى الديوان « يقات » . وفى الأصلين :

* يفانى الهام والصلعا *

(٤) الصلف : جمع صليف ؛ وهو عرض العنق .

(٥) ديوانه (٣ : ٢٥٧) .

(٦) التبيان (٣ : ٢٩١) .

(٧) فى التبيان :

* فإن جسيمات الأمور مشوبة *

(٨) ديوانه (٤ : ٢٩٠).

قال ابو تمام[1] :

لا يَحْسَبُ الإقْلالُ عُدْماً بَل يَرَى ... أنَّ المُقِلَّ مِنَ المُرُوءَةِ مُعْدِمُ

فقال ابو الطيب - وهو منقول[2] :

وَرَبَّ مَالٍ فَقِيراً مِنْ مُرُوَّتِه ... لَمْ يُثْرِ منها كما أثْرَى مِنَ العَدَمِ

***

ابو تمام[3] :

هُم صَيَّرُوا تلك البروقَ صواعقاً ... فيهمْ وذاك العفوَ سوطَ عذاب

قال ابو الطيب[4] :

ولما سَقَى الْغَيْثَ الذى كَفَرُوا به ... سَقَى غَيْرُهُ فى غيرِ تلْكَ الْبَوارِق

وقد الَمَّ بألفاظه فقال[5] :

لَيْتَ الْغَمَامَ الذى عنْدى صَوَاعِقُهُ ... يُزيلُهُنَّ إلى مَنْ عِنْدَهُ الدِّيَمُ

فأما صريحُ المعنى فمن قول ابى تمام[6]:

فَلَوْ شَاءَ هذا الدَّهْرُ أَقْصَرَ شَرُّهُ ... كما قَصُرَتْ عنّا لُهَاهُ[7] وَنَائلُهْ

***

قال ابو تمام[8] :

تَلْقَى السُّعودَ بوَجْهِهِ وتُحِبُّهُ[9] ... وعليك مَسْحَةُ بَغْضَةٍ فَتُحَبَّبُ

(١) ديوانه ص ٢٨٤ ، التبيان (٤ : ٤٠) .
(٢) ديوانه (٤ : ٤٠) .
(٣) ديوانه ص ١٩
(٤) ديوانه (٢ : ٣٢٢) .
(٥) ديوانه (٣ : ٣٧١) .
(٦) ديوانه ص ٣٧٧ .
(٧) لهاه : عطاياه . نائله : عطاياه .
(٨) ديوانه ص ٣٩ .
(٩) فى الأصلين « وتحبه » وهذه رواية الديوان .

قال ابو الطيب[1] :

فـإنك مـا مـرَّ النُّحـوسُ بكوكبٍ ... وقـابلتَـه إلّا ووجـهُك سَـعْـدُه

***

ابو تمام[2] :

إنْ حنَّ نجـدٌ وأهلُوه إليك فـقـد ... مـررتَ فيـه مـرورَ العَـارِضِ[3] الهَطِلِ

ابو الطيب[4] :

وليـسـتْ من مَـواطِنِه ولكنْ ... يَمُـرُّ بهـا كـمـا مَـرَّ الغَـمَـامُ

***

ابو تمام[5] :

وأنا الفـداءُ إذا الرمـاحُ تشـاجَـرَت[6] ... لك والرمـاحُ من الرِّمـاح لكَ الفِـدَا

ابو الطيب[7] :

ولك الزَّمـانُ منَ الزَّمـانِ وِقـايةٌ ... ولك الحِـمَـام[8] من الحِـمَـامِ فـداءُ

***

ابو تمام[9] :

لبِسَ الشَّـجَـاعَـة إنهـا كـانتْ لَهُ ... قِـدْمًـا نَشُـوغًـا في الصِّبَـا ولدُودا[10]

ابو الطيب[11] :

أَلِفَ المُـرُوَّةَ مُـذْ نشَـا فكأنّمَـا ... سُـقِيَ اللِّبَـانَ بهـا صَـبِيًّـا مُـرْضَـعـا

***

(١) ديوانه (٢ : ٣٠) .
(٢) ديوانه ص ٢٥٢ .
(٣) العارض : السحاب ، والهطل : المنسكب .
(٤) ديوانه (٤ : ٧٣) .
(٥) ديوانه ص ١٢٦ .
(٦) تشاجرت : تداخلت في بعضها .
(٧) ديوانه (١ : ٣١) .
(٨) الحمام : الموت .
(٩) ديوانه ص ٨٩ .
(١٠) النشوغ : السعوط . اللدود : ما يصب بالمسعط من الدواء .
(١١) ديوانه (٢ : ٢٦٢) .

ابو تمام[١]:

أَيْقَنْتَ أَنَّ مِنَ السَّمـاحِ شَجَاعَـةً   تُدْمِى وأَنَّ مِنَ الشَّجَاعَـةِ[٢] جُـودا

ابو الطيب[٣]:

هُو الشُّجَاعُ يَعُدُّ البُخلَ منْ جُبْنٍ   وَهْوَ الْجَـوَادُ يَعُدُّ الجُبْنَ من بَخَلِ

وقال فى اخرى[٤]:

فَقُلْتُ : إِنَّ الفَتَى شَجَاعَتُهُ   تُرِيه فى الشُّحِّ صُـورةَ الفَـرَقِ

وقد لوحظ فى هذه الأبيات قول مسلم ؛ إذ بيَّن أنَّ الشجاعة جود بالنفس فى قوله[٥]:

تَجُودُ بالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الجَوَادُ بهَا[٦]   وَالجُودُ بالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ

***

عبد الله بن طاهر فى السيف[٧]:

أَخُو ثِقَةٍ أَرْضَاهُ فِي الرَّوْعِ صَاحِباً   وفَوْقَ رِضَاهُ أَنَّنى أَنَا صَاحِبُهْ

ابو الطيب فى الرمح[٨]:

وأَسْمَرَ ذى عِشْرِين تَرْضَاهُ وَارِداً   ويَرْضَاكَ فِي إِيرَادِهِ[٩] الخَيْلَ سَاقِيَاً

---

(١) ديوانه ص ٩٠ .

(٢) فى الديوان :

* تدمى وأن من السماحة جودا *

(٣) ديوانه (٣ :٣٨) .

(٤) ديوانه (٢ :٣٧٢) .

(٥) التبيان (٢ – ٣٧٢) ، ديوانه ص ٢٥ ، وروايته فيه :

تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

(٦) فى التبيان : « إذ ضن البخيل بها » .

(٧) التبيان (٤ : ٢٩٢) .

(٨) ديوانه (٤ : ٢٩٢) .

(٩) فى الأصلين : « إيرادك » .

وأصله من قول موسى بن جابر الحنفى ، وهو من خفىّ الأخذ :

فــلا أَسْلَمَــتْنا عند قــوم حــفــيظةٌ ولا نحنُ أغــمــدنا الســيــوفَ على وِتْرِ

* * *

عبد الله بن طاهر [١] :

إِنَّ الفُـــتُـــوحَ عَلَى قَـــدْرِ المُلُوك وهمّـــاتِ الوُلاَةِ وأَقْـــدَامِ المَقَـــادِيرِ [٢]

ابو الطيب [٣] :

عَلَى قَـدْرِ أَهْلِ الْعَــزْمِ تأتى الْعَــزَائِمُ وتـأتى علـى قَـــدْرِ الكِرَامِ المَكَـارِمُ

* * *

العباس بن الاحنف [٤] :

بَكت غـــيـــرَ آنِسَـــةٍ بالبُكـاَ نرى الدمْعَ فِي مُــقْلَتَــيْــهـا غـريبـا

ابو الطيب [٥] :

أتتـــهُنَّ المصـــائب [٦] غـــافِــلاَتٍ فَــدَمْعُ الحُـــزْنِ فى دَمْعِ الدَّلاَلِ

فــزاد وأحــسن وملح بذكــر الدّلال .

* * *

منصور بن الفرج [٧] :

حَلّ فى جِـــسْـــمِىَ مـــا كـــا نَ بعَـــيْنَيْكَ [٨] مُـــقِـــيـــمـــا

(١) التبيان (٣ : ٣٧٨) .

(٢) فى الأصلين : « وأقدام المقاديم » .

(٣) ديوانه (٣ : ٣٧٨) .

(٤) ديوانه ص ٣١ .

(٥) ديوانه (٣ : ١٧).

(٦) فى الديوان :

* أتتهن المصيبة غافلات *

(٧) التبيان (٢ : ١٧) .

(٨) فى أ « بعينك » ، وصوابه من ب والديوان .

البحترى[١] :

وكـــأنَّ فى جـــســـمى الذى ... فـى نـاظرَيْكَ مِنَ الـسَّـــقَـمْ

ابو الطيب[٢] :

أَعَـارَنى سُـقْمَ جَـفْنَيْـه[٣] وَحَـمَّلَنى ... مِنَ الهَـوَى ثِقْلَ مـا تَحْـوى مـآزِرُه

فاختصر وأحسن وأورد البيت فى نصف مِصْراع(٤) .

***

ابو عيينة :

لَوْ كـــمـــا[٥] تَنْقُصُ تَزْدَا ... دُ إذَنْ نِـلْـتَ الـسَّـمـاءَ

فنقله ابو تمام[٦] :

أمَـا لَو أنَّ جَـهْلَكَ كَـانَ عِلْمـاً ... إذَنْ لَنَفَـذْتَ فى عِلْمِ الغُـيُـوبِ

ابو الطيب[٧] :

ولو نَقَـصْتُ كَـمـا قَـد زِدْتَ من كَـرَمٍ ... على الوَرَى لَرَأَوْنى مِـثلَ شـانِيكا[٨]

فـزاد بقـوله : « لرأونى مـثل شـانيكا » .

***

قال جرير[٩] :

كـأنَّ رءوسَ القَـومِ فَـوقَ رِمَـاحِنا ... غَداةَ الْوَغَى تِيجَانُ كِسْرى وقَيْصَرا

مسلم[١٠] :

يكسـو السـيوفَ نفـوسَ النَّاكـثينَ به ... ويجـعلُ الهَـامَ تِيـجـانَ القَنَا الذُّبُلِ

---

(١) ديوانه (٢ : ٢٢٤) ، التبيان (٢ : ١١٧) .

(٢) ديوانه (٢ : ١١٧) .

(٣) فى الديوان : « سقم عينيه » .

(٤) التبيان (٢ : ٣٨٠) .

(٥) فى أ :

* لو كان كما تنقص تزداد *

وصوابه من ب ، والتبيان .

(٦) ديوانه ص ٤٨٩ .

(٧) ديوانه (٢ : ٣٨٠) .

(٨) الشانئ : المبغض .

(٩) ديوانه ص ٢٤٢ .

(١٠) ديوانه ص ٤٩ .

وقريب منه قولُ ابى تمام(١) :

أَبْدَلْتَ أَرْؤُسَهم يوم الكريهة من قنا الظُّهور قَنَا الخَطِّيِّ مُدَّعَما(٢)

وقد عدّ هذا من سرقات أبي تمام، ولست أراه كذلك؛ لأنه ليس فيه أكثر من رفع الرءوس على القنا ، وهذا معنى مشْتَرَك لا يسرق ، فأما إبدالُ القناَ بقنا الظهور فلم يعْرِض له مسلم ولا جرير ، وهى ملاحظة بعيدة . وأقرب من ذلك إليه قول أبى تمام(٣) :

منْ كلِّ ذى لِمَّةٍ غَطَّتْ ضَفائرُها صَدْرَ القَنَاة فقد كادت تُرَى عَلَماَ(٤)

ومثله قول ابى الطيب(٥) :

مُبَرقِعى خَيْلَهم بالبِيْضِ مَتَّخِذى هاَم الكُمَاةِ على أرْماحِهم عَذَبا

***

قال البحترى(٦) :

متسرّعينَ(٧) إلى الحُتُوفِ كأنها وَفْرٌ بأرضِ عَدُوِّهم يُتَنَهَّبُ

قال ابو الطيب(٨) :

بكلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى المَوْتَ مُبْتَسِماً حتى كأنَّ لهُ فى قَتْله أَرَبَاَ(٩)

وإنما نقل البُحتُري كلام ابى تمام(١٠) :

مُسْتَرْسلينَ إلى الحُتُوفِ كأنَّماَ بَيْنَ الحُتُوفِ وَبينَهمْ أَرْحَامُ(١١)

---

(١) ديوانه ص ٣٠٣ .

(٢) الخطى : الرمح . مدعما : مسندا ، وفى الأصلين : «مدغما» بالغين .

(٣) ديوانه : ٣٠٣ .

(٤) فى الأصلين :

* صدر القناة فكادت أن ترى علما *

(٥) ديوانه (١ : ١١٨) .

(٦) ديوانه (١ : ٦٣) ، والتبيان (١ : ١٢١) .

(٧) فى الديوان : « يتسرعون » .

(٨) ديوانه (١ : ١٢١) .

(٩) الأشعث : المتغبر من طول السفر . والأرب : الغرض والبغية .

(١٠) ديوانه ص ٢٨١ .

(١١) الحتوف : جمع حتف ، وهو الهلاك .

وقال البحترى أيضا(١) :

تسرّع حتى قال من شهِدَ الوَغَى   لقاء أعادٍ أم لقاء حبائب

ونحوه قول أبى تمام(٢) :

حَنَّ لِلْمَوْتِ(٣) حتى ظَنَّ جاهِلُهُ   بأنَّه حَنَّ مُشْتاقاً إِلى الْوَطنِ

فأخذه أبو الطيب فقال(٤) :

مُقِيمٌ منَ الْهَيْجَاءِ فى كلِّ مَنزلٍ   كأنَّكَ مِنْ كلِّ الصَّوارِمِ فى أَهْلِ

***

البحترى(٥) :

تَعْنُو لَهُ وزراءُ المُلْكِ خاضِعَةً   وعَادَةُ السَّيْف أنْ يَسْتَخْدِمَ الْقَلَما

أبو الطيب(٦) :

حتَّى رَجَعْتُ وأقْلامِى قَوائِلُ لي   المَجْدُ للسَّيفِ لَيسَ المَجْدُ للْقَلَمِ

اُكْتُبْ بِنَا أبداً بَعْدَ الكِتابِ به   فإنَّما نحنُ للأَسْيافِ كالْخَدَمِ

***

بعضهم(٧) :

أُحَامِقُهُ حَتى يَقُولَ سَجِيَّةٌ   ولَوْ كانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أُعاقِلُهْ

أبو الطيب(٨) :

وَخَلَّةٍ فى جَلِيسٍ أتقيه بها   كَيمَا يُرَى أنّنا مِثْلانِ فى الْوَهَنِ

***

(١) ديوانه (١ : ٧٣) .
(٢) ديوانه ص ٣٨٨ .
(٣) فى الديوان : « حن إلى الموت » .
(٤) ديوانه (٣ : ٤٦) .
(٥) ديوانه (٢ : ٢٥٨) ، التبيان (٤ : ١٦٠) .
(٦) ديوانه (٤ : ١٥٩) .
(٧) التبيان (٤ : ٢١٢) .
(٨) ديوانه (٤ : ٢١٢) .

وقد أتينا على ما حَضرَنا من هذا الكتاب، ونَبَّنا عنك فى جمعه واستحضاره ولَقْطه، وتصفّح الدواوين ، ولقاء العلماء فيه، وبيَّضْنَا أوراقا لما لعلَّه شَذَّ عنا من غريبه ، وما عسانا نظفَر على مرور الأوقات به ، وما نأبى أن يكونَ عندك، أو عند أحدٍ من أصحابـــك فيه زيـــادات لم نعـثر بها ، أو لطائف لم نفطن إليها، إن كنتَ على ثقة من علْمكَ، وبصيرة بما عندك ، وعَرَفْتَ من طُرُق السَّرَق ، ووجوه النقل ما يسوغ فيه حُكْمُكَ وتَعْدَلُ فيه شهادتك ، فلا بأس أن تُلْحق به ما أصبته ، وأن تضيف إليه ما وجدته ، بعد أن تتَجنَّبَ الحيفَ ، وتتنكب الجوْر ، وتعلم أن وراءك من النُقَّاد من يعْتبرُ عليك نَقْدَكَ ، ومن لا يستسلم للعَصَبيّة استسْلامَكَ .

وأنا أعدل إلى ذكر ما رأيتُك تُنْكِرُ من معانيه وألفاظه، وتَعيبُ من مذاهبه وأغراضه، وتُحيلُ فى ذلك الإنكار على حجة أو شُبْهة ، وتعتمدُ فيما تعينه على بينة أو تهمة، إذا كان ما قدّمتَ حكايته عنك ، وما عددتَه من مطاعنك ، وأثبتَّه من الأبْيات التى استَسْقَطتَها ، ومِلْتَ على هذا الرجل لأجلها من باب ما يُمتَحن بالطبع لا بالْفِكر، ومن القِسْم الذى لا حظ فيه للمحاجّة ، ولا طريق له إلى المحاكمة ، وإنما أقصى ماعند عائبه ، وأكثر ما يمكـــن مُعارضه أن يقـــول : فيه جَهامة سلبته القَبول، وكَزَازةٌ نفرتْ عنه النفوس، وهو خالٍ من بهاء الرَّوْنَق، وحَلاوةِ المنظر، وعُذوبة المَسْمَع ، ودماثة النثر ، ورشاقة المعرِض، قد حمل التعسف على ديباجته واحتكم التعمل فى طلاوته، وخالف التكلف بين أطرافه وظهرت فجاجةُ التصنع فى أعطافه، واستهلك التعقيدُ معناه ، وقَيَّدَ التعويصُ مُرادَه .

مواقع الكلام

وهذا أمر تَسْتخبر به النفوس المُهذَّبة ، وتَسْتَشْهدُ عليه الأذهان المثقفة؛ وإنما الكلام أصواتٌ محلُّها من الأسماع محل النواظر من الأبصار. وأنْتَ قد ترى الصُّورة تستكملُ شرائط الحُسْن ، وتستوفى أوصاف الكمال . وتذهب فى الأنْفُس كلَّ مَذْهب، وتقف من التّمام بكل طريق، ثم تجد أخرى دونها فى انتظام المحاسن ، والْتئام الخلْقة ، وتَنَاصُفِ الأجزاء ، وتقابل الأقسام ؛ وهى أحظى بالحلاوة ، وأدنى إلى القبول ، وأعْلَقُ بالنفس ، وأسْرع ممازجة للقلب؛ ثم لا تعلم – وإن قاسيتَ واعتبرت ، ونظرت وفكرت – لهذه المزية سبباً ولما خُصَّتْ به مُقْتَضياً .

ولو قيل لك كيف صارت هذه الصورة، وهي مقصورة عن الأولى في الإحكام والصَّنْعة، وفي التَّرْتيب والصِّيغة ، وفيما يجمع أوصافَ الكمال ، وينتظم أسبابَ الاختيار أحْلَى وأرْشق وأحظى وأوقع ؟ لأقمت السائل مقام المتعنّت المتجانف ، ورددته ردَّ المُسْتبهم الجاهل ! ولكان أقصى مافي وسعك ، وغايةُ ماعندك أن تقول : مَوقِعُه في القلب ألْطف ، وهو بالطَّبع ألْيق ؛ ولم تَعْدَم مع هذه الحال مُعارضا يقول لك: فما عبتَ من هذه الأُخرى؟ وأى وَجْه عَدَل بك عنها؟ ألم يجتمع لها كيت وكيت !! وتَتكاملُ فيها ذيه وذيه ؛ وهل للطاعن إليها طريق ! وهل فيها لغامز مغمز يحاجُّك بظاهرٍ تُحِسُّه النَّواظر ؛ وأنت تحيله على باطن تُحصِّله الضمائر !

كذلك الكلام: منثوره ومنظومه، ومُجْمَلُه ومُفَصَّلُهُ؛ تجد منه المُحْكَم الوثيق والجَزْل القَوِىّ ، والمُصَنَّع[1] المُحْكم ، والمنمّق الموشّح ؛ قد هُذِّب كلَّ التَّهذيب ، وثُقِّفَ غايةَ التَّثْقيف، وجُهِد فيه الفكْر، وأُتْعب لأجله الخاطر، حتى احْتَمى ببراءته عن المعائب، واحْتَجَر بصحّته عن المطاعن ، ثم تجد لفؤادك عنه نَبْوة ؛ وترى بينه وبين ضميرك فَجْوَةً ؛ فإن خلّص إليهما فبأن يُسهِّل بعضُ الوسائل أذنه ، ويمهِّد عندهما حاله ؛ فأما بنَفْسه وجوهره ، وبمكانه وموقعه ، فلا . هذا قولى فيما صفا وخلّص ، وهُذِّب ونُقِّح ؛ فلم يوجد فى معناه خَلَل ، ولا فى لفظه دَخَل ؛ فأما المختل المَعيب ، والفاسد المضطرب ، فله وجهان : أحدُهما ظاهر يُشْترك فى معرفته ؛ ويقل التفاضُل فى علمه ؛ وهو ما كان اختلاله وفسادُه من باب اللّحن والخطأ من ناحية الإعراب واللغة وأظهر من هذا ما عَرَض له ذلك من قِبل الوزن والذَّوْق، فإن العامى قد يميز بذوقه الأعاريض والأضْرُب ، ويَفْصِل بطبعه بين الأجْناس والأبْحُر ، ويظهر له الانكسار البين، والزِّحاف السائغ. والآخر غامض يُوصَلُ إلى بعضه بالرِّواية ، ويُوقَفُ على بعض بالدِّراية ؛ ويحتاج فى كثير منه إلى دِقَّة الفطْنة ، وصفاءِ القريحة، ولُطْفِ الفكْر ، وبُعْد الغَوْص. ومِلاكُ ذلك كلّه : وتَمامُه الجامعُ له والزِّمام عليه صِحّة الطَّبْع ، وإدْمانُ الرياضة ؛ فإنهما أمران ما اجْتَمعاَ فى شخص فَقَصَّرا فى إيصال صاحبهما عن غايته ، ورضيا له بدُون نهايته .

---

(١) التصنع : تكلف الحسن .

وأقلُّ الناس حظًّا في هذه الصناعة مَن اقتصر في اختياره ونفيه ، وفي استجادته واستسقاطه على سلامة الوزن ، وإقامة الإعراب ، وأداء اللغة . ثم كان همُّه وبغيته أن يجد لفظاً مروّقا ، وكلاما مزوّقا ؛ قد حُشي تجنيساً وترصيعا ، وشُحن مطابقةً وبديعاً، أو معنى غامضاً قد تعمّق فيه مُستخرجُه ، وتغلغلَ إليه مُستنبطه ، ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب ، واضـــطراب النظم ، وسوء التأليـــف ، وهلهلة النسج ، ولا يقابلُ بينَ الألفاظ ومعانيها ، ولا يَسْبُر ما بينهما من نسب ، ولا يمتحنُ مايجتمعان فيه من سبب ، ولا يـرى اللفظَ إلاّ ما أدّى إليه المعنى ، ولا الكلام إلا ما صوّر له الغرض ، ولا الحُسْنَ إلا ما أفاده البديع ، ولا الرَّونق إلا ما كساه التّصْنيع ، وقد حملني حُبُّ الإفصاح عن هذا المعنى على تكرير القَوْل فيه، وإعادة الذِّكْر له؛ ولو احتمل مقدارَ هذه الرسالة استقصاؤه، واتسع حَجْمُها للاستيفاء له لاسترسلْتُ فيه، ولأشرفْتُ بك على مُعْظَمه .

وإذا كان هذا محلِّي من التّحْقيق بهذه الطريقة، ومقامي في نُصْرة هذا الرأى فأنا أوّلُ موافق لك على ما ادّعيته، وراضٍ منك بالمقدار الذى أوْردته؛ غير أنّ العصبية ربما كدّرَتْ صفو الطبع ، وفلّتْ حدَّ الذهن ، ولبّستِ العِلْم بالشك، وحسّنَتْ للمُنْصِف الميل؛ ومتى استحكَمَتْ ورسخت صوّرَتْ لك الشيء بغير صورته ، وحالَتْ بينك وبين تأمله ، وتخطّتْ بك الإحسانَ الظاهرَ إلى العَيْبِ الغامض . وما ملَكَتِ العصبيّةُ قَلْباً فتركت فيه للتثبت موضعاً ؛ أو أبقَتْ منه للإنصاف نصيباً !

دفاع المؤلف عن أبى الطيب

وقد تفقدت ما أنكرَهُ أصحابُكَ من هذا الديوان، بعد الأبيات التى حالُها من امتناع المحاجّة فيها ، وتعذُّر المخاصمة عليها ما وَصَفْـــت فوجدته أصنافا : منهـــا ألفاظ نُسِبَـــتْ إلى اللّحْن فى الإعراب ، وادُّعي فيهـا الخروجُ عن اللغة ، ومعان وُصِفَتْ بالفساد والإحالة ، وبالاختلال والتناقض، واستِهْلاَكِ المعنى؛ وأخرى أنكرَ منها التّقْصيرُ عـــن الغرض ، والوقوعُ دون القصد .

وأعْيَبُ ما فيها ما عَيْبُه من باب التعقيد والعَويص(١) واستهلاك المعنى وغُمُوض المراد ؛ ومن جِهَة بُعْدِ الاستعارة ، والإفراط فى الصنعة، وقد حَكَيْتُ فى كل باب منها ما عَلِقْتُه من كلام أصحابك، وما قابلهم به خصومُك، ورأيت السَّلامَة فى أن أقتصر من هذه (الوساطة) على حُسْنِ التبليغ ، وحُسْنِ التأدية ، وتَقْرِيبِ العبارة ، وجَمْعِ المُتَفَرِّق ، ثم أقِفُ منكما حَجْزَة ، وأُخْرُجُ عنكما صفراً ؛ قد أدَّيْتُ عن كلِّ فريق ما تحملتهُ ، وسَلِمْتُ من الميل فيما تكلَّفته .

وكما لا أحكم على خصمك بالخطأ فى كلِّ ما يذكره ، فكذلك لا أُبْعِدُك من الصواب فى أكثر ما تصفه. وجملة القول فى هذه الأبْيات وأشباهها أنه لو وُفِّى فيها التهذيب حقَّه. ولم يُبْخَس التَّثْقِيفُ شَرْطَه لانقطعت عنها أَلْسُن الْعَيْبِ ؛ وانسَدَّتْ دونها طُرُق الطعن ، ولَدَخَلَتْ فى جملة أخواتها ، ولجرتْ مَجْرى أغيارها ؛ ولاستغنت عن تَكَلُّف البَحْث والتَّنْقير ؛ واستغنى خصمك عن تمحّل الحجج والمعاذير . لكنا لم نجد شاعراً أشْمَلَ للإحسان والإصابة والتنقيح والإجادة شعرَه أجمع ، بل قلَّما تجد ذلك فى القصيدة الواحدة ، والخطبة الفردة ؛ ولابد لكل صانع من فَتْرَة، والخاطر لا تستمر به الأوقات على حال؛ ولا يَدُوم فى الأحوال على نَهْج . وقد قدمنا لك فى صَدْر هذه الرسالة من شعر أبى نُوَاس وأبى تمام وغيرهما ما مَهَّدْنا به الطريق إلى هذا القول ، وأقمناه عَلَماً يُرْجَعُ إليه فى هذا الحكم ، وأعلمناك أنَّهُ ليس بغيتنا الشَّهادة لأبى الطيب بالعصمة ، ولا مرادُنا أن نُبرِّئه من مفارقة زلَّة ، وأن غايتنا فيما قصدناه أن نُلْحِقَه بأهل طبقته ، ولا نُقَصِّرَ به عن رتبته، وأن نَجْعَلَه رجلا من فحول الشعراء، ونمنعَك عَنْ إحباط حسناته بسيئاته، ولا نسوِّغ لك التحاملَ على تَقَدُّمه فى الأكثر بتقصيره فى الأقل، والغضَّ من عامّ تَبْرِيزه، بخاص تَعْذيره . ومتى وجدتك تحتمل للفرزدق قوله:

---

(١) العويص من الشعر : ما يصعب استخراج معناه .

ومـا مِـثْلُه فـى النَّـاسِ إلا مُـمَلَّكـاً أَبُـو أُمِّـهِ حَـىٌّ أَبُـوهُ يُقَـارِبُـه

وقوله :

مَـا بالمَدِينة دَارٌ غَيـرُ واحِـدةٍ دار الخليـفـة إلا دار مَـرْوانا

وقوله :

فـإنَّ التى ضَـرَّتْك لو ذقْت طَعْـمَـهـا عليك من الأعبـاء يوم التـخـاصم

وأشباهها . وإن لم تَحْتَمِلْه لم تتعمدْه بالعيب ، ولم تتناول قَلائده بالغَضّ ، ولا تَسْلُك بأبى الطَّيب هذا المَسْلَك ، وتَحْمِله على هذا المَنْهَج علمتُ أنَّكَ مُتَعَصِّب مائل ، ومتحامل جائر .

ولقد حدثنى بعض أهل الأدب عند أبى الحسن بن لَنْكَك البَصْرى – وكان عـلى فَضْله فى العلم ، وتَقَدُّمه فى الأدب – شديدَ التَّحامل على أبى الطيب ، وهو يذكر شيئاً من شِعْرِه حتى انتهى إلى قوله(١) :

* بقائى شاء ليسَ هُمُ ارتحالا *

فجعل يُعجِّب من هذا المصراع مَنْ حضره ويقول: هل رأيْتُم أشد تعقيداً وأظهر تكلفاً، وأسوأ ترتيبا من هذا الكلام ! قال : فقلت له : هب الأمر على ما ادَّعيته، وأنَّا سلَّمنا لك ما زعمته ، أين أنت من قوله فى إِثْرِ هذا البيت(٢) :

كـأنَّ العِـيسَ كـانَتْ فَـوْقَ جَـفْنِى مُنَاخَـاتٍ فَلمَّـا ثُرْنَ سَـالاَ

قال : فاسْتَشاط غيظا ، ثم قال : هذا المِصْرَاعُ يسقط دواوين عدة شعراء !

فإنْ كانَ هذا الحكم سائغا، وكان ما قاله مقبولا ، فإن أَحَدَ أبْيَاتِ الفرزدق يُسْقِطُ شعر بنى تميم جُمْلَة ؛ فقد ترى ما بيْنَهَا من الفَضْل فى النقص، وتتبين تفاوتها فى سوء الترتيب واختلال النظم .

---

(١) ديوانه (٣ : ٢٢١) وبقيته :

* وحسن الصبرِ زموا لا الجمالا *

(٢) ديوانه (٣:٢٢٢) .

ولو كـان التعقيدُ وغموضُ المعنى يُسْقطان شـاعراً لوجب أن لايُرَى لأبى تمـام بيتٌ واحـد ؛ فإنا لا نعلم له قصيدةً تسلم من بيْتٍ أو بيتين قد وَفَر من التعقيد حَظُّهما ؛ وأفسد به لفظهما ، ولذلك كَثُرَ الاخْتلافُ فى معانيه ، وصار استخراجها باباً منفردا ؛ ينْتَسب إليه طائفة من أهل الأدب ، وصارت تُتطارح فى المجالس مطارحة أبيات المعانى ، وألغاز المُعَمّى .

وليس فى الأرض بيت من أبياتِ المعانى لقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر ؛ ولولا ذلك لم تكن إلاّ كغيرها من الشعر ، ولم تُفْرَدْ فيها الكتبُ المصنّفة، وتُشْغل باستخراجها الأفكارُ الفارغة .

ولسنا نريدُ القِسْمَ الذى خفاءُ مَعانيه واستتارُها من جِهة غَرَابة اللّفْظ وتوحش الكـلام ، ومن قبل بُعْد العَهْد بالعادة وتغيّر الرَّسْم ، كاخْتلاف الناس فى قول تَميم بن مُقْبل[١] :

يا دارَ سَلْمَى خَـلاءً لا أُكلِّفُـهـا إلا المرانَةَ حـتى تَعْـرِفَ الدِّيناَ

فإن الذى خالف بين أقاويلهم فيها هو أنهم لم يعرفوا المرانة ، فقال قائل : هى ناقته ، وقال آخر : هى موضع دار صاحبته ، وقال آخر إنما أراد الدوام والمُرونة[٢] .

وكقول امرئ القيس[٣] :

نَطْعَنهم سُلْكَى ومَـخْلُوجَـةً كَـرَّكَ لأْمَـيْـنِ[٤] على نابِلِ

لمّا لم يعرفوا : هل الكافُ من كَرَّكَ فتكون اللأمان مُفْردين ، أو الكرّ مفردا ، ويكون اللأم موصولا اختلفوا .

وإنما أريد مثل قول الأعشى :

إذا كـان هادى الفـتى فى البـلا د صـدْرَ القناةِ أطاع الأمـيـر

(١) اللسان : مادة – مرن .

(٢) قال فى اللسان : « وقيل هي هضبة بنى عجلان » ؛ يريد ؛ لا أكلفها أن تبرح ذلك المكان ، وتذهب إلى موضع آخر . وقال الأصمعى : المرانة : اسم ناقة كانت هادية بالطريق . وقال : الدين : العهد والأمر الذى كانت تعهده .

(٣) اللسان : مادة – لأم .

(٤) ويروى : « لفتك لأمين نابل » .

فـإنَّ هـذا البيتَ - كما تـراه - سـليمُ النظم من التعقيد ، بعيدُ اللَّفظ عن الاستكـراه ، لا تشكل كل كلمة بانفرادها على أدْنَى العامَّة ، فإذَا أرَدْتَ الوقوفَ على مراد الشاعر فمن المحال عِنْدِى ، والممتنِع فى رأيى أن تصل إليه إلا من شاهد الأعشى بقوله ، فاستدل بشاهد الحال ، وفحوى الخطاب ، فأما أهل زماننا فلا أجيز أن يعرفوه إلا سماعا إذا اقتصر بهم من الإنشاد على هذا البيت المفرد ؛ فإن تقدموه أو تأخروا عنه بأبيات لم أبعد أن يُسْتَدَلَّ ببعض الكلام على بعض ، وإلا فمن يسمع بهذا البيت فيعلم أنه يريد : أن الفتى إذا كبر فاحتاج إلى لزوم العصا أطاع لمن يأمره وينهاه ، واستسلم لقائده ، وذهبتْ شِرَّته !

وكقول المَعْلُوط :

بل رب مِـــخـــرار تجـــاوزته ببـــسطة الهـــامـــة والمِشْـــفَـــرَيْن
مـــأهولةُ الأرض إذا أصـــبـــحت مـــجـــدبة الحـــيْـــزُوم والمِرْفَـــقَـــيْن

البيت الأول منكشف المعنى ، وأما الثانى فلا يُعْلَمُ إلا وَحْياً أو سَمَاعاً ، ولو بلـغ طـالبه فى علم العرب كلَّ مَبْلَغ ، وحمل على فكره فوق الطاقة، وإنما معناه أنَّ هذه الناقة إذا أصبحت وانقادت فإن رءوس الإبل عند رجليها، لأنها أقوى على السير منها ، وصدرها خال لم تلحق بها ناقة لقصورهن عنها .

وكذلك قول الآخر :

فـــجُنِّبْت العَـــوار أبـــا زنـــيـــب وجـــاد على مـــحلَّتك الســحـــاب

من يسمع هذا البيت يظنه دعاء له واستسقاء لأرْضه ، وإنما مراد الشاعر الدعاء عليه أنْ يُهْلِكَ الله إبله فلا يملك منها ما يُعار عليه، وأن تجودَ السحاب على أرضه وهو مملق، فيشتد أسفُه على ما ذهب من ماله إذا رأى الأرض مخصبة ، وسائمة الحى راعية .

وقول الآخر:

وإنـى لظـلاَّمٌ لأشـعـثَ بـائـسٍ عـرَانا ومـقـدور برَى مـالَه الدّهْر

وجـارٍ قـريب الدار أوْ ذى جنايَةٍ بعـيـد مَـحَلّ الدار ليس له وَفْـر

هل يشك من أنشدهما أن الشّاعرَ وصفَ نَفْسه بأقبح الصِّفة، وأضاف إليها أشْنَع الظُّلم؛ وإنما يريدُ أنى أظلِم الناقة فأنْحَرُ فَصيلَها لأجل هذا الأشعث والجار، ولو قال: وأنى لنحار لاتّضح المعنى، ولم يختل البيت. وأمثالُ هذه الأبيات موجودة شائعة، واستقصاؤُها مُفارِقٌ للرّسْم، وخارج عن الشّرْط، والكتب المُصنَّفة فيها مَعْروفة، والرُّجوع إليها مُمْكِن.

وأنْتَ لا تجد فى شعر أبى الطَّيب بيتاً يزيدُ مَعْناه على هذا الغموض، أو تتعقّد ألفاظُه تَعَقُّدَ أبيات الفرزدق. فأما ديوان أبى تمام فهو مشحون بهذين القِسْمين، ومَنْ أنصَفَ حجزه حضور البيِّنة عن المنازعة.

غلوّ القدامى

فأما الإفراطُ فمذهب عام فى المُحْدَثين، وموجود كثير فى الأوائل، والناس فيه مختلفون، فمستحسِن قابل، ومستقبِح رادّ، وله رسوم متى وقف الشاعرُ عندها، ولم يتجاوز الوصفُ حدَّها جمع بين القَصْد والاسْتِيفاء، وسلم من النقْص والاعتداء، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية، وأدته الحال إلى الإحالة، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط، وشُعْبَةٌ من الإغراق، والباب واحد، ولكن له دَرَج ومراتب.

فإذا سمع المحدَث قول الأول:

إلا إنمـا غـادَرْتِ يا أمّ مـالكٍ صَـدًى أينمـا تذهبْ به الريحُ يَذْهب

وقول آخر من المتقدمين[١]:

ولو أنّ مـا أبْقَـيْتِ مِنّى مُـعَلّقٌ بعـودِ ثمـامٍ[٢] مـا تأوّد عُـودُها

(١) اللسان. مادة – ثم، والعمدة (٢ : ٤٩)، ونسبه للأعشى.

(٢) الثمام: نبت ضعيف شبيه بالخوص؛ وربما سد به خصاص البيوت.

جسّرَ على أن يقول :

أُســـرُّ إذا نحلت وذاب جـــســـمى لعل الريح تَـــشْـــفِى بى إلَيْـــهِ

واستحسن غيره أن يقول(١) :

ذَابَ فَلَـــو زَجَ بجـــســـمـــانه فى نـاظر الوَسْنان لـم يَنْتَـــبِـــه

وسهّل لأبي الطيب الطريق فقال(٢) :

ولوْ قَلَمٌ أُلْقِـــيتُ فى شقِّ رأسِـــهِ من السُّقمِ مـا غـيرتُ من خطِّ كـاتِب

وقال(٣) :

كَـــفى بجِـــســـمِى نُحُــولاً أنّنى رَجُلٌ لَوْلاَ مُـــخَـــاطَبَـــتِى إياكَ لَمْ تَرَنى(٤)

***

وإذا قال عنترة(٥) :

وأنا المنيَّـــــةُ فى المواطن كُلِّهـــــا والطَّعْن منى ســـــابقُ الآجـــــال

وقال النابغة [الجعدى](٦) :

بَلَغْنا الــسَّــمـــاءَ مــجــدُنا وجُــدودُنا وإنَّا لنرجُـــو فَـــوْقَ ذلك مَظْهَـــراً

وقال الأعشى :

لو أسندتْ مـــيــتـــاً إلى نَحْـــرِها عـــــاش ولـم يُنْقَلْ إلى قَـــابر

وقال عزوة بن زيد :

بجـــيشٍ تَطلُّ البلق فى حَـــجَـــراتِه تَرَى الأُكْمَ مِنْهُ سُـــجَّـــداً لِلْحَـــوَافِـــرِ

وقال النابغة(٧) :

تقُـــدّ السَّلوقيَّ المُضـــاعفَ نَسْـــجُـــه ونُوقِـــدُ بالصُّـــفَّـــاح نار الحُـــبَاحِبِ(٨)

---

(١) التبيان (١ : ١٤٩) .

(٢) ديوانه (١ : ١٤٩) .

(٣) ديوانه (٤ : ١٨٦) .

(٤) قال العكبرى : هو مأخوذ من قول الأخطل :

ضـفـادع فى ظلمـاء ليل تجـاوبت فـدل عليـهـا صـوتهـا حـية البحـر

قال : ولبعضهم ، ولقد أحسن :

فـاسـتـبق مـا أبقـيت لي فلعلنى يومـــا أقـــيك به من الأعـــداء
من مـهـجـة ذابت أسي فلو انهـا فى العين لم يمنع من الإغـفـاء

(٥) ديوانه ص ١٠٩ ، روايته هناك :

وأنا المنيـة حين تشـتـجـر القنا والطعن منى سـابق الآجـال

(٦) مهذب الأغانى (٢ : ٧٥) .

(٧) اللسان ، مادة – حبب .

(٨) السلوقى : الدرع المنسوبة إلى سلوق ؛ وهى قرية باليمن . والصفـاح : الحجـر العـريض . ونار الحباحب : ما اقتدح من شرر النار فى الهواء من تصادم الحجارة .

وقال النمر بن تولب(١) :

يظل يحفز عنه إن ضربتَ به ... بَعْدَ الذراعين والساقَيْن والهادِي(٢)

وقال مُهلهل(٣) :

ولولا الريح أُسْمِعَ من بِحَجْرٍ ... صَلِيلَ البَيْضِ تُقْرَعُ بالذُّكُورِ(٤)

وقال امرؤ القيس(٥) :

إذا رَكِبُوا الخَيْلَ واسْتَلأَموا ... تحرَّقتِ الأرْضُ واليومُ قُرٌّ

وقال الأعور الشنّي :

ولو حَلَّ بالدَّهناءَ حرث بن جابر ... لأصْبَحَ بَحْراً بالمَفَازَةِ جاريا

وقال الهذلي :

يردّ شعاع الشَّمْسِ عار رماحنا ... ويصرف حد الشمس حتى تكركرا

وقال قيس بن الخطيم :

مَلَكْتُ بها كَفِّى فأنْهَرْتُ فَتْقَهَا ... تَرى قَائماً من دُونها ماوراءَها

وقال هذبة :

بإجَّانة فَيْحاءَ لو خَرَّ بازلٌ ... من البُخْتِ فيها ظَلَّ للجَنْبِ يَسْبَحُ

وقال ابن ميادة :

ولو أن قيسا قَيْسَ عَيْلاَنَ أقْسَمَتْ ... على الشمس لم تَطْلُعْ عليها حجابها

وقال الطرِمّاح :

ولو أن برغوثا على ظهر قَمْلَةٍ ... يكر على صَفَّىْ تميم لَوَلَّتِ

(١) العمدة (٢ : ٤٩) .

(٢) الهادى : العنق .

(٣) الأمالى (٢ : ١٣٣) .

(٤) حجر : قصبة اليمامة ، وإقامتهم كانت بالجزيرة . والصليل : الصوت . والذكور : السيوف التى عملت من حديد غير أنيث . قال أبو العباس الأحول : أول كذب سمع فى الشعر هذا .

(٥) ديوانه ص ٥ .

وقال العينى فى جوابه :

ولـو أن عُـصْـفـوراً يَمُـدُّ جـنـاحـه   على طَيِّىءٍ فى دارها لاسْـتَـقَلَّتِ

وقال طريح :

لو قلت للسـيل دع طريقك والمو   ج عليـه كـالهـضب يَعْـتَلِجُ

لارتدَّ أوْسـاخَ أوْ كـان لهُ   فى سـائر الأرض عنك مُنْعَـرَجُ

وقال العوام بن عبد عمرو :

ولو أنهـا عُـصـفـورة لحـسـبتُـهـا   مُـسَـوَّمَـةً تَدْعُـو عَـبـيـداً وأَزْنَمـا

وقال تميم بن مقبل :

ولو كـحلت حـواجب خـيل قَـيْس   بكلـب بعـد تغلـب مـا قُـذينا

وأمثال هذا مما لو قصدنا جمعه لم يعوز الاستكثار منه وجد مَن بَعْدَهُم سبيلاً مسلوكا وطريقا مُوَطَّا ، فقصدوا ، وجاروا ، واقتصدوا وأسرفوا وطلب المتأخر الزيادة ، واشتاق إلى الفضل فتجاوز غاية الأول ، ولم يقف عند حد المتقدم، فاجْتَذَبَهُ الإفراط إلى النقص، وعَدَلَ به الإسراف نحو الذم .

أبو حيان التوحيدى (٣١٢ هـ - ٣٨٠ هـ)

أديب مفكر ، أصله من شيراز ، درس فى بغداد . وكان من تلاميذ السيرافى فى النحو ، غير أنه تأثر ببيئة الكتاب وبتيارات الثقافة فى عصره . ألف كتبا كثيرة ، أشهرها : المقابسات ، والإمتاع والمؤانسة ، ومثالب الوزيرين ، والبصائر والذخائر ، والإشارات الإلهية .

وتعد كتبه بما تضمه من محاورات فكرية ومناقشات جادة مثال الثقافة الرفيعة فى العراق فى القرن الرابع الهجرى ، وتضم نقولا من كتب ضاعت وتدوينا لمناقشات كثيرة .

كان قليل الحظ فى حياته الخاصة فأحرق كتبه احتجاجا ورفضا .

وعده ابن الجوزى مع الراوندى والمعرى من ضعاف الإيمان .

وصف التوحيدى بأنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة . وكان يقارن فى سعة معارفه وتنوعها بالجاحظ .

من كتاب الإمتاع والمؤانسة :

الليلة الثامنة

وقال لى مرّة أخرى: أوْصَلَ وهبُ بن يعيش الرقّى[1] اليهودىّ رسالةً يقول فى عُرْضها بعد التقريظ الطويل العريض : إن هنا طريقا فى إدراك الفلسفة مذلَّلةً مسلوكةً مختصَرة فسيحة، ليس على سالكها كدٌّ ولا شَقٌّ فى بلوغ ما يريد من الحكمة ونيلِ ما يطلب من السعادة وتحصيل الفوز فى العاقبة ؛ وإنّ أصحابنا طوّلوا وهوّلوا وطرحوا الشوك فى الطريق ، ومَنّعوا من الجواز عليه غشاً منهم وبخلا ولؤمَ طباع وقلةَ نصح وإتعابا للطالب وحسدا للراغب ، وذلك أنّهم اتّخذوا المنطق والهندسة وما دخل فيهما معيشةً ومكسبة، ومأكلة ومشربة، فصار ذلك كسُور من حديد لطلاّبِ الحكمة والمحبّين للحقيقة والمتصفّحين لأثناء العالم وكلاما هذا معناه ، وإلى هذا يرجع مغزاه .

---

(١) ورد هذا الاسم فى المقابسات ؛ وكان أبو حيان يسأله فى مسائل فلسفية .

فكان من الجواب : قد عرفتُ مذهب ابن يعيش فى هذا الباب ، وهو جارى، وكتب هذه الرسالة على هذا الطراز بالأمس إلى المَلِك السعيد سنة سبعين[١] ، وتقرّب بها ، ونفعتْه بالمسألة والتفقّد له ، فإنّه شديد الفقر ، ظاهرُ الخَصاصة، لاصق بالدّقْعاء[٢] ؛ وللّذى قاله وادّعاه، وقصده وانتحاه ، وجه واضح وحجّة ظاهرة ؛ وللّذى قاله أصحابنا – أعنى مخالفيه – وجهٌ أيضا وتأويل وللقولين أنصار وحُماة ، وحفَظَة ورُعاة .

قال: هاتِ؛ على بركة الله– فإنّى أحب أن أسمع فى هذا الخَطْب[٣] كلَّ ما فيه وأكثرَ ما يتّصل به؛ فكان من الجواب أن ابن يعيشَ يريد بهذه الخطبة أنّ عمر الإنسان قصير، وعِلمَ العالم كثير ، وسِرّه[٤] مغمور؛ وكيف لا يكون كذلك وهو ذو صفائح مركّبة بالوَضْع[٥] المحكَم، وذو نضائدَ مزيّنة بالتأليف المعجِب المتقَن ؛ والإنسان الباحث عنه وعمّا يحتويه ذو قوًى متقاصرة ، وموانعَ معترِضة ، ودواعٍ ضعيفة ، وإنه مع هذه الأحوال منتبه بالحِسّ، حالمٌ بالعقل، عاشقٌ[٦] للشاهد ، ذاهل عن الغائب ، مستأنسٌ بالوطن الّذى ألِفه ونشأ فيه ، مستوحشٌ من بلد لم يسافر إليه ولم يُلمّ به وإن كان صدَر عنه[٧] ، فليس له بذلك معرفة باقية ولا ثقةٌ تامّة؛ وإن الأولى بهذا الإنسان المنعوتِ بهذا الضّعف والعجز أن يلتمسَ مسلكا إلى سعادته ونجاته قريبا ويعتصمَ بأسهل

(١) يعنى بعد الثلاثمائة .

(٢) الدقعاء : الأرض لا نبات بها . والتراب . وهذه العبارة كناية عن الفقر الشديد .

(٣) الخطب : الشأن .

(٤) « وشره » .

(٥) « بالوصف » .

(٦) « ما شق » .

(٧) عنه ، أى عن البلد .

الأسباب على قدر جهده وطَوْقه ؛ وإن أقرب الطرق وأسهلَ الأسباب هو فى معرفة الطبيعة والنفس والعقل والإله تعالى ، فإنه متى عرف هذه الجملةَ بالتفصيل ، واطّلع على هذا التفصيل بالجملة، فقد فاز الفوز الأكبر ونال المُلك الأعظم، وكُفِىَ مؤونة عظيمة فى قراءة الكتب الكبار ذوات الورق الكثير ، مع العناء المتّصل فى الدرس والتصحيح والنَّصَب فى المسألة والجواب ، والتنقير عن الحق والصواب؛ وهذا الذى قاله ابن يعيشَ ليس بحيّف ولا خارجٍ عن حَوْمة الحق، وإن كان الأمر فيه أيضا صعبا وشاقا وهائلا وعاملا ، ولكن ليس لكلّ أحد هذه القوّةُ الفائضة ، وهذه الخصوصيّةُ الناهضة ؛ وهذا الاستبصارُ الحَسَن ، وهذا الطبع الوقّاد ، والذهنُ المُنقاد ، والقريحةُ الصافية والاستبانةُ والتأمّل ، لأن هذه القوّة إلهيّة ، فإن لم تكن إلهيّة فهى مَلَكية؛ وإن لم تكن مَلَكية فهى فى أُفُق البشريّة ؛ وليس يوجد صاحبُ هذا النعت إلاّ فى الشاذّ النادر، وفى دهر مديدٍ بين أُمّة جَمّةِ العَدَد؛ والفائقُ من كلّ شىء والبائن من كلّ صنف عزيزٌ فى هذا العالَم الوحشىّ ، كما أن الردىء والفاسدَ معدوم فى هذا العالَم الإلهىّ ، ويمكن أن يقال بالمثل الأدنى : إن من يتكلّم بالإعراب والصحّة ولا يَلحَن ولا يخطىء ويجرى على السليقة الحميدة والضريبة السليمة ، قليل أو عزيز ، وإنّ الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجيّة وهذا المنشأ إلى أن يتعلّم النحو ويقف على أحكامه، ويجرىَ على منهاجه، ويفىَ بشروطه فى أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعمَلاتها ومهمَلاتها ؛ ومتى اتفق[1] إنسانٌ بهذه الحلية[2] وعلى هذا النّجار ، فلعَمرى إنّه غنىّ عن تطويل النحويّين كما يَستغني قارض الشّعر بالطبع عن علم العَروض، وهكذا يَستغنى صاحبُ تلك القوّة التى أشار إليها ابن يعيشَ عن ذلك، ولكن أين ذاك الفرد والشاذّ والنادر ؟ فإن حضر فما تفعل معه إلاّ أن تقلّده وتأخذَ عنه وتتّبعَه .

(١) اتفق إنسان ، أى وجد بطريق الاتفاق ، أى الصدفة .

(٢) لعله « الجبلة » .

وإنّما المدار على أن تكون أنت بهذا الكمال حائزاً لهذه الغاية، ولا سبيل لك إليها من تلقاء نفسك ، وإنما هو شيء يأتي من تلقاء غيرك، فإذن بالضرورة وبالواجب ينبغي أن تخطوَ على آثار المنطقيين والطبيعيّين والمهندسين بالزحف والعناء والتكلّف والدُّءوب حتى تصير متشبهًا بذلك الرجل الفاضل والواحد الكامل البديع النادر ؛ فقد بان من هذا القَدْر صوابٌ ما أشار إليه ابن يعيش وانكشف أيضا وجْهُ ما حثّ عليه مخالفوه ؛ ولاعيب على المنقوص أن يطلب الزيادة ببذل المجهود ، وإن الكامل مربوط بما مُنِح من العطيّة من غير طلب .

وأمّا قوله في صدر كلامه : « إن القوم صدّوا عن الطريق وطرحوا الشوك فيه، واتّخذوا نشر الحكمة فخًا للمثَالة [1] العاجلة » فما أبعَد بل قارب الحقّ فإن متّى [2] كان يُملي ورقةً بدرهم مقتدريٍّ وهو سكرانٌ لايعقل ، ويتهكّم ، وعنده أنه في ربح ، وهو من الأخسرين أعمالا ، الأسفلين أحوالا .

ثم إنّي أيّها الشيخ — أحياك الله لأهل العلم وأحيَى بك طالبيه — ذكرتُ [3] للوزير مناظَرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح [الفضل بن [4]] جعفر بن الفرات بين أبي سعيد السيرافيّ وأبي بِشْر [5] متّى واختصرتُها ؛ فقال لي: اكتب هذه المناظرة على التمام فإنّ شيئاً يجرى في ذلك المجلس

(١) المثالة : حسن الحال ؛ ومنه قولهم : كلما زدت مثالة ، زادك الله رعالة ؛ والرعالة: الحمق .

(٢) « متى » .

(٣) انظر التعريف بأبي سعيد السيرافي في الحاشية رقم ١ من الصفحة ٢٥ من هذا الجزء.

(٤) هاتان الكلمتان لم تردا بالأصل وقد أثبتناهما عن معجم ياقوت . وأبو الفتح هذا كان وزير المقتدر الخليفة العباسي سنة عشرين وثلاثمائة .

(٥) موضع هذا الاسم حروف مطموسة في الأصل ؛ وقد أثبتناه هكذا نقلا عن المقابسات وأخذاً من الكلام الآتي . وأبو بشر متّى ، هو ابن يونس القنّائي من أهل دير قنّى . كان نصرانيا عالما بالمنطق ،وإليه انتهت رآسة المنطقيين في زمنه ، نزل بغداد بعد سنة عشرين وثلاثمائة ، وكانت وفاته في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .

النبيه بين هـذين الشيخين بحضـرة أولئك الأعـلام ينبـغى أن يُغتنـم سـماعُه ، وتُوعَى فوائده ، ولا يُتهاوَنَ بشئ منه . فكتبتُ (١) : حدّثنى أبو سعيد بلُمَع من هذه القصّة . فأما على بن عيسى الشيخ الصالح فإنه رواها مشروحة.

لما انعقـد المجلس سنة ستّ وعشـرين وثلاثمـائة ، قـال الوزير ابن الفرات للجمـاعة – وفيهم الخالدىّ وابن الأخشاد والكتبىّ وابن أبى بشـر وابن رَباح وابن كعب وأبو عمرو قدامة بن جعفر والزهرىّ وعلى بن عيسى الجرّاح وابن فِراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهـاشمى وابن يحيى العلوىّ ورسول ابن طغج من مصر والمرزبانىّ صاحب آل سامان (٢) – : ألا (٣) يَنتدب منكم إنسان لمناظرة متّى فى حديث المنطق، فإنه يقـول: لا سبيل إلى معرفة الحقّ من الباطل، والصدق من الكذب ، والخير من الشرّ ، والحجّة من الشبهة ، والشك من اليقين إلا بما حوينـاه (٤) من المنطق وملكناه من القيام به ، واستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده ، فاطلعنا عليه من جهة اسمه على حقـائقه. فأحجم القـوم وأطرقـوا قـال ابن الفرات: والله إن فيكم لَمَنْ يفى بكلامه ومناظرته وكسـر مـا يذهب إليه وإنى لأعُـدّكم فى العلم بحارا ، وللدّين وأهله أنصـارا ، وللحق وطلّابه منارا ، فما هذا الترامز والتغامزُ اللّذان تَجلّون (٥) عنهما ؟ فرفع أبو سعيد السيرافىّ رأسه فـقـال : اعـذِر أيّهـا الوزير ، فـإن العلم المصـون فى الصـدر غـيـرُ العلم المعـروض فى هذا

(١) « وكنت » .
(٢) « ساسان » .
(٣) « أن ينتدِب » .
(٤) « جربناه » .
(٥) فى الأصل : « اللذين » .

المجلس على الأسماع المُصيخة (١) والعيون المحدِقة والعقول الحادّة (٢) والألباب الناقدَة ؛ لأن هذا يستصحب الهيبة ، والهيبة مَكسِرَة ، ويجتلب الحياء، والحياء مَغلَبة؛ وليس البِراز فى معركة خاصّة كالمِصاع (٣) فى بقعة عامّة .

فقال ابن الفرات : أنت لها يا أبا سعيد ، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك ، والانتصار لنفسك راجع إلى الجماعة بفضلك . فقال أبو سعيد : مخالفة الوزير فيما رسَمه هُجْنة ، والاحتجازُ عن رأيه إخلاد إلى التقصير ؛ ونعوذ بالله من زَلّةِ القَدَم ، وإياه نسأل حُسنَ المعونة فى الحرب والسِّلْم؛ ثم واجـه متّى: [فقـال (٤)]: حدِّثنى عـن المنطق ما تَعنيِ [به] ؟ فإنا إذا فهمنا مرادَك فيه كان كلامُنا معك فى قبول صوابه وردِّ خطئه على سَنَن مَرضيّ وطريقة معروفة .

قال متّى : أعنى به أنّه آلة من آلات الكلام يُعرَف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسدُ المعنى من صالحه ، كالميزان ، فإنّى أعرف به الرُّجْحان من النقصان ، والشائل (٥) من الجانح .

فقـال أبـو سـعيد : أخطـأتَ ، لأن صحيح الكـلام مـن سـقيمه يُعـرَف بالنظم المألـوف والإعـراب المعـروف إذا كنّا نتكلّم بالعـربيّة ؛ وفاسد المعنى مـن صالحـه يُعـرَف بالعقـل إذا كنّا نبحـث بالعقـل ؛ وهبْكَ عـرفتَ الراجـح مـن الناقـص مـن طريق الوزن ،

---

(١) « المطنبجة » .

(٢) فى الأصـل : « الجـامة » وهو تحريف . وفى معجم الأدباء ترجمة أبى سـعيد السيرافى : الجامدة ؛ وهو تحريف أيضا لا يستقيم به المعنى ، ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٣) المصاع : من صاع الشجاع أقرانه : إذا حمل عليهم ففرق جمعهم .

(٤) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل .

(٥) فى الأصل : « والسائل » بالسين المهملة ؛ وهو تصحيف . والشائل : المرتفع . والجانح : المائل .

فمن لَكَ (١) بمعرفة الموزون أيما (٢) هو حديد أو ذهب أو شَبَه (٣) [أو رَصاص] (٤) ؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيرا إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التى يطول عدُّها ؛ فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذى كان عليه اعتمادك ، وفى تحقيقه كان اجتهادُك ، إلاَّ نفعا يسيرا من وجه واحد ، وبقيتْ عليك وجوه (٥) كما قال الأول (٦) :

* حفظتَ شيئا وغابت عنك أشياء *

وبعد ، فقد ذهب عليك شئ هاهنا ، ليس كلُّ ما فى الدنيا يوزَن ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُكال ، وفيها ما يُذْرَع ، وفيها ما يُمسَح و[فيها ما] (٧) يُحزَر وهذا وإن كان هكذا فى الأجسام المرئيّة ، فإنّه على ذلك أيضا فى المعقولات المقرَّرة ؛ والإحساسات (٨) ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد ، مع الشبه المحفوظ والمماثَلة الظاهرة . ودع هـــذا ؛ إذا كان المنطقُ وَضَعَه (٩) رجل من يونانَ على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها ، فمن أين يلزم التُّرْكَ والهندَ والفُرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحَكَما لهم وعليهم ، ما شهد لهم به قبلوه ، وما أنكره رفضوه ؟

---

(١) « من دلك » .
(٢) « إنما » .
(٣) الشبه بالتحريك : النحاس الأصفر .
(٤) الكلمة التى بين مربعين عن ياقوت .
(٥) فى الأصل : « قال » ؛ وهو تحريف .
(٦) هو أبو نواس ؛ وأول البيت : فقل لمن يدّعي فى العلم فلسفة * حفظت شيئا الخ .
(٧) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات لأبى حيان .
(٨) « والاحتباس طلال العقول تحكمها » .
(٩) « وصفه » .

قال متّى : إنما لزم ذلك لأن المنطق بَحْث (١) عن الأغراض المعقولة والمعانى المدركة ، وتصفّح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة ؛ والناس فى المعقولات سواء ، ألا ترى أنّ أربعةً وأربعة [ثمانية] سواءٌ عند جميع الأمم ، وكذلك ما أشبهه .

قال أبو سعيد : لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكوراتُ باللفظ ترجع مَعَ شُعَبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البيّنة فى أربعة وأربعة وأنّهما ثمانية ، زال الاختلاف وحضر الاتفاق ولكن ليس الأمر هكذا ، ولقد موّهت بهذا المثال ولكم عادة بمثل هذا التمويه ؛ ولكن مع هذا أيضا إذا كانت الأغراض المعقولة والمعانى المدركة لا يوصل إليها إلا (٢) باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف، أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة؟ قال: نعم. قال : أخطأتَ قل فى هذا الموضع : بلى . قال بلى ، أنا أقلّدك فى مثل هذا . قال : أنت إذاً لست تدعونا إلى علم المنطق ، إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية وأنت لا تعرف لغة يونانَ ، فكيف صرتَ تدعونا إلى لغة لا تفى بها ؟ وقد عَفَتْ منذ زمان طويل ، وباد أهلُها ، وانقرض القومُ الذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريفها ، على أنّك تَنقُل من السريانية ، فما تقول فى معان متحوّلة (٣) بالنقل من لغة يونانَ إلى أخرى سريانيّة، ثم من هذه إلى أخرى عربية ؟

قال متّى : يونان وإن بادت مع لغتها ، فإن الترجمة حَفظت الأغراض وأدّت المعانى ، وأخلصت الحقائق .

---

(١) « يحث » .
(٢) ورد فى الأصل بعد قوله : « إلا » جيم وألف وذال ، وهى زيادة من الناسخ : والصواب حذفها .
(٣) « مملوكة » .

قالَ أبو سعيد : إذا سلّمنا لك أنّ الترجمة صدقتْ وما كذبتْ ، وقوّمتْ وما حرّفتْ ، ووزنتْ[١] وما جزَفت ، وأنها [ما][٢] التاثت ولا حافَت ، ولا نقصتْ ولازادت ، ولا قدّمتْ ولا أخّرت ، ولا أخلّت بمعنى الخاصّ والعامّ ولا [بأخصّ الخاصّ [٣] ولا] بأعمّ العامّ - وإن كان هذا لا يكون ، وليس هو فى طبائع اللغات ولا فى مقادير المعانى - فكأنك تقول : لا حجة إلا عقول يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلاّ ما أبرزوه .

قال متّى: لا ، ولكنّهم من بين الأمم أصحابُ عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالَم وباطنه ، وعن كلّ ما يتّصل به وينفصل عنه ، وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا [ونشأ ما نشأ] من أنواع العلم وأصناف الصنائع ؛ ولم نجد هذا لغيرهم .

قال أبو سعيد : أخطأتَ وتعصّبت وملتَ مع الهوى ، فإنّ علمَ العالَم مبثوث فى العالَم بين جميع من فى العالَم ، ولهذا قال القائل :

العلم فى العالم مبثوث ونحوه العاقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع مَن جَدَد [٤] الأرض ؛ ولهذا غَلب علمٌ فى مكان دون علم ، وكثرتْ صناعة فى بقعة دون صناعة ؛ وهذا واضح والزيادة عليه مَشغَلة ؛ ومع هذا فإنما كان يصحّ قولك وتسلم دعواك لو كانت يونانُ معروفةً من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة ، والفِطْنة الظّاهرة ، والبِنية المخالفة ، وأنّهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قَدَروا ، ولو قَصَدوا أن

---

(١) فى الأصل : « ووريت وما حزفت » وهو تصحيف فى كلتا الكلمتين ، يقال جزف فلان الشىء ، أى باعه أو اشتراه جزافا بلا كيل ولا وزن .
(٢) هذه الكلمة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل .
(٣) هذه العبارة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات .
(٤) الجدد بالتحريك : ما استوى من الأرض . وفي الأصل « جديد » ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق .

يكذبوا ما استطاعوا وأنّ السكينة نزلت عليهم ، والحقّ تكفّل بهم ، والخطأ تبرّأ منهم ؛ والفضائلَ لصقت بأصولهم وفروعهم ، والرذائل بعدتْ من جواهرهم وعروقهم ؛ وهذا جهلٌ ممّن يظنّه بهم ، وعنادٌ ممن يدّعيه لهم ؛ بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون فى أشياء ويخطئون فى أشياء ، ويعلمون أشياءَ ويجهلون أشياء ، ويَصدُقون فى أمور ويَكذِبون فى أمور ، ويُحسِنون فى أحوال ويسيئون فى أحوال ؛ وليس واضع المنطق يونانُ بأسرها ، إنما هو رجل منهم ، وقد أخذ عمّن قبله كما أخذ عنه مَن بعده ؛ وليس هو حجّةً على هذا الخلق الكثير والجمِّ الغفير ، وله مخالفون منهم ومن غيرهم ؛ ومع هذا فالاختلاف فى الرأى والنظر والبحث والمسألة والجواب سِنْخٌ [1] وطبيعة ، فكيف يجوز أن يأتىَ رجل بشىء يرفع به هذا الخلاف أو يحلحله أو يؤثّر فيه ؟ [هيهات[2]] هذا محال ، ولقد بقىَ العالَم بعد منطقه على ما كان عليه قبل منطقه ؛ فامسح وجهك بالسلوة عن شىء لا يستطاع لأنّه منعقد بالفطرة والطباع ؛ وأنت لو فرّغتَ بالك وصرفتَ عنايتك إلى معرفة هذه اللّغة التى تَحاورنا بها ، وتَجارينا فيها ، وتدارس أصحابك بمفهومِ أهلها وتشرح كتبَ يونانَ بعادة أصحابها ، لعلمت أنّك غنىّ عن [معانى[3] يونان كما أنك غنىّ عن لغة] يونان .

وهاهنا مسألة ، تقول : إن الناس عقولهم مختلفة ، وأنصباؤهم منها متفاوتة . قال نعم . قال : وهذا الاختلاف والتفاوتُ بالطبيعة أو بالاكتساب ؟ قال : بالطبيعة . قال : فكيف يجوز أن يكون هاهنا شىء يرتفع به هذ الاختلاف الطبيعىّ والتفاوت الأصلىّ ؟ قال متّى : هذا قد مر فى جملة كلامِك آنفا . قال أبو سعيد : فهل وصلتَه بجواب قاطع وبيانٍ ناصع ؟ ودَع هذا ؛ أسألك

(١) السنخ : الأصل . وقد وردت هذه الكلمة في الأصل مهملة الحروف من النقط .
(٢) الكلمة التى بين مربعين عن معجم الأدباء .
(٣) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات ص ٧٣ .

عن حرف واحد ، وهو دائر فى كلام العرب ، ومعانيه متميِّزة عند أهل العقل ؛ فاستخرج أنت معانيَه من ناحية منطق أرسطاطاليس الّذى تُدلّ به وتُباهِى بتفخيمه ، وهو (الواو) ما أحكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه ؟ فبُهِت متّى وقال : هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ؛ لأنه لا حاجة بالمنطقىّ إليه ، وبالنحوىّ حاجة شديدة إلى المنطق ، لأنّ المنطق يبحث عن المعنى(١)[والنحو يبحث (٢) عن اللفظ] ، فإن مر المنطقىّ باللفظ فبالعَرَض ، وإن عثَر النحوىُّ بالمعنى فبالعَرَض والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى .

فقال أبو سعيد : أخطأتَ ، لأن الكلام (٣) والنطق واللغة واللفظ والإفصاح والإعراب والإبانة والحديث والإخبار والاستخبار (٤) والعَرْض [والتّمنّىَ (٥)] والنهى والحضّ والدعاء والنداء والطلب كلُّها من وادٍ واحد بالمشاكَلة والمماثَلة ، ألا ترى أنّ رجلا لو قال : « نطق زيد بالحقّ ولكن ما تكلم بالحق ، وتكلّم بالفُحش ولكن ما قال الفُحش ، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصَح ، وأبانَ المراد ولكن ما أوضَح ، أو فاهَ بحاجته ولكن ما لَفَظ ، أو أخبَر ولكن ما أنبأ » ، لكان فى جميع هذا محرِّفا ومناقضا وواضعا للكلام فى غير حقّه ، ومستعملا اللّفظ على غير شهادة [من] عقله (٦) وعقل غيره ؛ والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية والمنطق نحو ، ولكنه مفهوم باللغة ، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعىّ والمعنى عقلىّ ؛ ولهذا كان اللفظ بائدا على الزمان ، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة [بأثر آخر (٧) من الطبيعة] ولهذا كان المعنى ثابتا على الزمان ، لأن مستملَى المعنى عقل ، والعقل إلٰهىّ ؛ ومادة اللفظ طينيّة ، وكل

(١) فى الأصل : « اللفظ » ؛ وهو تبديل من الناسخ لا يستقيم به المعنى .

(٢) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل ، وقد أثبتناها عن المقابسات ، إذ لا يستقيم الكلام بدونها .

(٣) فى المقابسات : « لأن النحو والمنطق » .

(٤) الظاهر أن فى قوله « والاستخبار » تبديلا من الناسخ صوابه « والإنباء » بدليل قوله فى التمثيل الآتى « أو أخبر ولكن ما أنبأ » .

(٥) الكلمة التى بين مربعين عن معجم الأدباء .

(٦) « وغفلة »

(٧) العبارة التى بين مربعين عن المقابسات ومعجم الأدباء .

طينيّ متهافت ؛ وقد بقيتَ أنت بلا اسم لصناعتك التى تنتحلها ، وآلتك التى تُزهى بها ، إلا أنْ تستعير من العربيّة لها اسمًا فتُعار ، ويسلَّم لك ذلك بمقدار ؛ وإذا لم يكن لك بدّ من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة [1] فلابدّ لك أيضا من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة واجتلاب الثّقة والتوقّى من الخلّة اللاحقة .

فقال متّى : يكفينى من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف ، فإنى أتبلّغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذّبتْها لى يونان .

قال [أبو سعيد] : أخطأت ، لأنك فى هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع فى غرائز أهلها ؛ وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف ، فإن الخطأ والتحريف فى الحركات كالخطأ والفساد فى المتحرّكات ، وهذا باب [أنت [2] وأصحابُك ورهطُك عنه فى غفلة ؛ على أنّ هاهنا سرًا ما علِق] بك ، ولا أسفر لعقلك ؛ وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تُطابق [3] لغةً أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها ، فى أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها ، واستعارتها وتحقيقها ، وتشديدها وتخفيفها ، وسعتها ، وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ، ووزنها وميلها ، وغير ذلك مما يطول ذكره ؛ وما أظنّ أحدا يدفع هذا الحكم أو يشكُّ فى صوابه ممن يرجع إلى مُسْكةٍ من عقل أو نصيبٍ من إنصاف ، فمن أين يجب أن تثِق بشىء تُرجِم لك على هذا الوصف ؟ بل أنت إلى تعرُّف اللغة العربيّة أحوجُ منك إلى تعرّف المعانى اليونانيّة ؛ على أنّ المعانىَ لا تكون يونانيّة ولا هنديّة ، كما أن اللغات تكون فارسيّة وعربيّة وتركيّة ؛ ومع هذا فإنّك تزعم أن المعانىَ حاصلة بالعقل والفحص والفكر ، فلم يبْقَ إلا أحكام اللّغة ، فلِمَ تُزرى على العربيّة وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها ، مع جهلك بحقيقتها ؟

---

(١) « التجربة » .

(٢) هذا الكلام الذي بين هذين المربعين لم يرد فى الأصل ؛ وقد أثبتناه عن المقابسات .

(٣) « تناطق » .

وحدِّثني عن قائل قال لك : حالي في معرفة الحقائق والتصفح لها [والبحثِ عنها [1]] حالُ قومٍ كانوا قبل واضع المنطق ، أنظر كما نظروا ، وأتدبّر كما تدبّروا ، لأنّ اللغة قد عرفتُها بالمنشأ والوراثة ، والمعاني نقّرتُ عنها بالنظر والرأي والاعتقاب والاجتهاد . ما تقول له ؟ أتقول : إنّه لايصحُّ له هذا الحُكم ولايستتبّ هذا الأمر ، لأنه لا يعرف هذه الموجودات من الطريق التي عرفتَها أنت ؟ ولعلّك تفرح بتقليده لك – وإن كان على باطل – أكثرَ ممّا تفرح باستبداده وإن كان على حقّ ؛ وهذا هو الجهل المبين ، والحُكم الـمَشين [2] .

ومع هذا ، فحدِّثني عن الواو ما حكمه ؟ فإني أريد أن أبيِّن أنّ تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئا ، وأنت تجهل حرفا واحدا في اللغة التي تدعو بها إلى حكمة يونان ، ومَن جهل حرفا أمكن أن يجهل حروفا ، ومن جهل حروفا جاز أن يجهل اللغة بكمالها ، فإن كان لايجهلها كلَّها ولكن يجهل بعضها ، فلعلّه يجهل ما يَحتاج إليه ، ولا ينفعه فيه علم ما لا يَحتاج إليه . وهذه رتبة العامّة أو رتبة من هو فوق العامة بقدر يسير ؛ فلمَ يتأبّى على هذا ويتكبّر ، ويَتوهّم أنه من الخاصّة وخاصّةِ الخاصّة ، وأنه يعرف سرّ الكلام وغامض الحكمة وخفيّ القياس وصحيحَ البرهان ؟

وإنما سألتك عن معاني حرف واحد ، فكيف لو نثرتُ عليك الحروف كلَّها ، وطالبتُك بمعانيها ومواضعها التي لها بالحق ، والتي لها بالتجوّز ؛ سمعتكم تقولون : إن « في » لا يعرف النحويُّون مواقعها ، وإنما يقولون : هي « للوعاء » كما [يقولون] : « إن الباء للإلصاق » ؛ وإن « في » تقال على وجوه : يقال « الشيء في الإناء » « والإناء في المكان » « والسائس [في السياسة] » والسياسة في السائس » .

---

(١) هذه العبارة التي بين مربعين لم ترد في الأصل ؛ وقد أثبتناها عن معجم الأدباء لياقوت والمقابسات للمؤلف .

(٢) في رواية أخرى « غير المستبين » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

أترى أن هذا التشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها ؟ ولا يجوز أن يُعقَل هذا بعقول الهند والترك والعرب ؟ فهذا جهلٌ من كلّ من يدّعيه ، وخطَلٌ من القول الّذى أفاض فيه ؛ النحوىُّ إذا قال « فى » للوعاء [١] فقد أفصح فى الجملة عن المعنى الصحيح ، وكَنَى مع ذلك عن الوجوه التى تظهر بالتفصيل ؛ ومثل هذا كثير ، وهو كافٍ فى موضع التَّكْنِيَة [٢] .

فقال ابن الفرات : أيّها الشيخ الموفَّق ، أجبه بالبيان عن مواقع « الواو » حتى تكون أشدَّ فى إفحامه ، وحقِّق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ، ومع هذا فهو مشنِّع [٣] به .

فقال أبو سعيد : للواو وجوه ومواقع : منها معنى العطف فى قولك « أكرمت زيدا وعَمرا » ومنها القسم فى قولك : « والله لقد كان كذا وكذا » ومنها الاستئناف فى قولك : « خرجتُ وزيد قائم » لأن الكلام بعده ابتداء وخبر ومنها معنى رُبَّ التى هى للتقليل نحو قولهم [٤] : وقاتمِ الأعماق خاوى المخترَق * ومنها أن تكون أصلية فى الاسم ، كقولك : واصِلٌ واقِدٌ وافِدٌ ، وفى الفعل كذلك ، كقولك : وَجِل يَوْجَل ؛ ومنها أن تكون مقحَمة نحو قول الله عزّ وجل : (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ) ، أى ناديناه ؛ ومثلُه قول الشاعر [٥] :

* فلما أجزنا ساحةَ الحىِّ وانتحَى * المعنى : انتحَى بنا ؛ ومنها معنى الحال فى قوله عز وجل : (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً) أى يكلّم الناس فى حال كهولته ؛ ومنها أن تكون بمعنى حرف الجرّ ، كقولك : استوى الماءُ والخشبةَ أى مع الخشبة .

فقال ابن الفرات [لمتّى] : يا أبا بشر : أكان هذا فى نحوك [٦] .

---

(١) فى الأصل : « للوما » وما أثبتناه عن المقابسات ص ٧٧ إذ به يستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : « التبكيت » وفى المصادر الأخرى « السكت » وفى كلا اللفظين تحريف لا يستقيم به المعنى ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .
(٣) فى الأصل والمقابسات « متشبع » . وفى معجم ياقوت « متشيع » . وفى كلا اللفظين تصحيف .
(٤) هذا الشطر من شعر رؤبة بن العجاج .
(٥) هذا الشطر صدر بيت لامرئ القيس ، وعجزه : بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل .
(٦) فى المقابسات « فى منطقك » ؛ وهى أنسب .

ثم قال أبو سعيد : دع هذا ، هاهنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلىّ أكثرُ من علاقتها بالشكل اللّفظى ، ماتقول فى قول القائل : « زيد أفضل الإخوة » ؟

قال : صحيح . قال : فما [تقول (١) إن قال « زيد أفضلُ إخوته » ؟ قال : صحيح .

قال : فما] الفرق بينهما [مع الصِّحّة (٢)] فبَلَحَ (٣) وجَنّح وغصّ بريقه .

فقال أبو سعيد : أفتيتَ على غير بصيرة ولا استبانة ؛ المسألة الأولى جوابُك عنها صحيح وإن كنتَ غافلا عن وجه صحّتها ؛ والمسألة الثانية جوابُك عنها غيرُ صحيح وإن كنت أيضا ذاهلا عن وجه بطلانها .

قال متّى . بيّن لى ما هذا التهجين ؟

قال أبو سعيد : إذا حضرتَ الحلْقة (٤) استفدتَ ، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبيس ، مَع من عادته التمويه والتشبيه ؛ والجماعة تعلم أنّك أخطأتَ ، فلِمَ تدّعى أن النحوىّ إنما ينظر فى اللّفظ دون المعنى ، والمنطقىّ ينظر فى المعنى لا فى اللفظ ؟ هذا كان يصحُّ لو أنّ المنطقىّ كان يسكت ويجيل (٥) فكرَه فى المعانى ، ويرتّب ما يريد بالوهم السانح والخاطرِ العارض والحَدْس الطارىء ؛ فأمّا وهو يريغ أن يبرر (٦) ما صح له بالاعتبار والتصفّح إلى المتعلّم والمُناظِر ، فلابدّ له من اللفظ الّذى يشتمل على مراده ، ويكون طِباقا لغرضه ، وموافقا لقصده (٧) .

قال ابن الفرات لأبى سعيد : تَمّم لنا كلامك فى شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرةً لأهل المجلس ، والتبكيتُ عاملا فى نفس أبى بشر .

---

(١) هذه العبارة الموضوعة بين مربعين ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات وبها يستقيم المعنى .
(٢) هذه العبارة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات .
(٣) بلح : أعيى وعجز . وجنح . أى مال .
(٤) « المختلفة » .
(٥) « ويجيد » .
(٦) « يزن » .
(٧) « لضده » .

فقـال : مـا أكـرهُ مـن إيضـاح الجواب عن هذه المسألة إلاّ مَلَلَ الوزير ؛ فإن الكلام إذا طال مُلّ .

فقال ابن الفرات : ما رغبتُ في سماع كلامك وبيني وبين المَلَلِ عَلاقة ؛ فأما الجماعة فحرصُها على ذلك ظاهر .

فقـال أبو سـعيد : إذا قلت : « زيد أفـضل إخوتِه » لم يجـز ، وإذا قلت : « زيد أفـضل الإخوة » جاز ؛ والفصل بينهما أن إخوة زيد هم غيرُ زيد ، وزيدٌ خارج عن جملتهم . والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقـال : « من إخوة زيد » . لـم يجز أن تقـول : زيد وعمـرو وبكر وخـالد [وإنما [1] تقـول : بكر وعمـرو وخـالد] ولا يدخل زيدٌ في جملتهم ، فإذا كـان زيد خارجا عن إخوته صار غيرهم ، فلم يجز أن تقول : أفضل إخوته ، كما لم يجز أن تقول : « إن حمـارك أفرهُ [2] البغال » لأن الحمير غير البغال ، كما أن زيدا غيرُ إخوته ، فإذا قلت : « زيد خير الإخوة » جـاز ، لأنّه أحـد الإخـوة ، والاسم يقع عليه وعلى غيره ، فهو بعض الإخوة ، ألا ترى أنه لو قيل : « مَن الإخوة » ؟ عددتَه فيهم ، فقلتَ : « زيد وعمرو وبكر وخالد » فيكون بمنزلة قولك : « حمارك أفرهُ الحمير » لأنه داخل تحت الاسم الواقـع علـى الحمير . فلما كان على ما وصفنا جاز أن يضاف إلى واحد منكور يدل على الجنس ، فتقول : « زيد أفضل رجل » و « حمـارك أفرهُ حمـار » فيدلّ « رجل » على الجنس كمـا دلّ الرجال ؛ وكمـا في « عشرين درهما ومائة درهم » .

فقـال ابن الـفرات : ما بعد هذا البيـان مزيد ، ولقد جلّ علم النحو عندى بهذا الاعتبار وهذا الإسفار .

---

(١) هذه العبارة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات إذ بها يستقيم الكلام .

(٢) فى المقابسات « أفضل » ؛ والمعنى عليها يستقيم أيضا .

فقال أبو سعيد : معانى النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف فى مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخّى الصواب فى ذلك وتجنّب الخطأ من ذلك ، وإن زاغ شيء عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد ، أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم . فأما ما يتعلّق باختلاف لغات القبائل فذلك شيء مسلّم لهم ومأخوذ عنهم ، وكلٌّ ذلك محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطّرد على الأصل المعروف من غير تحريف ، وإنما دخل العُجب على المنطقيّين لظنهم أن المعانىَ لا تُعرَف ولا تُستوضَح إلا بطريقهم ونظرهم وتكلّفهم ، فترجموا لغةً هم فيها [1] ضعفاء ناقصون . وجعلوا تلك الترجمة صناعة ، وادّعَوا على النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى .

ثم أقبل أبو سعيد على متّى فقال : أما تعرف [2] يا أبا بشر أن الكلام اسم واقع على أشياء قد ائتلفتْ بمراتب ، وتقول [3] بالمثل : هذا ثوب والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوبا ، لأنّه نُسجَ بعد أن غزل ، فسَداته لا تكفى دون لُحْمته ولُحْمتُه لاتكفى دون سَداته ، ثم تأليفه [4] كنسجه ، وبلاغتُه كقِصارته [5] ورقّةُ سِلْكه كرِقّة لفظه ، وغِلَظُ غزله ككثافة حروفه ، ومجموع هذا كلّه ثوب ، ولكن بعد تقدمة كلّ ما يُحتاج إليه فيه .

قال ابن الفرات : سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى ، فإن هذا كلّما توالى عليه بَانَ انقطاعُه ، وانخفض ارتفاعه ، فى المنطق الذى ينصره ، والحقُّ الذى [لا [6]] يُبصره .

---

(١) عبارة الأصل : « فترجموا لغتهم فهما » ؛ وهو تحريف .
(٢) رواية المقابسات : « ألا تعلم » والمعنى عليه يستقيم أيضا .
(٣) عبارة المقابسات : « مثال ذلك أن تقول » والمعنى يستقيم عليه أيضا .
(٤) كذا فى المقابسات . والذى فى الأصل : « بالنقل » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : « لنضارته » ؛ وهو تحريف .
(٦) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل . وقد أثبتناها عن المقابسات .

قال أبو سعيد : ما تقول فى رجل يقول : « لهذا علىَّ درهم غير قيراط ؛ ولهذا الآخر علىّ درهم غيرُ قيراط » . قال : مالى علم بهذا النّمَط . قال : لست نازعا عنك حتى يصحّ عند الحاضرين أنّك صاحب مخرقة وزرّق [1] ، هاهنا ما هو أخفّ من هذا ، قال رجل لصاحبه : « بكم الثوبان المصبوغان » : وقال آخر : « بكم ثوبان مصبوغان » وقال آخر : « بكم ثوبان مصبوغين » بيّن هذه المعانى التى تضمّنها لفظٌ لفظ .

قال متّى : لو نثرتُ أنا أيضا عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالى .

قال [أبو سعيد] : أخطأت ، لأنك إذا سألتنى عن شىء أنظر فيه ، فإن كان له علاقة بالمعنى وصحّ لفظهُ على العادة الجارية أجبتُ ، ثمّ لا أبالى أن يكون موافقا أو مخالفا ، وإن كان غير متعلّق بالمعنى رددتُه عليك ، وإن كان متّصلا باللفظ ولكن على وَضْعٍ لكم فى الفساد على ما حشوتم به كتبَكم رددتُه أيضا لأنه لاسبيل إلى إحداث لغة مقرّرة بين أهلها .

ما وجدنا لكم إلاّ ما استعرتم من لغة العرب [كالسبب والآلة [2]] والسَّلْب والإيجاب والموضوع والمحمول والكون والفساد والمهمَل والمحصور وأمثلة لاتنفع ولا تُجدِى ، وهى إلى العِىّ أقرَب ، وفى الفهامة أذهَب .

ثم أنتم هؤلاء فى منطقكم على نقصٍ ظاهر ، لأنكم لا تفُون [3] بالكتب ولاهى مشروحة ، فتدّعون الشّعر ولاتعرفونه [4] وتذكرون [5] الخَطابة وأنتم عنها فى منقطَع التراب ؛ وقد سمعتُ قائلكم يقول : الحاجة ماسّة إلى كتاب البرهان .

---

(١) يريد بالزرق : الخداع كما يستفاد من كتب اللغة فقد ورد فى اللسان ومستدرك التاج « رجل زراق » أى خداع . ولم يذكر فى هذين الكتابين فعله ولا مصدره .

(٢) الزيادة التى بين مربعين عن المقابسات ومعجم الأدباء ..

(٣) كذا فى المقابسات . والذى فى الأصل : « تقولون » ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : « تذكرونه » ، وما أثبتناه عن المقابسات .

(٥) فى المقابسات « وتدعون » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .

فإن كان كما قال فلِمَ قُطِع الزمانُ بما قبله من الكتب ، وإن كانت الحاجة قد مسّت إلى ما قبل البرهان ، فهى أيضا ماسّةٌ إلى ما بعد البرهان ، وإلاَّ فلِمَ صنّف مالا يُحتاج إليه ويُستغنى عنه . هذا كلّه تخليط وزرْق وتهويل ورعد وبرق .

وإنما بودّكم [(١)] أن تَشغَلوا جاهلا ، وتستذلّوا عزيزا ؟ وغايتكم أن تهوّلوا بالجنس والنوع والخاصّة والفصل والعَرَض والشخص ، وتقولوا : الهَلِّيّة [(٢)] والأَيْنيّة والماهيّة والكيفيّة والكَميّة والذاتيّة والعَرَضيّة والجوهريّة والهَيُوليّةوالصورية والأَيْسية [(٣)] واللّيسيّة والنفسيّة ؟ ثم تتطاولون [(٤)] فتقولون : « جئنا بالسِّحْر » فى قولنا : « لا » فى شىء من « ب » و « ج » فى بعض « ب » ، ف « لا » فى بعض « ج » و « لا » فى كلّ « ب » و « ج » فى كل « ب » فإذن « لا » فى كل « ج » [(٥)] ؛ هذا بطريق الخُلْف ، وهذا بطريق الاختصاص .

وهذه كلّها خرافات وتُرّهات ، ومغالق وشبكات ؛ ومن جاد عقله وحَسُن تمييزه ولَطُف نظره وثقُب رأيه وأنارت نفسُه استغنى عن هذا كلّه – بعون الله وفضله – وجُودةُ العقل وحُسنُ التمييز ولُطف النظر وثقُوب الرأى وإنارةُ النفس من منائح الله الهنيّة ، ومواهبه السنيّة ، يختصّ بها من يشاء من عباده وما أعرف لاستطالتكم بالمنطق وجها ، وهذا الناشىء أبو العباس قد نَقَض عليكم وتتبّع طريقتكم ، وبيّن خطأكم ، وأبرز ضَعفكم ، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردّوا عليه [كلمة واحدة [(٦)]] مما قال ، وما زدتم [(٧)] على قولكم : لم يعرف غرضنا ولا وقف على مرادنا ، وإنّما تكلّم على وهم . وهذا منكم تَحاجُزٌ ونُكول ورضًى بالعجز وكُلول ، وكلٌّ ما ذكرتم فى

(١) فى الأصل : « قولكم » ؛ وهو تحريف .

(٢) الهلية والأينية : نسبة إلى « هل » و « أين » الاستفهاميتين ؛ والنسبة فى الألفاظ التى بعدهما معروفة .

(٣) الأيسية والليسية : الإثبات والنفى .

(٤) فى المقابسات : « يتمطون » أى بتشديد الطاء .

(٥) كذا فى الأصل ، ولعل صحة العبارة : لا « أ » فى شىء من « ب » و « ج » فى بعض « ب » فـ « أ » إذن لا فى « ج » و « أ » لا فى كل « ب » و « ج » فى بعض « ب » فـ « أ » إذن ليس فى « ج » كما يقتضيه علم المنطق .

(٦) العبارة التى بين مربعين عن المقابسات .

(٧) فى الأصل : « زدتكم » والكاف زيادة من الناسخ .

الموجودات فعليكم فيه [1] اعتراض هذا قولكم فى « يَفعل وينفعل » لم تستوضحوا فيهما مراتبَهما ومواقعَهما ، ولم تقفوا على مَقاسِمهما ، لأنكم قنعتم فيهما بوقوع الفعل من « يَفعل » وقبول الفعل من « يَنفعل » ، ومن وراء ذلك غاياتٌ خفيتْ عليكم ، ومعارفُ ذهبتْ عنكم وهذا حالكم فى الإضافة .

فأما البدل ووجوهه ، والمعرفةُ وأقسامُها ، والنكرة ومراتبها ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، فليس لكم فيه مقال و [لا] مجال .

وأنت إذا قلتَ لإنسان : « كن منطقيا » ، فإنما تريد : كن عقليًا أو عاقلا أو اعقِل ما تقول[2] لأنّ أصحابك يزعمون أن النّطق هو العقل ؛ وهذا قولٌ مدخول ، لأن النطق على وجوه أنتم عنها فى سَهو .

وإذا قال لك آخر : « كن نحويًا لغويًا فصيحا » فإنما يريد : افهم عن نفسك ما تقول ، ثم رُمْ أنْ يَفْهم عنك غيرُك .

وقدِّر اللفظَ على المعنى فلا يَفضُل عنه ، وقدِّر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه ؛ هذا إذا كنتَ فى تحقيق شىء على ما هو به . فأمّا إذا حاولتَ فَرْش المعنى وبَسْطَ المراد فاجْلُ اللفظ بالروادف الموضِّحة والأشباه المقرِّبة ، والاستعارات الممتعة ، وبيِّن [3] المعانىَ بالبلاغة ، أعنى لوِّحْ منها لشىء حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشّوق إليها ، لأن المطلوب إذا ظُفِر به على هذا الوجه عزّ وحلا ، وكَرُم وعلا ؛ واشرح منها شيئا حتّى لا يمكن أن يمتَرى [فيه] أو يُتعَبَ فى فهمه أو يُعرَّجَ عنه لاغتماضه ؛ فهذا المذهب يكون جامعا لحقائق الأشباه ولأشباه الحقائق ؛ وهذا بابٌ إن استقصيتُه خرج عن نَمَط ما نحن عليه فى هذا المجلس ؛ على أنّى لا أدرى أيؤثِّر فيك ما أقول أو لا ؟

---

(١) « عليه » .

(٢) « ما يكون » .

(٣) فى معجم الأدباء : « وسدد » .

ثم قال : حدثنا هل فصلتم [قطُّ] بالمنطق بين مختلفَين ، أو رفعتم الخلافَ بين اثنين ؛ أتُراك بقوّة المنطق وبرهانه اعتقدتَ أن الله ثالثُ ثلاثة ، وأن الواحد أكثرُ من واحد ، وأن الذى هو أكثرُ من واحد هو واحد ، وأن الشرع ما تذهب إليه ، والحقَّ ما تقوله (١) ؟ هيهات ، هاهنا أمور ترتفع عن دعوى أصحابِك وهذيانهم ، وتدِقُّ عن عقولهم وأذهانِهم .

ودَعْ هذا ، هاهنا مسـألة قد أوقعتْ خلافا ، فارفـع ذلك الخلاف بمنطقك . قال قائل : « لفلانٍ من الحائط إلى الحائط » ما الحكم فيه ؟ وما قَدْرُ المشهود به لفلان ؟ فقد قال ناس : له الحائطان معا وما بينهما . وقال آخرون : له [النصف من كلٍّ منهما . وقال آخرون (٢) : له] أحدهما . هات الآن آيتك الباهرة ، ومعجزتك القاهرة ، وأنّى لك بهما ، وهذا قد بان بغير نظرِك ونظرِ أصحابك .

ودع هـذا أيضا ؛ قال قائل : « مِن الكلام ما هو مستقيم حَسَن ، ومنه ما هو مستقيم محال ، ومنه ما هو مستقيم قبيح ، ومنه ما هو محال كذب ، ومنه ما هو خطأ » . فسّر هذه الجملة . واعترض عليه عالمٍ آخَر ، فاحكم أنت بين هذا القائل والمعترض وأرِنا قوّةَ صناعتك التى تميّز [بها] بين الخطأ والصواب ، وبين الحقّ والباطل ؟ فإن قلتَ : كيف أحكم بين اثنين أحدهما قد سمعتُ مقالتَه ، والآخرُ لم أحصِّل اعتراضَه ؟ قيل لك : استخرج بنظرك الاعتراض إن كان ما قاله محتملا له ، ثم أوضح الحقَّ منهما ، لأن الأصل مسموع لك ، حاصلٌ عندك وما يصحُّ بـه أو يَرِدُ عليه يجب أن يظهر منـك ، فلا تتعاسَرْ (٣) علينا ، فإن هذا لايخفى على [أحد (٤) من] الجماعة .

(١) « ما هو له » .
(٢) التكملة التى بين مربعين لم ترد فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن المقابسات .
(٣) « تتقلمش » .
(٤) كـذا فى المقابسـات . والذى فى الأصـل : « على مـن حضـرته » ؛ وهـو تحريف لا يستقيم به معنى الجملة .

فقد بان الآن أنّ مركّب اللفظ لا يَحُوز مبسوط العقل ؛ والمعانى معقولة ولها اتّصال شديد وبساطة تامّة ؛ وليس فى قوّة اللفظ من أىّ لغة كان أن يَملك ذلك المبسوط ويحيطَ به ، ويَنصِبَ عليه سُورا ، ولا يَدَعُ شيئا من داخله أن يخرج ، ولا شيئا من خارجه أن يَدخل ، خوفا من الاختلاط الجالبِ للفساد ، أعنى أنّ ذلك يَخلط الحقّ بالباطل ، ويشبِّه الباطلَ بالحقّ ؛ وهذا الذى وقع الصحيحُ منه فى الأوّل قَبْلَ وضع المنطق ، وقد عاد ذلك الصحيح فى الثانى بعد [1] المنطق ؛ وأنت لو عرفتَ تصرُّف العلماء والفقهاء فى مسائلهم ، ووقفتَ على غَوْرهم فى نظرهم وغَوْصِهم فى استنباطهم ، وحُسْنِ تأويلهم لِمَا يَرِدُ عليهم ، وسَعَة تشقيقهم للوجوه المحتمَلة والكنايات المفيدة والجهاتِ القريبة والبعيدة ، لحقَّرْتَ نفسَك ، وازدريتَ أصحابَك ، ولَكان ما ذهبوا إليه وتابعَوا عليه أقلَّ فى عينك من السُّها عند القمر ، ومن الحصا عند الجبل . أليس الكِنْدىُّ وهو علَم فى أصحابك يقول [2] فى جواب مسألة « هذا [3] من باب عدّ » . فعدَّ الوجوه بحسب الاستطاعة على طريق الإمكان من ناحية الوهم بلا ترتيب ، حتّى وضعوا له مسائلَ من هذا الشكل وغالطوه بها وأَرَوْه أنّها من الفلسفة الداخلة ، فذهب عليه ذلك الوضع ، فاعتقد فيه أنّه [صحيح وهو [4]] مريض العقل فاسد المزاج حائلُ الغريزة مشوَّشُ اللُّب .

قالوا له : أَخبرنا عن اصْطِكاك [5] الأَجرام ، وتَضاغُط الأركان ؟ هل يدخل فى باب وجوب الإمكان ؟ أو يخرج من باب الفُقْدان إلى ما يَخفَى عن الأذهان ؟

وقالوا له أيضا : ما نسبة الحركات الطبيعيّة إلى الصُّوَر الهَيُولانيّة ؟ وهل هى ملابسة للكيان فى حدود النظر والبيان ، أو مزايلةٌ لَه مزايَلة على غاية الإحكام ؟

---

(١) فى المقابسات « بهذا »

(٢) فى الأصل : « يقولون » ، والواو والنون زيادة من الناسخ .

(٣) فى الأصل : « عدم » ، وفى بعض المصادر الأخرى « عدة » وهى غير واضحة المعنى فى كلتا الروايتين ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٤) لم ترد هذه العبارة التى بين مربعين فى الأصل .

(٥) فى الأصل : « استقصاتك » ؛ وهو تحريف .

وقالوا له : ما تأثير فِقْدان الوِجدان فى عدم الإمكان عند امتناع الواجب من وجوبه فى ظاهرِ ما لا وجوب له لاستحالته فى إمكان أصله ؟ وعلى هذا فقد حُفظ جوابُه عن جميع هذا على غاية الرَّكاكة والضّعف [والفسادِ] والفسَالة والسُّخف . ولولا التوقِّى من التطويل لسردتُ ذلك كلَّه ، ولقد مرّ بى فى خَطِّه : التفاوت فى تلاشى الأشياء غيرُ مُحاطٍ به ، لأنّه يلاقى الاختلاف فى الأصول والاتفاقَ فى الفروع ؛ وكلُّ ما يكون على هذا النّهج فالنّكِرة تُزاحِم عليه المعرفة ، والمعرفةُ تُناقِض النّكِرة ، على أنّ النّكِرة والمعرفةَ من باب الألْبِسةِ العاريةِ من ملابس الأسرار الإلهِيَّة ، لا من باب الإلهيَّة العارضةِ فى أحوال البشرية .

ولقد حدثنا أصحابُنا الصابئون عنه بما يُضحِك الثكْلَى ويُشْمِت العدوّ ويغُرُّ الصَّديق ، وما وَرِث هذا كلَّه إلاّ من بركات يونانَ وفوائد الفلسفة والمنطق ونسأل الله عصمة وتوفيقا نهتدى بهما إلى القولِ الراجع إلى التحصيل ، والفعلِ الجارى على التعديل ، إنّه سميع مجيب .

هذا آخرُ ما كتبتُ عن علىّ بن عيسى الرّمّانى الشيخِ الصالحِ بإملائه . وكان أبو سعيد قد رَوَى لُمَعًا من هذه القصّة .

وكان يقول : لم أحفظ عن نفسى كلَّ ما قلتُ ، ولكن كتب ذلك أقوامٌ حَضروا فى ألواح كانت معهم ومحابرُ أيضا ؛ وقد اختلّ علىّ كثير منه .

قال على بن عيسى : وتقوَّض المجلس وأهلُه يتعجّبون من جأش أبى سعيد الثابت ولسانه المتصرف ووجهِه المتهلِّل وفوائده المتتابعة .

وقال الوزير ابن الفرات : عين الله عليك أيّها الشيخ ، فقد نَدَّيْت أكبادا وأقررتَ عيونا ، وبيّضتَ وجوها ، وحُكتَ طِرازا لا يبليه الزمان ، ولا يتطرّق إليه الحدثان .

قلت لعلى بن عيسى : وكم كانت سِنُّ أبى سعيد [1] فى ذلك الوقت ؟

---

(١) فى الأصل : « على بن عيسى » ؛ وهو خطأ من الناسخ .

قال : مولده سنة ثمانين ومائتين ، وكان له يومَ المُناظَرة أربعون سنة ، وقد عَبث الشَّيب بلَهازمه[١] مع السَّمْت والوَقَار والدِّين والجِدّ ، وهذا شِعار أهل الفضل والتقدّم ، وقلّ من تظاهر به أو تحلّى بحليته إلا جلّ فى العيون وعظم فى النفوس ، وأحبّته القلوب ، وجرت بمدحه الألسنة .

وقلت لعلىّ بن عيسى : أما كان أبو علىّ[٢] الفَسَوىُّ النحوىُّ حاضرَ المجلس ؟ قال : لا ، كان غائبا ، وحُدِّث بما كان ، فكان يكتم الحَسَد لأبى سعيد على ما فاز به من هذا الخَبَر المشهور ، والثناء المذكور .

فقال لى الوزير[٣] عند منقطَع هذا الحديث : ذكّرتنى شيئا قد دار فى نفسى مراراً ، وأحببت أن أقف على واضِحه ؛ أين أبو سعيد من أبى علىّ ، وأين علىّ بنُ عيسى منهما ، وأين ابنُ المراغىّ أيضا من الجماعة ؟ وكذلك المَرْزُبانىّ وابن شاذانْ وابن الورّاق وابن حَيّويه .

فكان من الجواب ، أبو سعيد أجمَعُ لشمل العلم ، وأنظَمُ لمذاهب العَرَب وأدخَلُ فى كلّ باب ، وأخرَجُ من كلّ طريق ، وألزَمُ للجادّة الوسطى فى الدِّين والخُلُق ، وأروَى فى الحديث ، وأقضَى فى الأحكام ، وأفقهُ فى الفتوى ، وأحضَرُ بركة على المختلفة ، وأظهَرُ أثرا فى المقتبسة . ولقد كتب إليه نوح بن نصر – وكان من أدباء ملوك آل سامان – سنة أربعين[٤] كتابا خاطبه فيه بالإمام وسأله عن مسائلَ تزيد على أربعمائة مسألة ، الغالب عليها الحروف ، وباقى ذلك أمثال مصنوعة على العرب شَكّ فيها فسأل عنها ؛ وكان هذا الكتاب مقرونا بكتاب الوزير البَلْعَمىّ خاطبه فيه بإمام المسلمين ، ضمّنه مسائل فى القرآن وأمثالا للعرب مشكلة .

---

(١) اللهازم : جمع لهزمة بكسر اللام ، وهى مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن ؛ أو هى العظم الناتىء فى اللحية تحت الأذن ، وهما لهزمتان ؛ ويريد هنا الشعر النابت عليهما .

(٢) أبو على الفسوى ، هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسى النحوى ، ولد بمدينة فسا سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وكان إمام وقته فى علم النحو وله فيه كثير من المؤلفات الوافية النافعة ، وتوفى فى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة .

(٣) يريد الوزير أبا عبد الله العارض .

(٤) أى وثلاثمائة .

وكتب إليه المَرْزُبان بن محمد مَلِكُ الدَّيْلَم مِن أَذْربيجانَ كتابا خاطبه فيه بشيخ الإسلام ، سأله عن مائة وعشرين مسألة ، أكثرها فى القرآن ، وباقى ذلك فى الروايات عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضوان الله عليهم .

وكتب إليه ابن حِنْزَابة من مصر كتابا خاطبه فيه بالشيخ الجليل ، وسأله فيه عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث المروىّ عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وعن السلف .

وقال لى الدارقُطْنىُّ سنة سبعين : أنا جمعتُ ذلك لابن حِنزَابة على طريق المعونة .

وكتب إليه أبو جعفر مِلكُ سجستان على يد شيخِنا أبى سليمان كتابا يخاطبه فيه بالشيخ الفَرد ، سأله عن سبعين مسألة فى القرآن ، ومائة كلمة فى العربية وثلاثمائة بيت من الشعر ، هكذا حدّثنى به أبو سليمان ؛ وأربعين مسألة فى الأحكام وثلاثين مسألة فى الأصول على طريق المتكلّمين .

قال لى الوزير : وهذه المسائل والجواب عنها عندك ؟ قلتُ : نعم . قال : فى كم تقع ؟ قلتُ : لعلّها تقع فى ألف وخمسمائة ورقة ، لأنّ أكثرها فى الظهور . قال : ما أحوَجَنا إلى النظر فيها والاستمتاع بها والاستفادة منها ! وأين الفراغ وأين السكون ؟ ونحن كلَّ يوم نُدفَع إلى طامّة تُنسى ما سلف ، وتُوعِد بالداهية اللهم هذه ناصيتى بيدك ، فتولّنى بالعصمة ، واخصصنى بالسلامة ، واجعل عقباىَ إلى الحسنى .

ثم قال : صل حديثك .

قلت : وأما أبو علىّ [1] فأشدّ تفرّدا بالكتاب [2] وأشدُّ إكبابا عليه ، وأبعَدُ من كلّ ما عداه ممّا هو عِلمُ الكوفيّين ، وما تَجاوزَ فى اللّغة كُتُبَ أبى زيد ، وأطرافا ممّا لغيره ؛ وهو متّقد بالغيظ على أبى سعيد ، وبالحسد له ، كيف تمّ له تفسيرُ كتاب سيبويه من أوّله إلى آخره بغريبه وأمثاله وشواهده وأبياته (ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) ، لأنّ هذا شىء ما تمّ للمبرّد ولا للزجّاج ولا لابن السّراج ولا لابن درستويه مع سعة علمهم ، وفيضِ كلامهم .

---

(١) يريد أبا على الفسوى السابق ذكره .

(٢) يريد بالكتاب كتاب سيبويه .

ولأبى علىّ أطراف من الكلام فى مسائلَ أجاد فيها ولم يأتلِ ، ولكنه قَعد على الكتاب (١) علَى النّـظْم المعروف .

وحدّثنى أصحابنا أن أبا علىّ اشترى شرحَ أبى سعيد فى الأهواز فى توجّهه إلى بغداد سنة ثمان وستين - لاحقا بالخدمة المرسومة به ، والنّدامة (٢) الموقوفة عليه - بألفى درهم ؛ وهذا حديث مشهور ، وإن كان أصحابُه يأْبَون الإقرار به - إلاّ من زعم أنّه أراد النقض عليه ، وإظهارَ الخطأ فيه .

وقد كان الملِك السعيد - رضى الله عنه - همّ بالجمع بينهما فلم يُقضَ له ذلك ، لأنّ أبا سعيد مات فى رجب سنة ثمان وستّين وثلاثمائة .

وأبو علىّ يشرب ويتخالَع ويفارق هدْىَ أهل العلم وطريقةَ الربانيّين (٣) وعادةَ المتنسّكين .

وأبو سعيد يصوم الدهر ، ولا يصلّى إلاّ فى الجماعة ، ويقيم على مذهب أبى حنيفة ، ويلى القضاءَ سنين ، ويتألّه (٤) ويتحرّج ، وغيرُه بمعزل عن هذا ؛ ولولا الإبقاء على حُرْمة العلم ، لكان القلم يجرى بما هو خافٍ ويخبر بما هو مُجَمْجَم (٥) ولكنّ الأخذ بحكم المروءة أولى ، والإعراض عما يجلب اللائمة أحرَى .

وكان أبو سعيد حَسَنَ الخطّ ، ولقد أراده الصَّيْمَرِىُّ أبو جعفر على الإنشاء والتحرير فاستعفَى وقال : هذا أمر يُحتاج فيه إلى دُرْبة وأنا عارٍ منها ، وإلى سياسةٍ وأنا غريب فيها * ومن العَناء رياضةُ الهَرِمِ *

---

(١) يريد بالكتاب كتاب سيبويه . يقول : إنه اقتصر على دراسته على الطريقة المعروفة .

(٢) الندامة ، أى المنادمة على الشراب ، بدليل ما يأتى بعد فى سطر (١) من صفحة ١٣٢

(٣) الربانى : المتأله العارف بالله . وفى الأصل : « الديانين » ولم نجده فى كتب اللغة بهذا المعنى .

(٤) يتأله ، أى يتعبد ويتنسك .

(٥) مجمجم : من جمجم الكلام فى نفسه إذا لم يبينه يريد به المستتر الخافى .

وحدّثنا النّصْرى (١) أبو عبد الله – وكان يكتب النوبة للمهلّبىّ – بحديث مفنّد (٢) لأبى سعيد هذا موضعه ، قال : كنتُ أخطّ بين يدى الصَّيْمَرِىّ أبى جعفر محمد بن أحمد بن محمدّ ، فالتمسنى يوما لأن أجيب ابن العميد أبا الفضل عن كتاب فلم يجدنى ، وكان أبو سعيد السيرافىُّ بحضرته ؛ فظَنّ (٣) أنّه بفضل علمه أقومُ بالجواب من غيره ، فتقدّم إليه أن يكتب ويجيب ، فأطال فى عمل نسخة كثُر فيها الضرب والإصلاح ، ثم أخذ يحرّر ، والصَّيْمَرِىُّ يقرأ ما يكتبه ، فوجده مخالفا لجارى العادة لفظا ، مباينا لما يريده (٤) ترتيبا .

قال : ودخلت فى تلك الحال ، فتَمثَّل الصَّيْمَرِىُّ بقول الشاعر :

يابارىَ القوسِ برْيا ليس يُصلِحه ‌ ‌ لاتَظلم القوسَ ، وأعطِ القوسَ باريها

ثم قال لأبى سعيد : خفِّفْ عليك أيّها الشيخ وادفع الكتاب إلى أبى عبد الله تلميذك ليجيب عنه ، فخجل من هذا القول ، فلمّا ابتدأتُ الجواب من غير نسخة تحير منّى أبو سعيد ، ثم قال : أيّها الأستاذ ، ليس بمستنكرٍ ما كان منّى ، ولا بمستكثرٍ ما كان منك ، إنّ مال الفَىْءِ لا يصحّ فى بيت المال إلا بين مستخرِج (٥) وجَهْبَذٍ ، والكتّاب جهابذةُ الكلام ، والعلماءُ مستخرجوه . فتبسّم الصَّيْمَرِىُّ وأعجبه ما سمع ، وقال على كلّ حال ما أخليتَنا من فائدة .

وكان أبو سعيد بعيدَ القَرين ، لأنّه كان يُقرأ عليه القرآنُ والفقهُ والشروطُ والفرائض والنحو واللغة والعَروض والقوافى والحسابُ والهندسة والحديث والأخبار وهو فى كل هذا إمّا فى الغاية وإما فى الوسط .

---

(١) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ج ٨ ص ١٨٣ طبع الحلبى . والذى فى الأصل : البقرى ؛ وهو تحريف .
(٢) « معد » .
(٣) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ج ٨ ص ١٨٣ طبع الحلبى . والذى فى الأصل : « فبان » .
(٤) فى معجم الأدباء : « المأثورة » .
(٥) مستخرج الأموال ، أى جابيها ومحصلها . والجهبذ : الناقد العارف بالجيد والردىء .

وأما على بن عيسى (١) فعالى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعَروض والمنطق ، وعيبَ به ، إلا أنه لم يَسلُك طريقَ واضع المنطق ، بل أفرَدَ صناعة ، وأظهر بَراعة ، وقد عمل فى القرآن كتابا نفيسا ، هذا مع الدِّين الثخين ، والعقل الرزين .

وأمّا ابن المراغىّ (٢) فلا يَلحَق بهؤلاء ، مع براعة اللفظ ، وسعة الحفظ ، وعزّة النفس وبلل(٣) الريق ، وغزارة النَّفْث ، وكثرة الرواية ؛ ومن نظر فى كتاب البهجة له عرف ما أقول ، واعتقد فوق ما أصف ، ونَحَلَ (٤) أكثر ممّا أَبذُل .

وأما المرزُبانىّ (٥) وأُبن شاذان وأبن القِرْمِسِينىّ وأُبن حَيُّويه (٦) فهم رواة وحَمَلة ليس لهم فى ذلك نَقْطٌ ولا إعجام ، ولا إسراج ولا إلجام .

فقال : فصِّلْ حديثك [عن (٧)] هؤلاء بحديث أصحابنا الشعراء ، صف لى جماعتهم ، واذكر لى بضاعتهم ، وما خصّ كلٌّ واحد منهم . قلتُ : لست من الشعر والشعراء فى شىء ، وأكره أن أخطو على دَحْض (٨) ، وأحتسىَ غير محض . قال : دع هذا القول ، فما خُضْنا فى شىء إلى هذا الوقت إلاّ على غاية ما كان فى النفس ، ونهاية ما أفاد من الأنس ، فكان من الوصف :

(١) يريد بعلى بن عيسى أبا الحسن الرمانى وهو إمام فى العربية ، كان علامة فى الأدب ، وإماما فى النحو ، بصيرا بالمقالات ، معتزليا ، مات سنة ٣٨٤ .

(٢) ابن المراغى هو أبو الفتح محمد بن جعفر الهمدانى وكان معلما فى دولة أبى منصور ، وكان حافظا نحويا بليغا إخباريا فى نهاية الشرف والحرية ؛ وله من الكتب كتاب البهجة على مثال كتاب الكامل .

(٣) بلل الريق : كناية عن الاتساع فى الكلام .

(٤) « نحل » الخ أى أضاف إليه من الفضائل أكثر مما أبذل فى وصفه .

(٥) المرزبانى ، هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى ، أصله من خراسان ، كان من الأدباء الإخباريين المصنفين ، وله كتب كثيرة فى الأدب والتاريخ عدها صاحب الفهرست وقال : إنه كان صادق اللهجة ، واسع المعرفة بالروايات ، كثير السماع ، ومات سنة ٣٧٨ .

(٦) ابن حيويه ، هو محمد بن حيويه بن المؤمل ، عالم نحوى من أهل همذان مات سنة ٣٧٣ .

(٧) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل .

(٨) على دحض ، أى على مزلقة ومزلة للأقدام .

أما السَّلاَمِيّ (١) فهو حلو الكلام ، متَّسق النظام ، كأنَّما يَبسم عن ثغر الغمام خفيُّ السرقة ، لطيفُ الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المَغارس ، جميلُ الملابس ؛ لكلامه لَيْطَةٌ (٢) بالقلب ، وعبثٌ بالرُّوح ، وبَردٌ على الكبد .

وأمَّا الحاتميُّ (٣) فغليظ اللَّفظ ، كثير العُقَد ، يحبُّ أن يكون بدويا قُحًّا ، وهو لم يَتمّ حَضَريًّا ؛ غزيرُ المحفوظ ، جامعٌ بين النظم والنثر ، وعلى تشابه بينهما في الجفوة (٤) وقلّة السَّلاسة ، والبعد من المَسْلوك ، بادى العورة فيما يقول ، لكأنما يبرز ما يخفى ، ويكدِّر ما يُصفى ، له سَكْرة في القول إذا أفاق منها خُمر (٥) وإذا خُمرسَدِر (٦) ؛ يتطاول شاخصا ، فيتضاءل متقاعسا ؛ إذا صدق مَهين ، وإذا كَذَب فهو مَشين .

وأما ابن جَلَبات (٧) فمجنون الشِّعر ، متفاوت اللَّفظ ، قليل البديع ، واسع الحيلة ، كثير الزَّوَق (٨) ، قصير الرِّشاء (٩)، كثير الغُثاء (١٠) ؛ غرُّه نفاقُه (١١) ونَفَّقَه نفاقه .

---

(١) السلامى : من أشعر أهل العراق ، عربى الأصل من بنى مخزوم ، ولد بكرخ بغداد سنة ٣٣٦ واتصل بالصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهى ومدحهما ، وقد روى له صاحب اليتيمة كثيرا من شعره ، مات سنة ٣٩٤ .

(٢) ليطة بالقلب ، أى التصاق به وتعلق .

(٣) هو محمد بن الحسين الحاتمى ، مدح الخليفة القادر بالله ؛ وله الرسالة الحاتمية التى شرح فيها ما جرى بينه وبين المتنبى ، مات سنة ٣٨٨ .

(٤) عبارة الأصل : « على تشابه بينهما فى الهوة وقلة السياسة والبعد من الشكوك » ؛ وفى هذا الكلام تحريف لا يستقيم به المعنى فى ثلاثة ألفاظ ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٥) خمر ، أى أصيب بالخمار ، وهو ألم فى الرأس وصداع يعقبان السكر . والكلام هنا على طريق الاستعارة .

(٦) سدر : تحير . أو لم يبال ما صنع ولم يهتم . وكلا التفسيرين يستقيم به المعنى .

(٧) فى الأصل : « ابن الحليات » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا . وهو أبو القاسم على بن جلبات ذكره صاحب اليتيمة فى الجزء الثانى ص ٢٧٠ وروى شيئاً من شعره .

(٨) فى الأصل : « الرزق » ؛ وهو تحريف . وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا ، فانه بصدد الكلام فى الشعر لا فى الرزق . والزوق بالتحريك : جمع زاووق ، وهو ما يحسن به الشيء ويزين ، والمراد هنا ما يحسن به الشعر تحسينا ظاهريا . والزاووق فى الأصل : الزئبق ، وكان يدخل فى التصاوير ، ولذلك قالوا لكل مزين : مزوق .

(٩) الرشاء : الحبل الذى يستقى به ، والمراد هنا قصر باعه فى الشعر وقصوره عن الإطالة .

(١٠) الغثاء فى الأصل : البالى من ورق الشجر المخالط زَبَد السيل .ويريد به هنا ما لا فائدة فيه ، ولا يعتد به .

(١١) النفاق بفتح النون : الرواج . ونفّقه بتشديد الفاء : روّجه . والمراد رواج شعره وانتشاره بين الناس ، وعبارة الأصل : « عزه بفاقة وتفقه بفاقة » وفى كلتا الجملتين تصحيف . هذا إلى أنهما على هذا الوضع لا يستقيم بهما السجع الذى يريده المؤلف كما يظهر .

وأما الخالع (١) فأديب الشعر ، صحيحُ النَّحت ، كثيرُ البديع ، مستوى (٢) الطريقة ، متشابهُ الصِّناعة ، بعيدٌ من طَفْرة المتحيِّر ، قريبٌ من فرصة المتخيِّر ؛ كان ذو الكفايتين يقدِّمه بالرِّىِّ ، وَيقبلَه على النَّشْر والطَّىِّ .

وأمّا مَسْكُوَيه فلطيف اللفظ ، رَطْبُ الأطراف ، رقيق الحواشي ، سهلُ المأخذ ، قليلُ السَّكْب ، بطئُ السَّبْك ؛ مشهورُ المعانى ، كثير التوانى ؛ شديدُ التَّوَقِّى ، ضعيفُ الترقِّى ؛ يَرِد أكثرَ ممّا يَصدُر ، وَيتطاوَلُ جُهده ثم يَقصُر ؛ ويطير بعيدا ويقع قريبا ، ويَسقِى من قبل أن يَغرِس ، ويمتَحُ (٣) من قبل أن يُميه ؛ وله بعد ذلك مآخذُ كشَدْوٍ (٤) من الفلسفة ، وتأتٍ (٥) فى الخدمة ، وقيامٍ برسوم النِّدامة (٦) ؛ وسُنَّة (٧) فى البخل ، وغرائبُ من الكذب ؛ وهو حائل (٨) العقل لشَغفه بالكيمياء .

وأمّا ابن نُباتة (٩) فشاعر الوقت ، لا يَدفَع ما أقول إلا حاسد أو جاهل

---

(١) هو أبو على الحسن بن على الخالع شاعر من شعراء الوزير أبى نصر سابور بن أزدشير وهو من شعراء اليتيمة .

(٢) فى الأصل : « مستوسق » ، وهو تحريف . وسياق الكلام الوزير الكلام يقتضى ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد : « متشابه » الخ .

(٣) متح الدلو ومتح بها : استخرجها من البئر عند الاستقاء ، وأماه الحافر إماهة : بلغ الماء واستخرجه من الأرض . والكلام كله جار على طريق الاستعارة ، يشير بهذه العبارة والتي قبلها إلى أنه يقدم ما حقّه التأخير والعكس .

(٤) شدا شدوا ، أخذ طرفا من العلم والأدب .

(٥) التأتي : التلطف .

(٦) الندامة بكسر النون : حرفة المنادمة على الشراب .

(٧) « وثيقة » .

(٨) حائل العقل ، أى متغير متحول من الاستواء إلى العوج .

(٩) ابن نباتة السعدي ، هو عبد العزيز بن محمد بن نباتة من شعراء سيف الدولة بن حمدان ، واتصل كذلك بابن العميد ومدحه ؛ ولد سنة ٣٢٧ ومات ببغداد سنة ٤٠٥

أو معاند ، قد لَحِق عصابةَ (سيف الدولة) وعَدَا معهم ووراءهم ، حَسَنَ الحذْو على مثال سكّان البادية ، لطيفُ الائتمام بهم ، خفيُّ الـمَغاص في ودايهم ، ظاهرُ الإطلال على ناديهم ، هذا مع شُعْبة من الجنون وطائفٍ من الوَسْواس .

وأمّا ابن حجاج [١] فليس من هذه الزُّمرة بشيء ، لأنّه سخيفُ الطريقة بعيدٌ من الجدّ ، قريبٌ في الهزل ، ليس للعقل مِنْ شعره مَنال [٢] ، ولا له في قَرْضِه [٣] مِثال ، على أنّهُ قويم اللّفظ ، سهلُ الكلام ، وشمائلُه نائيةٌ بالوَقار عن عادته الجارية في الخَسار ؛ وهو شريك ابن سُكَّرة في هذه الغَرامة [٤] ، وإذا جدّ أَقْعَى ، وإذا هزَل حكَى الأفْعى .

وله مع ذي الكفايتين مناظَرة طيّبة . قال : ما هي ؟ قلتُ : لما ورد ذو الكفايتين سنة أربع وستين وهزم الأتراك مع أفْتَكين [٥] ، وكان من الحديث ما هو مشهور ، سأل عن ابن حجاج – وكان متشوقا له لـمَا كان يُقرأ عليه مِن قَوافيه [٦] ، فأحَبَّ أن يلقاه لأنّه ليس الخبر كالمعاينةَ ، والمسموع والمبصَر بالأنثى والذكر ، ينزع كلُّ واحد منهما إلى تمامه فلمّا حضره أبو عبد الله احتبَسَه للطعام ، وسمع كلامَه ، وشاهدَ سَمْتَه ، واستَحلَى شمائله ، فقام من مجلسه ، فلمّا خلا بـه قال : ياعبد الله ، لقد والله تُهْتُ [٧] عَجَبًا منك ، فأمّا عَجَبي بك فقد تقدّم ، لقد كنت أَفْلِي ديوانَك ، فأتمنّى لقاءَك ، وأقول: مَن صاحب هذا الكلام ، أَطْيشُ طائش ، وأخفُّ خفيف ، وأَغرَمُ غارم ، وكيف يجالَس من يكون في هذا الإهاب ؟ كيف يقارَب من ينسلخ من ملابس الكتّاب وأصحاب الآداب ، حتّى شاهدتُك الآن ، فتهالكتُ على وقارك وسكونِ أطرافك ، وسكوت

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج ، شاعر ماجن في شعره مشهور ، اتصل بالوزير المهلبي وسابور ابن أزدشير وعضد الدولة وابن عباد وابن العميد ، لشعره منتخبات في اليتيمة وفي المتحف البريطاني وفي مكتبة باريس ، وقد مات سنة ٣٩١ .

(٢) « مثال » .

(٣) « عرصته » .

(٤) الغرامة : الخسران .

(٥) في الأصل : « الوركين » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن الكامل لابن الأثير وغيره .

(٦) في الأصل : « من فيه » بسقوط القاف والواو والألف ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا إذ به يستقيم الكلام .

(٧) تهت ، أي تحيرت .

لفظِك ، وتناسُبِ حركاتِك ، وفرطِ حيائك وناضرِ ماءِ وجهِك ، وتعادُلِ كُلِّك (١) وبعضِك ، وإنك لمن عجائب خلْقِ الله وطُرَفِ عباده (٢) ، والله ما يصدِّق واحد أنّك صاحب ديوانك ، وأنّ ذلك الديوان لك ، مع هذا التنافى الّذى بين شِعرِك وبينك فى جدك . فقال أبوعبد الله : أيها الأستاذ ، وكان عجبى منك دون عجبك منى ، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجب منك . قال لأنى قلت : إذا ورد الأستاذ فسألقَى منه خُلُقا جافيا وفَظّا (٣) غليظا وصاحب رواسير (٤) وآكِل كوامخ (٥) وجبليًّا ديلميّا متكاثبا متعاظما ، حتى رأيتُك الآن وأنت ألطف من الهواء ، وأرقُّ من الماء ، وأغزَلُ من جميل (٦) بن مَعمَر ، وأعذَبُ من الحياة ، وأرزَنُ من الطَّوْد وأغزَرُ من البحر وأبهى من القمر ، وأندَى من الغَيث ، وأشجعُ من اللَّيْث ، وأنطقُ من سَحْبان ، وأندَى من الغَمام ، وأنفَذُ من السهام ، وأكبرُ من جميع الأنام . فقال أبو الفتح وتبسّم : هذا أيضا من ودائع (٧) فضلِك ، وبواعثِ تفضّلك .

ووصلَه وصرفَه .

قالَ (٨) : لم يكن هذا الحديث عندى .

وأما بشر بن هارون فليس من هذه الطبقة فى شىء ، لكنه يَقرُص فيحُزّ (٩) ويَشُمّ فيهُزّ ،

---

(١) فى الأصل : « بجلك » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل من هذه الكلمة العين والباء ، ورسمت الهاء بعيدة عنها .

(٣) « وعفطا » .

(٤) فى الأصل : « رواصير » .

(٥) الكوامخ : جمع كامخ بفتح الميم ، وهو إدام يؤتدم به يقال له : المرّىّ ، ويقال : هو الردئ منه ، وقيل : هو خبز بخل معرب « كامه » بالفارسية ، وخصه بعضهم بالمخللات التي تستعمل لتشهي الطعام .

(٦) جميل بن معمر ، هو المعروف بجميل بثينة العذرى .

(٧) من ودائع فضلك ، أى من فضلك الذي تودعه لدينا فنحفظه لك ونؤديه إليك جزاء وفاقا .

(٨) قال ، أي الوزير أبو عبد الله العارض .

(٩) في الأصل : « يقرض فيخر » ، وهو تصحيف في كلتا الكلمتين . ويريد بهذه العبارة والعبارتين اللتين بعدها أن أثره بالغ غايته في الهجاء .

ويجرح فيُجهز ؛ والـمَدْهوُون (١) منه كثير ؛ « وأصحابنا (٢) يستحسنون قول بن الحجاج في الوزير حين يقول :

لله درُّ الحسين من قمر رُدَّت إليه وزارة الشمس

فقال : إن قبلتُ هذا منهم خفتُ أن يقال : مادح نفسه يقرئك السلام ؛ وما أصنع بهذا البيت وهو مضموم إلى كلّ بيت سخيف في القصيدة » .

ثم قال : وجب أن نصف قبل هذا عصابة العلماء ، فلم تركنا ذكرهم ونحن لانخلو فى حديثهم من غرَّة لائحة ، وفائدة نافعة ، وصوابٍ زائد فى العقل وفضيلة على الأدب ، وحلمٍ يُزدان به فى وقت الحاجة ، وحكمةٍ يستعان بها فى داهمَة ورأى يكون مَقيلا للتمييز عند تهجيرنا به .

قلتُ : أما أبو عبد الله الجُعَل (٣) فقد شاهدتَه . قال : صدقتَ ، ولكن لم أقف على مذهبه ودُخْلته وسيرته فى اُعتقاده .

قلتُ : كان الرجل ملتهب الخاطر ، واسعَ أطراف الكلام ، مع غثاثة اللّفظ ، وكان يرجع إلى قوّة عجيبة فى التدريس ، طول نَفَس فى الإملاء ، مع ضيق صدر عند لقاء الخصم ومُعاركة القِرْن ، بعيد العهد بالـمِصاع والدفاع والوِقاع ، وكان سببُ هذا الجبن والخَوَر قلّةَ الضّراوة على هذه الأحوال ، ولقد خَزِىَ فى مَشاهد عظيمة .

وأمّا يقينه فكان ضعيفا ، وأما سيرته فكانت واقفةً على حبّ الرياسة وبذل المال والجاه إذا حضرا ، مع تعصّب شديد لمن قدّمه وأحبّه ، وإنحاءٍ مفرط على من عاداه ، وكان خَوضُه فى الدوَل

(١) المدهورن ، أى المبتلون بالدواهى منه .

(٢) الظاهر أن هذا الكلام الذى بين هاتين العلامتين مؤخر عن موضعه وموضعه الكلام في ابن حجاج السابق ذكره إذ لا مناسبة بينه وبين ما هنا .

(٣) في الأصل « جفل » ، ولعل صوابه ما أثبتنا . والجعل ، هو أبو عبد الله الحسين بن علي ، أصله من البصرة وبها ولد سنة ٣٠٨ وانتهت إليه الرياسة في علم الكلام فى عصره ، وكان كذلك فقيها ، وله كتب في الكلام في الفقه ، من أشهر كتبه فى الكلام كتاب نقض كلام الراوندى ونقض كلام الرازى . مات ببغداد سنة ٣٩٩ .

والولايات – ولهذا رغب عنه [١] الواسطىّ وكان أخا ورع ودين – وقال [٢] : هذا منفّر [٣] عن الدين والمذهب ، ودافعٌ [٤] للناس عن القول بالحق ، وطارح للشبهة فى القلوب .

وكان يجهر بهذا وأشباهه ، ولكن كان جاه الرجل لا يُنتقَص بهذا القدر وركنُه لا يتخلخل على هذا الهدّ ، لأسباب انعقدت له ، وأصحاب ذبّوا عنه .

وأما ابن الملاّح فشيخ حسن المعرفة بالمذهب ، شديد التوقّى ، محمود القناعة ظاهر الرضا ، تدُل [٥] سيرته الجميلة على أنّه حسَن العقيدة .

وأمـا ابن المعلّم [٦] فحَسَـن اللّسـان والجدَل ، صبور على الخصم ، كثيرُ الحيلة ظنينُ [٧] السرّ ، جميل العلانية .

وأمـّا أبو إسحق النصيبى فدقيق الكلام ، يشكّ فى النبوّات كلّها ، وقد سمعتُ منه فيها شُبَها ، ولغُتَه [٨] معقّدة ، وله أدب واسع ، ولقد أضلّ بهمذان كاتبَ فخر الدولة ابنَ المرزبان . وحمله على قلّة الاكتراث بظلم الرعيّة ، وأراه أنه لا حرج عليه فى غبْنِهم لأنهم بهائم ، وما خرج من الجبل حتى افتضح .

وأما ابن خيران [٩] فشيخ لا يعدو الفقه ، وفيه سلامة .

---

(١) « فيه » .
(٢) وقال ، أى الواسطي .
(٣) « منقر » .
(٤) « ونافع » .
(٥) « يدل » .
(٦) ابن المعلم ، هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان ، انتهت إليه رياسة الشيعة الإمامية فى الفقه والكلام والآثار ولد سنة ٣٣٨ .
(٧) ظنين ، أى متهم .
(٨) « ولقبه » .
(٩) هو أبو علي الحسين بن صالح بن خيران ، أحد فقهاء عصره ، ألف في الفقه كتاب « اللطيف » وكتاب « المقدمات » .

وأمـا الدّاركى [1] فقد اتخذَ الشـهادة مكسبَة ، وهو يأكل الدنيا بالدين ، ويغلب عليه اللّواط ، ولا يرجع إلى ثقة وأمانة ، ولقد تهتّك بنيْسابورَ قديما ، وببغداد حديثا ، هذا مع القَدامة والوخامة ، ولقد ندّ بجُعْل [2] غلام ، وهو اليوم قاضى الرى ، وابن عبّاد يكنُفه ويقرّبه ليكون داعية له ونائبا عنه ، ليس له أصل وهو من سواد همذان ، وأبوه كان فلاّحا ، ولقد رأيتُه ، إلا أنّه يأتى لابن عباد فى سَمْته ولزوم ناموسه حتى خفّ عليه ، وهو اليوم قارون ، وقد علت رتبته فى الكلام حتّى لا مزيد عليها ، إلا أنه مع ذلك نَغِل [3] الباطن ، خبيث الخبء ، قليل اليقين ، وذلك أن الطريقة التى قد لزموها وسلكوها لا تفْضى بهم إلا إلى الشك والارتياب ، لأن الدِّين لم يأت بكَمّ وكَيْفٍ فى كلّ باب ، ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصارِ الأثر ، مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر ، والقلبُ الخالى من الشبهة أسلم من الصدر المحشوّ بالشكّ والريبة ، ولَم يأت الجدَل بخير قطّ . وقد قيل : من طلب الدين بالكلام أُلْحد ، ومن تتبع غرائب الحديث كذب ، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر . وما شاعت هذه الوصيّة جزافا ، بل بعد تجربة كرّرها الزمان ، وتطاولت عليهـا الأيام ، يتكلم أحدهم فى مائة مسألة ويورد مائة حجّة ثم لا ترى عنده خشوعا ولا رقة ، ولا تقوى ولا دَمعة ، وإن كثيرا من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجّون ولا يناظِرون ولايُكرَمون [4] ولا يفضّلون خيرٌ من هذه الطائفة وألينُ جانبا ، وأخشع قلبا ، وأتقى لله عزّ وجلّ وأذكَرُ للمَعاد ، وأيقن بالثواب والعقاب ، وأقلق من الهفوة ، وألوذُ [5] بالله من صغير الذنب وأرجع إلى الله بالتوبة ، ولم أر متكلّما فى مدّة عمره بكى خشية ، أو دمعت عينُه خوفا ، أو أقلَع عن كبيرة رغبة ، يتناظرون مستهزئين ويتحاسدون متعصّبين ، ويتلاقَون متخادعين ، ويصنِّفون

---

(١) لعله يريد أبا القاسم الداركى ، نسبة إلى دارك ، قرية في أصفهان ، أحد فقهاء الشافعية وهو بغدادى ، أقام بنيسابور مدة ، وانتهى التدريس إليه ببغداد ، وأخذ عنه عامة شيوخها ؛ مات سنة ٣٧٥ .

(٢) فى الأصل : « ندر » ، ولعل صوابه ما أثبتنا . وند : هرب .

(٣) « ثعل » . والنغل : الفاسد السيئ .

(٤) « يلزمون ولا يتفضلون » .

(٥) هذه الكلمة مطموسة بالأصل .

متحامـلين ، جدّ الله عروقهم ، واستأصل شأفتهم ، وأراح العباد والبلاد منهم ، فقد عظمت البلوى بهم ، وعظمت آفتهم على صغارِ الناس وكبارهم ودَبَّ داؤهم ، وعسر دواؤهم ، وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعضِعا وساكنه متجعجِعا [1] .

قال : فما تقول فى ابن الباقلاّنى؟ [2] . قلتُ :

فما شرُّ [3] الثلاثة أمّ عمرو   بصاحبِك الّذى لا تصبَحِينا

يزعم أنه ينصـر السنّة ويُفحم المعتـزِلة وينشر الرواية ، وهو فى أضـعاف ذلك على مـذهب الخُرَّميّة ، وطرائق الملحِدة . قال : والله إن هذا لمن المصائب الكبار والـمِحَن الغلاظ ، والأمراض التى ليس لها علاج .

ثم قـال : إنّ الليل قـد ولّى ، والنعـاس قـد طرق العين عـابثـا ، والرأى أن نسـتـجمَّ لننشَط ، ونستريح لنتعب ، وإذا حضرت فى الليلة القابلة أخذنا فى حديث الخلق والخُلق - إن شاء الله - وأنا أزوِّدك هذا الإعلام ليكون باعثاً لك على أخذ العَتاد بعد اختماره فى صدرك ، وتَحيل الحالَ به عند خوضك وفيضك ولا تجبنْ جبن الضعفاء ، ولكن قُلْ واتّسع مجاهرا بما عندك متفقا ممّا معك . وانصرفتُ .

الليلة الخامسة عشرة

وجرى مرّة كلامٌ فى الممكن ، فحكيتُ عن ابن يعيش الرَّقىِّ فصلا سمعته يقوله ، لا بأس برسمه فى هذا الموضع ، فإنّ التشاور فى هذا الحرف دائم متّصل وينبغى لَنا أن نَبحث عنه بكلّ زَحْف وحَبْو [4] ، وبكلّ كَدٍّ وعَفْو .

---

(١) متجعجعا ، أي ضاربا بنفسه الأرض من وجع .

(٢) ابن الباقلانى ، هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى أحد أعلام المتكلمين ، ومن أكبر أنصار مذهب الأشعرى ، ومؤلف كتاب « إعجاز القرآن » مات سنة ٤٠٣ .

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم ؛ وهو هنا على طريق المثل .

(٤) « حبو وزحف » .

قال : الممكن شبيهٌ بالرؤيا لا بدنَ له يستقلّ به ، ولا طبيعة يتحيّز فيها .

ألا ترى أنّ الرؤيا تنقسم على الأكثر والأقلّ والتساوى ، وكما أنّ الرؤيا ظِلٌ من ظلال اليقَظة ، والظلُّ ينقُص ويزيد إذا قيسَ إلى الشّخص ؛ كذلك الممكن ظِلٌ من ظِلال الواجب ، فطَوْرا يزيد تشابها للواجب ، وطورا ينقص تشاكُها للممتنِع ، وطورا يتساوى بالوسط .

قال : والواجب لا عرَض له ، لأنّه حدّ واحد ، وله نصيب من الوَحدة بدليل أنّه لا تغيُّر له ولا حيلولة لا بالزّمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولابالوهم ولا بالعقل ، بل العقل ينقاد له ، والطبيعة تُسلم إليه ، والوهم يَفرَق منه وصورة الواجب لا يَحْدُسها الظنّ ، ولا يتحكّم فيها تجويز ، ولا يتسلط عليها دامغ ولا ناسخ ، وهذا الحُكم يطّرد على الممتنِع ، لأنّه فى مقابلته على الضّدّ ، أعنى أنّه لا بدن له ، فيكون له عَرَض ، والعرَض كلُّه للممكن بالنعت الذى سلف من الكثرة والقلّة والمساواة .

ولهذا تعلّقت التكاليف به فى ظاهر الحال وبادئ الأمر وعارض الشان ، واستولى الوجودُ عليه بباطن الحال وخفىّ الأمر وراتب [1] الشان ، لكنّ هذا الفصل الّذى اشتمل على الظاهر والباطن ليس ينكشف للحسّ كما ينكشف للعقل .

ولمّا كنّا بالحسّ أكثر – وإن كنّا لا نخلو فى هذه الكثرة من آثار العقل – لزمَنا الاعتراف بعوائد الممكِن وعلائقه ، والعمل عليه ، والرجوع إليه إذا أُمِرنا أو نُهِينا أو ائتَمَرنا [أو انتهينا[2]] .

ولمّا ظهر لنا بإزاء هذا الّذى كنّا به أكثر أنّ لنا شبحا آخر نحن به أقلّ وهو العقل يشهد لنا بأنّ صورة الوجوب استولت من مبدإ الأمر إلى منقطعه الّذى هو فى عَرض الواجب إلى آخر الممتنِع .

وكما لزمنا الاعتراف الأوّل لنكون به عاملين ومستعملين ، ورافعين وواضعين ، ولائمين ومَلومين ، ونادمين ومُندمين ؛ كذلك لزِمَنا الاعترافُ بسلطان الواجب الّذى لا سبيل إلى عزله ، ولا محيصَ عن الإقرار به ، ولا فكاك من اطّرادِه بغير دافع أو مانع .

(١) « ورأيت » .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضيها .

واتّصل كلامُ ابن يعيش على تقطُّعٍ في عبارته الّتي ما كانت أداتُه تُواتيه فيها ، مع تدفُّق خواطِره عليها ؛ فقال : الرؤيا ظِلّ اليَـقَظة ، وهى واسطةٌ بين اليَـقَظة والنوم ، أعنى بين ظهور الحس[1] بالحركة ، وبين خفائه بالسكون .

قال : والنوم واسطة بين الحياة والموت ، والموتُ واسطةٌ بين البقاء الّذى يتّصل بالشهود[2] وبين البقاء الّذى يتصل بالخلود .

قال : وهذا نعتٌ على تسهيل اللفظ وتقريب المراد والتصوّر ؛ والشقّةُ شوكُ القَتاد ، وازدرادُ العَلْقَم والصاب ، للحواجز القائمة والموانع المعترِضة من الإلف والمَنشأ وغير ذلك ممّا يطول تعديده ويشقّ استقصاؤه .

فقال[3] : هذا كلامٌ ظريف ، وما خلتُ أنّ ابنَ يعيش مع فدامته[4] ، ووَخامته يسحب ذَيلَه فى هذا المكان ، ويُجرى جوادَه بهذا العنان .

قلتُ له : إنّ له مع هذه الحالِ مَرامىَ بعيدة ، ومَقاصدَ عالية ، وأطرافا من المعنى إذا اعتلقها دَلّ عليها ، إما بالبيان الشافى ، وإمّا بما يكون طريقا إلى الوَهم الصافى .

وقلتُ : لقد مرّ له اليومَ شىءٌ جرى بينه وبين أبى الخير اليهودىّ استُفيد[5] منه .

قال : وما ذاك ؟ أُنثرْ علينا دُرَرَ هذه الطائفة التى نميل إليها بالاعتقاد وإنْ كنّا نقع دونها بالاجتهاد ؛ ونسأل اللهَ أن يَرحم ضَعفَنا الذى منه بُدئْنا[6] ويبدّلَنا قوةً بها نجد قُربَنا فى آخرنا .

(١) « والحركة » .
(٢) « بالبنود » .
(٣) فقال ، أى الوزير .
(٤) « قدامته » بالقاف .
(٥) فى الأصل « ما استفيد » و « ما » زيادة من الناسخ .
(٦) « ورينا » وبدئنا ، أى خلقنا .

قلت : ذكر أن العقل لاغناء[1] له في الأشياء التي تغلب عليها الحيلولة والسيّلان والتطوّل ، كما أنّ الحسّ لا ينفذ في الأمور التي لا تطوّر لها بالحيلولة والتطوّل ، ولذلك عُرفت الحكمة في الكائنات الفاشيات[2] ، وخفيت العللُ والأسباب في بدوّها وخفيتها وتبدّدها وتآلفها ، لكنّ هذا الفرق والخفاءَ مسلّمان للقدرة المستعلية والمشيئة النافذة .

قال : ولهذا الترتيب سرٌّ[3] به حَسُن هذا النعت ، وإليه انتهى هذا البحث وذلك أنْ خفاء ما خفَى بحقِّ الأوّل أُلحق ، بدوّ ما بدا من نصيب أُطلق للذى[4] لا يحتمل غير هذا الثقل ، ولو خُفف عنه هذا لَلحق الإنسانُ البهائمَ ، ولو ثقُل عليه هذا لَلحق الملائكة ، فكان حينئذ لا يكون إنسانا ، وقد وجب في الأصل أن يكون إنسانا ، كاملا بالنَّصَب والدأب ، ويَمتعض من أن تكون صورةَ الإنسان عنده معارة ، لأنه في الحقيقية حيوان غيرُ ناطق ، بل يجتهد بـ... ركده أ... يصير إنسانا فاضلاً ، ويكون في فضله وكماله ملكا ، أعني بالمشاكهة الإرادية لا بالمشاكهة النوعيّة .

قال : وغاية الحكمة منها للمباشرين لها أنّ المعرفة تَقفُ علي حَيْلولتها ولسيلانها فقط ، لا على تصفّح أجزائها ، لأنّ الترتيب فيها يستحيل مع الزمان .

ألا ترى أنّ الرقم على الماء لا صورة له ، لأن صفحة الماء لا ثبات لها ، وكذلك الخطَ في الهواء ، وكذلك الكائنات البائدات[5] لاصورة لها ، لأنها لا ثبات لها ، وأنت إذا وجدتَ شيئا لا ثبات له لم تضمّ إليه شيئا آخر لا ثبات له طمعا في وقوع بينهما ، هذا

(١) « عامه » .

(٢) « الفاسدات » .

(٣) « شربه » .

(٤) « الذى » .

(٥) « الباترات العامرات » .

لا يدين له وهم ، ولا ينقاد له ظنٌ ؛ ولو ساغ هذا ساغ أن يُجمع بين ما له ثبات ، وبين ما له أيضاً ثبات ، فيَحدثَ هناك سيلان واستحالة.

وقال : وَصْفُ العقل بشهادة الحسّ ، كما يكون وصف الحِسّ بشهادة العقل إلا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولي ، وشهادة العقل للحس شهادة المولى للعبد ؛ على أن هاتين الشهادتين لا تطّردان ولا تستمران ، لأن كل واحد من الحس والقل تفردا بخاصّ ماله ، ولذلك ما وُجد حيوانٌ لا عَقل له البتة ، ووُجد فيَ مقابلته حيٌ لا حسّ له .

ثم قال بل العقل يحكم فى الأشياء الرُّوحانية البسيطة الشريفة من جهة الصُّوَر الرفيعة ، والعلائقُ التى بين المعقولات والمحسوسات مانعت العقل ، والعاقل من خلّص[1] الباقيات الخالدات الدائمات القائمات الثابتات من حومة الكائنات الفاسدات البائنات[2] الذاهبات الحائلات الزائلات المائلات البائدات .

ودخل فى هذا التخليص ضربٌ من الشكّ والتمارى والخصومة والتعادى والتعنت إلى اختلاف عظيم ، ووقفتُ عن الحُكم بعد اليقين .

وقال – أدام الله سعادته – ما السجية [3] ؟ قلت : سمعت الأندلسيّ يقول : فلان يَمْشى على سجيته [3] ، أى طبعه [3] .

قال : هل يقال : ظفِرتُ عليه ؟ قلتُ : قد قال شاعرهم :

وكانت قريش لو ظفِرنا عليهمُ ... شفاءً لما فى الصّدر والنقصُ ظاهرُ

(١) « فى تخليص » .

(٢) « البائدات » .

(٣) وردت هذه الكلمات الثلاث التى تحت هذا الرقم فى الأصل هكذا « إليه » « حسه » « لحفظه » ، والتحريف فيها ظاهر .

قال : هذا حَسَن . قلتُ : الحروف التى تتعدّى إلى الأفعال ، والأفعالُ التّى تتعدّى بالحروف ؛ يراعَى فيها السماعُ فقط لا القياس .

هذا كان مذهب إمامنا أبى سعيد ؛ وقد جاء أيضا « ظَفِر به » وجاء « سخِرتُ به ومنه » .

ومن لا اتّساع له فى مذهب العرب يظنّ أن « سخِرتُ به » لا يجوز وهو صحيح . حكاه أبو زيد .

قال : كيف يقال فى جمَل به غُدّة ؟ فكان من الجواب : جَمَلٌ مُغِدّ قال : فكيف يُجمع ؟ فكان الجواب بأنه فى القياس ظاهر ، ولكن السُّماع قد كفى . قال الشاعر – وهو خِراش بن زهيرٍ

فَقَدْ تُكمو (١) ولحظكموا إلينا بِبطْن عُكاظَ كالإبلِ الغِداد (٢)

ضَرَبْنَاهمْ بَبطْن عُكاظَ حتّى تولّوا طَالعين مِن النِجادِ

وقال – حرس الله نفسَه – من لقبه (٣) الخُرسِىّ إلى أىّ يُنسَب ؟

فكان من الجواب : يقال : رجل خُراسانِىّ وخُرسِىّ فُنسبت (٤) إلى رجل نزلها (٥) فاشتهرت به .

فقال : القَذال كيف يجمع ؟ فكان من الجواب أن فَعلاً وفِعالاً وفُعالاً وفعيلاً وفُعولاً أخوات تُجمعَ فى الأقل علي أفعِلة ، يقال : حِمار وأحْمِرة ، وغُراب وأغْربة ، وقَذال وأقذِلة وعَمُود وأعمدة .

---

(١) فى اللسان مادة (غدد) : « عدمتكم ونظرتكم » .
(٢) فى كتب اللغة مادة (غدد) أن غدادا جمع (غاد) لا جمع ساعىَ (مُغِد) كما تفيده عبارة المؤلف
(٣) « لعه » .
(٤) أى نسبت كورة خراسان إلى رجل اسمه خراسان . كما فى كتب اللغة .
(٥) ورد فى الأصل بعد قوله « نزلها » هذه الكلمة : « سه » مهملة الحروف من النقط ؛ ولم نتبين الصواب فيها .

قال : نسيت [١] أسألك عن المسألة الأولى - أعنى الخُرْسِ - من أين لك تلك الفُتْيا ؟

فكان من الجواب : قرأت على أبي سعيد الإمام في شرح كتابَ سيبويه ·

قال : بَرَّدْتَ غَليلي ، فإنِ الحجةَ فى مِثل هذا متى لم تكن بأهلا كانت متلجلجة ·

قال : أنشِدْني شيئاً نختِم به المجلسَ ، فقد مرّت طرائف ·

فأنشدتُ لعُمارةَ بن عَقيل في بنت [٢] له :

حُبُّكِ ياذات الأُنَيفِ الأَكْشمِ [٣] حُبٌّ تَساقاه مُشاسُ [٤] أَعْظُمى

ودَبَّ بنـى كَبِـدى ومَخْـزِمى وَساطَـه [٥] الله بلَحْمِي ودَمى

فليس بالمـذْقِ ولا المكـتمِ ولا الذى إنْ يَتَقَادَمْ يُسْـأَمِ

لقد نزلت من فؤادى - فاعلمى منزلةَ الشيء المُحَبِّ المُكـرَمِ

وانصرفت .

(١) « لست »
(٢) هذه الكلمة في الأصل مهملة الحروف من النقط ·
(٣) الأكشم : المقطوع ، يريد وصفها بصغر الأنف حتى كأن قد قطع منه جزء .
(٤) المشاس : كل عظم لا مخ فيه .
(٥) ساطه : خلطه .

من البصائر والذخائر :

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

اللهم (١) إني أسألك جداً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من(٢) الجهل ، وعملاً عَرِياً (٣) ، من الرياء وقولاً موشَحاً بالصواب ، وحالاً دائرَة مع الحق ؛ نعم ، وفطنةَ عقلٍ مضروبة (٤) في سلامة صدر ، وراحةَ جسمٍ راجعةٍ إلى رَوْح بال ، وسُكونَ نفسٍ موصولاً بثبات يقين ، وصحةَ حجةٍ بعيدةً(٥) عن مرض شُبْهة ، حتى تكون غايتي في هذه الدار مقصودةً بالأمثل فالأمثلِ ، وعاقبتي عندك محمودة بالأفضل فالأفضلِ ، مع (٦) حياةٍ طيِّبةٍ أنتَ الواعدُ بها ووعدُك الحقّ ، ونعيمٍ دائمٍ أنت المبلِّغُ إليه .

اللهم فلا تخيبْ رجاء مَنْ هو منوطٌ بك ، ولا تصفِّر كفّاً هي ممدودةٌ إليك ، ولا تُذِلَ نفساً هي عزيزةٌ بمعرفتك ، ولا تسلبْ عقلاً هو مستضيءٌ بنور هدايتك ، ولا تُعْمِ عيناً فتحتها بنعمتك ، ولا تحبس (٧) لساناً عَوَّدْتَهُ الثناء عليك ، وكما أنت

---

(١) هذا الدعاء أورده ابن أبي الحديد في شرح نهج محمودة البلاغة ١١ : ٢٧٣ ، وذلك حتى قوله : « على ذلك قدير » .

(٢) هذه قراءة وشرح النهج ، وفي ح ر : غريباً .

(٣) ح : الختل .

(٤) هذه قراءة ر ك وشرح النهج ؛ ح : مبصرة .

(٥) ح ك : بعداً .

(٦) شرح النهج : من .

(٧) شرح النهج : تخرس .

أولى بالتفضُل فكنْ أحَرى(١) بالإحسان : الناصيةُ بيدك والوجهُ عانٍ لك (٢) ، والخيرُ متوقَّعٌ منك ، والمصيرُ على كلِّ حال إليك ، ألبسْنى(٣) فى هذه الحياة البائدة ثوبَ(٤) العصمة ، وحلِّنى(٥) فى تلك الدار الباقية بزينة(٦) الأمْن ، وافطمْ نفسى عن (٧) طلب العاجلة الزائلة ، وأجرنى(٨) على العادة الفاضلة ، ولا تجعلنى ممن سَها عن باطن ما لَكَ عليه ، بظاهر ما لَكَ عنده فالشقىُّ من لم تأخذ بيده ، ولم تؤمِّنه من غده ، والسعيدُ من آويْتَه إلى كَنَف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقَشٍ له فى الحساب ، ولا سائقٍ له إلى العذاب ، فإنك على ذلك قدير .

ثَبتَ - أطال اللهُ بقاءكَ - الرأىُ بعد المخض(٩) والاستخارة ، وصَحَّ العزمُ بعد التنقيح والاستشارة ، على نَقْلِ جميع ما فى ديوان السمَاع ، ورسم ما أحاطت به الرِّواية(١٠) ، واشتملت عليه الدراية ، منذ (١١) عام خمسينَ وثلاثمائة ، مع توَخِّى قصارِ ذلك دون طويله ، وسَمينه دون غَثِّه ، ونادره دون فاشيه ، وبديعه دون مُعتاده ، ورفيعه دون سَفْسافه ، ومتى أنصفَتْكَ نفسُك ، وهذتكَ الرأى ، وملكتك الزمام ، وجنَبَتْك الهوى ، وحمَلَتْك على النهْج ، وحمتكَ دواعى العصبية ، علمتَ علْماً لا يُخالطه شك ، وتيقَّنتَ تيقُناً لا يطورُ به ريب ، أنك ممن كُفى مؤونة التعب بنَصَب غَيره ، ومُنح شريفَ الموهبة بطلب سواه ، وذلك بينٌ(١٢) عند تصفح ما تضمنَ هذا الكتاب ؛ فإنك مع النَشاط والحرص ستُشرفُ على رياض الأدب ، وقرائح العقول ، لفظ مصون ، وكلام شريف ، ونثرٍ

---

(١) ح وشرح النهج : أولا ... أخرا .

(٢) والوج عان لك : سقطت من ك .

(٣) ك ر : أكسنى .

(٤) ك ر : أثواب .

(٥) ك ر : وأحلنى .

(٦) ك ر : رتبة .

(٧) ر : على .

(٨) ر : وأجزنى .

(٩) ح : المحض .

(١٠) ح : الروية .

(١١) ك : ذ .

(١٢) ح : تبين لك ؛ ر : يبين .

مقبول ، ونظمٍ لطيف ، ومَثَلٍ سائر (١) ، وبلاغةٍ مختارة ، وخطبةٍ مُحَبَّرة ، وأدبٍ حلو ، ومسألة دقيقة ، وجواب حاضر ، ومعارضةٍ واقعة ، ودليلٍ صائب ، وموعظةٍ حَسَنة ، وحجَّة بليغة ، وفقْرةٍ مكنونة ، ولُمْعَةٍ ثاقبة ، ونصيحةٍ كافية (٢) ، وإقناع مؤنس ، ونادرةٍ مُلْهِية ، وعقلٍ مُلَقَّح ، وقول مُنقَّح ، وهزلٍ شِيب بجدّ ، وجدٍّ عُجِنَ بهزل ، ورأى استُنْبِط بعناية ، وأمرٍ بُيِّتَ بليل ، وسِرٍّ كُتِمَ على الزهد وحجةٍ استُخْلِصَتْ من شوائب الشُّبَه (٣) وشبهةٍ أُنشئت من فَرْط جهالة ، وبلادة طباع رُوِيت بلسان عيٍّ ولفظٍ مرذول عن صدْرٍ حَرِجٍ ، وفؤاد عيام •

جمعتُ ذلك كله فى هذه المدة الطويلة مع الشهوة (٤) التامة والحرص المتضاعف ، والدأب الشديد ، ولقاء الناس ، وفَلْى البلاد ، من كتب شتى حُكِيتْ عن أبى عثمان ابن بحر الجاحظ الكنانى ، وكتب هى الدرُّ النَّثير ، والنَّوْر المطير ، وكلام الخمر الصِرْف، والسِّحر الحَلال ، ثم كتاب « النوادر » لأبى عبد الله محمد بن زياد الأعرابى (٥) ثم كتاب « الكامل » لأبى العباس محمد بن يزيد الثُمالى (٦) ، ثم كتاب « العيون » لأبى محمد عبد الله

(١) رك : سيّار .

(٢) ح : منتحلة .

(٣) ر : الشبهة .

(٤) هذه قراءة ك ؛ وفى ر ح : الشهرة .

(٥) ابن الأعرابى هو اللغوى النحوى النسّابة الكوفى المشهور المتوفى فى سر من رأى سنة ٢٣١ ؛ انظر ترجمته فى الفهرست : ٧٥ وتاريخ بغداد ٥ : ٢٨٢ ومعجم الأدباء ٧ : ٥ ووفيات الأعيان ٤ : ٣٠٦ والوافى بالوفيات ٣ : ٨٩ وإنباه الرواة ٣ : ١٢٨ . وكتابه « النوادر » لم يصلنا ، وقد وصفه ياقوت بأنه « كبير » وقال ابن النديم إن جماعة رووه عن ابن الأعرابى ، منهم الطوسى وثعلب وغيرهما ، وأضاف أنه قيل إنها اثنتا عشرة رواية ، وقيل تسع .

(٦) ك : لأبى عبد الله العباس محمد بن يزيد ؛ والمبرد هو أحد كبار أئمة اللغة والنحو والأدب ببغداد ، وكانت وفاته بها سنة ٢٨٥ ، وله الكتب الكثيرة ، وكتاب « الكامل » المذكور هنا طبع عدة مرات ؛ انظر ترجمته فى الفهرست : ٦٤ وتاريخ بغداد ٣ : ٣٨٠ ومعجم الأدباء ٧ : ١٣٧ ووفيات الأعيان ٤ : ٣١٣ ونور القبس ٣٢٤ وإنباه الرواة ٣ : ٢٤١ •

ابن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري[١] ، ثم « مجالسات » ثعلب [٢] ، ثم كتاب ابن أبي طاهر الذي وسم بـ « المنظور والمنثور » [٣] ثم كتاب [٤] « الأوراق » للصولي [٥] ثم كتاب

---

(١) هو من كبار علماء الكوفة باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والفقه والشعر ، ولد في الكوفة وتوفي سنة ٢٧٠ ، وله المؤلفات الكثيرة المشهورة ، وكتابه « العيون » المذكور في النصّ هو كتابه المشهور المسمّى كتاب عيون الأخبار ؛ انظر ترجمة ابن قتيبة في الفهرست : ٨٥ وتاريخ بغداد ١٠ : ١٧٠ ووفيات الأعيان ٣ : ٤٢ وإنباه الرواة ٢ : ١٤٣ .

(٢) أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني هو أحد أئمة الكوفيين في اللغة والنحو والمعاني والشعر والغريب ، توفي ببغداد سنة ٢٩١ ، وله الكتب الكثيرة ، وكتاب « المجالسات » المذكور هنا طبع تحت اسم « مجالس ثعلب » (القاهرة ، ١٩٤٨) ، إلا أنه يبدو أن المطبوع هذا يشكل جزءاً وحسب من الكتاب ، إذ أن بعض نقول أبي حيان عنه لا ترد في ؛ وقد وصف ابن النديم كتاب المجالسات هذا فقال : « ولأبي العباس مجالسات أملاها على أصحابه في مجالسه ، تحتوي على قطعة من النحو واللغة والأخبار ومعاني القرآن والشعر مما سع وتكلم عليه ، روى عنه جماعة منهم أبو بكر ابن الأنباري وأبو عبد الله اليزيدي وأبو عمر الزاهد وابن درستوريه وابن قسم » ، انظر ترجمة ثعلب في الفهرست : ٨٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٢٠٤ ووفيات الأعيان ١ : ١٠٢ وإنباه الرواة ١ : ١٣٨ وتذكرة الحفاظ : ٦٦٦ .

(٣) ابن أبي طاهر أبو الفضل أحمد بن أبي طار طيفور الكاتب الشاعر المشهور المتوفى ببغداد سنة ٢٨٠ ؛ ألف كتباً عديدة أشهرها كتاب بغداد ، وكتابه « المنظور والمنثور » لم يصلنا كله ، وقد قال ابن النديم إنه يقع « في أربعة عشر جزءاً والذي بيد الناس ثلاثة عشر جزءاً » ، وهناك جزء منه قد وصلنا ولكنه ما زال مخطوطاً في دار الكتب (أدب : ٥٨١) بعنوان اختيار المنظوم والمنثور ترجمة ابن أبي طاهر في الفهرست : ١٦٣ ومعجم الأدباء ١ : ١٥٢ وتاريخ بغداد ٤ : ٢١١ والوافي بالوفيات ٧ : ٨ .

(٤) كتاب : سقطت من ك .

(٥) الصولي هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي الشطرنجي الكاتب الأديب النديم المشهور المتوفى سنة ٣٣٥ ؛ ترجمته في الفهرست : ١٦٧ وتاريخ بغداد ٣ : ٤٢٧ ومعجم الأدباء ٧ : ١٣٦ ومعجم المرزباني : ٤٣١ ووفيات الأعيان ٤ : ٣٥٦ والوافي بالوفيات ٥ : ١٩٠ ولسان الميزان ٥ : ٤٢٧ ؛ ومصنفاته كثيرة ، وكتابه « الأوراق » المذكور في النص هو أشهر كتبه ، واسمه كاملاً « الأوراق في أخبار آل العباس وأشعارهم » ، وقد طبع من ثلاث قطع : أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم (لندن ، ١٩٣٥ – ١٩٣٦) وأخبار الراضي والتقي (لندن ، ١٩٣٤ – ١٩٣٥) وأخبار الشعراء المحدثين (لندن ، ١٩٣٤) .

« الوزراء » لابن عبدوس [١] ، و « الحيوانات » لقدامة [٢] . هذا إلى غير ذلك من جوامعَ للناس مضافات إلى حفظ ما فاهوا به ، واحتجوا له ، واعتمدوا عليه ، فى محاضرهم ونواديهم ، وحواضرهم وبواديهم ، ما يطول إحصاؤه ، ويملُّ استقصاؤه ، وسيعتزى [٣] فى التفصيل كلُّ شيء منه إلى معدنه ، وينتسب [٤] إلى قائله ؛ والغرض من الكتاب مسُوقٌ إليك ، والمرادُ فيه [٥] معروض عليك ، فلا عائدةَ إذن للإطالة ، إلا بقدر التلطف والاستمالة .

وأنا ضامنٌ لك أنك لا تخلو فى دراسة هذه الصحيفة من أُمهات الحِكَم ، وكنوز الفوائد :

أولُها وأجلُها ما يتضمن كتابُ الله تعالى الذى حارتِ العقولُ الناصعة فى وَصْفِه ، وكلّت الألسن البارعة عن وَصْفِه ، لأنه المُطْمِع ظاهرُه [٦] فى نفسه الممتنع باطنُه بنفسه . الدانى بافهامه إياك إليك ، العالى بأسراره وغيوبه عليك ، لا يُطارُ بحواشيه ، ولا يُمَلُّ من تلاوته ، ولا يُحَسّ بإخلاق جدّته ، كما قال علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه [٧] : ظاهرُهُ أنيق ، وباطنُه عميق ، ظاهرُهُ حُكم ، وباطنُه عِلْم .

(١) ابن عبدوس هو أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفى المعروف بالجهشيارى . أحد كبار المؤرخين القدماء وواحد من البارزين من رجالات الدولة العباسية فى عصره ، توفى سنة ٣٣١ ، أخباره متفرقة فى المصادر ، وله ترجمة فى الفهرست: ١٤١ والوافى بالوفيات ٣ : ٢٠٥ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٧٩ وكتابه المذكور فى النصّ والمسمّى « كتاب الوزراء والكتاب » طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٨ بتحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى ، وفى سنة ١٩٦٤ قام ميخائيل عوّاد بطبع النقول عن هذا الكتاب من المصادر المخطوطة والمطبوعة ونشرها تحت عنوان « نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب » (دار الكتاب اللبنانى . بيروت ١٩٦٤) .

(٢) هو أبو جعفر قدامة بن جعفر بن قدامة البغدادى الكاتب البليغ المنطقى المعروف ببغداد سنة ٣٣٧ ، انظر ترجمته فى الفهرست : ١٤٤ والمنتظم ٦ ك ٣٦٣ ومعجم الأدباء ٦ : ٢٠٣ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٩٧ ؛ وكتابه « الحيوانات » المذكور فى النص لا ذكر له فيما بين أيدينا من المصادر .

(٣) ح : وسيعزى .

(٤) ح : وينسب .

(٥) والمردا فيه : سقطت من ك .

(٦) ر : بظاهره .

(٧) ر : صلوات الله عليه .

والثانى سنة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ فإنها السبيلُ الواضح ، والنجمُ اللائح ، والقائد الناصح ، والعلَم المنصوب ، والأَمَمُ المقصود ، والغايةُ فى البيان ، والنّهاية فى البرهان ، والفَزَعُ عند الخصام ، والقُدوة لجميع الأنام .

والثالثُ حُجَة العقل ؛ فإنّ العقلَ هو المَلِكُ المفزوعُ إليه ، والحَكَمُ المرجوعُ إلى ما لديه ، فى كل حالٍ عارضة وأمر واقع ، عند حَيْرة الطالب ، ولَدَد الشاغب ، ويَبَس الرِّيق ، واعتِسْاف الطريق، وهو الوصلة(١) بين الله وبين الخلق ، به يُمَيَّزُ كلامُ الله عزّ وجلّ ، ويُعْرفُ رسولُ الله ، ويُنصر دينُ الله ، ويُذَبُّ عن توحيد الله ، ويُلتمسُ ما عند الله ، ويُتَحبَّبُ إلى عباد الله ، ويُساس عباد الله(٢) ، ويتخلص عباد لله من عذاب الله ؛ نورُه أسطعُ من نور الشمس ، وهو الحَكَمُ بينَ الجنّ والإنس ، التكليفُ تابعُه ، والحَمْد والذمّ قريناه ، والثوابُ والعقابُ ميزانه ، به تُرتبط النعمة ، وتُستدفع النّقمة ، ويُستدام الوارد، ويتألف الشارد ، ويُعرف الماضى ، ويُقاس الآتي ، شريعتُه الصّدق وأمرُه المعروف وخاصّته الاختيار ، ووزيره العلم وظَهيره الحلم ، وكنزه الرِّفق ، وجُنْدُه الخيرات ، وحِلْيَتُه الإيمان ، وزينتُه التقوى ، وثمرته اليقين .

والرابع رأْىُ العين ؛ وهو يَجْمع لك بحُكْمِ الصورة ، واعتراف الجمهور ، شهادة الدهور ، نتيجةَ التجارب ، وفائدةَ(٣) الاختيار ، وإذعانَ الحس وإقرارَ النفس ، وطُمأنينةَ البال ، وسكونَ الاستبداد .

هذا سوى أطرافٍ من سياسة العجَمَ ، وفلسفة اليونانيين ، فإنّ الحكمةَ ضالّةُ المؤمن(٤) ، أين ما وجدها أخذها ، وعند مَنْ رآها طلبها ، والحكمة حقّ ، والحقّ لا يُنْسب إلى شىء ،

---

(١) ح : الوسيلة .

(٢) ر : خلق الله .

(٣) رك : وقائد .

(٤) الحكمة ضالة المؤمن : تنسب لعلى فى نهج البلاغة : ٤٨١ وربيع الأبرار : ٢٦٣ ب وجامع بيان العلم ١ : ١٢١ وكتاب الآداب : ٣ ولأبى جعفر فى مجموعة ورّام ٢ : ١٤٩ ؛ وترفع إلى الرسول فى كشف الخفا ١ : ٤٣٥ والمقاصد الحسنة : ١٩١ والشهاب : ٤ والتذكرة الحمدونية ١ : الفقرة ٥٨٨ والعقد ٢ : ٢٥٤ .

بل كلُّ شيء يُنْسَب إليه(١) ، ولا يُحمل على شيء ، بل كلُّ شيء يُحمل عليه (٢) وهو متّفقٌ من كل وجه ، يطربُ به الراضى ، ويَقتنع به العضبان (٣) ، مُشرقٌ فى نفسه ، موثوقٌ بحكمه ، معمولٌ بشرطه ، معدولٌ إلى قضيته ، به خَلَقَ الله عزّ وجلّ السماءَ والأرض ، وعليه أقام الخَلْق ، وبه قَبَضَ وبَسَط ، وحَكَمَ وأقسط .

فاستدعِ - أيدَكَ الله - نشاطَك الشارد ، وراجعْ بالَكَ الرخيّ ، وجُلْ بفهمك فى رياض عقول القُدماء ، وانظر إلى مآثر هؤلاء الحكماء ، واطّلعْ على نوادر فِطَن الأُدباء ، واجمع (٤) بين طِّيب السّلَف ، وخبيثِ الخَلَف ، فما تَخلو عندجولانك فيها من جد أنت سعيدٌ به ، وهزلٍ أنت مُدارىً فيه ورأيٍ أنت فقيرٌ إليه ، وأمرٍ لعلك محمود عليه : [البسيط] .

فالدَّهْرُ آخِرُهُ شِبْهٌ بأوّلِهِ ناسٌ كناسٍ وأيّامٌ كأيّامِ(٥)

وإذا حفظتَ ما مضى ، حذرتَ ما بقى .

واجعلْ نهايةَ حالك ، وقصارى أمرك ، فيما تستفيد من هذا الكتاب ، عساه يجمع ألفَىْ ورقة ، أن تكون ساليـاً عن هذه الدنيا ، قالياً لأمورها ، واثقاً بالله تعالى ، مطمئناً إليه ، ممترياً لمزيده (٦) منتظراً لِمَوْعده ، عالماً بأنه أوْلى بك ، وأمْلَكُ لك ،

---

(١) ر : بل ينسب كل شيء إليه .

(٢) ر : وإنما يحمل كل شيء عليه .

(٣) ح : الغضب .

(٤) رك : والجمع .

(٥) البيت فى أمالى المرتضى ١ : ٥٣١ ضمن قصيدة لعينة بن حصن الفزارى ، ونصه هناك :

والدهر آخر شبه لأوله قوم كقوم وأيام كأيام

وسوف يكرره التوحيدى ضمن أبيات لحصن بن حذيفة فى هذا الجزء من البصائر (الفقرة : ٥٢٤) .

(٦) ممترياً لمزيده : سقطت من ك .

في الخزى(١) استمراراً بعد استمرار(٢) ، وتلك حـالُ منْ غـضَبَ الله عليـه ، وأرسله من يده ، ووَكَلَهُ إلى حَوْلٍ خفيف ، ومتْنٍ(٣) ضعيف ؛ لا أذاقك الله كرْبَ هذه البلوى ، ولا أخلاك أبداً من متجدِّدد النُّعمى.

واصرفْ ما استطعتَ همَّتك عن هذا الظلّ القالص ، والزخرف العاطل(٤) ، والعيش الزائل ، إلى ما وعدك الله ، فإنَّ إلهامَهُ إيَّاكَ متى صادف(٥) طاعتَك له ، ودعاءه لك متى وافق(٦) إجابةً منك ، مَدَّت السعادةُ(٧) جناحَها عليك ، وصافحتْ يَدُ اليُمْن كفَّك ، ونجوتَ من معاطب عالَمٍ(٨) : السـاكنُ فيه وَجِل ، والصاحى من أهله ثَمِل ، والمقيمُ على ذنوبه خَجِل ، والرحل عنه مع تماديه عَجِل ؛ وإنَّ داراً هذا من آفاقـها وصُروفها ، لحقوقة بهجْرانها وتركها ، والصُّدوف(٩) عنها ، خاصةً ولا سبيل لساكنها إلى دار قراره إلا بالزهد فيها ، والرضى بالطفيف منها « كبُلْغة الثاوى وزادِ المنطلق »(١٠) .

عرَّفَنا الله حظَّنا ، وسلك بنا فى طرق رُشدنا ، وَسَلَّ حُبَّ الدنيا من قلوبنا وحط ثقْلَ الحرص

---

(١) ح : ك ر : الجرى .

(٢) بعد استمرار : سقطت من ك .

(٣) ح ك ومتن .

(٤) ك ر : العاجل المزخرف .

(٥) ر : صادقت . ح : صادفت .

(٦) ر ك ح : وافقت .

(٧) ك ر : السيادة .

(٨) من قوله : « عالم » حتى قوله « وزاد المنطلق » فى نهاية الفقرة: نقله ابن أبى الحديد فى شرح النهج ٨ : ٢٥١ عن البصائر .

(٩) ح : والعزوف .

(١٠) مأخوذ من بيت للبحترى من قصيدته التى قالها فى مدح صالح بن مخلد وهجاء يعقوب بن أحمد ابن صالح بن شيزاد سنة ٢٦٢ ، والبيت بكامله :

لو أنالت كان فى تنويلها بلغة الثاوى وزاد المنطلق

عليـها عن ظهورنا ، وفتّح على ما عنده بصائرنا ، وغمّضَ عمّا هاهنا أبصارنا[١] ، ولا ابتلانا[٢] بنا ، ولا أسلَمَنا إلينا ، إنه وليُّ النّعمة ومانحُها ، ومرسلُ الرحمة وفاتحُها ، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير ؛ جَلّ مذكوراً ، وعزّ مراداً .

اللّهم فاسْمع ، وإذا سمعتَ فأجبْ ، وإذا أجَبت فبَلّغ ، وإذا بلّغت فأدمْ ، فإنه لا يَشْقَى مَن كنتَ له ،ولا يسعد مَن كنتَ عليه ،وصلّ على نبيّك المبعوثِ من لَدُنْك إلى خلْقك ، محمدٍ وآلِه الطاهرين ، ولاتنزع من قلوبنا حَلاوةَ ذكْره ، ولا تُضلّنا بعدُ إذ هَدَيْتنا ، وقَرّبْ علينا طريقَ الاقتداء بأمره ، والاهتداء بهَدْيه ، فإنك تَصْرِفُ مَنْ تشاء إلى ما تشاء[٣] ؛ لا رادَّ لقضائك ، ولا معقّبَ لحكمك[٤] ، ولا محيط بكُنْهك ، ولا مُطّلع على سِرّك ، ولا واصفَ لقَدْرك ، ولا آمن لمكرِك أنت الإلهُ المحمود ، وأنت نعْمَ المولى ونعمَ النصير .

قد تلطّفتُ إلى قلبك بحبّى إيّاك على حظك[٥] فى فنونٍ من القول ، وضربٍ من الوصايا ، وأرجو أن يكون صوابى عندك فيها[٦] مُتقَبّلاً ، وخطأى فيها عندك[٧] متأوّلاً ، لا لأنى لذلك أهْلٌ ، ولكن لأنّك حقيقٌ به ، وله خليق ، ومهما شككتَ فيما يَرِدُ على منّى فى هذا الكتاب ، فلا تشكٌ أنى قد نثرتُ لك فيه اللؤلؤ والمرجان ، والعقيق والعقْبان ، وهكذا يكون عمل من طَبٌ لمن حَبٌ[٨] .

---

(١) وغمض .... أبصارنا : سقطت من ك ر .

(٢) ر : أبلانا .

(٣) ح : ما تشاء عما تشاء .

(٤) ح ك لحكمتك .

(٥) ر : حنطلك .

(٦) ر : فيها عندك .

(٧) متقبلاً .... عندك : سقطت من ك ر .

(٨) أي عمل الحاذق لمن يحب ؛ قال الأحمر : من أمثالهم في التنوق فى الحاجة وتحسينها : اصنع صنعة من طبٌ لمن حبٌ ، أي صنعة حاذق لمن يحبّه (اللسان : طبب) .

ثَبّتَ الله نعمه لديك ، وخففَ مَؤونةَ شُكْرها عليك ، وتابع لك المزيد ، في كل يوم[١] جديد . وحرسَك من نفسك ، وعصَمَك من بني جنسك ، وعرَّفك الخير ، وحبَّبَ إليك الإحسان ، ووفَّقَكَ للرشاد ، وختم أمرك بالطهارة بعد بلوغ الأماني وَدرْك المطالب ، بمنّه وقدرته[٢] .

من كتاب الإشارات الإلهية :

الذي أدرجتنا فيه ، وأعجب من هذا كله أنك بصرتنا فواتح الأحوال (٣٤/ب) وأعْشيتنا عن خواتم الأعمال ، فمتى حاولنا درك القريب بعد ، ومتى تطاولنا إلي لحوق البعيد قُرب . فلا ما تناله يؤنسنا بالاستمتاع به ، ولا ما يفوتنا يؤنسنا من نيله الاجتهاد فيه .

إلهنا : ما أعجب أسرارك فينا ، بل ما أعجب شواهدك علينا ، بل ما أعجب جُملتنا في تفصيلنا ، بل ما أعجب تفصلينا في جملتنا . كلفتنا معرفتك ، وحجبتنا عن كُنْه حقيقتك ، وشوقتنا إليك ، ثم سدَت طريقنا عنك ، فوحقك لا برحنا ولا سنحنا ولاهدأنا ولا سكنا حتي نصل إليك ، ونقف بين يديك ، نقول بما لديك ، وننظر إلي وجهك الكريم نظراً يوجب لنا رضاك عنا ، وإقبالك علينا ، ونسمع كلمتك العليا : أوليائي : إنما أتعبتكم لتسريحوا ، وإنما أشقيتكم لتسعدوا ؛ سري فيكم غريب ، وشأني معكم عجيب ، فاستبشروا الآن والسلام .

- ١٢ -

سألتني – رفق الله بك ، وعطف علي قلبك – أن أذكر لك الغريب ومحنه ، وأصف لك الغربة وعجائبها ، وأمر في أضعاف ذلك بأسرار لطيفة و معان شريفة ، وإما معرضاً ، وإما مصرحا ، وإما مبعداً وإما مقرباً . فكنت على أن أجيبك إلي ذلك ، ثم إني وجدت في حالي شاغلا عنك وحائلا دونك ، ومفرقا بيني وبينك ، وكيف أخفض الكلام إلا وأرفع ، وما الذي أقول وأصنع ، وبما أصبر ، على ماذا أجزع ؟ وعلى العلات التي وصفتها والعورات التي سترتها أقول :

---

(١) يوم : سقطت من ك ر .

(٢) وقدرته : سقطت من ك ر .

إن الغـــريـب بحـــيث مــــا حـطت ركـــــائبــــه ذليـل
ويد الـغـــريب قـــصــيـــرة ولـــســـانـه أبـداً كـلـيـل
والنـاس ينـصــر بعــضــهم بعـــضـــاً . ونـاصـــره قليل

وقال آخر :

وما جزعاً من خشية البين أخضلت دُموعى ، ولكن الغريب غريبُ

يا هذا : ذا وصف غـريب نأي عن وطنٍ بني بالماء والطين ، بَعد عن آلاف له عَـهْـدهم الخشونة واللين ، ولعله عاقرها الكأس بين الغدران والرياض ، واجتلي بعينه محاسن الحدق المراض ، ثم كان عاقبة ذلك كله إلى الذهاب والانقراض ؛ فأين أنت عن قريب قد طالت غربته في وطنته ، وقل حظه من حبيبه وسَكَنَه ؟ وأين أنت عن غريب لا سبيل له إلي الأوطان ، ولا طاقة به على الاستيطان ؟ قد علاه الشحوب وهو فى كن ، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شن : إن نطق خزيان منقطعاً ، وإن ظهر ظهر ذليلا وإن توارى توارى عليلاً ؛ وإن طلب طلب واليأس غالب عليه ، وإن أمسي أمسي منتهب السر من هواتك الستر ؛ وإن قال قال هائباً وإن سكت سكت خاذباً ؛ قد أكله الخمول ومصه الذبول ، وحالفه النحول ؛ لا يتمنى إلا على بعض بنى جنسه ، حتى يفضى إليه بكامنات نفسه ، ويتعلل برؤية طلعته ، ويتذكر بمشاهدته قديم لوعته فينثر الدموع على صحن خد ، طالباً للراحة من كده

وقد قيل : الغريب من جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله .

---

(١) أورد أبو حيان هذه الأبيات أيضاً فى البصائر ٢ : ٥٢٨ دون نسبة

الحبيب ، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشريب ، بل الغريب من نودي من قريب (٣٥ / ب) من هو فى غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب ، فإن كان هذا صحيحاً فتعال حتى نبكى على حالٍ أحدثت هذه الهفوة ، وأورثت هذه الجفوة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة   من الوجد أو يشفى نجى البلابل

يا هذا : الغريب من غربت شمس جماله ، واغترب عن حبيبه وعذاله ، وأغرب فى أقواله وأفعال ، وغرب فى إدباره وإقباله ، واستغرب فى طمره وسرباله .

يا هذا : الغريب ممن نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة ، ودل عنوانه على الفتنة عقيب الفتنة وبات حقيقته فيه فى الفنية حدّ الفنية ، الغريب من إن حضر كان غائباً ، وإن غاب كان حاضراً الغريب من إن رأيته لم تعرفه ، و لم تره لم تستعرفه ، وأما سمعت القائل حين قال :

بم التعلل لا أهل ولا وطن   ولا نديم ولا كأس ولا سكن

هذا وصفُ رجل لحقته الغربة ، فتمنى أهلا يأنس بهم ، ووطناً يأوى إليه ، ونديماً يحل عقد سرِّه ، وكأساً ينتشى منها ، وسكنا يتوادع عنده ، فأما وصف الغريب الذى اكتنفته الأحزان من كل جانب ، واشتملت على الأشجان من كل حاضر وغائب ، وتحكمت فيه الأيام من كل جاءٍ وذاهب ، واستغرقته الحسرات على كل فائت وآيب ، وشتته الزمان والمكان

---

(١) مر البيت من قبل وهو الذى الرمة (ديوان : ٥٧٧) .

(٢) فى الأصل : لا أهل ولا زمن ، وأظنه سهواً ، فالبيت مشهور ، وهو مطلع قصيدة للمتنبى (ديوانه : ٤٦٨) ، وسيعود المؤلف فيذكر أن الشاعر يتمنى « أهلا ... ووطنا ...... ونديماً ... » الخ ...

بين كل ثقة وراتب (١) – وفي الجملة : أتت على أحكام المصائب والنوائب وحطته بأيدي العواتب عن المراتب • فوصفٌ يحفى دونه القلم ، ويفني من روائه القرطاس ، ويشل عن تحبيره اللفظ ، لأنه وصف الغريب الذى لا اسم له فيذكر ، ولا رسم فيشهر ، ولا طيّ له (٣٦ / أ) فينشر ، ولا عذر له فيعذر ، ولا ذنب له فيغفر ، ولا عيب عنده فيستر .

هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط راسه ، ولم يتزعزع عن مهَبّ أنفاسه ، وأغرب الغُرباء من صار غريباً في وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قرب ، لأن غاية المجهود أن يسلو عن الموجود ، ويغمض عن المشهود ، ويغضي عن المعهود ، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعطاء ممدود ، ورفد مرفود ، وركن موطود ، وحد غير محدود .

يا هذا : الغـــريـب من إذا ذكـر الحق هجـر ، إذا دعـا إلي الحق زجـر الغـريب من إذا أسند كذب ، وإذا تظاهر عذّب ،الغريب من إذا امتار لم يمر ، وإذا قَعَدَ لـم يزر ، يا رحمةً للغريب طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب،، واشتد ضرره من غير تقير ، وعظم عناؤه من غير جدوى .

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله ، الغريب من إذا تنفس أحرقه الأسي والأسف ، وإن كتم أكمده الحزن واللهف ، والغريب من إذا أقبل لم يوسع له إذا أعرض لم يســأل عنـــه ، الغريب من إن ســأل لم يعط ، وإن سـكـت لم يبدأ ، الغريب من إذا عطـس لم يشـمت ، وإن رض لم يتـفـقـد ، الغريب من إن زار أغلق دون البـاب ، و اسـتـأذن لم يرفع له الحجاب ، والغريب من إذا نادى لم يجب وإن هادي لم يحب .

---

(١) الراتب : المتهم بالريبة

(٢) امتار : طلب الميرة ، ولم يمر : أى منعها .

اللهم : إنا أصبحنا غرباء بين خلقك ، فأنسنا فى فنائك . اللهم وأمسنا مهجورين عندها ، فصلنا بحبائك .

اللهم : إنهم عادونا من أجلك لأنا ذكرناك لهم فنفروا ، ودعوناه هم إليك فاستكبروا ، وأوعدناهم بعذابك فتحيروا ، ووعدناهم بثوابك فتجبروا ، وتعرّفنا بك إليهم فنكروا ، وصنّاك عنهم فتنمروا ، وقد (٣٦ / ب) كعنا (١) عن تدريبهم ، ويئسنا من توفيرهم .

اللهم : إنا قد حاربناهم فيك ، وسالمناهم لك ، وحملنا عنهم لوجهك ، وصبرنا على أذاهم من أجلك ، فخذ لنا بحقنا منهم ، وإلا فاصرف قلوبنا عنهم ، وأنسنا حديثهم ، واكفنا طيبهم وخبيثهم .

أيها السائل عن الغريب ومحنته : إلي هنا بلغ وصفي في هذه الورقات . فإن استزدت زِدْتُ ، وإن اكتفيتَ اكتفيتُ ، والله أسأل لك تسديداً في المبالغة ، ولى تأييداً فى الجواب لنتلاقى على نعمته ، ناطقين بحكمته ، سابقين إلى كلمته .

يا هذا : الغريب فى الجملة من كلّه حُرقه ، وبعضه فرقه ، وليله أسف ، ونهاره لَهَف ، وغداؤه حَزَنَ ، وعشاؤه شجن ، ورؤاه ظنن ، وجميعه فتن ، ومفرقه محن ، وسرُّه عَلَن وخوفه وطَن ، والغريب من إذا دعا لم يجب ، وإذا هاب لم يهب (٢) ، الغريب من (إذا) استوحش استوحش منه : استوحش لأن يرى ثوب الأمانة ممزقاً ، واستوحش منه لأنه يجد لما قلبه من الغليل محرقاً ، الغريب من فجعته مُحْكَمة ، ولوعته مضرمة الغريب من لبسته خرْقة ، وأكلته سلقْة ، وهجعته خفقة ، دع هذا كله :

(١) كاع عن الشيء : خافه وجبن عنه ، وهى لغة فى ك .

(٢) مر قبل فى الصفحة السابقة (س : ٢١) « الغريب من إذا نادى لم يجب ، وإن هادى لم يحب » .

الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعياً إليه ، بل الغريب مَن تهالك في ذكر الله متوكلاً عليه ، بل الغريب من توجّه إلى الله قالياً لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضاً لجدواه .

يا هذا : أنت الغريب في معناك .

أيها السائل عن الغريب ، اعمل واحدة ولا أقل منها ، وإذا أردت ذكْرَ الحق فانْسَ ما سواه ، وإذا أَرَدْتَ قُرْبَه فابعد عن كلّ ما عداه ، وإذا أردت المكانةَ عنده فَدَعْ ما تهواه لما تراه ، وإذا أردت الدعاء إليه فَميّزْ ما لك مما عليك في دعواه : طاعاتك كلهُا مدخولة ، فلذلك ما ليست هي مقبولة ؛ هممك كلها فاسدة ، فلذلك ما ليست هي [٣٧ / أ] صاعدة ؛ أعمالك كلها زائفة ، فلذلك ما ليست [هي] نافعة ؛ أحوالك كلها مكروهة ، فلذلك ما ليست هي مرفوعة .

ويلك ، إلى متى تنخدعُ وعندك أنك خادع ؟ وإلى متى تظنُّ أنك رابح وأنت خاسر ؟

وإلى متى تدّعي وأنت منفيّ ؟ وإلى متى تحتاج وأنت مكفيّ ؟ وإلى متى تبدى القلق وأنت غنيّ ؟ وإلى متى تهبط وأنت عليّ ؟ ما أعجب أمراً تراه بعينك ، ألهاك عن أمر لا تراه بعقلك .

الحمار أيضاً يرى بعين ولا يرى بغيرها . أفأنت كالحمار فتُعْذَر ؟ فإن لم تكن حماراً . فلمَ تتشبّه به ؟ وإن كنته ، فلِمَ تدّعي فضلاً عليه ؟ وإذا لم تكن حماراً بظاهر خلقتك وصيغتك ، فلا تكُنْه أيضاً بباطن بنيتك وحِليتَك .

قد والله فَسَدْتَ فساداً لا أرجوك معه لفلاح ، ولذلك ما أدرى بأيّ لسان أحاورك ، وبأى خلُق أجاورك ، في أى حقيقة أشاوِرك ، وبأى شئ أُداورك : سرُّك كُفران ، ولفظك بُهْتان ، وسرورك طغيان ، وحزنك عصيان ، وغناك مَرح وبَطَر ، وفقرك تَرَح وضَجَر ، وشبعُك كظَّة وتُخة ، وجُوعك قنوط وتُهمة ، وغزْوك رياد وسُمْعة ، وحَجُّك حيلة وخدعة ، وأحوالك كلها بَهْرَجٌ وزيْف ، وأنت لا تحاسب نفسك عليها بِلمَ ، ولا بكَم وكيف .

ما أسعد من كان فى صدره وديعة اللّه بالإيمان فحفظها حتى لا يسلبها منه أحد أتدرى ما هذه الوديعة ؟ هى واللّه وديعة رفيعة ، هى التى سبقت لك منه وأنت بَدَدٌ فى التراب لم تجمعك بَعْدُ الصورةُ ، ولم يقع عليك اســـم ، ولم يُعرف لك عيّن ، ولم يَدُلَّ عليك خبر ، ولم يَحْوِكَ مكان ، ولم يَصْفك عِيان ، ولم يُحطْك بيان ، ولم يزت عليك أوان . أنت فى ملكوت غيب اللّه ثابتٌ فى علم اللّه ، عطلٌ من كل شئ إلا أن مشيئة اللّه [٣٧ / ب] ترشّح لمعرفته ، وتلحظ فى صفوته ، وتؤهِّل لدعوته .

فما أسعدك أيها العبد بعناية القديمة من ربك الكريم الذى نظر لك قبل أن تنظر لنفسك ، وأيديك بما لم تهتد إليه همتك ، وحتى إذا نشره مطويك ، ورتق مُفتتقك ، وجمع مفتَرقك ، وقَوّم منآدك ، وسّوى مُعْوجَّك ، وفتح عينك ، وطرح شعاعها على ملكوته التى جعلها قبالة بصرك ، وعرّفك نفسك ، ودعاك باسمك ، وشهرك بحكمت فيك ، وأظهر قدرته عليك ، وعجّب غيرك منك ، ولاطفك ولطف لك ، وبينّ لك مكانتك إذا أطعت ، ومهانتك إذا عصيت ، وثَبت على شهواتك فتناولها ، ، وعلى لذّاتك فانهمكت فيها ، وعلى معاصيك (١) فركبت سناما ، ولم تفكر فيما خلفها وأمامها ، ولمّا قيل لك : اتق الله أخذتك العِزّة بالإثم ، وبؤت فيما فيك من نعم اللّه عليك تهر على ناصحك ، وتهزأ بالمشفق عليك ، وتحاجه بالجهالة ، وتقابله بالكبرياء والمخيلة ، وإنك عندى لمن المســرفين ، بل من المجـرمين ، بل من الظالمين ، بل من الفـاسـقين ، بل من المطرودين ، بل ممن قد تعرض بالكبرياء والمخيلة ، وإنك عندى لمن المسرفين ، بل ممن قد تعرض لأن يسلبه الله ما أعطاه ، ويجعل النار مأواه ، حتى يصير عبره لمن وراه .

(١) زاد فى نص هنا « لمن هذا حديثة معك » ولم أر له وجهاً .

يا هذا : أحَجَر أنت ؟ فما أقسى قلبك ، وما أذهبك فيما يغضب عليك ربك ، أبينك وبين نفسك ترة أو كيد ؟ أهل يفعل الإنسان العاقل بعدوه ما تفعله أنت بروحك ؟ لا ينفعك وعظ وإن كان شافياً ، ولا ينجع فيك نصح وإن كان كافيا .

اللهم : تفضل علينا بعفوك إن لم نستحقّ رضاك ، يا ذا الجلال والإكرام .

---

(١) هذه الرسالة وردت بعنوان « أركان المعرفة من الإشارات الإلهية » في نسخة ر .

النفّرى (ت٣٥٤ هـ)

محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفّرى ، أبو عبد الله ، منصوف ، وعالم بالدين يُنسب إلى بلدة نِفّرة ، وهى مدينة قديمة من أعمال الكوفة ، تأثر بالحلاج ، وإسهامه الأصيل فى التصوف يتمثل فى قوله « بالوقفة » ، وهو ما فصله فى كتابيه :

المواقف والمخاطبات

وهما مطبوعان وكلاهما فى التصوف .

٧ - موقف الرحمانية

أوقفنى فى الرحمانية وقال لى هى وصفى وحدى .

وقال لى هى ما رفع حكم الذنب والعلم والوجد .

وقال لى ما بقى للخلاف أثر فرحمه ، وما لم يبق له أثر فرحمانية .

وقال لى قف فى خلافية التعريف ، فوقفت فرأيته جهلا ، ثم عرفت فرأيت الجهل فى معرفته ولم أر المعرفة فى الجهل به .

وقال لى من استخلفته لم أسوه على رؤيتى بشرط يجدنى إن وجده ويفقدنى إن فقده .

وقال لى إن استخلفتك شققت لك شقا من الرحمانية ، فكنت أرحم بالمرء من نفسه ، وأشهدتك مبلغ كل قائل فسبقته إلى غايته فرآك كل أحد عنده ولم تر أحدا عندك .

وقال لى إن استخلفتك جعلت غضبك من غضبى فلم ترأف بذى البشرية ، ولم تتعطف على الجنسية .

وقال لى إذا رأيتنى فاتبعنى ، ولو صرفت وجوه الكل عنك فإنى أقبل بهم خاضعين إليك .

وقال لى إذا رأيتنى فاعرض عمن أعرض عنك وأقبل إليك .

وقال لى إن استخلفتك أقمتك بين يدى وجعلت قيومتى وراء ظهرك وأنا من وراء القيومة ، وسلطانى عن يمينك وأنا من وراء السلطان ، واختيارى عن شمالك وأنا من وراء الاختيار ، ونورى فى عينيك وأنا من وراء النور ، ولسانى على لسانك وأنا من وراء اللسان ،

وأشهدتك أنى نصبت ما نصبت وأنى من وراء مانصبت ، ولم أنصب تجاهك منصبا هو سواى ، فرأيتنى بلا غيبة ، وجريت فى أحكامى بلا حجبة .

وقال لى إذا أشهدتك حجتى على ما أحببت كما أشهدتك حجتى على ما كرهت فقد أذنتك بخلافتى واصطفيتك لمقام الأمانة على .

وقال لى إذا رأيتنى فانصرنى ، فلن يستطيع نصرتى من لم يرنى .

وقال لى إذا لم تقو على الحجاب عنى فقد أذنتك بخلافتى .

وقال لى ألى خاتمى الذى أتيتك تختم به على كل قلب راغب بالرغبة ، وكل قلب راهب بالرهبة ، فتحوز ولا تحاز ، وتحصر ولا تحصر .

وقال لى من غال عنى ورأى علمى فقد استخلفته على علمه ، ومن رآنى وغاب عن علمى فقد استخلفته على رؤيته .

وقال لى من رآنى ورأى علمى فهو خليفتى الذى أتيته من كل شىء سببا .

مخاطبة ١

ياعبد إن لم أنشر عليك مرحمة الرحمانية لطوتك يد الحدثان عن المعرفة .

يا عبد إن لم تنر لك أنوار جبروتى لخطفتك خواطف الذلة وطمستك طامسات الغيار .

ياعبد إن لم أسقك برأفتى عليك أكواب تعرفى إليك أظماك مشرب كل علم وأحالتك برقة كل خاطر.

ياعبد أنا الناطق وما نطقى النطق ، وأنا الحى وما حياتى الحياة ، أحلت العقول عنى فوقفت فى مبالغها وأذهلت الأفكار عنى فرجعت إلى متقلبها .

« الوزراء » لابن عبدوس (١) ، و « الحيوانات » لقدامة (٢) . هذا إلى غير ذلك من جَوامِعَ للناس مضافاتٍ إلى حفظ ما فاهوا به ، واحتجوا له ، واعتمدوا عليه ، في مَحاضرِم ونواديهم ، وحَواضرهم وبَواديهم ، ما يطول إحصاؤه ، ويُمِلُّ استقصاؤه ، وسيعتزى (٣) في التفصيل كلُّ شيء منه إلى معدنه ، وينتسب (٤) إلى قائله ؛ والغَرَض من الكتاب مَسُوقٌ إليك ، والمرادُ فيه (٥) معروض عليك ، فلا عائدةَ إذن للإطالة ، إلا بقدر التلطف والاستمالة .

وأنا ضامنٌ لك أنك لا تخلو في دراسة هذه الصحيفة من أُمهات الحِكَم ، وكنوز الفوائد :

أولُها وأجلُها ما يتضمن كتابُ الله تعالى الذى حارتِ العقولُ الناصعة في رَصْفه ، وكلَّت الألسن البارعة عن وَصْفه ، لأنه المُطْمِع ظاهرُه (٦) في نفسه الممتنع باطنُه بنفسه . الداني بافهامه إياك إليك ، العالي بأسراره وغيوبه عليك ، لا يُطارُ بحواشيه ، ولا يُمَلُّ من تلاوته ، ولا يُحَسّ بإخلاق جدَّته ، كما قال عليّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه (٧) : ظاهرُه أنيق ، وباطنُه عميق ، ظاهرُه حُكم ، وباطنُه عِلْم .

(١) ابن عبدوس هو أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي المعروف بالجهشيارى . أحد كبار المؤرخين القدماء وواحد من البارزين من رجالات الدولة العباسية في عصره ، توفى سنة ٣٣١ ، أخباره متفرقة في المصادر ، وله ترجمة في الفهرست: ١٤١ والوافي بالوفيات ٣ : ٢٠٥ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٧٩ وكتابه المذكور في النصّ والمسمّى « كتاب الوزراء والكتاب » طبع في القاهرة سنة ١٩٣٨ بتحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى ، وفي سنة ١٩٦٤ قام ميخائيل عوّاد بطبع النقول عن هذا الكتاب من المصادر المخطوطة والمطبوعة ونشرها تحت عنوان « نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب » (دار الكتاب اللبناني . بيروت ١٩٦٤) .

(٢) هو أبو جعفر قدامة بن جعفر بن قدامة البغدادى الكاتب البليغ المنطقى المعروف ببغداد سنة ٣٣٧ ، انظر ترجمته في الفهرست : ١٤٤ والمنتظم ٦ ك ٣٦٣ ومعجم الأدباء ٦ : ٢٠٣ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٩٧ ؛ وكتابه « الحيوانات » المذكور في النص لا ذكر له فيما بين أيدينا من المصادر .

(٣) ح : وسيعزى .

(٤) ح : وينسب .

(٥) والمردا فيه : سقطت من ك .

(٦) ر : بظاهره .

(٧) ر : صلوات الله عليه .

يا عبد اقصدني وتحقق بي فإن الأمر بيني وبينك ، إذا شهدتك أن ذكرى لا يمنع منيّ وأن اسمي لا يحجب عني واني أمنع بذكرى من أشاء ممن أشاء وأحجب باسمي من أشاء عمن أشاء فأنت من خاصتي .

يا عبد أنا أولى بك من علمك وأنا أولى بك من عملك وأنا أولى بك من رؤيتك فإذا علمت قصر وما علمت إلى فاستمع مني فيه واحمل إلى رؤيتك ووقفتك وقف بين يدى وحدك لا بعلم فإن العلم لا يواريك عنى ولا بعمل فإن العمل لا يعصمك منى ولا برؤية فإن الرؤية لا تغنى منى ولا بوقفة فإن الوقفة لا تملك بها منى .

يا عبد قف بين يدى في الدنيا وحدك أسكنك في قبرك وحدك وأخرجك منه إلى وحدك وتقف بين يدى في القيامة وحدك ، وإذا كنت وحدك لم تر إلا وجهى وإذا لم تر إلا وجهى فلا حساب ولا كتاب وإذا لا حساب ولا كتاب فلا روع وإذا لا روع فأنت من الشفعاء .

يا عبد الوجد بما دوني سترة عن الوجد بي وبحسب السترة عن الوجد بي تأخذ منك البادیات كنت من أهلها أم لم تكن من أهلها (١) .

مخاطبة ٢ (٢)

ياعبد أخلصتك لنفسي فإن أردت أن يعلم بك سواى فقد أشركت بي وإذا سمعت من سواى فقد أشركت بي ، أنا ربك الذى سواك لنفسه واصطفاك لمحادثته وأشهدك مقام كل شيء منه لتعلم أن لا مقام لك في شيء من دونه ، إنما مقامك رؤيته وإنما إفرادك حضرته .

---

(١) وإذا سمعت من سواي أشركت بي (إضافة) . مخطوطة غوطة .

(٢) وردت هذه المخاطبة بعنوان مخاطبة الاستخلاص ، في مخطوطة المكتبة البودليانية بأكسفورد .

يا عبد إني جعلت لك في كل مقام معرفة وإني جعلت لك في مقام كل معرفة مقام تعلق لتكون بي لا بالمقامات ولتكون عني لا عن النهايات إني اصطفيتك عن البدايات فزجرتك عنها إلى النهايات ثم اصطفيتك عن النهايات فرحلتك عنها إلى الزيادات ثم اصطفيتك عن الزيادات فرحلتك عنها إلى ، فالبدايات عملك ، ونهاياتها عملك ، والزيادات ثم علم وجدك عندي أتعرف إليه بما أشاء وأنا اليك أنظر لا إلى البدايات ولا إلى النهايات ولا إلى الزيادات ولا إلى الشئ هو بينك وبيني إذ لا بين بيني وبينك ، وأنا أقرب إليك منك فلا إحاطة لك بي ، وأنت حد نفسك وأنت حجاب نفسك كيف كنت وكيف تعرفت إليك ، وأنت منظري فلا الستور المسدلة بيني وبينك وأنت جليسي لا الحدود بيني وبينك .

يا عبد لي جلساء أشهدتهم حضرتي وأتولاهم بنفسي وأقبل عليهم بوجهي وأقف بينهم وبين كل شئ غيرة عليهم من كل شئ ، وذلك لأردهم إلي عن كل شئ ، وذلك ليفقهوا عني ولتوقن بي قلوبهم إني أنا أخاطبهم ، وأولئك أولياء معرفتي بها ينطقون وعليها يصمتون فهي كهف علومهم وعلومهم كهوف أنفسهم .

يا عبد إنما أظهرتك لعبادتي ، فإن كشفت عن سدولك فلمحادثتي وإن أقبلت عليك فلمجالستي .

الأشعرى (ت ٣٢٤ هـ)

أبو الحسن على بن إسماعيل ، ولد فى البصرة من أسرة عربية عريقة شريفة ، فهو من سلالة أبى موسى الأشعرى ، ظل تابعا للجبائى المعتزلى حتى الأربعين من عمره ، ثم ارتحل إلى بغداد ، ووقف فى وجه الفكر المعتزلى واستعمل فى جدله معهم نفس الأسلحة والحجج المنطقية التى تعلمها منهم ، وترجع مكانته المرموقة إلى التوفيق بين طريقة الجدل ومذهب السنة وكان له نشاط أدبي خصب جداً ، وعُرف له من الأعمال تسعة وتسعون كتابا ، من بينها كثير من الرسائل القصيرة ، وسادت آراءه وحججه في البلاد التي يغلب فيها مذهبا الشافعية والمالكية ، ثم جاء الغزالى فتبناها وبلغ بها القمة ، ومن أهم كتبه :

مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين .

وهذا شرح قول المعتزلة فى التوحيد وغيره :

أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ، ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ، ولا بذي لون ولا طعم ولارائحة ولا محبسة ، ولا بذى رطوبة ولا يبوسة ، ولا طول ولا عرض ولا عمق ، ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، ولا يتبعض ، وليس بذى أبعاض وأجزاء ، وجوارح وأعضاء ، وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان ، لا يجرى عليه زمان ، لا تجوز عليه الماسّة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن ، ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ولاَ يوصف بأنه متناه ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات وليس بمحدود ولا والد ولا مولود ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال وتُصور بالوهم فغير مشبه له ، لم يزل أزلاً أولاً سابقاً للمحدثات ، موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل عالماً قادرا حياً ، ولا يزال كذلك ، لا تراه العيون ، ولا تدركه الأبصار ، ولا تحيط به الأوهام ، ولا يسمع بالأسماع شئ لا كالأشياء ، وعالم قادر حي لا كالعلماء القادرين الأحياء وأنه القديم وحده ولا قديم غيره ، ولا إله سواه ، ولا شريك له

فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق ، ولم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شئ بأهون عليه من خلق شئ آخر ولا بأصعب عليه منه ، ولا يجوز عليه اجترار المنافع ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولا يصل إليه الأذى والآلام ، وليس بذى غاية فيتناهى ، ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء .

فهذه جملة قولهم فى التوحيد ، وقد شاركهم فى هذه الجملة الخوارج ، وطوائف من المرجئة ، وطوائف من الشيع ، وإن كانوا للجملة التى يظهرونها ناقضين ، ولها تاركين .

قولهم فى المحال ما هو ؟

واختلفت المتكلمون فى المحال ، ما هو ؟

(١) فقال قائلون : هو معنى تحت القول لا يمكن وجوده ، ثم اختلف هؤلاء ؛ فقال قائلون : هو اجتماع الضدّين وكل مذكور لا يتهيأ كونه ، وقال بعضهم : هو الضدّان يجتمعان .

(٢) وقال سوى هؤلاء : هو القول المتناقض ، ثم اختلفوا فى ماهية القول المتناقض .

فقال قوم : هو قولك فلانٌ قائم قاعد ، وما كان فى مجاره ، وقال بعضهم : ليس هذا هكذا لأن قاعداً إثبات ، والإثباتان لا يتناقضان وإن فسدا أو فسد أحدهما ، وإنما يقع التناقض والتنافى فى قولك فلان قائم ، وليس بقائم وهو قائم ، لأن الثاني نفى لمعنى الأول .

(٣) وقال قوم آخرون : كل كلام لا معنى له فهو محال .

(٤) وقال قوم آخرون : كل قول أزيلَ عن منهاجه واتسق على غير سبيله وأحيل عن جهته وضُم إليه ما يبطله ووصل به ما لا يتصل به مما يغيره ويفسده ويقصر به عن وقعه وإفهام معناه فهو محال ، وذلك كقول القائل : أتيتك غداً ، وسآتيك أمس [١]، وهذا قول « ابن الراوندى » .

---

(١) الفعل في العبارة الأولي يدل علي الزمن الماضي بصيغته ، فاتصال الظرف الدال علي المستقبل به أزاله عن منهاجه ، والعبارة الثانية بالعكس .

هل الكذب من المحال ؟

واختلفوا في باب آخر هذا في الكلام:

(١) فقال قائلون : المحال لا يكون كذبا ، والكذب لا يكون محالا .

(٢) وقال قائلون : كل كذب محال ، وكل محال كذب .

(٣) وقال قائلون : من الكذب ما ليس بمحال ، والمحال كله كذب ، منهم من يقول : إذا قال « العاجز قادر فلم يحل ولكنه كذب وإلا أن يكون قد وصفه بالقدرة علي ما لا يجوز أن يقدر عليه » ، فإذا قال « الغائب حاضر » فكذلك ، إذ قال « القديم محدث » فهذا محال ؛ لأن هذا مما لا يجوز أن يكون ، قد كان يمكن أن يكون العاجز قادراً والغائب حاضراً .

ابو سليمان السجستانى

(ت ٣٨٠ هـ)

هو أبو سليمان بن طاهر السجستانى (ت . نحو ٣٨٠) كان من أهم المفكرين فى القرن الرابع الهجرى ، وكانت له مكانة فى بلاط عضد الدولة ، له مكانة ونصوص وآراء كثيرة فى كتب التوحيدى و على وجه الخصوص فى كتابه المقابسات ، والنصوص المختارة له مأخوذة عن المقابسات طبعة حسن السندوبى بالقاهرة ، وترقيمها فى تلك الطبعة ٦٥ ، ٨٨ ، ٢٣

١ - العرب والأدب

هذه مقابسة نذكر فيها نوادر سمعناها فى الفلسفة العالمية من أبى سليمان مفيدة ، وإذا وهب اللّه نشاطا وتمكينا عدنا إلى نظائرهن فرويناهن فانها كثيرة نافعة غريبة .

سمعته يقول : نزلت الحكمة على رؤوس الروم ، وألسن العرب ، وقلوب الفرس ، وأيدى الصين .

وقال أيضا :إنما يخرج الزبد من اللبن المخض ، وإنما تظهر النار من الحجر بالقدح ، وإنما تستبان النجابة من الاناسى بالتعليم ، والمعدن لا يعطيك ما فيه إلا بالكدح ، والغاية لا تبلغها إلا بالقصد ، ومن نشأ بالراحة الحسية فاتته الراحة العقلية ، والعجلة تنسصرم والآجلة تدوم .

وقال الْحَرَفُ (١) الذى يدعى فى العربية وينسب إلى الأدب موروث من العرب ، وذلك أن أرضها ذات جدب ، والخصب فيها عارض ، وهم من أجل ذلك أصحاب فقر ، وضر ، وربما دفعوا إلى وصال (٢) وطى (٣) وكل من تشبه بهم فى كلامهم وطريقتهم وعبارتهم ارتضى ما هو غالب عليهم من الحرف والاخفاق اللذين عليها إلْفُهم ، وألا ترى أن الشبع غُريب عندهم ، والرعب مذموم منهم ؟ وهذه هى الحال التى فرقت بين الحاضرة والبادية ، وقد زادتهم جزيرتهم شراً لكنهم عرضوا الفطنة العجيبة ، والبيان الرائع و التصرف المفيد ، والاقتدار الظاهر ، لأن أجسامهم نقّيت من الفضول ، ووصلوا بحدة الذهن إلى كل معنى معقول ، وصار المنطق الذى

---

(١) الحرف : الابتعاد عن ممارسة المهن وضيق الرزق .

(٢) وصال : وصل الليل بالنهار بلا طعام ، فى حالة جوع .

(٣) طى : قضاء الليل بلا طعام مع شعور الجوع .

بان به غيرهم بالاستخراج مركوزا فى أنفسهم من غير دلالة عليه بأسماء موضوعة وصفات متميزة بل فشا [فيهم] كالالقاء والوحى ، لسرعة الذهن وجودة القريحة .

وقلت له : قد صنف أبو إسحق الصابى رسالة فى تفضيل النثر والنظم ؟

فقال : قد كان منذ أيام سألنى عنهما فقلت له : النثر أشرف جوهرا والنظم أشرف عرضا .

قال : وكيف ؟ قلت : لأن الوحدة فى النثر أكثر ، والنثر إلى الوحدة أقرب ، فمرتبة النظم دون مرتبة النثر ، لأن الواحد أول والتابع له ثان .

فقلت له : فلم لا يطرب النثر كما يطرب النظم ؟

فقال : لأنا منتظمون ، فما لاءمنا أطربنا ، وصورة الواحد فينا ضعيفة ونسبتنا إليه بعيدة ، فلذلك إذا أنشدنا ترنحنا ، هذا الطرب والأريحية والنشوة والترنح عند فصل منثور ، ومما يهدى لهذا نصرناه والمعنى الذى اجتبيناه ، أن الكتب السماوية ، وردت بألفاظ منثورة ، ومذاهب مشهورة ، حتى إن من اصطفى بالرسالة فى آخر الأمر غلبت عليه تلك الواحدة ، فلم ينظم من تلقاء نفسه ، ولم يستطعه ، ولا ألقى إلى الناس عن القوة الآلهية شيئا على ذلك النهج المعروف ، بل ترفع عن ذلك ، وخص فى عرض ما كانوا يعتادونه ويألفونه ، بأسلوب حير كل سامع ، وبرد غلة مصيخ ، وأرشد كل غاو ، وقوم كل معاند ، وأفاد كل لبيب وأوجد كل طالب ، وخسأ كل معرض ، وهدى كل ضال ، ورفع كل لبس ، وأوضح كل مشكل ، ونشر كل علم ، وأقاد كل شارد ، وقمع كل ردئ وهذا لا يكون ، ولا يجب أن يكون إلا فى الشخص المخصوص الذى يؤهل لنظم الكلمة المنتشرة ، باظهار الدعوة الغريزية فى أيام السعادة المنتظرة بين خير أعوان ، ثم يكون لهذا كله زمان محدود ينتهى إليه على السياح الأول مع العوارض التى تختلف من عجائب الزمان وأفانين الدهر ، فإذا كان كذلك كر على سالفه بتحديد شأن سببه بالدارس إلى أن تعود نضرته المعهودة فتزول خلوقته العارضة .

٢ - البـلاغــة

سألت أبا سليمان عن البلاغة ما هي ، قلت : أحببتُ أن أعرف قولا على نهج هذه لأن لهم كتاب الخطابة فى عرض كتاب الفيلسوف وقد بحثوا عن مراتب اللفظ واللفظ (و) طبائع الكلمة والكلمة ، موصلة ومفصلة ، وخواتيم ، أحق ما اعتمد ؟

فقال : هى الصدق فى المعانى مع ائتلاف الأسماء والأفعال والحروف ، وإصابة اللغة وتحرى الملاحة المشاكلة برفض الاستكراه ومجانبة التعسف فقال له أبو زكريا الصميرى : قد يكذب البليغ ولا يكون بكذبه خارجا عن بلاغته ؟

فقال : ذلك الكذب قد ألبس لباس الصدق ، وأعير عليه حلة الحق ، فالصدق حاكم ، وإنما رجع معناه إلى الكذب الذى هو مخالف لصورة العقل الناظم للحقائق ، والمهذب للأغراض، المقرب للبعيد ، المحضر للقريب .

فقلت لأبى سليمان: فهل بلاغة أحسن من بلاغة العرب ؟

فقال : هذا لا يبين لنا إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة وحذق ثم نضع القسطاس على واحدة واحدة منها حتى نأتى على آخرها وأقصاها ثم نحكم حكما بريئا من الهوى والتقليد والعصبية والمين ، وهذا مالا يطمع فيه إلا ذو عاهة ؟ ولكن قد سمعنا لغات كالعربية ، وذلك لأنها أوسع مناهج ، وألطف مخارج ، وأعلى مدارج ، وحروفها أتم ، وأسماؤها أعظم ومعانيها أوغل ، ومعاريضها أشمل ، ولها هذا النحو الذى حصته منها حصة المنطق من العقل ، وهذه خاصة ما حازتها لغة على ما قرع آذاننا وصحب أذهاننا من كلام أجناس الناس ، وعلى ما ترجم لنا أيضا من ذلك ، ولولا أن النقص من سوس هذا العالم وتوسه لكان علم المنطق بهيئة الطبيعة العربية ، وكانت بسوق العربية إلى طبائع اليونانية ، فكانت المعانى طباقا للألفاظ والألفاظ طباقا للمعانى وحينئذ كان الكمال ينحط إليه عن كثب ، والجمال يصادفه بلا رعب ولا رهب .

قال أيضا : أصل الدور بعد الدور ، والكور بعد الكور ، ينسيان هذا الذى شمناه لقوم يكونون بعد ما فات العالم ، مشتاق إلى الكمال ، مشتاق إلى الجمال ، وعندهما يكون الغاية وإليهما تقف النهاية .

وقال : مما يوضح هذا الشكل ، ويبين هذا المجمل ، صورة العالم ، فكل وقت وساعة على حال لم يكن عليها قبل ذلك بما يفيض عليه ويسرى إليه من الحق الأول والوسائط الأولى بالجود الأعظم والأشمل ، وإذا كان للعالم ولكل ما فيه صورة محدودة وشكل فاضل يصير فى كل وقت ولحظة إلى هيئة لم تكن عليها من قبل ، فهل ذلك إلا لأن العالم متوجه نحو الكمال والجمال ينالهما حالا فحال ؟ ثم يكون له بجود الحق الأول مبتدأ به ويتحدد ويسوقه وتمتد عليه نقلته من غير انفعال بتوسط ولا نحو أمر يعرض ، وهذا المبدأ مفروض ، والا فالحال متصلة اتصال الواحد بالواحد من حيث يلحظ ما هو واحد ، واتصال الوحدة بالوحدة من حيث يلحظ ما له وحدة .

وقال : أيضا وهو الذى أشرنا إليه : العالم إنما هو من ناحية قبوله وانفعاله وما هو بسبيله ، وإلا فالجود الأول هو الجود الثانى ، والثانى هو الأول ، وإلى مالا غاية معلومة ولا نهاية موهومة ، الا أن هذا لائق بالاله الذى ينبغى وبه يليق ، فأما العالم فتجدده وحسنه وكماله وتمامه فمضاف إليه وملحوظ فيه .

ولما دق كلامه ، واعتاص لفظه ، وتسلسل إيماؤه ، وسقط عنى إتقان جل ما كنت حويته ، ورأيت الحظ لى ولمن يرى رأى أن لا أخل بما أمكن من ذلك ، فاثبته على ما تجده من الفتق والرتق والرقع والخرق ، وأنت أبقاك الله أولى من تدارك حله ، وستر خلله ، وأرجو أن لا تخرج من حسن الظن بى ، ولا تغلط الفراسة فيك ، ولا تدخل فى غمار من لا يساوى عيانه خبرك ولا يلحق كله بعضك ، كان الله لك ومعك ، وهو حافظنا لك ودافعنا عنك ومؤنسنا بك .

٣ - النحو والمنطق

قلت لأبى سليمان : إنى أجد بين المنطق والنحو مناسبة غالبة ومشابهة قريبة ، وعلى ذلك فما الفرق بينهما ، وهل يتعاونان بالمناسبة ، وهل يتفاوتان بالقرب به ؟

فقال : النحو منطق عربى ، والمنطق نحو عقلى ، وجل نظر المنطقى فى المعانى ، وإن كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التى هى لها كالحلل والمعارض ، وجلُ نظر النحوى فى الألفاظ ، وإن كان لا يسوغ له الإخلال بالمعانى التى هى لها كالحقائق والجواهر ؛ ألا ترى أن المنطقى يقول بخير وهو ينفعل ، والنحوى فيما خلاه اللفظ ؟ ونظائر هذا المثال شوائع ذوائع فى عرض الفنين والنظرين ، وأعنى المنطق والنحو ، كما أن التقصير فى تحبير اللفظ ضار ونقص وانحطاط ، فكذلك التقصير فى تحرير المعنى ضار ونقص وانحطاط ، وحد الإفهام والتفهم معروف ، وحد البلاغة والخطابة والبلاغة ، لأنها متقدمة بالطبع ، والطبع أقرب إلينا والعقل أبعد عنا ، والبديهة منوطة بالحس ، وإن كانت معانة من وجة الحس ، وليس ينبغى أن يكتفى بالإفهام كيف كان ، وعلى أى وجه وقع ، فان الدينار قد يكون ردىء ذَهَبٍ وقد يكون ردئ طبع وقد يكون فاسد السكة وقد يكون جيد الذهب عجيب الطبع حسن السكة فالناقد الذى عليه المدار ، وإليه العيار ، يبهرجه مرة برداءة هذا ، ومرة برداءة هذا ، ويقبله مرة بحسن هذا ، ومرة بحسن هذا ، و الافهام إفهامان : ردئ وجيد ، فالأول لسفلة الناس ، لأن ذلك غايتهم وشبيه برتبتهم فى نقصهم ،الثانى لسائر الناس ، لأن ذلك جامع المصالح والمنافع ، فأما البلاغة فانها زائدة على الإفهام الجيد بالوزن والبناء والسجع والتقفية ، والحلية الرائعة ، وتخير اللفظ ، واختصار الزينة ، بالرقة والجزالة والمتانة وهذا الفن لخاصة النفس ، لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام والتواصل إلى غاية ما فى القلوب لذوى الفضل بتقويم البيان .

قلت له : فما النحو ؟

فقال : على ما يحضرنى الساعة من رسمه على غير تصفية حده وتنقيحه : إنه نظر فى كلام العرب يعود بتحصيل ما تألفه وتعتاده ، أو تفرقه وتعلل منه ، أو تفرقه وتخليه أو تأباه وتذهب عنه ، وتستغنى بغيره .

قلت : فما المنطق ؟

قال : آلة بها يقع الفصل والتمييز بين ما يقال : هو حق أو باطل ، فيما يعتقد ، وبين ما يقال : هو خير أو شر ، فيما يفعل ، وبين يقال : هو صدق أو كذب ، فيما يطلق باللسان وبين ما يقال : هو حسن أو قبيح بالفعل .

قلت : فهل يعين أحدهما صاحبه ؟

قال : نعم ، وأى معونة إذا اجتمع المنطق العقلى والمـــنطق الحسى ؟ فهو الغاية والكمال قال : ويجب أن تعلم أن فوائد النحو مقصورة على عادة العرب بالقصد الأول من أي جيل كانوا وبأى لغة أبانوا : إلا أن يتعذر [وجود] أسماء عند قوم وتوجد عند قوم ، فحينئذ الحال فى التقصير يتورك على تعذر الاسماء أو على وضعها على الخلاف ، إما بالتواطؤ والاصطلاح ، وإما بالطبع والاسماع .

قال : وبالجملة ، النحو يرتب اللفظ ترتيبا يؤدى إلى الحق المعروف أو إلى العادة الجارية ، والمنطق يرتب المعنى ترتيبا يؤدى [إلى] الحق المعترف به غير عادة سابقة ، والشهادة فى المنطق مأخوذة من العقل ، والشهادة فى النحو مأخوذة من العرف ، ودليل النحو طباعى ، ودليل المنطق عقلى . والنحو مقصور ، والمنطق مبسوط . والنحو يتبع ما فى طباع العرب ، وقد يعتريه الاختلاف ، والمنطق يتبع ما فى غرائز النفوس .

وهو مستمر على الائتلاف . والحاجة إلى النحو أكثر من الحاجة إلى المنطق ، كما أن الحاجة إلى الكلام فى الجملة أكثر من الحاجة إلى البلاغة ، لأن ذلك أول ، وهذا ثان ، والنحو أول مباحث الانسان ، والمنطق آخر مطالبه ، وكل إنسان منطقى بالطبع الأول ، ولكن يذهب عن استنباط ما عنده بالإهمال وليس كل إنسان نحويا فى الأصل ، والخطأ فى النحو يسمى لحنا ، والخطأ فى المنطق يسمى إحالة ، والنحو تحقيق المعنى باللفظ ، والمنطق تحقيق المعنى بالعقل وقد يزول اللفظ إلى اللفظ ، والمعنى بحاله لا يزول ولا يحول ؛ فأما المعنى فإنه متى زال إلى معنى آخر تغير المعقول ورجع إلى غير ما عهد فى الأول . والنحو يدخل المنطق ، ولكن مرتبا له والمنطق يدخل النحو ، ولكن محققا له ، وقد يفهم بعض الأغراض وإن عرى لفظة من النحو ولا يفهم شئ منها إذا عرى من العقل ، والنحو أشد التحاما بالطبع ، والنحو شكل سمعى ، والمنطق شكل عقلى ، وشهادة النحو طباعية ، وشهادة المنطق عقلية ، وما يستعار للنحو من المنطق حتى يتقوم ، أكثر مما يستعار من النحو للمنطق حتى يصح ويستحكم . فالمنطق وزن لعيار العقل ، والنحو كيل بصاع اللفظ ، ولهذا قيل فى النحو الشذوذ والنادر ، وردئ المنطق ما جرى مجراهما .

فهذا ما استهدف من قوله ، وهو باب مفتوح يمكن أن يقال فيه من هذا الجنس ما يكون شاهدا لما قال والسلام .

٤ - معارف الناس

قال : سمعت شيخنا أبا سليمان يقول : معارف الناس بالقول المجمل على التقريب تنقسم أصولها إلى الظن والوهم ، والحدس والعقل ، واليقين والشك والغالب والسابق ، الايهام والايجاس والخاطر والسانح واللائح ، ثم إن هذه كلها تتخالف مرة وتتلابس مرة ، وتتراءى مرة وتتوارى ، ولم يخلص مطلب من المطالب ، ولا مذهب من المذاهب ، من شوب مثلها ، على قدر القلة والكثرة ، والضعف والقوة ، واللين والشدة [و] على حسب المزاج والهيئة والخلط والطبيعة ، والمنشأ والعادة ، وعلى ما يعجب الانسان من استبداده أو تقليده ؛ ولو خلص مظنونه من موهومه ، وتميز محسوسه من معقوله ، وانفصل معلومه من مجهوله ، وبان ملتمسه من هواه ، لكان يكدر الحق بالباطل ، ولا يصفو الباطل بالحق ، ولتوضحت الأشياء بأعيانها ، وتَقَّيتْ من أدرانها ، وزال شك الناظر فى أثنائها ، ووقع على حقائقها وأنبائها ، وعاد ثَلَج الصدر باليقين ، معمور النفس بالسكون ، غنيا عن تأليف القياس والبرهان و تصنيف فنون القول والبيان ؛ ولكن الانسان مضروب بالظن والحدس ، ومصنوع بالعقل والحس ، ومردد بين النقص والزيادة ، ومعرض فى كل وقت للشقاوة والسعادة ، لا فكاك له من جميع ذلك ما دام فى مَسْلَكِه الطبيعى ، وعقله الجزئى وجله الكلى ، اللهم إلا أن يلبسه اللّه لباس الرحمة ، ويُغشِّيه غشاء العصمة ، فحينئذ إن قال قال الصواب ، وإن فعل فعل الواجب ، وإن اعتقد اعتقد الحق ، وإن هم هم بالخير ، وإن نوى نوى الجميل ، وإن حث حث على الصلاح وإن زجر زجر عن الفساد ، وإن لحظ لحظ العلو ، وإن غض غض عن السفل .

فقال له بعض الحاضرين : فكأنه يفارق الطبيعة البشرية ، وينسلخ من العوائق العنصرية ؟

فقـال : يفـارقهـا من وجه ولا يفـارقهـا من وجه [يفـارقهـا] بأن يميت هواجسـهـا إمـاتة ، ويسكن سونحهـا تسكينا ، ويخمـد لواهبـهـا إخمـاداً ، ويقتـدر على بلوغ هذه الغـاية اقتـدارا. ولا يفـارقـهـا بأن يـبقى إنسـانا لا طبـيعـة له ولا مزاج ولا بشـرية : هذا مـالا يجب ؛ وهذه هي حـال الفلاسفة الكبار ، وحال البررة الأخيار ، وحال من قد خصه بالزلفى ، وأناق به على الذروة العليا .

واندفع في هذا وما شاكله يقوى بدر وتبر وتمر ، وكان كاملا بهذا الفن لا يؤتى فيه من عي ومش ، ولا من نقص ولبس ، وقـام جلسـاؤه عنه في هذه العـشيـة وكـأنما قـد نهلوا من الخمـرة الصرف والشراب العتيق ، وكان كلامه أكثر من هذا ولكن إلى هاهنا بلغ حفظي وتتبعي ، وسيمر عنه ما يشفي القَرَمَ ولا يورث السأم ، إن شاء الله تعالى .

أبو الحسن العامرى (ت ٣٨١ هـ)

(١) هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى النيسابورى (المتوفى ٣٨١) . فيلسوف عاش فى خراسان والعراق ، وكان على صلة وثيقة بابن العميد . وله آراء ونصوص كثيرة منقولة فى كتاب المقابسات للتوحيدى ، ومنه اخترنا المقابسات ٤١ ، ٤٣ .

١ - أرباب الحكمة

قال أبو الحسن العامرى : إن المغمض من أرباب الحكمة يدرك بفكره مالا يدركه المُحَدِّق ببصره من غيرهم . وذلك أن الحس محطوط عن سماء العقل ، والعقل مرفوع عن أرض الحسن ، فمجال الحس فى كل ما ظهر بجسمه وعرضه ، ومجال العقل فى كل مابطن بذاته وجوهره . والحس ضيق الفضاء قلق الجوهر ، سيال العين ، مستحيل الصورة ، متبدل الاسم ، متحول النعت . والعقل فسيح الجو ، واسع الأرجاء ، هادئ الجوهر ، قار العين ، واحد الصورة ، ثابت الجسم ، متناسب الحلية ، صحيح الصفة . والفكر من خصائص النفس الناطقة . والنطق فى النفس بتصفح العقل بنور ذاته ، والحس رائد النفس بالوقوع علي خصائصه . وكما قد صح أن الحس كثير الإحالة والاستحالة ، فكذلك قد وضح أن العقل ثابت على ماله فى كل حالة . والحس يفيدك مايفيد فى عرض الآلة التى أصلها المادة ؛ والعقل يفيدك مايفيد على هيئة محضة ، لأنه نور .

قيل : لم ! ألسنا نرى عاقلا يتحول من معقول إلى معقول ، وينتقل من رأى إلى رأى ، وينصرف من معتقد إلى معتقد ؟ فهل هذا إلا لأن السيلان الذى ادعى فى الحس تدرب إليه وعمل فيه ؟ وما هكذا يرى من اعتقد معتقداً بشهادة الحس ! فإنه أثبت رأيا ، وأرسخ يقينا ، وأظهر سكونا ، وعلى هذا : أليس يفيد العلم الذى تسكن معه النفس . والعقل يفيد العلم الذى كأنه مظنون ؟

فقال : هذا كلام من لم يرتض بحكمة القدماء ، ولم يرتق عما عليه العامة والضعفاء؛ والإحساس حفظك أو من إليه من جهة النفس لامن العقل ولا من جهته ، وليس لها حكم على شئ من أحواله إلا من جهة النطق النفسى ، والذى يوضح هذا أن البهائم كلها ذوات إحساس قوية ، وليس لها قضايا منها ولا نتائج بها ، لأنها خادمة للقوة القاضية بالحق ، الدالة على الصحة ،

المفضية إلى المقدمات ، المستخرجة للثمرات ، وإنما وقع لك هذا القول لأنك ظننت أن ما يعتقده كثير من الناس الذين يظنون بأنفسهم أنهم خاصة من ناحية الحق ؟ بل ليس الأمر كذلك ؟ لأنهم يعتقدون أشياء ممزوجة مشوبة مختلطة كدرة يحكمون فيها أحلام العقل وسماء دره ومحايله ، يأخذونها من أشباح الأمور وصفحات الأحوال وظواهر الأشياء ، ولذلك ما يزولون عنها بشرعة ، ويستوحشون منها عند كل شبهة ، وليس كذلك الفلسفة ، فإنها علم العلوم ، وصناعة الصناعات ، لا تعطيك في موضع الشك اليقين ، ولا موضع الظن العلم ، وكلها تعطيك في كل شيء ما هو خاصته وحقيقته ، إن شكا فشكا ، وإن يقيناً فيقيناً .

٢ - الطبيب أخو المنجم

قال العامرى : الطبيب أخو المنجم ، ونظير له وشبيه الحال به ، وذاك أن الطبيب قد يرسم بأنه حفظ الصحة بالتدبير المحمود ، وأزال العلة بالرأى الصحيح . وكمال علم الطب أشرف من موضوعه ، وموضوع علم النجوم أشرف من كماله . أو الصناعة محتملة للحيلة والرزق . كما أنها راجعة إلى الصحة والحذق ، وقد يتفق في زرق الزراق صواب كبير ، كما يعرض في حذق الحاذق خطأ يسير ؛ وللحيرة بين هذين الاتفاقين مجال ، وللمعترض عليها مقال ، وفصل الحال بين الرجلين صعب ، والخطب مشكل . وليس للمصيب بالزرق أن يجعل ذلك قاعدة وأساساً ؛ ولا للمخطئ أن يقطع منه يأساً .

قال : وقفت هذه الصناعة هذا الموقف ، وتدرجت هذا التدرج ، لأن الله تقدس كما أراد بالعافية والبرء والسلامة والنجاة إنعاما وامتنانا ، كذلك أراد بالعلة والمرض واليأس اختباراً وامتحاناً ، ثم أشاع الله العلم بالطب تعليلا للطبيب بسبب رزقه منه ، وتعليلا للمريض بسبب تخفيفه عنه ، فكلا الرجلين ، أعنى المعافى والعليل إلى غايه مضروبة ، على أسباب محسوبة وغير محسوبة ، ولو عافى الله تبارك وتعالى بالطب أبداً لاتخذ الناس الطبيب ربا ، ولو لم ينفع بالطب أحداً لهجر الناس الطب هجراً ، بل جعله علالة مرة مع إحصاء أيام العافية ، وسبب العافية مرة مع التنبيه على موقع النعمة ولذع البلية .

قال : وما هذا مرده ومرجعه إلى أمر الدار وما أسست عليه . ودبر أهلها به ، وصرف سكانها فيه ، فمن لم يفتح بصره لم ير ما فوقه ولا ما تحته ، ولا ما عن يمينه ، ولا ما عن يساره ، كذلك للغيب سبحا لم يطلع على سر هذا الشاهد ، ومكنون هذا الجلى ، وباطن هذا الظاهر ، ومعقول هذا الذى تم عليه الحس ، وخفى هذا الذى وقع عليه الحدس .

قال : والمرض والعافية فى الأبدان بمنزلة الغنى والفقر فى الأحوال ، والغنى والفقر فى الأحوال بمنزلة العلم والجهل فى القلوب ، والعلم والجهل فى القلوب بمنزلة العمى والبصر فى العيون ، والعمى والبصر فى العيون بمنزلة الشك واليقين فى الصدور ، والشك واليقين فى الصدور بمنزلة الغش والنصح فى المعاملات ، والغش والنصح فى المعاملات بمنزلة الطاعة والمعصية فى الأعمال ، والطاعة والمعصية فى الأعمال بمنزلة الحق والباطل فى المذاهب ، والحق والباطل فى المذاهب بمنزلة الخير والشر فى الأفعال ، والخير والشر فى الأفعال بمنزلة الكراهة والمحبة فى الطباع ، والكراهة والمحبة فى الطباع بمنزلة الهجر والوصل فى العشرة ، والهجر والوصل فى العشرة بمنزلة الرداءة والجودة فى الأشياء ، والرداءة والجودة فى الأشياء بمنزلة الصلاح والفساد فى الأمور ، والصلاح والفساد فى الأمور بمنزلة الضعة والرفعة فى المراتب ، والضعة والرفعة فى المراتب بمنزلة القبح والحسن فى الصورة ، والقبح والحسن فى الصورة بمنزلة العى والفصاحة فى الألسنة ، والعى والفصاحة فى الألسنة بمنزلة الاعوجاج والاستقامة فى الأعضاء والاعوجاج والاستقامة فى الأعضاء بمنزلة الحياة والموت فى الأجساد ، والحياة والموت فى الأجساد بمنزلة الشقاء والسعادة فى العواقب . فما أحوج هذا الإنسان بعد قيام هذه الأمور إذاعته ومحله وصرفه إلى يقظه بها يكيس فى معاشه ، ومنها يقتبس لمعاده ، ويقتنى ما يحمد ريعه وجدواه ، ويجتنب ما يصير سبباً لشقائه فى عقباه ؟ فباب الخير مفتوح ، وداعى الرشاد ملحٌّ ، وخاطر الحزم معترض ، ووصايا الأولين والآخرين قائمة ، ومزاحمتهم موجودة ، والخوف عارض ، والأمن مظنون ، والسلامة متمناة ، فماذا ينتظر المرء اللبيب بنفسه بعد هذه الآيات المتلوّة ، والأعلام المنصوبة ، والحالات المتقلبة ، والأعمار القصيرة ، والآمال الكاذبة ؟ أما يتعظ ! أما يعلم أنه من جنسه ومحمول على تدبيره ، وأنه لافكاك له مما لا بد من حلوله به ، من انحلال تركيبه ، واستحالة عنصره ، وانتقاله إلى حال بسيطة إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر ؟ بلى يعلم ، ولكن علما مدخولا ، ويعقل ، ولكن عقلا كليلا ، ويحس ولكن حسا عليلا ، كما قال الأول :

أشكُو إلَى الله جَهلاً قَدْ مُنيتُ به ... بَلْ ليسَ جَهلاً وَلَكنْ علمَ مفتون

٣ - كلمات شريفة

هذه مقابسة تشتمل على كلمات شريفة من كلام أبى الحسن محمد بن يوسف العامرى ، علقت وسمعت أكثرها منه ، وهى التى مرت في شرحه لكتابه الموسوم « بالنسك العقلى » ويصلح أن يأتى عليها هذا الكتاب نأتيت بها على وجهها قصداً لتكثير الفائدة وأخذاً بجماع الحزم .

وقال : ليس اللطف فى تزيين الشئ بل اللطف فى تأنيق التزيين ، وليست المهنة تأدية الصناعة بل المهنة سهولة التأدية ، وليس الكمال المطلق اقتناء الفضيلة الإنسية بل بما يتبع اقتناءها من الجود المزين لها ، أجل النعم هى الاستقبال بشكر المنعم ، وأشرف المواهب هو الفوز بالخلوص لرب المواهب ، ومن لم يؤيد من نفسه بإحكام الحكمة وبأمان العقل ، فقد صيرهما حجة عليه لا له ، الفائز بالإشراف إما أن يوجد مستوليا على المشروف ، وإما أن يوجد مستغنيا عنه ، والمقتصر على المشروف أن يستمد بالإستيلاء على الاشراف أو يستعين بالاستغناء عنه . الوضيع أشر حالا من الخسيس ، فإن الوضيع مذموم في حال ، والخسيس مرذول على كل حال . أشرف العبيد أخلصهم للمولى ، وأشرف أفعال العبيد أرضاها عند المولى ، وأشرف أغراض العبيد هو أن يصفو له المولى ، وأشرف همم العبيد أن يتحد بالمولى . من خصائص المذلة سلوك النفس إلى النقص بعد الفوز بالتمام ، ومن خصائص [المعزة] التشبه بالضعاف مع وفور الطاقة . الحكمة مقتضية لوجود العقل ، والمعانى الثلاثة فى الأتل شئ واحد ، وهو هو ذاته الحق ، فأما فيمن دونه فمختلفة فى حدودها وإن اتحدت فى وجودها . النفس العزيزة هي التى لاتؤثر فيها النكبات ، والنفس الكريمة هى التى لا تثقل عليها المؤونات . مقابل العزيز هو الذليل فى التلون فى أحواله بسرعة علمه ، ومقابل الكريم اللئيم ، والرضي من أفعاله بالخلل عامة . مراتب العبودية بحسب القوة العلمية أربع : أولها مرتبة المتقين ، وهى من علائق الخوف ، والثانية مرتبة المحسنين ، وهى من علائق الرجاء ، والثالثة مرتبة الأولياء ، وهى من علائق المحبة ، والرابعة مرتبة الصالحين ، وهى من علائق الاستقامة . صورة الكل واحدة . هجر القذورات مدرجة إلى الخيرات ، والتمسك بالخيرات محصنة عن الهفوات ، والأمن من الهفوات مرفعة للمقامات ، ومعالي المقامات مجمعة للسرور واللذات . متى لم يجلب الموانع فقد يسير الجوهر الجسماني نحو كماله الأخص . العلم الصحيح

أبلغ من صلاح العمل السديد مع الاعتبار بالعكس فإن الرئاسة والتدبير إليه . فاتحة السعى فى طلب المولى ترك جميع من هو دون المولى ، وتمام السعى فى طلب المولى الاستغناء عن جميع من هو دون المولى . متى جاوز البعض البعض فقد استغنى الجميع عن الجميع ، ومتى اتكل البعض على البعض فقد اضطر الجميع إلى الجميع . بدؤ التعاون افتقار وتمامه استغناء ، وبدؤ التواصل استغناء وتمامه افتقار : متى استتبت الحرفة على هذا العرض الحقيقي فقد سلم المحترف بها عن وصمة التقليد فيها . فراق العبد للمولى يكون على صور أربع ، وهى : القطع ، والطرد ، والحسر ، والحجب . انبعاث الخاطر النفسانى وإن عرض منه التأدى إلى الحرص فلن يجوز أن يعد مرذولا ، فإن لكل واحد منهما مقصوداً عظيم الجدوى ذاتا له وبمثله الحال من كافة ما ينبعث فى النفس كما أن المتدين يفتتح تدينه من درجة التقليد ثم يترقى منها رويدا رويدا إلى معلوم التحقيق ، ومهما اقتصر من تدينه على الرتبة كان مذموما ، وإن لم يجد فى البدأة مختصا بالكنه . الحال فى اللذة والكرامة والثروة والرئاسة ، المعونة والحرمة قد تقع بحسب القرب ، وقد تقع بحسب تقريب مراتب التقريب وبحسب العمل يفتقر إلى آلات ، وهى الاتصال والتفويض والتوبة ، ومراتب التقريب بحسب العمل تنقسم إلى ثلاث مراتب ، وهى الخدمة ، والطاعة ، والعبادة .

وقال : الحال لايجب أن تكون حال الصبى ، والوقت لا يجب أن يكون قريبا من أحوال الصبا ، والطبيعة لا يجب أن تكون ذات أنفعال أو ذات انحلال ، والسبب الداعي لا يجب أن يكون إما الثروة ، وإما اللذة ، وإما الرئاسة ، وإما المحمدة ، بل يجب أن يكون إما شرف الفضيلة ، أو تحصيل السعادة ، والرفقاء لا يجب أن يكونوا سبعيين أو بهيميين .

وقال : النعمة الموضوعة في غير موضعها قد تحسن بالعرض لجهات ثلاث : وهى المحبة ، والغيرة ، والمدرجة . أفعال القلوب أربعة . أولها الزيغ ، ثم الرين ، ثم الغشاوة ، ثم الختم ، وعلاجها الإيمان ، والنداء ، واليقين بالآخرة ، والتصديق للرسالة .

انحلال الأنفس يكون على أربعة أوجه ، أولها : الكسل ، ثم الغبارة ، ثم القحة ، ثم الانتهاك . وعلاجه استشعار التقوى ، والمحافظه على العبادات ، والانفاق فى سبيل الأنفس . أعلى النفس هما هو أن لا يفرح بشئ من السنخ كفرحه بصحته .

مالك الملوك وهو الحال النعلى للطبيعة الانسانية اختصاص كل موجود يفعل له على حدة يحقق أن وجدانه ليس بعيب ، وانحسار العقل عن أن يتوهم لذلك الفعل موجوداً آخر أصلح له منه تحقق له أنه ليس بناقص الذات إذ قد تفرغ كل من الموجودات بفعل له على حدة ، فمن أين تتعرف وبالذى يصدر من مجموعها من الفعل المختص به من وجد مجموعا أن ينتفع بسياقه الشئ إلي الكمال إذا لم يحفظ علته ، ولن ينتفع بحفظ علته إذا لم يصر ذاته بنفسه مستحفظا لطباعه على أخص كماله [و] مالم يصر آمنا في سربه من طغين آلاته المغيرة إلا عنده ، ولن ينتفع بالأمن عنده إلا إذا لم يكن الأمن أبديا على الإطلاق .

إن شرف الإنسان هو الفوز بالسعادة العظمى ونيل المنزلة عند ربه ومن الواجب أن يكون عرض الصناعة المعينة بشأن الإنسان ما هو إنسان أعنى النسك والزهد ، هو تحصيل السعادة العظمى والمنزلة عند الله تعالى وكان الشخص الواحد من أشخاص الناس غير صالح لاستبانة صور الموجودات كلها فى ذاته فيصير بذلك عالما على حدته حسب ما فى أشخاص الحيوانات للآخر ، لما امتنع أن يفنى فناءٍ أبديا ويخلفه الآخر مكانه . ازدحام الصور المتقابلة فى الجوهر النفساني ليس بممتنع ، وازدحام الصور الكثيرة إلى ما يتناهى ليس بممره ، فبورود التلاشي عليه اذاً ليس بواجب ، وحصرها إذا تحلت بالابديات الكلية بطباعنا الخاصية . غير بعيد أن يكون الكمال المطلق هو أن يصير جوهره بحسب السعى الاختيارى حكيما قادرا جوادا . وهو يصير العبد ربانيا بالحقيقة. ولما جعل الشخص الحيوانى توليد المثل لبقاء نوعه فقد أهدى بالطبع المتمم لغايته . وبالعكس لما حرم الكمال الأشرف بنفس حياته قصر طباعه عن التصور له رأسا فلو ضاهاه الإنسان فى هذا الكمال لشاكله فى القصور عن التصور . إذا سعد العبد بوصال مولاه على الحقيقة فقد صارت دنياه آخرته ، وموته حياته ، وفقره غناه ، ومرضه صحته ، ونومه يقظته ، وضعفه قوته ، وهمه فرجه وإذا شقى بالحجب عن مولاه فقد انقلب الأمر بالضد .

مراتب العبودية في العيشة الدنياوية على الحقيقة أربع : أولها الاعتمام للسعادة ، ثم السلوك إليها ، ثم الحصول عليها ، ثم الاستمساك بها . وفى العيشة الأخروية رتبتان : وهما الاغتباط بنيلها ،

والاغتباط بالأمن من زوالها . كما امتنع عليه إبراز فعله المختص به فقد صار وجوده على ما هو عليه مضاهيا لعدمه ، وتلك هي خساسة ذاته .

صلاح الواحد ينزل منزلة الملك ، وصلاح الجميع ينزل منزلة الملك ، وحيث وجد الملك وجد الملك ، ولا ينعكس ؛ فإذاً الإنسان لن يشرف بأن يصير مالكا بل يشرف إذا صار ملكا . وفعل المالك حفظه القنية على صورتها ، وحفظ الملك حفظ مراتب القنيات على درجاتها . متى علم أن الشئ مما يجب أن يعلم وأنه ليس بعلم ، فقد صار المنفول عنه محروصا عليه ، وذلك هو مفتتح السعى ، وهو في الحقيقة أكثر من نصف جملته ، كما أنه ليس يسكن العقل الصريح إلى معرفة المبدأ القريب من الشئ دون أن يعرف المبدأ الأول على الإطلاق ، وما بين المبدءين من الوسائط ، كذا أيضا لا تهدأ النفس القوية على معرفة الغرض القريب للشئ دون أن تعرف الغرض الأخير على الإطلاق ، وما بين الغرضين من الوسائط ، إن كان الأول المحض والآخر المحض بالذات شيئا أحدا ، وإن اختلف الوصفان عليه بالإضافة فبالحري أن يكون المبدأ والغرض المحض غير مختلفين بالذات ، وإن اختلفا بالإضافة . التعرف للذات بحسب المنتهى أربعة ، وهى : أن تعرف لماذا هو ، وكيف السبيل إليه ، وما الذي يحتاج إليه فى التوجه نحوه وما الذي يعوقه عن بلوغه . مراتب التعرف للذات بحسب المبتدأ أربعة ، وهى : أن تعرف ماهو ، ومن جاء به ، ومن داجى به ، وكيف كان مجيئه . ومن أجل أن المستخدم قد يضطر الحال إلى استصلاحها واستحفاظها فيصير فعله فيهما عند ذلك شبيها بفعل الخادم لها في الظاهر ، فليس بعجيب أن يعرض منه الغلط ، أو يبدو من جهته الانخلاع . من سوس العقل الصريح التفرقة بين الحسن والقبيح ، ومن سوسه أيضا السكون إلى الحسن والالتفات عن القبيح ، لأن الشئ متى كان مفرطا فى الحسن فإنه يبهر العقل الجرئ فيحتاج معه إلى التدريج إليه ، والتمرين عليه . خصوصية هذه الصناعة رياضة الأنفس الناطقة على تأدية الأفعال البشرية بصور مستصلحة لاكتساب الزلفى عند خالق البرية . لن يكفي أن تكون الغاية محدودة فى نفسها موجودة بذاتها ، بل يجب مع ذلك أن تكون متصورة عند القاصد لها على ماهي عليه ، وأن تكون أيضا متشوقة محبوبة عنده . يجب أن تتعرف من درك الغاية أهو من جملة النعم أم ليس هو من جملة النعم ، وأنه إن كان من جملة النعم ، أهو مما ينال بحسب الاتصال أم بحسب التعويض أم بحسب المثوبة .

الصاحب بن عباد (٣٢٤ - ٣٨٥)

هو إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الملقب بالصاحب ، كان أبوه كاتب ركن الدولة وعضد الدولة البويهيين . درس إسماعيل على أبيه فن الكتابة كما تلقى على أحمد ابن فارس علوم اللغة . درس في الري ثم في بغداد ، ولكن أكثر حياته كانت في الري وأصبهان كان عمله في دواوين ابن العميد مما قرّبه منه ، ثم أصبح كاتبا له . وحين توفي ركن الدولة خلفه ابنه مؤيد الدولة وكان على صلة وثيقة بابن عباد فولاه الوزارة . وبقى ابن عباد في الوزارة في عهد فخر الدولة بن بويه . وكان ابن عباد واسع الاطلاع في شتى العلوم والمعارف ، مبدعا في الشعر والنثر . وتتمثل في كتاباته خصائص الأدب في القرن الرابع ويغلب على شعره التصنع وتكلف الأساليب البديعية كما نراه يلتزم في رسائله السجع ويهتم بالزخارف اللفظية . ويتحرر من ذلك في كتاباته النقدية وبخاصة في كتابه « الكشف عن مساوئ شعر المتنبي » .

من مقدمة
كتاب الكشف عن مساوئ المتنبي

« أما بعد : أطال الله مُدّتك ، وأدام في العلوّ رغبتك ، فالهوى مركب يَهْوى بصاحبه ، وظهر (١) يعثر براكبه ، وليس من الحَزْم أن يُزْرِي (٢) العالِمُ على نفسه بالعصبية ، ويَضَعَ (٣) من علمه بالحميّة ، فالناس مع اختلافهم وتباين أصنافهم متفقون على أن تغليب الهوى يطمس أعين الآراء ، وأن الميل مع الهوى عن الحق يبْهم (٤) سبيلَ الصدق ، وكنت ذاكرتُ بعض من يَهتَمّ بالأدب والأشعار وقائليها والمجوّدين فيها فسألني عن المتنبي فقلت : إنه بعيد المرمى ، وشعره كثير الإصابة في نظمه ، إلا أنه ربما أتى بالفقرة الغراء مشفوعةً بالكلمة العوراء ، فرأيته قد هاج وحمى وتاجج ، وادعى أن شعره مستمر النظام ، متناسب الأقسام ، ولم يرض حتى تحداني ، فقال إن كان الأمر كما زعمت فأَثْبِتْ في ورقة ما تنكره ، وقيّد بالخط ما تذكره لتتصفحه العيون ،

(١) يعني الدابة .
(٢) يعيب .
(٣) يحقّر .
(٤) يطمس .

وتسبكه العقول . ففعلت ذلك ، وإن لم يكن تطلُّب العثرات من شيمتى ، ولا تتبُّع الزلات من طريقتى . وقد قيل أى عالم لايهفو ، وصارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو ، وإنما قلت ما قلت لئلا يُقَدِّر هذا المعترض من أننى ممن يَرْوِى قبل أن يُرَوِّى ، ويُخْبِر قبل أن يَخْبُر . فاستمع وأنصت ، واعدل وأنصف ، فما أوردتُ من كثير زلٍّ فيه إلا قليلا ، يعلو الغارب منينا بأغبياء أغمار قد اغترُّوا بمادح الجُهّال ، لا يضرعون لمن حَلَبَ الأدب أشطره (١) ولا سيما علم الشعر ، فهو فوق الثريا ، وهم تحت الثرى . وقد يوهمون أنهم يعرفون ، فإذا تكلموا رأيت بهائم مُرَسَّنَةً (٢) ، وأنعاماً مُجْفِلَة (٣) .

من رسائل الصاحب بن عباد

رسالته إلى ابن العميد جوابا عن كتابه إليه فى وصف البحر :

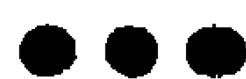
« وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف ماشاهد من عجائبه ، وعاين من مراكبه ، ورآه من طاعة آلاته للرياح كيف أرادتها ، واستجابة أدواتها لها حتى نادتها ، وركوب الناس أشباحها والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلك . إذا أنكروا فى المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر ، وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حَبَّب إليهم الغَرر ، وعرفت ما قاله من تمنّيه كونى عند ذلك بحضرته وحصولى على مساعدته ، ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل ، وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم يعتب على الدهر فيما يُفيته من منظر البحر ، ولافضيلة له عندى أعظم من إكبار الأستاذ لأحواله ، واستفظاعه لأهواله ، كما لاشئ أبلغ فى مفاخره ، وأنفس في جواهره من وصف الأستاذ له ، فإنى قرأت منه الماء السلسال لا الزلال ، والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علم أنه كتب ولما أخطر بفكره سعة صدره ، فلو فعل ذلك لرأى البحر وَشَلا لا يفضل عن القبرص ، وثَمَدًا لا يكثر عن الترشف وكم من جبال جُبْتَ تشهد أنك الجبالى وبحرٍ شاهدُ أنك البحر .

---

(١) يعنى طالت خبرته به .
(٢) الرسن : الحبل وما كان من زمام على الأنف .
(٣) مسرعة .

الــرمـانــى
(٢٩٦ - ٣٨٤ هـ)

على بن عيسى الرمانى نحوى من كبار نحاة النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، عرف فى عصره بشرحه الكبير على كتاب سيبويه . وهو شرح كان يقارن بشرح السيرافى ، وكلاهما من جيلين مختلفين من عصر واحد . يتسم شرح الرمانى بمزيد من المنطق وبمحاولة إيضاح النظرية النحوية بوسائل منطقية ، وكأن بنية اللغة انعكاس مباشر للعقل الإنسانى . ولـه رسالـة فى « معانى الحروف » تعد من أفضل ماكتب تبيانا للدلالات المختلفة لحروف المعانى فى العـربية ، ولـه أيضا رسالـة فى إعجـاز القـرآن .



قال الشيخ الإمام أبو الحسن على بن عيسى الرمانى سألت وفقك الله عن ذكر النكت فى إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج ، وأنا أجتهد فى بلوغ محبتك ، والله الموفق للصواب بمنه ورحمته ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ؛ والتحدى للكافة ؛ والصَّرفة ؛ والبلاغة ؛ والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ؛ ونقض العادة ؛ وقياسه بكل معجزة .

فأمـا البلاغـة فهـى علـى ثلاث طبقات : منها ما هو فـى أعلى طبقـة ، ومنهـا ما هـو فى أدنى طبقـة ، ومنها ما هو فى الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان فى أعلاها طبقـة فهـو معجز ، وهو بلاغة القرآن . وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبـلاغـة البلغـاء مـن الناس . وليسـت البـلاغة إفهام المعنى لأنه قد يفهـم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيـى ؛ ولا البـلاغة أيضاً بتحقيـق اللفظ على المعنى ، لأنه قـد يحقـق اللفـظ على المعنـى وهـو غـث مستكـره ونافـر متكلف . وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ . فأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة . وأعلى

طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم ، فهذا معجز للمفحم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة .

والبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان . ونحن نفسرها باباً إن شاء الله تعالى

باب الإيجاز (١)

الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى . وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة ، فالألفاظ القليلة إيجاز . والإيجاز على وجهين . حذف ، وقِصَر (٢) ، فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام . والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف . فمن الحذف ﴿ واسْأَل القَرية ﴾ ، ومنه ﴿ ولكنَّ البرَّ من اتَّقى ﴾ ، ومنه ﴿ براءةٌ من الله ﴾ ، ومنه ﴿ طاعةٌ وقولٌ معروفٌ ﴾ ؛ ومنه حذف الأجوبة ، وهو أبلغ من الذكر ، وما جاء منه فى القرآن كثير كقوله جل ثناؤه : ﴿ ولو أنَّ قرآنا سُيِّرت به الجبالُ أو قُطِّعتْ به الأرضُ أو كلِّم به الموتى ﴾ كأنه قيل : لكان هذا القرآن . ومنه : ﴿ وسِيق الذين اتَّقَوْا ربَّهم إلى الجنة زُمَراً حتى إذا جاءوها وفُتِحَتْ أبوابُها ﴾ كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذى لا يشوبه التنغيص والتكدير . وإنما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان ، فحذفُ الجواب فى قولك : لو رأيتَ عليّاً بين الصفَّين ، أبلغُ من الذكر لما بيّناه .

(١) عناوين الأبواب من مخطوطة التيمورية .

(٢) يرجع ابن سنان هذه التسمية إلى الرمانى (سر الفصاحة / ١٩٩) .

وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف وإن كان الحذف غامضا ، للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها من المواضع التي لا يصلح (١). فمن ذلك : ﴿ ولَكُم في القصاص حياة (٢) ﴾ ، ومنه : ﴿ يَحْسَبُون كل صيحة (٣) عليهم ﴾ ، ومنه ﴿ وأُخرَى لَمْ تقدروا عليها قد أحاطَ الله بها (٤) ﴾ ، ومنه : ﴿ إنْ يتّبِعونَ إلا الظَّنَّ وما تَهوَى الأنْفس (٥) ﴾ ، ومنه : ﴿ إنَّما بَغْيُكم على أَنْفُسكم (٦) ﴾ ، ومنه ﴿ ولا يَحيقُ المكرُ السَّيّئ إلا بأهله (٧) ﴾ .

وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير ، وقد استحسن الناسُ من الإيجاز قولهم : القتلُ أنفى للقتل ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنه أكثر في الفائدة ، وأوجز في العبارة وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة . أما الكثرة في الفائدة فيه ففيه كل مافي قولهم : القتلُ أنفى للقتل ، وزيادة معانٍ حسنة ، منها إبانة العدل (٨) لذكره القصاص ؛ ومنها إبانةُ الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة ؛ ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به . وأما الإيجاز في العبارة فإن الذي هو نظير – القتل أنفى للقتل – قوله ﴿ القصاص حياة ﴾ ، والأول أربعة عشر حرفاً ، والثاني عشرة أحرف . وأما بُعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة فإن في قولهم : القتل أنفى للقتل تكريراً غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة . وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرَك بالحس وموجود في اللفظ : فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام ، فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها صار أبلغَ منه وأحسن ، وإن كان الأول بليغاً حسنا .

---

(١) ت « هذا شرح الحذف » .

(٢) [البقرة ٢ / ١٧٩] .

(٣) [المنافقون ٦٣ / ٤] .

(٤) [الفتح ٤٨ / ٢١] .

(٥) [النجم ٥٣ / ٢٣] .

(٦) [يونس ١٠ / ٢٣] .

(٧) [فاطر ٣٥ / ٤٣] .

(٨) هذه الكلمة غير واضحة في هذه النسخة ، وهي في ت العدل .

وظهور الإعجاز فى الوجوه التى نُبيِّنها (١) يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة فى أعلى طبقة ، وإن كان قد يلتبس فيما قل بما حسن (٢) جداً لإيجازه وحسن رونقه وعذوبة لفظه وصحة معناه كقول على – رضى الله عنه (٣) : قيمة كل امرئ ما يحسن . فهذا كلام عجيب يغنى ظهور حسنه عن وصفه . فمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ، فإذا انتظم الكلام حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الإعجاز ، كما وقع التحدى فى قوله تعالى ﴿ فأْتوا بسورة من مثله ﴾ ، فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن .

والإيجاز بلاغة والتقصير عِىّ ، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عِىٌّ ، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه وليس كذلك التقصير ، لأنه لابد فيه من الإخلال . فأما الإطناب فإنما يكون فى تفصيل المعنى وما يتعلق به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل ، فإنَّ لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعاً يكون به أولى من الآخر ، لأن الحاجة إليه أشد ، والاهتمام به أعظم ، فأما التطويل فعيب وعِى ، لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل ، فكان كالسالك طريقاً بعيداً جهلا منه بالطريق القريب . وأما الإطناب فليس كذلك لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة ، فيحصل فى الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب .

والإيجاز على وجهين : أحدهما إظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة ، والآخر إحضار المعنى بأقل مايمكن من العبارة . والوجه الأول يكون كثيراً فى العلوم القياسية ، وذلك أنه إذا فهم شرح الجملة كفى بعد ذلك حفظ النكتة ، لأنها تكون حينئذ دالة عليها ومغنية عن التعلق بها فى نفسها ، لتعلق النكتة بها ، فهذا الضرب من الإيجاز لا يكون إلا بعد أحوال متقررة من الفهم لشرح الجملة فحينئذ تكون النكتة مغنية . وأما الوجه الآخر فمستأنف لم يقرر له حال خاصة يكون جاراً لها من حيث تعلق بها من فهم كيف وجه التعلق فيهما (٤) .

---

(١) فى ت « بيناها » .

(٢) ت – به .

(٣) هذه العبارة فى ت « كقول على كرم الله وجهه » .

(٤) هذه الجملة غامضة قلقة .

والإيجاز علي ثلاثة أوجه : الإيجاز بسلوك الطريق الأقرب دون الأبعد ، وإيجاز باعتماد الغرض دون ماتشعب ، وإيجاز بإظهار الفائدة بما يستحسن دون ما يستقبح ، أن المستقبح ثقيل على النفس ؛ فقد يكون للمعنى طريقان أحدهما أقرب من الآخر (١) كقولك : تحركْ حركة سريعة — في موضع أسرعْ ، وقد يكتنف الغرض شعب كثيرة كالتشبيب قبل المديح ، وكالصفات لما يعترض الكلام مما ليس عليه الاعتماد ، وإذا ظهرت الفائدة بما يستحسن فهو إيجاز لخفته على النفس .

وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه ، وتأملت ما جاء في القرآن منه ، عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوُّه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان . والإيجاز تهذيب الكلام بمايحسن به البيان ، والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن ، والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ (٢) ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير ، والإيجاز والإكثار إنما هما في المعنى الواحد ، وذلك ظاهر في جملة العدد وتفصيله كقول القائل : لي عنده خمسة وثلاثة واثنان في موضع عشرة (٣) وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة وهو مع ذلك في نهاية الإيجاز . وإذا كان الإطناب لا منزلة إلا ويحسن أكثر منها فالإطناب حينئذ إيجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه ، فإطناب فيه إيجاز .

باب التشبيه

التشبيه هو العَقد على أنَّ أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل . ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس . فأما القول فنحو قولك : زيد شديد كالأسد . فالكاف عقدت المشبه به بالمشبه ، وأما العقد في النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول . وأما التشبيه الحسى فكماءين وذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه ، وأما التشبيه النفسى فنحو تشبيه قوة زيد بقوة عمرو ، فالقوة لاتشاهد ولكنها تعلم (٤) سادة مسد أخرى فتشبه . والتشبيه على وجهين (٥) :

(١) ت أحدهما من الآخر .

(٢) في الأصل تصفية الكلام ثم شطبت لفظة الكلام ووضع مقابلها في الهامش لفظه « الألفاظ » . وفي التيمورية الكلام ولكن عودة الضمير عليها مؤنثاً يرجح « الألفاظ » .

(٣) ت في موضع لي عنده عشرة .

(٤) ت ولكنه سادة .

(٥) راجع رقم (٣٠) من ملحق تعليقات المتأخرين .

تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما ، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما . فالأول كتشبيه الجوهر بالجوهر وتشبيه السواد بالسواد ، والثانى كتشبيه الشدة بالموت والبيان بالسحر الحلال . والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه ، مع حسن التأليف .

وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، وذلك أنه يكسب الكلام بياناً عجيبًا . وهو على طبقات فى الحسن كما بينا . فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بياناً فيهما . والأظهر الذى يقع فيه البيان بالتشبيه به على وجوه : منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة . ومنها إخراج ما لم تجر عادة إلى ما جرت به عادة ، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، ومنها إخراج ما لا قوة له فى الصفة إلى ما له قوة فى الصفة . فالأول نحو تشبيه المعدوم بالغائب ، والثانى تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب ، والرابع تشبيه ضياء السراج بضياء النهار .

التشبيه على وجهين : تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة . فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب . وتشبيه الحقيقة نحو : هذا الدينار كهذا الدينار نخذ أيهما شئت . ونحن نذكر بعض ما جاء فى القرآن من التشبيه ، ونبه على ما فيه من البيان بحسب الإمكان (١) . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُوا أعمالُهم كسراب بِقيعة يحسبُهُ الظمآنُ ماءً حتَّى إذا جاءَه لم يَجدْهُ شيئاً (٢) ﴾ فهذا بيان قد أُخْرِجَ ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه (٣) ، وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قيل يحسبه الرائى ماء ثم يظهر أنه على خلاف ماقدّر لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمآن أشد حرصًا عليه وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد فى النار – نعوذ بالله من هذه الحال – وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه ، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة .

(١) ت والله المعين على الصواب .
(٢) [النور ٢٤ / ٣٩] .
(٣) ت الحاسة .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ مَثَلُ الذين كفروا بربهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدتْ به الرِّيحُ في يومٍ عاصف لا يقدرون مِمَّا كَسَبوا عَلَى شيءٍ (١) ﴾ فهذا بيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة .. ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ واتْلُ عليهِمْ نبأَ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها (٢) ﴾ ثم قال : ﴿ فَمَثَلُه كمثل الكلب إنْ تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركْهُ يلْهَث (٣) ﴾ فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعا في ترك الطاعة على وجه من وجوه التدبير وفي التخسيس فالكلب لا يطيعك إلى ترك اللهث حملت عليه أو تركته ، وكذلك ، وكذلك الكافر لا يطيع بالإيمان على رفق ولا على عُنْف ، وهذا يدل على حكمة الله سبحانه وتعالى في أنه لا يمنع اللطف . وقال تعالى : ﴿ والَّذين يَدْعُونَ مِنْ دُونه لا يستجيبون لَهُم بشيءٍ إلا كَباسِطِ كَفَّيه إلَى المَاء ليَبْلُغَ فَاهُ وَما هُو ببالغه (٤) ﴾ فهذا بيان قد أُخرج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعا في الحاجة إلى نيل المنفعة ، والحسرة بما يفوت من درك الطلبة ، وفي ذلك الزجر عن الدعاء إلا لله عز وجل الذي يملك النفع والضر ، ولا يضيع عنده مثقال الذرة. وقال عز وجل ﴿ وإذْ نَتَقْنا الجبَلَ فوقهم كأنه ظلة ﴾ وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة ، وقد اجتمعا في معنى الارتفاعْ في الصورة ، وفيه أعظم الآية لمن فكر في مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو عمله به ليطلب الفوز من قبله ، ونيل المنافع بطاعته . وقال عز وجل : ﴿ إنَّما مَثَلُ الحياة الدُّنيا كماء أنزلناهُ من السماء فاختَلَطَ به نباتُ الأرْض (٥) ﴾ الآية ، وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به وقد اجتمع (٦) والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أن كل فان حقير وإن طالت مدته ، وصغير وإن كبر قدره . وقال عز وجل : ﴿ إنَّا أرسَلْنا عليهم ريحاً صَرْصراً إلى يوم نَحْسٍ مستَمِر تنزِعُ النَّاسَ كأنهم أعجاز نخل مُنْقَعِر (٧) ﴾

(١) [إبراهيم ١٤ / ١٨] .
(٢) [الأعراف ٥٧ / ١٧] .
(٣) [الأعراف ٦٧ / ١٧] .
(٤) [الرعد ١٣ / ١٤] .
(٥) يونس ١٠ / ٢٤ .
(٦) المشبه والمشبه به .
(٧) القمر ٥٤ / ٢٠ .

وهذا بيان قد أخرج ما لم يجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى قلع الريح لهما ، وإهلاكها إياهما . وفى ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة . وقال عز وجل : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ (١) فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى الحمرة ، وفى لين الجواهر السيالة وفى ذلك الدلالة على عظيم الشأن ونفوذ السلطان ، لتنصرف الهمم بالأمل إلى ما هناك . (٢) وقال عز وجل : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته (٣) ﴾ الآية ، فهذا تشبيه قد أخرج ما لم يجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى شدة الإعجاب ثم فى التغيير بالانقلاب ، وفى ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار بها والسكون إليها . وقال عز وجل : ﴿ وجنة عرضها كعرض السماء والأرض (٤) ﴾ فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم ، وفى ذلك البيان العجيب بما قد تقرر فى النفس من الأمور ، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع ما لها من السعة ، وقد اجتمعا فى العظم ، وقال عز وجل: ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ (٥) ، وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا فى الجهل بما حملا ، وفى ذلك العيب لطريقة من ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية . وقال عز وجل : ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ (٦) وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم ، وقد اجتمعا فى خلو الأجساد من الأرواح ، وفى ذلك الاحتقار لكل شئ يؤول به الأمر إلى ذلك المآل . وقال عز وجل : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت ﴾ (٧) الآية . فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا فى ضعف المعتمد ووهاء المستند ، وفى ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين ، مع الشعور بما فيه من التوهين .

(١) الرحمن ٥٥ / ٣٧
(٢) ت « لتنصرف الهمم إلى ما هناك بالأمل »
(٣) الحديد ٥٧ / ٢٠ .
(٤) (الحديد ٥٧ / ٢١) .
(٥) (الجمعة ٦٢ / ٥) .
(٦) (الحاقة ٦٩ / ٧) .
(٧) (العنكبوت ٢٩ / ٤١) .

وقال عز وجل : ﴿ وله الجوار المنشآتُ فى البَحْرِ كالأعلام ﴾ (١) فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له فى الصِّفة إلى ما له قوة فيها ، وقد اجتمعا فى العظم ، إلا أن الجبال أعظم . وفى ذلك العبرةُ من جهة القدرةِ فيما سخّر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما فى ذلكَ من الانتفاع بها وقطع الأقطار البعيدة فيها . وقال عز وجل : ﴿ خلَقَ الإنسانَ من صلْصالٍ كالفَخّار ﴾ (٢) . وهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له فى الصفة إلى ما له القوةُ وقد اجتمعا فى الرخاوة والجفاف ، وإن كان أحدهما بالنار والآخر بالريح . وقال عز وجل : ﴿ أجعلتُم سِقَايَةَ الحاجِّ وعِمارةَ المَسجِدِ الحرَامِ كمن آمنَ بالله ﴾ (٣) . (وفى هذا إنكار لأن تجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن وكحرمة الجهاد) (٤) وهو بيان عجيب ، وقد كشفه التشبيه بالإيمان الباطل والقياس الفاسد . وفى ذلك الدلالةُ علي تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنه لا يُساوَى به مخلوق على صفته فى القياس . ومثله ﴿ أمْ حَسِبَ الذين اجترحُوا السَّيِّئاتِ أنْ نَجْعَلَهُم كالذين آمنوا وعمِلُوا الصَّالحات ﴾ (٥) .

بـاب الاستعـارة

الاستعارةُ تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة . والفرق بين الاستعارة والتشبيه أنّ – ما كان من التشبيه – (٦) بأداة التشبيه فى الكلام فهو على أصله ، لم يغير عنه فى الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة ، لأن مخرج الاستعارة [ليست] (٧) له فى أصل اللغة .

---

(١) [الرحمن ٥٥ / ٢٤] .

(٢) [الرحمن ٥٥ / ١٤] .

(٣) [التوبة ٩ / ١٩] .

(٤) هـذه العبارة فى الأصـل مضطربة وهـى هكذا : « فهذا إنكـار لأن تجعل حـرمة الجهـاد كحـرمة من آمن بالله » ونرى أن الصحيح ما أثبتناه . وقد أوردها ابن أبى الإصبع كمـا يلى : وهذا إنكار على من جعل حرمة الجهاد كحرمة من آمن بالله واليوم الآخر (بدائع القرآن . نسخة دار الكتب . ورقة ١٩ ب) .

(٥) [الجاثية ٢٥ / ٢١] .

(٦) هذه الزيادة من الهامش .

(٧) أضفنا كلمة (ليست) لتستقيم العبارة ويصح المراد ، ونصها فى « سر الفصاحة » (ص ١١١) « وليس كذلك الاستعارة لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له فى أصل اللغة . (وراجع رقم ٤ فى ملحق تعليقات المتأخرين) .

وكل استعارة فلا بد فيها من أشياء : مستعار ومستعار له ، ومستعار منه . فاللفظ المستعار قد نقل عن أصل إلى فرع للبيان . وكل استعارة بليغة فهى جمع بين شيئين بمعني مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه ، إلا أنه بنقل الكلمة ، والتشبيه بأداته الدالة عليه فى اللغة . وكل استعارة حسنة فهى توجب بلاغة بيان لاتنوب منابه الحقيقة ، وذلك أنه لوكان تقوم مقامه الحقيقة ، كانت أولى به ، ولم تجز الاستعارة . وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة ، وهي أصل الدلالة علي المعنى فى اللغة كقول امرئ القيس فى صفة الفرس : « قيد الأوابد » والحقيقة فيه : مانع الأوابد ، وقيد الأوابد أبلغ وأحسن وكقولك : ميزان القياس ، حقيقة تعديل القياس ، والاستعارة فيه أبلغ وأحسن . فكل استعارة لابد لها من حقيقة . ولا بد من بيان لا يفهم بالحقيقة . ونحن نذكر ما جاء فى القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة ، قال الله عز وجل :

﴿ وقَدِمْنَا إِلى ماعَمِلُوا ﴾ .

الشابشتي

أبو الحسن على بن محمد (المتوفي سنة ٣٨٨)

ولد وعاش بمصر معظم حياته وربما غادرها زمناً ، وتلقي العلم وشغف بالأدب ، وعاصر أخريات الدولة الإخشيدية ، وولى فى الدولة الفاطمية بعض مناصب الكتابة حتى جعله الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز خازنا لمكتبته العامرة ، ودفتر خوانه الذى يقرأ له الرسائل الواردة إليه .

ويكون بهذا المنصب قد حظى بمكانة رفيعة ، وتقول المصادر الشحيحة بأخباره إنه كان أديبا كاتبا عالمًا ، شاعراً ، له ديوان شعر وجملة مؤلفات فى موضوعات مختلفة .

ولم يعثر على ديوان شعره ، وذكرت المصادر من كتبه : الديارات واليسر بعد العسر ، ومراتب الفقهاء ، والتوقيف والتخويف ، وديوان مراسلات ، وديوان شعره ، وكتاب فى الزهد والمواعظ .

ولم يبق من هذه المؤلفات سوى كتاب « الديارات » ، وهو من أهم الكتب التى تناولت هذا للموضوع ، ذكر فيه عدداً من أديرة النصارى ، ورهبانهم فى العراق ، والشام ، ومصر .

ولم يقتصر فى ذكره الأديرة على وصفه الجغرافى ، بل يعمد أحياناً إلى تعليل لاسمه ، وما ينفرد به من ميزة الموقع ، وما يحوطه من المناظر الطبيعية من جبل أو نهر أو سهل ، وما يقع فى حوزته من الحدائق والبساتين . كما يذكر من يسكنه من الرهبان والراهبات ، والشماسين والقسس ، ومن كان يغشاه من الأدباء والشعراء ، وأصحاب الخلاعة والمجانة ، فى أعياد الدير خاصة إن كان له عيد ، أو فى أعياد النصارى عامة كعيد الشعانين وغيره .

ويخص كلّ دير بأشهر من ارتاده من الشعراء ، وما قاله فيه من الشعر. وقد يتطرق إلى نبذة عن حياة الشاعر ، وطباعه ، وماعرف به فى شعره . والكتاب زاخر بنصوص الشعر الديرية وغير الديرية مما يتصل بالموضوع من وصف الطبيعة والغزل ، والقول فى الخمر والمجون .

ويحفظ لنا الثعالبى نبذاً من شعره الذى ضن الزمان به ، فأضاعه . ولم يصلنا شئ منه ، كما لم تصلنا من مؤلفاته سوى هذا الكتاب النفيس بموضوعه وما جمع من النصوص التى دلتنا على ذوق المؤلف الشابشتى ، وأدبه وعلمه .

من كتاب الديارات :

ديارات مصر (١).

التي تقصد للشرب فيها والتنزه بها

فمنها : دير القصير

وهذا الدير فى أعلى الجبل (٢) ، على سطح تلّه ، وهو دير حسن البناء ، محكم الصنعة ، نزه البقعة .. فيه رهبان مقيمون به . وله بئر منقورة فى الحجر يستقى الماء له منها . وفى هيكله صورة مريم فى حجرها صورة المسيح عليه السلام . والناس يقصدون الموضع للنظر إلى هذه الصورة . وفى أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه(٣) بن أحمد بن طولون ، لها أربع طاقات إلى أربع جهات . وكان كثير الغشيان لهذا الدير . معجبًا بالصورة التى فيه ، يشرب على النظر إليها . وفى الطريق إلى هذا الدير من جهة مصر صعوبة . فأما من قبليّه فسهل الصعود والنزول . وإلى جانبه صومعة لا تخلو من حبيس يكون فيها . وهو مطل على القرية المعروفة بشَهران وعلى الصحراء والبحر . وهذه القرية المذكورة ، قرية كبيرة عامرة على شاطىء البحر ، ويذكرون أن موسى، صلى الله عليه ، ولد فيها ، ومنها ألقته أمه إلى البحر فى التابوت(٤) .

فدير القُصير هذا ، أحد الديارات المقصودة لحسن موقعه وإشرافه على مصر وأعمالها . وقد

---

(١) انظر : مجلة المجمع العلمى العربى (٩ [١٩٢٩] ص ٤٩٠ – ٤٩٧) ومجلة الآثار القبطية (٥ [١٩٣٩] ص ١ – ٣٢) ففيهما ما فى هذا الفصل وما بعده حتى آخر الكتاب . وقد نشر أولهما توفيق اسكاروس ، وثانيهما الدكتور عزيز سوريال عطية .

(٢) يريد الجبل : المقطم .

(٣) حكم مصر من سنة ٢٧٠ إلى ٢٨٢ هـ (٨٨٤ – ٨٥٩م) .

(٤) قابل ذلك بما جاء فى التوراة (الخروج ٢ : ٣) .

قال (١٢٥ ب) فيه شعراء مصر وذكروا طيبه ونزهته .

ولأبي هُريرة بن أبي العصام (٥) ، فيه (٦) :

كم لي بدير القصير من قصفِ مع كل ذي صبوةٍ وذي ظرفِ
لَهوتُ فيه بشادنٍ غنجٍ تقصر عنه بدائعُ الوصفِ

وقال فيه أيضا (٧) :

أذكرتَني يا دير مَن قد مضى من أهل وُدّي ومصافاتي
كم كان لي فيك وفيهم معًا من طيب أيام ولَيلات
أشكو إلى الله مصابي بهم وفقدنا أهل المروءات

ولمحمد بن عاصم (٨) ، في هذا الدير (٩) :

إن دير القصير هاج ادكاري لَيالي أيامي الحسان القصار
وزماناً مضى حميداً سريعاً وشباباً مثل الرداءِ المُعار
عرّفتني ربوعُه بعد نُكْرٍ فعرفت الرُبوعَ بالإنكار
فلو أن الديار تشكو اشتياقاً لشكت جَفوتي وبُعد مزاري
ولكادت نحوى تسير (١٠) لما قد كنتُ فيها سيّرت من أشعاري
فكأني إذ زرتُه بعد هَجرٍ لم يكن من منازلي ودياري

---

(٥) أورد الثعالبي (يتيمة الدهر ١ : ٣٦١ - ٣٦٢) طرفاً من أشعاره .

(٦) اليتيمة (١ : ٣٦١) ، خطط المقريزي (٤ : ٤١٠) .

(٧) اليتيمة (١ : ٣٦١ - ٣٦٢) .

(٨) شاعر مصري ، مات سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠م) . ورد شئ من شعره في اليتيمة (١ : ٣٨١ - ٣٨٤)، ما معجم البلدان (٢ : ٦٧٤ و ٦٧٦ و ٦٨٦ و ٦٩٨) .

(٩) اليتيمة (١ : ٣٨٣) ، معجم البلدان (٢ : ٦٨٦) ، المسالك (ص ٣٦٣ - ٣٦٤) .

(١٠) معجم البلدان : تسير نحوى .

دير الطور

والطُّور ، جبل مستدير مستطيل ، واسع الأسفل مستدق الأعلى ، (٨٩ ب) لا يتعلق به شئ من الجبال ، وليس إليه إلا طريق واحد . وهو فيما بين طبرية واللَّجون ، مشرف على الغور ومرج اللجون والدير فى نفس القُلّة ، وعين تنبع بها ، وحوله كروم تُعصر ، فالشراب عندهم كثير .

ويعرف أيضاً بدير التجلى ، لأن المسيح ، صلى الله عليه ، على زعمهم تجلّى لتلامذته بعد أن رُفع ، حتى أراهم نفسه وعرفوه . والناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به ويشربون فيه . فموقعه حسن ، وهو من المواضع الطيبة .

ولمهَلْهِل (١) بن يَموت بن المزرِّع ، فيه (٢) :

نهضت إلى الطور فى فِتيةٍ ... سراع النهوض إلى ما أُحبّ
كهمّك من فتيةٍ أنفقوا ... تلادهم فى سبيل الطرَب
كِرام الجدود ، حسان الوجوه ... كهول العقول ، شباب اللَّعِب
فأىُّ زمانٍ بهم لم يَسُرّ ... وأىّ مكانٍ بهم لم يطب
أنختُ الركابَ على ديره ... وقضّيتُ من حقّه ما يجب
وأنزلتُهم وسط أعنابه ... أُسقّيهم من عصير العنب
وأحضرتهم تمراً مشرقاً ... تميل الغصونُ به فى الكُثُب

---

(١) من ذكر أبيه يموت بن المزرع فى أوائل الكلام على « دير العذارى » . أما مهلهل فهو أحد شعراء المئة الرابعة . قال المسعودى (المروج ٨ : ٢٧) : « هو شاعر مجيد من شعراء هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة » (٩٤٣ م) . وسائر أخبار مهلهل ، فى : تاريخ بغداد للخطيب (١٣ : ٢٧٣ - ٢٧٤) ، معجم الأدباء (٧ : ٣٠٥ - ٣٠٦) ، الوفيات (٢ : ٥١٣ - ٥١٤) .

(٢) المسالك (ص ٢٣٧ - ٢٣٨) ، معجم البلدان (٢ : ٦٧٥) .

ابن فارس (٣٢٩ - ٣٩٥ هـ)

أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا بن محمد بن حبيب تنقل في طلب العلم وأقام فى همذان للتدريس مدة طويلة ثم استدعى إلى الرىّ وتتلمذ على أبى الحسن على إبراهيم بن سلمة بن بحر القطّان القزوينى وأبى بكر أحمد بن الحسين الخطيب ، وأحمد بن طاهر بن المنجم ، وتلمذ له بديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات ، وجالس ابن العميد وحظى لديه بمنزلة سامية ، كما تقرب من الوزير الصاحب بن عباد ، كان أديبا شاعرا فقيها نحويا لغويا ، من مؤلفاته : أصول الفقه وحلية الفقهاء ، وجامع التأويل فى تفسير القرآن ، وأخلاق النبى ، وسيرة النبى والمجمل فى اللغة ، ومقاييس اللغة ، والصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها ، وأهم جهوده فى علوم اللغة « مقاييس اللغة » ، وهو معجم ذو فكرة مبتكرة ، تقوم على أن المعنى الأساس المشترك لكلمات كل مادة لغوية يقوم على حروفها الأصول ، وهذا المعنى تشترك فيه كل صيغ المادة ، وهذه هى الأصول ، أما الدلالات الجزئية فهى فروع عن الدلالة الأصلية . ونجد فكره اللغوى فى كتابه المهدَى إلى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب « الصاحبى فى فقه اللغة » ، وهو عمل متميز فى نظرية اللغة والبحث اللغوى ، حاول به تجاوز الجزئيات والجهود المفردة إلى رؤية عامة في قضايا اللغة .

باب القول على لغة العرب

أتوقيفٌ ؟ أم اصطلاح ؟

أقول : إنّ لغةَ العرب تَوْقيفٌ . ودليلُ ذلك قولهُ - جلّ ثناؤه - [وعَلّم آدم الأسْماء كلّها . البقرة ٢ / ٣١] فكان ابن عباس يقول : علّمه الأسماء كلّها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارفها الناس من دابّة وأرض وسَهْل وجبل (وجَمَل) وحمار وأشباه ذلك من الأمَم وغيرها . وروَى

خُصَيْف (١) عن مجاهد (٢) قال : علّمه اسمَ كلّ شئ . وقال غيرهما : « إنما علّمه أسْماء الملائكة . وقال آخرون : علّمه أسْماءَ ذُرِّيته أجمعين (٣) .

الّذى نذهب إليه فى ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس . (ط ٣) فإنْ قال قائلٌ : لو كان ذلك كما تذهب إليه لقال : « ثم عَرَضَهُنّ أو عَرَضَها (٤) » ، فلما قال : «عرضهم » عُلِم أنّ ذلك لأعيان بنى آدم أو الملائكة ، لأنّ موضوع الكناية فى كلام العرب أنْ يُقال لما يَعْقِل « عرضهم » ولما لا يعقل عَرَضَها أو عرضهنّ ، قيل له : إنّما قال ذلك - والله أعلمُ - لأنّه جمع ما يعقل وما لا يعقل فغلّب ما يعقل ، وهى سُنّةٌ من سنن العرب (أعنى بابَ التغليب) . وذلك كقوله - جلّ ثناؤه - : [والله خلق كلَّ دابّةٍ من ماءٍ ، فمِنهم مَنْ يَمْشى على بَطْنه ، ومِنْهم مَنْ يمْشى على رِجْلَين ، ومنهم من يَمْشى على أربع (يخلق الله ما يشاء إنّ الله على كلّ شئ قدير) . النور ٢٤ / ٤٥] فقال ، « منهم » تغليباً لمَنْ يمشى على رجلين وهم بنو آدم .

فإن قال : أفتقولون فى قولنا سيفٌ وحُسام وعَضْبٌ إلى غير ذلك من أوصافه (و ٤) إنّه توْقيفٌ حتّى لا يكون شئ منه مُصْطلَحا عليه ؟ قيل له : كذلك نقول . والدّليل على صحّة ما نذهب إليه إجْماعُ العلماء على الاحتجاج بلُغَة القوم فيما يَخْتلفون فيه أوْ يتّفقون عليه ، ثمّ احتجاجُهم بأشعارهم . ولو كانت اللّغةُ مُواضَعَةً واصْطلاحاً لم يكن أولئك فى الاحتجاج بهم بأوْلى منا فى الاحتجاج بنا لو اصْطَلَحْنا على لغة اليَوْم ولا فَرْق .

---

(١) حُصَيْف بالحاء المهملة . والصواب بالخاء المعجمة ، وهو أبو عون خصيف بن عبد الرّحمن الجزرى (تهذيب ٣ - ١٤٣) .

(٢) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر (أو جبير) المكّى القرشى ولاءً ، من كبار التّابعين يروى خصوصا عن ابن عبّاس . توفى سنة ١٠٣ هـ (معارف ١٩٦ ياقوت ٢٧ / ٧٧ - طبقات قرّاء ٢ / ٤١) .

(٣) انظر آراء أخرى فى المزهر ١ / ٢٨ . وتجدر الإشارة هنا إلى ورود آية شبيهة بآية القرآن فى التوراة : سفر التكوين ، الإصحاح الثّانى : وجلب الرّبّ الإله من الأرض كلّ حيوانات البرّيّة وكلّ طيور السّماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكلّ ما دعا به آدم ذات نفس حيّة فهو اسمها ، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السّماء وجميع حيوانات البرّيّة .

(٤) قال الفراء فى كتابه « معانى القرآن » : وهى فى حرف عبد الله عرضهنّ ، وفى حرف أُبيّ عرضها .

ولعل ظانًا يظنّ أنّ اللُّغَةَ الّتي دلّلنا على أنّها توقيف إنّما جاءت جملةً واحدة وفى زمان واحد . وليس الأمر كذا ، بل وقّف الله – جلّ وعزّ – آدمَ – عليه السّلام – على ما شاء أنْ يعلّمه إياه مما احتاج إلى علمه فى زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثمّ علّم بعد آدمَ – عليه السّلام – من عرب الأنبياء – صلوات الله عليهم – (ظ ٤) نبيًّا نبيًّا ما شاء (الله) أنْ يعلّمه ، حتى انتهى الأمرُ إلى نبيّنا محمّد – صلعم – فآتاه الله – جلّ وعزّ – من ذلك ما لمْ يؤته أحدا قبله تماما على ما أحْسنه من اللّغة المتقدّمة . ثم قرّ الأمرُ قراره فلا نَعْلم لُغةً من بعده حدثت . فإنْ تعمّل اليومَ لذلك متعمّل وَجدَ من نُقّاد العلم من ينفيه ويردُّه . ولقد بلغنا عن أبى الأسود(١) أنّ امرءاً كلّمه ببعض ما أنكره أبو الأسود فسأله أبو الأسود عنه فقال : « هذه لغةٌ لم تبلُغْكَ » فقال له : يا ابن أخى ، إنّه لا خير لك فيما لَمْ يبلغنى » . فعرّفه بلُطْفٍ أنّ الّذى تكلم به مَختَلَقٌ .

وخلّةٌ أخرى : أنّه لمْ يبلغنا أنّ قومًا من العَرَب فى زمانٍ يُقاربُ زماننا أجْمعوا على تَسْمية شىْءٍ من الأشياءِ مُصْطَلِحين عليه ، فكنّا نستدلّ بذلك (و ٥) على اصْطلاحٍ قد كانَ قَبْلهم . وقد كان فى الصحابة – رضه – وهم البلغاءُ والفصحاءُ ، من النظر فى العلوم الشّريفة ما لا خفاء به ، وما عَلمْناهم اصْطلحوا على اختراعِ لُغةٍ أو إحْداثِ لَفْظَةٍ لَمْ تَتَقَدّمْهم . ومعلومٌ أنّ حوادثَ العالم لا تنقضى إلاّ بانقضائه ، (ولا تزول إلاّ بزواله) وفى كل ذلك دليل على صحة ما ذهبنا إليه فى هذا الباب .

باب الخطاب الّذى يقع به الإفهام من القائل والفَهْم من السّامع (٢)

يقع ذلك بين المخاطبين من وجهين : أحدهما الإعراب ، والآخر التّصريف . هذا فيمن يعرف الوجْهيْن ، فأمّا من لا يعرفهما فقد يمكن القائل إفهام السّامع بوجوه يطول ذكرها ، من إشارة وغير ذلك ، وإنّما المُعوّل على ما يقع فى كتاب الله – جلّ ثناؤه – من الخطاب أو فى سُنّة رسول الله – صلعم – أو غيرهما من الكلام المُشْتَرَك فى اللّفظ .

---

(١) هو أبو الأسود الدؤلى .

(٢) نقل السّيوطى هذا الباب فى المزهر (١ / ٣٢٩) .

فأما الإعْراب فبه تُمَيَّز المعانى ويُوقَف على أغراض المتكلمين . وذلك أنَّ قائلا لو قال : « ما أحْسن زيد » غيرَ مُعْرَب ، أو : « ضرب عمرو زيد » غير مُعْرَب لم يُوقَفْ على مُراده . (و ١١٥) فإذا قال : ما أحْسَنَ زيداً (١) ! ، أو : ما أحْسَنَ زيدٌ (٢) ، أو : ما أحْسَنُ زيدٍ (٣) ؟ أبان بالإعراب عن المعنى الّذى أراده .

وللعَرَب فى ذلك ما لَيس لغيرها ، فهُمْ يفرِّقون بالحركات وغيرها بين المعانى . يقولون مِفْتح للآلة التى يُفْتَح بها ، ومَفْتَح لموضع الفَتْح ، ومِقَصٌ لآلة القصّ ، ومَقَصٌ للموضع الذى يكون فيه القَصّ ، ومِحْلَب للقدح يُحلَبُ فيه ، ومَحْلَب للمكان يُحْلب فيه ذوات اللّبن . ويقولون امرأة طاهر من الحَيض ، لأنّ الرجل لا يَشْركها فى الحيض ، وطاهرةٌ من العيوب لأنّ الرجل يشركها فى هذه الطّهارة ، وكذلك قاعد من الحَبَل ، وقاعدة من القعود . ثم يقولون : « هذا غلاماً أحسن منه رجلاً » يريدون الحالَ فى شخص واحد ، ويقولون : « هذا غلامٌ أحسنُ منه رَجُل » ، فهما إذاً شخصان . وتقول كَمْ رجلا رأيتَ ؟ فى (ظ ١١٥) الاستخبار . وكَم رجُلٍ رأيتَ ! فى الخبر يراد به التّكثير . و «هنَّ حَوَاجُّ بيْتِ الله » إذا كنَّ قد حججن « وحواجٌ بيتَ الله » إذا أردن الحجّ . ومن ذلك : « جاء الشتاءُ والحطبَ » لم يرد أنّ الحطب جاء إنّما أرادَ الحاجةَ إليه ، فإنْ أراد مجيئَهما قال : والحطبُ . وهذا دليلٌ يدلّ على ما وراءه .

وأما التّصْريف فإنّ من فاته علمه فاته المعظم ، لأنّا نقول : وَجَدَ ، وهي كلمة مُبْهَمَةٌ ، فإذا صرّفنا أفصحت فقلنا فى المال وُجْداً ، وفى الضّالة وِجْداناً ، وفى الغضب مَوْجِدَة ، وفى الحُزْن وَجْداً ، وقال الله – جلّ ثناؤه – [وأَمّا القاسطون فكانوا لجَهنّمَ حَطباً ، الجن ٧٢ / ١٥] ، وقال : [وأقسطوا إنّ الله يُحبّ المُقْسطين ، الحجرات ٤٩ / ٩] ، كيفَ تحوّل المعنى بالتّصريف من العَدْل إلى الجور ؟

---

(١) ما تعجبيّة .

(٢) ما نافية .

(٣) استفهاميّة .

ويكون ذلك (و ١١٦) في الأسماء والأفعال . فيقولون للطريقة في الرَّمل خَبّة ، وللأرض المُخْصبة والمجدبة خُبّة . وتقول في الأرض السّهلة الخوّارة : خارت تخور خَوَراً وخؤوراً ، وفي الثور : خار خُواراً ، وفي الإنسان إذا ضَعُف : خار خضوراً . ويقولون للمرأة الضّخمة : ضناك ، وللزّكمة ضُناك . ويقولون للإبل التي ذهبت ألبانها : شَوْل وهي جمع شائلة ، والتي شالت أذنابها للّقح : شُوَّل ، وهي جمع شائل ، ويقولون لبقية الماء في الحوض : شَوْل . ويقولون للعاشق عَميد ، وللبعير المتاكل السّنام : عَمِدٌ . إلى غير ذلك من الكلام الّذي لا يُحصى .

باب سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز (١)

تقول في معنى الحقيقة والمجاز إنّ الحقيقة من قولنا : حَقّ الشيءُ إذا وجب ، واشتقاقه من الشيء المُحقَّق وهو المُحكَم ، وتقول : ثوب مُحقّق النَّسْج أي مُحْكَمُه . قال الشاعر : (وافر)

تَسَرْبَلْ جِلْدَ وَجْهِ أبيك إنّا كَفَيْنَاك المَحَقَّقَةَ الرِّقَاقا (٢)

وهذا جِنْسٌ من الكلام يُصَدِّق بعضه بعضا من قولنا : حقٌ وحقيقة ونَصّ الحِقاق . فالحقيقة الكلام الموضوع موضعه الّذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم ولا تأخير كقول القائل :

« أحْمَدُ الله على نعَمه وإحْسانه » ، وهذا أكثر الكلام . قال الله – جلّ ثناؤه – [والّذين يؤمِنُون بِمَا أُنْزِل إليك ومَا أُنْزل مِنْ قبلك وبالآخرة هُمْ يوقنون ، البقرة ٢ / ٤] وأكثر ما يأتي من الآي على هذا ، ومثله في شعر العرب : (وافر)

لَمَالُ المَرءِ يُصْلِحهُ فيُغْني مفَاقِرَهُ أعفُّ مِن القُنُوعِ (٣)

وقول الآخر ك (هزج)

وفي الشَّرِّ نَجَاةٌ حِينَ لا يُنْجيكَ إحْسَانُ (٤)

---

(١) هذا الباب نقله السيوطي في المزهر جـ ١ ، صـ ٣٥٥ وما يليها .

(٢) البيت وارد في اللّسان ، مادة حقق ، جـ ١١ ، ص ٣٤٠ ، س ١٥ وهو غير منسوب .

(٣) البيت من قول الشمّاخ ، وقد سبق ذكره مع أبيات أخرى في باب « لا » .

(٤) البيت من قصيدة الفند الزّمّاني البكري ، وهو شاعر جاهلي قديم ، ومطلعها كما في الحماسة (١ / ٢٦) :

عفونا عن بني ذُهْلٍ وقلنا القوم إخوان

وأمّا المجاز فمأخوذ من جاز يجوز اذا استنَّ ماضياً تقول : جاز بنا فلان ، وجاز علينا فارس ، هذا هو الأصل . ثم تقول : يجوز أن تفعل كذا ، أى يَنفذُ ولا يُمنع ، وتقول : « عندنا دراهم وَضَحٌ وازنةٌ ، وأُخرى تجوز جواز الوازنَة » ، أى أنّ هذه ، وإنْ لم تكن وازنة ، (ظ ١٢٠) فهى تجوز مجازها وجوازها لقُربها منها . فهذا تأويل قولنا مجاز ، أى أنّ الكلام الحقيقي يمضى لسننه لا يُعترَضُ عليه . وقد يكون غيره يجوز جوازه لقربه منه ، إلاّ أنّ فيه من تشبيه واستعارة وكَفٍّ ما ليس فى الأول ، وذلك كقولك : « عطاءُ فلانٍ مُزْنٌ واكفٌ » ، فهذا تشبيه . وقد جاز مجاز قوله : [سَنَسِمُهُ على الخُرطوم ، القلم ٦٨ / ١٦] ، فهذا استعارة ، وقال : [وله الجَوارِ المُنشآتُ فى البَحر كالأعْلام ، الرحمن ٥٥ / ٢٤] ، فهذا تشبيه . ومنه قول الشّاعر : (طويل)

ألم ترَ أنّ الله أعطاكَ سُورةً ترى كلَّ مَلْكٍ دونها يتذَبْذَبُ
بأنّك شَمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهُنَّ كوكبُ (١)

فالمجاز ها هنا عند ذِكر السُّورة ، وإنما هى من البناء ، (و ١٢١) ، ثم قال : يتذبذب ، والتّذبذب يكون لذباذب الثوب ، وهو ما يتدلّى منه فيضطرب ، ثم شبّهه بالشّمس وشبّههم بالكواكب .

وجاء هذان البابان فى نُظوم كتاب الله – جلّ ثناؤه – ، وكذلك ما يجيء بعدهما ما نذكره من سنن العرب ، لتكون حجّةُ الله – جلّ اسمه – عليهم آكد ، ولَئِلاّ يقولوا : إنما عَجَزْنا عن الإتيان بمثله لأنه بغير لغتنا وبغير السُّنن التى نَسْتَنُّها ، لا بل أنزله – جلّ ثناؤه – بالحروف التى يعرفونها وبالسُّنن التى يسلكونها فى أشعارهم ومخاطباتهم ، ليكون عجزهم عن الإتيان بمثله أظهر . ثم جعله – تبارك اسمه – أحَد دلائل نبوّة محمد – صلعم – ثم أعلمهم ألاّ سبيل لهم إلى معارضته وقَطع العذر بقوله – جلّ ثناؤه – [قُلْ لئن اجْتَمَعَت الإنْس والجنّ على أنْ يأتُوا بمثْل هذا القرآن لا يأتون (ظ ١٢١) بمثله ولوْ كان بَعْضُهم لبَعْض ظهيراً ، الإسراء ١٧ / ٨٨]

(١) البيتان فى ديوان النّابغة الذُّبياني (ص ١٨) من قصيدة يعتذر فيها للنّعمان بن المنذر اللّخمي .

فمن سنن العرب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، كقولهم عند المدح :

« قاتله الله ما أشعَرَه ! » ، فهم يقولون هذا ولا يريدون وقوعه . ومنه قول امرئ القيس يصف راميا : (مديد)

فهو لا تَنْمى رَمِيَّتُه ما له لا عُدَّ من نَفَرِه (١)

يقول : إذا عُدَّ نَفَرُه لم يُعَدَّ معهم ، كأنّه قال : قَتله الله ! أماته الله ! حتى لا يُعَدّ . ومنه قولهم : هَوَت أُمّه وهَبِلَتْه وثَكِلَتْه . قال كعب بن سعد (٢) يرثى أخاه : (طويل)

هَوَتْ أُمُّه ما يَبْعَثُ الصُّبْح غادياً

وماذا يُؤدّي اللَّيْلُ حين يؤوبُ (٣)

وهذا يكون عند العجب من إصابة الرجل فى رَمْيه أو فى فِعْل يَفْعَلُه . وكان عبد الله ابن مسلم بن قتيبة يقول في هذا الباب : من ذلك الدُّعاء علي جهة الذّم لا يُراد به الوقوع كقول الله – جلّ ثناؤه – [قُتِلَ الخرّاصُون ، الذّاريات ٥١ / ١٠] و [قُتِلَ (و ١٢٢) الإنسانُ ما أكْفَره ! عبس ٨٠ / ١٧] و [قَاتَلَهم الله أنّى يُؤفكون ! المنافقون ٦٣ / ٤] وأشباه ذلك .

قال أحمد بن فارس : وهذا – وإن أشبه ما تقدّم – فإنه لا يجوز لأحد أن يُطْلق فيما ذكره ا‌ل – جلّ ثناؤه – أنه دعاء لا يُراد به الوقوع ، بل هو دعاء عليهم أراد ا‌ل وقوعه بهم فكان كما أراد ، لأنّهم قُتِلوا وأُهْلكوا وقُوتلوا ولُعنوا ، وما كان الله – جلّ ثناؤه – ليدعو على أحد فتحيد الدعوة عنه . قال الله – جلّ ثناؤه – [تَبّتْ يدا أبى لَهَبٍ ، المَسَدَ ١١١ / ١] ، فدعا عليه ثم قال : [وتَبَّ] ، قال : [وتَبَّ] ،

(١) سبق هذا البيت في باب الخطاب ، يأتي بلفظ المذكّر الخ ....

(٢) هو كعب بن سعد من غنّي بن أعصر من قيس عيلان من شعراء صدر الإسلام ، وشعره رقيق جيّد . (مرزباني ٣٤١ ، خزانة ٣ / ٦٢١)

(٣) البيت في الأصمعيّات (ص ٩٧) وفي اللّسان (٢٠ / ٢٥٠) .

أى وقَدْ تَبَّ وحاق به التَّبابُ . وابن قتيبة يطلق إطلاقات منكرة ويروي أشياءَ شنيعة ، كالّذي رواه عن الشّعبى أنّ أبا بكر وعُمَر وعليًا تُوفّوا ولم يَجْمعوا القرآن ، قال : وروى شريك (١) عن إسماعيل بن أبي خالد (٢) قال : سمعت الشعبيّ يقول ، ويحلف بالله ، (ظ ١٢٢) : « لقَدْ دَخَلَ عليٌ حُفْرتَه وما حَفِظَ القرآن » . وهذا كلام شَنيع جدا فيمن يقول : « سلونى قَبْل أنْ تفقدونى ، سلونى فَما مِنْ آية إلاّ أعلم أبليْلٍ نزلت أمْ بنهار ! أمْ في سَهْل ، أمْ فى جبل ! » وروى السُّدى (٣) عن عبد خير عن على – رضه – أنّه رأى من النّاس طِيرَةً عند وفاة رسول الله – صلعم – فأقْسمَ ألاّ يضَع على ظَهْره رداءً حتى يَجْمَعَ القرآن ، قال : فجلس فى بيته حتّى جمع القرآن ، فهو أوّل مُصْحَف جُمع فيه القرآن ، جَمعَه مِنْ قلبه ، وكان عند آل جعفر . فانظر إلى قول القائل : « جَمعَه مِنْ قَلبه » . وحدّثنا على بن إبراهيم عن على بن عبد العزيز قال : قال أبو عبيد : حدّثنى نصر بن باب عن الحجّاج عن الحكم عن أبى عبد الرحمن السُّلمى (٤) أنّه قال : « ما رأيتُ أحدا أقْرأَ مِنْ عَلِيّ – صلواتُ الله عليه – (١٢٣) ، صلّينا خلفه فأسْوَأَ (٥) برزخاً ، ثم رجَع فقرأه ثُمّ عاد إلى مكانه » . قال أبو عبيد : البَرْزَخُ ما بين كل شيئين ، ومنه قيل للميّت : هو فى البَرْزَخ ، لأنّه بين الدُّنيا والآخرة . فأراد أبو عبد الرّحمن بالبرزخ ما بين الموضع الّذى أسْقَطَ على – صلعم – منه ذلك الحرف إلى الموضع الذى كان انتهى إليه .

(١) هو شريك بن عبد الله بن أبى شريك النّخعي ، كان قاضيا على الكوفة . توفّى سنة ١٧٧ هـ (معارف ٥٠٨)

(٢) هو أبو عبد الله إسماعيل بن أبى خالد ، كان مولي لبنى أحمس من بجيلة . توفّى بالكوفة سنة ١٤٦ هـ

(٣) هو إسماعيل بن عبد الرّحمن . كان يبيع الخمر بسدّة المدينة فنسب إليه . وهو من الرّواة المشهورين (معارف ٥٩٦)

(٤) هو أبو عبد الرّحمن عبد الله بن حبيب السُّلمى الكوفى . كان من أصحاب على ، وهو من كبار المقرئين ، وعنه أخذ عاصم بن أبى النّجود (معارف ص ٥٢٨)

(٥) فى هذا التّعبير انظر نوادر أبى مسحل الأعرابى (١ / ٤٩ ، ١ / ٥٧ ، ولسان (١٩ / ١٤٢) .

باب الخصائص (١)

للعرب كلام بألفاظ تختص به معانٍ لا يجوز نقلها إلى غيرها . يكون في الخير والشر والحسن وغيره . وفي الليل والنهار وغير ذلك . من ذلك قولهم : مكانَكَ ، قال أهل العلم : هي كلمة وضعت على الوعيد . قال الله - جل ثناؤه - [مكانكم أنتم وشركاؤكم ، يونس ١٠ / ٢٨] ، كأنه قيل لهم . انتظروا مكانكم حتى يُفصل بينكم . ومن ذلك قول النبي - صلعم - : « ما يحملكم على أن تتايعوا في الكذب كما يتتايع (ظ ١٦٢) الفراش في النار » . قال أبو عبيد : هو التهافت ، ولم نسمعه إلاّ في الشرّ . ومن ذلك : أولَى له وقد فسّرناه . ومن ذلك : ظلّ فلان يفعل كذا إذا فعله نهاراً ، وبات يفعل كذا إذا فعله ليلاً . ومنه ما أخبرني به أبو الحسن علي بن إبراهيم قال : سمعت أبا العباس المبرّد يقول : التأويب سير النهار لا تعريج فيه ، والإسآد سير الليل لا تعريس فيه . ومن الباب : جعلوا أحاديثَ ، أي مثّل بهم ، ولا يقال في الخير . ومنه [لا عدوانَ إلاّ على الظالمين ، البقرة ٢٠ / ١٩٣] .

ومن الخصائص في الأفعال قولهم : ظننتني وحسبتني وخلتني ، لا يقال إلاّ فيما فيه أدنى شك ، ولا يقال : ضربتني .

ولا يكون التأبين إلاّ مدح الرجل ميّتاً ، ويقال : غَضبتُ به إذا كان ميّتاً . والمساعاة الزنا بالإماء خاصّة . والرّاكب راكب (و ١٦٣) البعير خاصّة . وألَحّ الجمل وخَلأت الناقة وحَرنَ الفرس ونَفَشت الغنم ليلاً وهَمَلت نهاراً . قال الخليل : اليَعْمَلَة من الإبل اسم مشتق من العمَل ، ولا يقال إلاّ للإناث . قال والنعت وصف الشيء بما فيه من حسن إلاّ أن يتكلف متكلّف فيقول : هذا نعت سوء فأمّا العرب العاربة فإنّها تقول للشيء (المُستكمِل) نَعت ، يريدون به التمّة .

قال أبو حاتم (٢) : ليلةٌ ذات أزيز ، أي قُرّ شديد ، ولا يقال يوم ذو أزيز . قال ابن دريد : أشّ القوم وتأشّشوا إذا قام بعضهم إلى بعض للشرّ لا للخير . ومن ذلك : جززتُ الشاة وحلقتُ العنز ، لا يكون الحلق في الضأن ولا الجز في المعزى . وخفضتَ الجارية ، ولا يقال في الغلام . وحقَب البعيرُ إذا لم يستقم بوله (ظ ١٦٣) لقصده ولا يحقَب إلاّ الجمل .

---

(١) هذا الباب نقله السيوطي في المزهر جـ - ١ ، صـ - ٤٣٥ وما يليها .

(٢) هو سهل بن محمد بن عثمان بن القاسم السجستاني . من أئمة اللغة والنحو والغريب . قرأ كتاب سيبويه على الأخفش الأوسط . توفيّ حوالي سنة ٢٥٤ هـ (بغية ٢٦٥) .

قال أبو زيد : أبلَمت البَكْرة إذا ورِمَ حياؤها ، لا يكون إلاَّ للبَكْرة . وعَدَنت الإبلُ في الحَمْض ، لا تَعْدن إلاَّ فيه . ويقال غَطَّ البعير هدَرَ ، ولا يقال في النّاقة . ويقال : ما أَطْيبَ قَدَاوةَ هذا الطّعام ، أي ريحَهُ ، ولا يقال ذلك إلاَّ في الطّبخ والشّواء . ولَقَعه ببَعْرة ولا يقال بغيرها . وفعلت ذاك قبل عَيْر وما جرى (١) لا يُتَكلّم به إلاَّ في الواجب ، لا يقال : سأفعله قبل عير .

ومن الباب ما لا يقال إلاَّ في النّفي كقولهم : ما بها أرِمٌ أي ، ما بها أحد . وهذا كثير فيه أبواب قد صنّفها العلماء .

باب الشعر (٢)

الشّعْر كلامٌ موزونٌ مُقفًى دالٌ على معنى ويكون أكثر من بيت . وإنّما قلنا هذا لأنّ جائزاً اتفاقُ سطر واحد بوزنٍ يشْبه وزنَ الشّعر عن غيْر قصْد . فقد قيل إنّ بعْض النّاس كتب في عُنوان كتابٍ : (ظ ١٦٨) « للأمير المُسَيّب بن زهير ، منْ عقال بن شبّة بن عقال » . (فاستوى هذا في الوزن الّذي يُسَمّى الخفيف) ولعلّ الكاتب لم يقصد به شعْراً (٣) .

وقد ذكر ناس في هذا كلمات كتاب الله – جلّ ثناؤه – كرهْنا ذكرها (٤) ، وقد نزّه الله – جلّ ثناؤه – كتابه عن شبَه الشّعر كما نزّه نبيّه – طلعم – عن قوله . فإنْ قال قائل : فما الحكمة في تنزيه الله – جلّ ثناؤه – نَبيّه عن الشّعر لله قيل له : أوّل ما في ذلك لله كم الله – جلّ ثناؤه – بأنّ الشعراء يتّبعهم الغاوون (٥) ، وأنّهم في كلّ واد يهيمون ، وأنّهم يقولون ما لا يفْعلون ، ثم قال : [إلاّ الّذين آمنوا وعَملوا الصالحات ، الشعراء ٢٢٧/٢٦] ، ورسول الله – صلعم – وإن كان أفضَلَ المؤمنينَ إيماناً وأكثر الصّالحين عملاً للصّالحات ، فلم يكن ينبغي له الشّعر (و ١٦٩) بال لأنّ للشعْر شرائطَ لا يُسَمّى الإنسان

---

(١) هذه العباره وردت في بيت شعر للشّماخ الغطفاني ، وقد مضى ذكره في باب ما ص١٧٢

(٢)نقل السّيوطي هذا الباب ملخصا في موضعين (٢ / ٤٦٩ ؛ ٤٩٨)

(٣) اورد الجاحظ هذه العباره معتبرا إيّاها شعْراً (بيان ٢ /١٥٩)

(٤) نسوق على سبيل المثال للقارىء آيتين جاءتا على وزنين شعريين . الأولى « وإذا مَرُّوا بِهِمْ يتغامزون » المطففين ٨٣/ ٣٠ ، فهي من وزن بحر الوافر ، الثانية « إنّا أعطيناك الكوثر ١٠٨ / ١ » ، فهي من وزن بحر المتدارك .... الخ .

(٥) انظر القرآن ، سورة الشعراء ، ابتداء من الآية ٢٢٤ .

بغيرها شاعراً . وذاك أنّ إنسانا لو عمل كلاما مُستقيما موزونا يتحرّى فيه الصّدق ومن غير أن يُفرط أو يتعدّى أو يَمينَ أو يأتى فيه بأشياء لا يمكن كَونها بتّة ، لما سمّاه النّاسُ شاعرا ، ولكان ما يقوله مَخسولاً ساقطا (١) . وقد قال بعض العقلاء - وسُئل عن الشّعر - فقال : « إن هزَل أضْحك ، وإن جدّ كَذَب » . فالشّاعر بين كَذِبٍ وإضْحاك ، وإن كان كذا فقد نزّه الله - جلّ ثناؤه - نبيّه - صلعم - عن هاتين الخَصْلتين وعن كلّ أمر دَنِئ .

وبَعْدُ ... فإنّا لا نكاد نَرى شاعرا إلاّ مادحا ضارِعاً أو هاجياً ذا قَذَعٍ ، وهذه أوصاف لا تَصلُح لنبىّ . فإن قال : فقد يكون من الشّعر الحُكْم كما قال رسول الله - صلعم - : « إنّ من البيان لَسِحْراً ، (ظ ١٦٩) ، وإنّ من الشّعر لحِكْمة - أو قال حُكْماً - » . قيل له : إنّما نزّه الله - جلّ ثناؤه - عن قيلِ الشّعْر لما ذكرناه ، فأمّا الحِكْمة فقد آتاه الله - جلّ ثناؤه - من ذلك القسم الأجزل والنّصيب الأوفى الأزكى . قال الله - جلّ ثناؤه - فى صفة نبيّه - صلعم - [ويُزَكّيهم ويُعلّمهم الكِتابَ والحِكْمة ، آل عمران ٣ / ١٦٤] ، وقال [واذْكُرْنَ ما يُتْلى فى بيوتكن من آيات الله والحِكْمة ، الأحزاب ٣٣ / ٣٤] . فآيات الله القرآن والحِكْمة سُنّتُه - صلعم - .

ومعنى آخر فى تَنزيه الله - جلّ ثناؤه - نبيّه - صلعم - عن قيل الشّعر أنّ أَهْلَ العروض مُجْمعون على أنّه لا فَرْق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع ، إلاّ أنّ صناعة الإيقاع تَقْسِمُ الزّمان بالنّغم وصناعة العروض تَقْسِم الزّمان (و ١٧٠) بالحروف المَسْموعَة . فلمّا كان الشّعر ذا ميزان يناسب الإيقاع ضرب من المَلاهى ، لمْ يَصْلُحْ ذلك لرسول الله - صلعم - . وقد قال - صلعم - : « ما أنا مِنْ دَدٍ ولا دَدٌ مِنى (٢) »

---

(١) ممّا هو جدير بالذكر أن آراء ابن فارس فيما يتعلّق بتعريف الشعر ، وكونه لا يتعارض مع الكذب والإفراط والمبالغة الخ .... تتفق تماما مع آراء النّاقد المشهور قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » .

(٢) الحديث فى الصحاح . والدَّدُ اللّهو واللّعب (صحاح ١ / ٢٢٥) .

والشِّعْر ديوان العرب ، وبه حُفِظت الأنساب وعُرِفت المآثر ، ومنه تُعُلِّمت اللُّغة ، وهو حجَّةٌ فيما أشكل من غريب كتاب الله - جلّ ثناؤه - وغريب حديث رسول الله - صلعم - وحديث صحابته التّابعين . وقد يكون شاعرٌ أشْعَرَ وشِعْرٌ أحلى وأظرف ، فأمّا أن تتفاوت الأشْعارُ القديمة حتّى يتباعدَ ما بينها في الجودة فلا . وبكلٍّ يُحتَجُّ وإلى كلٍّ يُحْتاج . فأمّا الاختيار الذى يراه النّاسُ للنّاسِ فَشَهَوات ، كلٌّ مُسْتَحْسِنٌ شيئاً .

(ظ ١٧٠) والشّعراء أمراءُ الكلام يَقْصُرون المَمْدود ولا يَمُدُّون المَقْصور ، ويُقدِّمون ويُؤخِّرون ، يومئون ويشيرون ، يَخْتَلِسون ، ويُعيرون ويَسْتَعيرون . فأمّا لَحْنٌ في إعْراب ، أو إزالة كلمة عن نَهْجِ صواب فليس لهم ذلك . ولا مَعْنى لقول من يقول : « إنَّ للشّاعر عند الضرورة أنْ يأتيَ في شعره بما لا يَجوز . » ولا معنى لقول من قال : (وافر)

ألَمْ يأتيكَ والأنْباءُ تَنْمى (١)

وهذا - وإنْ صحَّ - وما أشبهه من قوله : (سريع)

لمّا جَفَا إخْوانُه مُصْعَباً (٢)

وقوله : (طويل)

قِفا عِنْدَ مِمّا تَعْرِفَانِ رُبُوعُ

---

(١) صدر بيت من شواهد سيبويه (٢ / ٥٩) ، وهو فى مفصّل الزّمخشري (ص ٣٨٧) ، وفى شرح شواهد المغنـي (ص ١١٣) ، وفـى اللّسان فى أكثر من موضع (١٩ / ١٦٣ ، ٢٠ / ٣٨٤) إلخ ... وعجزه :

بما لاقت لبون بنى زياد

وينسب الشعر لقيس بن زهير العبسى .

(٢) الشّاهد على إعادة الضمير (فى إخوانه) على ما هو متأخر رتبة ومكاناً ، وقد أورد ابن عقيل شواهد على هذه الحالة منها :

لما رأى طالبوه مصعباً ذعروا وكاد لو ساعد المقدور ينتصر

شرح ابن عقيل (١ / ٤١٨) .

نكـله غَلَطٌ وخطأ . وما جعل الله الشّعراء معصومين يُوقَوْنَ الخطأ والغلطَ ، فما صحّ من شعرهم فمقبول وما أبته العربيّة وأصولها فمردود . بلى للشّاعر إذا لم يَطّرد له الّذى يريده فى وزن شعـره أن (و ١٧١) يأتى بما يقوم مقامه بسطاً واختصـاراً وإبدالا ، بعد ألاّ يكونَ فيما يأتيه مُخْطِئاً أو لاحِناً . فله أنْ يقول : (رجز)

كالنَّحْلِ فى ماءِ رُضَابِ العَذْبِ (١)

وهو يريد العَسَل . ولَهُ أنْ يقول (كامل)

مِثْلِ الفَنِيقِ هنأْتَهُ بِعَصِيمِ (٢)

والعَصِيم أثر الهِنَاء ، وإنما أراد هَنأْتَه بهِنَاء . ولَهُ أنْ يَبْسط فيقول كما قال الأعْشى : (بسيط)

إنْ تَرْكَبوا فَرُكوبُ الخَيْلِ عَادَتُنا

أوْ تنْزِلون فإنّا مَعشَرٌ نُزُلُ

معناه : « إنْ تركبـوا رَكِبْنا وإنْ تنزلوا نَزَلْنا » ، لكن لم يستقم له إلاّ بالبسط . وكـذلك قـوله : (طويل)

وإنْ تسْكنى نَجْداً فيَا حبَّذا نَجْدُ

أراد : « إن تَسْكُنى نَجْداً سكَنّاه » . فبسط لمّا أراد إقامة الشّعر . أنشدنيها أبى فارس بن زكريا قال : أنشدني أبو عبد الله محمد بن سعدان النّحوى الهمذانى قال : أنشدنى أبو نصر صاحب الأصمعي (٣) : (طويل)

---

(١) رجز وارد فى اللّسان ، رضب (١ / ٤٠٢) منسوباً لرؤبة . وبين الرّوايتين خلاف طفيف .

(٢) عجز بيت وارد فى اللّسان ، عصم (١٥ / ٣٠١) وصدره :

بخطيرةٍ توفى الجديل سريحة

وينسب الشعر للبيد بن ربيعة العامرى .

(٣) الأبيات لشمر بن عمرو الحنفى

(ظ ١٧١) قَضَيْتُ الغَوَاني غَيْر أنّ مَودّةً
لِذَلْفَاءَ مَا قَضَّيْت آخِرهَا بَعْدُ

فَيَا رَبْوَةَ الرَّبْعَيْن حُيِّيت رَبْوةً
علي النَّأي مِنّي واسْتَهَلَّ بِك الرَّعْدُ

فَإنْ تَدَعِي نَجْداً نَدَعْهُ ومَنْ بِهِ
وإنْ تَسْكُنِي نَجْدا فَيَا حَبَّذا نَجْدُ

الباقلانى

(- ٤٠٣ هـ)

هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد ، القاضى ، المعروف بابن الباقلانى .

ولد فى البصرة ، ولم تحدد المصادر تاريخ مولده ، وسكن بغداد ، وقام بالتدريس فيها ، وكانت له حلقه عظيمة من التلاميذ ، واشتهر بالقدرة على الجدل وإفحام الخصوم من الرافضة والمعتزلة والجهمية . وقد سمع الحديث من أبى بكر بن مالك القطيعى ، وأبى محمد بن ماسى وأبى أحمد الحسين بن على النيسابورى . وحكى الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ج ٥ أن الباقلانى توفى سنة ثلاث وأربعمائة سنة ٤٠٣ هـ أيام بهاء الدولة ، وصلى عليه ابنه الحسن ووافقت وفاته سنة ١٠١٣ م وكان فى الفقه مالكى المذهب ، أكد ذلك قاضى عياض مراراً فى ترجمته ، وقد أخذ عنه جماعة لا تعد ، ودرسوا عليه أصول اللغة والدين والفقه ، ومن أهم أحداث حياته ، أن عضد الدولة البويهى أرسله فى سفارة إلى إمبراطور بيزنطة باسليوس الثانى سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ / ٩٨٣ م فى القسطنطينية ، وذكر قاضى عياض هذه السفارة ، وما دار فيها من مناظرات .

وله ما يقرب من اثنين وخمسين كتابا ، ذكر أكثرها قاضى عياض . ومنها على سبيل المثال لا الحصر إعجاز القرآن ، والتمهيد ، وشرح اللمع ، والتعديل والتجوير ، وشرح أدب الجدل ، والأصول الكبير ، والأصول الصغير ، والمقدمات فى أصول الديانات ، ونقض النقض ، والإنصاف فى أسباب الخلاف ، وغير ذلك . والنص المختار من كتاب التمهيد .

يعد الباقلانى أكبر مفكرى الأشاعرة فى القرن الرابع الهجرى ، فقد كان متميزا فى الإحاطة بعلم الكلام والجدل ، يتضح فى كتابه التمهيدى تميزه فى نقد المذاهب المخالفة لأهل السنة دينيا أو فكريا وعند الباقلانى نجد معرفة ومناقشة وإحاطة بكثير من آراء اليهود والنصارى والبراهمة وردّا على آراء المجسمة ، وفوق هذا كله فقد عرض موقف الأشاعره من الصفات والإمامة .

ابن فارس (٣٢٩ - ٣٩٥ هـ)

أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا بن محمد بن حبيب تنقل في طلب العلم وأقام في همذان للتدريس مدة طويلة ثم استدعى إلى الريّ وتتلمذ على أبى الحسن على إبراهيم بن سلمة بن بحر القطّان القزوينى وأبى بكر أحمد بن الحسين الخطيب ، وأحمد بن طاهر بن المنجم ، وتلمذ له بديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات ، وجالس ابن العميد وحظى لديه بمنزلة سامية ، كما تقرب من الوزير الصاحب بن عباد ، كان أديبا شاعرا فقيها نحويا لغويا ، من مؤلفاته : أصول الفقه وحلية الفقهاء ، وجامع التأويل فى تفسير القرآن ، وأخلاق النبى ، وسيرة النبى والمجمل فى اللغة ، ومقاييس اللغة ، والصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها ، وأهم جهوده فى علوم اللغة « مقاييس اللغة » ، وهو معجم ذو فكرة مبتكرة ، تقوم على أن المعنى الاساس المشترك لكلمات كل مادة لغوية يقوم على حروفها الأصول ، وهذا المعنى تشترك فيه كل صيغ المادة ، وهذه هى الأصول ، أما الدلالات الجزئية فهى فروع عن الدلالة الأصلية . وبجد فكره اللغوى فى كتابه المهدى إلى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب « الصاحبى فى فقه اللغة » ، وهو عمل متميز فى نظرية اللغة والبحث اللغوى ، حاول به تجاوز الجزئيات والجهود المفردة إلى رؤية عامة في قضايا اللغة .

باب القول على لغة العرب

(توقيفٌ؟ أم اصطلاح ؟

أقول : إنّ لغةَ العرب توْقيفٌ . ودليلُ ذلك قولهُ – جلّ ثناؤه – [وعَلّم آدم الأَسْماء كلّها . البقرة ٢ / ٣١] فكان ابن عباس يقول : علّمه الأسماء كلّها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارفها الناس من دابّة وأرض وسَهْل وجبل (وجَمَل) وحمار وأشْباه ذلك من الأمَم وغيرها . وروَى

باب الكلام في أقسام العلوم

٧ - ان قال قائل : فعلى كم وجه تنقسم العلوم ؟ قيل له على وجهين فعلم قديم - وهو الله تعالي ، وليس بعلم ضرورة ولا استدلال . وعلم مُحْدَث - وهو كل ما يَعْلَمَ به (ب ٣ ظ) المخلوقات ، من الملائكة والجن والإِنس وغيرهم من الحيوان .

باب

٨ - فإن قال قائل : فعلى كم وجه تنقسم علوم المخلوقين ؟ قيل له : على قسمين : قسم منها علم ضرورة ، والثانى منها علم نظر واستدلال . وهذه الثلاثة العلوم ، التى وصفناها ، غير مختلفة فيما له يكون الشئ علماً ،من كونها معرفةً للمعلوم على ما هو به . وقد تَقدَّم القول فى إِيضاح ذلك .

باب العلم الضرورى

٩ - فإن قال قائل : فما معنى وصفكم للضرورى منها بأنه ضرورى على مواضعة المتكلمين ؟ قيل له : معنى ذلك أنه علم يلزم نفسَ المخلوق لزوماً لا يمكنه معه الخروج عنه ولا الانفكاك منه ، ولا يتهيأ له الشك فى متعلقه ولا الارتياب به .. وحقيقة وصفه بذلك فى اللغة أنه مما أُكرِهَ العالم به على وجوده . لأن الاضطرار فى اللغة هو الحمل والإِكراه والإِلجاء وكل (ص٤و) هذه الألفاظ بمعنى واحد . فلا فرق عندهم بين قول القائل « اضطرهُ السلطانُ إِلى تسليم ما له وبيع عقاره » وبين قوله « أكرهه على ذلك » و « حمله عليه » و « ألجاه إِليه » . فالواجب بما وصفناه أن يكون ما قلناه هو معنى وصف العلم وغيره بأنه ضرورة .

١٠ – وقد يوصَف العلم وغيره من الأجناس بأنه ضرورة على معنى أن العالم به محتاج إليه لأن الضرورة فى اللغة تكون بمعنى الحاجة . يدل على ذلك قولهم « فلان مضطرّ إلى تكفُّف الناس وسؤالهم » – يعنون أنه محتاج إلى ذلك . ومنه قوله تعالى « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ » وقوله : « إِلاَّ مَا اُضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ » . وهو الذى يريده المسلمون بقولهم : إن المضطر إلى أكل الميْتة قد أُبيح له أكلها » – يعنون به المحتاج إلى أكل ذلك . وكل محتاج إلى علم أو غيره من الأجناس ، فهو مضطر إلى ما احتاج إليه .

باب العلم النظرى

١١ – فإن قال قائل: فما معنى تسميتكم للضرب الآخر علم نظر واستدلال ؟ قيل له : مرادنا بذلك أنه علم يقع بعقب استدلال وتفكر فى حال المنظور فيه أو تذكر نظر فيه . فكل ما احتاج من العلوم إلى تقدم الفكر فيه والرويّة وتأمُّل حال المعلوم ، فهو الموصوف بقولنا : (ب٤و) علم نظريّ . وقد يُجعَل مكان هذه الألفاظ أن تقول : إن العلم النظرى هو ما بُنى على علم الضرورة والحسّ ، أو على ما بُنى العلم بصحّته عليهما . ومعنى قولنا فى هذا العلم إنه كَسْبِيّ أنه مما وُجد بالعالِم وله عليه قدرة مُحدَثة . وكذلك كل شئ شرِكة – أعنى العلم – فى وجود القدرة المحدَثة عليه ، فهو كَسْب لمن وُجد به .

باب الكلام فى مدارك العلوم

١٢ – فإن قال قائل : فمن كم وجه يقع العلم بالمعلوم إذا كان ضرورة ؟ قيل له : من ستة طرق . فمنها الحواسّ الخمس ، وهى حاسة البصر وحاسة السمع وحاسة الذوق وحاسة الشمّ وحاسة اللمس . وقصدنا بذكر الحاسة ههنا الإدراك الموجود بالحواس ، لا

الأجسام المؤتلفة على الصورة التى ما حصل عليها من الأجسام سمّيناه عيناً وأنفاً وأذناً وفماً ويداً . فكل علم حصل عند إدراك حاسة من هذه الحواس فهو علم ضرورة يلزم النفس لزوماً لا يمكن معه الشك فى المدرَك ولا الارتياب به . وكل حاسة من هذه الحواس تختُص فى وقتنا هذا ، على عادة جارية ، بإدراك جنس أو أجناس . فحاسة الرؤية تُدرَك بها اليوم الألوان والأكوان والأجسام ، وحاسة السمع يدرك بها الكلام والأصوات . وحاسة الشم تُدرَك بها الأراييح . وحاسة الذوق تدرك بها الطعوم . وحاسة اللمس ، وكل عضو فيه حياة ، تدرك بها الحرارة والبرودة واللين والخشونة والرخاوة والصلابة– على قول من زعم أن اللين والخشونة والرخاوة والصلابة معانٍ زائدة توجد بالجواهر كالحرارة والبرودة .

١٣– والضرب السادس منها ضرورة تُختَرَع فى النفس ابتداءً ، من غير أن تكون موجودة ببعض هذه الحواس – كعلم الإنسان بوجود نفسه وما يجده فيها من الصحّة والسقم واللذة والألم ، والغم والفرح ، والقدرة والعجز ، والإرادة والكراهة ، والإدراك والغىّ ، وغير ذلك مما يحدث فى نفسه مما يدركه الحىّ إذا وُجد به . ومنه أيضاً العلم الواقع بقصد المتكلم إلى ما يقصد ومن يقصده بخطابه دون غيره ، وأنه قاصد إلى اكتساب ما يوجد به من ضروب (ص٥ظ) مقدوراته من الكلام وغيره . ومنه أيضاً العلم بأن الأجسام متى كانت موجودة ، فلابد من أن تكون مجتمعةً متماسّةً الأبعاض أو مفترقةً متباينةً وأن الخبر عن وجود الشئ . وأنه على بعض الأوصاف ، لابد أن يكون صدقاً أوكذباً وأن الخبرين المتضادّ مخبَرهما لا يجوز أن يكونا جميعاً صدقاً أو كذباً وما جرى مجرى ذلك من الأمور المنقسمة في العقل إلي أمرَيْن لا واسطة بينهما .

١٤ – ومنه أيضاً العلم بخجل الخجل ووجل الوجل، والعلم بالشجاعة والجبن ، والبرّ والعقوق، والتحية والاستهزاء ، الواقعُ عند مشاهدة الأمارات . ومنه أيضاً العلم المختَرَع فى النفس بما تواتَر الخبر عن كونه واستفاض عن وجوده – نحو العلم الواقع عند إخبار المخبرين عن الصين وخراسان وفارس وكَرْمان ، وعن ظهور موسى وعيسى

ومحمد ، صلى الله عليه وعلى جميع النبيين ! والخبر عن الوقائع والفتن والممالك والدول وغير ذلك من الأمور الحاصلِ الخبرُ عنها من قوم قطع العذرَ نقلُهم ووجب العلم عند خبرهم فكل هذه العلوم الواقعة لنا بالمعلومات التى وصفناها توجد مخترعةً فى النفس ، وجُدت الحواس وما يوجد بها من الإدراكات أو لم توجد ، سوى العلم الواقع عند الخبر المتواتر ، والعلم تخجل الخجل ووجل الوجل ، وقصد القاصد إلى من يقصده وما يقصده بكلامه . فإنه ، وما جرى مجراه ، فى وقتنا هذا مُضمَّن بوجود الإدراك للخبر عن المعلوم ومشاهدة الأمارات التى عند مشاهدتها يقع العلم بما ذكرناه.

١٥ - وقد يصحّ أن يخترع الله العلم بوجود المخبَر عنه من غير سماع خبر عنه فى الزمن الذى يصحّ فيه خرقُ العادات وإظهارُ المعجزات وخروجُ الأمور عما هى عليه فى العادة . وتسميتهم الإدراكاتِ الموجودةَ بالجوارح والحواس لمساً وذوقاً وشمّاً إنما أُجْرِيتَ عليها على سبيل المجاز والاتساع لما بينه وبينها من التعلّق ، على طريقتهم فى التجوّز بإجراء اسم الشئ على ما قاربه وناسبه وتَعلّق به ضرباً من التعلق . والإدراك فى الحقيقة شئ غير اللمس واتصال سائر الحواس بالمحسوسات وأماكنها وغيره من ضروب الاتصال .

باب الكلام فى الاستدلال

١٦ - **فإن قال قائل** : فعلى كما وجه ينقسم الاستدلال؟ قيل له : على وجوه يكثر تغدادها . فمنها (ب٥و) أن ينقسم الشئ فى العقل على قسمين أو أقسام يستحيل أن تجتمع كلها فى الصحّة والفساد . فيُبطل الدليل أحد القسمين ، فيقضى العقل على صحّة ضدّه . وكذلك إن أفسد الدليل سائر الأقسام ، صحّح العقل الباقى منها لا محالة . نظير ذلك علمُنا باستحالة

خــروج الشئ عن القــدم والحــدث . فمتى قام الدليل على حدثه بطل قدمه ، ولو قام على قدمه لأفسد حدثه .

١٧- **ومنها** : أن يجب الحكمُ والوصف للشئ فى الشاهد لعلّة ما ، فيجب القضاء على أن كل مَن وُصفَ بتلك الصفة فى الغائب ، فحكمه فى أنه مستحق لها لتلك العلة حكمُ مستحقَها فى الشاهد ، لأنه يستحيل قيام دليل على مستحق الوصف بتلك الصفة مع عدم ما يوجبها . وذلك كعلمنا بأن الجسم إنما كان جسماً لتأليفه ، وأن العالِم إنما كان عالماً لوجود علمه . فوجب القـضـاء بإثبات علم كل من وُصف بأنه عـالم ، وتأليف كل من وُصف بأنه جسـم أو مجتـمع .لأن الحكم العقلي المستحقَ لعلّه لا يجوز أنْ يُستحَقّ مع عدمها ولا لوجود شئ يخالفها ، لأن ذلك يُخْرِجها عن أن تكون علّة للحكم .

١٨- **ومن ذلك** أن يُستدَلّ بصحّة الشئ على صحّة مثله وما هو فى معناه ، وباستحالته على استحالة مثله وما كان بمعناه - كاستدلالنا على إثبات قدرة القديم سبحانه على خلق جوهر ولون مثل الذى خلقه ، وإحياءِ ميّت مثل الذى أحياه ، وخلق الحياة فيه مرّةً أُخرى بعد أن أماته وعلى أنه محال منه خلقُ شئ من جنس السواد والحركات لا فى مكان فى الماضى ، كما استحال ذلك فى جنسهما الموجود فى وقتنا هذا .

١٩ - **وقد يستدل** بتوقيف أهل اللغة لنا على أنه لا نارَ إلاّ حارَة ملتهبة ، ولا إنسانَ إلا ما كانت له هذه البِنْية ، على أنْ كل من خبّرنا من الصادقين بأنه رأى ناراً أو إنساناً ، وهو من أهل لغتَنا ، يقصد إلى إفهامنا أنه ما شاهد إلا مثل ما سّمى بحضرتنا ناراً أو إنساناً ، لا تَحْمل بعض ذلك على بعض ، لكن بموجَب الاسم وموضع اللغة ووجوب استعمال الكلام على ما استعملوه ووَضعه حيث وضعوه .

٢٠ - **وقد يُستدل** بالمعجزة على صدق من ظهرت على يده ، لأنها تجرى مجرى الشهادة له . ويستـدل على صدق المخبِر الذى أخبـر عنه النبى ، صلى الله عليـه ، أنه لا يكذب . وكـذلك يُستدل بخبر من خبّر عن صدقه صاحب المعجزة على صدق من أخبر عنه أنه لا يكذب .

٢١- **وقد يستدل** أيضاً على بعض القضايا العقلية ، وعلى جميع الأحكام الشرعيّة ، بأدلة التوقيف والسمع . فأولها الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ، والقياس الشرعى المنتزَع من الأصول المنطوق بها ، وما جرى مجرى القياس على العلة من ضرب الاجتهاد ، الذى يسوغ الحكم بمثلة من الشرع على مذهب القايسين . فكل هذه الأدلة السمعيّة جارية فى الكشف عن صحة الأحكام مجرى ما قدمنا ذكره من الأحكام العقلية ، وإن كانت فروعاً لأدلة العقول وقضاياها . وفيما أومأنا إليه من وجوه الاستدلال كفاية وتنبيه على ما أضربنا عن ذكره .

بـاب آخـر

٢٢- **فإن قال قائل** : فما معنى الدليل عندكم ؟ قيل له : هو المرشد إلى معرفة الغائب عن الحواس وما لا يُعرف باضطرار . وهو الذى يُنصَب من الأمارات ويورد من الإيماء والإشارات، مما يمكن التوصّل به إلى معرفة ما غاب عن الضرورة والحسّ . ومنه سُمّى دليل القوم دليلاً. وسمّت العرب أثر اللصوص دليلاً عليهم ،لما أمكن معرفة مكانهم من جهته . ومنه سُمِّيَت الأميال والعلامات المنصوبة والنجوم الهادية أدلةً ، لما أمكن أن يُتعرَّف بها ما يُلتمس علمه . وإنما سُمِّى ناصب الآيات والأمارات ، التى يمكن التوصل بها إلى معرفة المعلوم ، دليلاً، مجازا واتّساعاً لما بينه وبين الدليل ، الذى هو الأمارات والإشارات ، من التعلق وإنما الدليل فى الحقيقة هو ما قدّمنا ذكره ، من الأسباب المتوصّل بها إلى معرفة الغائب عن الضرورة والحواس ،من الأمارات والعلامات والأحوال التى يمكن بها معرفة المستنبَطات . وهذا الدليل ، الذى وصفنا حاله ، هو الدلالة ، وهو المستدَل به ، وهو الحُجّة .

٢٣- **وأما الاستدلال** والنظر ، فهو تقسيم المستدِل وفكره فى المستدَل عليه وتأمله له ، المطلوب به علم حقائق الأمور . وقد يُسمّى ذلك أيضاً دليلاً ودلالةً مجازاً واتّساعاً لما بينهما من التعلق . وقد تُسمّى العبارة المسموعة ، التى تُنبِئ عن استدلال القلب ونظره وتأمّله ، نظراً واستدلالاً مجازاً واتساعاً لدلالتها عليه . وقد ذكرنا صورة الاستدلال بتغيُّر الأجسام على إثبات صانعها ، وتقصّينا طرفاً من الكلام فى الأبواب التى قدمنا ذكرها فى كتاب كيفية الاستشهاد فى الرد على أهل الجحد والعناد بما نستغنى به عن الترداد .

لاسبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع

ثم رجع الكلام بنا إلى ما قدمناه من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع (١) الذى ادعوه فى الشعر ، ووصفوه فيه وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ، ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم ، والتدرب به ، والتصنع (٢) له ، كقول الشعر ، ورصف الخطب ، وصناعة الرسالة ، والحذق فى البلاغة . وله طريق يسلك ، ووجه يقصد ، وسلم يرتقى فيه إليه ، ومثال قد يقطع طالبه عليه .

قرب إنسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعراً ، أو يتعود أن يكون جميع خطابه سجعاً ، أو صنعة متصلة ، لا يسقط من كلامه حرف وقد يبادره به ما قد تعوده .

وأنت ترى أدباء زماننا يضيفون المحاسن فى جزء ، وكذلك يؤلفون أنواع البارع ، ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدة أو رسالة أو خطبة ، فيحشون به كلامهم ، ومن كان قد تدرب وتقدم فى حفظ ذلك اشتغل عن هذا التصنيف ، ولم يحتج إلى تكلف هذا التأليف ، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطا من باع كلامه ، وموشحاً بأنواع البديع ما يحاوله من قوله .

وهذا طريق لا يتعذر وباب لا يمتنع ، وكل يأخذ فيه مأخذاً ، ويقف فيه موقفاً على قدر ما معه من المعرفة ، بحسب ما يمده من الطبع .

فأما شأو نظر القرآن فليس له مثال يحتذى إليه ، ولا إمام يقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا . كما يتفق للشاعر البيت النادر ، والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب ، والشئ القليل

---

(١) البديع : هو أحد علوم البلاغة الثلاثة ، ولكن الكاتب يستعمله هنا بمعناه الأوسع الذى يشمل كل الأساليب البلاغية المبتكرة .

(٢) التصنع : التكلف .

العجيب، وكما يلحق بعض كلامه بالوحشيات (١)، ويضاف من قوله إلى الأوابد (٢) . لأن ما جرى هذا المجرى، ووقع هذا الموقع ، فإنما يتفق للشاعر فى لمع من شعره، وللكاتب فى قليل من رسائله ، وللخطيب فى يسير من خطبه ولو كان كل شعره نادراً ، ومثلا سائراً ومعنى بديعا، ولفظاً رشيقاً ، وكل كلامه مملوءاً من رونقه ومائه ، ومملاً ببهجته وحسن روائه (٣) ، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين ، والمتردد بين الطرفين ، ولا البارد المستثقل، والغث المستنكر : لم يبن الإعجاز فى الكلام ولم يبن التفاوت العجيب بين النظام والنظام .

وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل ، ومبهم قد يحتاج فى بعضه إلى تفسير ، وسنذكر ذلك بمشيئة الله وعونه .

ولكن قد يمكن أن يقال فى البديع الذى حكيناه وأضفناه إليهم : إن ذلك باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ، وإنه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم ، ولا وجه من وجوه فصاحاتهم ، وإذا أورد هذا المورد ووضع هذا الموضع كان جديرا .

وإنما لم نطلق القول إطلاقاً لأنا لانجعل الإعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة ، ووقفاً عليها ومضافاً إليها ، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة فى الجملة ، آخذة بحظها من الحسن والبهجة ، متى وقعت فى الكلام على غير وجه التكلف المستبشع ، والتعمل المستشنع .

*

(١) الوحشيات : جمع وحشية وهى كل مايستوحش وينفر من الناس .

(٢) الأوابد : جمع آبدة وهى الشئ الغريب الذى لامثيل لجودته .

(٣) الرواء : جمال المنظر .

مسـألـة

ويجب أن يعلم : أن إمام المسلمين وأمير المؤمنين ومقدّم خلق الله أجمعين ، من الأنصار والمهاجرين ، بعد الأنبياء والمرسلين : أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، لقوله تعالى : (ثانى اثنين إذ هما في الغار ٩ - ٤٠) ولا أفضل من اثنين ثالثهما الله تعالى لقوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ٥ - ٥٤) وهو الصدّيق وأصحابه ، لما قاتل أهل الردة . ولقوله تعالى : (والذى جاء بالصدق وصدّق به ٢٩ - ٣٣) قيل فى أصح التفاسير : الذى جاء بالصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدق أبو بكر الصديق ، يؤكد صحة هذا التفسير قوله صلى الله عليه وسلم : « قال الناس لى كذبت ، وقال أبو بكر صدقت » ويدل عليه قوله تعالى : (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلًّا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير - ٥٧ - ١٠) والصديق رضى الله عنه أول من أنفق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يؤكد هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أمنّ (١) الناس علىّ فى نفس ومال أبو بكر الصديق ، مانفعنى مال مانفعنى (٢) مال أبى بكر » .

ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لأبى الدرداء : « أتمشى أمام من هو خير منك ، والله ماطلعت الشمس ولا غربت على رجل بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبى بكر ، وليس فى السماء ولا فى الأرض بعد النبيين والمرسلين خير من أبى بكر » . وكان رضى الله عنه مفروض الطاعة ، لإجماع المسلمين على طاعته وإمامته ، وانقيادهم له ، حتى قال أمير المؤمنين على عليه السلام مجيباً لقوله رضى الله عنه لما قال : أقيلونى ، فلست بخيركم . فقال : لا نقيلك ولا نستقيلك ، قدّمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا ألا نرضاك لدنيانا . يعنى بذلك حين قدمه للإمامة فى الصلاة مع حضوره ، واستنابته فى إمارة الحج فأمرك علينا . وكان رضى الله عنه أفضل الأمة ، وأرجحهم إيمانا ، وأكملهم فهما ، وأوفرهم علما ، وأكثرهم حلماً ، وبه نطق

١ - أمنّ الناس : أكثرهم فضلا

٢ - مانفعنى : أى مثلما نفعنى .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ولو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح إيمان أبى بكر على إيمان أهل الأرض » .

ثم من بعده على هذا أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، لاستخلافه إياه ، وقد ورد فى فضائله رضى الله عنه من الأحاديث ما لا يحصى .

ومن جملة ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « لو كان بعدى نبى لكان عمر ، إن الله ربط الحق بلسان عمر وقلبه » وأيضاً : قوله صلى الله عليه وسلم : « كادت أنفاس عمر تسبق الوحى » لأنه كلمه فى أسارى بدر ، وأن تضرب أعناقهم ، فنزل قوله تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن [1] فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ٨ - ٦٧) فقال : « لو نزل من السماء عذاب مانجا منه إلا عمر »حين نزل قوله تعالى : (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ٨ - ٦٨) وقال : لو حجبت نساءك فإنه يدخل عليك البر[2] والفاجر ، فنزلت آية الحجاب وقال : (عسى ربه إن طلقكن ٦٦ - ٥) فنزلت الآية فى ذلك ، وفضله أكثر من أن يحصى .

وبعده : أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، لإجماع المسلمين أنه من جملة الستة الذين نص عمر عليهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن عثمان أخى ورفيقى فى الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم : « لو كان لنا ثالثة زوجناكها [3] ياعثمان » . وقال صلى الله عليه وسلم : « دعوت الله تعالى أن يدفع الحساب عن عثمان ففعل » . وقال صلى الله عليه وسلم « من يزيد فى المسجد أضمن له الجنة ؟ » فزاد فيه عثمان . وقال : « من يشترى رومة أضمن له الجنة » فاشتراها عثمان وجعلها للمسلمين . وقال : « من يجهز جيش العسرة فله الجنة » فجهزه عثمان : تسعمائة وخمسين بعيرا ، وأتمها ألفاً بخمسين فرسا .

---

١ - يثخن : يكثر القتل .

٢ - البر : الصالح .

٣ - إشارة إلى زواجه رضى الله عنه بأثنتين من بنات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهما رقية وأم كلثوم رضى الله عنهما .

وبعده أمير المؤمنين : على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضائله أحاديث كثيرة منها : قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم أدر الحق مع على حيث مادار » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبــه الله ورسوله » فأعطاها لعلى عليه السلام .

مســألــة

والدليل على إثبات الإمامة للخلفاء الأربعة رضى الله عنهم على الترتيب الذى بيناه : أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا أعلام الدين ، ومصابيح أهل اليقين ، شاهدوا التنزيل ، وعرفوا التأويل ، وشهد لهم النبى صلى الله عليه وسلم أنهم خير القرون ، فقال : « خير القرون قرنى » فلما قدّموا هؤلاء الأربعة على غيرهم ورتبوهم على الترتيب المذكور، علمنا أنهم رضى الله عنهم لم يقدموا أحداً تشهيا [1]منهم ، وإنما قدموا من قدموه لاعتقادهم كونه أفضل وأصلح للإمامة من غيره فى وقت توليه .

قال الشريف الأجل الإمام جمال الإسلام : ووقع لى أنا دليل من نص الكتاب فى ترتيبهم على هذه الرتبة : أنه لا يجوز أن يكون غير ذلك (هو) قوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون : ٢٤ — ٥٥) ووعده حق ، وخبره صدق لا يقع بخلاف مخبره فلابد من أن يتم ماوعدهم به وأخبر أن تكون لهم ، لايصح إلا على هذا الترتيب : لأنه لو قدم علىّ عليه السلام لم تصر الخلافة فيها إلى أحد من الثلاثة ، لأن عليًّا عليه السلام مات بعد الثلاثة . وكذلك لو قدم عثمان رضى الله عنه لم تصر الخلافة إلى أبى بكر وعمر ، لأن عثمان مات بعد موتهما ، ولو قدم عمر لم تصر الخلافة إلى أبى بكر لأن عمر مات بعده ، والله تعالى أخبر ووعد أنها تصير إليهم ، فلم يصح أن تقع إلا على الوجه الذى وقعت . ولله الحمد على الهداية والتوفيق .

---

١ — تشهياً : هوى وميلا .

مسألة

ويجب أن يعلم : أن ماجرى بين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم من المشاجرة نكف عنه ، ونترحم على الجميع ، ونثنى عليهم ، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان ، والأمان ، والفوز ، والجنان . ونعتقد أن علياً عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران . وأن الصحابة رضى الله عنهم إنما صدر منهم ما كان باجتهاد فلهم الأجر ، ولا يُفَسَّقون ولا يُبَدَّعون(١) .

والدليل عليه قوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه ٥ - ١١٩ و ٩ - ١٠٠ و ٥٨ - ٢٢ - ٩٨ - ٨) وقوله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فـى قلوبهم فأنزل السكينةعليهم وأثابهم فتحاً قريباً : ٤٨ - ١٨) وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » فإذا كان الحاكم فى وقتنا له أجران (على) اجتهاده فما ظنك باجتهاد من رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ويدل على صحة هذا القول : قوله صلى الله عليه وسلم للحسن عليه السلام : « إن ابنى سيّد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فأثبت العِظَم لكل واحدة من الطائفتين ، وحكم لهم بصحة الإسلام . وأيضا قوله صلى الله عليه وسلم : « يكون بين أصحابى هَنَاتٌ ونزغات(٢) يكفرها الله تعالى لهم ويشقى فيها من شقى » . وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى : (ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخواناً على سرر متقابلين ١٥ - ٤٧) .

مسألة

ويجب أن يعلم أن خير الأمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفضل الصحابة العشرة الخلفاء الراشدون الأربعة رضى الله عن الجميع وأرضاهم، ونقر بفضل أهل بيت رسول الله

---

١ - لا يفّسقون ولايبّدعون : لا يحكم عليهم بأنهم فسقة أو مبتدعون .

٢ - هَنَات : جمع هنة : أى أخطاء صغيرة ، ونزغات : جمع نزغة وهى مايوسوس به الشيطان للإنسان من ارتكاب المعصية .

صلى عليه وسلم ، وكذلك نعترف بفضل أزواجه رضى الله عنهن ، وأنهن أمهات المؤمنين ، كما وصفهن الله تعالى ورسوله ، ونقول فى الجميع : خيراً ، ونبدّع ، ونضلل ، ونفسّق من طعن فيهن أو فى واحدة منهن ، لنصوص الكتاب والسنة فى فضلهم ومدحهم والثناء عليهم ، فمن ذكر خلاف ذلك كان فاسقاً مخالفاً للكتاب والسنة نعوذ بالله من ذلك .

مسـألة

ويجب الكف عن ذكر ما شجر[1] بينهم ، والسكوت عنه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إياكم وما شجر بين أصحابى » وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قيل له : ما تقول فيما شجر بين الصدر الأول ؟ فقال : أقول كما قال الله تعالى : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ٥٩ - ١٠) وسئل عن ذلك جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال : أقول ما قال الله : (علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ٢٠ - ٥٢) . وسئل بعضهم عن ذلك فقال :(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ماكسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون ٢ - ١٣٤ و ١٤١) . وسئل عمر بن عبد العزيز عن ذلك فقال : « تلك دماء طهر الله يدى منها أفلا أطهر منها لسانى ؛ مثل أصحاب رسوله الله صلى الله عليه وسلم مثل العيون ودواء العيون ترك مسها » .

---

١ - شجر بينهم : تنازعوا فيه .

أبو إسحاق إبراهيم بن على الحصرى القيروانى
(ت سنة ٤١٣ هـ)

ولد وعاش بالقيروان ، ونسب إليها ، كما نسب إلى عمل الحصر هو أو والده وعمل بالوراقة ، وجلس إلى كثير من الشيوخ والعلماء ، والأدباء ، وتأدب ، وقال الشعر – قال ابن رشيق: وكان منزله لصيق جامع مدينة القيروان ، فكان الجامع بيته وخزانته ، وفيه اجتماع الناس إليه ومعه ، ونظر فى النحو والعروض ولزمه شبان القيروان ، وأخذ فى تأليف الأخبار ، وصنعة الأشعار مما يقربُ فى قلوبهم ، فرأس عندهم ، وشرف لديهم ، ووصلت تأليفانه صقلية وغيرها ، وانْثالت الصلات عليه .

وقال ابن بسام كان أبو إسحاق هذا صدر الندىّ ونكتة الخبر الجلىّ وديوان اللسان العربى ، راضَ صعابه ، وسلَكَ أوديته وشعابه ، وجمع أشتاته وأحيا مَواتَه حتى صار لأهله إماما وعلى جده وهزله زماماً .

وعن مكانته الشعرية يقول عنه ابن رشيق : وكان شاعراً نقاداً ، عالماً بتنزيل الكلام، وتفصيل النظام .. وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى جرى الماء ، ورقّ رقة الهواء .

ومن أشهر مؤلفاته : زهر الآداب ، ومختصره ، والمصون فى سر الهوى المكنون . فضلاً عن شعره الذى ضاع فى ثنايا التاريخ ، ولم يبق منه سوى أبيات هنا وهناك ترد فى ترجماته بكتب التراجم والتواريخ ، وفى بعض كتب الأدب والمختارات .

فصل فى ذكر الشيخ أبى اسحاق إبراهيم بن علي بن تميم المعروف بالحصرى (١)

واجتلاب جملة من كلامه

كان أبو إسحاق هذا صدرَ الندىَ ، ونكتةَ الخبر الجلّى ، وديوانَ اللسان العربى ، راضَ صعابَهُ ، وسلكَ أوديتَهُ وشعابَهُ ، وجمعَ أشتاتَه ، وأحيا مواتَهُ ، حتى صار لأهله إماما ، وعلى جدّه وهزله زماما ، وطنت به الأقطار وَشُدّتْ إليه الأقتابُ والأكوار ، وأُنفقت فيما لديه الأموال والأعمار ، وهو يقذف البلاد بدرر صدفها الأفكار . وسلوكِ ناظمها الليلُ والنهار ، عارضَ أبا بحرٍ الجاحظ بكتابه الذى وسمه بـ « زهر الآداب ، وثمر الألباب » ، فلعمرى ما قَصُرَ مداه ، ولا قَصَّرَتْ خطاه ، ولولا أنه شغَلَ أكثر أجزائه وأنحائه ، ومرج يحبو حَمِى أرضه وسمائه ، بكلام أهلِ العصرِ دونَ كلام العرب ، لكان كتاب الأدب ، لا ينازعه ذلك إلا من ضاق عنه الأمد ، وأعمى بصيرته الحسد . ثم أخذ (٢) بعد ذلك فى إنشاء التواليف الرائقة ، والتصانيف الفائقة ككتاب « النور والنور » (٣) وكتاب « المصون من الدواوين » (٤) ، إلى عدّة رسائل وأشعار ، أندى من نسيم الأسحار ، وأذكى من شميم الأزهار ؛ وقد أخرجتُ من كلامه ما لا ينكر فضله ولا يُنشى مثلَه إلا مِثلُه ، كانت وفاته – فيما بلغنى – سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة .

---

(١) ترجمة الحصرى أبى إسحاق فى معجم الأدباء ٢ : ٩٤ – ٩٧ وابن خلكان ١ : ٥٤ والوافى للصفدى ٦ : ٦١ ومسالك الأبصار ١١ : ٣٠٩ وعنوان الأريب ١ : ٤٣ ، وقد اختلف فى وفاته فقال ابن رشيق كما نقل عنه ياقوت توفى سنة ٤١٣ وقال ابن بسام سنة ٤٥٣ ورجح ابن خلكان القول الأول دون أن يذكر سبباً لذلك ، ولعله اعتمد على أن ابن رشيق أدرى بذلك من غيره ؛ ونقل الصفدى عن كتاب الجنان لابن الزبير أن الحصرى ألف زهرالآداب سنة ٤٥٠ .

(٢) فى المسالك : ثم غبر ؛ ص : ثم أجد .

(٣) يسميه الصفدى : نور الظرف ونور الطرف ، ويقول إنه اختصر فيه كتابه زهر الآداب . وينقل التجانى فى تحفة العروس : ١١٥ عما يسميه كتاب النورين للحصرى وكذلك يسميه ياقوت ، ومرة أخرى ينقل التجانى عن نور الطرف : ١٣٨ ؛ وانظر عيون التواريخ (الفاتح رقم ٤٤٤١) ٧ : ٥٧ .

(٤) يسميه الصفدى : المصون فى سر الهوى المكنون ، وعند ياقوت ، المصون والدرّ المكنون ؛ ومن هذا الكتاب نسخة بخزانة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة ، ذكرها الدكتور محمد بن سعد الرويشد فى مقارنة أجراها بين طوق الحمامة والمصون (مجلة الفيصل ، السنة الأولى ، عدد ١٠ ص ١٦ – ٢١) وانظر بروكلمان ١ : ٢٦٧ .

فصول من كلامه اندرجت فى تواليفه ، من نثره ونظمه

فصل [(١)] :

ولبنى علىّ أهلِ البيت كلامٌ يعرضُ فى حلى البيان وَيُنْقَشُ فى فصِّ الزمان، وَيُحْفَظُ على وجه الدهر ، ويفضحُ عقائلَ الدرِّ ، ويكتحلُ بنور الشمس . ولم لا يطؤون ذيولَ البلاغة ، ويجرّون فضولَ البراعة ، وأبوهم الرسول ، وأُمُّهم البتول ، وكلهم / [١٦٨] قد غُذِىَ بدَرِّ الحلم ، وربى فى حِجْرِ العلم .

ما منهمُ إلا مُردّىً بالحجى أو مُبْشَّرٌ بالأحوذيّةِ مؤدَمُ

وفى فصل [(٢)] :

البديع : اسمٌ وافق مسمّاه ، ولفظ طابقَ معناه ، وكلامُهُ غضُّ المكاسر ، أنيق الجواهر ، يكادُ الهواءُ يسرقُهُ لطفاً ، والهوى يعشقه ظرفاً . ولما رأى ابن دريد قد أغربَ بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره . وانتخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر وأهداها للأفكار والضمائر ، فى معارضَ حوشيّةٍ ، وألفاظٍ عنجهية ، فجاء أكثر ما أظهرَ تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترتفع له حجبُ الأسماع ، وتوسّع فيها ، إذ صرّف ألفاظها ومعانيها ، فى وجوهٍ مختلفة ، وضروبٍ متصرّفة ، عارضه بأربعمائة مقامةٍ فى الكدية تذوب ظرفاً وتقطر حسناً ، لا مناسبة بين واحدةٍ منها لفظاً ولا معنى ، عطف مساجلتها ، ووصفَ مناقلتها ، بين رجلين يسمّى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبو الفتح الاسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدرّ . ويتنافثانِ السحر، فى معانٍ تُضْحِكُ الحزين ، وتحرك الرصين يطالَعُ منها كل طريفة ، ويوقَفُ منها على كل لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخصَّ بعضَهما بالرواية .

---

(١) زهر الآداب : ٥٦ والمسالك : ١٣٠

(٢) زهر الآداب : ٢٦١ .

وفي فصل [١] :

هذا كتابٌ اخترتُ [فيه] قطعةً كافيةً من البلاغة في الشعر والخبر ، والفصول [والفقر] مما حسن لفظه ومعناه ، واستُدِلَّ بفحواه على مغزاه ، ولم يكن شارداً حوشياً ، ولا ساقطاً سوقياً ، بل كان جميعُ ما فيه من ألفاظه ومعانيه :

في نظامٍ من البلاغة ما شكَّ امرؤ أنه نظامُ فريد[٢]
حُزْنَ مستعملَ الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبنَ اللفظ القريبَ فأدركن به غايةَ المراد البعيد

كتابٌ يتصرَّفُ فيه الناظرُ من نثره إلى شعره ، ومطبوعه إلى مصنوعه ، ومحاورته إلى مفاخرته ، ومناقلته إلى مساجلته ، وخطابه المبهت ، إلى جوابه المسكت ، وتشبيهاته المصيبة ، إلى اختراعاته الغريبة ، وأوصافه الباهرة ، إلى أمثاله السائرة ، وجدِّه المعجب ، إلى هزله المطرب ، وجزله الرائع ، إلى رقيقه البارع . وقد نزعتُ فيما جمعتُ عن ترتيب التبويب ، وعن إبعاد الشكلِ عن شكله ، وإفراد الشئ من مثله ، فجعلتُ بعضه مسلسلاً ، وتركتُ بعضه مرسلاً ، ليحصلَ محرَّرَ النقد ، مقدَّرَ السَّرْد ، قد أخذ بطرفي التأليف ، واشتمل على حاشيتي التصنيف . [وقد يعزُّ] المعنى فألحقُ الشكلَ بناظره ، وأُعْلِقُ الأولَ بآخره ، وتبقى منه بقيةٌ أفرقها في سائره ، ليسلمَ من التطويل المملِّ ، والتقصير المخلِّ ، وتظهرَ في الجميع فائدةُ الاجتماع ، وفي التفريق لذاذةُ الإمتاع ، فيكملُ منه ما يونقُ القلوبَ والأسماع ، إذ كان الخروج من جِدٍّ إلى هزل . ومن حَزْنٍ إلى سَهْل ، أنفى للكلل ، وأبعدَ من الملل ؛ وقد قال أبو العتاهيه[٣] :

لايصلحُ النفسَ إذ كانت مصرَّفةً إلا التنقلُ من حالٍ إلى حالِ

---

(١) زهر الآداب : أو المسلك ١٣٠ .
(٢) الأبيات للبحترى في ديوانه ٦٣٦ – ٦٣٧ .
(٣) ديوان أبى العتاهية : ٣٢١

وفى فصل [١] :

ومعلومٌ أنه ما انجذبت نفسٌ ، ولا اجتمع حِسٌّ ، ولا مال سِرٌّ ، ولا جال فكر ، فى أفضل من معنًى لطيف ، ظهر فى لفظٍ شريف ، فكساهُ من حُسْنِ الموقع قبولاً لا يُدْفَع ، وأبرزه يختالُ من صفاء السبكِ ونقاءِ السلكِ وصحةِ الديباجة وكثرة المائية فى أجمل حُلّة . وأجلِّ حلية .

والمعنى إذا استدعى القلوبَ إلى حفظه ، بما ظهر فى مستحسنِ لفظه ، من بارع عبارة ، وناصع استعارة ، وعذوبةِ مَوْرِد ، وسهولة مَقْصِد ، وحسن تفصيل ، وإصابةِ تمثيل ، وتطابُقِ أنحاء وتجانسِ أجزاء ، وتمكُّن ترتيب ، ولطافة تهذيب ، مع صحّةِ طبع وجودة إيضاح ، يثقّفه تثقيف القداح ، ويصوّره أفضلَ تصوير ، ويقدّره أكمل تقدير ، [فهو مشرق فى جوانب السمع] .

وإن كنت [٢] قد استدركتُ على كثير ممن سبقنى إلى مثلِ ما أجريتُ إليه، واقتصرتُ فى هذا الكتاب عليه ، لمح أوردتها كنوافثِ السحر ، وفِقَرٍ نظمتها كالغنى بعد الفقر ، من ألفاظِ أهلِ العصر ، فى محلول النثر، ومعقودِ الشعر ؛ ولهم من لطائف الابتداع، وتوليداتِ الاختراع ، أبكارٌ لم تفترعها الأسماع ، يصبو إليها القلبُ والطرف ، ويقطرُ منها ماء الملاحة والظرف ، وتمتزج بأجزاء النفس ، وتسترجعُ نافرَ الأُنسِ ، تخللت تضاعيفَه ، ووشحت تآليفه ، وطرّزَتْ ديباجَه [٣] ، ورصعت تاجه ، ونظمت عقوده ، ورقمتْ بروده ، فَنَوْرُها يَرِفُّ ، ونُورها يَشِفّ ، فى روضٍ من الكلم مونق ، ورونق من الحكم مشرق .

---

(١) زهر الآداب : ٣٠ .

(٢) زهر الآداب : ٤ .

(٣) فى الأصل : ديباجاته .

وفى فصل (١) :

إلى هذا المكان أمسكتُ العنانَ . والإطنابُ فى هذا الكتاب يعظمُ ويتسعُ ، بل يتّصلُ ولا ينقطع ، إذ كان غرضى فيه ، أن أُلمِعَ من معانيه ، ثم أنجرُّ معه حيث انجرَّ ، وأمرُّ فيه كيف / [١٦٩] مرَّ ، وآخذ فى معنى آخر غير موصول بشكله ، ولا مقرونٍ بمثله ، وقد أحلُّ نظاماً وأفردُ تؤاماً ، نشراً لبساط الانبساط ، ورغبةً فى استدعاء النشاط .

وهذا التصنيفُ لا تُدْرَكُ غايتُهُ ، ولا تُبْلَغَ نهايته ، إذ المعانى غير محصورةٍ بعدد ، ولا مقصورةٍ إلى أَمَدَ ، وقد أبرزتُ فى الصدر ، صحيفةَ العذر ، يحولُ فرندها ، ويثقب زَنْدُهَا ، ومن ركبَ مطيّةَ الاعتذار ، واجتنبَ خطيّةَ الإصرار ، فقد خرجَ من تبعة الاعترافُ بفضلِ الانصاف، فليعلمْ من ينصفُ أن الاختبارَ ليس يُعْلَمُ ضرورةً ، ولا يوقَفُ له على صورة ، فليكثرِ الإغماض ، وليقلَّ الاعتراض ، ولو وقع الإجماعُ على ما يرضى ويسخط ، ويثبتُ ويسقط ، لارتفع حجاجُ المختلفين فى أمر الدنيا والدين .

وفى فصل :

هو كليلُ الخاطر ، سقيمُ النفسِ ، صدىء القريحة ، عديمُ الحسِّ ، ذو طبعٍ جاسٍ ، وفهم قاسٍ ، ولله درّ ابن الرومى فى قوله (٢) :

خفافيشُ أعشاها نهارٌ بضَوئِهِ ... ولاءَمَها قِطْعٌ من الليل غيهبُ

بهائم لا تصغى إلى شدوِ معبدِ ... فأمّا على جافى الحداءِ فتطرب

---

(١) زهر الآداب : ١٠٩١ .

(٢) ديوان ابن الرومى : ١٥٧

قد تعود ليَّ الألسنِ بالسِّباب ، وَغَمْزَ الأعينِ على الأصحاب ، واستعمل الملقَ والكِذابَ ، فهو بين جاهلٍ متغافل ، قد حُشِيَ قلبُه ريْناً . وملئَ لسانُه مَيْناً . وبين مَنْ سمائمُ نمائمِه تلذع ، وعقاربُ مكايدِه تلسعُ ، وبين مُعْجَبٍ متصلِّف . باردٍ متكلِّف ، لا يرى سيبويه كان على شئ ، كما لا يرى الكسائيَّ قبله :

وإذا ما تـــذاكَــر النـــاسُ معنىً ... من شــهـيــر الأشــعـــار والمجــهــول
قـــال هـــذا لنـــا ونحـــنُ كَشَفْنَا ... عنــــهُ للمســـتـدلّ والمسئــول(١)

فهو كما قال الخوارزميّ : قد أسكرتْه خمرةُ الكبر ، واستهوتْه غِرَّة التيه ، فخيِّل اليه أن كسرى حاملُ غاشيته ، وقارون وكِيلُ نفقتِه ، وبلقيسَ إحدى داياتِه ، وأن الشمسَ تطلعُ من جبينه ، والغمامَ يتدى من عينه ، فهو يرى ببصرِ جهله لا ببصيرةِ عقله ، وأن امرأ القيس ما بكى بالديار وعرصاتها ، ولا اغتدى والطيرُ فى وكناتها ، ولا أحسنَ تقصيدَ القصائد ، وتقييدَ الأوابد ، وأنّ زياداً (٢) لم تُوقَدْ باليفاع نارُه ، ولا أُعتبَ النعمانَ اعتذاره ، وأن شعره لم يرقّ حتى يقال : الماءُ أو أَسْلسُ ، ويجزل حتى يقال : الصخرُ أو أملس ، وأنْ زهيراً كان متعاظلَ الكلام ، متداخلَ الأقْسام ، غيرَ مطبِّقٍ للمفاصل ، ولا مُصيبٍ للشواكل ، وأمّا طبقاتُ المخضرمين من الإسلاميين فلا يضربون إليه بِقِدْح ، ولا يفوزون عنده بنُجْحٍ .

فــلــو أتينـــاهُ بمســـــــتطرفٍ ... من مُـبْـــدَعـــاتِ الهــزلِ والجــدِ
أرقُّ من دمـــعـــةِ مــهــجــورةٍ ... مــرهاءَ تمريهـــا يدُ البـــعـــدِ
لو قَـــرَعتْ ســـمع يزيدٍ ســـلا ... بحـــسن مـــا يســـمع عن هندِ

(١) ص : عيبه المسئول والمسئول .
(٢) يعنى النابغة الذبيانى .
(٣) ص : من ند .

أعـرضَ عنهـا ثانيـاً عِطْفَـهُ ولـم يـعـرهـا عـطـفـة الـود
هذا وقـد لاح بوجـه الحجى منهـا ضـيـاء القـمـر الفـرد
وأقـبـلتْ تخـتـال فى حُلّةٍ مـرت عليـهـا طرز الحـمـد
ومـا يضـرُّ الشـمسَ أنْ أصبحت تُعْـرِضُ عنهـا أعينُ الرمـد

***

ومن يك ذا فمٍ مـرٍّ مـريضٍ يجـدْ مُـرّاً بـه المـاء الـزلالا

وفى فصل :

قد تقاربتِ الصفـاتُ ، وتوازنت الذواتُ ، وتكاشَفْنَا لما تعارفنا ، وَرَفعتِ الخلوةُ حجابَ الاحتجابِ ، وحطّتِ الخلطةُ لثامَ الاكتتام ، وكنّا معَ طولِ الامتحان والاختبار ، ومدةِ الالتباس والاحتيار ، نقنعُ من ارتفاع القناع بلمحة ، ومن اتقادِ الزناد بقَدْحَة ، ونُبْرِزُ العباراتِ ، من مَعارضِ الإشارات ، وغوامضِ الاستعارات ، فى طرازٍ من الأرماز يدقُّ عن مسرى السّحْرِ ، ويرقُّ عن مجرى الخمر :

فى تعـابيـرنا « اللطاف اللواتى هى أخْفَى من مستسر الهبـاء » (١)
« بل من السرّ فى ضمير محبٍّ أَذّبته عقوبةُ الإفشـاء »

ونختلسُ حركاتِ البيان ، فى سَكَنَاتِ الزمان ، كما اختلس اللفظَ المحبُّ الكتوم ، فهلمَّ الآن إلى التصريح دونَ التعريض ، والتصحيح دون التمريض ، وتعالَ نتلاطفْ ونتكاشفْ ، إذ قد لبسنا ثوبَ الأمانِ من الزمان .

(١) استعار البيتين من ابن الرومى . ديوانه : ٦٧ .

وفى فصل (١) :

إذا بدا القَلَمُ الأعلى براحتــــه مطرِّزا لرداء الفخــــر بالظُّلَم
رأيتَ مـا اسـوّد فى الأبصار أبيضَ فى بصائرٍ لحظُها للفـهم غيـرُ عم
كروضـةٍ خطرتْ فى وشى زهرتهـا وافـتـرَّ نوّارها عن ثغـرِ مبتسـم

وتبرَّجَتْ فى حُلَلها وحُلِيِّها ، وابتهجت بِوَسْميّها / [١٧٠] ووليّها ، وكاد الهواءُ يسرقُه لُطْفا ، والهوى يعتنقُه ظَرفا ، فاجتنيتُ ما اشتهيتُ من خُزاماها وعَرارها ، واجتليتُ ما رأيتُ من خيريِّها وبهارِها ، ولثمتُ خدودَ وردِها وسوسانها، ورشفتُ ثغورَ أقاحِها وحوذانها ، والتقطتُ ما لا تُخْلِقُ الأيام بهجتَهُ ، ولا تغير الأعوامُ جدَّته ، من نَوْرٍ يُقْطَفُ بالأسماع والأبصار ، وزهرٍ يُتَناوَلُ بالخواطرِ والأفكار ، وسرَّحْتُ الطرفَ فى ما يفوتُ الوصفَ ، من غرائب إبداع ، وعجائب اختراع ، لم تفترعها الأسماع .

وفى فصل (٢) :

أسهمنى من واضح الفجر غُرَّةَ الصباح ، وقسم لى من طائرِ الذِكر قادمةَ الجناح ، وألبسنى من التنويه ، ما لا يُعْزَى إلى تمويه ، فأصبحتُ أُجيلُ الجوزاءَ على يدِ قُصُور ، والثناءَ على لسان قصير ، ولئن كَبَتْ جيادى ، عن مضمار مُرادى ، وعجزَ لسانى ، عما حواهُ جنانى ، فتمثلت بقول الزعفرانى (٣) :

لى لســانٌ كــأنّه لى مـعــادى ليس يُنْبى عن كُنْه مـا فى فـؤادى
حكم اللهُ لى عليــه فلو أنـــ ـــصفَ قلبى عـرفتُ قـدرَ ودادى

وقد علمتُ أنَّ شمس الخواطر ، إذا جَرَتْ فى فلك الضمائر ، اتصل النورُ المبين ، وانفصل الشكُّ من اليقين .

(١) الأبيات فى الشريشى ٥ :٢٢٧ .
(٢) ورد بعضها فى المسالك : ٣١٠ .
(٣) هو أبو القاسم الزعفرانى . وبيتاه فى زهر الآداب : ٣٢٤ والأول فى المسالك : ٣١٠ .

وفى فصل :

فتقنا نوافَج الآرابِ ، عن مسكِ الآدابِ ، ونشرنا طرائفَ المطارف ، عن لطائفِ الزخارف ، وتسالينا من أثواب المذاكرة ، وتجاذبنا أهدابَ المحاضرة ، من سانح فِكَر ، وغرائب فِقَر ، ألذّ من سَمَرٍ بلا سهر ، إلى أنْ أفضينا إلى ذكر البيت المظلومِ واجبُ حقوقِهِ ، المسلوكِ به غيرَ طريقه ، على أنه وردَ من صفاءِ السلكِ ، وصحةِ الديباجة وكثرةِ المائية فى أجمل حُلَة ، وأجلّ حِلْية ، فكان كما قلت[1] :

وَمُــــذْهَب الوشى على وجــــهـــــه ديبـــاجـــةٌ ليـــست على الشّـــعـــرِ
كـــــزهرة الدنيــــا وقـــد أقْـــبلتْ تـرودُ فى رونقــــهـــــا النّضــــر
أو كــــالنســـيم الغضّ غبَّ الحـــيـــا يخـــتـــــالُ فى أرديةِ الفـــجـــر

هذا وهو بمحاورةِ الطبع للسمع ، ومباراةِ الخاطر للناظر ، من غيرِ إعمالِ الفكرِ ولا تدقيق النظر ، لكنّ بديهتَكَ إذا أهداها قلبُكَ إلى قلمك ، وأدّاها لسانُكَ عن فهمك ، وأبديتَ بـادرةَ ما أهديتَ إلى مَنْ عَهْدُكَ به وهو محرّر للنقد ، مقدّرٌ على السرد ، أَعْرضَ عنه صفحا ، وطوى دونه كشحا ، حتى طال بلا طائلٍ لديه ، ولا طلاوةٍ عليه :

فــقلتُ والقلبُ مــوقــوفٌ على حُــرَقٍ يبــعـــثن أنفـــاسَ صــدرٍ كـــاظمٍ وحمِ
أىُّ القـــرائح يعـــفـــو لمعُ بارقـــهـــا فى عـــارضٍ من ظلام الليل مـــرتكم
بحـــيث لا نحن من إقـــبـــال ذى أدبٍ نحظى بنجح ولا إفـــضـــال ذى كـــرم

إذا كان من إليه تتحاكمُ الخصومُ فى كلّ العلوم ، فتقفُ منه الألبابُ على فصل الخطاب وفصّ الصواب ، ووجه الجواب ، يلحظُ ما يجرى لأبناء عصره، وأنشاء دهره ، من سرّ البديع ، الزاهى على زهر الربيع ، والزارى بالوشى الصنيع ، بطرفِ أسقمَ من أجفان الغضبان ، ويعيره وجهاً هو لفرطِ التقطيب ، كوامقٍ فاجأه شخصُ الرقيب ، أو غزِلٍ طالعهُ وفدُ المشيب ، فأىُّ لبٌ يصفو مزاجهُ ، وأىّ قلبٍ يضئ سراجهُ !

(١) البيت الأول والثالث فى المسالك : ٣١٠ .

وهذه أيضاً جملة من شعره

حكى أبو على بن رشيق فى كتابه المترجم بـ « الأُنْموذج » قال : كان أبو إسحاق الحُصْرىّ قد نشأ على الوراقةِ والنسخ لجودةِ خطّه ، وكان منزله لزيقَ جامع مدينة القيروان ، فكان الجامعُ بيتَهُ وخزانتَهُ ، وفيه اجتماع الناس إليه ومعه ؛ ونظر فى النحوِ والعروضِ ، ولزمه شُبّانُ القيروان ، وأخذ فى تأليف الأخبار ، وصنعة الأشعار ، مما يَقْرُبُ فى قلوبهم ، فرأسَ عندهم ، وشُرفَ لديهم ، ووصلتْ تأليفاته صقليّةَ وغيرها . وانثالت الصلاتُ عليه ، وله شعر كثير . ومن شعره مما أنشده ابن رشيق (١) :

إنى أحبّك حبّاً ليس يبلغُهُ ... فهمى ولا ينتهى وصفى إلى صِفَتِهْ
أقصى نهايةِ علمى فيه معرفتى ... بالعجزِ منّىَ عن إدراكِ معرفته

وأنشد له :

ولقد تنسمتُ الرياحَ لعلّنى ... أرتاحُ أن يبعثنَ منك نسيما
فأثرنَ من حُرَقِ الصبابة كامناً ... وأَذَعْنَ من سرِّ الهوى مكتوما
وكذا الرياحُ إذا مررنَ على لظى ... نارٍ خَبَتْ ضرّمنها تضريما

وله (٢) :

عليلُ طرفٍ سُقيتُ خمرا ... من مقلتيه فمتُّ سكرا
ترقرقتْ وجنتاهُ ماءً ... مازجَ فيه العقيقُ درّا / [١٧١]
يحرّك الدلُّ منه غصناً ... ويطلع الحسن فيه بدرا
[قد خط مسك بعارضيه ... خُلقْتُ للعاشقين عذرا]

(١) البيتان في ياقوت ٢ : ٩٦ وابن خلكان ١ : ٥٤ - ٥٥ والوافى ٦ : ٦١ .
(٢) البيت الأول فى المسالك : ٣١١ وما بين معقفين زيادة عنه أيضاً ؛ والأبيات جميعاً فى الشريشى ٥ : ٢٢ .

وقال ، مما لم ينشده ابن رشيق(١) :

تلاحظني صروفُ الدهرِ شزرا
كأن عليَّ للأيامِ وترا

وفي عيني دموعٌ ليس ترقا
وفي قلبي صدوع ليس تبرا

أقلِّبُ في الدجى طرفاً كليلاً
إذا جَيْبُ الظلام علَيَّ زُرَّا

ولو نُشِرِ الذى أُطْوَى عليه
على من تحتويه الأرضُ طرّا

أصمَّ مسامعَ الدنيا عويلاً
وهزَّ جوانحَ الأيام ذعرا

فيا مَنْ غاب عن عيْنَي مَشُوقٍ
يرى لنواهُ طعمَ العشق(٢) مرًّا

قرأتُ كتابكَ الأعلى محلاًّ
لدى وموقعاً ويداً(٣) وقدرا

فأحياني وقد غودرتُ ميتاً
وأنشرَني وقد ضُمِّنْتُ قبرا

نقشتَ بحالك(٤) الأنقاسِ نوراً
[جلا] لعيوننا نوراً وزهراً

فدبَّجَ من بسيط الفكر روضاً
أنيقاً مشرقَ الجنبات نضرا

لو استسقى الغليلُ به لروِّى
أو استشفى العليلُ به لأبرا

هفا عطرُ الجنوبِ له نسيمٌ
أقولُ إذا أناسمُ منه نشرا

نشرتَ لنا على الكافورِ مسكاً
ولم تنشرْ على القرطاس حبرا

فيا مَنْ تمسكُ الأوصافُ عنه
أعنَّةَ وَصْفِنا نظماً ونثرا

ومن يدعو القلوبَ إلى مناها
بعينيه فلا تأتيه قسرا

ومن يجري اللآلئَ في أقاحٍ
يمازجُ ظَلْمُهُ بَرَداً وخمرا

ويغرسُ في رياضِ الدلِّ غصناً
ويُطْلعُ في سماء الحسن بدرا

كأنَّ بخدِّه ذهباً صقيلاً
أذابَ عليه ياقوتاً ودرّا

أُفرِّط فيك إن أفرطتُ وصفاً
وأعجزُ عنك إنْ أعجزت شعرا

(١) منها أبيات في الشريشي ٥ : ٢٣٨ .
(٢) كذا في ص ولعل الصواب « العيش » .
(٣) الشريشي : شرفاً .
(٤) ص : بنورك .

ولي قلبٌ عليك لما يلاقي يكافحُ من سعير الوجد(١) جمرا
ولولا ما يؤمل من لقاءٍ(٢) تقطَّع حسرةً وأُذيبَ قهرا
سأسحبُ فيك أذيالَ الأماني وألبس تحت ثوب السقم صبرا
لعلَّ الدهر يُمْتِعُ منكَ طرفي ويُعْقِبُ بعد عُسْرِ الحالِ يسرا

وقال :

إلفانِ ضمهما الهوى في خَلْوَةٍ من بعد طولِ تغضّبٍ وتعتُّبِ
فإذا الرقيبُ مُطالعٌ عن غفلة ومكدِّرٌ للمشرب المستعذب
فتفرَّقا عن ساكبٍ متحدِّرٍ بعثته حُرْقَةُ جاحمٍ متلهب
وكأنما الوقتُ الذى سعدا به حُلُمُ سرى أو قطْعُ برقٍ خُلَّب
ليتَ الذى خلقَ الرقيبَ أصابه بعمىً يسدُّ عليه نهج المذهب

قوله في ما تقدم : « وكذا الرياح إذا مررنَ على لظى » .. البيت ، كقول ابن الرومي :

لا تغرينَّ جوًى بلومٍ إنه كالريح تغرى النارَ بالإحراقِ

وقال يحيى بن هذيل القرطبي (٣) :

روَّحني عاذلي فقلت له مَهْ . لا تَزِدْني على الذى أجدُ
أما ترى النارَ وهي خامدةٌ عند هبوبِ الرياحِ تَتَّقِدُ

وحكى أبو صفوان العتكي بصقلية قال (٤) : كان أبو إسحاق الحصري يختلف إلى بعض مشيخة القيروان ، وكان ذلك الشيخ كلِفا بالمعذّرين [من] الغلمان ، وهو القائل فيهم :

---

(١) ص : اليك . ولعلها « البين » .
(٢) ص : بقاء .
(٣) وردا في القسم الأول من الذخيرة : ٦٢١ منسوبين لابن اللياني .
(٤) وردت القصة والأبيات في الشريشي ٣ : ١١٧ وابن خلكان ١ : ٣٩٤ (نقلاً عن الذخيرة) .

ومعذَّرينَ كأنَّ نبتَ خدودهم أقلامُ مسكٍ تستمدُّ خَلُوقا
قَرنُوا البنفسجَ بالشقيقِ ونظَّموا تحت الزبرجد لؤلؤاً وعقيقا
فهمُ الذينَ إذا الخليُّ رآهمُ وجد الهوى بهمُ إليه طريقا

وكان يختلفُ إليه غلامٌ من أعيانِ أشرافِ القيروان ، وكان به كلفاً ، فبينا هو يوماً والحصرى قد أخذ في الحديث إذ أقبل الغلام :

في صورةٍ كَمُلَتْ فخلتُ بأنهَا بدرُ السماءِ لستةٍ وثمانِ
يُغْشى العيونَ ضياؤها فكأنها شمسُ الضحى تَغْشَى بها العينان

فقال له الشيخ : يا حصريّ ، ماذا تقول في من هام بهذا القدّ ، وصبا بهذا الخدّ ؟ قالَ له الحصريّ : الهَيمانُ به والله غايةُ الظَّرْفِ ، والصبوةُ إليه من تمام اللطف ، لاسيما إذا شاب كافور (١) خدّه ذلك المسك الفتيت ، وهجم على صحبه ذلك الليلُ البهيم ، والله ما خلتُ سوادَهُ في بياضه إلا بياضَ الإيمانِ في سوادِ الكفر(٢) وغيهب الظلماءِ في منير الفجر . فقال : صِفْهُ يا حصرى ، قال : منْ مَلَكَ رِقَّ القولِ حتى انقادت له صعابُهُ ، وذُلِّلَ له جموحه حتى سَطَعَ له شهابُه . أقعدُ مني بذلك ، فقال : صفه ، فإني معمل (٣) فكرى في ذلك ، فأطرقا ساعة فقال الحصرى (٤) :

أورد قلبي الردى لامُ عذارٍ بدا
أسودُ كالكفر في أبيض مثل الهدى

فقال له الشيخ : أتراك / اطلعت على [ضميرى أو خضت بين جوانحي وزفيرى؟ قال : لاولمَ ذلك ؟] قال : لأني قلت :

(١) الشريشي : شام كافوره . ص : شيب .
(٢) ص : الكفران .
(٣) ص : فاني نعمل ؛ وهي بعامية الأندلس والمغرب .
(٤) ابن خلكان ١ : ٥٥ ، ٣٩٤ .

حـــــــــــرّك قـلـبـى فـطـارْ صـــــــــــولجُ لامِ العــــــــــذارْ
أســـــــــودُ كــــــــالـلـيـل فـى أبـيـضَ مــــــــثـلِ الـنـهـــــــار

فصل فى ذكر الأديب الكامل أبى على بن رشيق المسيلى[1]

وسياقة طرف من غرائب أشعاره ، وعجائب أخباره

بلغنى أنه ولد بالمسيلة وتأدّبَ بها قليلاً ثم ارتحل إلى القيروان سنة ست وأربعمائة . وكان أبو علىّ ربوة لا يبلغها الماء . وغاية لا ينالها الشدّ والارخاء[2] محله من العلم ، محلُّ الصوابِ من الحُكْم ، واقتدارُه على النثر والنظم ، اقتدارُ الوتر على السهم ، إن نظم طافَ الأدبَ واستلم ،أو نثرَ هلَّلَ العلم وكبر ، أو نقد سعى الطبعُ الصقيل وحَفَد ، أو كتب سجد القلم الضئيل واقترب . ولم يكن لأهل أفريقية قديماً فى الأدب نبعٌ ولا غَرَب ، ولا من لسانِ العرب وِردٌ ولا قَرَب ، يدلُّ على ذلك ما وصف به أبو علىّ البغدادىّ أهلَ القيروان . وقد أثبتّه فى موضعه من صدرِ هذا الديوان[3] . ورأيتُ ديواناً مجموعاً فى أشعارِ قدماءِ أهل أفريقية هو بالبكم أشبه ، وفى لسان العجم أنوهُ وأنبه ، هذا وأجنادها على قِدَمِ الدهرِ العربُ العاربة ، وقوّادها الأغالبةُ والمهالبة ، فلما زال ملكها عن أيدى العرب ، تدفّقَتْ بها بحورُ الأدب ، وطلعتْ منها نجومُ الكتب ، ورَمَتْ أقاصى البلاد ، بمثل ذُرَى الأطواد . وسمعنا بزهرِ الآداب ، وأنموذج الشعرِ اللباب ، وبفلان وفلان ، من كلِّ فارس ميدان ، وبحرِ المصون فى سر الهوى المكنون

(١) ترجمة ابن رشيق فى الجريدة ٢ : ٢٣٠ وإنباه الرواة ١ : ٢٩٨ ومعجم الأدباء ٨ : ١١٠ وابن خلكان ٢ :٨٥ (وفيه نقل عن الذخيرة) ومسالك الأبصار ١١ : ٢٢٧ وشذرات الذهب ٣ : ٢٩٧ وبغية الوعاة : ٢٢٠ وعنوان الأريب ١ : ٥٢ وللأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب كتاب بساط العقيق فى تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق . وللدكتور عبد الرحمن ياغى كتاب عنه ؛ وقد جمع شعره الميمني فى النتف ثم ياغى، ولا يزال كثير من شعره غير مضمن فى هذين المجموعين وخاصة جانب غير قليل مما أورده ابن بسام

(٢) المسالك : وغاية لاتنالها الوجناء .

(٣) راجع القسم الأول : ١٤ – ١٥ .

كَمَا نَثَرَ الْغَمَامُ جُمَانَ طَلٍّ عَلَى أَفْوَافِ مَوْشِيٍّ قَشِيبِ
فَأَبْدَتْهُ الرُّبَا خَضِلَ النَّوَاحِي وَأَهْدَتْهُ الصَّبَا عِطْرَ الْجُيُوبِ

وأقبلا يتنافثان فيه السِّحرَ ، وجعلا يتهاديان منه الدُّرَّ بألفاظٍ تُضحك الحزين ، وتُحرِّك الرصين : [المديد]

ومَعَانٍ رُصِّعَتْ بِبَدِيعٍ صِيغَ فِي جِيدِ الزَّمَانِ سَحَابَا
مُوهَتْ أَسْتَارُهَا بِنُضَارٍ جَالَ مَاءُ الْحُسْنِ فِيهِ فَذَابَا

فذكرتُ قولَ أبي الفتحِ محمود بن علي البستي (١) : [البسيط]

مَا إِنْ سَمِعْتُ بِنَوَّارٍ لَهُ ثَمَرٌ فِي الْوَقْتِ يُمْتِعُ سَمْعَ الْمَرْءِ وَالْبَصَرَا
حَتَّى أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ مُبْتَسِمٌ عَنْ كُلِّ لَفْظٍ وَمَعْنًى يُشْبِهُ الدُّرَرَا (٢)
فَكَانَ لَفْظُكَ فِي لأْلائِهِ زَهَرًا وَكَانَ مَعْنَاهُ فِي أَثْنَائِهِ ثَمَرًا (٣)
تَسَابَقَا فَأَصَابَا الْقَصْدَ فِي طَلَقٍ لِلَّهِ مِنْ ثَمَرٍ قَدْ سَابَقَ الزَّهَرَا

[وقوله] (٤) : [الوافر]

كِتَابٌ فِي سَرَائِرِهِ سُرُورٌ مُنَاجِيهِ مِنَ الأَحْزَانِ نَاجِي
فَكَمْ مَعْنًى لَطِيفٍ دُرْجَ لَفْظٍ مُوَشَّحُهُ ازْدِوَاجٌ فِي ازْدِوَاجِ (٥)
كَرَاحٍ فِي زُجَاجٍ أَوْ كَرُوحٍ سَرَتْ فِي جِسْمِ مُعْتَدِلِ الْمِزَاجِ (٦)

وقولَ الأمير أبي الفضل عُبيدِ الله بن أحمد الميكالي للأستاذ أبي منصور عبدِ الملك بن محمد ابن اسماعيل الثعالبي جوابا عن كتاب وردَ منه : (٧)

وصَلَ كتابُ مولاى وسيدى أبدع الكتب هواديَ وأعجازًا ، وأبرعها بلاغةً وإيجازا ، فحسبت ألفاظه درّ السحاب ، بل أصفى قطراً وديمة ، ومعانيه دُر البحار ، بل أوفي قدراً وقيمة ، وتأملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعرف ، مالكةً لزمام القلب

(١) ديوان أبي الفتح البستي ص ٢٥٩ (٢) في الديوان « ... مبتسما » و « ومعنى أشبه » .
(٣) في الديوان « في آلائه زهرا » و « وكان معناك » ، وفي الأصل « في أثبائه » والتصحيح من الديوان.
(٤) ما بين القوسين زيادة يقتضيها السياق ؛ للفصل بين النصين ، والأبيات في ديوان أبي الفتح البستي ص ٢٣٧ (٥) هذا البيت جاء في الديوان هكذا :

فكم معنى بديع تحت لفظ هناك تزاوجا أي ازدواج

(٦) في الديوان « بل كروح » .
(٧) انظر هذا القول في زهر الآداب ١٢٧/١ ، وهناك اختلاف في بعض الألفاظ .

والطـرف ، ولا غـرو أن يصـدر مثلها عن ذلك الخـاطـر [٤ - ظ] الذى هـو صـدفُ الدرر و الجواهر ، وهدفُ الفِقَر والنوادر ، والله تعالى يمتعه بما منحه من الغُرر والأوضاح ، كما أطلق فيه ألسنة الثناء والامتداح .

* - فقال أحدهما لصاحبه : مُنحتُ وُدَّكَ ، ومغمغت فقدك (١) ، وجُعلتُ فداك ، طيبةً نفسي بذاك :

وَلَيْسَ بِتَـزْوِيقِ اللِّسَـانِ وَصَـوْغِـهِ وَلَكنَّهُ قَـدْ خَـالَطَ اللَّحْمَ وَالدَّمَـا (٢)

وأنت على مـا أدَّعى أعـدلُ شـاهد ، وله أفـضلُ ناقـد ، وأنا أُفـضى إليك بمعظم سِرِّى ، وأفاوضك عن مهم أمرى ، وأقول متمثلا : [الطويل]

وأَنْبَأْتُ عَمْراً بَعْضَ مَا فِي جَوانحِي وَجَـرَّعْـتُـهُ من مُـرِّ مَـا أَتجَـرَّعُ

ولاَ بُدَّ مِنْ شَكْوَي إِلَي ذي حَفِيظَةٍ إِذَا جَـعَلَتْ أَسْـرَارُ نَفْسٍ تَقَطَّعُ

وأقول : [الطويل]

وَلاُبدَّ مِنْ شَكْوَى إلى ذى مُـرُوءَةٍ يُوَاسِـيْكَ أَوْ يُسْلِيْكَ أَوْ يَتَـوَجَّعُ

* - وقال أحمدُ بنُ إسماعيل الكاتب : مطارحةُ الشكوي على قدْرِ البلوي ، إلا أَنْ يكون بالشاكى انقباضٌ ، وبالمشكوِّ إليه إعراض .

* - وكتب أبو العباس عبدُ الله بن المعتز إلى بعض الرؤساء : لو كان فى الصمت موضعٌ يسعُ حالي لخفَّفْتُ [٥ - و] عن سَمْعِ سيدى ونَظَرِه ، ولم أشغل وجها من فكره ، ومازالت الشكوى تُعرب عن ضمير البلوى ، ومن اعتلَّت حالته كان فى الصمت هلكتُه ، وقد كان الصبُر ينصرنى على سَتْرِ أمرى ثم خذلنى .

* - وقال الطائى : (٣) [الطويل]

شَكَوْتُ وَمَا الشَّكْوَى لِمِثْلِيْ بِعَادَةٍ وَلَكِنْ تَفِيضُ الْعَيْنُ عِنْدَ امْتِلائِهَا (٤)

---

(١) كذا فى الأصل ، والمغمغة : الاختلاط ، وتمغمغ المال إذا جرى فيه السمن ، ومغمغ اللحم لم يحكم مضغه ومغمغ الكلام لم يبينه ، والمغمغة أيضا أن ترد الإبل الماء متي شاءت . انظر القاموس واللسان .

(٢) البيت جاء فى زهر الآداب ٧٢٢/٢ غير منسوب إلى أحد ، وفى مناسبة أخري غير ماهنا .

(٣) ديوان أبى تمام ٤٤٢/٤ (٤) فى الديوان « ... وما الشكوى لنفسى عادة .... تفيض النفس ... » .

* – وجملةُ ما أبوح به إليك ، وأُعوِّل فيه عليك ، أني ضاق ذراعى ، وقصر باعى من احتمال مايجيش بصدرى ، ويجول بفكرى (١) ، مما عَدِمتُ لقبوله مسعداً يفهمه عنى ، ومسعفاً يقبله منى ، إلى أن قابلنى من عقلك وواجهنى من فضلك ما أشرق سرورُه لدىَّ ، وسعى نورُه بى يدىَّ ، ففكرتُ فى قول الأوَّل : العقلُ مرآةُ النفس ، فإذا صفا من الأغراض . جَرَتْ أفعالُه مستقيمةً ، وأنشدتُ مايُروى للخليلِ بنِ أحمد : [مجزوء الرمل]

عَقْلُ هَذَا الْمَرْءِ مِرْآ ... ةٌ يَرَى فِيْهَا فَعَالَهْ
فَإِذَا أَكْمَلَهَا اللّـ ... ـهُ صَفَاءً وَصَقَالَهْ
فَهْوَ يُعْطِى كُلَّ حَىٍّ ... نَاظِرٍ فِيْهَا مِثَالَهْ

فاتخذْتُك شقيقَ مهجتى ، ورفيقَ همَّتى ، ونور بصرى ، وجلاءَ بصيرتى ، فرفعت مودتى لكفءٍ (٢) كريم ، ووقفتُ محبتى على خط جسيم ، حتى وصلتُ – اعلم أعلمك الله ما يرضاه – أنى جُلْتُ فى مغارب القُطْر ومشارقها ، حتى وصلتُ إلى علم حقائقها فوجدتُ الإنسان إنما فُضِّل على الحيوان بالنطق المعبِّر عما يخطر فى النفس ، المخبِرِ بما يهجس فى الحس ، ورأيتُ اللسان خادمَ الجِنان ، بتصريفه يتصرف ، ومع توقيفه يتوقف ، وأصبتُ العقل إمامَ الخواطر ، وزمامَ النواظر ، وجلاءَ البصائر ، ومالكَ الأفهام ، وسلطانَ الأوهام ، ونورَ الأنوار ، وشمسَ الأفكار ، والمصيبَ فلا يخطئ ، والمسرعَ فلا يبطئ ، الذى لو أطلْتُ عنان الإسهام ، ومددتُ أطناب الإطناب ، لما بلغتْ مداه أشواطى ، ولا تلافى التفريطَ فيه إفراطى .

(١) في هامش الأصل كتب أمام « بفكري» ما يفيد أنه فى نسخة أخري « في فكري » .
(٢) فى الأصل « لكفوء » .

وشهدتُ أن الهوى يخدع (١) العقلَ ويسحره ، ويملك اللُّب ويقهره ، ويغلب القلب ويبهره ، حتى يرتبط بملكه ، وينخرط فى سلكه ، وعهدته لا يَعْلَقُ إلا بذوى الأفهام اللطيفة ، والأوهام الشريفة ، ممن اتسعت فى الأَرَب رباعُه ، وامتد فى الآداب باعُه ، وطال فى الفضل ذرعُه ، وزكا أصلُه وفرعُه ، وكرم ذهنُه وطبعُهُ ، وشق بصرُه وسمعُه ، وأَلِفَ من الحلاوة بحرا عذبا ، وصادف من الطُّلاوة براًّ تربا ، وشرب من اللطافة ماء روياًّ وأدرك من الظرافة مهادا وطيًا ونال من الترافة شرفا علياًّ فأصبح متفيئًا فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وهواء بليل ، فى روض جادته سحائب الفضل والكرم ، وافتر عنه بوارق المجد والهمم .

* – ولذلك قال علىُّ بنُ عبيدة الزنجانى : لا يخلو أحدٌ من صَبْوَةٍ ، إلا أن يكون كاسى الخلقة ، أو منقوص البنية ، أو على خلاف تركيبِ الاعتدال .

* – وقال إبراهيمُ بنُ الصبح : سألتُ أبا نوفل المدنى : هل يَسْلم أحدٌ من الهوى ؟ قال : نعم ، الجافى الطبع الجلفُ ، الذى ليس فيه فَضَلٌ ، ولا عنده فَهْمٌ ، وأما من فى طَبْعه أدنى ظَرف ، أو أقل لُطف ، أو معه دماثةُ أهل الحجاز وحلاوتُهم ، ورِقَّةُ أهل مصر والعراق وأدبهم ، فهيهات ، ما رأيت فاضلاً يَسلم من أَلَمِ الحب ، ولكن فى الناس من يملك نَفْسه ، ويغلب هواه، ولا يظهر ما [٦–ظ] كَمَنَ فى قلبه ، كما قال العتابى ، واسمه كلثوم بن عمرو :

[الطويل]

وَمِنْ فَوْقِ أَكْوَارِ الْمَهَارِى لُبَانَةٌ   أُحِلَّ لَهَا أَكْلُ الذُّرَى وَالْغَوَارِبِ

وَكُلُّ فَتًى عَادَاتُهُ قَصْرُ شَوْقِهِ   وَطَىُّ الْهَوَى بَيْنَ الْحَشَا وَالتَّرَائِبِ

وَيُسْرُ الْهَوَى لَم يبْدِه نَعْتُ فُرْقَةٍ   صُدَاعًا وَلَمْ تَسْمَعْ بِهِ أُذْنُ صَاحِبِ

* – وقال بعضُ الحكماء : الحبُّ قسطاسُ العقول ، وجلاءُ الأذهان ، ينفى عنها الأذى والقذى ، كما ينفى الكير خَبَثَ الحديد .

(١) فى الأصل « يجذع » وهو تصحيف .

* – وقال بعضُ التراجمة : العشقُ ارتياحٌ يجول فى الأرواح ، وجوهرٌ فلكى تنتجه النجومُ بقدْرِ مطارح شعاعها ، وتولده النفوسُ بوصلة أشكالها ، وتقبله الأوهامُ بلطف جواهرها ، وهو بَعْدُ جلاءٌ للعقول ما لم يفرط ، فإذا أفرط عاد سُمًّا (١) قاتلاً ، ومرضًا مستبهماً ، لا تنجح فيه العقولُ ، ولا ينفع فيه الدواءُ ، والعلاج منه زيادةٌ فيه .

وهذا كقول أبى بكر بن داود : من تداوي بدائه لم يصل إلي شفائه .

* – وقال إسحاقُ بنُ إبراهيم الموصلى : أرواحُ العشاقِ عَطِرةٌ لطيفةٌ ، وأبدانُهم رقيقةٌ خفيفةٌ وزهرتُهم التمسك [٧–و] بالألفة ، وبُرهتهم المؤانسة ، وكلامُهم يُحيى موات النفوس ، ويردُّ شواردَ العقول ، ولولا العشقُ والهوى لم توجدْ لذةُ الصِّبا ، ولم يكنِ الطربُ والغناءُ ، ولَنَقَص نعيمُ أهل الدنيا .

* – وقال الأحوصُ بنُ محمد (٢) : [الطويل]

أَلا لا تَلُمْــــهُ الْيَــــوْمَ أَنْ يَتَــبَلَّدَا فَــقَــدْ غُلِبَ الْمَــحْــزُون أَنْ يَتَــجَلَّدَا
إِذَا كُنْتَ عِـزْهَاةً عَنِ اللَّهْـوِ وَالصِّبَـا فَكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا (٣)
وَمَــا الْعَــيْشُ إِلاَّ مَــا تَلَذُّ وَتَشْــتَــهِى وَإِن لاَمَ ذُو الشَّنآن فِـــيْـــهِ وَفَنَّدَا (٤)

(١) فى الأصل « سقما » ، ثم كتب تحتها « سما » .

(٢) ديوان الأحوص ٩٨ .

(٣) فى الديوان جاء الشطر الأول هكذا : « إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى » .

(٤) فى الديوان « فما العيش إلا ما تلذ » « إن لام فيه ذو الشنآن » .

ابن شهيد
(٣١٢ - ٤٢٦ هـ)

هو أحمد بن عبد الملك ، أديب أندلسي ، من أسرة عالية المنزلة . نشأ في نعيم ثم حلت به المحن . عرف منذ شبابه المبكر بموهبته الشعرية وبمنزلته في الكتابة النثرية . أشهر آثاره رسالة التوابع والزوابع التي عرفت بشجرة الفكاهة . التابع في هذه الرسالة جنّي والزوبعة الشيطان . وفي الرسالة نجد حوارا يجرى مع عدد من شعراء العربية ، منهم : امرؤ القيس ، وأبو نواس ، والمتنبي ، كما نجد - أيضا - عددا من الكتاب منهم : عبد الحميد الكاتب والجاحظ . هذه الرسالة تستدعي أعلام الأدب وتدور في أندية أهل الأدب . هي رحلة أدبية وراء الواقع ، وهي نمط نثري طريف في الأدب العربي . وكان لابن شهيد كتب أخرى ، منها : حانوت عطار ، ويبدو أنه كان في الترجمة لأدباء الأندلس .

فصول من رسالة سماها بالتوابع والزّوابع ، وإن صدرت عنه مصدرَ هزل ، فتشتملُ على بدائعَ روائع

قال في صدرِها مخاطباً لأبي بكر بن حزم[1] : لله أبا بكر ظنّ رميته فأصميت ، وحَدْسٌ أملتَه فما أشْويْتَ ! أبديتَ بهما وجه الجليّة ، وكشفتَ عن غُرَّة الحقيقة ، حين لمحت صاحبك الذى تكسبته ، ورأيته قد أخذ بأطراف السماء ، فألّف بين قَمَريها ، ونظمَ فَرْقَدَيْها ، فكلّما رأي ثَغْراً سَدَّه بسُهاها . أو لمح خرْقا رَمَّه بزُباناها ، إلى غير ذلك . فقلتَ : كيفَ أوتيَ الحُكم صبيّاً . وهزَّ بجذْعِ نخلة الكلام فاسّاقطَ عليه رُطَباً جنياً ؟ أمَا إن به شَيْطاناً يهديه ، وشيصبَاناً يأتيه ، وأُقسمُ أنّ له تابعةً تُنجده ، وزابعة تؤيّدُه ، ليس هذا في قُدْرةِ الإنسِ ، ولا هذا النَّفَس لهذه النَّفْس . فأما وقد قُلْتَها أبا بكرٍ فأصغِ أُسمعكَ العَجَبَ العُجاب :

كنتُ أيامَ كُتّابِ الهجاء ، أحـنُّ إلى الأدباء ، وأصبو إلى تأليف الكلام ، فاتبعتُ الدّواوين وجلستُ إلى الأساتيذِ ، فنَبَض لي عرقُ الفـهم ، ودَر لي شرْيانُ العلم ، بمواد رُوحانية ؛ وقليلُ الالتمـاحِ من النظر يزيـدني . ويسيرُ المطالعةِ من الكتبِ يفيدني ، إذ صادَف شن العلمِ طَبَقَه . ولم أكُنْ كالثلجِ تقتبس منه ناراً ، ولا كـالحمـار يحملُ أسفاراً [فطعنّتُ ثُغْرةَ البيانِ دراكاً . وأعلقْتُ رِجلَ طيرِه أشراكاً ، فانثالتْ لي العجائب .. وانهالت عليَّ الرغائب] . و كان لي أوائلَ صَبْوَتي هوًى اشتدَّ به كَـلَفي . ثم لحقني بعدُ مَلَـلٌ في أثناءِ ذلك الميل . فاتفقَ أن مات من كنتُ أهواه مدّة ذلك الملل ، فجزعْتُ وأخذتُ في رثائه يوماً في الحائر [٢] ، وقد أبهمت عليَّ أبوابه ، وانفردتُ فقلتُ :

تولى الحـــمـــــامُ بظبي الخُـدُورِ وفــــاز الرَّدَى بالغــــزالِ الغــــرير

إلــى أن انتهـيتُ إلى الاعتـذارِ مـن المَلَــلِ الــذى كــان ، فقلـــت :

وكُـنْـتُ مَـلِـلـتُـكَ لا عـن قِـلًـى ولا عن فـسـادٍ جـرى في ضـمـيـرى

---

(١) هو أبو بكر يحيى بن حزم شيخ من شيوخ الأدب ، قال الحميدى (الجذوة : ٣٥١ والبغية رقم : ١٤٦٦) وهو الذي خاطبه أبو عامر بن شهيد برسالة التوابع والزوابع التى سماها « شجرة الفكاهة » وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم قلت : إن جهل هذه الحقيقة وهى عدم وجود أية صلة من قرابة بين أبى بكر بن حزم والفقيه المشهور ، أوقع عدداً من الدارسين فى استنتاجات خاطئة حول رسالة التوابع والزوابع (انظر مثلا : ابن شهيد لشارل بلا ص : ٥٤ ، ٩٥) .

(٢) الحائر أو الحير : المكان المطمئن يجتمع فيه الماء ، ثم سموا البستان به .

فأرتجَ عليَّ القولُ وأفحمتُ ، فإذا أنا بفارسٍ بباب المجلس على فرسٍ أدْهم كما بقَل وجهه ، قد اتكأ علي رمحه ، وصاح بي : أعجزاً يا فتى الإنس ؟ قُلتُ : لا وأبيك ، للكلام أحيان ، وهذا شأنُ الإنسان ؛ قال لي : قُلْ بعده :

كَمثلِ ملالِ الفتى للنعيمِ إذا دام فيه وحالِ السرورِ

فأثبتُّ إجازته ، وقلتُ له : بأبي أنت ، من أنت ؟ قال أنا زُهَيْر بن نُمَيْر من أشْجَع الجنّ[1] : فقلتُ وما الذى حداكَ إلى التصوُّر لى ؟ فقال : هوىً فيك ، ورغبةٌ فى اصطفاك قلت أهلاً بك أيُّها الوجهُ الوضاح ، صادفتَ قلباً إليكَ مقلوباً ، وهوى نحوكَ مجنوباً وتحادثنا حيناً ثمَّ قال : متى شئتَ استحضارى فأنشدَ هذه الأبيات :

وآلى زُهَيْرُ الحبُّ يا عزّ أنه إذا ذكرته الذاكراتُ أتاها
إذا جرتِ الأفواهُ يوماً بذكرِها يُخيَّلُ لى أنّى أقبِّلُ فاها
فأغشَى ديارَ الذّاكرين وإن نأتْ أجارعُ من دارى هوىً لهواها

وأوثَبَ الأدهَم جدارَ الحائط ثم غابَ عنّى .

وكنت أبا بكرٍ متى أُرتجَ عليَّ ، أو انقطعَ بى مَسْلَك ، أو خاننى أُسْلوبٌ ، أنشدُ الأبياتَ فيَمْثُلُ لى صاحبى ، فأسيرُ إلى ما أرغب ، وأدْركُ بقريحتي ما أطلُب ؛ وتأكّدتْ صُحبتُنا ، وجرت قصَصٌ لولا أن يطولَ الكتابُ لذكرتُ أكثرها ، لكنّى ذاكرٌ بعضها .

(١) يعنى أنه من قبيلة أشجع التى تنتمى إلى الجن مثلما أن صاحبه ابن شهيد من أشجع (الإنس) .

فصل : تذاكرتُ يوماً معَ زهير بن نميرٍ أخبارَ الخطباء والشعراء ، وما كان يألفهم من التوابع والزّوابع ، وقلتُ : هل حيلةٌ فى لقاء من اتّفقَ منهم ؟ قال : حتّى أستأذنَ شيخنا ، وطار عنّى ثم انصرفَ كلَمْحٍ بالبَصَر ، وقد أذن له ، فقال : حُلَّ على متنِ الجواد . فصرنا عليه ، وسار بنا كالطائر يجتابُ الجوَّ فالجوّ ، ويقطعُ الدَّوَّ فالدَّوّ ، حتى التمحتُ أرضاً لا كأرضنا، وشارفتُ جوًّا لا كجوّنا ، متفرّعَ الشّجَر ، عَطِرَ الزّهر . فقال لى : حللتَ أرض الجنّ أبا عامر ، فبمن تُريدُ أن نبدأ ؟ قلتُ : الخطباء أولى بالتّقديم ، لكنّى إلى الشعراء أشوَق . قال: فمن تُريدُ منهم ؟ قلت : صاحب امرئ القيس . فأمال العنَانَ إلى وادٍ من الأودية ذى دَوْحٍ تتكسَّرُ أشجارُه ، وتترنّم أطيارُه ، فصاح : يا عُتيبةُ بنَ نَوْفَل ، بسقط اللوى فحومل ، ويوم دارةِ جلجُل ، إلا ما عرضْتَ علينا وجهك ، وأنشدتنا من شعرك ، وسمعت من الإنْسيّ ، وعرّفتنا كيف إجازتُك له . فظهر لنا فارسٌ على فرسٍ شقراء كأنها تلتهب ، فقال : حيّاكَ الله يا زهير ، وحيّا صاحبك ! أهذا فتاهم ؟ قلت[1] : هو هذا ، وأيُّ جمرةٍ يا عتيبة ! فقال لى : أنشدْ ، فقلتُ : السيدُ أولى بالإنشاد . فتطامَحَ طَرْفُه ، واهتزّ عطفه ، وقبضَ عنانَ الشقراء ، وضربها بالسوط ، فسمت تُحضر طُولاً عنّا ، وكرّ فاستقبلنا بالصَّعْدة هَازاً لها ، ثم رَكَـزها وجعل يُنشد :

« سما لك شوقٌ بعد ما كان أقصرا[2] »

حتى أكملها ثم قال لى : أنشدْ . فهممتُ بالحيصَة ، ثم اشتدتْ قوى نفسى وأنشدتُ :

« شجتْهُ مغانٍ من سليمى وأدْؤُرُ[3] »

حتى انتهيتُ فيها إلى قولى :

ومن قُبّةٍ لا يُدركُ الطَّرفُ رأسها ... تَـزلُّ بها ريحُ الصَّبـا فتَحدَّرُ
تكلفتُها والليلُ قد جاشَ بحرُهُ ... وقـد جعلـتْ أمـواجُـهُ تتكَسَّرُ

---

(١) الصواب : « قال » – أي زهير .
(٢) ديوان امرئ القيس : ٥٦ وعجز البيت : وحلت سليمى بطن حق فعرعرا .
(٣) ديوان ابن شهيد : ١٠٧ .

ومن تحت حضنى أبيضٌ ذو سفاسقٍ ... وفى الكفّ من عسالة الخطّ أسمر
هما صاحباى من لَدُنْ كنتُ يافعاً ... مُقيلان من جَدّ الفتى حين يعثُر
فذا جدولٌ فى الغمد تُسقى به المُنى ... وذا غُصُنٌ فى الكفّ يُجنى فيثمر

فلمّا انتهيتُ تأملنى عتيبة ثم قال : اذهب فقد أجزتك . وغاب عنا .

فقل لى زُهير : من تريدُ بعد ؟ قلتُ : صاحب طَرَفة . فجزعنا وادى عتيبة ، وركضنا حتى انتهينا إلى غيضةٍ شجرُها شجَران : سام يفوحُ بهاراً ، وشِحْر يعبقُ هندياً وغاراً . فرأينا عيناً مَعينَة تسيل ، ويدُورُ ماؤها فَلَكيّاً ولا يحول . فصاح به زهير : يا عنتر بن العجلان ، حَلَّ بكَ زهير وصاحبُه ، فبخَوْلَة وما قَطَعْتَ معها من لَيْلَة ، إلّا ما عَرضْتَ وجهكَ لنا ! فبدا إلينا راكبٌ جميلُ الوجه ، قد توشّحَ السيفَ ، واشتمل عليه كساءَ خَزّ ، وبيده خطيّ ، فقال : مرحباً بكما ! واستنشدنى فقلتُ : الزعيمُ أولى بالإنشاد ، فأنشد :

★ لسعدىَ بحزّانِ الشُّرَيف طلولُ ★ (١)

حتى أكملها ، فأنشدته من قصيدة :

★ أمن رسم دارٍ بالعقيقِ محيلِ ★ (٢)

حتى انتهيتُ إلى قولى :

ولمّا هَبَطْنَا الغيبَ نَذْعَر وحْشَهُ ... على كل خوّارِ العنانِ أسيلِ
وثارتْ بناتُ الأعوجيّاتِ بالضحى ... أبابيل من أعطاف غيرِ وبيل
مُسَوّمَة نعتدُّها من خيارِها ... لطرد قنيص أو لطرد رعيل
[إذا ما تغنى الصُّحْبُ فوق مُتُونها ... صُحَيّاً أجابت تحتهمْ بصهيل]
ندوسُ بها أبكارَ نَوْرٍ كأنّهُ ... رداء عروسٍ أوذنَتْ بحليل
رمينا بها عرضَ الصُّوَارِ فأقعَصَتْ ... أغنَّ قتلناهُ بغير قتيل

(١) ديوان طرفة : ٧٦ ؛ وفيه « لهند » ؛ والحزان : جمع حزيز ، وهو الغليظ من الأرض ؛ والشريف : واد بنجد وعجز البيت « تلوح وأدنى عهدهن محيل » .

(٢) ديوان ابن شهيد : ١٤٠ .

وبادر أصحابي النّزولَ فأقبلتْ كراديسُ من غَضّ الشّواء نشيل
نُمَسّحُ بالحوذان منه أكفنا إذا ما اقتنصنا منه غير قليل
فقلنا لساقيها أدِرْها سُلافَةً شمولاً ومن عينيك صرفَ شمول
فقامَ بكأسَيْه مُطيعاً لأمرنا يميلُ به الإدلالُ كلَّ مميل
وشَعشَعَ راحيه فما زال مائلاً برأسٍ كريمٍ منهُمُ وتَليل(١)
إلى أن ثناهم راكدينَ لما احتَسَوْا خَليعينَ من بطشٍ وفَضْلِ عقول
نشاوَى على الزهراءِ صرْعى كأنهم أساطينُ قَصْرٍ أو جذوعُ نخيل

فصاح عنتر : لله أنت ، اذهب فإنك مُجاز . وغاب عنّا .

ثم ملنا عنه فقال لى زهير : إلى من تتوقُ نفسك بعد من الجاهليين ؟ قلت : كفانى من رأيتُ ؛ اصرفْ وجه قصدنا إلى صاحب أبى تمّام ؛ فركضنا ذاتَ اليمينِ حيناً ، ويشتد فى أثرنا فارس كأنه الأسد ، على فرس كأنها العقاب وهو فى عَدْوه ذلك ينشد :

طعنتُ ابن عبدِ القيسِ طعنةَ ثائرٍ لها نَفَذٌ لولا الشّعاعُ أضاءَها (٢)

فاستَرَبتُ منه ، فقال لى زُهَيْر : لا عليك . هذا أبو الخطارِ صاحبُ قيس بن الخطيم . فاستبى لبى من إنشاده البيتَ ، وازدَدْتُ خوفاً لجرأته ، وأنّنا لم نُعَرّج عليه ؛ فصرفَ إليه زهير وجهَ الأدهم ، وقال : حيّاكَ اللهُ أبا الخطار ، فقال : أهكذا يُحادُ عن أبى الخَطَار ولا يُخْطَرُ عليه ؟ قال : علمناكَ صاحبَ قنص ، وخفنا أن نشغلك . فقال لى : أنشدنا يا أشجعى ، وأُقسمُ أنك إن لم تَجدْ ليكونَنّ يوم شرّ ؛ فأنشدته قولى من قصيدة :

★ منازلهم تبكى إليكَ عفَاءَها ★ (٣)

ومنها :

(١) التليل : العنق .
(٢) ديوان قيس بن الخطيم : ٧٠ .
(٣) ديوان ابن شهيد : ٨٢ .

خليليَّ عـوجـا باركَ اللّه فـيكمـا ، بدارتـهــا الأولى نُحَيَّ فناءَهـا
فلم أرَ أسْـراباً كـأسـرَابهـا الدُّمى ولا ذئْبَ مـثلى قـد رعى ثمَّ شـاءها
ولا كـضـلالٍ كـان أهدى لصَـبـوتى ليـالىَ يهـديني الغـرامُ خـبـاءَها
ومـا هاج هذا الشَّـوْقَ إلاَ حـمـائمٌ بكيتُ لهـا لمَّا سـمـعتُ بُـكاءها
عـجبتُ لنفسى كـيف مُلـكّهَا الهوى وكـيف اسـتـفـزَّ الغـانيـاتُ إباءَها ؟
ولـو أنـنى أنْحَتْ عـلىَّ أكـارمٌ تَرَضَّـيْتُ بالعـرضِ الكريمِ جـزاءها
ولكنَّ جـرذانَ الثَّـغـورِ رَمَـيْننى فـأكـرمتُ نفـسى أن تـُريقَ دمـاءها
إليـكَ أبا مـروانَ ألقـيتُ رابـاً بحـاجـة نفسٍ مـا حَـربَتُ خـزاءها
هزَّتكَ فى نصـرى ضُـحًى فكأننى هززتُ- وقـد جـئتُ الجبـال - حـراءها
نَقَـضْتُ عُـرَى عَـزْمِ الزَّمـانِ وإنْ عـتـا بعـزمـةِ نفسٍ لا أُريدُ بقـاءَها

فلمَّا انتهيتُ تبسّم وقال : لنعم ما تخلَّصْتَ ! اذهبْ فقد أجَـزتُك .

ثمَّ انصرفنا وركضنا حتى انتهينا إلى شَجَرةٍ غيناء ، يتفجَّرُ من أصلْها عَـينٌ كمقلة حَوراء . فصاح زهير : يا عتابُ بن حبناء ، حلَّ بك زهير وصاحبُه ، فبعَمروٍ والقَمرِ الطّالع ، وبالرُّقعة المفكوكة الطابع ، إلّا ما أريْتنَا وجهك ! فانفلقَ ماءُ العين عن وجه فتىً كفلْقـة القَمر ، ثمَّ اشْتَقَّ الهواء صاعداً إلينا من قعرها حتى استوى معنا . فقال حيّاك اللّه يا زهير ، وحيًّا صاحبك! فقلت : وما الذى أسكنك قعر هذه العَين يا عتّاب ؟ قال : حيائى من التحسنِ باسمِ الشعرِ وأنا لا أُحسنه فصحتُ : ويلى منه ، كلامُ محدَثٍ وربِّ الكعبة ؛ واستنشدنى فلم أنشده إجلالاً له ، ثم أنشدته :

[★ أبكيْتَ إذ ظَعَنَ الفريقُ فراقَها ★ (١)

حتى انتهيتُ فيها إلى قولى] :

(١) ديوان ابن شهيد : ٢١٧ .

إنى امرؤٌ لَعبَ الزمانُ بهمّتى وسقيتُ من كأس الخطوب دهاقها
وكَبَوْتُ طرفاً فى العلا فاستضحكت حُمْرُ الأنامِ فما تَريمُ نهاقَها
وإذا ارتَمَتْ نحوى المُنى لأنالها وقفَ الزمانُ لها هناك فعاقَها
وإذا أبو يحيى تأخَّرَ نفسُهُ فمتى أؤمّلُ فى الزمان لحاقَها ؟

فلما انتهيتُ قال : أنشدني من رثائك . فأنشدته :(١)

[أعينا امرءاً نزحت عينُهُ ولا تعجبا من جفون جماد
إذا القلبُ أحرقهُ بثّه فإن المدامعَ شلْوُ(٢) الفؤاد]
يَوَدُّ الفتى مَنْهَلاً خالياً وسعدُ المنيّة فى كل واد(٣)
[ويصرفُ للكونِ ما فى يديه وما الكونُ إلا نذيرُ الفساد(٤)]
لقد عثر الدهرُ بالسابقين ولم يعجز الموتَ رَكض الجواد
لعمركَ ما ردَّ ريبَ الردى أريبٌ ولا جاهدٌ باجتهاد
[سهامُ المنايا تُصيبُ الفتى ولو ضربوا دونه بالسّداد]
أصَبْنَ على بَطْشهِمْ جُرْهُماً وأصمينَ فى دارهم قومَ عاد
وأقعصْنَ كلباً على عزِّه فما اعتزَّ بالصّافنات الجياد

إلى أن انتهيتُ فيها إلى قولى :

ولكننى خاننى مَعْشَرى وردْتُ يفاعاً وَبيلَ المَراد
وهل ضرَبَ السيفُ من غيرِ كفٍ ؟ وهل ثَبتَ الرأسُ فى غيرِ هاد(٥)

---

(١) ديوان ابن شهيد : ٩٧ (اعتماداً علي الذخيرة وحدها) .
(٢) فى الأصل : تلو ، والتصحيح عن الديوان .
(٣) ناظر إلي المثل : « فى كل واد بنو سعد » أو «أينما أوجه ألق سعداً » ، انظر الميدانى ١ : ٣٤ والعسكرى ١ : ٦١ (تحقيق الأستاذ أبو الفضل إبراهيم) .
(٤) يلاحظ إيراده « الكون » و « الفساد » فى هذا السياق ، كأنه يومىء ، إلى ثقافة فلسفية .
(٥) الهادى : العنق . ديوان ابن شهيد : ١٤٧ وهى فى رثاء الوزير حسان بن مالك بن أبى عبدة ، وكان من الأئمة فى اللغة والآداب ، روى عن أبى العباسى ابن ذكوان مذاكرة ، وعمل كتابا سماه « ربيعة وعقيل » في الأسمار ، وتوفى قبل العشرين وأربعمائة (الجذوة : ١٨٣ والبغية رقم : ٦٦٢) .

فقال : زدْني من رثائك وتحريضك ، فأنشدتُه :

أفي كل عامٍ مصرَعٌ لعظيمِ ؟ أصابَ المنايا حادثي وقديمي
هوى قمرا قيسِ بنِ عيلانَ آنفاً وأوْحَشَ من كَلْبٍ مكانُ زعيم
فكيف لقائي الحادثات إذا سَطَتْ وقد فُلَّ سَيْفي منهُم وعَزيمي ؟
وكيف اهتدائي في الخطوب إذا دجت وقد فقدتْ عيناي ضَوْءَ نجومِ ؟
مَضَى السَّلَفُ الوَضَّاحُ إلّا بَقيَّةً كغُرَّةِ مُسْوَدِّ القميصِ بهيم

ومنها :

رَميتُ بها الآفاقَ عنّي غريبةً نتيجةَ خَفّاقِ الضلوعِ كظيمِ
لأبْدي إلى أهلِ الحجي من بواطني وأُدلي بعذرٍ في ظواهرِ لوم
أنا السيفُ لم تتعبْ به كف ضاربٍ صَروم إذا صَادَفتْ كفٌّ صروم
سعيتُ بأحرارِ الرجال فخانني رجالٌ ولم أنجد بجدٍّ عظيم
وضَيَّعني الأملاكُ بَدءاً وعَوْدَةً فَضِعْتُ بدارٍ منهم وحريم

فقال : إن كُنتَ ولا بدَّ قائلاً ، فإذا دَعتك نفسُك إلى القولِ فلا تكُدَّ قريحتك ، فإذا أكملتَ فَجمامِ ثلاثةً لا أقلَّ ، ونقِّحْ بعد ذلك ، وتذكر قوله :

وجشّمني خوفُ ابنِ عفّانَ ردَّها فَثَقَّفْتُها حولاً كريتاً ومَرْبعاً (١)
وقد كان في نفسي عليها زيادةٌ فلم أرَ إلّا أن أطيعَ وأسمعا

وما أنت إلّا مُحسنٌ على إساءة زمانك . فقبلتُ على رأسه ، وغاصَ في العين .

ثم قال لي زهير : من تُريد بعده ؟ قلتُ : صاحب أبي نُواس ، قال : هو بدَيْرِ حَنَّةَ منذُ أشهر ، قد غلَبَتْ عليه الخمر ، ودير حنة في ذلك الجبل .

---

(١) البيتان لسويد بن كراع ، الشعر والشعراء : ٢٣ ، ٥٣٠ ، وانظر الأغاني ١٢ : ٣٤٥ في ترجمة سويد ، والبيان ٢ : ١٢ .

وعَرَضه عليّ ، فإذا بيننا وبينه فراسخ . فركضنا ساعةً ، وجُزنا فى ركضنا بقصرٍ عظيمٍ قُدَّامه ناوَرْدٌ[1] يتطارَدُ فيه فرسان ، فقلتُ : لمن هذا القصر يا زهير ؟ قال : لطوقِ بن مالك ؛ وأبو الطبع صاحبُ البحترى فى ذلك النّاوَرْد فهل لك فى أن تراه ؟ قلتُ : ألف هل ، إنه لمن أساتيذى ، وقدكنتُ أُنْسيتُه . فصاح : يا أبا الطبَع ، فخرج إلينا فتىً على فرسٍ أشعل ، وبيده قناة ، (فقال له زهير : إنك مؤتمنا ، فقال : لا ، صاحبُك أشمخُ مارِناً من ذلك لولا أنه ينقُصُه ؛ قلت : أبا الطَبع على رِسْلك ، إنّ الرِّجال لا تُكالُ بالقُفْزان . أنشدنا من شعرك) . فأنشد :

« ما على الرَّكبِ من وقوفِ الرّكاب[2] »

حتى أكملها ، ثم قال : هاتِ إن كنت قلت شيئاً ، فأنشدتُه :

هذه دارُ زينبٍ والرَّبابِ [3] »

حتى انتهيتُ فيها إلى قولى :

وارْتَكَضْنَا حــتى مــضى الليلُ يســعى ... وأتى الصــبْحُ قــاطعُ الأســبــابِ
فكأنّ النجــومَ فى الليل جــيشٌ ... دخلوا للكُمــونِ فى جَــوْفِ غــاب
وكــأن الصَّــبــاحَ قــانِصُ طيــرٍ ... قَــبَــضَتْ كَــفُّــهُ بِرجلِ غُــراب

ومنها :

وفُــتُــوٌّ ســرَوْا وقــد عَكَفَ الليــ ... ــلُ وأرخَــى مُــغْــدَوْدِنَ[4] الأطــنــابِ
وكــأنَّ النُّجُــومَ لمــا هَــدَتهُــمْ ... أشْــرَقَتْ للعــيــونِ من آدابى
يَتَــقَــرَّوْنَ جَــزَ كَــلَ فَــلاةٍ ... جُنْحَ ليلٍ جَــوْزَاؤه من رِكــاب
عنّ ذكــرى لمُدلجــيــهمْ فــتــاهوا ... من حــديثى فى عُــرضِ أمرٍ عُــجــاب

---

١ — الناورد هنا بمعنى « الميدان » ، وهى من الفارسية ومعناها : معركة ، قتال .
٢ — ديوان البحترى : ٨٣ وعجزه : « فى مغانى الصبا ورسم التصابى » .
٣ — ديوان ابن شهيد : ٨٥ .
٤ — المغدودن : المسترخى .

همّــةٌ فى السمــاء تسحبُ ذيلاً ... من ذيول العُــلا وَجَــدّ كــابى
ولو أن الدُّنيــا كــريمةُ نَجْـــرٍ ... لم تكن طعمــةً لفَــرْسِ الكلاب
جــيــفــةٌ أنتنتْ فطار إليــهــا ... من بنى دهرها فــراخُ الذُّباب

ومنها يفخر :

من شُــهَيْــدٍ فى سـرّهـا ثمّ من أشْـ ... ـجَعَ فى السّــرّ من لُبــاب اللبــاب
خُـطبــاءُ الأنــامِ إن عــنّ خَطْبٌ ... وأعــاريبُ فى مُســتون عــراب

حتى أكملتُها ، فكأنما غَشّى وجهَ أبى الطّبع قطعةٌ من الليل ، وكرّ راجعاً إلى نـاورْدِه دون أن يُسلّم . فصاح به زُهَير : أأجزتَه ؟ قال : أجـزتُه ، لاَ بورِكَ فيكَ من زائر ، ولا فى صاحبك أبى عامر .

(فضَرَبَ زُهَير الأدهمَ بالسّوط ، فسار بنا فى قُنّتـه)[١] ، وسرنا حتّى انتهينا إلى أصلِ جبلِ ديْـر حَنة ، فشَقّ سمعى قَرْعُ النّواقيس . فصحتُ : من منازل أبى نواس ، وربِّ الكعبة العلياء ؛ وسرنا نجتابُ أديِاراً وكنائسَ وحانات ، حتى انتهينا إلى ديرِ عظيمٍ تعبَق روائحه ، وتصُوكُ نوافحه فوقفَ زهير ببابه وصاح : سلامٌ على أهلِ دير حنَة ! فقلتُ لزهير : أو هَل صرنا بذات الأكيراح ؟ قـال : نعم . وأقْبَلَتْ نحونا الرّهـابين ، مُشددةً بالزّنانير ، قد قبضتْ على العكاكيز ، بيضَ الحواجبِ واللّـحَى ، إذا نظروا إلى المرءِ استحيا ، مكثرين للتسبيحِ ، عليهم هَـدْىُ المسيح ؛ فقالوا : أهـْلاً بكَ يا زهير من زائر ، وبصاحبك أبى عامر ، ما بـغْيتُك ؟ قال: حُسَين الدنان . قالوا : إنّـه لفى شُـربِ الخمرة ، منذ أيـّامٍ عشرة ، وما نراكما منتفعِين به . فقال : وعلى ذلك . ونزلنا وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفّت دنانُـه وعكفتْ غزلانه ، وفى فُـرْجَته شيخٌ طويلُ الوجه والسّبَلة ، قد افترشَ أضْغَـاثَ زهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده طَرْجَهارَة[٢] ، وحواليه صبيةٌ كأظْب تعطو إلى عَرَارَة . فصاح به زهير : حيّاكَ اللّه أبا الإحسان ! فجاوبَ بجوابٍ لا يُعقَلُ لغلبة الخمرِ عليه . فقال لى زهير : اقرع أُذُنَ نشوته بإحدى خَمْريّاتك ، فإنه ربما تنبّه لبعض ذلك ، فصحتُ أُنشدُ من كلمةٍ لى طويلة :[٣]

---

(١) القنت : الزاوية أو الجانب .
(٢) الطرجهارة : الفنجال، أى شبه كأس أو طاس يشرب به .
(٣) ديوان ابن شهيد : ١١٥ .

ولربَّ حانٍ قد أدرتُ بديره خمرَ الصبا مزجتْ بصفوِ خمورِه
في فتية جعلوا الزقاقَ تكاءهم متصاغرين تخشُّعاً لكبيره
والى عليَّ بطرفه وبكفه فأمال من رأسي لعبَّ كبيره
وترنَّمَ الناقوسُ عند صلاتهم ففتحتُ من عيني لرَجْعِ هديره
يُهدى إلينا الراحَ كلُّ معصفرٍ كالخشفِ خفَّرهُ التماحُ خفيره

فصاح من حبائل نشوته : أأشجعيٌّ ؟ قلتُ : أنا ذاك ؛ فاستدعى ماءً قراحاً ، فشرب منه وغسل وجهه ، فأفاق واعتذر إليَّ من حاله ، فأدركتني مهابته ، وأخذتُ في إجلاله ، لمكانه من العلم والشعر . فقال لي : أنشدْ ، أو حتى أُنشدَك ؟ فقلت : إنَّ ذلك لأشد لتأنيسي ، على أنه ما بعدك لمُحسنٍ إحسانٌ ، فأنشد :(١)

يا ديرَ حَنَّةَ من ذات الأكَيْراحِ من يصحُ عنك فإني لستُ بالصاحي
يعتادُه كلُّ محفوفٍ مفارقُه من الدِّهانِ عليه سَحْقُ أمساحِ
لا يَدْلِفونَ إلى ماءٍ بآنيةٍ إلَّا اغترافاً مِنَ الغُدرانِ بالراحِ

فكدتُ والله أخرج من جلدي طرباً . ثم أنشد :

« طرحتمْ من الترحالِ أمراً فغمَّنا (٢) »

وأنشد أيضاً (٣) :

لمنْ دمنٌ تزدادُ طيبَ نسيمِ على طيبِ ما أقوتْ وحسنِ رسومِ
تجافى البِلَى عنهنَّ حتى كأنما لَبِسْنَ من الإقواءِ ثوبَ نعيمِ

واستمرَّ فيها حتى أكملها ، ثم قال لي : أنشدْ فقلتُ : وهل أبقيتَ للإنشادِ موضعاً ؟ قال : لابُدَّ لك ، وأوعِثْ بي ولا تُنجد . فأنشدتُه(٤) :

---

(١) ديوان أبي نواس : ١٢٨ .
(٢) ديوان أبي نواس : ٧٥ ، وعجز البيت « فلو قد شخصتم صبح الموت بعضنا » .
(٣) ديوان أبي نواس : ٨٨ وانظر الذخيرة ٣ : ٤٦٣ .
(٤) ديوان ابن شهيد : ١٠٢ .

أصَفيحٌ [١] شِيمَ أم برقٌ بدا | أم سَنا المحبوب أورى أزندا [٢]
هبّ من مرقده [٣] منكسراً [٤] | مسبلاً للكمّ مرخِ للردا
يمسح النعسة من عيني رشا | صائدٍ في كلّ يومٍ أسدا
قلتُ : هَبْ لي يا حبيبي قُبْلةً | تشف من عمك [٥] تبريح الصدى
فانثني يهتز من منكبه | قائلاً : لا ؛ ثم أعطاني اليدا [٦]
كلّما كلّمني قبّلته | فهو إمّا قال قولاً ردّدا
كاد أن يرجع من لثمي له | وارتشافي الثغرَ منه أدردا
قال لي يلعب : خذ لي [٧] طائراً | فتراني الدهرَ أجري بالكدا [٨]
(وإذا استنجزتُ يوماً وعده | قال لي يمطل : ذكّرني غدا)
شربتْ أعطافه خمر الصبا | وسقاه [٩] الحسنُ حتى عربدا
وإذا بتُّ به في روضة | أغيداً يقرو [١٠] نباتاً أغيدا
قام في الليل بجيدٍ أتلعٍ | ينفض اللمة من دمع الندي
رشأ بل غادةٌ ممكورة | عممتْ صبحاً بليلٍ أسودا
أحسنت من عضّتي في نهدها | ثمّ عضّتْ حرّ وجهي [١١] عمدا
فأنا المجروح من عضتها | لا شفاني اللهُ منها أبدا

فلما انتهيت قال : لله أنت ، وإنْ كان طَبعُك مخترَعاً منك . ثم قال لي : أنشدني من رثائك شيئاً ، فأنشدته من قولي في بُنيّة صغيرة [١٢] :

(١) الديوان : أصبيح ؛ المطمح : أصباح .
(٢) أكثر المصادر ؛ زندا .
(٣) النفح : نعمته .
(٤) المغرب : منفتلا .
(٥) في الأصول : غمك .
(٦) المطمح : مائلا لطفاً وأعطاني اليدا .
(٧) الديوان : صد لي .
(٨) المغرب : أمشي في الكدى .
(٩) المغرب : وثناه .
(١٠) في الأصول : يعرو .
(١١) المغرب : خدى
(١٢) ديوان ابن شهيد : ١٧٠ (عن الذخيرة وحدها) .

(أيهـا المعـتـدُ فى أهـلِ النُهَى لا تَـذُبْ إثـرَ فـقـيـدٍ ولَهـا

حتى انتهيت إلى قولى) :

وإذا الأسْـدُ حَـمَتْ أغـيـالهـا لم يَضُـرَّ الخـيسَ صَـرْعَـاتُ المهـا
وغَـريبٌ يا ابنَ أقـمـارِ العُـلا أنْ يُـرَاعَ البـدرُ من فـقـدِ السُّهـا

فلمّـا انتهيتُ قال لى : أنشدنى من رِثائك أشَدّ من هذا وأفصح فأنشدته من رِثائى فى ابن ذكوان (١) ثم قال : أنشدنى جَحْدَرِيّتك من السّجن ، فأنشدته :

« قريبٌ بمحتلّ الهوان بعيدُ (٢) »

حتى انتهيت فيها إلى قولى :

فـإن طال ذكـرى بالمجـون فـإننى شـقىّ بمنظومِ الكـلامِ سـعـيـدُ
وهل كنتُ فى العُـشـاقِ أوّلَ عـاشقٍ هَـوَتْ بحـجَـاهُ أعينٌ وخـدودُ ؟
فـمَن مَبلـغُ الفِـتـيـانِ أنىّ بعـدهم مُـقـيـمٌ بدارِ الظـالمينَ طريد
ولست بذى قـيـد يَرِق وإنّمـا على اللحظِ من سـخطِ الإمـام قـيـود

فبكي لهـا طويلاً ثم قال : أنشدني قطعةً من مجونك ، فقد بعُـدَ عـهدى بمثلِـك ، فأنشدتُه (٣) :

ونـاظَـرةٍ تحـت طَـىِّ الـقِـنـاعِ دعـاها إلى اللّه والخـيـرِ داعى
سَـعَتْ بـابنهـا تَبْـتَـغى منزِلاً لـوصلِ التَـبـتّلِ والانـقـطـاع

(١) انظر ديوان ابن شهيد : ٨٩ ومطلع هذه القصيدة وارد فى ترتيب المدارك ٤ : ٦٦٧ (ولم يرد فى الديوان) وهو :

إذا لم تجـد إلّا الأسـى لك صاحبا فـلا تمنعن الدمع ينهـل سـاكبا
يموت بأبى العبـاس شمـس من التقى وأمسى شـهاب الحق فى الغرب غاربا

والمرثى فى هذه القصيدة هو أبو العباس ابن ذكوان (-٤١٣) ؛ انظر ترجمته فى الجذوة : ١٢١ (البغية رقم : ٤٢٥) والصلة : ٣٧ والمغرب ١ : ٢١٠ - ٢١٢ وترتيب المدارك ٤ : ٦٦٢ والنباهى : ٨٤ - ٨٧ والحلة السيراء ١ : ٢٧ وصفحات متفرقة من البيان المغرب ب جـ ٣ . (٢) ديوان ابن شهيد : ٩٩ وعجز البيت : « يجود ويشكو حزنه فيجيد » ؛ وقد كتبها حين سجنه على بن حمود (انظر المطمح : ٢٠) .
(٣) ديوان ابن شهيد : ١٢٤ .

فجاءتْ تهادى كمثلِ الرءوم ... تُراعى غزالاً بأعلى يَفَاع
أتتنا تَبَختَرُ فى مَشيِهَا ... فَحلّتْ بوادٍ كثيرِ السِّباع
وريعَتْ حِذاراً على طفلها ... فناديتُ : يا هذه لا تُراعى !
فَولَّتْ وللمسكِ من ذَيْلِها ... على الأرض خطٌّ كظهرِ الشُّجاع

فلما سمع هذا البيتَ قام يرقص به ويردده ، ثم أفاق ، ثم قال : هذا واللّه شيءٌ لم نلهمه نحن ؛ ثم استدنانى فدنوت منه فقبّلَ بين عينيّ ، وقال : اذهَبْ فإنّك مُجاز على بَظْرِ أمّ الكارِه .

فانصرفنا عنه وانحدرنا من الجبل ، فقل لى زهير : ومن تريدُ بعد ؟

قلت له : خاتمةَ القومِ صاحبَ أبى الطيِّب ، فقال : اشدُدْ له حيازيمك ، وعطّرْ له نسيمك وانثر عليه نجومَك . وأمال عنانَ الأدهم إلى طريقٍ ، فجعل يركضُ بنا ، وزهير يتأمَّلُ آثارَ فرسٍ لحناها هناك ، فقلت له : ما تتبُّعُكَ لهذه الآثار ؟ قال : هي آثار فرس حارثةَ بنِ المغلّس صاحبِ أبى الطيِّب . وهو صاحبُ قَنَص . فلم يزل يتقرّاها حتى دفعنا إلى فارسٍ على فرسٍ بيضاء كأنه قضيبٌ على كثيب ، وبيده قناةٌ قد أسندها إلى عُنقه ، وعلى رأسه عمامةٌ حمراء ، قد أرخص لها عذبةً صفراء . فحيّاه زهير ، فأحسن الرَّد ناظراً من مقلة شَوساء ، قد مُلِئَت تيهاً وعُجباً. فعرَّفه زهير قصدى وألقى إليه رغبتى . فقال : بلغنى أنه يتناول ، قلت : للضرورة الدافعة ، وإلّا فالقريحةُ غيرُ صادعةَ ، والشَّفرةُ غيرُ قاطعة ، قال : فأنشدنى ، وأكبرتُه أن أستَنشِده ، فأنشدتُه قصيدتى التى أوّلها :

أبرق بدا أم لمعُ أبيضَ قاصلِ (١) .

حتى انتهيت فيها إلى قولى :

تَرَدَّدَ فيها البرقُ حتى حَسِبتُهُ ... يشيرُ إلي نجمِ الرُّبَى بالأناملِ
رُبىً نَسَجَتْ أيدى الغمامِ للُبْسِها ... غلائلَ صُفراً فوق بيضِ غلائلِ
سَهِرتُ بها أرعى النجومَ وأنجُماً ... طوالعَ للرّاعينَ غيرَ أوافلِ

(١) ديوان ابن شهيد : ١٤٢ ، وعجز البيت : « ورجع صدى أم رجع أشقر صاهل » .

وقد فغرتْ فاها بها كلُّ زهرةٍ إلى كل ضَرْعٍ للغمامةِ حافلِ
ومرّتْ جيوشُ المزنِ رَهواً كأنها عساكرُ زنجٍ مذهَباتُ المناصل
وَحلّقتِ الخضراءُ فى غُرِّ شُهْبِها كلُجّةِ بحرٍ كُلِّلتْ باليعالِل
تخالُ بها زُهْرَ الكواكبِ نرجساً على شطِّ وادٍ للمجرّةِ سائلِ
وتلمَحُ من جوزائها فى غروبها تساقُطَ عَرْشٍ واهنِ الدعمِ مائلِ
وتَحْسَبُ صَقراً واقعاً دَبرانها نجومٌ كَطَلْعاتِ الحمامِ النواهل
وكأنَّ الدجى همّى ودَمْعى نجومُه تَحدَّرَ إشفاقاً لدهرِ الأراذلِ
هوتْ أنجُمُ العَلْياءِ إلاَّ أقلَّها وَغِبْنَ بما يحظى به كلُّ عاقلِ
وأصْبحت فى خَلْفٍ إذا ما لحتهم تبينتُ أنَّ الجهلَ إحدى الفضائلِ
وما طاب فى هذى البريّة آخرٌ إذا هُوَ لم يُنْجَدْ بِطيبِ الأوائلِ
أرَى حُمُراً فوق الصّواهل جَمّةً بعينى ذُلُّ تلك الصّواهلِ
ورُبّتَ كُتّاب إذا قيل : زَوِّروا بكت من تأنيهم صدورُ الرّسائل
وناقلِ فقهٍ لم ير اللّه قلبُه يَظُنُّ بأنَّ الدينَ حفظُ المسائل
وحاملِ رُمحٍ راحَ فوقَ مضائه به كاعباً في الحى ذاتَ مغازل
حُبُوا بالمُنى دُونى وَغودرتُ دونهم أرودُ الأماني فى رياضِ الأباطلِ
وما هَى إلّا همّةٌ أشْجعيّةٌ ونَفْسٌ أبتْ لى من طلابِ الرّذائل
وفَهْمٍ لو البرجيسَ جئتُ بجدِّه إذاً لتلقّانى بنَحْسِ المقاتل
ولما طمَا بحرُ البيانِ بفكرتى وأغرَق قرنَ الشمسِ بعضُ جداولى
رَحَلْتُ إلى خيرِ الورى كُلَّ حرّةٍ من المدح لم تخمل بِرَعى الخمائل
وكدتُ لفضلِ القولِ أبلغُ ساكتاً وإن ساءَ حُسادى مدَى كل قائلِ

فلما انتهيتُ قال : أنشدنى أشدَّ من هذا . فأنشدته قصيدتى :

هاتيكَ دارُهُــمُ فَقِفْ بمعانها (١)

فلما انتهيتُ قال لزهير : إن امتد به طَـلَـقُ العُــمر ، فلا بدَّ أن ينفثَ بدرر ، وما أراهُ إلَّا سُيختَضَر ، بين قريحة كالجمر ، وهمَّةٍ تضعُ أخمصه على مفرق البدر . فقلت : هلَّا وضَعْتَه على صَلَعة النَّسر ؟ ! فاستضحكَ إليَّ وقال : اذهب فقد أجزتُـك بهذه النّـكتـة . فقبَّلتُ على رأسه وانصرفنا . •

قـال لي زُهيـر : من تريد بعـدَه ؟ فقلت : مل بي إلى الخُطباء ، فـقـد قـضَيتُ وطراً من الشعراء . فركضنا حيناً طاعنين في مطلع الشمس ولقينا فارساً أسرَّ إلى زُهير ، وانجزعَ عنَّا . فقال لي زهير : جُمِعتْ لكَ خُطباءُ الجنّ بمـرْجِ دَهمان ، وبيننا وبينهم فرسخان ، فقد كُـفيتَ العَنَاءَ إليهم على انفرادهم قلت : لمَ ذاك ؟ قال : للفرْقِ بين كلامين اختلفَ فيه فتيانُ الجن . وانتهينا إلى المرج فإذا بنادٍ عظيم ، قد جمعَ كلَّ زعيم ، فصاح زهير : السلامُ على فُرْسانِ الكلام ، فردوا وأشاروا بالنزول ، فأفْرجوا حتى صِرنا مركزَ هالةِ مجلسهم . والكل منهم ناظر إلى شيخ أصلعَ ، جاحظِ العينِ اليُمْنَى . على رأسه قَـلَـنْسُوةٌ بيضاءُ طويلة : فقلتُ سِرًّا لزهير: مَنْ ذلك ؟ قال : عُتْبةُ بـن أرقـم صـاحـبُ الجـاحـظ ، وكُنْيتُـه أبـو عُتَيْبَـة ؛ قلتُ : بأبي هو ! ليس رغبتي سـواه . وغـيرَ صاحبِ عبدِ الحميـد . قـال لـي : إنـه ذلك الشيخُ الذي إلى جنبه ؛ وعرَّفَه صَغْـوِي إليـه وقَـوْلي فيـه ، فاستدناني وأخذ في الكلامِ معي . فصمتَ أهلُ المجلس . فقال : إنك لخطيب ، وحائكٌ للكلام مُجيـد ، لولا أنـَّك مُـغرًى بالسَّجع ، فكلامُـك نظمٌ لا نثر ، فقلتُ في نفسي : قرعَـكَ - باللّه - بقارعَـتِه ، وجاءك بمُـمَاثَلَته . ثم قلت له : ليس هذا - أعزَّك اللّه - منّي جـهلاً بأمرِ السَّجع ، وما في المـماثلةِ والمقـابلة من فَضل . ولكنّي عدمـتُ ببلدي فُـرْسَـان الكلام (ودُهيتُ بغـبـاوة أهل الزمـان ، وبالحَـرَا أن أحـرّكَـهم بالازدواج

(١) دوان ابن شهيد : ١٦٥ وانظر ما تقدم ص : ٢٠٥ .

ولو فرَشتُ للكلامِ] فيهم طَوْلَـقا (١)، وتحركتُ لهم حركة مشولم (٢) لكان أرفعَ لى عندهم ، وأولجَ فى نفوسهم ، فقال : أهذا على تلك المناظر . وكِبَرِ تلك المحابر ، وكمال تلك الطيالسِ ؟ قلتُ : نعم ، إنـها لـحاءُ الشجر . وليس ثم ثَمَرٌ ولا عَبَق . قال لى : صَدقتَ ، إنّى أراك قد ماثلتَ معى . قلت : كما سمعت . قال : فكيف كلامُهم بينهم ؟ قلت : ليس لسيبويه فيه عَـمل ، ولا للفراهيدى إليه طريق ، ولا للبيانِ عليه سمة . إنّما لكْنةٌ أعجَميّةٌ يؤدُّون بها المعانىَ تأديةَ المجوسِ والنَّبَط . فصاح : إنـا للّه . ذهبت العربُ وكلامُها ! ارمِـهمْ يا هذا بسَجع الكُهّان ، فعسى أنْ ينفعـَك عندهم ، [ويـُطيرَ لك ذكْراً فيهم ، وما أراك مع ذلك إلاّ ثقيلَ الوطأة عليهم، كريهَ المجىءِ إليهم] . فقال الشيخ الذى إلى جانبه ، وقد علمتُ أنه صاحبُ عبدَ الحميد ، ونفسى مرتقبةٌ إلى ما يكون منه : لا يغُرّنـكَ منهُ أبا عُيينةَ ما تكـلّف لكَ من المماثلة ، إنّ السجعَ لطبعه ، وإنّ ما أسمعَـك كُـلْـفة ، ولو امتدَّ به طَـلَـقُ الكلام ، وجرت أفراسُه فى ميدانِ البيان ، لصلّـى كَـوْدَنُـه ، وكـلّ بُـرْثُنه . ومـا أراهُ إلاّ مـن اللكْنِ الـذيـن ذَكَـر ، وإلّا فما للفصاحة لا تَـهدِر ، وللأعرابيّـة لا تُـومِـض ؟ فقلت فى نفسى : طبعُ عبد الحميد ومساقُه وربِّ الكعبة ؛ فقلت له : لقد عجلتَ أبا هُبَيْرة — وقدكان زهير عرّفنى بكنيته — إنّ قوسَكَ لنبعٌ ، وإنّ ماءَ سَهْمِك لَسُمٌّ ، أحماراً رميتَ أم إنساناً ، وقعقعةَ طلبْتَ أم بياناً؟ وأبيك إنّ البيان لصَعْب ، وإنك منه لفي عباءةٍ تتكشف عنها أستاه معانيك تكَشُّفَ استِ العَـنز عن ذَنبها . الزمانُ دفءٌ لاقـرّ ، والكلامُ عراقىٌّ لا شـامىّ . إنى لأرَى مـن دمِ اليَرْبُـوعِ بكفَّيْكِ ، والمحَ من كُشَى الضَّبِّ على مـاضِـغَـيْك . فـتـبَـسّم إلىّ وقـال : أهكذا أنت يا أُطَيْـلِس ،

---

(١) قد حاولت شرح هذه اللفظة « طولق » فى القسم الثالث : ٦٥٣ ، وفى ظنى أن معناها مما جاء فى (Vo-cabulista) لم يتحدد بوضوح : وكلمة « يفرش » هنا قد تفيد أنها حصير أو بساط أو ما أشبه ، على أن يقترن ذلك بالشعوذة أو بالدعوة إلى بيع العقاقير أو التكلم ببذاءة ، أو غير ذلك من الأمور .

(٢) فى كليلة ودمنة : ٣١ فارقى بهذه الرقية « شولم . شولم » سبع مرات ؛ فلعل حركة مشولم هى حركة الراقى وهو يردد لفظة شولم .

تركبُ لكلٍّ نهجة . وتعجُّ إليه عجّه ؟ أفقلت : الذئبُ أطلس ، وإنَّ التيسَ ما علمت ؛ فصاح به أبو عيينة : لا تعرض له ، وبالحرا أن تخلُصَ منه ، فقلت : الحمدُ لله خالق الأنام في بطون الأنعام ! فقال : إنها كافيةٌ لو كان له حجر ؛ فبسطاني وسألاني أن أقرأ عليهما من رسائلي ، فقرأتُ رسالتي في صفة البرد والنار والحطب فاستحسناها ، ومن رسالتي في الحلواء حيث أقول :

خرجتُ في لُمّةٍ من الأصحاب ، وثبةٍ من الأتراب ، فيهم فقيهٌ ذو لقم ، ولم أعرفْ به، وغريمُ بطنٍ ، ولم أشعرْ له . رأى الحلوى فاستخفه الشره ، واضطرب به الوله . فدار في ثيابه . وأسال من لعابه ، حتى وقفَ بالأكداس ، وخالط غمارَ الناس ، ونظر إلى الفالوذج فقال : بأبي هذا اللمص (١) ، انظروه كأنه الفصّ ، مجاجة الزنابير ، أجريتْ على شوابير (٢) . وخالطها لبابُ الحبّة ، فجاءتْ أعذبَ من ألسنة الأحبّة .

ورأى الخبيصَ فقال : بأبي هذا الغالي الرخيص . هذا جليدُ سماء الرحمة . تمخضتْ به فأبرزتْ منه زبدَ النعمة ، يجرحُ باللحظ ، ويذوبُ من اللفظ . بمَ ابيضّ ؟ قالوا بماء البيض البضّ قال : غضٌّ من غضّ . ما أطيبَ خلوةَ الحبيب . لولا حضرةُ الرقيب .

ولمح القبيطاءَ فصاح : بأبي نقرةُ الفضّة البيضاء . لا تردُّ عن العضّة . أبنار طُبخت أم بنور ؟ فإني أراها كقطعِ البلور : وبلوز عُجنتْ أم بجوْز ؟ فإني أراها عين عجينِ الموز . ومشى إليها وقد عدّل صاحبُها أرطال نحاسه ، وعلّق قسطاسه من أم راسه : فقال : رِطلٌ بدرهمين . وانتهشها بالنابين ، فصاح : القارعةُ ما القارعة . هيه ! ويلٌ للمرءِ من فيه .

ورأى الزلابية فقال : ويلٌ لأمّها الزانية ، أبأحشائي نُسجتْ ، أم من صفاق قلبي ألفتْ ؟ فإني أجدُ مكانها من نفسي مكيناً ، وحبْلَ هواها على كبدي متيناً ، فمن أين وَصلتْ كفُّ طابخها إلى باطني ، فاقتطعتْها من دواجني ؟ والعزيز الغفار ، لأطلبنّها بالثار ؛ ومشى إليها، فتلمّظ له لسانُ الميزان ، فأجفلَ يصيحُ : الثعبان الثعبان !

---

(١) اللمص : الفالوذج .
(٢) الشوابير : جمع شابورة ، وهي السمكة أو نوع من السمك ، ولم يتضح لي ماذا يعني ذلك في السياق .

ورُفع له ثمرُ النّشا ، غير مهضوم الحشا ، فقال : مَهْيَمْ ؟ ! من أين لكم جنَى نخلة مريم ؟ ما أنتم إلاّ السحار ، وما جزاؤكم إلاّ السّيفُ والنّار ؛ وهمَّ أن يأخذ منها ، فأثبتَ في صدره العصا ، فجلس القرفصا . يذرى الدّموع ، ويبدى الخشوع . وما منا أحدٌ إلاّ عن الضّحك قد تجلد . فرقّت له ضلوعي ، وعلمت أنّ الله فيه غير مضيعي . وقد تجمل الصّدقةُ على ذوى وفر ، وفي كل ذي كبد رطْبَة أجرٌ . فأمرتُ الحلْوانيَّ بابتياع أرطالٍ منها تجملُ الصّدقة تجمعُ أنواعها التى أنطقتْه ، وتحتوى على ضروبها التى أضرعته . وجاء بها وسرنا إلى مكانٍ خالٍ ، طيّبٍ كوصف المهلّبيّ :

خان تطبيبَ لباغي النسْك خلوته وفيه ستر على الفتّاك إن فتكوا [(1)] فصبّها رطبةَ الوقوع ، كراديسَ كقطع الجذوع ؛ فجعل يقطع ويبلع ويدحو فاه ويدفع ، وعيناه تبصّان ، كأنهما جمرتان ، وقد برزتا على وجهه كأنهما خصيتان ، وأنا أقول له : على رسلكَ أبا فلان ! البطنة تذهبُ الفطنة ! فلمّا التقم جملة جماهيرها ، وأتى على مآخيرها ووصل خورنقها بسديرها ، تجشأ فهبّت منه ريحٌ عقيم ، أيقنّا لها بالعذاب الأليم . فنشرتنا شذر مذر ، وفرّقتنا شغر بغر ، فالتمحنا منه الظربان ، وصدّق الخبرَ فيه العيان : نفحَ ذلك فشرّد الأنعام ؛ ونفح هذا فبدّد الأنام ، فلم تجتمعْ بعدها والسّلام .

فاستحسناها وضحكا عليها ، وقالا : إنّ لسَجْعكَ موضعاً من القلب ، ومكاناً من النّفس ، وقد أعرته من طبعك ، وحلاوة لفظك ، وملاحة سَوْقك ، ما أزال أفنه ، ورفع غَبْنه . وقد بلغنا أنّك لا تجازَى في أبناء جنسك ، ولا يُملُّ من الطعن عليك . والاعتراض لك . فمَن أشدهم عليك ؟ قلت : جارانَ دارهما صقَب ، وثالثٌ نابته نوب ، فامتطى ظَهْرَ النّوَى ، وألقتْ به في سرقسْطةَ العصا . فقالا : إلى أبى محمد تشير ، وأبى القاسم وأبى بكر ؟ [(2)] قلت : أجل ، قالا : فأين بلغتَ فيهم ؟ قلت : أمّا أبو محمد فانتضى عليّ لسانه عندَ المستعين ، وساعدته زرافةٌ استهوَاها من الحاسدين ، وبلغنى ذلك فأنشدتُه شعراً ، منه [(3)] :

---

(١) فى أخبار ابن القوطية أن ابن هذيل لقيه عائداً من ضيعة له بسفح جبل قرطبة ، فسأله :

من أين أقبلت يا من لا شبيه له ومن هو الشمس والدنيا له فلك .

فأجابه : من منزل يعجب النساك خلوته وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا

(انظر ابن خلكان ٤ : ٣٦٩) فلعل ابن القوطية تمثل به ، وغير فى بعض

(٢) يمكن القول إن أبا بكر هو ابن حزم الذى خاطبه فى أول الرسالة ، لأنه هو الذى اقتصر على قوله : « له تابعة تؤيده » كما سيجىء القول ، وأما ابن القاسم فقد صرح بأنه ابن الإفليلى ، ويبقى الثالث وهو أبو محمد ، وليس لدى ما يعين على التعرف إليه .

(٣) ديوان ابن شهيد : ١١٤ والنفح ٣ : ٤٣٩ والمسالك .

وبلّغتُ أقواماً تجيش صدورهم ... عليَّ، وإنّي منهم فارغ الصدرِ
أصاخوا إلى قولي فأسمعت معجزاً ... وغاصوا على سرّي فأعياهم [1] أمري
فقال فريق: ليس ذا الشعر شعره ... وقال فريق: أيمن الله ما ندري
أما علموا أنّي إلى العلم طامحٌ ... وأنّي الذي سبقاً على عرقه يجري
وما كلّ من قاد الجياد يسوسها ... ولا كل من أجرى يقال له: مجري
فمن شاء فليخبر فإنّي حاضر ... ولا شيء أجلى للشكوك من الخبرِ

وأمّا أبو بكرٍ فأقصر واقتصر على قوله: له تابعةٌ تؤيّده. وأمّا أبو القاسم الإفليليّ فمكانه من نفسي مكين، وحبّه بفؤادي دخيل، على أنه حاملٌ عليّ، ومتتسبٌ إليّ. فصاحا: يا أنفَ الناقة بن معمر، من سكّان خيبر! فقام إليهما جنّي أشمط ربعةٌ وارم الأنف، يتظالع في مشيته، كاسراً لطرفه، وزاوياً لأنفه، وهو ينشد:

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرهم ... ومن يسوّي بأنف الناقة الذَّنبا[2]

فقالا لي: هذا صاحب أبي القاسم، ما قولك فيه يا أنف الناقة؟

قال: فتىً لم أعرفْ على من قرأ. فقلتُ لنفسي: العصا من العصيّة! إن لم تعربي عن ذاتك، وتظهري بعض أدواتك، وأنت بين فرسان الكلام، لم يطِرْ لك بعدها طائر، وكنت غرضاً لكلّ حجرٍ عابر. وأخذتُ للكلام أهبته، ولبستُ للبيان بزته؛ فقلتُ: وأنا أيضاً لا أعرف على من قرأتَ. قال ألمثلي يقالُ هذا؟ فقلت: فكان ماذا؟ قال: فطارحني كتاب الخليل، قلتُ: هو عندي في زنبيل قال: فناظرني على كتاب سيبويه. قلت: خريت الهرةُ عندي عليه وعلى شرح ابن درستويه، فقال لي: دعْ عنكَ، أنا أبو البيان، قلت: لاها الله! إنما أنت كمُغنٍ وسط، لا يحسنُ فيطرب، ولا يسيءَ فيلهي، قال: لقد علّمنيه المؤدّبون، قلت ليس هو من شأنهم، إنما هو من تعاليم الله تعالى حيث قال: ﴿ الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان ﴾

(١) النفح والمسالك: فأعجزهم.

(٢) البيت للحطيئة، ديوانه: ١٢٨.

(الرحمن : ٣-٤) . ليس من شعر يـفَسر ، ولا أرضٍ تـكَـسَّر[١] ، هيهـاتَ حتى يكونَ المسكُ من أنفاسك ، والعنبرُ من أنقاسك ، وحتى يكون مَساقُـكَ عـذباً ، وكلامُـكَ رطباً ، ونفَسُكَ من نفَسِـك ، وقليبك من قلبـك ؛ وحـتى تتناولَ الوضيعَ فترفعـه ، والرفيعَ فتـضَعـَه ، والقبيحَ فتحسِّنَه ؟! قال : أسمعنى مثالاً ، قلت : حتي تـصِف بـرْغـُوثاً فتقـُول[٢] : أسودُ زنجىّ ، وأهلىّ وحشىّ ؛ ليس بـوَان ولا زُمّيـْل ، وكأنـه جزءٌ لا يتجزأ من ليل ، وشـُونيزة[٣] . أوْثـَبَتـْها غريزة ، أو نقطةُ مـداد ، أو سـُوَيْدَاءُ قلبِ قـُـرَاد ، شُربه عـبّ ، ومـَشيه وَثب ؛ يكمـُـن نهارَه ، ويسرى ليلـَه ؛ يدارِكُ بطعنٍ مؤلم ، ويَستَحِـلُّ دمَ كلّ مـُسلـِم[٤] . مُساوِر للأسـاوِرة ، يـَجُـر ذيله على الجبابرة ؛ يتكفرُ بأرفعِ الثّياب ، ويهتكُ سـتَرَ كـُلّ حجاب ، ولا يحفـلُ ببـوَاب ؛ يردُ مناهـلَ العيش العذبة ، ويصلُ إلي الأحراج الرَّطْبة ، لا يـُمنَعُ منه أمير ، ولا ينفعُ فيه غيرةُ غُيور ، وهو أصغَرُ[٥] كـُلِّ حـقير ، شرُّه مبثوث ، وعـهْدُه منكوث ، وكذلك كل بُـرغُوث ؛ كفى بهذا نـقْصاً للإنسان ، ودالاً على قدرةِ الرَّحـْمـَن .

وحتى تصف ثعلباً فتقول[٦] : أدهَـى من عـمرو ، وأفتكُ من قاتـلِ حـُذَيفةَ بن بـدْر[٧] ؛ كثيرُ الوقائع فى المسلمين ، مـُغرى بإراقة دماءِ المؤذّنين ؛ إذا رأى الفـُرْصةَ انتهزها ، وإذا طلبتْه الكُـماةُ أعجزها ؛ وهو مع ذلك بـُقـراطُ فى إدامـه ، وجالينُوسُ فى اعتدال طعامـه ؛ غـَداؤه حـَمامٌ أو دَجاج ، وعـَشاؤه تـَدرُج أو دُرَّاج .

(١) تكسر : تقاس مساحتها وتقدر .
(٢) اليتيمة ٢ : ٤٦ .
(٣) الشونيزة : الحبة السوداء .
(٤) اليتيمة : كل كافر ومسلم .
(٥) اليتيمة : أحقر .
(٦) اليتيمة ٢ : ٤٧ .
(٧) قاتل حذيفة هو قيس بن زهير .

قال أبو عامر : وكان فيما يقابلنى من ناديهم فتىً قد رمانى بطَرْفه ، واتّكأ لى على كفّه ، فقال: تَحيَّلْ على الكلام لطيفٌ وأبيك ! فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أوَما علمتَ أنَّ الواصفَ إذا وصف شيئاً لم يتقدَّمْ إلى صفته ، ولا سُلّط الكلامُ على نعته ، اكتفى بقليلِ الإحسان ، واجتزا بيسيرِ البيان ؟ لأنه لم يتقدَّمْ وصفٌ يُقْرَنُ بوصفه ، ولا جرى مَساقٌ يُضافُ إلى مساقه ، وهذه نُكتةٌ بغداديّة ، أنى لك بها يا فتى المغرب ؟ فقلتُ لزُهير : من هذا ؟ قال : زُبْدةُ الحقب ، صاحبُ بديعِ الزّمان . فقلتُ : يا زُبدةَ الحقب ، اقترحْ لى . قال: صِفْ جاريةً ، فوصفَتُها ؛ قال : أحسنْتَ ما شئتَ أن تُحسن ؛ قلتُ : أسمعنى وصفك للماء ، قال : ذلك من العُقم [قلت : بحياتى هاته ، قال] : أزرقُ كعيْنِ السنّوْر ، صافٍ كقضيبِ البلّوْر ؛ انتُخِبَ من الفُرات ، واستُعمِل بعدَ البيات ، فجاءَ كلسان الشّمْعة، فى صفاءِ الدمْعة .

فقلتُ (١) : انظُرْه يا سيّدى كأنّه عصيرُ صَبَاح ، أو ذَوْبُ قمرٍ لياح ؛ له فى إنائه ، انصبابُ الكوكبِ من سمائه ؛ العينُ حانُوته ، والفمُ عفريته ، كأنّه خيْطٌ من غزْلٍ فلق ، أو مخصرٌ يضربُ به من ورَق ؛ يرْفَعُ عنك فتَرْدَى ، ويصْدَعُ به قلبُكَ فتحيا .

فلما انتهيتُ فى الصّفَة ، ضرَب زُبْدةُ الحقَبِ الأرْضَ برجله ، فانفرجتْ له عن مثلِ برَهُوت (٢) ، وتدَهْدَى إليها ، واجتمعتْ عليه ، وغابت عيْنُه ، وانقطَع أثرُه . فاستضحَك الأستاذان من فعله ، واشتدَّ غيْظُ أنفُ النّاقَة عليَّ فقال : وقَعتْ لكَ أوصافٌ فى شعركَ تظُن أنى لا أستَطيعُها ؟ فقلتُ له : وحتى تصف عارضاً فتقول(٣) :

---

(١) اليتيمة ٢ : ٤٦ .

(٢) برهوت : واد أو بئر بحضرموت يرون أنها مقر أرواح الكفار .

(٣) ديوان ابن شهيد : ١٢١ .

وَمُـرْتَجِـزٍ ألقي بذى الأثْلِ كَلْكَلاً وحطَّ بجَـرعـاء الأبارِقِ مـا حطّا
سـعي فى قيـادِ الرّيحِ يُسْمِحُ للصبَـا فـألقَتْ علي غيـرِ التّـلاعِ به مِـرْطا
ومـا زال يُروي التربَ حتّي كسا الرُّبي درانِكَ ، والغيطان من نسجه بُسْطا
وَعَنّتْ لـه ريحٌ تُسَـاقِطُ قَطْرَهُ كمـا نَثَرَتْ حَسْناء من جيدها سِمطا
ولـم أرَ دُرّاً بَـدَّدتْـه يدُ الصَّـبـا سـواهُ ، فـبـاتَ النّورُ يَلقُطُهُ لقطا
وَبِتنا نُـسَـراعى الليلَ لم نَطْوِ بُردَهُ ولم يجرِ شيبُ الصبح فى فرعه وَخطا
تراهُكَمَلكِ الزنْجِ فى فَـرْطِ كِبـرِه إذا رامَ مـشـيـاً فى تَبَخـتُـرِه أبْطا
مُطِلاً علي الآفـاقِ والبـدرُ تاجُـهُ وقـد علّقَ الجَـوْزاءَ من أُذنه قُـرطا

وحتي تصف ذئباً فتقول[١] :

إذا اجـتـازَ عُـلْوِيُّ الرّياحِ بأفْـقِـهِ أجـدَّ لعـرفـان الصَّـبـا يتنفسُ
تـذكّـر رَوضـاً ذا شَـوًى وبـاقـر تولّـتـه أحـراس من الذُّعـرِ تحـرس
إذا انتـابهـا من أذؤبِ القـفـرِ طارقٌ حشيثٌ إذا مـا استـشـعـر اللحظ يهـمس
أزلُّ كـسـا جـثـمـانه مُـتَـسَـتِّـراً طـيـالسَ سـوداً للدُّجى وهو أطلس
فَـدَلَّ عليـهِ لحظُ خـبٍّ مُـخـادع ترى نارَهُ من مـاءِ عـينيـهِ تقـبس

١ – ديوان ابن شهيد ١١٩

فصـــاح فتيانُ الجـنّ عند هذا البيت الأخير : زَاه ! وعلتْ أنفَ الناقة كآبة . وظهرتْ عليه مهابة . واختلط كلامـه . وبدا منه ساعتئذ بوادٍ في خطابه ، رَحِـمَهُ لها من حضـرَ . وأشْـفـقَ عليه من أجـْلـها من نـظرَ . وشـمَّـر لي فتى كان إلى جانبه عن ساعـدٍ . وقال لي : وهل يضـرُّ قريحتَك أو ينـقـص من بديهتك لو تجافيتَ لأنفِ النـاقة وصبرت له ؟ فإنه على علّاتـه زيرُ علم وزنبيل فهم وكـنَفُ رواية . فقلتُ لزهير : من هذا فقـال : هو أبو الآداب صاحبُ أبي إسـحاق ابن حمامٍ جارك . فقلتُ : يا أبا الآداب . وزهرةَ ريحانة الكـتّاب . رِفقاً على أخيك بغَـرْب لسانـكَ . وهل كان يضـرُّ أنفَ النـاقة . أو ينقص من علمه . أو يفـلُّ شفرة فهمه . أن يصبرَ لي على زلّـة تـمُـرُّ به في شـعْرٍ أو خـُطبة . فلا يهتفُ بها بين تلاميذه . ويجعلها طـرّمذةً [1] من طراميذه ؟ فقال : إنَّ الشـيُـوخَ قد تهفو أحلامـُهم في الندرة . فقلت : إنها المـرَّةُ بعد المـرَّة ثم قال لي الأستاذانِ عـتْبةُ بن أرْقـم وأبو هـبَيْزةَ صاحبُ عبد الحميد : إنـا لنَـخْبـطُ مـنكَ ببيداءِ حـيْرة ، وتفتقُ أسماعـنا منك بعـبرة ، وما نـدرى أنقولُ : شاعرٌ أمْ خـَطيب ؟ فقلتُ : الإنصـافُ أولى . والصـّدْعُ بالحقّ أحجى ، ولابـدّ من قضـاء . فقـالا : اذهـبْ فـإنكَ شـاعـرٌ خـَطيب . وانفضَّ الجمع والأبصارُ إليَّ ناظـرةَ ، والأعناق نحوى مائلة .

قال ابن بسّام : وامتدَّ بأبي عامرٍ الكلامُ في هذا الباب ، ومدَّ فيه أطنابَ الإطنابِ والإسهاب . فلذلك وقَفتُ دونَ الغاية . وقطعتُ قبلَ النـّهاية .

قولـُه في ما عـرَض به لصاحب أبي تمام : « بعـمرو والقـمـر الطـّالع ، والرقعة المفكوكة الطـّابـع » أشار إلى قول أبي تمام في غـُلامه [2] :

---

١ – الطرمذة : المفاخرة والتنفج .

٢ – ديوان أبي تمام ٤ : ٣٨٦ .

يا عـمـرو قـلْ للقمر الطّالعِ اتّسعَ الخـرْقُ على الراقعِ
يا طولَ فكرى فيكَ من حاملٍ لِرُقعةٍ (١) مفكوكةِ الطّابع
ما أنتَ (٢) إلّا رشأً خاذلٌ حلَّ بمغنى أسدٍ جائع

وحكى الصولى فى أخباره قال(٣) : كان أبو تمام يتعشّقُ غلاماً خزَريّاً للحسن بن وَهْب . وكان الحسنُ يتعشّقُ غلاماً رُوميّاً لحَبيب . فرآه يعبثُ بغُلامه فقال له : واللّه لئن سِرتَ إلى الرُّومى لأسيرَنَّ إلى الخزَرىّ . فقال الحسن : لو شئتَ حكمتنا واحتكَمْتَ ! فقال أبو تمام : أنا أشبّهكَ بداودَ عليه السلام ، وأشبهنى أنا بخصْمِه . فقال الحسن : لو كان هذا منظوماً (٤) ! فقال أبو تمام من جُملةِ أبيات :

أذْكـرتَنى أمرَ داوُدٍ وكنتُ فتًى مُصرَّفَ القلبِ فى الأهواء والفكر (٥)
أعندك الشمسُ لم يحظَ المغيبُ بها وأنت مُشتغِلُ الألحاظِ (٦) بالقمر ؟
إن أنت لم تتركِ السيرَ الحثيثَ إلى جآذرِ الرومِ أعْنَقْنا إلى الخزَرِ
ورُبَّ أمنعَ منهُ جانباً وحمًى أمسى وتِكّتُهُ منى على خطَرِ

(١) الديوان : صحيفة .
(٢) الديوان : هل أنت .
(٣) أخبار أبى تمام : ١٩٤ - ١٩٩ ، وانظر الشعر فى ديوانه ٤ : ٤٦٣ .
(٤) الصولى : لو كان هذا منظوماً خفناه ، إما منثوراً فهو عارض لا حقيقة له .
(٥) الصولى : والذكر .
(٦) الصولى : مضطرب الأحشاء ؛ الديوان : مشتغل الأحشاء .

ابن سينا

أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) ولد قرب مدينة بخاري، وتوفي في همدان أو أصفهان ، حفظ صبيا القرآن الكريم ، ودرس الأدب وأصول الدين والحساب والجبر والمقابلة ، والمنطق والطب والفقه والتصوف ، وتخصص بعد ذلك في فلسفة الطبيعة وما وراءها والحكمة . واشتهر طبيبا وهو في السابعة عشرة من عمره، ثم أصبح من كبار الكتاب والمفكرين والفلاسفة في اللغتين العربية والفارسية ، وبلغت جملة مؤلفاته فيهما المئة ، عالج فيها شتي الموضوعات غير أن أشهر كتابين له هما :

★ الشفاء ، وهو يتعلق بالطبيعة وما وراءها ، والرياضيات ، في ثمانية عشر جزءا.

★ القانون وهو يتعلق بالطب .

كان تأثير ابن سينا علي الفكر الإنساني قويا ، في الشرق والغرب علي السواء .

عرفه معاصروه بلقب الشيخ الرئيس ، وكانت جهوده في أوربا معروفة وترجم كتابه القانون إلي اللغة اللاتينية وظل متداولا في دراسة الطب في الجامعات الأوربية عدة قرون، وفوق هذا فله كتب ورسائل كثيرة أخري منها الإشارات والتنبيهات ، النجاة ، رسالة القدر ، رسالة في العشق ، ورسالة في أسباب حدوث الحروف . وقد ذكر ابن أصيبعة له ترجمة ذاتية مركزة ودالة ، ونقدمها في الصفحات الآتية :

قال : الشيخ الرئيس .

إن أبي كان رجلاً من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى فى أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصوف ، وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميثن من ضياع بخارى ، وهى من أمهات القرى ، وبقربها قرية يقال لها أفشنة ، وتزوج أبى منها بوالدتى وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخى ، ثم انتقلنا إلى بخارى . وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضى منى العجب ، وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين ويعد من الإسماعيلية . وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى . وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى ، وابتدأوا يدعوننى أيضاً إليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهنى إلى رجل كان يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه . ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلى وكان يدعى المتفلسف ، وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه . وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسمٰعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين . وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذى جرت عادة القوم به .

ثم ابتدأت بكتاب ايساغوجى على الناتلى . ولما ذكر لى حد الجنس ، أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ما هو ، فأخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب منى كل العجب وحذر والدى من شغلى بغير المعلم . وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيراً منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه . وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق . وكذلك كتاب إقليدس فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب

بأسره . ثم انتقلت إلى المجسطى ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية ، قال لى الناتلى تول قـراءتها وحلها بنفسك ، ثم اعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه ، وما كان الرجل يقوم بالكتاب . وأخذت أحل ذلك الكتاب فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه ومهمته إياه . ثم فارقنى الناتلى متوجهاً إلى كركانج ، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح ، من الطبيعى والإلهى ، وصارت أبواب العلم تنفتح على .

ثم رغبت فى علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ؛ وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة . فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون على علم الطب . وتعهدت المرضى فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه ، وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة . ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفاً ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة . وفى هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت النهار بغيره وجمعت بين يدى ظهوراً ، فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية ، ورتبتها فى تلك الظهور . ثم نظرت فيما عساها تنتج ، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لى حقيقة الحق فى تلك المسألة ، وكلما كنت أتحير فى مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ترددت إلى الجامع ، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لى المنغلق ، وتيسر المتعسر .

وكنت أرجع بالليل إلى دارى وأضع السراج بين يدى ، وأشتغل بالقراءة والكتابة . فمهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف ، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلى قوتى ، ثم أرجع إلى القراءة ومهما أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى إن كثيراً من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام . وكذلك حتى استحكم معى جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنسانى . وكل ما علمته فى ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزدد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت على المنطق والطبيعى والرياضى . ثم عدلت

إلي الإلهى ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة . فما كنت أفهم مافيه ، والتبس على غرض واضعــه، حتى أعـدت قــراءته أربعــين مـرة وصـــار لى محفوضباً . وأنا مـع ذلك لا أفهـمه ولا المقصود به ، وأيست من نفسى وقلت : هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه . وإذا أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر فى الوراقين ، وبيد دلال مجلد ينادى عليه . فعرضه علي فرددته رد متبرم ، معتقـد أن لا فائدة من هذا العلم . فقـال لى اشتر منى هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، واشتريته فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة : ورجعت إلى بيتى وأسرعت قراءته . فانفتح على فى الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لى محفوظاً على ظهر القلب . وفرحت بذلك وتصدقت فى ثانى يومه بشىء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى . وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصـور ، واتفق له مرض اتلج الأطباء فيه ، وكان اسمى اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة . فأجروا ذكرى بين يديه وسألوه إحضارى ، فحضرت وشاركتهم فى مداواته وتوسمت بخدمته فسألته يوماً الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب فأذن لى فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، فى بيت منهـا كتب العربية والشعر ، وفى آخر الفقه وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد .

فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه منها . ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمـه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيتـه أيضاً من بعد . فقـرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه . فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى ، فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج ، وإلاّ فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شىء . وكان فى جوارى رجل يقال له أبو الحسين العـروضى . فســألنى أن أصنف له كتاباً جامعاً فى هذا العلم ، فصنفت له المجموع وسميته به وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضى ، ولى اذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمرى . وكان فى جوارى أيضــاً رجل يقـــال له أبو بكر البــرقى ، خـــوارزمى المولد ، فــقـــيـــه النفس ،

متوحد في الفقه والتفسير والزهد ، مائل إلى هذه العلوم ؛ فسألني شرح الكتب له فصنفت له كتاب الحاصل والمحصول في قريب من عشرين مجلدة ؛ وصنفت له في الأخلاق كتابا سميته كتاب البر والإثم . وهذان الكتابان لا يوجَدان إلّا عنده فلم يعر أحداً ينسخ منهما ثم مات والدى وتصرفت بى الأحوال ، وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان ، ودعتنى الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج . وكان أبو الحسين السهلى المحب لهذه العلوم بها وزيراً ، وقدمت إلى الأمير بها وهو على بن مأمون وكنت على زى الفقهاء إذ ذاك بطيلسان وتحت الحنك ، وأثبتوا لى مشاهرة دارة بكفاية مثلى . ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا ومنها إلى باورد ، ومنها إلى طوس ومنها إلى شقان ، ومنها إلى سمنيقان ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان ، ومنها إلى جرجان ، وكان قصدى الأمير قابوس ، فاتفق فى أثناء هذا أخذ قابوس وحبسه فى بعض القلاع وموته هناك ، ثم مضيت إلى دهستان ومرضت بها مرضاً صعباً وعدت إلى جرجان ، فاتصل أبو عبيد الجوزجانى بى وأنشأت فى حالى قصيدة فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصر واسعى لما غلا ثمنى عدمت المشترى

(الكامل)

الثعالبـى
(٣٥٠ - ٤٢٩ هـ)

هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل . أديب ولغوى وناقد متميز ، عاش حياته فى فارس ، واهتم بالعربية بوصفها لغة الدين ولغة أدبية مهمة . أهم كتبه : فقه اللغة وسر العربية، وفيه اهتمام بالمفردات والتراكيب اللغوية ومن أشهر مؤلفاته : يتيمة الدهر ، وهو كتاب فى الأدب ، وفيه تركيز على شعر المتنبى ، إعجاباً وتحليلاً ونقداً ومن كتبه المتميزة : ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ويغلب على كتبه طابع جمع المادة الأدبية وتصنيفها لأغراض لغوية وبلاغية وتحليلها من حيث التركيب وعلاقات المفردات ، ونقدها أدبيا .

من يتيمة الدهر :

البـاب الثـانى

في ذكر المهلبي الوزير وملح اخباره ونصوص فصوله واشعاره

هو أبو محمد الحسن بن محمد من ولد قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، فكان من ارتفاع القدر ، واتساع الصدر ، ونيل الهمة ، وفيض الكفّ ، وكرم الشيمة على ماهو مذكور مشهور ، وأيامه معروفة فى وزارته لمعز الدولة ، وتدبيره أمورَ العراق ، وانبساط يده فى الأموال ، مع كونه غاية فى الأدب والمحبة لأهله ، وكان يترسل ترسلا مليحاً ، ويقول الشعر قولا لطيفاً يضرب بحسنه المثل ولا يستحلى معهُ العسل . يغذى الرُّوح ويجلب الرَّوح ، كما قال بعض أهل العصر :

بأبي من إذا أراد سراري عبرت لي أنفاسه عن عبير
وسباني ثغر كسُدرٍّ نظيم تحته منطق كدرٍّ نثير
وله طلعة كنيل الأماني أو كشعر المهلبي الوزير

حدثني أبو بكر الخوارزمي وأبو نصر سهل بن المرزبان وأبو الحسن المصيصي ، فدخل حديث بعضهم في بعض فزاد ونقص ، قالوا كانت حالة المهلبي الوزير قبل الاتصال بالسلطان حال ضعف وقلة ، وكان يقاسي منها قذى عينه ، وشجى صدره فبينما هو ذات يوم في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الجراب والحراب إلاّ أنه من أهل الآداب ، إذ لقي في سفره نصباً ، واشتهى اللحم ، فلم يقدر على ثمنه فقال ارتجالا :

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيشُ ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرت قبراً من بعيد وددت لو أنني مما يليه
ألا رحمَ المهيمن نفسَ حرّ تصدّق بالوفاة على أخيه

فاشترى له رفيقه بدرهم واحد لحماً ، فأسكن به قرمه (١) وتحفظ الأبيات وتفارقا وضرب الدهر ضرباته حتى ترقت حالة المهلبي إلي أعظم درجة من الوزارة فقال :

(١) القرم شدة الشوق إلى اللحم .

رقّ الزمانُ لفاقتي ورثى لطول تحرقي
وأنالني ما أرتجي وأجارَ مما أتقي
فلأصفحنْ عما أتاهُ من الذنوب السُّبَّق
حتى جنايتَه بما فعل المشيب بمفرقي

وحصل الرفيق تحت كلكل من كلاكل الدهر، ثقل عليه بَرْكه [1] وهاضهُ عركه [2] فقصد حضرته، وتوصل إلي إيصال رقعة تتضمن أبياتاً منها :

ألا قل للوزير فدتهُ نفسي مقال مذكّر ما قد نسيهِ
أتذكر إذ تقول لضنك عيش ألا موت يباع فأشتريهِ ؟

فلما نظر فيها تذكرهُ ، وهزّته أريحية الكرم ، للحنين إليهِ ، ورعاية حق الصحبة فيه ، والجرى على حكم من قالْ :

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الخشن

وأمر لهُ فى عاجل الحال بسبعمائة درهم ، ووقع فى رقعته (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) ثم دعا بهِ وخلع عليه وقلده عملا يرتفق بهِ ، ويرتزق منه ونظير البيتين قول بعضهم :

قل للوزير أدام الله دولتهُ أذكرتنا أدْمَنَا والخبزُ خشكار
إذ ليس فى الباب بواب لدولتكم ولا حمار ولا فى الشط طيار

(١) البرك : البروك وهو النزول .

(٢) عركه : عفاه دلكاوحكا وحمل عليه .

وحكى أبو إسحق الصابى فى الكتاب التاجى قال : كان لمعز الدولة أبى الحسين غلام تركى يدعى تكين الجامدار أمرد ، وضيء الوجه ، منهمك فى الشرب لا يعرف الصحوَ ، ولا يفارق اللعب واللهو . ولفرط ميل معز الدولة إليه وشدة اعجابه به ، جَعَلَه رئيس سرية جرّدها لحرب بعض بنى حمدان ، وكان المهلبى يستظرفهُ ويستحسن صورته ، ويرى أنه من عدد الهوى ، لا من عدد الوغى ، فمن قوله فيه :

ظبى يرقُّ الماء فى ... وجناته ويرقُّ عوده
ويكاد من شبهِ العذا ... رَى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقدِ خصره ... سيفاً ومنطقةً تؤوده [1]
جعلوهُ قائدَ عسكر ... ضاع الرّعيل ومن يقوده! [2]

فما كان بأسرع من أن كانت الدائرة على هذا القائد ، وخرج الأمر على ما أشار به المهلبى .

ومما يستحسن فى هذا المعنى قول ابن المعتز فى وصف خادم :

عجبت لتأمير الرجال مقرطقاً ... ينوءُ بخصر فى القباء هضيم [3]
يذكر عزّاب الجيوش إذا بدا ... بخد كعاب أو بمقلة ريم

وذكر الصابى أن أبا عيينة المهلبى ، الذى استفرغ نسيبهُ فى صاحبته دنيا من عمومة الوزير ، وكان المهلبى يحفظ أكثر أشعاره ، ويتأسف على مافاته من زمانه فمن قوله :

إنى وصلت مفاخرى بأبِ ... حازَ الفخارَ وطاولَ العليا
وأجابَ داعيهُ وخلفنى ... وحديثهُ فكأنما يحيا
وتلوتُ همى فى تغزله ... وشربت ريا من هوى ريا
فكأنى هو فى صبابتهِ ... وكأنهُ فى حسنها دنيا

---

(١) تؤوده : أى تثقله وتتعبه . (٢) الرعيل : الجيش .

(٣) المقرطق : اللابس لنوع من الثياب اسمه القرطق .

وقولهُ لمـا تقلد الوزارة :

لقـــد ظفــرت والحـــمـــد للّه منيــتي ... بمــا كنتُ أهوى في الجـهــارة والنجـوى
وشـارفتُ مـجرى الشـمس فـيمـا ملكتـهُ ... من الأرض واسـتـقـررت فى الرتبـة العليـا
وعــاينتُ من شــعـــر العـــينى حلة ... تعــاون فـيــهــا الطبع والمهــجـة الحـرّا
فــحــركنى عــرق الوشــيــجــة والهــوى ... لعـــمـى وأطّت بى إلى الرحم القـــربى
فــيــا حـــسـرتى إن فــات وقـتى وقــتــه ... ويا حـــسـرة تمضى وتتـبـعـهـا أخـرى
ويا فـــوز نفـــسى لو بلغت زمـــانه ... وبغــيـــتـــه دنيـــا وفى يدىَ الدنيـــا
فــمـــكنتـــه من أهل دنيـــا وأرضـــهـــا ... فــفــاز بما يهــوى وفــوق الذى يهــوى

ما أخرج من كتاب الروزنامجة للصاحب إلى ابن العميد مما يتعلق بملح أخبار المهلبى

فصل : وردتُ أدام اللّه عز مولانا العراق ، فكان أول ما اتفق لى استدعاء مولاى الأستاذ أبى محمد أيده الله وجمعهُ بين ندمائه من أهل الفضل وبينى ، وكان الذى كلمنى منهم شيخ ظريف خفيف الروح أديب ، متقعر فى كلامهِ لطيف يعرف بالقاضى ابن فريعة فانهُ جارانى فى مسائل خفّتها تمنع من ذكرها وافتضاضها إلاّ أنى استظرفت قولهُ فى حشو كلامهِ الذى أوردتهُ الصافة عن الصافة ، والكافة عن الكافة ، والحافة عن الحافة ولهُ نوادر غريبة وملح عجيبة .

(منها) أن كهلا تطايب بحضرة الأستاذ أبى محمد أيده اللّه سألهُ عن حدّ القفا مريداً تخجيلهُ فقال هو ما اشتمل عليه جُـرُبـّانك ، ومازحك فيه إخوانك وباسطك فيه غلمانك ، وأدبك عليه سلطانك ، فهذه حدود أربعة .

فانصرفت وقد ورد الخبر بمضى أبى الفضل صاحب البريد رضى اللّه عنهُ ورحمه وأنشأ أجل مولانا ومدفيه ، فساعدت القومَ على الجلوس للتعزية عنهُ لما كان من الحال يعرف بينى وبينه :

صلة غـــدت فى الناس وهى قطيـبعــــة ... عــجـبــاً وبرٌّ راح وهو جــفـــاء

فما تمكنت أن جاءنى رسول الأستاذ أبى محمد أيده الله يستدعينى فعرفته عذرى وحسبته يعفينى فعاودنى بمن استحضرنى فدخلت عليه وقد قعد للشرب فأكرهنى عليه ثم قال أتعرف أحسن صنيعاً منى بك ، وقد نقلتك عن واحـرَباه إلى واطرباه ، وسمعتَ عنده خادمه المسمى سلافاً وهو يضرب بالطنبور ، ويجيد ويغنى ويحسن وفيه يقول وقد شربنا عنده سلافا :

قـد سـمـعنا وقـد شـربنا سـلافـا وجـمـعنا بلطفـه أوصـافـا

وشاهدتَ من حسن مجلسِه وخفة روح أدبِه وإنشاده للصنوبرى وطبقتـه ما طاب به الوقت ، وهشّت له النفس ، وشاكل رقة ذلك الهـوى ، وعذوبة ذلك اللمى :

وكان فيما أنشدنى لنفسه وقد عملهُ فى بعض غلمانه :

خطط مـقـوّمـة ومـفـرق طرة فـكأن سنة وجـهـه مـحـراب
وريت فى كـشـف الذى ألـقى بـه فـتـعطل النمـام والمغـتـاب

فانصرفت عنهُ وجعلت ألقاه فى دار الإمارة ، وهو على جملة من البر والتكرمة حتى عرفت خروجهُ إلى بستان بالياسرية لم ير أحسن منهُ ولا أطيب من يومه فيه لا أنى حضرتهُ ، ولكنى حدثت بما جرى لهُ فكتبت إليه شعراً :

قل للوزير أبى مـحـمـد الذى من دون مـحـتـده السـهى والفـرقـد
من إن سـمـا هبط الزمـان وريبـهُ أو قـام فـالدهر المغـالب يقـعـد
سـقـيـتنى مـشـمـولة ذهبـيـة كـالنار فى نور الزجـاجـة توقـد
لما تخـوّن صـرفَ دهر عـارض صـبـرى وقلبى مـسـتـهـام مكمـد
وفطمـتنى من بعـدها عنهـا فـقـد أصـبـحتُ ذا حـزنٍ يقـيم ويقـعـد
من أين لى مـهـمـا أردتُ الشـرب عـ ـندك يا أخـا العليـاء صـبـر يوجـد

فاستطاب هذا الشعر و أعجب به واستدعانى من غده فحضرت وأبناء المنجم فى مجلسه وقد أعدا قصيدتين فى مدحه فمنعهما من النشيد لأحضره ، فأنشدا وجودا وتمام هذه القصة فى ذكر بنى المنجم .

فصل من كتاب الروزنامجه أيضا

قد حضرنا حجرة تعرف بحجرة الريحان ، فيها حوض مستدير ينصب إليه الماء من دجلة بالدواليب ، وقد مدت الستارة وفيها حُسْن العكبراوية فغنت :

سلام أيها الملك اليماني لقد غاب البعاد على التداني

فطرب الأستاذ أبو محمد أيده الله تعالى بغنائها ، واستعادها الصوتَ مراراً وأتبعته أبياتاً وهى :

تطوى المنازل عن حبيبك دائما وتظل تبكيه بدمع ساجم
هلاَّ اقمت ولو على جمر الغضا قُلبت أو حدّ الحسام الصارم

وتبعتها جارية ابن مقلة ولا غناء أطيب وأطرب وأحسن من غنائها فغنت بيتين للأستاذوهما .

يامن له رتبٌ ممكّنة القواعد فى الفؤاد
أيحلُّ أخذ الماء من متلهب الأحشاءِ صادى

ففتنت الجميع ثم انبسطنا فى الشرب ، واشتغل فى الشدو وارتفع الأمر عن الضبط والأصوات عن الحفظ ، واتفقت فى أثناء ذلك مذكرات ، ومناشدات ومجاوبات وافترقنا (١) .

فصل منهُ أيضا

وعلى ذكر عكبرا حضرنا مع الأستاذ أبى محمد أيدهُ الله تعالى بها فاستدعى دنا للوقت ، وخمارا من الدير ، وريحانا من الحانة ، واقترح غناء من الماخور ، وأخذنا فى فن من الانخلاع عجيب ، بطريق من الاسترسال رحيب . ورسم أن يقول من حضر شيئاً فى اليوم فاستنظروا وركبت فرسى ، فاتفقت أبيات لم تكن عندى مستحقة لأن تكتب أو تسمع ، لكن رضاء القوم جمل لدىّ صورتها ، ولولا حذرى من توبيخ مولانا لطويتها وهى :

تركتُ لسافى الريح بانةَ عرعرا وزرتُ لصافى الراح حانةَ عكبرا
وقلت لعلج يعبدُ الخمَر زُفها مشعشعةً قد شاهدت عصرَ قيصرا

(١) لا يوجد هذا الخبر فى ب .

فتـاولنيهـا لو تفـرّق نورُهـا على الدّهر نالَ الليلُ منهـا تحيّـرا
وأوسعنى آسـا ووردا ونرجسـاً وأحضرنى نايًا وطبلا ومزهرا
هنالك أعطيتُ البطالة حقـهـا وألقيت هتكَ الستر مجدا ومفخرا
كأنى الصبا جريًا إلى حومة الصبا أناغى صبيـاً من جلندا مزنرا
فعانقته والراحُ قد عقرت بنا فكررت تقبيلا وقد أقبل الكرى
وصد عن المعنى النعاسُ وصادنى إلى أن تصدى الصبحُ يلمع مسفرا
وهبت شمال نظمت شمْل بغيتى فطارتْ بها عنى الشمول تطيرا
فكان الذى لولا الحياء أذعتهُ ولاخيرَ فى عيشِ الفتى إن تسترا

فصل أيضا منهُ : وحضرت الأستاذ أبا محمد أيده الله تعالى فى منظرة لهُ على دجلة تنفتح منها أبواب إلى بساتين ، فعمل بيتين صنعا فى الوقت وغنى بهما وهما :

لئن عرفتُ جريرا أو اعتمدت قطيعـًا
فلا ظفرت بعاصٍ ولا أطعتُ المطيعا

والبيت الأول يحتاج إلى تفسير فالمراد بالجرير جريرة وبالقطيع قطيعة وأنفذ الأستاذ أبو محمد أيده الله ليلة وقد مضى الثلث منها فاستدعانى ، وقاد دابة نوبته كى لا أتأخر انتظاراً لدابتى ، فمضيت وألفيته قَد انتهى من بستانه الكبير إلى مصبها من دجلةَ على ميادين ريحان نضرة ، فاستحسن الموضع وقعد فيه يشرب مع خدمه : أبى الكأس ، وسلاف ، وأبى المدام ، وشراب ، وخندريس وشمول وراح ، وأمر فنصبت نحو مائة شمعة فى أصول تلك الميادين صغيرة وقعدت فغنى سلاف :

ياشقيق النفس من حكم نمتَ عن ليلى ولم أنم

فقال الأستاذ بل غنّ :

يا شـــقـــيق النفس من خـدَمى ... لـــم يـــنـــم لـــيـــلـــى ولـــم أنم
غننى من شــعـــر ذى حكـم ... يـا شـــــقـــــيقَ النـفس من حكـم

ولم نزل نشرب الراح إلى أن باح الصبح بسره ، وقام كل منا يتعثر فى سكره .

ما اخـرج من شـعره فى وصف كتب ابن العمـيد

فمن ذلك قوله :

وردَ الكـتـــاب مــبـــشـــراً ... قـلـبى بأضـــعـــافِ الســـرور
فــفــضـــضـــتـــهُ فــوجـدتـــهُ ... ليــــلاً على صـــفـــحـــات نور
مــــثـلَ الســـوالف والخـــدو ... د البـــيض زينت بالشـــعـــور
بنظـــام لفـــظ كـــالشـــغـــو ... ر وكـــالعـــقـــود على النحـــور
أنـزلتـــــــه فى القـلـب منــــ ... ـــزلة القـلوب منَ الصــــــدور

وقولـه :

طلع الفـــجـــرُ من كـــتـــابك عندي ... فـــمـــتى للقـــاء يبـــدُو الصـــبـــاحُ
ذاك إن تمَّ فـــقـــــد عـــذُبَ العَـــيْـــ ... ـــشُ ونـيـــل المـنـــى وريشَ الجـنـــاح

وقولـه :

وصلَ الكتـــاب طليـــعُـــةُ الوصل ... بغـــرائب الأفـــضـــال والفـــضل
فـــشكرتهُ شكَر الفـــقـــيـــر إذَا ... أغنـاهُ ربٌّ المجـــــد بـالبـــــذل
وحــفظتــه حــفظ الأســيــر وقـــد ... ورد الأمـــــان لـهُ مـن القـــــتل

وقولـه :

وردَ الكـتـــابُ فـــديتـــهُ من واردِ ... فلهُ بقلبى منْ حـــيـــاتى مـــوردُ
فـــرأيتُ دراً عـــقـــده مـــتـنظم ... فى كل فــصل منهُ فــصل مــفــرد

ما أخرج من فصوله المردفة بأبيات الشعر

فصل : رأيته فصيح الإشارة ، لطيف العبارة :

إذا اختصر المعنى فشربة حائم ⁂ وإن رام إسهابا أتى الفيض بالمدّ

فصل : قد نظرته فرأيته جسما معتدلا ، وفهما مشتعلا :

ونفسًا تفيض كفيض الغمام ⁂ وظرفًا يناسب صفوَ المدام

فصل : قد عمهم بنعمه ، وغمرهم بشيمه :

رغزاهمُ بسوابغٍ من فضلهِ ⁂ جعلت جماجمهم بطائن نعلهِ

فصل : كأن قلبهُ عين ، وكأن جسمهُ سمع :

وكأن فطنتهُ شهابٌ ثاقب ⁂ وكأن نقدَ الحدس منهُ يقين

فصل : قد لاقت مناهجه ، وراقت مباهجه :

وقصّر يومُ الصيف عندى وليلة الـ ⁂ شتاء سرورٌ منهُ رفرف طائره

فصل : قد اغتيل كمينه ، واجتيح عرينه :

ودارت عليهِ رحى وقعةٍ ⁂ تظلُّ الحجارة فيها طحينا

فصل : قد أدبتهُ بزجرك ، وهذّبته بهجرك :

وإن لست منهُ بعاد معاده ⁂ وعصر جفاه الشرب أن يتعهدا

فصل : قد ضيعه الجملة ، ومنعه المهلة :

وأصلاه حرَّ جحيم الحديـ ⁂ ـد تحتَ دخانٍ من القسطل

فصل : مضطرب اللسان ، منتقض البيان :

قليل مجال الرأى فيما ينوبه ⁂ نَزول على حكم النوى والتودُّع

فصل : من تعرض للمصاعب ، فليتثبت للمصائب :

ومن خـاف أن الهم يملكُ نفـسـهُ فـأولى به تركُ العـلا والجـسـائم

فصل : وصلة متينة ، وقاعدة مكينة :

وأرحـامُ ودٍّ دونهـا الرحـم التى تـدانت وجلّت أن يطول بهـا الظن

فصل : إنهُ جريح سيفك ، وطريح خيفك :

ومن إن تلافـاه رضـاك أعـنـاشـه ومن مـوته إن ذام سـخطك حـائن

فصل : قد كثرت فتوقه ، واتسعت خروقه :

وفـات مـداواة التـلافى فسـاده وأعـيت دلالات الخـبـيـر بكاهله

فصل : قد خبا قبسه ، وكبا فرسه :

وصـبـا ذووه إلي جناب عـدوّه وتقـطعـت أقـرانه وعـلائقـه

فصل : ربما وفى ضنين ، وهفا أمين :

فللرجل الوافى جـمـيل جـزائه وللناطح الهـافى جـمـيلُ التـجـاوز

فصل : قد حل بربع مأنوس ، وملك محروس :

يـدبـره مـلـك مـاهـرٌ بهـضم القـوىّ وجـبـر الضـعـيف

فصل : لئن فخر بعز لم يحضره ، وبيت لم يعمره :

فـإن عـصـيـرَ الثـمـار الثـجـيـرُ وإن نـفـىّ الحـديد الخـبـث (١)

فصل : قتل الانسان ظلم ، وقتل قاتله حكم :

والسـيف يبـدى الجـورَ فى حـالة ويبـذل الأنصـاف فى أخـرى

---

١ – الثجير : الثفل ، والنفى : الردئ .

فصل : استقرّ بساحة خضرة ، واستبد بعيشة نضرة :

وغـدا ابنُ دأيـةَ عندهم كـمـه ... وابتـزّ سـوق صـيـاحـه خـرس

فصل : عاد الكيال ، وازن المثقال :

يجـيـر على سلطانـه حـكُم دينـه ... ويبـعـد فى حق البـعـيـد أقـاربه

فصل : فإنهم بشدة تجهمهم ، وسرعه تهجمهم :

تركـوا المكيـدة والـكمين لجـهـرهم ... والنبل والأرمـاح للأسـيـاف

فصل : قد علقت منهُ بحبل منهوك ، وستر مهتوك :

وقـلـب شـديـد لا يـلـين لخـلـة ... ولا يتـلافـاهُ الرقى والتـلطف

فصل : أوحشت عنى إبعادا لك وانعطافا عنك :

وهل يبـاعـد عـذب الماءِ ذو غـصـص ... أو ينثنى عن لـذيذ ، الزاد منـهـوم

ما أخرج من فصوله المجردة من أبيات الشعر
وانخرط بعضه في سلك كتابي المترجم بسحر البلاغة

القلب لا يملك بالمخاتلة ، ولا يدرك بالمجادلة ، له أنعام كثيرة الشهود ، وأفضال غزيرة المدود . لم يعلم فى أى حتف تورّط ، وأى شر تأبط . محامد أقرّ بها الراضى والغضبان ، وأوضحها الدليل والبرهان ، كيِّس البيع رابح الشراء ، حسن الأخذ والعطاء . يؤذى صدرهُ ويمنعهُ من النفث ، ويجرح خاطرهُ ويعوقهُ عن العبث لما أجاب أطاب ، وتفسح فى رحاب الصواب . قد ألنت عريكة الدهر منه ، وكففت غَرب الزمان عنهُ . يفور غيظا ، ويتميز حقدا ، ويتلظى غضبا ، ويزيد حنقا . قد قام بينى وبين وصلك حاجز من فعلك ، قد ابتذلتَ جديد وده ، واستحللت حرام صدّه . من حنث فى إيمانه ، وأخل بأمـانتـه ، فـإنما ينكث على نفـسـه . حلفت يمين بر شـهـد

بها تصديقى ، واستيقنتها نفسى . قد ترامت به البلدان والأسفار ، ونبت عنه الأوطان والأوطار وضاقت بـه الأعطان والأقطار . تركت قلبهُ طافحا بوجده ، ودمعه سافحا بأعلى خده [لو سالمه الأسد رام ظلمه ، أو خاشنه الضر طلب سلمه] (١) قد أمرتهُ أن يجعل رأيك سراجه ، ورسمك منهاجه ، قد شربت وَشَلاً من وده ، ولبست سملا من عهده . لأكشفنهُ لكل ليل بارد ، ونهار واقد . اكفف عن لحم يكسبك بشما (٢) ، وفعل يعقبك ندما . مستثقل من كراه ، ثمل من عناه طرقنى [ثناء ما تلتقى شفتاى بذكره ، ولا يثبت بالى لخطره] (٣) لست غفلا عن الدهر فتنكر نوائبه ، ولا مطيقاً له فتدفع مصائبه . قد تناسخت الأيام قواه ، وشذبت الحوادث هواه . تبدى وجه المطابق والموافق ، وتخفى نظر المسارق والمنافق . لو أن البرق فطنتهُ ؛ والريح جنبتهُ ، والسد سوره لتغشاه حسّى ، واستخرجهُ طلبى ولما خذلتهُ أنصاره ، وقطعته أرحامه ، وقعدت عنهُ أشياعه ، أوليتهُ من حمايتى عضدا ، ومن عنايتى مددا وجدتهُ أمدّ يداً من باعه ، وأبسط قعودا من قيامه . مكن موضع رجلك قبل مشيك ، وتأمل عاقبة فعلك قبل سعيك ، عصارة لؤم فى قرارة خبث ، غصن هصور بالموت ، معصور بالتراب . قد خفف همهُ بالشكوى وحل حزنهُ بالبكا ، كما حذيت النعل بالنعل . وقد الشراك على المثل ، يعدل عن النص إلى الخرص ، وعن الحس إلى الهجس . فى حكمـه صارم فصل ، وفى يده خاتم عدل . سديد المذاهب ، سعيد المناقب . نجيح المطالب . دلاه فى خطر ، وأسلمه إلى غرر . لازلت فى إقامة ممهدة الحشايا ، وحركة وطيئة المطايا ، دفعهُ إلى شفير ، وأطلعه على حقير . استدعى حضورى خاليا ، واستدنى مجلسى مكرما ، واستوفى مقال مصغيا ، وأعطانى معروفهُ مسمحا ، ونزل على مسألتى مسهلا ؛ وقضى حاجتى مجملا ، وصرفنى بالنجاح عجلا . طيب المغرس زاكى المنبت ، نضير المنشأ رفيع الفرع ، لذيذ الثمر . متقلب بين استقبال شباب ، واستقلال حال . وشرخ قصف ، وفتاء ظرف . وجدت فيه مصطنعا ، وبـه مستمتعا ، قد وفر همه على مطعم يجوده . ومرقد يمهده أنا أتذمم من استئصال

(١) ما بين الأقواس المربعة زيادة عن نسخه ب . (٢) البشم التخمة والسآمة .
(٣) ما بين الأقواس المربعة زيادة عن ب .

مثلك . وأهب جرمك لفضلك . من ضاف الأسد قراه أظفارَه . ومن حرّك الدهر أراه اقتداره . وجدت فيه مع علوّ سنه ، وأخذ الأيام من جسمه بقيةً حسنة ، ومتعة حلوة . التصرف أسنى وأعلى ، والتسليم أعفى وأصفى ، ومهما اخترت من الأمرين أمراً فعنايتى تحرسك فيه ، ونظرى يمكنك منه . لو لم يكن فى تهجين الرأى المفرد ، وتبيين عجز التدبير الأوحد ، إلاّ أن الاستلقاح وهو أصل كل شىء ، لا يكون إلاّ بين اثنين وأكثر الطيبات أقسام تجمع وأوصاف تؤلف .

ما اخرج من شعره فى جاريته تجنى

من ذلك قوله :

مرّت فلم تثنِ طرفها تيها ... يحسدُها الغصن فى تثنّيها
تلك تَجَنّى التى جننت بها ... أعاذنى الله من تجنيها

وقوله : ربّ ليل لبستُ فيه التصابى ... وخلعتُ العذارَ والعذلَ عنى
فى محلٍّ يحله لذةُ العيـ ... ـش ويجنى سروره من تجنى

وقوله : لى صديقٌ وُده لى صدوقٌ ... ويرعى الحقوق منى حقيقُ
ياتجنى كتمتُ ثم بدا لى ... أنت ذاك الصديق لى والرفيق
كلما سرتُ من فراقك ميلاً ... مال من مهجتى إليك فريق
فحياتى مصروفة فى طريقٍ ... للمنايا علىّ فيها طروق

وقوله : منيةٌ سابقتْ ورودَ البشير ... وموافٍ أوفى على التقدير
يا عروسًا زُفّتْ إلىّ فأهديـ ... ـت إليها رقّى مكانَ المهور .
بالتملى وبالرجا والسرور ... ياحياتى والمنزل المعمور
قد لعمرى وفيت لى وسأجزيـ ... ـك وفاءً بالشرط بعد النذور

وقوله : لقد واظبتُ نفسى على الحبّ فى الهوى ... بانسانةٍ ترعى الهوَى وتواظب
صفا لىَ منها العيش والشيبُ شامل ... كما كان يصفو والشباب مصاحب

ما اخــرج من شــعره فى الغــزل

فمن ذلك قوله :

أرانى اللّه وجـــــهكَ كل يوم ... صــبـــاحـًا للتــيــمن والســرور
وأمــتعَ ناظرى بصــحــيـفـتـيـه ... لأقـــرا الحـــسن من تلك السطور
وقــوله : يــامنـــى نفسى وياحـــ ... ـــبىَ مــن حـــــســن وطـيـب
ســـابقى بالوصل مــوتى ... أو مـــشـــيــبى ومــغــيــبى
فــهــو للفـــتــيـــان فى الـ ... ـدنيـــا بمرصـــادٍ قـــريب

وله فى غلام اسمه غريب :

رعى الرحـــمنُ قــومـًا ملكونى ... رشـــا قـــصـــرٍ بلغتُ به المرادا
وســمــوهُ مع القــربى غــريبـًا ... كنور العين ســمـــوه ســـوادا
وقوله : ربَّ ليــل قطعــتُ فيـه خمارى ... بغـــزال كــأنه مـــخـــمــور
ومـصـيـاد سرحت فــيـه ونصـر ... بازيـازيّ مظـفـــر منصـــور
بصــقـور مثل النجوم اذا انقــضّـ ... ـت وغُـضـف كـأنهنّ صـقـور [(١)]
وقوله : الــوردُ بـين مضمـخ ومضـرَّج ... والـزهرُ بـين مكـلل ومـتـــوج
والثلج يهـبط كـالنثـار فـقـم بنا ... نلتــذُّ بابنة كــرمــة لم تمـــزج
طلع النهـــارُ ولاح نورُ شــقـــائق ... وبـدتْ سطور الورد تـلـوَ بـنـفــســج
فكأن يومكَ فى غــلالةِ فـضــة ... والنبت من ذهب على فــيـــروزج
وقــولـه : يوم كـــأن ســمـــاءَهُ ... شـــبــهُ الحـــصـــان الأبرش
وكـــــأن زهـرة روضـــــه ... فـــرشت بأحـــسن مـــفـــرش
فـــســـمـــاؤه دكـن الخـــزو ... ز وأرضـــهُ خـــضــر الوشى

(١) الغضف : الـكلاب المسترخية آذانها .

كأنه أخذه من قول ابن الرومى :

يـومـنـا لـلـنـديم يـومُ سـرور والتـلذاذِ ونعـمـة وابتـهـاج
ذو سـمـاءٍ كـأدكن الخـزِّ قـد غـيـمت وأرض كـأخـضـر الديبـاج (١)

وقـوله : يا هلالا يبـدو فـيـزدادُ شـوقى وهزاراً يرنو فـيـزداد عـشـقى
زعـمَ الـنـاسُ أن رقِـك مـلـكـى كـذبَ الناسُ أنت مـالك رقى

وقـولهَ :

ألا يامنى نفـسى وإن كنت حـتـفـهـا ومعناىَ فى سرى ومغزاىَ فى جهرى
تصـارمت الأجـفـان منذ صـرمـتنى فـمـا تلتـقى إلا على عـبـرة تجرى

وقـوله : ياشـادناً جـدَّد حـبى لهُ من بعـد حب سـالف سـاجى(٢)
بلحـيـة قـد أوصلتْ جُـمـة مـثلَ اتصـال الطوق بالتـاج

وله فى غلام ناقه من علته :

نـهض العليل فـقـلت حـيـن بدا كـغـصن مـائل
طـلـع الـهـلالُ لـلـيـلـةٍ بضـيـاءِ بدرٍ كـامل

وقـوله : قـال لى من أحبُّ والبين قـد بد د دمـعى مـواصـلاً للشـهـيق
مـا الذى فى الطريق تصنعُ بعـدى قـلت أبـكـى عـليـكَ طولَ الطريق

وقـوله : لـولا تسـلىَّ بارتكـاضـى فى البـعـد والقـرْب والتـلاقى
ودفـعىَ الهـمَّ بالأمـانى فـارقتُ روحى مع الفـراق

وقـوله : ينـأى فـأشتطُّ وأنـوى لـهُ تـنـقـص الـدانـى عـلـى الـنـائـى
حـتى إذا بصـرته ذبت فى يـديـه ذوب المـلـح فـى المـاءِ

وقـوله : ولى حـبـيـب ألوذ فـيـه بأو صـافٍ وفـحـواه فـوق مـا أصف
كـالبـدر يعلو والشمسِ تشرق والـ ـغـزال يعطو والغـصنُ ينعطف(٣)

(١) الأدكن : المائل إلي السواد (٢) السالف : الماضى ، والساجى الساكن .

(٣) الغزال يعطو أى يتطاول بفيه إلى الشجر ليأكل منه .

وقوله : إن كنتِ أزمعتَ الرحيـ ـل فان عزمى فى الرحيل
أو كنت قاطعة أقمـ ـت وإن منعت لذيذ سؤلى
كالنجم يصحب فى المسيـ ـر ولا يزول لدى النزول

أخذه من قوله أبى تمام :

كالنجم إن سافرتَ كان مواكباً وإذا حططت الرحلَ كان جليسا

وقوله : عزمى وعزم عصابة ركاضة موصولة الإلجام بالإسراج
كالنبل عامدة إلى أهدافها والطير قاصدة إلى الأبراج

وقوله : وذى حسد لو حلَّ بى ما يريده لأصبح مفجوعاً بفيض بنانى
ولم أعطه جهلاً ولكن سحائبى تعمُّ ذوى الإخلاص والشنآن

وقوله : لأبى إسحق الصابى :

برِّد مصيفك وافرشه بميثرة فإننى لمقام الخلِّ أرتحل(١)
ألَذُّ كرَّى وان أضحى و يعجبنى أن تستريح وأن تكتنك الظلل الظل(٢)

وقوله : أوفي كلا وقتىَّ قسط تأله وقسط هوى لا يستمر لمحرم
ولذة وجدى من لذاذة مطربى أسر إلى نفسى وأعذب فى فمى

وقوله : يا عارفاً بالدَّاء مسـ ـط رح السؤال عن الدواءِ
العلم عنى كالغذا ءِ فهل تعيش بلا غذاءِ ؟

وقوله :

لو توسطت إذاً لم تترك وكففت القلب عن بعض الأرب
كان أرجى لك فى العقبى من أن تملأ الدلو إلى عقد الكرب

وقوله : هب البعث لم يأتنا نذره وجاحمة النار لم تضرم(٣)
أليس بكاف لذى فكرة حياء المسىء من المنعم

وقوله : يامن يسرُّ بلذة الدنيا ويظنها خلقت لما يهوى
لاتكذبن فإنها خلقت لينال زاهدها بها الأخرى

وقوله : بعثت إلى رب البرايا رسالة توسل لى منها دعاءٌ مناصح
فجاء جوابى بالإجابة وانجلت بها كرب ضاقت بهن الجوانح

(١) الميثرة ثوب يجلل به الثياب فيعلوها . (٢) ألذُّكرى أى ألتذ بكرى الكر هو الحرب والجلاد .
(٣) الجاحمة : المكان الشديد الحر والمراد بها جهنم .

الباب الخامس

في ذكر شعراء البصرة و محاسن كلامهم

القاضي التنوخي أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم

من أعيان أهل العلم والادب وأفراد الكرم ، وحسن الشيم . وكان كما قرأته فى فصل للصاحب : إن أردت فانى سبحة ناسك ، أو أحببت فانى تفاحة فاتك . أو اقترحت فانى مدرعة راهب ، أو آثرت فانى نخبة شارب . وكان يتقلد قضاءَ البصرة والأهواز بضعَ سنين ، وحين صرف عنه ورد حضرة سيف الدولة زائراً ومادحا ، فأكرم مثواه ، وأحسن قراه . وكتب فى معناه إلى الحضرة ببغداد . حتى أعيد إلى عمله ، وزيد فى رزقه ورتبته ، وكان المهلبى الوزير وغيره من وزراء العراق يميلون إليه جداً ، ويتعصبون له ويعدونه ريحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء . ويعاشرون منه من تطيب عشرته ، وتلين قشرتهُ . وتكرم أخلاقه ، وتحسن أخباره وتسير أشعاره ، ناظمةً حاشيتى البرِّ والبحر ، وناحيتى الشرق والغرب .

وبلغنى أنه كان له غلام يسمى نسيما ، فى نهاية الملاحة واللياقة ، وكان يؤثره على سائر غلمانه ، ويختصه بتقريبه واستخدامه ، فكتب إليه بعض من يأنس به يقول :

هل على من لامه مدغم لاضطرار الشعر فى ميم نسيم ؟

فوقع تحته نعم ولم لا ؟ !

ويحكى أنه كان فى جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ، ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة ، والتبسط فى القصف والخلاعة . وهم ابن قريعة وابن معروف ، القاضى التنوخى وغيرهم . وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ،

وكـذلك كـان الوزير المهلبى فـإذا تكامل الأُنس وطاب المجلس ولذ السمـاع وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتقلبوا فى أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووُضع فى يد كل واحد منهم كأس من ألف مثقال إلى ما دونها مملوءاً شرابا قطربليا أو عكبريا فيغمس لحيتهُ فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم على بعض ويرقصون أجمعهم ، وعليهم المصبغات ومخانقُ البَرَم [1] والمنثور ، ويقولون كلما يكثر شربهم هرهر ، واياهم عنى السرى بقوله:

مـجـالسُ ترقص القـضـاة بهـا　　إذا انتـشـوا فى مـخـانق البـرم
وصـاحب يخلط المجـون لنا　　بشـيـمـة حلوة من الشـيم
تخـضبُ بالراح شـيـبهُ عـبـثًا　　أناملٌ مـثـل حـمـرة العنم
حـتى تخـالُ العـيـونُ شـيـبتـهُ　　شـيـبة فـعـلان ضـرّجت بدم

فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى الترمث والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة ، وحشمة المشايخ الكبراء ، وقد أخرجت من غرر شعر التنوخى ما هو من شرط الكتاب فمن ذلك وصفُ الليل والنجوم **بقوله** :

ربُ ليل قطعـتـهُ كـصـدودِ　　وفـراق مـا كـان فـيـه وداع
مـوحش كـالثـقـيل تقـذَى به العيـ　　ـن وتأبى حـديثـهُ الأسـمـاع
وكـأنَّ النجـومَ بين دجـاهُ　　سننٌ لاح بينهـن ابتـداع
مـشـرقـات كـأنهن حِـجـاج　　تقـطع الخـصـمَ والظـلامُ انقطاع
وكـأن السـمـاءَ خـيـمـةُ وشيٍ　　وكـأنَّ الجـوزاءَ فـيـهـا شـراع
كـان ليـلاً فـصـيـرته نهـاراً　　كـتب تكبت العـدى ورقـاع

وقوله :

كـأنمـا المريخ والمشـتـرى　　قـدّامـه فى شـامخ الرفـعـه
منصـرف بالليل عن دعـوة　　قـد أسـرجـوا قـدامـهُ شـمـعـه

---

(١) البرم : نوع من الثياب .

وقوله (وعهدى بأبى بكر الخوارزمى يستظرفه) :

وجـــاء لا جـــاء الدجى كـــأنه من طلعـــة الواشى ووجـــه المرتقب
وفـــعل الظلامُ بالضـــيـــاء مـــا يفـــعله الحـــرف بأبناءِ الأدب

وقوله :

كــأن النجــوم الزهر فى غلس الدجى سنا أوجــهِ العــافين فى سُنة الرد
وقــد أبطأت خــيل الصــبـاح كـأنهـا بخــيل تبــاطا حين سيل عن الرفــد

وقوله ايضا :

وليلة مــشــتــاق كــأن نجــومــهــا قــد اغــتـصـبت عين الكرى وهى نوم
كــأن عــيــون الســاهرين لطولهــا إذا شـــخـــصـت للأنجم الزهر أنجم
كــأن ســواد الليل والفــجــر ضــاحك يلوح ويخـــفى أســـودٌ يتــبــســم

وقال في غور الكواكب عند الصباح

عــهــدى بهــا وضــيـاء الصبح يطفـيـهـا كــالسرج تطفــأ أو كــالأعين العــور
اعـــجبْ به حـين وافى وهى نيـــرة فظلٌ يطمـس منهـــا النور بـالنور

وقال في سائر الأوصاف والتشبيهات

بــات يســـقـــينى ويشـــرب ذهبًـــا للــهـمٌ مـــذهــب
شـــادن يحـــمـل مـــاء فـــيـــه نـار تـتـلـهـب
وردة ضـــــاحـكـة عـن أقـــحـــوان حين يـقـطـب
لـو أدرنـاهـا عـلـى مـــيـــت لــكـــان المـــيـت يـطـرب
لـيـت شـــعـــرى أســـرورًا أم مـــدامًـــا بت أشـــرب
صـب فـى الـكـاســـات منهـــا كـــالشـــهـــاب المتــصــوب
فـــرأيت الـراح شـــرقـــا ورأيـت الـهـم مـــغـــرب
غـــصن فـــوق كـــثـــيـب ونـهـــار تحـت غـــيـــهـب
لـــك مـــنـــه مـطـــرب يـــر ضـيك إن شـئـت ومـضـرب
جنة عـــذبت فـــيـــهـــا بـتـــجـــنٌ وتجـنـب
هـل رأيـتـم أحـــدًا قـــبـــ ـــلـىَ بـالجنـة عُـــذب

بأبى أنت وأمى | من بعيد حين تقرب
لىَ قلب كيف ما قلـ | ـبه الله يقلب
وجفون يغضب الغمـ | ـض عليها حين يغضب
رب ليل كتجنيـ | ـك مقيم ليس يذهب
قد قطعناه بعزم | كالحريق المتلهب
وكأنَّ البرق لمّا | لاحَ فيه بتنصب
كاتبٌ من فوق فرع الـ | ـغيم بالعقيان يكتب
وكأنَّ الرعد حادٍ | أو مناد أو مثوِّب
ونجومُ الليل وقّف | كلآل لم تثقبْ
وبدا البدرُ كسيف | فى يد الجوزاءِ مذهبْ

وقال وهو من قلائده :

وراح من الشمس مخلوقة | بدت لك فى قدَح من نهار
هواءٌ ولكنه ساكن | وماءٌ ولكنه غير جارى
إذا ما تأملتها وهى فيـ | ـه تأملتَ نوراً محيطًا بنار
وما كان فى الحق أن يجمعا | لبعد التدانى وفرط النِّفار
ولكن تجانس معناهما الـ | ـبسيطان فاتفقا فى الجوار
كأن المديرَ لها باليميـ | ـن إذا مال بالسقى أو باليسار
تدرَّع ثوبًا من الياسميـ | ـن لهُ فردُ كم من الجلّنار

وقال فى وصف دجلة والقمر :

لم أنس دجلة والدجى متصوِّب | والبدر فى أفق السماء مغرِّب
فكأنها فيه بساط أزرق | وكأنهُ فيها طراز مذهب

وقال أيضا فى الروض :

ورياض حاكت لهنَّ الثريا | حللا كان غزلها للرعود
نثر الغيث در دمع عليها | فتحلت بمثل در العقود
أقحوان معانق لشقيق | كثغور تعض وردَ الخدود

وعـيـون من نرجس تتـراءى كـعـيـون مـوصـولة التـسـهـيـد
وكـأن الشـقـيقَ حين تبـدى ظلمـةُ الصـدغ فى خـدود الغـيـد
وكـأن الندى عليـهـا دمـوع فى جـفـون مـفـجـوعـة بفـقـيـد

وقال فى البرد :

وليلةٍ تركَ البـردُ البـلادَ بهـا كـالقلب أشـعـر بأسًـا وهو مـثلوج
فـإن بسطت يداً لم تبـسـط خـصـرا وإن تقل لي فـقـول فـيـه تثليج (١)
فنحن منهُ ولـم نخـرس ذوو خـرَس ونحن منهُ ولـم نفلج مـفـاليج

وقال فيه أيضا :

وأمـا ترى البـردَ قـد وافت عـسـاكـرُه وعـسكر الحـرِّ كـيف انصـاعَ منطلقـا
والأرض تحت ضـريب الثلج تحـسـبـهـا قـد ألبـست حـبكًا أو غـشِّـيت ورِقـا
فـانهض بنار إلى فـحم كـأنهـمـا فى العين ظلم وأنصـاف قـد اتفـقـا
جاءت ونحن كـقلب الصب حين سلا برداً فـصـرنا كـقلب الصب إذ عـشـقـا

وقال من قصيدة كثيرة العيون ، وكان الصاحب يفضلها على سائر شعره ، ويرى أنها من أمهات قلائده :

أحـبب إلىّ بنهـر مـعـقل الذى فـيـه لقلبى من همـومى مـعـقلُ
عـذبٌ إذا مـاعبٌ فـيـه ناهل فـكـأنـه فـى ريـق حـبٌ يـنـهـل
مـتـسلسل وكـأنه لصـفـائه دمع بخـدّىْ كـاعب يتـسلسل
وإذا الرياح جـرين فـوق مـتـونه فكأنهُ درع عـلاها صـيـقل
وكـأن دجلة إذ يغطمط مـوجـهـا ملكٌ يعظّم خـيـفـةً ويبـجل
وكـأنهـا ياقـوتة أو أعين زُرق تـلائـم بـيـنـهـا وتـواصـل
عـذُبت فـمـا تدرى أمـاءً مـاؤها عند المذاقـة أو رحـيـقٌ سلسل
ولهـا بمدٍّ بعـد جـزر ذاهب جـيـشـان يدبر ذا وهذا يقـبـل
وإذا نظرت إلى الأبلة خلتـهـا من جنة الفـردوْس حين تخـيـل
كم منزلٍ فى نهـرها آلى السـرو رُ بأنهُ فى غـيـره لا ينـزل

---

(١) الخصر البارد وفى ط ، (وإن تقل فقولى فيه تثليج) .

وكأنما تلك القصور عرائس / والروض حلىٌّ فيه خودٌ ترفل
غنت قيانُ الطير في أرجائها / هزجًا يقل له الثقيل الأول
وتعانقت تلك الغصون فاذكرت / يومَ الوداع وغيرهم يترحل
ربعَ الربيعُ به فحاكت كفه / حُللاً بها عُقَدُ الهموم تحلل
فمدبِّج وموشح ومدنر / ومعمد ومحبر ومهلهل
فتخال ذا عينًا وذا ثغراً وذا / خداً يعضُّ مرَّة ويقبل

وكتب إلى الوزير المهلبى وقد منعه المطر من خدمته :

سحاب أتى كالأمن بعد تخوُّف / لهُ فى الثرى فعلُ الشفاءَ بمدْنف
أكبَّ على الآفاق إكبابَ مطرق / يفكر أو كالنادم المتلهف
ومد جناحيه على الأرض جانحًا / فراح عليها كالغراب المرفرِف
غدا البرُّ بحراً زاخراً وانثنى الضحى / بظلمته فى ثوب ليلٍ مسجف
يعبِّس عن برق به متبسم / عبوسَ نحيل فى تبسمِ معنف
تحاول منه الشمسُ فى الجو مخرجا / كما حاول المغلوب تجريد مرهف

اين هذا من قول ابن المعتز :

(تحاول فتقَ غيم وهو يأبى / كعنِّين يريدُ نكاحَ بكر)
فأترع ماءً قال وارد حوضه / أسلسال ماءٍ أم سلافة قَرْقف (١)
أتى رحمة للناس غيرى فإنهُ / عليَّ عذابٌ ماله من تكشف
سحاب عدانى عن سحاب وعارض / منعتُ به من عارض متكفكف

اخذه من قول الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك وهو :

لستُ أدرى ماذا أذم وأشكو / من سماءٍ تعوقنى عن سماءِ
غير أنى أدعو على تيك بالثكـ / ـل وأدعو لهذه بالبقاءِ

الجواب من الوزير المذكور :

أتتْ رقعةُ القاضى الجليل فكشّفت / وساوسَ محزون الفؤاد ملهف
فأهْدَتْ نظامًا من قريض كأنهُ / نظام لآل أو كوشى مفوّف

---

(١) القرقف الخمر يرعد عنها صاحبها .

تكامل فيه الظرفُ والشكلُ مثل ما ... تكامل في مهديه كلُّ التظرف
حوى منتهى الحسنى بأوّل خاطر ... يكلفه في الشعر تركُ التكلف

وقال في وصف قصيدة :

وقصيدة ألفاظها ... في النظم كالدرّ النثير
جاءت إليّ كأنها الـ ... ـتوفيق في كلّ الأمور
بأرقّ من شكوى وأحـ ... ـسنَ من حياة في سرور
لو قابلت أعمى لأضـ ... ـحى وهو ذو طرْف بصير
فكأنها أمل تحقـ ... ـق بعد يأس في الصدور
أو كالفقيد إذا أتت ... بقدومه بشرى البشير
أو كالمنام لساهر ... أو كالأمان لمستجير
أو كالشفاء لمدنف ... أو كالغنى عند الفقير
وكأنما هي من وصا ... ل أو شباب أو نشور
لفظٌ كأسر معاند ... أو مثل إطلاق الأسير
وكأنه إذ لاح من ... فوق المهارق والسطور (١)
وردُ الخدود إذا انتقلـ ... ـت به على درّ الثغور
غرر غدتْ وكأنها ... من طلعة الظبي الغرير
من كل معنى كالسلا ... مة أو كتيسير العسير
كتبتْ بحبر كالنوى ... أو كفر نعمى من كفور
في مثل أيام التوا ... صل أو كإعتاب الدهور
أهديتها ياخيرَ من ... يختار في كرم وخير

وقال في وصف كتاب :

وافى كتابك مثلما ... وافى لمفقود بشير
وكأنه الإقبالُ جا ... ءَ أو الشفاءُ أو النشور
وكأنهُ شرخُ الشبا ... ب وعيشه الغضُّ النضير
وافى وعِيرُ الليل وا ... قفة الركائب لا تسير

(١) المهارق : جمع مهرق كمكرم وهي الصحيفة .

فأضاءَ لي من كل فـ ـج منهُ فجرٌ مستنير
وارتدَّ طرف الدهر عني وهو مطروف حسير
ورأيت أفلاكَ السرو ر بكلٍّ ما أهوى تدُور
وفضضته فكأنهُ أثوابُ وشي أو حبير
خطٌّ وقرطاسٌ كأنـ ـهما السوالفُ والثغور
وكأنه ليل يلو ح خلالهُ صبحٌ منير
ما بين خطٍّ كالحيا ة إذا استتب لها السرور
وبدائعٍ تدعُ القلو ب تكاد من طرب تطير
في كل معنى للغني يحويه محتاجٌ فقير
أو كالفكاك ينالهُ من بعد ما يأس أسير
أو كالسعادة أو كما يتيسر الأمر العسير
فاسلمْ ودمْ مادام ذو سلم وما أرسى ثبير(١)

وكتب إلى أبي أحمد بن ورقاء قصيدة أولها مستحْسن جداً وهو :

أسير وقلبي في هواك أسير وحادي ركابي لوعةٌ وزفير
ولي أدمعٌ غزرٌ تفيض كأنها جَداً فاض في العافين منك غزير
وطرفٌ طريف بالسهاد كأنه لهاك وجيشُ الجود فيه مغير
رياضكمُ خضر يرفُّ نباتها ونوءكم رطبُ السحاب مطير
وجوهُ كأكباد المحبين رقةً ولكنها يومَ الهياج صخور

وكتب إلي بعض أصدقائه قصيدة منها :

كتبتُ وليلي بالسهاد نهارُ وصدري لورّاد الهموم صُدار
ولي أدمع غزر تفيض كأنها سحائب فاضتْ من يديك غزار
ولم أرَ مثلَ الدمع ماءً إذا جرى تلهب منهُ في المدامع نار
رحلتُ وزادي لوعةٌ ومطيتي جوانح من حرّ الفراق حرار
مسيرٌ دعاه الناس سيراً توسعا ومعنى اسمه إن حققوه إسار

---

(١) ذو سلم وثبير موضعان .

إذا رمتُ أن أنسى الأسى ذكرت به ... دياراً لها بين الضلوع ديار
لك الخير عن غير اختيارى ترحلى ... وهل لى على صرف الزمان خيار
وهذا كتابى والجفون كأنما ... تحكم فى أشفارهن شِفار

الغزل من شعره

قال :

حوَرٌ بعينيه أطال تحيرى ... تركَ الدموعَ كخده المتعصفر
غصن تأوّد فوق دِعص من نقا ... ليل تبلج عن نهار مسفر
كالشمس إلا أنه متنفس ... عن مسكة مبتسم عن جوهر
وأطال من ليلى وقصر ليلهُ ... أنى سهرت وأنهُ لم يسهر

وقال ايضا :

بأبى وجهك لو ... أشبهه منك الصنيع
أنتَ بدر ماله فى ... فلك الوصل طلوع

وقال ايضا :

رضاكَ شباب لا يليه مشيب ... وسخطك داء ليس منه طبيب
كأنك من كل النفوس مركب ... فأنت إلى كل النفوس حبيب

وقال فى أمرد جسيم :

قالوا عشقتَ عظيمَ الجسم قلت لهمْ ... الشمس أعظم جرم حازهُ الفلك
من أين أسترُ وجدى وهو منهتك ... ما للمتيم فى فتك الهوى درَك

وقال فيه :

لبستُ نحافةَ الغصن النحيف ... وذبت سوى ذماء فى ضعيف
بحورى المحاسن والمعانى ... وأنسى المخايل والأليف
لهُ فى كل عضو دعص رمل ... ثقيل الجسم ذو روح خفيف
أأعشقُ لا عشقتُ أخا نحول ... سوى أنى أخو الخلق الظريف
إذا لمسته كفى لم تلامس ... سوى جلد على عظم نحيف

ومما أنشدت له ولم أجده في ديوانه :

قلت لأصحابى وقد مرَّ بى منتقباً بعد الضيا بالظلمْ
باللّه يا أهل ودادى قفوا كى تبصروا كيف تزولُ النعم

ابنه أبو على المحسن ابن القاضى

هلال ذلك القمر ، وغصن هاتيك الشجر ، والشاهد العدل لمجد أبيه وفضله ، والفرع المثيل لأصله ، والنائب عنهُ فى حياته ، والقائم مقامهُ بعد وفاته ، وفيه يقول أبو عبد اللّه بن الحجاج :

إذا ذكر القضاةُ وهم شيوخٌ تخيرت الشباب على الشيوخ
ومن لم يرضَ لم أصفعهُ إلا بحضرة سيدى القاضى التنوخى

ولهُ كتاب الفرج بعد الشدة وناهيك بحسنه ، وإمتاع فنّه ، وما جرى من الفأل بيمنه ، لا جرم أنهُ أسير من الأمثال ، وأسرى من الخيال .

أخبرنى أبو نصر سهل بن المرزبان أنهُ رأى ديوان شعره ببغداد أكبر حجما من ديوان شعر أبيه، وأن بعض العوائق حال بينهُ وبين تحصيله حتى فاتهُ واشتد الأسف عليه ولو تقدر لهُ استصحابهُ كسائر الدواوين البديعة لكنت أتفسح فى الانتخاب منه ، ولكنى الآن مقل من شعره وسيقع لى ما أتكثر بهِ وألحق المختار منهُ بمكانهِ من هذا الباب بمشيئة اللّه تعالى وعونه .

ومما علق بحفظ أبى نصر المذكور وأنشدنيه للقاضى أبى على قولهُ وهو معنى ظريف ما أراه سبق إليه وهو :

خرجنا لنستسقى بيمن دعائه وقد كاد هدب الغيم أن يبلغ الأرضا
فلما ابتدا يدعو تقشعت السما فما تم إلا والغمام قد انفضا

وأنشدنى غيره له وأنا مرتاب به لفرط جودته وارتفاعه عن طبقته :

أقول لها والحى قد فطنوا بنا ومالى على أيدى المنون براح
لما ساءَنى أن وَحشتنى سيوفهم وانك لى دون الوشاح وشاح

ومما أنشده لنفسه فى كتاب الفرج بعد الشدة :

لئن أشمت الأعداء صرفى ورحلتى فما صرفوا فضلى ولا ارتحل المجد
مقام وترحال وقبض وبسطة كذا عادة الدنيا وأخلاقها النكد

كأنه نسج على منوال المتنبى حيث قال :

على ذا مضى الناسُ اجتماعٌ وفرقةٌ وميتٌ ومولود وقال ووامق

ومما ينسب إليه قوله لبعض الرؤساء فى التهنئة بشهر رمضان :

نلتَ فى ذا الصيام ما ترتجيه ورقاك الإله ما تنقيه
أنت فى الناس مثلُ شهرك فى الأ شهر بل مثل ليلة القدر فيه

وأنشدنى له غير ثقة وهو متنازَع :

قلْ للمليحة فى الخمار المذهَب أفسدت نسك أخى التقى المترهِّب
نور الخمار ونور وجهك تحته عجباً لوجهك كيف لم يتلهب
وجمعتِ بين المذهبين فلم يكن للحسن عن ذهبيهما من مذهب
فإذا بدت عينٌ لتسرقَ نظرةً قال الشعاعُ لها اذهبى لا تذهبى

وأما ابنهُ أبو القاسم علىّ فلم يبلغنى بعد شعره ، وقد بلغنى ذكره على لسان أبى الحسن على بن موسى الكرخى ، وقد أوردت ما أنشدنيه عنهُ لأبى المطاع ذى القرنين ابن ناصر الدولة أبى محمد فى باب الأمراء من بنى حمدان فليراجع .

ابن لنكك البصرى أبو الحسن محمد بن محمد

فرد البصرة وصدر أدبائها وبدر ظرفائها فى زمانه ، والمرجوع إليه فى لطائف الأدب وظرائفه طول أيامه ، وكانت حرفة الأدب تمسه وتجشمه ، ومحنة الفضل تدركه فتخدشه ، ونفسه ترفعه ، ودهره يضعه ، واتفق فى أيامه هبوب الريح للمتنبى وعلو رتبته ، وبعد صيته ، وارتفاع مقدار أبى رياش اليمامى ، وسمو نجمه ، ونفاق سوقه وفوزهما بالمراتب والحظوظ دونه وسعادتهما من الأدب بما شقى به وحصل أبوالحسن على ثلبهما ، والتشفى بذمهما ، والقعود تحت المثل السائر (أوسعتهم ذما وأودوا بالإبل) وأكثر شعره ملح وظرف ، خفيفة الأرواح ، تأخذ من القلوب بمجامعها ، وتقع من النفوس أحسن مواقعها ، وجلها فى شكوى الزمان وأهله ، وهجاء شعراء

أهل عصره ، وما أشبه شعره فى الملاحة وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة إلا بشعر كنية أبى الحسن بن فارس ، وأقدر أنه فى الجبال ؛ كهو فى العراق . وكان يقال فى منصور الفقيه إذا رمى بزوجيه قتل ، وكذلك ابن لنكك إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرب بما جلب ، وأبدع فيما صنع . فأما إذا قصد القصيد فقلما يفلح وينجح ، وبلغنى أن الصاحب كتب على ظهر جزء من شعر ابن لنكك :

شـــعـــر الظريف ابن لنكك ... مـــهـــذب ومـــحكك
مـــــذهّب وممسك ... بمثله يتـــمـــسك

ما اخرج من شعره فى الشكوى وذم الزمان واهله

قال :

يـازمـــانـاً ألبس الأحـــ ... ـــرار ذلا ومـــهـــانهْ
لستَ عندى بزمـــان ... إنمـا أنت زمـــانه
كيف نَرجو منك خيـراً ... والعـلا فيك مـهـانه
أجنونٌ مـــاتـراهُ ... منك يبـدو أم مـجـانه

وقال أيضا :

زمـانٌ رأينا فيـه كلَّ العجـائب ... وأصـبـحت الأذنابُ فـوقَ الذوائب
لو أن على الأفلاكِ مـا فى نفوسنا ... تهـافـتت الأفـلاكُ من كل جـانب

وقال أيضا :

عـجـائب فى زمـانك شـاهداتٌ ... على خـرَف من الفلك المحـيط
يرى مـتـيـقظاً مـا لا يراهُ ... إذا مـا نامَ آكلُ قنبـيط

لأن لهُ خاصية فى توليد السوداء ويرى أحلاما ردية .

وقال :

عـجـبتُ للدهر في تصـرفـه ... وكلُّ أفـعـال دهرنا عـجـب
يعـانـدُ الدهرُ كلَّ ذى أدبَ ... كأنما نـاك أمـهُ الأدبُ

وقال أيضا:

يقولون لى أصبحتَ فى العلم واحداً ... وفى الشعر والآداب ما لك ثانى
فقلتُ صدقتم أيها الناس إننى ... كذاكَ ولكنْ فى حِرامٍ زمانى

وقال أيضا:

مضى الأحرار وانقرضوا وبادوا ... وخلفنى الزمان على علوج
وقالوا قد لزمت البيت جدا ... فقلت لفقد فائدة الخروج
لمن ألقى إذا أبصرت فيهم ... قروداً راكبين على السروج
زمان عز فيه الجود حتى ... تعالى الجود فى أعلى البروج

وقال في المعنى نفسه:

جارَ الزمان علينا فى تصرفه ... وأى دهر على الأحرار لم يجر
عندى من الدهر ما لو أن أيسره ... يلقى على الفلك الدوار لم يدر

وقال أيضا:

نحن واللّه فى زمان غشوم ... لو رأيناه فى المنام فزعنا
يصبح الناس فيه من سوءِ حال ... حق من مات منهم أن يهنّا

وقال أيضا:

لامكث اللّه دنيانا فقيمتها ... ليستْ تفى عند ذى عقل بقيراط
دنيا تأبّت على الأحرار عاصية ... وطاوعتْ كل صفعان وضراط

وقال :

زمانٌ قد تفرغَ للفضول ... يسوِّد كل ذى حمق جهول
فإن أحببتم فيهِ ارتياحا ... فكونوا جاهلين بلا عقول

وقال أيضا:

إن أصبحت هممى فى الأفق عالية ... فإن حظى ببطن الأرض ملتصق
كم يفعل الدهر بى ما لا أسرّ بهِ ... وكم يسىء زمان جائر حنق
كم نفخة لى على الأيام من ضجر ... تكاد من حرّها الأيام تحترق

وقال ايضا :

نحن من الدهر في أعـــاجـــيب فنســـأل اللّه صـــبـــرَ أيوب
أقــفــرت الأرض من مـــحـــاسنهـــا فـــابك عليـــهـــا بكاء يعـــقــوب

وقال ايضا :

ذهب الذين يعـــاشُ فى أكنافـــهـم وبقـــيـت فى خلف بلا أكناف
بطيـــالس وقـــلانس مـــحـــشُّـوة يتـــعـــاشـــرون بقلة الإنصـــاف
مـــاشـئتَ من حـــال وفُـــرْهِ مـــراكب أبـوابُ دورهـم بـلا أجـــــــواف

وقال ايضا :

لا تخـــدعنكَ اللحى ولا الصـــورُ تســعـــةُ أعـــشـــار من ترى بقـــر
تراهم كـــالســحـــاب منتـشـــراً وليس فـــيـــه لطالب مطر
فى شـــجـــر الســرو منهم مـــثل لهُ رواء ومـــــالهُ ثـمـــــــر

كأنه أخذه من قول ابن الرومى

(فغدا كالخلاف يورق للعين ويأبى الإثمار كلَّ الإباء) .

وقال ايضا :

يا طالبـــاً بالعلم حظاً مـــســعـــدا فى ذا الزمـــان رأيت رأى مـــخـــرنق
إنفـــاق علم فى زمـــان جـــهـــالة ترجـــو ودهرُ عـــمى وســخف مطبق
كن ســاعـيـاً ومـصـافـعـاً ومـضـارطاً تنل الرغـــائب فى الزمـــان وتنفق
أو مـــا رأيتَ ملوك عـصـرك أصـبـحـوا يتـــجـــملون بكل قـــاض أحـــمق
لا تلق أشـبـاهَ الحـمـيـر بحكمـه مـــوِّه عليـــهم مـــا قـــدرت ومـخــرِق

وقال ايضا :

لـم يبق حـــرٌّ إليـــه يخـــتـلف بل كل ندل عليـــه مـــخـــتـلف
يـا فـلـكـا دار بـالـنـدالة والجـــهـــل إلـى كـم تـدورُ يـاخـــرفُ
فـــعـــاقـل مـــا يبلُّ أنمله وجـــاهل باليـــدين يغـــتـــرف

وقال ايضا :

لعنتم جـنـمـيـعـاً من وجـوه لبلدة تكنفـــهـم جـــهـل ولؤم فـــأفـــرطا
وإن زمـــانـا أنتـم رؤســـاؤهُ لأهل لأن يخـرى عليـــه ويضـــرطا
أراكـم تعـيـبـون اللئـام وإننى أراكـم بطرق اللؤم أهدى من القطا

وقال ايضا :

عـــــدنـا فـى زمــــانـنـا عــن طــريــق المــكــارم
مـن كـــفى النـاس شـــرّه فـــهـــو فـى جـــود حـــاتم

ما اخرج من شعره فى الهجاء لابى رياش

كان أبو رياش باقعة فى حفظ أيام العرب وأنسابها وأشعارها ، غاية بل آية فى هذّ دواوينها وسرد أخبارها مع فصاحة وبيان ، وإعراب واتقان ، ولكنه كان عديم المروءة ، وسخ اللبسة، كثير التقشف ، قليل التنظف . وفيه يقول أبو عثمان الخالدى :

كـــأنمـا قـــمـلُ أبـى ريـاش مـا بـين صـئـبـان قـفـاه الفـاشى
وذا وذا قـــد لحّ فـى انتـــفـاش شـــهـــدانجٌ دقّ فـى خـشـخـاش

وكان مع ذلك شرها على الطعام ، رجيم شيطان المعدة ، حوتى الانتقام ، ثعبانى الالتهام ، سيىء الأدب فى المواكلة ، دعاه أبو يوسف اليزيدى والى البصرة إلى مائدته يوما فلما أخذ فى الأكل مد يده إلى بضعة لحم فانتهشها ، ثم ردها إلى القصعة فكان بعد ذلك إذا حضر مائدتهُ أمر بأن يهيأ لهُ طبق ليأكل عليه وحده .

ودعاهُ يوما الوزير المهلبى إلى طعامه فبينما هو يأكل معهُ إذ امتخط فى منديل الغمر وبزق فيه ثم أخذ زيتونة من قصعة فغمزها بعنف حتى طفرت نواتها فأصابت وجهَ الوزير فتعجب من سوء شرهه ، واحتملهُ لفرط أدبه .

وفى شره أبى رياش يقول ابن لنكك ما هو فى نهاية الملاحة وحسن التعريض :

يطيـــر إلى الطعـــام أبو رياش مـــبــادرة ولو واراهُ قـــبـــر
أصـــابعــه من الحلواءِ صـــفـــر ولكن الأخـــادع منه حـــمـــر

وأنشدنى أبو عبد الله محمد بن حامد الخوارزمى قال : أنشدنى الصاحب لابن لنكك فى أبى رياش وكان يطعن على أبى نواس وأبى تمام :

يقــول ابن هانى أفــســد الشــعــر ضلة ... وشـــعـــــر أبى تمامكم هو أضــيـع
أبا الريش يا صـفـعـانُ صـفـعك واجب ... ولكن مـضى من كـان فى اللّه يصـفـع

وقال أيضا :

أبـو رياش بـغى والبـــغىُ مـــهـلكة ... فــشـــدّدوا العين ترمـــوه بآبدته (١)
عــبـــد ذليل هجـا للحينِ سـيـده ... تصـحـيف كنيـتـه فى صـدغ والدته

وقال فيه أيضا :

أأبـا ريـاش يـاقـــبـــيـحَ المنظر ... يا منكراً ينمى إلى مـــســـتنكر
تصـحـيف كنيـتك التى كنيـتـهـا ... فى است التى حـملتك تسـعـة أشـهـر

وقال فيه أيضا :

نبـــئت أن أبا رياش قـــد حـــوى ... علـم اللغـات وفـاقَ فـيـمـا يدعى
مَنْ مـــخـــبـرى عنهُ فـإنى سـائلُ ... من كـــان حنكة بأير الأصـــمـــعى

وقال فيه أيضا :

على القـــبح الفظيع أبو رياشٍ ... يعـــاشـــرنا بأخـــلاق مـــلاح
يبـــيح أكـــفـنا أبداً قـــفـــاهُ ... فـتـصـفـعـهُ على جـهـةِ المزاح

وقال فيه وقد ولى عملا بالبصرة :

قل لـلوضـــيـع أبى رياش لاتبَلْ ... تهْ كلُّ تيـــهك بالولاية والعـــمـل
مـــا ازددتَ حين وليت إلا خـــســـة ... كـالكلب أنجس مـا يكون إذا اغـتـسـل

ما أخرج من هجائه لجماعة من الأدباء والشعراء

أما هجاؤه للمتنبى فقد أوردتُه فى أخباره ولا وجه لاعادته ، وقد كان ورد البصرة من ديار ربيعة شاعر يكنى أبا الهيذام كلاب بن حمزة ، وكان ابن لنكك يتولع به ويبدع فى هجائه كقوله فيه :

نفـسى تقـيك أبَا الهـيـذام كلَّ أذى ... إنى بكل الذى ترضـــاه لى راضى
مـا بال جعـسك مـركـوبا على ذكـرى ... يا أكـرم الناس من باق ومن مـاضى (٢)
مـا كـان أيرى فـقـيـهـاً إذ ظفـرت به ... فكيف ألبـســتـهَ دنيـةَ القـاضى ؟

(١) الآبدة : الداهية .
(٢) الجعس : الرجيع .

وقال فيه أيضا :

حوى يوما أبو الهيذام أيرى ... وذاك بمثله أبدا حرىّ
فبرنس رأسه بالجعس حتى ... تنكر منه لى خلق وزى
فقلت هديت لم برنست إيرى ... فقال لات ايرك قرمطىّ

وقال أيضا :

أنت ابن البرايا لكن اقتصروا ... على اسم حمزة وصفا غير تشميخ
كدار بطيخ تحوى كل فاكهة ... وما اسمها الدهر إلا دار بطيخ

وقال أيضا :

يا من تطيب وهو من حرق استه ... قلق يكابد كل داء معضل
فشل الصيال وما عهدنا دبره ... مذ كان يفشل عن صيال الفيشل
وأراه فى الكتب الجليلة زاهدا ... لا يستجيد سوى كتاب المدخل
قبلته ولثمت فاه مسلما ... لثم الصديق فم الصديق المجمل
فدنا إلىّ على المكان وقال لى ... أفديك من متشوق متغزل
إن كنت تلثمنى بحق فاسقنى ... بلسان بطنك فى فمى من أسفل

وقال فى الرملى الشاعر :

لأم الشاعر الرملى صدغ ... صبور ما علمت على الدّباغ
فرغتُ ولم تكن فرغت فرامت ... إدامة نيكها حتى الفراغ
فقلت لها فديتك لا تجورى ... فليس على الرسول سوى البلاغ

وقال فيه أيضا :

ان الرميلى بليد خاطره ... يشعر ما دامت له دفاتره
فالشعراء كلهم خواطره

وقال فيه أيضا :

حلف الرملى فيما اقـ ... ـتص عنى وحكاه
يدعى يوم اصطلحنا ... أننى قبلت فاه
لم أقبلْ فاهُ لكن ... قبّلتْ نعلى قفاه

وقال في المبرمان النحوى (١) :

صداع من كلامك يعترينا وما فيه لمستمع بيان
مكابرة ومخرفة وبُهْت لقد أبرمتنا يا مبرمان

ما أخرج من شعره فى الغزل والشراب

قال :

حبيبٌ جفوتى فرضٌ عليه مفرّى فى لهوى منهُ إليه
إذا لحظاتهُ قتلت محباً تشحط منه فى دم وجنتيه

وقال أيضا :

أتطمعُ أن تحبَّ ولا جفونٌ مؤرّقةٌ ولا قلب جريح
فأين هوىً تذوب به وتبلى أراكَ تظنُّ أن الزمرَ ريح

وقال أيضا :

وروضٍ عبقرىٍّ الوشى غضٍّ يشاكلُ حين زخرف بالشقيق (٢)
سماء زبرجد خضراء فيها نجوم طالعات من عقيق
خليليَّ اسقيانى الراحَ صِرفاً إذاً وحريقُ قلبى بالرحيق
ذرانى قبل أن ألقى حِمامى أشوب بريق من أهواهُ ريقى

وقال أيضا :

قد شربنا على شقائقِ رَوْض شربت عبرةَ السحاب السكوب
صُبغت من دم القلوب فما تبـ ـصر إلا تعلقت بالقلوب

وقال أيضا :

أمرُ غدٍ أنت منهُ فى لَبْس وأمسِ قد فات فالهُ عن أمس
وإنما العيش عيش وقتك ذا فبادرِ الشمسَ بابنة الشمس

وقال أيضا :

أقول لصاحبى والراح روحى لجسم الكأس فى كف النديم
وقد حبس الدُّجى عنا بواك تسيلُ نفوسها فوق الجسوم

---

(١) ميرمان : لقب أبى بكر الأزمى النحوى .

(٢) الشقيق : زهر أحمر كشقيقة البرق .

وهو مأخوذ من قول ابن المعتز :

(قــالت كـبـرتَ وشـبـت قلتُ لهــا … هذا غــبــــــارُ وقـــائع الدهر)

وقال ايضا:

إذا خـــفقَ اللواءُ علىَّ يومــا … وقــد حـمل امـرؤُ القـيس اللواءَ
رجــوتُ اللّه لا أرجــو ســواهُ … لـعلَّ اللّـه يـرحـم مـن أســـاء

وقال ايضا:

إذا أخـو الحسن أضحى فعله سمجا … رأيتَ صــورته من أقــبح الصــور
وهبكَ كـالشـمس فى حُسْنٍ ألم ترنا … نفـر منهـا إذا مــالت إلى الضــرر

أخذه الصاحب فقال :

يقــــال تركت الذى حــسنه … يكاد يخـجِّل شـمس الضــحى
فـقلت وشـمس الضـحى تحـتـمى … إذا بسطت فى المصــيف الأذى

وقال ايضا:

نحن بالبـــصـــرة فى لوْ … ن من العـــــيش ظـريـف
نحن مــــاهبت شـــمـــال … بـــين جــنــات وريـــف
فـــــإذا هبت جنوب … فــكـأنـا فـى كـنـيـف

وقال ايضا:

ليْس فى البــصـــرة حـــرٌّ … لا ولا فــيــهـــا جـــواد
إنما البـــصـــرة أنـشـــا … ب ونخل وســـمـــاد (١)

ابنه أبو إسحق إبراهيم

شاعر مجيد لم يتصل بى من شعره غير ما أنشدته لهُ معارضاً قول أبيهِ :

وعـــصـــبـــةٍ لما توسطتــهم … صــارتْ علىَّ الأرضُ كــالخــاتم
كــأنهم من سوءِ أفـــهــامــهم … لم يخـــرجـــوا بعْــد إلى العـــالم
يضـــحك إبليس إذ زارهم … لأنـهـم عـــــار على آدم

(١) الأنشاب : جمع نشب وهو الحطب وشجر القسى .

بقوله :

لا تصلح الأرض ولا تستوى ... إلا بكم يا بقر العالم
من قال للحرث خلقتم فلم ... يكذب عليكم لا ولم يأثم
ما أنتم عار على آدم ... لأنكم غير بنى آدم

وقال أيضا:

وليلة أرقنى طولها ... فبتها فى حيرة الذاهل
كأنما اشتقت لإفراطها ... فى طولها من أمل الجاهل

وقال أيضا:

يا سفلا أوقظوا بختهم ... لكن عن الجود والندى ناموا
لا تكذبوا صحّ أنكم نعم ... عندكم للزمان أنعام

أبو عبد الله الحسين بن علي النمري

صاحب أبى رياش وابن لنكك ، وكان من صدور البصرة فى الأدب والشعر ، وقد جمع الحفظ الكثير الغزير ، والعلم القوى القويم ، والنظم الظريف المليح .

فمما سار من ذلك قوله من قصيدة فى ذى الكفايتين أبى الفتح ، وكان ورد عليه الرى فأحسن إليه ووصله بصلة حسنة فيها دراهم فى كل درهم منها خمسة دراهم ، وفيها أيضاً دنانير كل دينار ، منها بخمسة دنانير واستهلالها :

واهاً لأيام الصبابة واها ... بل آه من تذكارهن وآها
فالى الحرينة فالجنينة فالربى ... مغنى الأحبة حبذا مغناها (١)
روض كلفت بنوره وبنوره ... وربى ألفت هواءها وهواها
أصبو إلى أترابها وترابها ... ومهاة عيشى فى ظلال مهاها (٢)
فيهن شمس لا تروم عيوننا ... حدر العيون سناءها وسناها
نمرية من دونها مبتنمر ... أخشى شباه تارة وشباها
ماذا على النمر الكرام عشيرتى ... لو ضم بين فتاتها وفتاها

(١) الحرينة والجنينة موضعان .
(٢) المهاة الأولى البلورة الصافية .

فتيان صدق كالشموس تعودت قنصَ النفوس ظباؤها وظُباها
يامن لنفس شطرها في بلدة بذرى العراق وشطرها بسواها
ظمئى إلى حوّ الشفاه وإنما حوُّ الشفاه سقامها وشفاها (١)
ظمأ الهمام إلى المكارم والعلا وقد ارتوى منها كما أرواها
وجلست في النادي الذي حاز الندى من جنة دانٍ إليّ جناها
دارٌ عرفت بها معانقة الكرى وأخذتُ حظى لهوها ولهاها
عاتبتُ مكرمة الزمان فأعتبت فيها وناجيتُ السرورَ شفاها
ملكٌ أغرُّ وبركة لجية في روضة تعطى العيونَ رضاها
يحسبوك ذا المالَ الجزيلَ وهذه الـ ـماءَ المعين وهذه رياها
روضٌ إذا جرت الرياح مريضة في زهره استشفت به مرضاها
وإذا تقابلت الندامى وسطهُ سكر الصحاةُ كما صحا سكراها
يتسلسل الماءُ الزلال خلالهُ فتخالهُ الحيات خف سراها
تنسلُّ أو تنساب غيرَ لواذع فكأنما وشىُ الحباب رقاها
وأخذت من أقماره وشموسه من تبره ولجينه أشباها
من أبيض يقق وأصفرَ فاقع لو معن كن سلافة ومياها (٢)
قد ضوعفت زنة فزادت زينة يجلو القذى عنا جلاءُ قذاها
خيفت عليهن العيون فعوّذت باسم الإله وباسم شاهنشاها
يا ابن العميد عميد دولته الذي بلسانه وسنانه سناها
ما أنت إلا صحة مكلوءَة تتقاصر الأفهام دون مداها
فإذا مرضت ولا مرضت فإنه مرض الرياح يطيب فيه ثناها
لم تنسكَ الأمراضُ ذكرَ صنائع تولى وشكرَ صنائع تولاها
فاسلم لدولتك التي وطدتها ورعيتَ أولاها على أخراها

وله من قصيدة كتب بها إليّ وبأختها التي تقدمتها أبو سعيد بن دوست كعادته المشكورة في مهاداتي بطرائف الآداب التي تصلح لهذا الكتاب :

(١) الحوى : سواد في الشفة .
(٢) معن من ماع يميع أي سال .

سـرت النجـائب بالنجـائب ترمي الكواكب بالكواكب
ترمى تجـاهات المشـا رق من تجاهات المغارب
رغـبـاً إلى ملك تحكـ ـم في رغائبه الرغائب
ملك تبـوأ من عـلا ه في النواصي والذوائب
حيث السوابغ والسوا بق والنجائب والجنائب
يهب المنعمة الكوا عب والمطهمة السلاهب (١)

ومنها:

زرناك من أرض البصيـ ـرة شاحنين على شواحب (٢)
نرد المناهل كالمجـا هل والسباسب كالسبائب
لا رِيٌّ دون السُّرى والـ ـبحر الغطامط ذي الغوارب (٣)
بحر جواهره طوا ف في سواحله رواسب
لا دونها إلا اللجج الكوا رب لا ولا اللجج الكواذب (٤)
كم من ظباء بالبصيـ ـرة في المقاصر والسباسب
إنس ووحش يشتبهـ ـن سوى الذوائب والحقائب
أدم يقاسمن الأرا ك جناه والقضب الرطائب
فلإنسها أغصانه تجلو به برد السحائب
ولوحشها غضّ الجنى عبث المعازف والملاعب
نصطاد وحشياتها وتصيدنا الإنس الخراعب (٥)
يا رُبَّ يوم لي كظلـ ـك أو كظنك أو يقارب
رقت حواشيه وغا ب عين واشيه المراقب
قصرت لنا أطرافه قصر القناع عن الذوائب
وتبرجت لذاته للخاطبين وللخواطب
نزلت به حاجاتنا بين المحاجر والحواجب

(١) المطهمة: الخيول، والسلاهب: الطويلة.
(٢) الشواحب: النوق الهزيلة.
(٣) الغطامط: كثير الأمواج غزير الماء.
(٤) الكوارب: التي تحدث الكرب.
(٥) الخراعب: جمع خرعبة وهى الشابة الحسنة الخلق البيضاء الجسيمة الرقيقة العظم اللينة.

وكسوننى حللاً صقلن ... خواطرى صقل القواضب
حللاً كديباج الخدو ... د مطرّزات بالشوارب
فلتشكرن رياضنا ... جدوى سحابتك الصوائب
ولتنظمن لك القصا ... ئد كالقلائد للكواعب

المفجع البصرى

هو أبو عبد اللّه الكاتب ، له مصنفاتٌ كثيرة ، وهو صاحب ابن دريد والقائم مقامه بالبصرة فى التأليف والإملاء ، وفيه قيل :

إن المفجع ويله ... شرّ الأوائل والأواخر
ومن النوادر أنه ... يملى على الناس النوادر

كأنه من قول أبي تمام :

ومالكَ بالغريب يدٌ ولكن ... تعاطيكَ الغريبَ من الغريب

أو من قول الآخر :

ومن المظالم أن قعدْ ... تَ على المظالم يا فزاره

وأما شعره فقليل كثير الحلاوة ، يكاد يقطر منهُ ماءُ الظرف ، حكى أبو بكر الخوارزمى قال : قال لى اللحام أنشدنى المفجعُ لنفسه :

نامَ إذ زارنى الحبيب عناداً ... ولعهدى به ينيلك الرسولا
حسبتْ زورةٌ عليّ لحينى ... فافترقنا وما شفينا غليلا

فقلت فيه :

إن المفــجع فـــالعنوه مـــؤنث نَغل يدين ببـــغض أهل البـــيت
يهـــوى العلوقَ وإنما يلقـــاهم بمؤخـــر حيٍّ وقـــبل مـــيت

وأنشدنى أبو الحسين الشهرزورى الحنظلى ، قال أنشدنى المفجع لنفسه فى غلام له يكنى أبا سعد :

زفـــرات تعـــتـــادنى عند ذكـــرا ك وذكـــراك مـــا يريمُ فـــؤادى
وسروري قـد غـابَ عنى َ مـذ غـبـ ـتَ فـهل كنتـمـا على مـيـعـاد
حـــاربتنى الأيامِ فـيك أبا سـعـ ـدٍ بسيف الهـوى وسـهمِ البـعـاد
ليس لى مـفـزِع سـوى عـبـراتِ من جـفـون مكحـولة بالسـهـاد
فى سـهـادى لطول أنسى بذكـرا ك اعـتـيـاض عن الكرى والرُّقـاد
وبحـسـبى من المصـائب أنى فـى بـلاد وأنـتـم فـى بـلاد

وانشدني أبو نصر الروذباري الطوسي للمفجع:

ألا يا جـامع البـصـر ة لاخـــــربك اللّـه
وسـقى صـحـنك المز نَ من الغـيـث فـروّاه
فكم من عـاشق فـيك يرى مـايـتـمـناه
وكـم ظـبـى من الإنـس مليح فـيك مـرعـاه
نصـبـنا الفخَ بالعلمِ له فـيك فـصـدناه
بقـرآن قـرأناه وتفـسـيـر رويناه
وكم من طالب للشـعـ ـر بالشـعـر طلبناه
فـمـا زالت يدُ الأيا م حـتى لان مـشناه
،حـتي ثبّت السـرج عليـه فـركـبناه
ألا يا طالبَ الأمـر د كـذّب مـا ذكـرناه
فـلا يغـررْك مـا قلنا فَـمـا بالجـدّ قلناه
ولو كـان من البـعـ ـض بريًا حين نلقـاه
فـرح بالدرهم الضـر ب إليـه تتـلافـاه
فـبـالدّرهم يستـنز ل مـا فى الجـوّ مـأواه

ومن ملحه المشهورة قوله لانسان أهدى إليه طبقاً فيه قصب السكر وأترج ونارنج وأراه أبا سعد غلامه فقال :

إن شيطانك في الظر ... ف لشيطان مريد
فلهذا أنت فيه ... تبتدي ثم تعيد
قد أتتنا تحفة منـ ... ـك على الحسن تزيد
طبق فيه قدود ... وخدود ونهود

وقوله في غلام مغن جذر فازداد حسناً:

يا قمراً جدّر حتى استوى ... فزاده حسناً وزادت هموم
كأنما غنى لشمس الضحى ... فنقطته طرباً بالنجوم

وقوله ايضا:

سيدى أنت إنّ عبدك أمسي ... خافقاً قلبه خفوق الجناح
فاغتنم غفلة الرقيب وزره ... في رداءٍ من الدجى ووشاح

وقال ويروى لابن لنكك :

لنا سراج نوره ظلمة ... ليس له ظل على الأرض
كأنه شخص الامام الذى ... تبغي الهدى منه أولو الرفض

ومن ظريف قوله في الهجاء:

فسا على قوم فقالوا له ... إن لم تقم من بيننا قمنا
فقال لا عدت فقالوا له ... من نتن فيه ذا كما كنا

ووجدت بخط أبي الحسين علي بن احمد بن عبدان في مجموعه المسمى حاطب ليل للمفجع البصرى يقول :

أداروها وللّيل اعتكار ... فخلت الليل فاجأه النهار
فقلت لصاحبى والليل داج ... ألاح الصبح أم بدت العقار
فقال هى العقار تداولوها ... مشعشعة يطير لها شرار
فلولا أنني أمتاح منها ... حلفت بأنها فى الكاس نار

نصر بن أحمد الخبزارزى

كنت على طى شعره وذكره ، إما لتقدم زمانه أو سفسفة كلامه ، ثم تذكرت قرب عهده وتكلف ابن لنكك جمعَ ديوان شعره ، فسنح لى أن أضمن هذا الكتاب ، لمعاقد علقت بحفظى منه والإعراض عن التصفح لباقى شعره ، وترك الفحص عما يصلح للإلحاق بها من ملحه ، وعلى ذكره ، فقد بلغنى من غير جهة أنهُ كان أمياً لا يكتب ولا يتهجى ، وكانت حرفته خبز خبز الأرز فى دكانه بمربد البصرة فكان يخبز ، وينشد أشعاره المقصورة على الغزل والناس يزدحمون عليه ، ويتطرفون باستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وأمره ، وأحداث البصرة يتنافسون فى ميله إليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لقرب مأخذه وسهولته . وكان ابن لنكك على ارتفاع مقداره ينتاب دكانه ويسمع شعره ، فحضره يوماً وعليه ثياب بيض فاخرة فتأذى بالدخان وساءَ أثره على ثيابه ، فانصرف وكتب إليه :

لنصـــرٍ فى فـــؤادى فـــرطُ حب ينيف به على كل الصـــحـــاب
أتيناه فـــبـــخّـــرنا بخـــورا من السـعف المدخن بالتـــهـــاب
فـقـمـت مـبـادراً وحـسـبـت نصـرا يـريـد بـذاك طـردى أو ذهـابـى
فـــقـــال مـــتى أراك أبا حـــسين فـــقلت له إذا اتســـخت ثيـــابى

فلما قُرأتْ عليه الرقعة التى فيها هذه الأبيات ، أملى على من كتب له فى ظهرها هذه الأبيات :

منحت أبا الحـسين صـمـيم ودّى فـداعـبنى بألـفـاظ عـــذاب
أتى وثيـــابه كـــالشـــيب لوناً فـعـدن له كـريعـان الشـبـاب
وبغـضى للمـشـيب أعـد عندى سـواداً لونه لون الخـضـاب
فـإن يكن التـفـزز فـيـه فـخـراً فـلـم يـكـنـى الـوصـى أبـا تـراب

ويحكى أنه ما كشفَ قناع الغربة قط لقصور همته على المذكر دون المؤنث وشعره شاهد بذلك فمن النوادر أن شاعراً بزعمه يكنى أبا طاهر انتمى إليه وورد نيسابور بأشعار تناسب دعوتهُ وانتحل كثيراً من محاسن السريّ والخالديين وغيرهم من المحسنين ، الذين لم تقع أشعارهم بعد إلى خراسان حتى تقشر فلسهُ ، وظهر عواره وخزيهُ ، وجرى أمره على ما قال أحمد بن طاهر :

أظنُّ دعــوتهُ فى الشــعــر جــائزةً لهُ عليَّ كـمــا جــازتْ على النسب

وفيه يقول ابو بكر الخوارزمي :

يقــولُ نصــرُ أبى فــقلتُ لهم عندى بهــذا شــهــادةٌ حــسنهْ
نعمْ ولكنَّ أمــــه حـــملت من بعــد مــا مــات شــيخــهُ بسنه

فمن ملح نصر قوله :

خليليَّ هل أبصـرتما أو سـمـعتـمـا بأكـرمَ من مـولى تمشى إلى عـبـد
أتى زائراً من غـيـرِ وعـدٍ وقــال لي أصــونك عن تعليق قلبكَ بالوعــد
فــمـــا زال نجمُ الكأس بينى وبينهُ يدورُ بأفــلاكِ السـعــادة والسـعــد
فطوراً على تقــبــيل نرجِس ناظرٍ وطوراً على تعـضـيضِ تفّـاحـة الخدِّ

وقوله :

من يكـنْ يهــــواهُ للخَلْــ ــق فــإنى عَـبــد خُلْقــه
إنَّ حــــسنَ الخُلْـق أبـهـى للفــتى من حــسن خَلقــه

وقوله :

قـالوا عـشـقتَ صـغيـراً قلت أرتعُ فى رَوْض المحـاسن حـتى يُدْرِكَ الثـمــر
ربيعُ حـسْن دعـانى لافـتـتـاح هوى لمـا تـفــتـح منهُ النور والزهـر

وقوله :

وددت أنى بكفه قلم أو أننى مدة على قلمه
يأخذنى مرة ويلثمنى إن علقت منه شعرة بفمه

وقوله :

قد قلتُ إذ حانَ صبرى من كلفت به ولم يكن عنه لى صبر ولا جلد
إن كان شاركنى فى حبه وقح فالنهر يشرب منه الكلب والأسد

وقوله :

لا تعشقن ابنَ الربيع فإنه عندَ التجرُّد آية الآيات
وجه كعبّادان ليس وراءه لمحبه شيءٌ سوى الخشبات (١)

وقوله :

تتجنى على ذنبا وتعتلُّ بأن قد رأيت منى ذله
لعن اللّه قرية ليس فيها لفتى يطلب التعلة عله

وقوله :

ألم يكفنى ما نالنى فى هواكمُ إلى أن طفقتم بين لاهٍ وضاحك
شماتتكم بى فوقَ ما قد أصابنى وما بى دخولُ النار بل طنز مالك (٢)

وانشدني ابو القاسم الحسين بن محمد بن حبيب المذكور ، قال أنشدنى عبد السميع بن محمد الهاشمى ، قال أنشدنى نصر بن الخبزارزى لنفسه :

شاقنى الأهل لم تشقنى الدار والهوى صائرٌ إلى حيث صاروا
جيرة فرّقتهم غربة البيـ ـن وبين القلوب ذاك الجوار
كم أناس رعوا لنا حين غابوا وأناس جفوا وهم حضار
عرّضوا ثم أعرضوا واستمالوا ثم مالوا وأنصفوا ثم جاروا
لا تلمهم على التجنّى فلو لم يتجنوا لم يحسن الاعتذار

وانشدني ابو حفص عمر بن علي الفقيه لهُ من قصيدة :

وردَ الخدود ورمان النهود وأغـ ـصانُ القدود تصيدُ السادةَ الصيدا
شرطى إذا ما رأيت الخصر مختصراً والردفَ مرتدفا والقدَّ مقدودا

---

(١) عبادان جزيرة والخشبات موضع وراءها .

(٢) الطنز : السخرية والاستهزاء .

أبو عاصم البصرى

انشدني ابو سعيد نصر بن يعقوب لابي عاصم في اقتران الهلال والثريا والزهرة:

رأيت الهـــلال وقـــد أحـــدقـــتـــه　　نجـــوم الثـــريا لكي تـــســـبـــقـــه
فـــشـــبـــهـــتـــه وهو فى أثرها　　وبينهـــمـــا الزهرة المشـــرقـــه
بـقـــــــوس لـرام رمـى طـائـراً　　فـــأتبـع فـى أثـره يـنـدقـــه

وله في اقتران الهلال والزهرة:

قـــارن الزهرة الهـــلال وكـــانا　　فى افـتـــراق مـــا بين صـــدر هجـــره
فـــإذا مـــا تقـــارنا قلت طوق　　من لجين قـــد علقت فـــيـــه دره

وله فى الغزل :

يا بنفـــسى من إذا جـــمـــشـــتـــه　　نشـــر الورد عليـــه ورقـــه
وإذا مـــــــدت يـدى طـرتـه　　أفلتت منى وعـــادت حلقـــه

أبو الحسين الظاهر البصرى

انشدني أبو علي محمد بن عمر الزاهد. قال انشدني أبو الحسين الظاهر البصري لنفسه قوله:

نفـــسى الفـــداء لمن جـــاءت تودعنى　　يوم الفـــراق بقـلب خـــائف وجل
قد كنت فارقت روحى خوف فرقتها　　لكن حـــيـيت بطيب الضم والقـــبل

وله من قصيدة في مفصود:

كـأنما دمـه فى الطست حين جـرى　　صرف من الراح فى قـعب من الذهب
حـتى إذا رجـعـت فى كـمـه يده　　كالشمس غابت عن الأبصار فى الحجب
كـانت كـمـا قـال فى القـرآن خـالقنا　　واضـمم جناحك يا موسى من الرهـب

وله في وصف حية قتلها في بعض اسفاره :

عــرفت فى الأسـفــار مــا لـم أعــرف   من كل مـــوصـــوف ومـــالـم يوصف
آلـيــت لا أنـصــف مــن لــم يـنـصــف   ولا أفـــى دهـــرى لخـــلّ لا يـــفـــى
سـرت وصـحبى وسط قـاع صـفـصف   إذ أشــرفت من فـــوق طـود مــشــرف
رقـــشـــاء ترنو من قليـب أجـــوف   تومى برأس مـــثـل رأس المجـــدف
وذنـب مـنـدمـج مـــــعـــــقــف   حـــتى إذا أبـصـــرتـهـــا لاتـنـكـفى
علوتهـــا بحـــد ســـيف مـــرهف   فظل يجـــرى دمـــهـــا كـــالقــــرقف
أتلفتها لما أرادت تلفى

ابن الهيثم -٤٣٠ هـ

أبو على ، الحسن بن الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ) من أهم علماء المسلمين فى الطبيعة والرياضيات ، ينسب إليه ما لايقل عن مئة فى الرياضيات والفلك والفلسفة والطب ، أهمها كتابه فى البصريات المسمى « كتاب المناظر » الذى ضاع أصله ، وبقيت ترجمته اللاتينية التى قام بها جيرار الكريمونى Gerard of Cremon عام ١٥٧٢ ، وكان ذا أثر كبير فى تطور علم البصريات ، ويعتمد عليه كتاب العصور الوسطى فى البصريات كل الاعتماد ، وفيه خالف نظريات إقليدس وبطليموس القائلة إن العين ترسل أشعة بصرية إلى الأشياء المرئية ، وأجرى عدة اختبارات لقياس زاوية الانكسار وزاوية الانعكاس وفى بعض تجاربة وصل إلى الانعكاس النظرى للعدسات المكبرة ، التى تم صنعها فى إيطاليا بعد ذلك بثلاثة قرون .

ولابن الهيثم صفحات كتبها عن حياته ، وذكرها ابن أبى أصيبعة .

* * *

كتب ابن الهيثم في سنة ٤١٧ يقول :

إنى لم أزل منذ عهد الصبا مرتاباً فى اعتقادات هذه الناس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى ، فكنت متشككاً فى جميعه ، موقناً بأن الحق واحد ، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه . فلما كملت لإدراك الأمور العقلية ، انقطعت إلى طلب معدن الحق ووجهت رغبتى وحدسى إلى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون ، وتنقشع غيابات المتشكك المفتون ، وبعثت عزيمتى إلى تحصيل الرأى المقرب إلى الله جل ثناؤه ، المؤدى إلى رضاه الهادى لطاعته وتقواه ، فكنت كما قال جالينوس فى المقالة السابعة من كتابه فى حيلة البرء يخاطب تلميذه : لست أعلم كيف تهيأ لى ، منذ صباى ، ان شئت قلت باتفاق عجيب ، وان شئت قلت بإلهام من الله ، وإن شئت قلت بالجنون ، أو كيف شئت أن تنسب ذلك ، انى ازدريت عوام الناس واستخففت بهم ، ولم ألتفت إليهم ، واشتهيت ايثار الحق وطلب العلم ، واستقر عندى أنه ليس ينال الناس من الدنيا أشياء أجود ولا أشد قربة إلى الله من هذين الأمرين. قال محمد بن الحسن : فخضت لذلك فى ضروب الآراء والاعتقادات ، وأنواع علوم الديانات ، فلم أحظ من شىء منها بطائل ، ولا عرفت منه للحق منهجاً ، ولا إلى الرأى اليقينى

مـسلكاً مـجدداً . فـرأيت أننى لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصـرها الأمـور الحسـيـة ، وصورتها الأمور العقلية . فلم أجد ذلك إلا فيما قرره أرسطوطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والإلهيات ، التى هى ذات الفلسفة وطبيعتها ، حين بدأ بتقرير الأمور الكلية والجزئية والعامية والخاصية ، ثم تلاه بتقرير الألفاظ المنطقية وتقسيمها إلى أجناسها الأوائل ، ثم أتبعه بذكر المعانى التى تتركب مع الألفاظ فيكون منها الكلام المفهوم المعلوم ، ثم أفرد من ذلك الأخبار التى هى عنصر القياس ومادته فقسمها إلى أقسامها ، وذكر فصولها وخواصها التى تميزها بعضها من بعض ، ويلزم منه صدقها وكذبها ، ويعرض معه اتفاقها واختلافها وتضادها وتناقضها . ثم ذكر بعد ذلك القياس فقسم مقدماته ، وشكل أشكاله ، ونوع تلك الأشكال ، وميز من الأنواع ما لايلزم دائما نظاماً واحداً ، وأفردها مما يلزم أبداً نظاماً واحداً . ثم ذكر النتائج التى تلزم منها مع اقترانات عناصر الأمور التى هى الواجب والممكن والممتنع ، وبين وجوه اكتساب مقدمات القياس الضرورية والإقناعية وما هو من جهة الأولى والأشبه والأكثر ، وما يلزم من جهة العاداتوالاصطلاحات وسائر الأمور القياسية . وذكر صور القياس ، وفصل فصوله ، ونوع أنواعه ، ثم ختم ذلك بذكر طبيعة البرهان وشرح مواده ، وأوضح صوره ، وبين الشبه المغلطة فيه ، وكشف عن مستوره وخافيه . ثم تلا ذلك بالكلام فى الصناعات الأربع الجدلية والمرائية والخطبية والشعرية فأوضح من ذلك مايكون سببا مميزاً لصناعة البرهان من هذه الصناعات الأربع ، وفصلاً فاصلاً لها من جنسها ؛ ثم أخذ بعد ذلك فى شرح الأمور الطبيعية . فبدأ فى ذلك بكتابه فى السماع الطبيعى فقرر فيه الأمور المعلومة بالطبع التى لاتحتاج إلى برهان ، انما يؤخذ من الاستقرار والقسمة والتحليل ، وبرهن على بطلان الاعتراضات فيها ، وكشف عن أغلاط من شك فى شىء منها ، وكان مجمل كلامه فى ذلك على ستة أمور : المبادئ الكونية والطبيعية ، والمكان ، والخلاء ، وما لا نهاية له ، والزمان ، والحركة ، والمحرك الأول . ثم أتبع ذلك بكتابه فى الكون والفساد ، فأوضح فيه قبول العالم الأرضى الكون والفساد . ثم تلاه بكتابه فى الآثار العلوية وهى التى تعرض فى الجو كالسحاب ، والضباب ، والرياح ، والأمطار ، والرعد ، والبرق ، الصواعق ، وسائر ما يكون من أنواع ذلك . وذكر فى آخره أمور المعدنيات وأسباب كونها . ثم أتبعه بكتابه فى النبات والحيوان فذكر ضروب النبات والحيوان وطبائعهما ، وفصولهما ، وأنواعهما وخواصهما ، وأعراضهما . ثم أتبع ذلك بكتابه فى السماء والعالم فأبان عن طبيعة العالم وذاتيته ، واتصال القوة الإلهية به . ثم والاه بكتابه

فى النفس فتكلم على رأيه فى النفس ، ونقض آراء جميع من قال فيها قولا يخالف قوله واعتقد فى ذاتيتها اعتقاداً غير اعتقاده ، وقسمها إلى : الغاذية ، والحاسة ، والعاقلة . وذكر أحوال الغاذية ، وشرح أمور الحواس ، وفصل أسباب العقل . فذكر من ذلك ماكشف كل مستور ، وأوضح عن كل خفى . ثم ختم جميع ذلك بكتابه فيما بعد الطبيعة ، وهو كتابه فى الإلهيات فبين فيه أن الإله واحد ، وأنه حكيم لا يجهل ، وقادر لا يعجز ، وجواد لايبخل. فأحكم الأصول التى فيها يسلك إلى الحق فيدرك طبيعته وجوهره ، وتوحيد ذاته وماهيته.

فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى فى طلب علوم الفلسفة وهى ثلاثة علوم : رياضية ، وطبيعية، وإلهية. فتعلقت من هذه الأمور الثلاثة بالأصول والمبادىء التى ملكت بها فروعها ، وتوقلت بأحكامها من حيث انخفاضها وعلوها . ثم إنى رأيت طبيعة الإنسان قابلة للفساد ، متهيئة إلى الفناء والنفاد . وانه ، مع حدة الشباب وعنفوان الحداثة ، تملك على فكرة طاعة التصور لهذه الاصول ، فإذا صار إلى سن الشيخوخة وأوان الهرم قصرت طبيعته ، وعجزت قوته الناطقة مع إخلاق آلتها ، وفسادها عن القيام بما كانت تقوم به من ذلك . فشرحت ولخصت واختصرت من هذه الأصول الثلاثة ما أحاط فكرى بتصوره ، ووقف تمييزى على تدبره . وصنفت من فروعها ما جرى مجرى الإيضاح والإفصاح عن غوامض هذه الأمور الثلاثة إلى وقت قولى هذا ، وهو ذو الحجة سنة سبع عشرة وأربعمائة لهجرة النبى ، صلى الله عليه وسلم . وأنا ما مدت لى الحياة باذل جهدى ومستفرغ قوتى فى مثل ذلك متوخياً به أموراً ثلاثة ، أحدها افادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياتى وبعد وفاتى ، والآخر انى جعلت ذلك ارتياضاً لى بهذه الأمور فى اثبات ما تصوره وأتقنه فكرى من تلك العلوم ، والثالث أنى صيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم . فكنت فى ذلك كما قال جالينوس فى المقالة السابعة من كتابه فى حيلة البرء : إنما قصدت وأقصد فى وضع ماوضعته وأضعه من الكتب إلى أحد أمرين إما إلى نفع رجل أفيده إياه ، وإما أن أتعجل أنا فى ذلك رياضة أروض بها نفسى فى وقت وضعى إياه ، وأجعله ذخيرة لوقت الشيخوخة.

ثم شفعت جميع ما صنعته من علوم الأوائل برسالة بينت فيها أن جميع الأمور الدنيوية والدينية هى نتائج العلوم الفلسفية ، وكانت هذه الرسالة هى المتممة لعدد أقوالى فى هذه العلوم

بالقول السبعين ، وذلك سوى رسائل ومصنفات عدة حصلت لى فى أيدى جماعة من الناس بالبصرة والأهواز ضاعت دساتيرها ، وقطع الشغل بأمور الدنيا وعوارض الأسفار عن نسخها ، وكثيراً ما يعرض ذلك للعلماء . فقد اتفق مثله لجالينوس حتى ذكر ذلك فى بعض كتبه فقال : وقد صنفت كتباً كثيرة دفعت دساتيرها إلى جماعة من إخوانى ، وقطعنى الشغل والسفر عن نسخها حتى خرجت إلى الناس من جهتهم .

قال محمد بن الحسن : وان أطال الله لى فى مدة الحياة وفسح فى العمر صنفت وشرحت ، ولخصت من هذه العلوم أشياء كثيرة تتردد فى نفسى ويبعثنى ويحثنى على إخراجها إلى فكرى ، والله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريده ، وبيده مقاليد كل شيء ، وهو المبدىء المعيد . وهذا ما وجب أن أذكره فى معنى ما صنعته واختصرته من علوم الأوائل قصدت به مذاكرة الحكماء الأفاضل ، والعقلاء الأماثل من الناس كالذى يقول :

رب ميت قد صار بالعلم حياً ومبقّى قد مات جهلاً وغيا
فاقتنوا العلم كى تنالوا خلوداً لاتعدوا البقاء فى الجهل شيا

(الخفيف)

وهذان البيتان هما لأبى القاسم بن الوزير أبى الحسن على بن عيسى رضى الله عنهما ، وكان فيلسوفاً قالهما ووصى بأن يكتبا على قبره لم أقصد به مخاطبة جميع الناس لا غير الفاضل منهم ، وقلت فى ذلك كما قال جالينوس فى كتابه فى النبض الكبير : ليس خطابى فى هذا الكتاب لجميع الناس ، بل خطابى لرجل منهم يوازى ألوف رجال بل عشرات ألوف رجال ، إذ كان الحق ليس هو بأن يدركه الكثير من الناس ، لكن هو بأن يدركه الفهم الفاضل منهم ليعرفوا رتبتى فى هذه العلوم ، ويتحققوا منزلتى من إيثار الحق جل وعلا من طلب القربة إلى الله فى إدراك العلوم والمعارف النفسية ، ويعلموا تحققى بفعل ما فرضته هذه العلوم على من ملابسة الأمور الدنيوية ، وكلية الخير ومجانبة كلية الشر فيها ، فإن ثمرة هذه العلوم هو علم الحق والعمل بالعدل فى جميع الأمور الدنيوية ؛ والعدل هو محض الخير الذى يفعله يفوز ابن العالم الأرضى بنعيم الآخرة السماوى ويعتاض عن صعوبة ما يلقاه بذلك مدة البقاء المنقطع فى دار الدنيا ، دوام الحياة منعما فى الدار الأخرى . وإلى الله تعالى أرغب فى توفيقى لما فزت إليه ، وأزلف لديه .

إمام الحرمين أبو المعالي الجويني
(٤١٩ - ٤٧٨ هـ)

هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله بن حيويه الجوينى النيسابورى ، إمام الحرمين وكنيته أبو المعالى . ولد سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م فى بليدة تدعى أزاذْواد ، وهى قصبة كورة جوين من أعمال نيسابور . درس على والده وكان فقيهاً فى إحدى المدارس فى نيسابور ، ولما مات أبوه ، قعد مكانه للتدريس .

وتجمع المصادر كلها على أنه أقام بمكة والمدينة أربع سنوات ، وخلالها كان يدرس ويفتى ، ومن هذه الإقامة فى مكة والمدينة حيث الحرمان الشريفان جاءه لقب إمام الحرمين .

وعاد إلى نيسابور فى سنة ٤٥٥ هـ أو بعدها بقليل فى أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان السلجوقى وقربه نظام الملك وزير ألب أرسلان ، وبنى من أجله المدرسة النظامية بنيسابور ، وفيها جلس للتدريس ، وكان يحضر دروسه الأكابر والعدد الغفير من الطلبة ، وعين مشرفا على الأوقاف كما ذكر السبكى وابن عساكر وتقلد زعامة الشافعية . ومن مؤلفاته : نهاية المطلب فى دراية المذهب والورقات فى أصول الفقه ومغيث الخلق فى بيان الأحق ، ولمع الأدلة فى قواعد عقائد أهل السنة ، والشامل فى أصول الدين والإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد ، وهذا الأخير هو الذى اخترنا منه لإمام الحرمين.

كان الجوينى من أكبر علماء الكلام عند أهل السنة فى القرن الخامس الهجرى .

اهتم بشكل خاص بتجديد المصطلحات وتقديم الأسس العامة وبدقة الاستدلال .

تتضح عنده ضرورة النظر العقلى ووجوبه على الإنسان العاقل ، تناول حدوث العالم ورد على المخالفين ، وبحث وجود الله وصفاته ووحدانيته والنبوة والثواب والعقاب . وكان له تأثير كبير فى عصره والغزالى أحد تلاميذه .

بـاب
القول فى حدث العالم

اعلموا أرشدكم الله أن الموحدين تواطئوا على عبارات فى أغراضهم ، ابتغاء منهم لجمع المعانى الكثيرة فى العبارات الوجيزة .

فمما يستعملونه ، وهو منطوق به لغة وشرعاً ، العالم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى وصفة ذاته . ثم العالم جواهر وأعراض ، فالجوهر هو المتحيز وكل ذى حجم متحيز ؛ والعرض هو المعنى القائم بالجوهر ، كالألوان والطعوم والروائح ، والحياة والموت ، والعلوم والإرادات والقدر ، القائمة بالجواهر .

ومما يطلقونه الأكوان ؛ وهى الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ، ويجمعها ما يخصص الجوهر بمكان أو تقدير مكان .

والجسم فى اصطلاح الموحدين المتألف ؛ فإذا تألف جوهران كانا جسما ، إذ كل واحد مؤتلف مع الثانى .

ثم حدث الجواهر ينبى على أصول ؛ منها إثبات الأعراض ؛ ومنها إثبات حدثها ، ومنها إثبات استحالة تعرى الجواهر عن الأعراض ، ومنها إثبات استحالة حوادث لا أول لها . فإذا ثبتت هذه الأصول، ترتب عليها أن الجواهر لا تسبق الحوادث ، وما لا يسبق الحادث حادث.

فأما الأصل الأول ، فقد أنكرته طوائف من الملحدة ، وهو إثبات الأعراض ، وزعموا أن لا موجود إلا الجواهر . والدليل على إثبات الأعراض أنا إذا رأينا جوهراً ساكناً ، ثم رأيناه متحركا مختصاً بالجهة التى انتقل إليها ، مفارقاً للتى انتقل عنها ، فعلى اضطرار نعلم أن اختصاصه بجهته من الممكنات وليس من الواجبات ، إذ لا يستحيل تقدير بقاء الجوهر فى الجهة الأولى . والحكم الجائز ثبوته والجائز انتفاؤه ، إذا تخصص بالثبوت بدلا عن الانتفاء المجوَّز ، افتقر إلى مقتض يقتضى له الاختصاص بالثبوت ، وذلك معلوم أيضاً على البديهة .

فإذا تقرر ذلك لم يخل المقتضى من أن يكون نفس الجوهر ، إذ لو كان كذلك لاختص بالجهة التى فرضنا الكلام فيها مادامت نفسه ، ولاستحال عليه الزوال عنها والانتقال إلى غيرها ، فثبت أن المقتضى زائد على الجوهر . ثم الزائد عليه يستحيل أن يكون عدماً ، إذ لا فرق بين نفى

المقتضى وبين تقدير مقتض منفى . فإذا صح كون المقتضى ثابتاً زائداً على الجوهر ، لم يخل من أن يكون مثلاً له أو خلافاً ويبطل أن يكون مثلاً فإن مثل الجوهر جوهر ، ولو اقتضى جوهر اختصاصاً لجوهر غيره بجهة لاستحال اختصاصه بتلك الجهة ، مع تقدير انتفاء الجوهر الذى قدر مقتضياً ، وليس الأمر كذلك . ثم ليس أحد الجوهرين بأن يكون مقتضياً اختصاصاً أولى من الثانى .

فإذا ثبت المقتضى الزائد على الجوهر ، وتقرر أنه خلافه ، لم يخل من أن يكون فاعلا مختارا ، أو معنى موجبا ، فإن كان معنى موجبا ، تعين قيامه بالجوهر المختص بجهته ، إذ لو لم يكن له به اختصاص لما كان بإيجابه الحكم له أولى من إيجابه لغيره . والذى وصفناه هو الغرض الذى ابتغيناه .

وإن قدّر مقدِّر المخصص فاعلا ، والكلام فى جوهر مستمر الوجود ، كان ذلك محالا ؛ إذ الباقى لا يفعل ، ولابد للفاعل من فعل . فخرج من مضمون ذلك ثبوت الأعراض ؛ وهو من أهم الأغراض فى إثبات حدث العالم .

والأصل الثانى ، إثبات حدث الأعراض ، والغرض من ذلك يترتب على أصول . منها إيضاح استحالة عدم القديم ، ومنها استحالة عدم قيام الأعراض بأنفسها واستحالة انتقالها ، ومنها الرد على القائلين بالكمون والظهور . والأولى أن نطرد دلالة فى حدث الأعراض .

ونورد هذه الأصول فى معرض الأسئلة ، ونثبت المقاصد منها فى معرض الأجوبة ، فنقول :

الجوهر الساكن إذا تحرك فقد طرأت عليه الحركة ، ودل طرؤها على حدوثها ، وانتفاء السكون بطروئها يقضى بحدث السكون إذ لو ثبت قدمه لاستحال عدمه .

فإن قيل : بِمَ تُنكرون على من يزعم أن الحركة كانت كامنة فى الجوهر ، ثم ظهرت وانكمن لظهورها السكون ؟ . لو كان كذلك لاجتمع الضدان فى المحل الواحد ، وكما نعلم استحالة كون الشىء متحركا ساكنا ، فكذلك نعلم استحالة اجتماع الحركة والسكون .

ثم لو ظهرت الحركة والسكون مرّة واستكنْتْ أخرى ، لكان ذلك اعتوار حكمين عليه ، وذلك يتضمن ثبوت معنيين ، يقتضى أحدهما كون الحركة بادية ، ويقضى الآخر كونها مستكنة خافية ، فإن الدال على إثبات الأعراض تناوب الأحكام وتعاقبها عللى الجواهر .

ثم يلزم لو قدرنا الظهور والكمون (١) معنيين ، ظهورهما عند ظهور أثرهما ، ككمونهما عند كمون (٢) أثرهما ، ويتسلسل القول في ذلك ، ثم الحركة توجب كون محلها متحركا لعينها ، فلو جاز ثبوتها من غير أن توجب حكمها للزم تجويز ذلك أبدًا فيها ، وذلك يقلب جنسها ، ويحيل حقيقة نفسها .

بـاب الكلام فى المـوجـودات

والموجودات كلها على ضربين – قديم لم يزل ، ومحدَث لوجوده أوّل . فالقديم هو المتقدِّم فى الوجود على غيره . وقد يكون لم يزَل ، وقد يكون مُستفتَح الوجود (١) . دليل ذلك قولهم «بناء قديم» – يعنون أنه الموجود قبل الحادث بعده . وقد يكون المتقدِّم فى وجوده على ما حدَث بعده متقدماً إلى غاية (٢) ، وهو المحدَث الموقَّت الوجود . وقد يكون متقدماً إلى غير غاية ، وهو القديم ، جل ذكره ، وصفات ذاته . لأنه لو كان متقدماً إلى غاية يُوقَّت بها فيقال إنه قبل العالم بعام أو مائة ألف عام ، لأفاد توقيت وجوده أنه معدوم قبل ذلك الوقت – والله يتعالى عن ذلك! والمحدث هو الموجود عن عدم (٣) . يدل على ذلك قولهم « حدث بفلان حادث من مرض أو صداع » إذا وُجد به ذلك بعد أن لم يكن ؛ و « حدث به حدث الموت » ؛ و « أحدث فلان فى هذه العرصة بناءً » ، أى فعل ما لم يكن من قبل .

بـاب أقسـام المحـدثات

والمحدثات كلها تنقسم ثلاثة أقسام – فجسم مُؤلَّف ، وجوهر منفرد (٤) ، وعَرض موجود بالأجسام والجواهر . فالجسم هو المؤلَّف . يدل على ذلك قولهم « رجل جسيم » ، و « زيد أجسم من عمرو » ، إذا كثر ذهابه فى الجهات . وليس يعنون بالمبالغة فى قولهم « أجْسَمُ » و«جسيم » إلا كثرة الأجزاء المنضمّة والتأليف . لأنهم لا يقولون « أجسم » فيمن كثرت علومه وقدره وسائر تصرُّفه وصفاته غير الاجتماع ، حتى إذا كثر الاجتماع فيه بتزايد أجزائه قيل «أجسم » و «رجل جسيم » . فدل ذلك على أن قولهم « جسم » مفيد للتأليف . لأن معنى المبالغة فى الاسم والصفة مأخوذ من معنى الاسم ، لأن قولهم « أقتل » و « أضرب » مأخوذ من معنى قولهم « قاتل » و « ضارب » .

(١) أى لوجوده بداية .

(٢) إلى مدى محدود معلوم .

(٣) بعد أن لم يكن موجودا .

(٤) الجوهر الفرد أو المنفرد هو العنصر الذى لا يقبل الانقسام ، ومنه تتألف الأجسام .

والجوهر هو الذى يقبل من كل جنس من أجناس الأعراض عَرَضًا واحداً . لأنه متى كان كذلك كان جوهراً . ومتى خرج عن ذلك ، خرج عن أن يكون جوهراً . والدليل على إثباته علمنا بأن الفيل أكبر من الذرّة . فلو كان لا غاية لمقادير الفيل ولا لمقادير الذرة ، لم يكن أحدهما أكثر مقادير من الآخر ؛ ولو كانا كذلك ، لم يكن أحدهما أكبر من الآخر ، كما أنه ليس بأكثر مقادير منه .

باب الكلام فى الأعراض

والأعراض هى التى لا يصحّ بقاؤها . وهى التى تَعرض فى الجواهر والأجسام ، وتبطل فى ثانى حال (١) وجودها . والدليل على أن هذا فائدة وصفها بأنها أعراض قوله تعالى : « تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيا واللّهُ يُرِيدُ ٱلآخِرَةَ » . فسمّى الأموال أعراضاً إذ كان آخرها إلى الزوال والبطلان ؛ وقول أهل اللغة « عَرَض لفلان عارض من حُمّى أو جنون » ، إذا لم يدُم به ذلك . ومنه أيضاً قول اللّه تعالى ، إخباراً عن الكفار فى اعتقادهم فيما أظلّهم من العذاب أنه عارض لما اعتقدوا فيه أنه مما لا دوام له ، « قَالوا : هَذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا » .

باب الكلام فى إثبات الأعراض

والدليل على إثبات الأعراض تحرُّك الجسم بعد سكونه وسكونُه بعد حركته . ولابدّ أن يكون ذلك كذلك لنفسه أو لعلّة (٢) . فلو كان متحركاً لنفسه ، ما جاز سكونه . وفى صحة سكونه بعد تحرُّكه دليل على أنه متحرك لعلة هى الحركة . وهذا الدليل هو الدليل على إثبات الألوان والطعوم والأراييح ، والتأليف ، والحياة والموت والعلم والجهل ، والقدرة والعجز ، وغير ذلك من ضروبها .

ويدل على ذلك أيضاً أن الجسم لا يخلو من أن يكون متحركاً لنفسه أو لمعنى . ويستحيل أن يكون متحركاً لنفسه . لأن ذلك ، لو كان كذلك ، لوجب أن لا يوجد من جنسه فى ذلك الوقت إلا ما كان متحركاً. ألا ترى أن السواد ، إذا كان سواداً لنفسه ، لم يَجُز أن يوجد من جنسه

(١) فى الحالة التالية لحالة وجودها .

(٢) لسبب آخر غير ذاته .

ما ليس بسواد ؟ وفى علمنا بأنه قد يوجد من جنس الجواهر والأجسام المتحركة ما ليس بمتحرك دليل على أن المتحرك منها ليس بمتحرك لنفسه ، وأنه للحركة (١) ما كان متحركاً .

ومما يدل على ذلك علمنا بأن الإنسان تارةً يقدر على التحرّك ويعجز عنه أخرى . وقد ثبت أنه لابدّ لقدرته من تعلقٍ بمقدور . وكذلك القديم تعالى يقدر – على تحريك الجسم تارة وعلى تسكينه أخرى . فلا يخلو أن يكون مقدور القدرة على تحريك الجسم هو إحداث الجسم وإيجاده ، أو إحداث معنى فيه ، أو إعدامه ، أو إعدام معنى منه ، أو لا نفسه ولا معنى تعلق بنفسه (٢) . ويستحيل أن تكون القدرة على ذلك لا تعلُّق لها بمقدور ، كما يستحيل وجود علم لا تعلق له بمعلوم وذكر لا تعلق له بمذكور .

ويستحيل أن يكون مقدور القدرة هو إيجاد الجسم وإحداثه . لأنه إنما يتحرك فى الثانى من حال وجوده (٣) مع استحالة حدوثه وتجدُّده فى ذلك الوقت . ولأن ذلك ، إن كان كذلك ، فقد صحّ وثبت حدوث الجسم – وهذا و الذى نبتغيه بإثبات الأعراض .

ويستحيل أن يكون مقدورُ القدرة إعدامَ معنى من الجسم . لأن ذلك المعنى لا يخلو من أن يكون جسماً أو عرضاً . فإن كان جسماً ، أقرُّوا بجواز عدم الجسم ، فصح بذلك حدوثه لاستحالة عدم القديم عندنا وعندهم – وذلك ما أردناه . وإن كان عرضاً ، فقد أقرّوا بوجود الأعراض وعدمها بعد الوجود – وهذا ما رمْنا إثباته . ولأن عدم معنى من الجسم ليس بشىء يحدث ، ولا يُكتسَب . ومحال تعلُّق القدرة بما ليس بمعنى يحدث ولا يُكتسب ، فبطل هذا القول . ولأن الجسم ، لو تحرّك فى جهة بعينها وإلى محاذاة بعينها لعَدَمِ معنى منه – مع صحة تحرُّكه مع عدم ذلك المعنى إلى غير تلك الجهة والمحاذاة – لم يكن بأن يتحرك إلى الجهة والمحاذاة التى تحرّك إليها أولى من تحركه إلى غيرها . وفى العلم بكونه أولى بالتحرك إلى ما تحرّك إليه ، وأحقّ به فى ذلك الوقت ، دليل على بطلان هذا القول . ولأن الجسم أيضاً ، لو تحرك لعدم معنى مَنه ، لم يكن هو بالتحرك أولى من غيره من الأجسام . لأن ذلك المعنى الذى عَدِمَ منه ليس هو فيه ولا فى غيره ؛ فيجب لذلك تحرُّك كل ما ليس فيه ذلك المعنى . وفى العلم ببطلان هذا دليل على فساد هذا القول .

---

(١) أى أن تحرك المتحرك إنما هو بسبب الحركة وليس بسبب الجسم ذاته .

(٢) أى أن يكون مقدور القدرة ليس الجسم ذاته وليس معنى فيه .

(٣) المراد بعد أن يكون موجودا بالفعل .

ويستحيل أيضاً أن يكون مقدور القدرة على تحريك الجسم ما ليس هو نفس الجسم ولا معنى سواه . لأن ما ليس هو نفسه ولا معنى غيره ليسَ بشيء يصح أن يكون حادثاً أو مكتسباً ؛ فبطل أيضاً هذا الوجه . وصح بذلك أن قدرة القادر على تحريك الجسم قدرة على فعل معنى فيه أو اكتسابه . وهذا هو معنى قولنا : إن المتحرك كان متحركاً بالفاعل .

ويدل على أن قدرة الإنسان على التحرُّك لا يجوز أن تكون قدرةً على نفسه علمُنا وإيّاهم باستحالة كون الإنسان فاعلاً للأجسام ، وأنه لو صحّ أن يقدر على نفسه ، لصحّ أن يقدر على مثله. ومما يدل أيضاً على أنه لا يجوز أن يكون المتحرك متحركاً لا لنفسه ولا لعلة أن ذلك ، لو كان كذلك ، لصار قولنا فيه « إنه متحرك » لا فائدة تحته ، ولجرى مجرى تسميتنا زيداً زيداً — وذلك باطل . ولأن ذلك ، لو كان كذلك ، لم يكن هو بالتحرك أولى من غيره ، ولخرج قولنا «متحرك » عن أن يكون له مُثْبَتٌ به ومُخبَرٌ عنه — وإن كان إثباتاً وخبراً — لأنه غير راجع إلى نفس الجسم ولا إلى معنى سواه . وذلك باطل بالاتفاق . وهذا يُحيل أن يكون شيء من الأوصاف مُستَحقّاً لا للنفس ولا لعلة . وفي بعض ما أومأنا إليه دليل على إثبات الأعراض .

باب الكلام في إثبات حدث العالم

جميع العالم العُلويّ والسُّفليّ لا يخرج عن هذين الجنسين — أعني الجواهر والأعراض — وهو محدَث بأسره . والدليل على حدَثه ما قدّمناه من إثبات الأعراض . والأعراض حوادث . والدليل على حدوثها بطلان الحركة عند مجيء السكون . لأنها لو لم تبطل عند مجيء السكون ، لكانا موجودين في الجسم معاً ، ولوجب لذلك أن يكون متحركاً ساكناً معاً — وذلك مما يُعلَم فساده ضرورةً .

والدليل على حدوث الأجسام أنها لم تسبق الحوادث ولم توجد قبلها . وما لم يسبق المحدث محدَثٌ كهو (١) ، إذ كان لا يخلو أن يكون موجوداً معه أو بعده — وكلا الأمرين يوجب حدوثه. والدليل على أن الجسم لا يجوز أن يسبق الحوادث أنّا نعلم باضطرار أنه ، متى كان موجوداً ، فلا يخلو من أن يكون مُتماسَّ الأبعاض (٢) مجتمعاً ، أو متبايناً مفترقاً . لأنه ليس بين

---

(١) أي مثله .

(٢) متصل الأجزاء .

أن تكون أجزاؤه متماسّةً أو متباينةً منزلةً ثالثة . فوجب ألاّ يصحّ أن يسبق الحوادث . وما لم يسبق الحوادث ، فواجب كونه محدثاً ، إذ كان لابدّ أن يكون إنما وُجد مع وجودها أو بعدها . وأى الأمرين ثبت ، وجب به القضاء على حدوث الأجسام .

بـاب القول في إثبات الصانع

ولابدّ لهذا العالم المحدَث المصوَّر من محدث مصوِّر . والدليل على ذلك أن الكتابة لابد لها من كاتب ، ولابد للصورة من مصوِّر ، وللبناء من بانٍ ؛ وأنّا لا نشك فى جهل من أخبَرَنا بكتابة حصلت لا من كاتب ، وصياغة لا من صائغ ، وحياكة لا من ناسج . فوجب أن تكون صُوَر العالم وحركات الفلك متعلِّقةً بصانع صنعها ، إذ كانت ألطفَ وأعجب صنعاً من سائر ما يتعذّر وجوده لا من صانع من الحركات والتصويرات .

ويدل على ذلك أيضاً علمُنا بتقدُّم بعض الحوادث على بعض وتأخُّر بعضها عن بعض ، مع العلم بتجانُسها . ولا يجوز أن يكون المتقدّم منها متقدماً لنفسه وجنسه لأنه ، لو تقدّم لنفسه ، لوجب تقدُّم كل ما هو من جنسه . وكذلك لو تأخّر المتأخِر منها لنفسه وجنسه ، لم يكن المتقدمُ منها بالتقدُّم أولى منه بالتأخر . وفى العلم بأن المتقدم من المتماثلات لم يكن بالتقدُّم أولى منه بالتأخُّر دليل على أن له مقدّماً قدّمه وجعله فى الوجود مقصوراً على مشيئته .

ويدل على ذلك أيضاً علمُنا بصحة قَبول كل جسم من أجسام العالم لغير ما حصل عليه من التركيب ، وصحة كون المربّع منها مدوراً ، وكون المدور مربعاً ، وكون ما هو بصورة بعض الحيوان بصورة غيره ، وانتقالِ كل جسم من شكله إلى غيره من الأشكال . فلا يجوز أن يكون ما اختصّ منها بشكل معيّن مخصوص إنما اختصّ به لنفسه أو لصحة قبوله له . لأن ذلك ، لو كان كذلك ، لوجب قبوله لكل شكل يصح قبوله له . فى وقت واحد ، حتى يجتمع فيه جميع الأشكال المتضادة وفى فساد ذلك دليل على بطلان هذا القول ووجوب العلم بأن كل ذى شكل منها إنما حصل كذلك بمؤلّف ألّفه وقاصدٍ قصد كونه كذلك .

بـاب

والدليل على أنه ليس بفاعل لنفسه أن منه الموات والأعراض التى لا يصح أن تحيا ، والفاعل لا يكون إلا حيًا قادراً . ولأن الحيّ منه كان مواتاً فى بدْء أمره وجاهلاً بنفسه وكيفية تركيبه ، ولن يجوز أن يصنع المحكمات إلا حيّ قادر عالم . وليس يجوز أن يكون كل شيء منه فعل غيره، لأن المخلوق لا يفعل فى غيره شيئاً – وسنبيّن ذلك فيما بعد ، إن شاء اللّه . وأيضاً فإنه لو صح أن يفعل المحدَث غيره وما هو مثل له ، لصح أن يفعل نفسه ، إذ كانت بمعنى ما هو فعْل له ومن جنسه . ولما استحال ذلك بما قدمناه أولاً ، صح أن لجميع العالم خالقاً غيره ليس منه .

بـاب

ولا يجوز أن يكون صانع المحدَثات مُشبِهاً لها . لأنه لو أشبهها لكان لا يخلو أن يُشْبهها فى الجنس أو فى الصورة . ولو أشبهها فى الجنس ، لكان محدَثاً كهى (١) ولكانت قديمةً كما أنه قديم . لأن المشتبهيْن هما ما سدَّ أحدهما مَسَدَّ صاحبه وناب منابه . ودليل ذلك أن السوادَيْن المشتبهين يسدّان فى المنظر مسداً واحداً ، وكذلك البياضان والتأليفان . ولو أشبهها فى الصورة والتأليف ، لم يكن شيئاً واحداً ، ولوجب أن يكون له مصوِّرٌ جامعٌ لأن الصورة لا تقع إلا من مصوِّر لما قدمناه من قبل – ولوجب أن يكون من جنس الجواهر المتماسّة ، وأن يكون محدَثاً كهى ، وذلك محال .

بـاب

ولا يجوز أن يكون فاعل المحدثات محدَثاً ، بل يجب أن يكون قديماً . والدليل على ذلك أنه لو كان محدَثاً لاحتاج إلى محدِث ، لأن غيره من الحوادث إنما احتاج إلى محدِث من حيث كان (٢) محدَثاً . وكذلك القول فى محدِثه – إن كان محدَثاً – فى وجوب حاجته إلى محدِث آخر . وذلك محال ، لأنه كان يستحيل وجود شيء من الحوادث ، إذا كان وجوده مشروطاً بوجود ما لا غاية له من الحوادث شيئاً قبل شيء . وهذا هو الدليل على إبطال قول من زعم من أهل الدهر أن الحوادث لا أوّل لوجودها .

---

(١) مثلها .

(٢) بسبب كونه :

فصـــــل

في نفي الشعر من القرآن

قد علمنا أن الله تعالى نفى الشعر من القرآن ، ومن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : «وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » ، وقال فى ذم الشعر : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » ، إلى آخر ما وصفهم به فى هذه الآيات ، وقال : « وما هو بقول شاعر » .

وهذا يدل على أن ما حكاه عن الكفار ، من قولهم : « إنه شاعر » ، « وإن هذا إلا شعر » ، لابد من أن يكون محمولا على أنهم نسبوه فى القرآن إلى أن الذى أتاهم به هو من قبيل الشعر الذى يتعارفونه ، على الأعاريض (١) المحصورة المألوفة . أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم فى وصفهم إياهم بالشعر ، لدقة نظرهم فى وجوه الكلام ، وطرق لهم فى المنطق ، وإن كان ذلك الباب خارجا عما هو عند العرب شعر على الحقيقة . أو يكون محمولا على أنه أطلق من بعض الضعفاء منهم فى معرفة أوزان الشعر ، وهذا أبعد الاحتمالات .

فإن حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحا ، وذلك أن الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره ، وإذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه فى رأيهم وعندهم أقدر ، فنسبوه إلى ذلك لهذا السبب .

* * *

فإن زعم زاعم أنه قد وجد فى القرآن شعرا كثيرا ، فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت تام أو أبيات تامة ، ومنه ما يزعمون أنه مصراع ، كقول القائل :

قـــــد قلت لما حـــــاولوا سلوتى (هيــهــات هيــهــات لما توعــدون)

---

(١) أعاريض الشعر : أوزانه .

ومما يزعمون أنه بيت قوله :

(وجفان كالجواب ، وقدور راسيات)

قالوا هو من الرمل من البحر الذى قيل فيه:

ســــــــاكـن الـريـح نَـطُـوف　　المزن مُـنْـحـلّ الـعَـــــزَالِـى (١)

وكقوله :

(من تزكى فإنما ، يتزكى لنفسه)

كقول الشاعر من بحر الخفيف :

كـل يـوم بـشـــــــــــــه　　وغـــــد مـــــثـل أمــــــــــه

وكقوله عز وجل :

(ومن يتق اللّه يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب)

قالوا هو من المتقارب . . . وكقوله :

(ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا)

ويشيعون حركة الميم فيزعمون أنه من الرجز ، وذكر عن أبى نواس أنه ضمن ذلك شعراً وهو قوله:

وفــتـــيـــة فى مـجلس وجـــوههم　　ريحـــانهم قـد عـدمـوا التـشـقـيـلا
(دانيــــــة عليـــــهم ظلالـهــــا　　وذللت قطوفـــهـــا تذليــــلا)

وقوله عز وجل : ﴿ ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾

زعموا أنه من الوافر كقول الشاعر :

لنا غنم نســـوّقـــهـــا غـــزار　　كـأن قــرون جلتــهـا عـصى (٢)

---

(١) نَطوف : صيغة مبالغة من نطف بمعنى صب الماء أو أساله والمراد هنا ممطر والعزالى جمع عزلاء وهو مصب الماء من القربة ونحوها .

(٢) جلة : جمع جليل وهو المتقدم فى السن . نسوّقها : نحثها على السير . غزار :كثيرة .

وكقوله عز وجل :

« أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم »

ضمنه أبو نواس فى شعره ففصل ، وقال « فذاك الذى » ، وشعره :

وقـــرا مـــعلنا لـيــصـــدع قلبى والهوى يصدع الفؤاد السقيما : (١)
أرأيــت الــذى يــكــذب بــالـديــ ـن فـذاك الذى يدع اليـتـيـمـا

وهذا من الخفيف كقول الشاعر :

وفـــؤادى كـــعـــهـــده بسليــمى بهـوى لم يحل ولم يتـغـيـر (٢)

وكما ضمنه فى شعره من قوله :

سـبـحـان (من) سـخـر هذا لنا (حـقـا) ومـا كنا له مـقـرنين

فزاد فيه حتى انتظم له الشعر ، وكما يقولونه فى قوله عز وجل : « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا » ونحو ذلك فى القرآن كثير كقوله : « والذاريات ذروا فالحاملات وقراً ، فالجاريات يسراً » . وهو عندهم شعر من بحر البسيط .

والجواب عن هذه الدعوى التى ادعوها من وجوه :

أولها : أن الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن لوكانوا يعتقدونه شعراً ، ولم يروه خارجا عن أساليب كلامهم ، لبادروا إلى معارضته ، لأن الشعر مسخر لهم مسهل عليهم لهم فيه ما قد علمت من التصرف العجيب ، والاقتدار اللطيف ، فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ، ولا عولوا عليه ، علم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء فى الصنعة ، والمرمدون (٣) فى هذا الشأن ، وأن استدراك من يجىء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة فى ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم ، وزعمه أنه قد ظفر بشعر فى القرآن ذهب أولئك النفر عنه ، وخفى عليهم مع شدة حاجتهم إلى الطعن فى القرآن، والغض منه ، والتوصل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه ، لن يجوز أن يخفى على أولئك وأن يجهلوه ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل حقيق وإذا كان كذلك علم أن الذى أجاب به العلماء عن هذا السؤال سديد، وهو أنهم قالوا: إن البيت الواحد وما كان على وزنه

(١) صدع : شق .

(٢) لم يحل : لم يتغير .

(٣) المرمدون : الفقراء .

لايكون شعرا ، وأقل الشعر بيتان فصاعدا ، وإلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الإسلام . وقالوا أيضا : إن ما كان على وزن بيتين إلا أنه يختلف رويهما وقافيتهما فليس بشعر . . ثم منهم من قال : إن الرجز ليس بشعر أصلا ، لا سيما إذا كان مشطورا أو منهوكا ، وكذلك ما كان يقارنه فى قلة الأجزاء . . . وعلى هذا يسقط السؤال . . ثم يقولون : إن الشعر إنما يطلق متى قصد القاصد إليه ، على الطريق الذى يتعمد ويسلك ، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء، دون ما يستوى فيه العامى والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد ، فليس يكتسب اسم الشعر ، ولا صاحبه اسم شاعر ، لأنه لو صح أن يسمى كل من اعترض فى كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر ، أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض ، كان الناس كلهم شعراء . لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض فى جملة كلام كثير بقوله ما قد يتزن بوزن الشعر ، وينتظم انتظامه ألا ترى أن العامى قد يقول لصاحبه : « أغلق الباب وائتنى بالطعام » ، ويقول الرجل لأصحابه : « أكرموا من لقيتم من تميم » ، ومتى تتبع الإنسان هذا عرف أنه يكثر فى تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه . وهذا القدر الذى يصح فيه التوارد ليس يعده أهل الصناعة سرقة ، إذ لم تعلم فيه حقيقة الأخذ ، كقول امرىء القيس :

وقوفا بها صحبى على مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل (١)

وكقول طرفة :

وقوفا بها صحبى على مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ومثل هذا كثير . فإذا صح مثل ذلك فى بعض البيت ، ولم يمتنع التوارد فيه ، فكذلك لا يمتنع وقوعه فى الكلام المنثور ، اتفاقا غير مقصود إليه ، فإذا اتفق لم يكن ذلك شعرا . وكذلك يمتنع التوارد على بيتين ، وكذلك يمتنع فى الكلام المنثور وقوع البيتين ونحوهما . . فثبت بهذا أن ما وقع هذا الموقع لم يعد شعرا ، وإنما يعد شعراً ما إذا قصده صاحبه تأتى له ، ولم يمتنع عليه، فإذا كان هو مع قصده لا يتأتى له ، وإنما يعرض فى كلامه عن غير قصد إليه، لم يصح أن يقال: إنه شعر ، ولا إنّ صاحبه شاعر ، ولا يصح أن يقال : إن هذا يوجب أن مثل هذا لو اتفق من شاعر

(١) تجمّل : تجلّد ، وتحمل .

فيجب أن يكون شعرا ، لأنه لو قصده لكان يتأتى منه . وإنما لم يصح ذلك لأن ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعرا من أحد ، وما كان شعراً من أحد من الناس كان شعرا من كل أحد . ألا ترى أن السوقي قد يقول : « اسقني الماء يا غلام سريعا » . وقد يتفق ذلك من الساهى ، ومن لا يقصد النظم . فأما الشعر إذا بلغ الحد الذى بينا فلا يصح أن يقع إلا من قاصد إليه . وأما الرجز فإنه يعرض فى كلام العوام كثيراً ، فإذا كان بيتا واحداً فليس ذلك بشعر . وقد قيل : إن أقل ما يكون منه شعرا أربعة أبيات بعد أن تتفق قوافيها ، ولم يتفق ذلك فى القرآن بحال . فأما دون أربعة أبيات منه ، أو ما يجرى مجراه فى قلة الكلمات ، فليس بشعر ، وما اتفق فى ذلك من القرآن مختلف الروى ، ويقولون : إنه متى اختلف الروى خرج من أن يكون شعرا .

وهذه الطرق التى سلكوها فى الجواب معتمدة أو أكثرها ، ولو كان ذلك شعرا لكانت النفوس تتشوف إلى معارضته ، لأن طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد وأهله يتقاربون فيه ، أو يضربون فيه بسهم .

فإن قيل : فى القرآن كلام موزون كوزن الشعر وإن كان غير مقفى ، بل هو مزاوج متساوى الضروب (١) وذلك آخر أقسام كلام العرب . . قيل : من سبيل الموزون من الكلام أن تتساوى أجزاؤه فى الطول والقصر والسواكن والحركات ، فإن خرج عن ذلك لم يكن موزونا كقوله :

رب أخ كنت به مغتبطا ... أشد كفى بعرا صحبته (٢)
تمسكا منى بالود ولا ... أحسبه يزهد فى ذى أمل
تمسكا منى بالود ولا ... أحسبه يغير العهد ولا
يحول عنه أبدا ... فخاب فيه أملى

وقد علمنا أن هذا القرآن ليس من هذا القبيل ، بل هذا قبيل غير ممدوح ولا مقصود من جملة الفصيح ، وربما كان عندهم مستنكرا ، بل أكثره على ذلك .

وكذلك ليس فى القرآن من الموزون الذى وصفناه أولا ، وهو الذى شرطنا فيه التعادل والتساوى فى الأجزاء غير الاختلاف الواقع فى التقفية . . ويبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذى بينا ، وتتم فائدته بالخروج منه ، وأما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه .

(١) الضروب : جمع ضرب ، وهو القسم ، والتفعيلة الأخيرة فى بيت الشعر .

(٢) العرا : جمع عروة ، وهى ما يربط به .

رسائل إخوان الصفا

رسائل إخوان الصفا مجموعة رسائل تتكامل لتقدم رؤية عقلية لجماعة من مفكرى القرن الرابع الهجرى . كان « إخوان الصفا » جماعة سرية ، لم تعرف أخبارها ، وقيل إن هذه الجماعة تأسست بالبصرة وكان لها فرع ببغداد على أساس أهداف فكرية وسياسية . ويبدو أن عداءهم للنظام السياسى فرض عليهم السرية . تعد رسائل إخوان الصفا موسوعة علمية ، تضم رسائل فى الرياضيات والمنطق ، ورسائل فى العلوم الطبيعية ورسائل فى موضوعات ما وراء الطبيعة ورسائل فى موضوعات أخرى ، منها التصوف والتنجيم . وفى هذه الرسائل نجد تأثيرا واضحا لتراث اليونان على نحو ما كان معروفا فى إطار الحضارة العربية الإسلامية .

من رسائل إخوان الصفا*

اعلموا أيها الإخوان ، أيدكم الله وإيانا بروح منه ، أن الله ، تبارك وتعالى ، خلق الخلق وسوّاه ، ودبر الأُمور وأجراها ، ثم استوى على العرش وعلاه ، فكان ، من فضل رحمته وكمال جوده وتمام إحسانه ، أن اختار طائفة من عِباده واصطفاهم وقرّبهم وناجاهم ، وكشف لهم عن مكنون علمه وأسرار غيبه ، ثم بعثهم إلى عِباده ليدعوهم إليه وإلى جِواره ، ويخبروهم عن مكنونْ أسراره ، لكيما ينتهوا عن نوم الجهالة ، ويستيقظوا من رقدة الغفلة ، ويحيوا حياة العلماء ، ويعيشوا عيش السعداء ، ويبلغوا إلى كمال الوجود فى دار الخلود ، كما ذكر فى كتبه ووصف على ألسنة أنبيائه ، صلوات الله عليهم ، فقال : « خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش » ثم قال : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » ثم

* هذا النص من : رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، رسالة ماهية الطريق إلى الله عز وجل ، وكيفية الوصول إليه. بيروت ١٩٥٧ ، ٤ / ٥ - ١٣

قال : «بعث الله النبيين مبشّرين ومُنذرين وأُنزل معهم الكتاب » ثم قال : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

واعلمـوا أيهـا الإخـوان ، أيدكم الله وإيانا بروح منه ، أنه لا يمكن الوصول إلى هناك إلاَّ بخلّتين : إحداهما صفاء النفس ، والأُخرى استقامة الطريقة . فأما صفاء النفس فلأنها لُبُّ جوهر الإنسان ، فإن اسم الإنسان إنما هو واقع على النفس والبدن . فأما البدن فهو هذا الجسد المَرئىُّ المؤلف من اللحم والدم والعظام والعروق والعصَب والجلد وما شاكله ، وهذه كلها أجسام أرضية مُظلمة ثقيلة متغيّرة فاسدة . وأما النفس فإنها جوهرة سماوية روحانيّة حيّة نورانية خفيفة متحركة غيرُ فاسدة علاّمةٌ درّاكة لصور الأشياء ، وإن مثلَها فى إدراكها صُوَر الموجودات من المحسوسات والمعقولات كمثَل المرآة ، فإن المرآة إذا كانت مستوية الشكل مَجلوّة الوجه ، تتراءَى فيها صُوَر الأشياء الجسمانية على حقيقتها ؛ وإذا كانت المرآة مُعوجّة الشكل ، أرت صُوَر الأشياء الجسمانية على غير حقيقتها ، وأيضاً إن كانت المرآة صَدِئة الوجه ، فإنه لا يتراءى فيها شىء البتّة .

فهكذا أيضاً حال النفس ، فإنها إذا كانت عالمة ولم تتراكم عليها الجهالات ، طاهرة الجوهر لم تتدنّس بالأعمال السيّئة ، صافية الذات لم تتصدأ بالأخلاق الرديئة ؛ وكانت صحيحة الهمّة لم تعوَجّ بالآراء الفاسدة ، فإنها تتراءى فى ذاتها صُوَر الأشياء الروحانية التى فى عالمها ، فتدركها النفس بحقائقها ، وتشاهد الأُمور الغائبة عن حواسّها بعقلها وصفاء جوهرها ، كما تشاهد الأشياء الجسمانية بحواسّها ، إذا كانت حواسُّها صحيحة سليمة . وأما إذا كانت النفس جاهلة غير صافية الجوهر ، وقد تدنّت بالأعمال السيئة أو صَدِئت بالأخلاق الرديئة أو اعوَجّت بالآراء الفاسدة واستمرت على تلك الحال ، بقيت محجوبة عن إدراك حقائق الأشياء الروحانيّة ، وعاجزة عن الوصول إلى الله تعالى ، ويفوتها نعيم الآخرة كما قال الله تعالى : « كلاَّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .

واعلموا أيها الإخوان ، أيدكم الله وإيانا بروح منه ، أن حجابها عن ربها إنما هو جهَالتها بجوهرها وعالَمها ومبدئها ومعَادها ، وأن جهالتها إنما هى من الصَّدإ الذى تركّب على ذاتها من سُوء أعمالها ، وقبيح أفعالها ، كما قال تبارك وتعالى : « كلاَّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . وأما اعوجاجها فهو من أجل آرائها الفاسدة وأخلاقها الرديئة كما قال الله تعالى : «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» .

واعلموا أيها الإخوان ، أيدكم الله بروح منه ، أن النفس ما دامت على هذه الصفات فإنها لا تُبصر ذاتها ، ولا يتراءى فى ذاتها تلك الأشياء الحسنة الشريفة اللذيذة الشهية التى فى عالَمِها ، كما وصف الله فقال : « فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » وقال : «لاتعلم نفس ما أُخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

واعلموا أيها الإخوان ، أيدكم الله بروح منه ، أن النفوس ما لم تشاهد تلك الأشياء لا ترغب فيها ولا تطلبها ولا تشتاق إليها وتبقى كأنها عمياء ، كما قال الله تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

واعلموا أيها الإخوان ، أيدكم الله بروح منه ، أن النفس إذا عَميت عن أمر عالَمها ، وتوهمت أنه لا وجود لها إلاّ على هذه الحال التى هى عليها الآن فى دار الدنيا ، فتَحرص عند ذلك على البقاء فى الدنيا ، وتتمنى الخلود فيها ، وترضى بها وتطمئن إليها ، وتيأس من الآخرة وتنسى أمر المَعاد ، كما ذكر اللّه تعالى : « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » . وقال : « يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور » .

ثم إنها إذا ذُكِّرَت بوصية اللّه التى جاءت على ألسنة أنبيائه ، عليهم السلام ، لاتذكر شيئاً كما قال اللّه تعالى : « وإذا ذُكِّروا لا يذكرون » . ثم إنها تبقى فى عمايتها وجهالتها وطُغيانها إلى الممات ، مُصرّةً مستكبرة كأن لم تسمعها . فإذا جاءت سكرةُ الموت التى هى مفارقة النفسِ الجسدَ وتركُ استعمال الجسم ، وفارقته على كُره منها وبقيت عند ذلك فارغة من استعمال البدن وإدراك المحسوسات ، تراجعت إلى ذاتها لتنهض فلا يمكنها النهوض من ثِقَل أوزارها ومن أعمالها السيئة وعادتها الرديئة ، كما قال اللّه تعالى : « يحملون أوزارهم على ظهورهم » . فعند ذلك يتبيَّن لها أنها قد فاتتها اللذات المحسوسات التى كانت لها بتوسُّط البدن ، ولم تَحصُل لها اللذات المعقولات التى فى عالَمها ، فعند ذلك تبين لها أنها قد خسرت الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخُسران المُبين ، وقد انقضى .

الفصـل الأول

في الحث علي تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق

وأما الخلّة الأُخرى التى هى استقامة الطريق ، فإن كل قاصد نحو مطلوب من أُمور الدنيا فإنه يتحرّى ، فى مَقصده نحو مطلوبه ، أقربَ الطرقات وأسهلهَا مَسلكاً ، لأنه قد علم أنه إن لم يكن له طريق قريب ، فإنه يُبطىء فى وصوله إلى مطلوبه ، وأيضاً فإنه إن لم يكن الطريق سهلَ المَسلَك فربما يعوق البلوغَ إليه أَو يُتعِب فى سلوكه . وإن أقرب الطرقات ما كان على خط مستقيم ، وأَسهلهُا مَسلكاً هو الذى لا عوائق فيه ، فهكذا ينبغى أيضاً للقاصدين إلى الله تعالى بعد تصفية نفوسهم ، والراغبين فى نعيم الآخرة فى دار السلام ، والذين يريدون الصعود إلى ملكوت السماء والدخول فى جملة الملائكة ، أن يتحرُّوا فى مقاصدهم أقرب الطرقات إليه ، كما قال الله تعالى : « أُولئك تحرُّوا رشداً ». وقال سبحانه : «إن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به » . وقال تعالى: « قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » . ونحن نريد أن نبيِّن ما الطريقُ المستقيم الذى وصّانا به وأمرنا باتباعه على أَلسنة أنبيائه ، صلوات الله عليهم ، ونصف أيضاً كيف ينبغى أن نَسلُكه حتى نصل إلى ما وعدنا ربُّنا كما قال الله تعالى : « إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا قالوا نعم » . ولكن لا يمكننا بيانُ ذلك بالحقيقة إلاَّ بكلام موزون ، وقياس صحيح ، ودلائل واضحة ، على مثل بيان الله تعالى وسنَّة أنبيائه ، صلوات الله عليهم ، بالوصف البليغ لسائر آيات الله فى الآفاق وفى أنفسنا ، حتى يتبيَّن لهم أنه الحق ، كما قال الله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . وإذا فعلنا ذلك تفتحت أبواب العلوم المخزونة والأسرار المكشوفة التى لا يمسُّها إلاَّ المطهَّرون .

واعلموا أيها الإخوان ، أيدكم الله تعالي وإيانا بروح منه ، أنه لا ينبغى أن يتكلم أحد فى ذات البارى تعالى ، ولا فى صفاته بالحزْر والتخمين ، بل ينبغى له ألاَّ يجادل فيه إلا بعد تصفية النفس ، فإن ذلك يؤدّى إلى الشكوك والحيرة والضلال ، كما قال الله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ونحن نبتدىء ، أولاً قبل كل شىء ، فنبيِّن كيف ينبغى أن نصفِّى النفس من الأخلاق الرديئة التى اعتدناها من الصبا ، ونجعل لوصفنا ذلك

في رسائلنا الرياضية أبواباً شتى ، ونذكر في كل باب ضروباً من الأمثال ، لكيما يكون أوضح للبيان وأقربَ للفهم وأبلغَ في المَوعظة ، ثم بعد ذلك نَصف في هذه الرسائل أبواباً أُخَرَ يتبيَّن فيها ما الطريق المستقيم إلى الله عزَّ وجلَّ ، وكيف ينبغي أن تتبع بكلام موزون ودلائل واضحة ، ليكون منهاجاً للقاصدين ، وإرشاداً للمريدين ، ثم نبتدىء بعد هاتين الجهتين بالكشف عن الأمور الإلهية الخفيَّة والأسرار المخزونة مما قد عرفناه بإلهام الله تعالى ، أو مما قد استنبطنا من تفاسير كتب أوليائه وتنزيلات أنبيائه ، عليهم السلام ، ومما قد جرى على ألسنة الحكماء في إشاراتهم ورموزاتهم ، ومن سبب بَدء كون العالم بعد أن لم يكن ، ووقوع النفس وغرورها وخَلق آدم الأول وسبب عصيانه ، وحديثِ الملائكة وسجودهم لآدم ، وقصة إبليس والجانّ واستكباره عن السجود ، وشجرة الخُلْد والملك الذى لا يبلى ، وسبب أخذ الميثاق إلى ذُرِّيَّة آدم وأخبار القيامة والنَّفخ في الصور والبعث والنشور والحساب ، وفصل القضاء ، والجَواز على الصِّراط ، والنجاة من النار والدخول إلى الجنة ، وزيارة الرب تبارك وتعالى ، وما شاكل هذا من الأخبار المذكورة في كتب الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، وما حقائقُ معانيها ، لأن في الناس أقواماً عقلاء مميِّزين متفلسفين إذا فكروا في هذه الأشياء وقاسوها بعقولهم لا تتصوَّر لهم معانيها الحقيقية ، وإذا حملوها على ما يَدُلّ عليه ظاهر ألفاظ التنزيل ، لا تقبله عقولهم ، فيقعون عند ذلك في الشكوك والحيرة ، وإذا طالت تلك الحيرة بهم أنكروها بقلوبهم ، وإن كانوا لا يُظهرون ذلك باللسان مخافَة السيف .

وفي الناس أقوام ، دونهم في العلم والتمييز ، يؤمنون أنها الحق ، وأقوام آخَرون يأخذونها تقليداً ولا يتفكرون فيها ، وفي الناس طائفة إذا سمعوا مثل هذه المسائل نفَرت نفوسهم منها واشمأزُّوا عن ذِكرها ، وينسبون المتكلِّم أو السائل عنها إلى الكفر والزندقة والتكلُّف لما لا ينبغي .

فأولئك أقوام قد استغرقت نفوسهم في نوم الجهالة ، فينبغي للمُذكِّر لهم أن يكون طبيباً رفيقاً يُحسن أن يداويهم بأرفق ما يَقدر عليه من التذكار لهم بآيات الكتب الإلهية وما في أيديهم من أخبار أنبيائهم ، وما في أحكام شرائعهم من الحدود والرسوم والأمثلة ، فإن ذلك كلّه إشارات للنفس بتذكيرها ما قد غفلَت عنه من أمر معادها ومبدئها مثل مقادير الفروض على أعداد مخصوصة ، ومثل أحكام النبيين على شرائط معلومة ، ومثل تأديتها في أوقات معروفة ، ومثل التوجُّه إلى جهات مختلفة ، ومثل التعبُّد على فنون متباينة إن كان هؤلاء من أهل التوراة ، أو من

أهل الإنجيل ، أو من أهل القرآن ، فإن تعلّقهم بظاهر أحكام شرائعهم ، وحرصهم وعنايتهم بقراءة كتب أنبيائهم ، وإقرارهم بصواب ما فيها من الأحكام للدين والدنيا ، حُجَّةٌ للمُذكّرين لهم بعد ما جهلوه من أمر عالمهم ، وما قد نسوه من أمر معادهم ومبدئهم ؛ وشاهدٌ عليهم بما قد جحدوه من معانى هذه المسائل التى ذكرناها . وإن كان هؤلاء القوم المُنكرون لمعانى هذه المسائل من عَبَدة الأوثان والأصنام والنيران والشمس والكواكب وما شاكلها ، فإن فى كتب نواميسهم وصور هياكلهم وأحكام سُننهم أمثلةً أيضاً لذلك وإشاراتٍ إليها مثل ما فى الشرائع والأديان السماوية . لكن يحتاج أن يكون المُذكّرون لهم عارفين بها .

وإن فى الناس طائفةً إذا سمعوا مثل هذه المسائل تطلّعت هِمَمُ نفوسهم إلى أجوبتها ورغبت فى معرفة معانيها ، فإذا سمعوا الجواب عنها قَبلتها بلا حُجّة ولا برهان ، ولكن على التقليد . أُولئك قوم نفوسهم سليمة بَعدُ لم تتعوّج بالآراء الفاسدة ولم تستغرق بعدُ فى نوم الجهالة ، فيحتاج المُذكّر إلى أن يسلُك بهم طريقة التعليم إلى التدريج ، كما وصفنا فى الرسالتين الأُوليين اللتين وضعناهما للمتعلمين والمُريدين . فإذا تهذبت نفوسهم وصَفَت أذهانهم وقويت أفكارهم ، أُطلقت لهم أجوبة من هذه المسائل ببراهينها ، كما بيّنا فى الرسائل الخمس التى صورناها على صورة الإنسان ، وأوضحنا دلائلها بالمِثالات التى فى صورة الإنسان .

وفى النـاس طائفــة من أهـل العلم قـد نظروا فى بعض العلوم وأقرّوا بعض كتب الحكماء ، أو سمعوا من المتكلمين فى مناظرتهم ، ومن المتفلسفين والشرعيين جمعياً ، قد تكلموا فى مثل هذه المسائل وأجابوا عنها بجوابات مختلفة ، ولم يتفقوا على شيء واحد ولا صحّ لهم فيها رأى واحد ، بل وقعت بينهم فى ذلك منازعات ومناقصات ! كل ذلك لأنهم لم يكن لهم أصل واحد صحيح ولا قياس واحد مُستوٍ يمكن أن يجاب به عن هذه المسائل كلها من ذلك أو على ذلك القياس ، ولكن كانت أُصولهم مختلفةً وقياساتهم متفاوتةً غير مستوية .

واعلمـوا أيهـا الإخـوان ، أيدكم الله وإيانا بروح منه ، أن الجـواب على أُصـول مـختلفـة ، والحُكَم بقياسات متفاوتة ، تكون متناقضة غير صحيحة ، ونحن قد أجبنا عن هذه المسائل كلها وأكثرَ منها مِما يشاكلها من المسائل على أُصل واحد وقياس واحد ، وهو صورة الإنسان ، لأن

صورة الإنسان أكبر حجة لله على خلقه ، ولأنها أقربها إليهم ، ودلائلها أوضح وبراهينها أصح ، وهي الكتاب الذى كتبه بيده ، وهي الهيكل الذى بناه بحكمته ، وهي الميزان الذى وضعه بين خلقه ، وهي المكيال الذى يكيل لهم به يوم الدين ما يستحقونه من الثواب والجزاء ، وهي المجموع فيها صُوَر العالَمين جميعاً ، وهي المُختَصر من العلوم التى فى اللوح المحفوظ ، وهي الشاهد على كل جاحد ، وهي الطريق إلى كل خير ، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار .

وينبغى لمن يدّعى الرياسة فى العلوم الحقيقية ، ويقول إنه يحسن أن يجيب عن هذه المسائل التى تقدّم ذكرها ، أن يطلب منه الجواب على أصل واحد وقياس واحد ، فإنه لا يمكنه إلاّ أن يجعل أصله صورة الإنسان من بين صُور جميع الموجودات من الأفلاك والكواكب والأركان والحيوان والنبات وغير ذلك . وإن جعَل أصله أشياء غير صورة الإنسان ، فلا يمكنه أن يقيس بها سائر الموجودات ، ويجيب عن هذه المسائل إلاّ بمثل ما قِسنا عليه نحن وأجبنا عنه . وإذا فعل ذلك اتفق الجميع على رأى واحد ودين واحد ومذهب واحد ، وارتفع الخلاف واتضح الحق للجميع ، ويكون ذلك سبباً لنجاة الكل .

ونحن لا نرخص لأحد بالنظر فى مثل هذه الأشياء ولا السؤال عنها إلاّ بعد تهذيب نفسه بمثل ما قلناه ووصفناه فى هذين الكتابين ، اقتداءً بسُنَّة الله ، تبارك وتعالى ، كما أخبر وقال : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » وذلك أن موسى ، عليه السلام ، قام لياليها ، وصام نهارها ، حتى صفت نفسه ، فناجاه الله تعالى عند ذلك وكلمه .

ويروى عن النبى ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، أنه قال : « من أخلص العبادة لله أربعين يوماً ، فتح الله قلبه وشرح صدره ، وأطلق لسانه بالحكمة ، ولو كان أعجمياً غُلفاً (١) » .

فمن أجل هذا وجب على الحكماء ، إذا أرادوا فتح باب الحكمة للمعلمين ، وكشف الأسرار للمريدين ، أن يروضوهم أولاً ، ويهذبوا نفوسهم بالتأديب ، كيما تصفو نفوسهم ، وتطهر أخلاقهم ، لأن الحكمة كالعروس تريد لها مجلساً خالياً فإنها من كنوز الآخرة ، وإن الحكيم إذا

(١) الغلف : جمع أغلف ، ويقال قلب أغلف أى عليه غشاء . وفى نهاية الأثر فى صفته ، عليه الصلاة والسلام: يفتح قلوباً غلفاً ، أى مغشاة مغطاة . فلعل الحديث : أعجمياً أغلف ، أى أغلف القلب .

لم يفعل ما هو واجب فى الحكمة من رياضة المتعلمين قبل أن يكشف لهم أسرار الحكمة ، فيكون مثلُه فى ذلك كمثَل حاجب ملك أَذِنَ لقوم بُلهٍ بالدخول على الملك من غير تأديب ولا ترتيب ، فإنه يستحق العقوبة عليه إن فعل ذلك ، فإذا هو فعل ما قد يجب من تأديبهم ثم لم يفعلوا هم ولا قبلوا منه ، فقد برئ الحكيم من اللوم ، ولزمهم الذنبُ ، لأنك إذا قدّمت الطعام والشراب إلى الجائع فقد أشبعته ، فإذا هو لم يأكل حتى مات جوعاً فهو المأخوذ بدمه « ومن قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه » .

وفقك الله ، أيها الأخ البارّ الرحيم ، وإيانا للرشاد ، وسدّدك وإيانا وجميع إخواننا حيث كانوا فى البلاد ، إنه رؤوف بالعباد .

تمت رسالة ماهيّة الطريق إلى الله ، عز وجل ، وكيفية

الوصول إليه ، ويليها رسالة فى بيان اعتقاد

إخوان الصفاء

بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨ هـ)

أبو الفضل أحمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان ، وُلد ونشأ فى همذان ، وأخذ اللغة عن ابن فارس اللغوى الشهير ، ثم ضرب فى الأرض متنقلا ، وأخيرا ألقى عصاه بهراة حيث انتظمت أحواله ، وتوفى ولمـا يبلغ الأربعين من عمره . وكان نابغة فى الحفظ والذكاء ، وسرعة الخاطر ، وقوة البديهة . وقد بلغنا من مقاماته إحدى وخمسون مقـامة ، طبـعت لأول مـرة فى الآسـتانة عام ١٢٩٨ هـ ، وفى بيروت بشرح الإمام محمد عبده عام ١٨٨٩ م ، ثم توالت طبعاتها بعد ذلك . وإلى جانب المقامات له عدد من الرسائل تبادلها مع بعض معاصريه .

وسنورد له هنا من المقامات :

١ - المقامة القريضية .

٢ - المقامة الحلوانية .

٣ - المقامة الإبليسية .

ومن الرسائل :

١ - رسالته إلى أبى نصر بن المرزبان .

٢ - رسالته إلى أبيه الشيخ عبد الله بن الحسين بن يحيى .

٣ - رسالته إلى مستميح عاوده مرارا .

المقامة القريضية

حدثنا عيسى بن هشام[١] قال :

طرحتنى النَّوَى مطارحها[٢] ، حتى إذا وَطِئْتُ جُرْجَانَ[٣] الأقصى فاستظْهَرْتُ على الأيام بِضياعٍ[٤] أجلت فيها يد العمارة ، وأموال وقفتها على التجارة ، وحانوتٍ جعلته مثابة[٥] ، ورفقة اتخذتها صحابة ، وجعلتُ للدار حاشيتَي النَّهارِ[٦] ، وللحانوت ما بينهما ، فجلسنا يوما نتذاكر القريضَ وأهلَه ، وتِلْقَاءَنا شاب يجلس غير بعيد يُنصت وكأنه يفهم ، ويسكُتُ وكأنه لا يعلم ، حتى إذا مال الكلام بنا ميله ، وجر الجدال فينا ذيله ، قال : قد أصبْتُم عُذَيْقَهُ ووافيتم جُذَيْلَه[٧] ، ولو شئتُ للفظت وأفضت ، ولو قلت لأصدرت وأوردت ، ولجلوتُ الحقّ فى معرض بيان يُسْمِع الصُّمَّ ، ويُنْزِلُ العُصْمَ[٨] ، فقلتُ : يا فاضل ادْنُ فقد منَّيتَ ، وهات فقد أثنيت . فدنا وقال : سلونى أجبكم واسمعوا أعجبكم .

فقلنا : ماذا تقول فى امرئ القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعَرَصاتها[٩] ، واغْتَدَى والطَّيرُ فى وُكُنَاتِهَا[١٠] ، ووَصَفَ الخيلَ بِصِفَاتها ، ولم يقل الشِّعرَ كاسبًا ، ولم يُجد القول رَاغبًا ففضل منَ تفتَّق للحيلة لسانة[١١] ، وانتجع للرغبة بنانه[١٢] .

---

(١) عيسى بن هشام : هو الراوية فى مقامات الهمذانى .
(٢) طرحتنى النوى مطارحها : رمتنى الغربة مراميها .
(٣) جرجان : إقليم فى فارس .
(٤) ضياع : أراض وعقارات للاستثمار .
(٥) المثابة : المقام ومكان الاجتماع .
(٦) حاشيتا النهار : أوله وآخره .
(٧) العذيق : تصغير عذق : وهو كل غصن له شعب ، والجذيل : تصغير جذل وهو أصل الشجر الخشبى .
(٨) العصم : جمع أعصم وهو الوعل أو الظبى الذى فى رجله بياض .
(٩) العرصات : جمع عرصة وهي ساحة الدار .
(١٠) الوكنات : أعشاشها .
(١١) تفتق : انطلق .
(١٢) انتجع : ارتحل .

قلنا : فماذا تقولُ فى النَّابغَة؟ قال: يثْلبُ إذا حَنِق (١) ، ويمدَحُ إذا رَغِب (٢) ، ويعتذرُ إذَا رَهِب، فلا يَرْمِى إلاَّ صائبا .

قلنا : فماذا تقولُ فى زُهيْر ؟ قال: يذيبُ الشعْرَ والشعْرُ يذُيبُه، ويدعُو القولَ والسّحْرُ يجيبُه .

قلنا : فماذا تقول فىَ طرَفة ؟ قال : هو ماءُ الأشْعارِ وَطينَتها ، وكنْزُ القَوافى ومَدِينَتَها، ومات ولم تَظْهرْ أسرارُ دَفَائِنه (٣) ، ولم تفتح أغلاقُ خزائنه (٤) .

قلنا : فماذا تقولُ فى جَرير والفَرَزْدَق ؟ أيُّهما أسْبَق؟ فقال : جرير أرق شعرا، وأغْزَر غزْرا (٥) ، والفرزدق أكثر روما (٦) ، وأكرم قوما. وجرير إذا نسب أشجى، وإذا ثَلَب أرْدَى (٧) ، وإذا مدَحَ أسْنَى، والفرزدق إذا افْتَخَرَ أجْزَى (٨) ، وإذا احتقر أزرى، وإذا وصف أوفى.

قلنا : فما تقول فى المحَدثين من الشُّعراء والْمُتَقَدِّمين منهم؟ قال: الْمتقَدِّمون أشرفُ لفظًا وأكثر من المعانى حظًا ، والمتأخرون ألطفُ صُنْعًا وأرقُّ نَسْجًا .

قلنا : فلو أريتَ من أشعارك ، ورويتَ لنا من أخبارك، قال: خذهما فى معرض واحد، وقال:

أمـــا تـرَوْنى أتَغـــشَّى طِمْـــرًا ... ممتطيـا فى الضُّـرِّ أمْـرًا مُـرًّا (٩)

مُـضْـطَبِنًا على الَّليـالى غِـمْـرا ... مُلاقيـا منهـا صُـروفًـا حُـمْـرَا (١٠)

أقْـصَى أمـانِىَّ طلوعُ الشِّـعْـرَى ... فـقــد عنينا بالأمــانى دهرا (١١)

---

(١) يثلب : يسبُّ ويهجو .

(٢) رغب : طمع .

(٣) دفائنه : كنوزه وروائعه الخفية .

(٤) الأغلاق : جمع غَلَق ، وهو ما يغلق به الباب .

(٥) غزرا : وفرة وكثرة .

(٦) روما : طلبا .

(٧) أردى : أهلك .

(٨) أجزى : أغنى وأرضى.

(٩) أتغشى طِمْرا : ألبس ثوبا خلَقا .

(١٠) مُضطبنا : حاملا. غمرا: حقدا. الصروف الحمر: المصائب الشديدة .

(١١) الشعرى : كوكب يظهر فى شدة الحر .

وكان هذا الحُرُّ أعلى قَدْرًا ومــاءُ هذا الوجه أغلى سعرا
ضُربتُ للسَّرَّا قبابا خُضْرا في دار دارا وإوان كسرى [١]
فانقَلَبَ الدهرُ لَبْطنِ ظَهْرا وعاد عُرْفُ العَيْشِ عندي نُكْرا
لم يبق من وفري إلا ذكرا ثم إلي اليومِ هَلُمَّ جرًّا [٢]
لولا عجوز لي بسُرَّ مَنْ را وأفرخ دون جبال بصرى (٣)
قد جَلَبَ الدّهر عليهم ضُرًا قتلتُ يا سادةُ نفسي صَبْرا (٤)

قال عيسى بن هشام : فأنلتُه مَا تَاح[٥] ، وأعرض عنّا فراح ، فجعلت أنفيه وأثبته ، أنكره وكأنّي أعرفُه ، ثم دلَّتني عليه ثناياه[٦] ، قلت الإسْكَنْدريّ واللّه ، فقد كان فارقنا خِشْفًا[٧] ، ووافانا جِلْفًا[٨] ، ونهضتُ على إثْرِه ، ثم قبضتُ على خَصْرِه ، قلت : ألست أبا الفتح[٩] ؟ ألم نربك فينا وليداً ولَبِثْتَ فينا من عُمُرِكَ سنين ؟ فأى عجوز لك بسُرَّ من را ؟ فضحك إليّ وقال :

ويْحَكَ هذا الزمانُ زورُ فلا يُغرنك الغرورُ
لا تَلْتَزِمْ حالةً ولكن دُرْ بالليالي كما تدور

---

(١) السَّرَّا : السراء والرخاء . دارا وكسرى : من ملوك الفرس .

(٢) الوفر : الغنى ، هلمّ جرًا : مستمرا إلى الآن .

(٣) سُرَّ مَنْ را: سُرّ من رأى (سامرّاء الآن) المدينة التي أنشأها المعتصم عاصمة لخلافته. بصرى:من مدن الشام.

(٤) قتل نفسه صبرا : حبسها على القتل حتى تقتل .

(٥) ما تاح : ما تهيأ وحضر .

(٦) ثناياه : مقدم أسنانه .

(٧) الخشف : ولد الظبي .

(٨) الجلف : الجافي الخشن الغليظ .

(٩) أبو الفتح الإسكندري : بطل مقامات بديع الزمان .

المقامة الحُلْوانية

حَدَّثنا عيسى بنُ هِشامٍ قالَ : لَمَّا قَفَلْتُ مِنَ الحجِّ فيمَنْ قَفَلَ (١) ، ونزلْتُ حُلْوانَ (٢) مع مَنْ نَزلَ ، قُلْتُ لغُلامي : أجِدُ شَعْرِي طويلاً ، وقد اتَّسخَ بدَني قليلاً ، فاخْتَرْ لَنا حمَّامًا نَدخُلُه ، وحَجَّامًا نَستَعمِلُه . ولْيكُنِ الحَمَّامُ واسِعَ الرُّقعَةِ (٣) ، نظيفَ البُقْعَةِ ، طيِّبَ الهَواءِ ، مُعتَدِلَ الماءِ . ولْيكُنِ الحَجَّامُ خفيفَ اليَدِ حَديدَ (٤) المُوسَى نظيفَ الثيابِ قليلَ الفُضُولِ . فَخرجَ مليًّا (٥) ، وعادَ بطيًّا ، وقالَ : قد اخترتُه كما رسمْتَ . فأخذْنا إلى الحَمَّامِ السَّمْتَ (٦) ، وأتيناه فلَم نَرَ قوامَه (٧) ، لكنِّي دخلْتُه ، ودخلَ على أثري رجلٌ وعمَدَ إلى قطعةِ طينٍ فلَطَخَ بها جَبيني ، ووضعَها على رأسي . ثُمَّ خرجَ ودخلَ آخرُ فجعلَ يَدلُكُني دَلكًا يَكُدُّ العِظامَ (٨) ، ويَغمِزُني غَمزًا يَهُدُّ الأوصالَ (٩) ، ويُصَفِّرُ صفيرًا يرُشُّ البُزاقَ . ثُمَّ عمدَ إلى رأسي يَغسلُه ، وإلى الماءِ يُرسِلُه ، وما لَبِثَ أنْ دخلَ الأوَّلُ فحيَّا أخدَعَ الثاني بمَضمومةٍ قعقعَتْ أنيابَه (١٠) ، وقالَ: يا لُكَعُ ما لكَ ولهذا الرَّأسِ وهُوَ لي . ثُمَّ عطفَ الثاني على الأوَّلِ بمَجموعةٍ هتكَتْ حِجابَه (١١) ، وقالَ: بلْ هذا الرأسُ حقِّي ومِلكي وفي يدي . ثُمَّ تلاكَما حتَّى عَيِيَا ، وتحاكَما لِما بَقِيَا، فأتيَا صاحبَ الحمَّامِ . فقالَ الأوَّلُ : أنا صاحبُ هذا الرَّأسِ، لأنِّي لطَخْتُ جَبينَه ، ووضعْتُ عليهِ طينَه . وقالَ الثاني : بلْ أنا مالِكُه، لأنِّي دلَكْتُ حامِلَه ،وغَمزْتُ مَفاصِلَه. فقالَ الحمَّاميُّ: ائتوني بصاحبِ الرَّأسِ أسألْه:أَلَكَ هذا الرَّأسُ أمْ لَه.

---

(١) قفل : عـاد .

(٢) حلوان : مدينة قديمة في إيران .

(٣) الرقعة : المساحة .

(٤) حديد : حادّ .

(٥) مليًّا : وقتا طويلا .

(٦) السمت : الطريق .

(٧) قوامه : طوله وارتفاعه ، ويروى قوّامه : بمعنى المشرف عليه .

(٨) يكدّ العظام : يرهقها ويتعبها .

(٩) الأوصال : الأعضاء والمفاصل .

(١٠) الأخدع: عرق في صفحة العنق ، والمضمومة : اليد إذا انطبقت أصابعها ، وقعقعت : أحدثت صوتا .

(١١) المجموعة : مثل المضمومة : والحجاب : المراد به هنا القوة وهتكت حجابه : كشفت ضعفه .

فأتَيانى وقَالاَ : لنَا عندَكَ شهادَةٌ فتجشَّم(١) . فقمتُ وأتَيتُ ، شِئتُ أم أبيتُ . فقَالَ الحَمَّامىُّ : يا رَجُلُ لاَ تقُلْ غيرَ الصدْقِ، ولاَ تشْهدْ بغيْرِ الْحَقِّ. وقُلْ لى هذَا الرَّأسُ لأيِّهِمَا. فقُلْتُ: يا عَافَاكَ اللّهُ هذَا رأسِى قَدْ صحبَنى فى الطَّرِيقِ، وطَافَ معِى بالْبَيْتِ الْعَتيقِ، ومَا شككْتُ أنَّهُ لى. فقَالَ لى: اسكُتْ يَا فضُولىُّ، ثُمَّ مَالَ إِلَى أحَدِ الخصْمَيْنِ فقَالَ: يَا هذَا إِلَى كَمْ هذه الْمُنَافَسَةُ مَعَ النَّاسِ بهذَا الرَّأسِ، تسَلَّ عَنْ قَلِيلِ خطَرِه(٢) ، إِلَى لَعْنَةِ اللّهِ وحَرِّ سقَرِه، وهَبْ أنَّ هذَا الرَّأسَ ليْس(٣) ، وأنَا لَمْ نرَ هذَا التَّيْسَ . قَالَ عيسَى بْنُ هِشَامٍ : فقُمْتُ منْ ذلكَ الْمكَانِ خجلاً ، ولَبِسْتُ الثِّيَابَ وَجلاً، وانسَلَلْتُ منَ الْحمَّامِ عجِلاً، وسَبَبْتُ الْغُلاَمَ بالْعَضِ والْمَصِّ، ودَقَقْتُهُ دَقَّ الْجصِّ، وقُلْتُ لآخرَ: اذْهَبْ فأْتنى بحجَّامٍ يَحُطُّ عنِّى هذَا الثِّقَلَ، فجَاءنِى برَجُلٍ لَطيفِ الْبِنْيَةِ(٤) ، مَلِيحِ الْحِلْيَةِ(٥) ، فى صُورَةِ الدُّمْيَةِ، فَارْتَحْتُ إِليْه. ودَخلَ فقَالَ: السَّلاَمُ علَيْكَ، ومِنْ أى بلَدٍ أنْتَ؟ فقُلْتُ: مِنْ قُمٍّ(٦) . فقَالَ: حيَّاكَ اللّهُ، مِنْ أرْضِ النِّعمَةِ وَالرَّفَاهَةِ، وبلَدِ السُّنَّةِ وَالْجمَاعَةِ، ولَقَدْ حضَرْتُ فى شهْرِ رَمضَانَ جَامِعَهَا وقَدْ أُشْعِلَتْ فيهِ الْمصَابِيحُ، وأُقِيمَتِ التَّرَاوِيحُ، فمَا شَعَرْنَا إلاَّ بمَدِّ النِّيلِ، وقَدْ أتَى عَلَى تلْكَ الْقَنَادِيلِ. لكِنْ صنَعَ اللّهُ لِى بخُفٍّ قَدْ كُنْتُ لبِسْتُهُ رطْبًا فلَمْ يحْصُلْ طِرَازُهُ عَلَى كُمِّه(٧) ، وعَادَ الصَّبِىُّ إِلَى أُمِّهِ ، بعْدَ أنْ صلَّيْتُ الْعَتَمَةَ(٨) ، واعْتَدَلَ الظِّلُّ. ولكِنْ كيْفَ كَانَ حجُّكَ هَلْ قضَيْتَ مَنَاسِكَهُ كَمَا وَجَبَ؟ وصَاحُوا: الْعجَبَ الْعجَبَ. فنَظَرتُ إِلَى الْمنَارَةِ، ومَا أهْوَنَ الْحرْبَ علَى النَّظَارَةِ(٩) ، ووجَدْتُ الْهرِيسَةَ عَلَى حَالِهَا . وَعلِمْتُ أنَّ الأمْرَ بقَضَاءٍ مِنَ اللّهِ وقَدَرٍ، وَإِلَى متَى هذَا

(١) تجشم : تحمل المشقة .

(٢) الخطر : القدر والمنزلة .

(٣) أى ليس موجوداً .

(٤) البنية : الجسم .

(٥) الحلية : الهيئة والصورة .

(٦) قم : مدينة إيرانية .

(٧) الطراز : علم الثوب ، والخف لا طراز لـه ولا كم .

(٨) العتمة : صلاة العشاء ، وواضح ما فى الكلام من الهذيان وعدم الترابط .

(٩) النظارة : المشاهدون .

الضَّجَرُ، والْيَوْمُ وغَدٌ، وَالسَّبْتُ وَالأَحَدُ، ولاَ أُطِيلُ، وَمَا هذَا الْقَالُ وَالْقِيلُ. ولَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ تعْلَمَ أَنَّ الْمُبَرِّدَ (١) فِى النَّحْوِ حَدِيدُ الْمُوسَى، فَلاَ تَشْتَغِلْ بِقَوْلِ الْعَامَّةِ، فَلَوْ كَانَتِ الاسْتِطَاعَةُ قَبْلَ الْفِعْلِ لَكُنْتُ قَدْ حَلَقْتُ رَأْسَكَ. فَهَلْ تَرَى أَنْ نَبْتَدِئَ ؟ قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَبَقِيتُ مُتَحَيِّرًا مِنْ بَيَانِه فِى هَذَيَانِه، وَخَشِيتُ أَنْ يَطُولَ مَجْلِسُهُ فَقُلْتُ: إِلَى غَدٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَسَأَلْتُ عَنْهُ مَنْ حَضَرَ فَقَالُوا: هذَا رَجُلٌ مِنْ بِلاَدِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، لَمْ يُوَافِقْهُ هذَا الْمَاءُ، فَغَلَبَتْ عَلَيْهِ السَّوْدَاءُ. وَهُوَ طُولَ النَّهَارِ يَهْذِى كَمَا تَرَى وَوَرَاءَهُ فَضْلٌ كَثِيرٌ. فَقُلْتُ: قَدْ سَمِعْتُ بِهِ وَعَزَّ عَلَىَّ جُنُونُهُ. وَأَنْشَأْتُ أَقُولُ :

أَنَا أُعْطِى اللَّهَ عَهْدًا ... مُحْكَمًا فِى النَّذْرِ عَقْدَا
لاَ حَلَقْتُ الرَّأْسَ مَا ... عِشْتُ وَلَوْ لاَقَيْتُ جَهْدَا (٢)

---

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، صاحب كتاب « الكامل ».

(٢) الجهد : التعب والمشقة .

المقامة الإبليسية

حدثنا عيسى بن هشام قال: أضللت إبلاً لي (١) فخرجت في طلبها، فحللت بوادٍ خضر، فإذا أنهار مصردة (٢)، وأشجار باسقة، وأثمار يانعة، وأزهار منورة، وأنماط (٣) مبسوطة، وإذا شيخ جالس. فراعني (٤) منه ما يروع الوحيد من مثله، فقال: لا بأس عليك، فسلمت عليه وأمرني بالجلوس فامتثلت، وسألني عن حالي فأخبرت. فقال لي: أصبت دالتك (٥)، ووجدت ضالتك، فهل تروى من أشعار العرب شيئاً؟ قلت: نعم، فأنشدت لامرئ القيس وعبيد ولبيد وطرفة (٦) فلم يطرب لشيء من ذلك وقال: أنشدك من شعري. فقلت له: إيه. فأنشد:

بانَ الخليطُ ولو طُوّعتُ ما بانا ... وقطّعوا من حبالِ الوصلِ أقرانا (٧)

حتى أتى على القصيدة كلها. فقلت: يا شيخ هذه القصيدة لجرير قد حفظتها الصبيان، وعرفها النسوان، وولجت الأخبية (٨)، ووردت الأندية. فقال: دعني من هذا، وإن كنت تروى لأبي نواس شعراً فأنشدنيه فأنشدته:

لا أندبُ الدهرَ ربعاً غيرَ مأنوسِ ... ولستُ أصبو إلى الحادين بالعيسِ (٩)
أحقُّ منزلةٍ بالهجرِ منزلةٌ ... وصلُ الحبيبِ عليها غيرُ ملبوسِ (١٠)

(١) أضللت إبلا: ضاعت مني.
(٢) مصردة: يجرى ماؤها متقطعا.
(٣) أنماط: جمع نمط، وهو البساط.
(٤) راعني: أفزعني.
(٥) دالتك: الذى يدلك على ما فقد منه.
(٦) امرؤ القيس بن حجر وعبيد بن الأبرص ولبيد بن ربيعة وطرفة بن العبد من كبار شعراء الجاهلية.
(٧) بان: فارق وارتحل. الخليط: القوم الذين ترتبط أمورهم. طوعت: أطعت. الأقران: جمع قرن وهو الحبل الذى يشد به البعيران معا.
(٨) الأخبية: جمع خباء وهو الخيمة.
(٩) الربع: الدار أو المحلة، وندب الربع: بكاه. غير مأنوس: غير مأهول بسكانه. العيس: الإبل.
(١٠) غير ملبوس: المراد غير ممكن.

يالَيْلَةً غَبَرَتْ مَا كَانَ أَطْيَبَهَا ... وَالْكُوسُ تَعْمَلُ فِي إِخْوَانِنَا الشُّوسِ (١)
وَشَادِنٍ نَطَقَتْ بِالسِّحْرِ مُقْلَتُهُ ... مُزَنَّرٍ حِلْفِ تَسْبِيحٍ وَتَقْدِيسِ (٢)
نَازَعْتُهُ الرِّيقَ وَالصَّهْبَاءَ صَافِيَةً ... فِي زِيِّ قَاضٍ وَنُسْكِ الشَّيْخِ إِبْلِيسِ (٣)
لَمَّا ثَمِلْنَا وَكُلُّ النَّاسِ قَدْ ثَمِلُوا ... وَخِفْتُ صَرْعَتَهُ إِيَّايَ بِالكُوسِ
غَطَّطْتُ مُسْتَنْعِسًا نَوْمًا لأُنْعِسَهُ ... فَاسْتَشْعَرَتْ مُقْلَتَاهُ النَّوْمَ مِنْ كَيِسِي (٤)
وَامْتَدَّ فَوْقَ سَرِيرٍ كَانَ أَرْفَقَ بِي ... عَلَى تَشَعُّثِهِ مِنْ عَرْشِ بِلْقِيسِ
وَزُرْتُ مَضْجَعَهُ قَبْلَ الصَّبَاحِ وَقَدْ ... دَلَّتْ عَلَى الصُّبْحِ أَصْوَاتُ النَّوَاقِيسِ
فَقَالَ مَنْ ذَا فَقُلْتُ القَسُّ زَارَ وَلاَ ... بُدَّ لِدَيْرِكَ مِنْ تَشْمِيسِ قِسِّيسِ
فَقَالَ بِئْسَ لَعَمْرِي أَنْتَ مِنْ رَجُلٍ ... فَقُلْتُ كَلاَّ فَإِنِّي لَسْتُ بِالْبِيسِ (٥)

(قَالَ) فَطَرِبَ وَشَهَقَ وَزَعَقَ، فَقُلْتُ: قَبَّحَكَ اللهُ مِنْ شَيْخٍ لاَ أَدْرِي أَبِانْتِحَالِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ أَنْتَ أَسْخَفُ أَمْ بِطَرَبِكَ مِنْ شِعْرِ أَبِي نُوَاسٍ، وَهُوَ فُوَيْسِقٌ عَيَّارٌ (٦). فَقَالَ دَعْنِي مِنْ هَذَا وَامْضِ عَلَى وَجْهِكَ فَإِذَا لَقِيتَ فِي طَرِيقِكَ رَجُلاً مَعَهُ نِحْيٌ صَغِيرٌ (٧) يَدُورُ فِي الدُّورِ حَوْلَ القُدُورِ، يَزْهَى بِحِلْيَتِهِ (٨) وَيُبَاهِي بِلِحْيَتِهِ، فَقُلْ لَهُ دُلَّنِي عَلَى حُوتٍ مَصْرُورٍ، فِي بَعْضِ الْبُحُورِ، مُخْطَفِ الْخُصُورِ (٩)، يَلْدَغُ كَالزُّنْبُورِ، وَيَعْتَمُّ بِالنُّورِ (١٠). أَبُوهُ حَجَرٌ، وَأُمُّهُ ذَكَرٌ، وَرَأْسُهُ ذَهَبٌ، وَاسْمُهُ لَهَبٌ، وَبَاقِيهِ ذَنَبٌ. لَهُ فِي الْمَلْبُوسِ عَمَلُ السُّوسِ، وَهُوَ فِي الْبَيْتِ آفَةُ الزَّيْتِ، شَرِيبٌ لاَ يَنْقَعُ، أَكُولٌ لاَ يَشْبَعُ، بَذُولٌ

(١) غبرت: مضت. الشوس: جمع أشوس وهو الذى ينظر بمؤخر عينيه كبرا.
(٢) الشادن: ولد الغزال، مزنّر: يلبس الزنار وهو الحزام الذى يربطه الرهبان حول وسطهم. حلف تسبيح: ملازم للتسبيح.
(٣) الصهباء: الخمر
(٤) مستنعسا: متظاهراً بالنوم، من كيسي: أصلها من كيْسى بفتح الكاف وهو خلاف الحمق وكسره للقافية.
(٥) بالبيس: بالمذموم الذى يقال فى حقه « بئس ».
(٦) العيّار: الذى يترك نفسه وهواها.
(٧) نحى: وعاء يوضع فيه السمن والعسل نحوهما.
(٨) الحلية: الهيئة.
(٩) مخطف الخصر: نحيله.
(١٠) اعتمّ: لبس العمامة.

لا يمنعُ ينمي إلى الصُّعود(١) ، ولاَ ينقصُ مالُه من جُودِ . يَسُوؤُكَ ما يَسُوءُكَ ، وينفعكَ ما يضرُّه(٢) وكنتُ أكتُمكَ حديثي ، وأعيشُ معكَ في رخاءٍ، لكنّكَ أبيتَ فخذ الآنَ: فما أحدٌ من الشُّعراءِ إلاّ ومعهُ معينٌ منّا، وأنا أمليتُ على جريرٍ هذه القصيدةَ وأنا الشيخُ أبو مُرّة(٣) ، قالَ عيسى ابنُ هشامٍ:ثمّ غابَ ولم أرَه ومضيتُ لوجهي فلقيتُ رجلاً في يده مِذَبّةٌ، فقلتُ: هذا والله صاحبي. وقلتُ له ما سمعتُ منه. فناولني مِسرجةً وأومأ إلى غارٍ في الجبلِ مظلمٍ فقالَ: دونكَ الغارَ. ومعكَ النارُ. (قال) فدخلتُه فإذا أنا بإبلي قد أخذتْ سمتَها(٤) . فلويتُ وجوهها ورددتُها. وبينا أنا في تلكَ الحالةِ في الغياضِ أدبُ الخَمَرْ(٥) إذ بأبي الفتحِ الإسكندريّ تلقّاني بالسَّلامِ. فقلتُ: ما حداكَ(٦) ويحكَ إلى هذا المقامِ؟ قالَ: جورُ الأيّامِ في الأحكامِ. وعدمُ الكرامِ من الأنامِ. قلتُ: فاحكمْ حكمكَ يا أبا الفتحِ، فقالَ: احملني على قَعُودٍ(٧) . وأرقْ لي ماءً في عُودٍ(٨) . فقلتُ: لكَ ذلكَ. فأنشأ يقولُ :

نفسي فداءُ محكّمٍ كلّفتُه شططاً فأسجحْ(٩)

ما حكَّ لحيتَه ولاَ مسحَ المخاطَ ولاَ تنحنحْ(١٠)

ثمّ أخبرتُه بخبرِ الشيخِ. فأومأ إلى عمامتهِ وقالَ : هذه ثمرةُ برّه . فقلتُ: يا أبا الفتحِ شحذتَ على إبليسَ إنّكَ لشحّاذٌ .

---

(١) ينمي : يرتفع .

(٢) الكلام عن الحوت لغز عن السراج ، كما أن الكلام السابق عن النحّى لغز عن المذّبة .

(٣) أبو مرة : كنية إبليس .

(٤) السمت : الطريق والوجهة .

(٥) الغياض : جمع غيضة وهى مجتمع الأشياء ، وأدبّ الخمر : أمشى محاذرا متخفيا .

(٦) وماحداك : ما ساقك وجاء بك .

(٧) القعود : بكر الناقة .

(٨) أى امنحنى ناقة أشرب لبنها .

(٩) الشطط : تجاوز الحد . أسجح : سمح وأحسن .

(١٠) البيت كناية عن الإسراع وعدم التلكؤ .

(وله أيضا إلى أبي النصر ابن المرزبان)

كنت أطال الله بقاء سيدى ومولاى ، في قديم الزمان أتمنى للكتاب الخير ، وأسأل الله أن يُدرّ عليهم أخلاف[١] الرزق ويمد لهم أكناف[٢] العيش ، ويوطئهم أعراف[٣] المجد ، ويؤتيهم أصناف الفضل ويركبهم أكتاف العز . وقصاراى[٤] أن أرغب إلى الله تعالي في أن لاينيلهم فوق الكفاية ، ولا يمد لهم في حبل الرعاية ، فَشَدّ ما يطغون للنعمة ينالونها ، والدرجة يعلـونها . وسرُع ما ينظرون من عال ، بما ينظمون من حال ، ويجمعون من مال . وتنسيهم أيام اللدونة[٥] أوقات الخشونة ، وأزمان العذوبة ساعات الصعوبة ، وللكتّاب مزية فى هذا الباب ؛ فبينا هم في العطلة إخوان كما انتظم السمط ،[٦] وفي العزلة أعوان كما انفرج المشط حتي لحظهم الجَدُّ[٧] لحظة حمقاء بمنشـور عمالـة ، أو صك جعالة[٨] ، فيعود عامر ودهم خرابا ، وينقلب شراب عهدهم سرابا . فمـا غلت أمورهم حتى أسبلت ستورهم[٩] ، ولا علت قدورهم إلا خلت بدورهم[١٠] ، ولا اتسعت دورهم إلا ضاقت صدورهم ، ولا أوقدت نارهم إلا انطفـأ نـورهم ، ولا زاد مـالهـم إلا نقـص معـروفـهم ، ولا ورمت أكيـاسـهم[١١] ، إلا ورمـت أنـوفـهـم ، ولاتجبلت عتاقهم[١٢] إلا فظعت أخلاقهم ، ولا صلحت أحوالهم إلاافسدت أفعالهم، ولا حسنت حالهم، إلا قبحت خِلالُهم ، ولا فاض جـاههم إلا غاضت مياهـهم ، ولا لانت برودهـم[١٣] إلا صلبت حدودهم ، ولا علت جدودهم[١٤] إلا سفل جودهم ، ولا طالت أيديهم إلا قصرت

---

(١) أخلاف : جمع خِلْف ، وهو حلمة ضرع الناقة ، وأدرّ أخلاف الرزق أكثر رزقه .

(٢) أكناف : جوانب ، جمع كنَف . (٣) العرف : المكان المرتفع .

(٤) القصارى: الجهد .

(٥) اللدونة : اللين .

(٦) السمط : الخيط الذي تنتظم فيه حبات العقد .

(٧) الجدّ : الحظ .

(٨) الجعالة : الأجر .

(٩) إسبال الستور : كناية عن اعتزالهم الآخرين .

(١٠) البدور : جمع بدرة ، والمراد الكيس الذي يوضع فيه المال .

(١١) ورمت أكياسهم : امتلأت ، كناية عن الغني ، وورمت أنوفهم : كناية عن الغضب .

(١٢) تبجلت عتاقهم : عظُم عتقاؤهم .

(١٣) البرود : الثياب .

(١٤) جدودهم : حظوظهم .

أياديهم[١] ، وقصارى أحدهم من المجد أن ينصب تخته[٢] تحتبه ، ويوطىء استه دَسْته[٣]. ، ويقف غلامه أمامه ، ونائبه من الكرم دار يصهرج[٤] أرضها ، ويزبرج[٥] بعضها ، ويزوق سقوفها ، ويعلق شفوفها[٦] ، وكفاه من الفضل أن تحمل الغاشية[٧] قدامه ، وتعدو الحاشية[٨] أمامه ، وناهيه من الشرف ألفاظ قفاعية[٩] ، وثياب مشقاعية ، يلبسها ملوما ويحشوها لوما ولوما[١٠] ، وهذه صفة فاضلهم . ومنهم من يحتمل الود أيام خشكاره حتى إذا أيسر جعل ميزانه وكيله ، وأسنانه إكليله[١١] ، وأليفه رغيفه ، وأنيسه كيسه ، وأمينه يمينه ، ودنانيره سميره ، ومفاتحه ضجيعه ، وصناديقه صديقه، ثم جمع الذَرّة إلى الذرة، ووضع البدرة على البدرة. فلم يضع النظر من طرفه ، ولا الصرة من كفه . ولا يخرج ماله من عهدة خاتمه ، إلا يوم مأتمه . فهو يجمع لحادث حياته ، أو وارث مماته ، يسلك فى الغدر كل طريق ، ويبيع بالدرهم ألف صديق . وقد كان الظن بصديقنا أبي سعيد أيده الله إنه إذا أخصب[١٢] آوانا كنفا من ظله ، وحبانا من فضله، فمن لنا الآن بعدله ، إنه أطال الله بقاء الشيخ حين طارت على رأسه عقاب[١٣] المخاطبة بالرئيس وجلس من الديوان فى صدر الايوان، افتض[١٤] عذرة السياسة ببعض المختلفة إلى وجعل يعرضه للهلاك ، ويسبب عليه بمال الأتراك ، ويشحن داره بالدجالة ، ويكده بالفرسان والرجالة ، وجعلت أكاتبه مرة وأقصد أخرى ، فأذكر له أن الراكب ربما استنزل ، والوالي ربما عزل ، ثم يجف ريق الخجل على لسان العذر ، وتبقى الحزازة في الصدر ، فلا وما يجمعني والشيخ إن زاده قولي إلا غلوا فى تهكمه ، وعلوا فى تحكمه ، وجعل يمسّى الجمر[١٥] فى ظلمه ، ويرأ إلى من علمه ، وأقول إذا رأيت ذلة السؤال وعزمة الرد منه :

(١) أياديهم : معروفهم وأفضالهم .
(٢) التخت : المقعد ، والسرير .
(٣) الدست : الوسادة .
(٤) صهرج : طلى .
(٥) زبرج : زيّن .
(٦) الشفوف : الأستار الرقيقة .
(٧) الغاشية : الخدم .
(٨) الحاشية : الإبل الصغيرة .
(٩) ألفاظ قفاعية : لا معنى لها .
(١٠) لوما : لؤمًا .
(١١) الإكليل : التاج .
(١٢) أخصب : كثر عشبه وخيره .
(١٣) العقاب : طائر من الجوارح .
(١٤) إفتض العذرة : أزال البكارة .
(١٥) يمسّى الجمر : يجعل النّار تمسّي .

قل لي متى فرزنت سرعة ما أرى يابيدق[1] وما أضيع وقتا بذكره قطعته ، هلم إلي الشوق وشرحه ، فقد نكأ القلب بقرحه ، وكيف أكاد أصف شوقا لا يفرع الدهر فروة[2] حاله ، ولا ينقض عروة انحلاله ، فما أولاني أن أذكره مجملا وأتركه مفصلا .

(وله إلى أبيه الشيخ أبي عبد الله الحسين بن يحيى)

كتابي أطال الله بقاء الشيخ، وللشيخ لذة في السب والعتب، وطبيعة في العنف والعسف[3] ، فإذا أعوزه من يغضب عليه فأنا بين يديه ، وإذا لم يجد من يصونه فأنا زبونه ، والولد عبد ليست له قيمة ، والظفر به غنيمة ، والوالد مولى أحسن أم أساء ، فليفعل ما شاء ، لا يعدمه الله مني جسدا لا يتألم بالضرب ، وقلبا لا يتظلم من العتب ، هنيئاً ما استحل من عرضي ، وأكل من لحمي ، فما يأكل إلاّ لحمه ، ولا يضيم إلاّ بعضه ، وأما البزاز وما حكاه فبالله ما أعرفه أوّلاً حتى أبرأ مما جناه ثانيا وسبحان من جرعني مرارة ذلك العذل[4] ، لحديث ذلك النذل ، ولست أدرى في أي صحائف المحن أثبتّ ما حكاه ، وفي أي جرائد الحكم أجزت مارواه ، وأمّا المنتظر وتأخره فالمودع ثقة وهو حاج لست أُخْبُر[5] أمره ، ولا أعرف عذره ، وإليّ إيابه ، وعليّ حسابه ، وعندي أنّ الولد أصغر قدرا من أن يعاتب ، والوالد أعظم منزلة من أن يجاوب . ولو شئت لأعلمته براءة ساحتي مما قرفني[6] ونسبني اليه، لكني أجد للمناظرة صفة المنافرة[7] ، وللمنافرة شكل

---

(١) البيدق والفرزان : قطعتان في لعبة الشطرنج وهما « الجندي » و « الملك » . وتفرزن البيدق : ترقّى إلى رتبة الفرزان .

(٢) الفروة : جلدة الرأس بشعرها ، وفرع الشعر : كثر .

(٣) العسف : الجور والظلم .

(٤) العذل : النوم .

(٥) أخْبُر : أعْلَمُ .

(٦) قرف : اتهَم .

(٧) منافرة : محاكمة .

المناكرة[١] ، فلا أطأ عتبة بينها وبين العقوق منزلة ، ولا أرد شـرعة[٢] بينها وبين الفسوق مرحلة ، فلا ألقاه بأبرّ من التوبة إن كنت فعلت ، والعفو إن كنت قلت ، وهذا أشبه بالنبوة ، وأحرى مع الأبوة . وأما أبو فلان فلا أشك أن كتابى يرد منه على صدر محا اسمى من صحيفته ، ونسى اجتماعنا على الحديث والغزل، وتصرفنا فى الجد والهزل ، وتقلبنا فى أعطاف[٣] العيش ، بين الوقار والطيش ، وارتضاعنا ثدى العشرة ، إذا لزمان رقيق القشرة ، وتواعدنا أن يلحق أحدنا بصاحبه ، آنس الرشد من جانبه ، وتصاحفنا من قبل ، أن لا يصرم الحبل ، وتعاهدنا من بعد ، أن لا ينقص الوعد .

وهل ذاكر من كان أقرب عهده ثلاثين شهرا أو ثلاثة أحوال[٤] وكأنى به وقد استجد إخوانا ولا بأس ، فإن كان للجديد لذة فللقديم حرمة ، والأخوّة بردة[٥] لا تضيق عن اثنين ، ولو شاء لعاشرنا فى البين ، وكان سألنى أن أرود له[٦] منزلا ماؤه روىّ ، ومرعاه غذىّ ، وأكاتبه لينهض إليه راحلته ، فهاك نيسابور ضالته التى نشدتها ، وقد وجدتها ، وخراسان منيته التى طلبتها ، وقد أصبتها ، وهذه الدولة بغيته التى أردتها ، فقد وردتها ، فإن صدّقنى رائدا فليأتنى قاصدا ، وإن رضينى مشيرا فليجئنى سريعا ، وهيهات أن يترك أروند وهضابها ، وترمذ وشعابها ، وماوسا[٧] ورياضها فيعتاض عنها كرم العهد ، ولو علم أن رياض الأخوة أنضر وشعاب المروءة أطيب وأنه لا يعدم من نيسابور مثل تلك المنتزهات وخيرا من تلك المتجهات لحث إليها ركابه ، وأما أنا

---

(١) مناكرة : محاربة .

(٢) الشرعة : الطريقة إلى الماء .

(٣) أعطاف : جوانب .

(٤) الأحوال : جمع حول وهو العام .

(٥) البردة : كساء من الصوف .

(٦) أرود : أطلب .

(٧) نيسابور ، وخراسان ، وأروند ، وترمذ ، وماوسا من بلاد فارس وما وراء النهر .

فى ثوب العافية ، موقر بهذه الحضرة ، مرموق(١) بعين القبول هذه جملة حالى ووراءها تفصيل ، منها عليه دليل . وأما الأخ أبو سعيد جعلنى الله فداءه ، ورزقنى لقاءة ، فقد شكرت بره ، ولولا إشفاقى من ضعف تركيبه ، ولطف ترتيبه ، وعلمى بأنه لا يحتمل وعثاء(٢) السفر لسألت الشيخ إهداءه إلىّ لا تولى تعليمه وتقويمه ، لكنه رطب العظام لطيف الأركان ، لا أخاطر بانهاضه من ذلك المكان ، حتى يعقد مخه فى عظامه وأثق بقوة ألواحه ، وبلغنى أنه ابتدأ بمجمل اللغة فأين بلغ منه ؟ والشيخ لا يحمل عليه بعويص اللغة حتى يعلم سهلها ، ولا يأخذه بما أخذنى به فالعمر لا يتسع للعلوم أجمع ، فلينفق على أحسنها ويكفيه من اللغة علم مستحسنها دون مستهجنها ، ومن الإعراب معرفة أصوله وما لا غناء به عنا من فروعه ، ثم يأخذ به علوم كتاب الله تعالى حتى يرد على قرة عين لى ولك وصلى الله على محمد وآله .

(وله رقعة إلى مستميح(٣) عاوده مرارا)

عافاك الله مَثَلُ الإنسان فى الإحسان مثل الأشجار فى الإثمار ، سبيل من أتى بالحسنة أن يَرَفّه (٤) إلى السنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدى ، وهما فؤادى ويدى ، أما الفؤاد فيعلق بالوفود ، وأما اليد فتولع بالجود ، ولكن هذا الخلق النفيس ، لا يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ، ليس يَحتمله الغريم(٥) ، ولا قرابة بين الأدب والذهب فلماذا جمعت بينهما ؟ والأدب لا يمكن ثرده(٦) فى قصعة ، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، ولى مع الأدب نادرة ،

---

(١) مرموق : مرعىّ .

(٢) الوَعْثاء : المشقة والتعب .

(٣) المستميح : طالب العطاء .

(٤) يُرفّه : يستريح ، ويُخفّف عنه .

(٥) الغريم : الدائن .

(٦) الثرد : فتّ الخبز وبلّه بالمرق .

جهدت في هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ من جيمية الشماخ[١] ، لونا فلم يفعل ، وبالقصاب أن يسمع أدب الكتاب فلم يقبل ، واحتيج في البيت إلى شئ من الزيت فأنشدت شيئا من شعر الكميت[٢] ألفاً ومائتي بيت فلم يغن ، ولو وقعت أرجوزة العجاج[٣] في توابل السبكاج[٤] ما عدمتها عندى ، ولكن ليست تقع ، فما أصنع ؟ فإن كنت تحسب اختلافك[٥] إليّ إفضالا[٦] عليّ فراحتي أن لا تطرق ساحتي ، وفرجي أن لا تجي ، والسلام .

(١) الشمّاخ بن ضرار من الشعراء المخضرمين .

(٢) الكميت بن زيد : من شعراء العصر الأموى عرف بتشيعه لأهل البيت وشعره فيهم .

(٣) عبد الله بن رؤبة ، الراجز الشهير .

(٤) السكباج : طعام يصنع من اللحم والخل .

(٥) الاختلاف : التردّد مرة بعد مرة .

(٦) الإفضال : التفضل والإحسان .

الوزير المغربى ت ٤١٨ هـ

فصل له من رقعة

فى الرد على كتاب وصله (١)

وقفتُ على كتابكِ ولم أزل ألثمُهُ ، كأنّي قد ظفرتُ باليد التى بعثتْهُ ، وأضمُّهُ كأنّى أضمّ الجوانحِ التى نفثته ، وكأنى كلمّا أدنيتهُ إلى الكبد المعذّبة ببعدك ، وأمررته على العينِ المطروفة بفقْدك ، سحبتُ على النار ذيلِ السحاب ، وسقيتُ عطشَ الحب كأسَ الرضاب ، وأعرتُ أخا سبعينَ ظلّ الشباب ، فأرّختُ يومَ قدومه لأجعلَهُ موسماً للسرور ، وعيداً باقياً عل الدهور ، أرتقبُ السعْدَ عنده كلّ عام ، وأنتظرُ الفرجَ منه من كلّ غرام ، واتّفقَ ورودُهُ فى أشْرَفِ فصول الدّهْر حَسَباً ، وأكرم مفاخرِ الأيام نَسَباً ، حين ابتدأ الربيع يزخرفُ بروده ، والروضُ ينظمُ عقوده ، وكنتُ أعرفُ هذا الفصلَ باعتدالِ منهاجه ، وصحّة مزاجه ، وأنه لو كان الزمنُ شخصاً لكان له مُقَبّلاً ، ولو أنّ الأيام غوانٍ لكان لها حُلِيّاً وَحُللاً ، لأن الشمسَ تخلصُ فيه من ظلمات حُوْت السماء ، خلاصَ يونسَ من ظلماتِ حوتِ الماءِ ، فإذا وَرَدَتِ الحملَ وافتْ أحبّ أوطانها إليها ، وأعزّ مساكنها عليها .

وفي فصل منها : فيا حُسْنَ تلك الصحيفة ومدادُهَا ينتْهَبُ بالأفواه ، ويزيدُ بالتقبيل لَعَساً فى الشّفاه ، ويا عجبا كيف حَفظَ مع بُعْدَ العهد نَشْرَ عَرْفك ، وكيفَ علقَ مع تراخى الأيام طيبَ كفك ، وكيف جاءَ كأنّكَ كتبتَهُ من أَمَم ، وأَنفذْتَهُ وبيننا خطوةُ قَدَم ، وكيف لم يغيره ما قطعَ من مهاولِ قفار ، وليلٍ ونهار ، وعدوّ كاشح ، ورقيبٍ لامح ، فأنعمْ به من ريحانة ألفاظٍ دامت

---

(١) الذخيرة : ق٤ ،ص ٤٩٦ .

لدونتها ، وباكورةِ وصالٍ سلمتْ غضوضتها [١] ، ومسحةِ يدٍ بَقِيَ أثرُها أرِجًا ، وروضةِ كلم دام على الصيف بهجتها [٢] .

وفى فصل منها : فأمّا سؤالُكَ عنّى فما يُشْبِهُ سيرتكَ الحسنى ، ولا يليقُ بطريقتك المثلى ، كيف تسألنى والإجابةُ معك ؟ وكيف تستخبرُنى ومحلّ الخَبَرِ والاستخبار عندك ؟ ومتى سمعتَ بجوابِ جَسَدٍ رهينة ؟ وأين رأيتَ طِماحَ عينٍ لواحظها مقيّدةٌ كليلة ؟ ألم أفارِقْكَ وقلبى عندك وأضلعى منه قفار ؟

ومن فصل له يصف الموصل حين وردها

وردتُ الموصل التى خالف اسمُها معناها ، وكانتْ مَقْطَعاً بيننا لولا خُدَعُ الأمانى ، وَفَصْلاً لولا المرجوّ من عفو الليالى ، فوجدتُ هواءَهَا يعطّلُ سوقَ بقراطَ اعتدالاً وطيبة ، وماءَها يُسْلى عن مُجاج النَّحلِ استمراءً وعذوبة ، وصقعها قد تَبَغْدَدَ رقةً ولطفا ، وجوهًا قد تزندق تنعّماً وظرفاً ، تكادُ تثقله عقودُ الغانيات ، ويُخْجله تتابعُ اللحظات ، كلّ شمأله نسيم ، وكلّ جنوبه حياً عميم ، ورأيت أرضَها أطيب الأرض خيماً ، وأزينها أديماً [٣] ، تُنْسَجُ بالسندس الأخضر ، وتفترّ عن الأُقحوانِ الأحمر ، وألفيتُ بنيانَها هو الذى حمده اللهُ فى تنزيله [٤] وأحبّه لنا أن نكونَ مثلَهُ جهاداً فى سبيله ، مَرْصُوصاً بِوَقَاحِ الجلمد ، ملاءماً بينه بالشّيد المرّد ، قد حُصّنَ ظاهره على باطنه عن تداخل الإبر ، ومساكنِ الذرّ ، يزلّ عنه ظُفُرُ الطائرِ ، وتتدحرجُ عليه أحداق [٥] الناظر ،

---

(١) ص : غضاضتها ، وهو عند بعض اللغويين جائز ، وأنكره على بن حمزة ، والالتزام به هنا غير ذاهب مع السجع .

(٢) كذا وردت العبارة فى ص ، ولعلها « دام على الصيف زهرها بهجا » أو ما أشبه .

(٣) ص : ديماً .

(٤) يعنى أنه بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً (انظر الآية ٤ من سورة الصف) .

(٥) ص : أكداه .

وتغنّى به العروسُ عن الماوىّ المنير [١] ، وتستبينُ به الجفونُ منابتَ الشكيرِ من أهدابها والغمير ، متلاقيةً أقطارُها على رجالٍ كأنهم أنسلاءُ عادٍ وَثَاقَةَ أجسام ، وصلابةَ أحلام ، وبُعْدَ مَرام ، لطفوا عن بدويةِ الشام وغلظته ، وجمدوا عن ذَوْبِ العراقِ وخلابته ، قد عُقِدَتْ ألسنتُهُمْ بالصدقِ فما ينتشرُ الباطلُ من عِذِباتها . وصحّتْ غرائسُهُمْ فى المودّة فما يُجتنَى الغَدْرُ من ثمراتها ، إنْ سلماً فسلماً وإنْ حرباً فحرباً ، لا يعرفون تدليسَ الأخلاق ، ولا تمويهَ النفاق ، وشعراؤهم [٢] ملء اليدين ، وكتّابهم أثرٌ بعد عينٍ ، أدبهم (حسن) [٣] على قلة الملوكىّ فيه ، وعلمهم مُتْقَنٌ لمن تأمّلَ أدقّ مسربٍ [٤] فى فِتَنِ معانيه ، قد محّص تهذيبُ المحنِ شرارَهُمْ وأَوْهَنَ خيارهم ، بَلَدُهُمْ أطلالٌ ، وأحوالهم آل ، قويُّهُمْ يئنّ ضعفاً ، وضعيفُهُمْ يماطلُ حتْفاً ، بقِيَتْ عليهم أسمالُ النعم وذهب الدهرُ بأجسامها ، وانجلت عنهم ظُلَلُ المحنِ وهم يتأوهون من غير آلامها ، إلا أنّ فيهم بقيّةً نقيّة ، وفيهم موضعُ تداركٍ إن رُزقوا سيرةً مرضيّة ، فلولا ما أَرْجُو من مداواة أسقامهم ، وإعادة صالحِ أيامهم ، لقضانى الانتماء بمعايشتهم قبل معاناتهم ، وبملاحظتهم قبلِ مقاساتهم ، لكنّى أعلمُ أنّ من يحيى العظامَ وهى رميم ، ويبعث [٥] الروضَ وهو هشيم ، وينشىء [...] بعد ماكانت قفاراً ، ويجعلُ من الشجرِ الأخضرِ ناراً ، قادر على أنْ يجعلَ ثوابَ نيّتى فيهم معونتى على ما أنويه لهم ، وجزاءَ تأمّلى بهم بلوغ الغرضِ فى تداركِ رمَقِهِمْ .

---

(١) الماوىّ : حجر البلور أو المرآة .

(٢) ص : وسفراؤهم .

(٣) ليس فى موضعها بياض فى ص .

(٤) ص : متقن من . . . مسرباً .

(٥) ص : ويبلي (دون إعجام) .

رسـالته إلى أبي العـلاء أحمد بن عبد الله بن سـليمان المعري وأخيه (١)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

هذه أطال الله لسيديّ الشيخين في سبوغ النعمة البقاءَ ، وأدام لهما في ذروة المجد الارتقاءَ ، وجعلني لهما من كل سوء الفداء والوقاء ، نفثةُ مصدور ، وضجرةُ مأسور ، بَعَثَتهما صَبابةُ هوى تذكيها نارُ الغرام ، في صبابة لقاء تُقلّها أيدي السلام :

بقـيــةُ شِلْوٍ كَـشّـر البَـيْـنُ عَظْمَـهُ ومـزّقَ جلداً كـان يستـر مـا بقي
أقـام فـلا تلك الخـوافي تطيـعـهُ نهـوضـاً ولا تلك القـوادم ترتقي

ولا بدّ للمصدورِ أن ينفث ، ولاغرو للمأسور أن يتلهث ، وجملتها ، أني كتبتُ ومالي جارحةٌ إلا وهي جريحةُ حبهما ، ولا جانحةٌ إلاّ وهي جانحة إلى قربهما ، ولا قلبَ إلا وهو كيفما تردّد وتقلّب ففي مرضاتهما ، ولا نفَسَ إلاّ وهو كيفما تَصَعّدَ وتصوّبَ ففي موالاتهما ، فالله يحرس مُوقِدَيْ جَزْلَ الغضا بين جنبيّ ، ومُوقَدَيْ جيش الصبابة كلّ يومٍ إليّ ، اللذين إن واجهتُ بهما المروءةَ أسفر مربدّاه ، وسرّ مكمدّها ، وإن قابلت بهما الفتوة طلع سَعْدُها وأورى زَنْدُها :

أردّدُ فـيـهـمـا فكري فـتـرجعُ حُـسّـراً فِكَري
كـذاك الشـمسُ تثني العَـيْـنَ مُـعْـشـاةً عن النـظر

فإذا هاجتْ بلابلي ذكراهما ، وإن كنت لا أنساهما ، واشتقت أن أراهما ، ولم أجد عوضاً ممن سواهما :

---

(١) انظر رسائل المعري ١ : ٢٥١ ، تحقيق إحسان عباس .

أرومُ بالذكر شفاءَ الذى يُقْلقنى من لوعة الذكر
ولست بالحاصل إلاّ على إطفاء جمر بلظي جمر
وعلة الكون إذا طولبت بالجرى فى الإفساد لَمْ تجر

مثلت نفسى لديهما ، وقررت مكانها بين أيديهما :

وخلوتُ أجْتَلِبُ الرّقادَ لعلنى أُلْقَى خيالاً منهما فأراهما
فإذا عدمتَ النوم لُذْتُ بفكرتى فانجاب لى من ليلتى فجراهما
وإذا سئلت بمن تهيم صبابةً قلتُ اللذان هما اللذان هما هما

الموفيان بعهدى بالغيب ، والساتران لما فيّ من عيْب ، والمحسنان إلى إذا أسأت ، والمصيبان فى أمرى إذا أخطأت :

دليلاى إن جار بى مُهْتَد وعَوْنَاىَ إنْ خَذَلَ الناصرُ
ولولا تردد فكْرِيهما لما كان لى فى الدجى سامر

من أجْتلى غُرَرَ محاسنهما من جَبَهات الدهر ، وأقرأ فضائلهما فى صحائف العصر وأطالعُ طلعتيهما فى مرآة وأشاهد سمتيهما بعين التفكر والتأمّل ، ولا غرو وإن بعد العهد ، إذا قرب الودّ ، ولا ضيرَ إن تناءَت الاشباحُ ، فقد تدانت الأرواح :

ولكنْ إذا حاسبتُ نفسى تأملتْ فلم تَرَ إلاّ فكرةً قلّ ما تجدى
فلا العين ترعي غير ما كان من نوىً ولا القلب يلقي غيرَ ما كان من وجد
وإنى لجانى البعد والبعدُ قاتلى وشاحذُ حدّ البين والبينُ لي مردى
فوا أسفا من ذا ألومّ علي النوى ومن قبلى كان الفراقُ ومن عندى
وكم قدْ أقلْت الدهرَ من خطأ ثُنىً فهلاّ أقال الدهرمن خطأ فرد
فنفّسَ من كربِ وفرّج من أسىً وجمّعَ من شتٍّ وقرّبَ من بعد

وهيهات هو الدهر الذى يسرّ نادراً ويسوء مبادراً ، ويحسن مبتدئاً ويسوء آخراً :

ويجودُ ثم يُجيدُ أخذُ صلاته   مستدركاً خطأ الجميل فمُدْرِكا
فإلى الزمانِ أذمّ ما ألقاه من   غيَرِ الزمان وأستنيمُ إلى البكا
وإذا شكوت إلى سواه صنيعَهُ   لم يُشكنى فإليه منه المشتكى

فلعلّه أن يغلطَ باجتماع ، لا يكدّره انصداع ، أو تلاق لا ينغصه افتراق ، وهو المرجوّ من طول الله تعالى . ولولا ما أرجوه من عَوْدَه إلى ما عود من جمع الفريقين ، ولمّ ذات البين ، لمتّ كمداً ، ولم أجد على ما أقاسيه جلَداً . فأما حالى وما أنا عليه ، فجملتها أنى أصبح وأمسى فى غلّ التدبير ، وأروح وأغدو فى سجنِ المقادير ، هدَفاً لسهام الليالى والأيام ، وغرضاً لأسنة الأحوالِ والأعوام ، أجدُ ما لا أريدُ ، وأريد ما لا أجد :

وليتنى من زمانى   خرجتُ راساً براسِ
فلم ينلنى بخير   ولم يصبنى ببأسِ
وكنت أصبح حراً   بين ارتجاءٍ وياسِ

وهما يريان ذلك فى اضطراب خطى ، ورجوع ألفاظى شيئاً فشيئاً إلى خُطَى ، فإذا هما صرفا التأمّلَ إلىّ ، وأقبلا بكليّة فهمهما على ، وجدانى :

وقد استحال الهم بى فتخالنى   من طول ما أجد الجوى مسرورا
وقد انطوتْ منّى الضلوعُ على أسىً   لو كان محسوساً لكان سعيراً

وأَخْلِقْ بمن كانت هذه صفته ، أن تتساوى عنده الصحّة والسقم ، وأحْرِ بمن كان هذا نعته أن يتماثل لديه الراحةُ والألم :

بأىّ فؤادٍ أقاسى الهمومَ   وفى أىّ جَفْنٍ أحسّ السهادا
وما ترك الدمُ لى مقلةً   ولا خلّفَ البينُ عندى فؤادا

وأنا مع كمال هذه الأحوال أخاشنُ الحجر ، وأحاسن القمر وأفاضل الهجانَ بالهَجَن ، وأفضّلُ الغثَاثةَ على السّمَن :

أتعاطى نزح الركيّ وقد قصّر عن أن ينالَ ماءً رشاءُ
ولعهدى بفكرتي وهي تنجاب بها عن صباحها الظلماءُ
غير أنى إن تعاورني الهمّ وشاءَ الزمانُ ما لا أشاء
ورماني مستيقناً أن قلباً بين جنبيّ صخرةٌ صمّاء
لا أبالي بالليل طالَ أم اليوم ، كلا الرتبتين عندى سواء
والمغادى هو المراوح من همى فهذا الصباحُ ذاك المساء
وإذا العينُ لم تعاينْ سوي السّوء فسيّان ظلمةٌ وضياء
وابنى الهمّ لا ابنه أنا إذ كل ابن هم بليّةٌ عمياء

وبعد فهذا – أدام الله عزّ سيدىّ الشيخين – قولٌ أستغفر الله منه ، وأسأله التجاوز عنه ، وأسلم للمحتوم فى أمره ، وأرضى بقدره فى خيره وشرّه ، وأسأله الجمع بينى وبينهما على حالٍ تسر الوليّ وتسوء العدو بحوله وطوله ، إنه ولى الإجابة والقادر عليها ، إن شاء الله تعالي .

رسالة أبى القاسم إلى السادة القادرية وقد طعن عليه فى مذهبه ونسب إلى الاعتقاد بالمذهب المصرى والتديّن به (١) :

الدهر أبو العجائب وذو الغرائب ، إلا أنى ما ظننته يبْدعُ هذه البدعةَ الشنعاء ،ولا ظننته يطرقُ هذه الظنةَ النكراء . وينبغى أن أنزل عن الاحتجاج للملك – أدام الله بقاءه – وأعز نصره ولواءه – والمؤتمن على تدبيره والسفير بينه وبين عسكره – أدام الله تمكينه فإن الله يعلم ، والناسُ يعلمون خلوصَ نياتهما فى الطاعة ، وبُعْدهما من هذه الشناعة ، فإن تشاغلى بما يخصّنى من هذه الحال التى ظننت أن العَرْضَ على الله يسبقها وأن المعتقدَ المقدّس قد استحكم فى الثقة استحكاماً يُقْصِر أيدى اللئام عن صياغة مثلها لى ، فإن كان يظن أن ما وُسِمْتُ به من النسب المستعار ، يحملنى على الازورار ، إلى بغداد ، وكان جدّ أبى وهو أبو الحسن على بن محمد يخلفُ على ديوان المغرب ، فنسب به إلى المغربى ، وولد له جدى الأدنى ببغداد فى سوق العطش، ونشأ وتقلد أعمالا كثيرة منها تدبيرمحمد بن ياقوت عند استيلائه على أمر المملكة.

(١) بغية الطلب ٥ : ١٦ – ١٧ ، وذكر ابن العديم أنه حذف من آخرها ما لا حاجة إليه .

وكان خال أبى وهو أبو على هارون بن عبد العزيز الأوارجى المعروف الذى مدحه المتنبى متحققاً بصحبة أبى بكر محمد بن رائق . فلما لحق أبا بكر ابن رائق ما لحقه بالموصل سار جدىّ وخال أبى إلى الشام والتقيا بالإخشيد ، وأقام والدى وعمى رحمهما الله بمدينة السلام وهما حدثان إلى أن توطدتْ أقدامُ شيوخهما بتلك البلاد ، وأنفذَ الإخشيد غلامه المعروفَ بفاتكٍ المجنون الممدوح المشهور فحملهما ومن يليهما إلى الرّحبة ، وسار بهما على طريق الشام إلى مصر ، فأقامت الجماعة هناك إلى أن تجددتْ قوة المستولى على مصر ، فانتقلوا بكلّيتهم وحصلوا فى حيّز سيف الدولة أبى الحسن بن حمدان مدةَ حياته ، واستولى جدّى على أمره استيلاءً تشهد به مدائح أبى نصر ابن نباته فيه ،ثم غلب أبى من بعده على أمره وأمر ولده غَلَبةً تدل عليها مدائح أبى العباس النامى فيه ، ثم شجر بينهما ما يتفق مثلُه بين المتصاحبِين فى الدنيا ففارقه من الرحبة ، وانحدر إلى الأنبار قاصداً مدينة السلام ،فلما حصل بالأنبار وجد العراقَ مضطرباً ، وبهاء الدولة رحمه الله فى أول أمره غالباً ، فخُوّفَ من المقام ، فركب مغرّراً بنفسه قاصداً إلى الشام ليتمكن من تَعَرّفِ أخبارنا ، وافتكاك إسارنا ، فإنا كنا بحلبَ معوّقين من بعده ، فلقى بمصر الحظوةَ التى عُرِفَتْ ، وليتها ما اتفقت ، فإن ختامَها كان سمّاً زعافاً وعقباها كان بواراً واجتياحاً ، وانتقلتُ فى أثره ، وكانت والدتى من أهل العراق ، ولنا إلى اليوم أملاك بالنعامية موروثة ، فكنا بمصر زوّاراً ، وبالعراق لما انتقلنا إليها قاطنين وألّافاً ، فهذا أولاً حديث الأصل الذى وقع الاشتباهُ ، وتمّ التمويه فيه .

ثم أرجعُ إلى ذكر الدين : فإنى نشأتُ وَغُذيتُ بكتب الحديث وحفظ القرآن ، ومشافنة الفقهاء ومجالسة العلماء ، ووالله ما رأيت قطّ بتلك البلاد مأدبةً ولا وليمةً إلاّ لمقرئين ، ولا كنتُ متشاغلاً إلا بعلم أو دين ، ولقد سلمَ لى من جزازاتِ كتبى ما هوُ اليوم دالّ على تشاغلى بالدين القيّم ، واستمرارى على النهجِ الأسلم ، لأنه ليس كتابٌ من كتب السنة إلاّ وقد أحطتُ به روايةً ودراية ، وها هنا اليوم نسختان من موطأ مالك سماعى من جهتين ، وعليهما خطوطُ الشيخين ، والصحيحان لمسلم والبخارى وجامع سفيان ، ومسانيد عدة من التابعين . ولى – وأحمد الله – إملاءاتٌ عدةٌ فى تفسير القرآن وتأويله وتخريجاته من الصحاحِ المذكورة ، وسمعتُ كتابَ المزنى عن الطحاوى عن المزنى . وأما الأحاديثُ المنثورة التى كنتُ أبكّر بكورَ الغراب لاستماعها ، وأطرحُ زينةَ الدينا فى مزاحمة أشياعها ، فأكثر من أن تُحْصىَ ، فكيف يُظَنّ بمثلى مّمنْ ظهر تماسكه إن كان لم يظهرْ باطنه تعلّق بالهباء المنثور ، وتمسّكَ بالضلال والزور ؟ ! . . .

خطبة له بين يدى الحاكم

وقف أبو القاسم الحسين بن على المغربى خطيباً بين يدى الحاكم فقال [١] : السلام على أمير المؤمنين بقدر استحقاقه من ربّه ، لا بقدر مقال عبده ، ولا زالت الدنيا بعزّه حاليةَ الأجياد ، والأعوامُ بسناء دولته مصقولةَ الأطراف ، حتى تعودَ الأعيادُ بين أيامه فى عموم المسرّة وإشراقِ نور الخلافة ، وحتي أقفَ بين يديه خطيباً بنعمة الله جل وعزّ فى إنجاز ما وعده من مُلْك المشرقين والمغربين ، وحتي أري سيوفَ انتقامه تشكو الظماء وتتعلّلُ بالأمانى ، لا عدوّاً أبقيت بتلهلها علقاً (؟ ؟ ولا عن باغٍ ذهلت ، رويت برويها دماً صبيباً) . (كذا) .

هذا الطاغى ملك الروم بقسطنطينية قد كان خرّقَ إزارَ السلم ، وهتكَ حجابَ الأمن ، وأطلقَ مقال الحرب ، وظنّ ما أجري من الحديد ، وصوّبَ من مجارى الجنود ، عاصماً له من جُنْدِ اللّهّ وملائكته المسوّمين ، وستراً علي ما أنزله الله من الفتح المبين ، حتي ضعضعه زلزالُ الحروب ، وأذابته نارُ الوقائع ، فعاد يفتلُ حَبْلَ الهدنة ، ويمدّ إليك أميرَ المؤمنين كفَّ الرغبة ، فلمّا أفرشته مراقد الإمهال ، وأسكنته تحت ظلّ القرار ، عاد يسترى ويمترى ، فهبّ يشغب قصد القنا ، ويستنّ فلولَ القضب ، فكيف بنبشِ الرسم وإحياء الموتي ، ألا وإنى أقول لكم ياقومنا معشرَ أنصار أمير المؤمنين ، كما قال أخو خزاعة :

قاتلوا القومَ يا خزاعَ ولا يدخلْكُمُ من قتالهمْ فَشَلُ
القومُ أمثالكم لهم شَعَرٌ فى الرأسَ لا يُنْشَرون إنْ قُتلوا

(قاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةُ ويكونَ الدينُ كُلُّهُ لله) (البقرة : ١٩٣) .

(ولاتَهِنُوا فى ابتغاء القومِ إنْ تكونوا تألمون فإنّهمْ يألمونَ كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون) (النساء : ١٠٤) و (عسى أن يكونَ رَدِفَ لكم بعضُ الذى تستعجلون) (النمل : ٧٢) .

هلمّوا رحمكم الله ، هلمّوا نصركم الله ، هذا بابُ الزلفى مفتوح .

---

(١) الدواداري : الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية (الجزء السادس من كنز الدرر) تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٦١) ص ٣٠٩ - ٣١٢ ، وقال المؤلف : وهذه الخطبة لم تثبت فى رسائل أبى القاسم إلا أنها ثابتة فى سيرة الحاكم . قلت : والنصّ فيه اضطراب وتصحيف كثير .

أبو الفرج الببغاء - ٣٩٨ هـ

أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد النصيبي ، من أهل نصيبين في جزيرة ابن عمر ، وكان يعرف أيضا بالحنطي ، وبالمخزومي وإن لم يكن من بني مخزوم ، ولد في نصيبين ، حيث نشأ وتعلم ، وكان من بين أساتذته الشاعر النامي ، وقد تتلمذ عليه الببغاء ، وروى عنه بعض أماليه ، ولُقّب « بالببغاء » ، واشتهر بهذا في الأوساط الأدبية ، حتى طغا اللقب على اسمه ، وذلك للثقة في لسانه أو لفصاحته ، وقد التقى في حلب بسيف الدولة ، وأعجب هذا به ، وضمه إلى قافلة شعرائه ، ثم عمل كاتبا في ديوان سيف الدولة ، ورسائل الببغاء في سيف الدولة كثيرة ، وقصائده في مدحه عديدة .

وما لبث أن ترك حلب وتوجه إلى العراق ، واستقر في الموصل ، ثم انتقل في أواخر حياته إلى بغداد . وصف البغدادي في تاريخ بغداد الببغاء بأنه شاعر مجود ، وكاتب مترسل ، مليح اللفظ ، جيد المعاني ، حسن القول ، في المديح والغزل ، والتشبيه والأوصاف وغير ذلك .

وفنون النثر عن الببغاء نوعان : نثرية متنوعة غير الرسائل ، من أقاصيص وحكايات طويلة ، وأخبار أتت على هيئة قصص قصيرة أحيانا ، ثم الرقاع والمساجلات .

والنوع الثاني ، وهو الأكثر شهرة : الرسائل الفنية بنوعيها ، الديوانية والإخواني .

من رسالة له إلى سيف الدولة الحمداني

الرياسةُ – أيّد الله سيّدَنا – حلة موموقة(١) ، ومرتبة مرموقة(٢) ، يتفاضل الناس فيها بقدر الهمم ، وينالونها بحسب مراتبها من الكرم ، فما تدرك إلاّ بالسماح ، ولاتملك إلا بأطراف الرماح ، ولاتتقمّص(٣) إلا بالحمد ، ولاتخطب إلا بلسان الجد . فكل من أدركها طلبا ، واستحقها بأفعاله لقبا من غير الدخول لسيدنا تحت شرف التعبُّد ، ورِقّة الإخلاص لاالتودّد ، فقد حرم نيل الكمال ، وعدل عن الحقيقة إلي المحال :

لأنه الغاية القصوي التي عجزت … عن أن تؤمل إدراكا لها الهممُ
ما تستحقُّ ملوكُ الأرض مرتبةً … في الفضل إلا له من فوقها قدم
زكاؤه إن دجا ليلُ الشكوك ضُحَيَ … وظلّه إن خطا صرفُ الرّدى حرم(٤)
فلو عدا الكرم الموصوف راحته … عن أن يجاوزها لم يكرم الكرمُ

(١) موموقة : محبوبة .

(٢) مرموقة : مطلوبة ، مرغوبة .

(٣) تتقمص : تلبس كما يلبس القميص ، والمراد تدرك وتنال .

(٤) صروف الردى : مصائبه ونوائبه .

(٥) السوام : معناه الإبل والماشية التي ترعي ، والمراد حفظه للرعية على جادة الدين .

الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطْرِق الدهرُ إذا نطق ، وينطق المجدُ إذا افتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناءُ أجمع مصروف إليه ، نهض بما قعدت همم الملوك عن ثِقْلِه ، وضعف الدَّهاِف عن معاناة مثله ، بهمم سيفيَّة ، وعزائم عَلَويَّة ، فرد شمل الدين جديدا ، وذميم الأيّام حميدا ، بحق أوضحه ، وخلل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده :

فلا انتزع اللهُ الهدي عزَّ بأسه ... ولا انتزع اللهُ الوغي عزَّ نصره
وأحْسَن عن حفظ النَّبِيِّ وآله ... ورعْي سوامِ الدين توفير شكره(٥)
فما تدرك المدّاحُ أدني حقوقه ... بإغراق منظومِ الكلام ونثره

لأن أدني نعمة تستغرق جماعَ(١) الشكر ، وأيسر منّة تفوت المبالغة في جميل الذكر . فإمّا هذا الفتح الشريفُ خطرُه ، الحميد أثره ، المشهور بلاؤه ، الواجب ثناؤه ، الباسق(٢) فرعه ، العامّ نفعُه ، فأشرفُ من أن يحدَّ بالصفات ، أو يعدَّ بأفصح العبادات ، لإجراء الله تعالى سيدنا فيه من نيل الإرادة ، على مشكور العرف والعادة ، فيما ابتسم فيه من ثغر الدين ، وشمل صلاحه كافّةَ المسلمين :

كأنما ادّخر الرحمن معظمةً ... دون الملوك لسيف الدولة البطلِ(٣)
رآه أكرمتهم في الخير إذ ذكروا ... وصفاً ، وأفضلَهم في القول والعملِ
فهزّه وظُبا الأسياف مغمدة ... واستلّه غير منسوب إلى الفللِ (٤)
حتى غدا الدِّين من بعد العبوس به ... جذلانَ يرفَل من نعماه في حُلَلِ (٥)
فلو تكلّم في حال وقيل له ... مَنْ خيرُ هذا الورى ؟ لم يُسْمِ غيرَ علي (٦)

---

(١) جماع الشكر : جميع أنواعه .

(٢) الباسق : العالى المرتفع .

(٣) المعظمة الأمر العظيم .

(٤) الظبا : جمع ظبة ، وهى حد السيف ، والفلل : انثلام حدّ السيف .

(٥) جذلان : فرح ، يرفل : يختال ويتبختر ، النعمى : الفضل ، والنعيم ، ولين العيش .

(٦) الورى : الخَلق ، على : سيف الدولة .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
رقم الإيداع ١٤٣٧٨ / ١٩٩٧
الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 235 - 962 - 6)



الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية